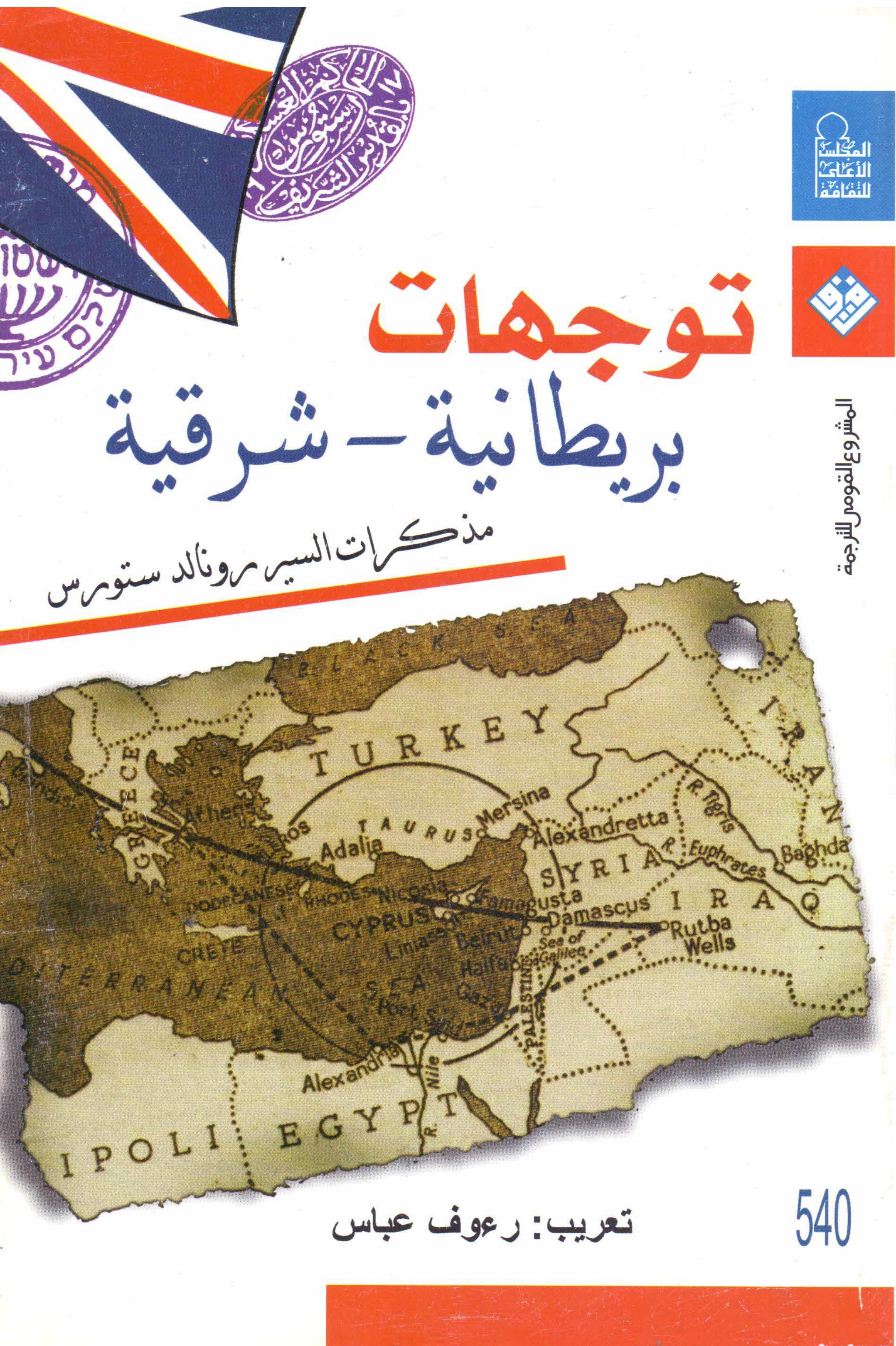


المجلس الأعلى للثقافة
توجهات
بريطانية - شرقية
مذكرات السير رونالد ستورس
المشروع القومي للترجمة
BLACK SEA
TURKEY
TAURUS
Mersina
Adalia
Alexandretta
R. Tigris
R. Euphrates
SYRIA
IRAQ
GREECE
Athens
DODECANESE
RHODES
Nicosia
Famagusta
Damascus
Rutba Wells
CYPRUS
Beirut
Sea of Galilee
Haifa
CRETE
SEA
PALESTINE
Alexandria
Nile
EGYPT
540
تعريب: رءوف عباس





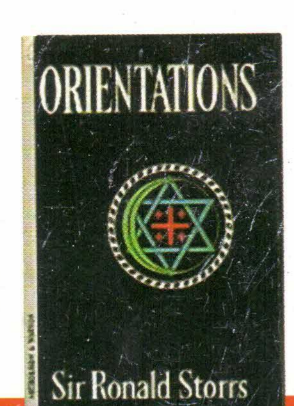
ORIENTATIONS

Sir Ronald Storrs

يعد هذا الكتاب - الذى يسعدنى تقديمه للمكتبة العربية - مصدرا أساسيا لدراسة مخططات بريطانيا وسياستها فى المشرق العربى فى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين. ويضم مذكرات السير رونالد ستورس (١٨٨١ - ١٩٥٥) الذى لعب دورا مهما فى توجيه صناعة القرار الخاص بالسياسة البريطانية فى المنطقة من خلال موقعه خبيرًا بالشئون العربية، تولى منصب "السكرتير الشرقى" بالقنصلية البريطانية فى مصر (١٩٠٨ - ١٩١٧)، وشغل منصب "الحاكم العسكرى للقدس" (١٩١٧ - ١٩٢٠)، ثم أصبح "حاكم القدس" فى ظل حكومة الانتداب (١٩٢٠ - ١٩٢٦)، ثم "حاكم عام قبرص" (١٩٢٦- ١٩٣٢)، وأخيرا، ترك المنطقة ليختم سجله الوظيفى "حاكما عاما لروديسيا الشمالية". وقد نشر هذا الكتاب فى لندن عام ١٩٧٣، وأعيد طبعه فى نيويورك عام ١٩٧٣ تحت عنوان "مذكرات السير رونالد ستورس".

رءوف عباس

تصميم وائل أحمد





المشروع القومى للترجمة

توجهات بريطانية - شرقية

مذكرات السير رونالد ستورس

تعريب

رءوف عباس



٢٠٠٤

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٥٤٠
- توجهات بريطانية - شرقية
- السير رونالد ستورس
- رءوف عباس
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤

هذه ترجمة كتاب :

ORIENTATIONS

by

Ronald Storrs

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084.

المحتويات

مقدمة المعرِّب 9

تقــديم 27

الفــــصـــل الأول : الأصول والتكوين (١٨٨١ – ١٩٠٤) 31

الفـــصل الثـــانى : موظف بالمالية المصرية (١٩٠٤ – ١٩٠٥) 47

الفـــصل الثـــالث : من مفتش جمارك إلى مراجع مالية (١٩٠٥ – ١٩٠٧) ... 63

الفـــــصل الرابـع : من المالية إلى قصر الدوبارة (١٩٠٧ – ١٩٠٨) 83

الفـــصل الخـــامس : مجتمع القاهرة (١٩٠٩ – ١٩١٤) 109

الفـــصل الســـادس : عملى مع كيتشنر (١٩١١ – ١٩١٤) 135

الفـــصل الســـابع : الحرب وصناعة نظام الحماية (١٩١٤ – ١٩١٦) 165

الفـــصل الثـــامن : الاتصال بالشريف حسين وثورة الصحراء (سبتمبر ١٩١٤) 191

الفـــصل التـــاسع : عملى مع السير هنرى ماكماهون (١٩١٤ – ١٩١٧) ... 247

الفـصل العـــاشــر : مهمتى فى بغداد (١٥ أبريل – ١٦ يوليو ١٩١٧) ... 265

الفصل الحادى عشر : بين مصر وإنجلترا (صيف وخريف ١٩١٧) 337

الفصل الثانى عشر : ضـابط سـيـاسى فى مـهـمـة بالقـدس (٧ – ٢٨ ديسمبر ١٩١٧) 357

الفصل الثالث عشر : حاكم عسكرى للقدس (١٩١٧ – ١٩٢٠) 379

الفصل الرابع عشر : أعمال الإدارة العسكرية فى القدس (١٩١٧ – ١٩٢٠) 409

الفصل الخامس عشر : أضـواء على الصـهـيـونيـة بين الإدارة العسكرية لفلسطين وحكومـة الانتـداب 445

الفصل السادس عشر : حكومة الانتداب فى فلسطين (أول يوليو ١٩٢٠) 507
الفصل السابع عشر : مجتمع القدس (١٩١٧ – ١٩٢٦) 527
الفصل الثامن عشر : لورانس (١٩١٧ – ١٩٣٥) 561
الفصل التاسع عشر : مستعمرة قبرص (٣٠ نوفمبر ١٩٢٦ – ٨ يونيو ١٩٣٢) 579
الفصل العشرون : حاكم قبرص 607
خاتمة 651

إهـــــداء

إلى أبى أدهم ...

عُبادة عبد الرحمن كُحيلَة

مؤرخاً متميزاً .. وطنياً مخلصاً ..

إنسانـاً نبيلاً .. صديقاً حميماً

رءوف عباس

مقدمة المعرِّب

يعد هذا الكتاب – الذى يسعدنى تقديمه للمكتبة العربية – مصدراً أساسيا لدراسة مخططات بريطانيا وسياستها فى المشرق العربى فى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين . ويضم مذكرات السير رونالد ستورس (١٨٨١ – ١٩٥٥) الذى لعب دوراً مهماً فى توجيه صناعة القرار الخاص بالسياسة البريطانية فى المنطقة من خلال موقعه كخبير بالشئون العربية ، تولى منصب « السكرتير الشرقى » بالقنصلية البريطانية فى مصر (١٩٠٨ – ١٩١٧)، وشغل منصب «الحاكم العسكرى للقدس» (١٩١٧ – ١٩٢٠) ، ثم أصبح « حاكم القدس » فى ظل حكومة الانتداب (١٩٢٠ – ١٩٢٦) ، « فحاكم عام قبرص » (١٩٢٦ – ١٩٣٢) ، وأخيراً ، ترك المنطقة ليختم سجله الوظيفى « حاكماً عاما لروديسيا الشمالية " . وقد نشر هذا الكتاب فى لندن عام ١٩٣٧ ، وأعيد طبعه فى نيويورك عام ١٩٧٣ (بنصه دون زيادة أو حذف) تحت عنوان « مذكرات السير رونالد ستورس » " The Memoirs of Sir Ronald Storrs " .

وبرغم أهمية الكتاب ، وما يلقيه من أضواء كاشفة على السياسة البريطانية فى المشرق العربى عامة ، وفى مصر والجزيرة العربية والعراق وفلسطين خاصة ، وبرغم حرص كل من درس تاريخ المنطقة فى العقود الأولى من القرن العشرين على الرجوع إليه لاستخلاص المعلومات منه كمادة للدراسة ، أو لتحقيقها مقارنة بما كشفت عنه الوثائق البريطانية الخاصة بالفترة ، فإن أحداً لم يفكر فى نقله إلى اللغة العربية ، ربما لضخامة حجمه (٦١١ صفحة فى طبعة لندن ، و٥٦٣ صفحة فى طبعة نيويورك) ، وصعوبة أسلوبه ، أو لأنه (عند ظهور طبعته اللندنية عام ١٩٣٧) كان يميط اللثام عن علاقة الهاشميين وآل سعود ببريطانيا ، وكان هؤلاء ملوكاً يتربعون على عروش العراق والسعودية والأردن ، ومن ثم لم يدرج الكتاب ضمن مشروعات الترجمة بمصر أو غيرها ، لكبر حجمه ، وحساسية ما يتناوله من أمور (بمعايير تلك الأيام) ، مما حرم قارئ العربية من قراءته .

وكم داعبتنى فكرة ترجمته منذ نحو ربع القرن ، ولكنى كنت أنصرف إلى غيره من المشروعات العلمية خشية ألا أجد من يتحمس لنشره . وفى شتاء ٢٠٠٢ اتصل بى الصديق الأستاذ مصطفى نبيل – رئيس تحرير « الهلال » – سائلاً أن أساعده فى استعارة نسخة من هذا الكتاب ؛ لأنه بحث عنه فى مكتبة جامعة القاهرة وفى غيرها من المكتبات فلم يجده ، فأعرته نسختى التى اشتريتها من أحد محلات بيع الكتب القديمة بالقرب من المتحف البريطانى فى لندن عام ١٩٧٦ (طبعة لندن) ، وبعد أن راجع فيها ما كان يبحث عنه من معلومات ، عاتبنى كثيراً « لتقصيرى » فى تعريبه ، وعرض علىّ أن تتبنى دار الهلال إصدار الطبعة العربية بالاشتراك مع المجلس الأعلى للثقافة ، وعندما عرضت الأمر على الصديق الأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة ، بادر بالموافقة على تبنى « المشروع القومى للترجمة » بالمجلس للطبعة العربية ، فعكفت على إعدادها حتى احتلت مكانها فى المكتبة العربية بفضل تشجيع مصطفى نبيل ورعاية جابر عصفور ، فإلى هذين الصديقين أقدم خالص الشكر وعظيم التقدير .

* * *

وصاحب المذكرات ، رونالد ستورس Ronald Storrs واحد من أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة فى بريطانيا ، إذ جاءت أمه من عائلة كست Cust المثقفة التى ترعى مصالح بعض العائلات الأرستقراطية ، أما والده فكان قسًّا إنجيليًا ، أرسله والده البريطانى المهاجر إلى كندا لتلقى العلم بلندن ، فاستقر بها ، وقاده سلك الكهنوت إلى مرتبة الأسقف . وهكذا كانت نشأة صاحب المذكرات فى بيت الأسقف الملحق بالكاتدرائية ، وما ارتبط بهذه النشأة من تشبع بقيم المجتمع الإنجليزى فى عصر الصعود الاستعمارى لبريطانيا ، مثل الإحساس بتفوق بريطانيا ، وحملها عبء رفع مشعل الحضارة الأوروبية فى مختلف بقاع الأرض فى إمبراطوريتها التى لا تغيب عنها الشمس ، ومن ثم فإن ما نجده فى المذكرات من إشارات – هنا وهناك – يعبر عن هذا التكوين الثقافى الاستعمارى . فهو يرى فى كرومر « مؤسس مصر الحديثة »، وفى الاحتلال البريطانى لمصر « إنقاذاً » لها من وهدة التخلف ، ودفعًا لها على

طريق « الإصلاح » و « المدنية » . ويرجع لجوء رجال الحركة العربية إلى بريطانيا طلبًا لمساعدتهم فى الثورة على الأتراك ، إلى رغبتهم فى « التمتع » ببعض ما حظى به المصريون - على يد الإنجليز - من تقدم وإصلاح ، وهو ينظر إلى المصريين نظرة عنصرية (كرومرية) ، فيصنفهم إلى مسلمين وأقباط ، كما ينظر إلى الفلسطينيين بالمنظار نفسه ، فهم مسلمون ومسيحيون ، ولا يفلت من قلمه ذكر مصرية المصريين أو عروبة الفلسطينيين إلا نادرا .

وتبلغ عنصريته ذروتها عندما يمر بالهند ، فيتحدث عن رقة حاشية المصريين مقارنة بغلظة الهنود ، ولكنه يرى الهنود أفضل أرومة لأنهم أريون ، إلى غير ذلك من مؤشرات تكشف عن فكر المثقف الاستعمارى القح .

تعلم رونالد ستورس بمدارس التعليم العام الأقل منزلة من مدرسة إيتون الشهيرة التى يقصدها أبناء الصفوة ، ثم التحق بكامبردج ؛ حيث درس الآداب الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) والفلسفة اليونانية ، واللغات الشرقية : العربية والتركية والفارسية ، والتاريخ والثقافة الشرقية ، وكان هذا النوع من الدراسة يؤهل صاحبه للخدمة فى المستعمرات .

وكان اختيار ستورس للغات والثقافة الشرقية يعنى أنه قد حسم اختياره العمل فى منطقة الشرق الأدنى . ويحرص على أن يشير إلى إجادته اللغات الشرقية فى أكثر من موضع من المذكرات ، بما فى ذلك العبرية (التى يبدو أنه تعلمها فيما بعد) ، وإن كانت العامية المصرية - عنده - تحتل موقعًا خاصًا .

وبرغم اتساع حجم الإمبراطورية البريطانية وضخامة رءوس أموال الشركات البريطانية ، نفاجأ بأن الحصول على وظيفة لخريجى الجامعات كان بالغ الصعوبة فى الربع الأول من القرن العشرين ، فلم يجد رونالد ستورس فرصة للتوظف عند تخرجه عام ١٩٠٣ ، واضطر إلى العمل مربيًا خاصًا لأحد أطفال الأسر الثرية ، وذهب مع الأسرة إلى إيطاليا (فى أول رحلة له خارج إنجلترا) . ولم يحصل على وظيفة بوزارة المالية المصرية إلا من خلال وساطة خاله هنرى كست (ويطلق عليه أيضا هارى كست)

الذى كان صحفيا مرموقًا ، ورئيسًا لتحرير صحيفة مسائية شهيرة ، وتتسع دائرة معارفه لتشمل الوزراء وبعض كبار الموظفين الإنجليز بالمستعمرات .

وهكذا جاء روناك ستورس إلى مصر عام ١٩٠٤ موظفًا بالمالية ، التى ظل بها حتى اختاره السير ألدون جورست (المعتمد البريطانى فى مصر وصديق خاله هارى كست الحميم) للعمل سكرتيرا شرقيا بدار المعتمد البريطانى (بقصر الدوبارة) عام ١٩٠٨ . وبفضل هذه الرعاية من جورست لابن شقيقة صديقه ، أتيحت لستورس فرصة الكشف عن قدراته ، بعدما ضاق بالعمل الروتينى بالمالية المصرية مفتشًا ، ثم سكرتيراً لمصلحة المناجم والمحاجر ، ومفتشًا بجمرك الإسكندرية ومراجعًا بالمالية . وتفيض مذكراته عن هذه الفترة (١٩٠٤ - ١٩٠٨) التى عمل فيها بالمالية المصرية ، بالشكوى من تفاهة ما أسند إليه من أعمال ، برغم أنه جاء إلى مصر حاملاً بطاقة توصية لليدى كرومر ، وكان من أصحاب الحظوة عند اللورد، كما أن وصفه لطبيعة العمل ودور الموظفين الإنجليز ، وعلاقتهم بزملائهم المصريين والأهالى ، بالغ الأهمية لمن يعنيه أمر دراسة الإدارة المصرية فى عهد الاحتلال البريطانى .

* * *

كانت وظيفة « السكرتير الشرقى » **Oriental Secretary** بقنصليات الدول الأوروبية فى الشرق بالغة الأهمية ؛ إذ يشترط فيمن يشغلها أن يكون متعمقًا فى دراسة لغات وثقافات المنطقة التى يعمل بها ، مجيداً للتحدث باللهجات المحلية ، متبحراً فى معرفة أحوال المجتمع فى البلد الذى يخدم به ، ولذلك كانت تلك الدول تحرص على أن تختار الأكفاء من أبنائها لشغل هذه الوظيفة ، وأن تبقى عليهم فى مواقعهم سنوات طوالاً . وكان هؤلاء يختارون من بين المستشرقين ، بل كان بعضهم (مثل الألمان والنمساويين) يحمل درجة الدكتوراه فى الثقافة الشرقية . وكان عمل « السكرتير الشرقى » شبيهًا بعمل المخابرات ، فهو يقوم بجمع المعلومات من خلال عملاء يطلقهم فى البلاد لهذا الغرض ، أو من خلال صلاته الوثيقة ببعض الشخصيات البارزة ، وما يلتقطه من معلومات فى الحفلات الرسمية ، وعليه أن يقوم بتحليل تلك المعلومات واستخلاص النتائج منها فى صورة تقارير يقدمها إلى القنصل ،

الذى يرفعها بدوره إلى حكومة بلاده ، كما يعد « السكرتير الشرقى » الخبير (الميدانى) الذى تلجأ إليه حكومة بلاده ، سائلة الرأى فيما تتخذه من مواقف وما تصنعه من سياسات ، وبعبارة أخرى يعد «السكرتير الشرقى» عين ، وأذن ، وأنف قنصلية بلاده وعقلها المفكر (على حد تعبير ستورس نفسه) .

ولم تشذ القنصلية البريطانية فى مصر عن غيرها من القنصليات ؛ فكان لها سكرتيرها الشرقى ، ومنذ الاحتلال البريطانى لمصر (١٨٨٢) أصبحت القنصلية البريطانية أو « الوكالة البريطانية British Agency » أو « دار المعتمد البريطانى » (كما سمتها الصحافة المصرية) مركز « السلطة الفعلية » فى البلاد ، بينما كان الخديو وحكومته يمثلان « السلطة الاسمية » ، منذ أصبحت مقاليد الأمور بيد « المعتمد البريطانى » ، ومن ثم احتل « السكرتير الشرقى » مكانة مهمة فى صنع السياسة البريطانية فى مصر بحكم ما يقدمه من معلومات ، وتفسيره لها ، وما يقترحه من سبل التعامل معها .

وكان هارى بويل Harry Boyle أول من شغل هذا المنصب فى عهد الاحتلال البريطانى ، وخدم مع كرومر منذ عام ١٨٨٢ حتى استقالة كرومر عام ١٩٠٧ ، وتعيين جورست الذى جاء لتنفيذ سياسة بريطانية جديدة تختلف – من حيث الأسلوب (وليس الجوهر) – عن تلك التى اتبعها كرومر فى تعامله مع الخديو عباس حلمى الثانى ، تقوم على المهادنة والتعاون بدلاً من التصادم والتنافر ، وسياسة كهذه تحتاج إلى فكر جديد غير ذلك الذى يعتنقه هارى بويل ، وكان أساساً لسياسة كرومر . ومن ثم كان التعاون بين بويل وجورست مستحيلاً ، وجاء قرار جورست باختيار الشاب رونالد ستورس (وكان عمره ٢٧ عامًا) ليحل محل بويل الكهل الذى يلتزم خطا معينًا فى التفكير له مغزاه .

كان السكرتير الشرقى يتعامل مع المجتمع على اتساعه من الأرستقراطية (بما فيها أمراء أسرة محمد على) إلى أعيان المصريين من كبار الملاك ، إلى المثقفين ورجال الصحافة ، إلى الفلاحين ، كما يتعامل مع مختلف الجاليات الأجنبية فى مصر .

لذلك كان عليه أن يتقن العربية والتركية إلى جانب الفرنسية والإيطالية ، فإذا أضاف إليها الفارسية والألمانية والإسبانية اكتملت له أدوات العمل ، وهو ما توافر لهارى بويل ، الذى كان يجيد أيضًا اللهجات العربية : المصرية والشامية والبدوية ، وبرغم ذلك كله ، لم يكن « السكرتير الشرقى » مهما تطل خدمته سوى موظف إدارى بالقنصلية ، ولا يعد من رجال السلك الدبلوماسى ، وكان يقوم بالعمل وحده دون أن يساعده أحد فى تحليل البيانات وإعداد التقارير وكتابة المراسلات والبرقيات إلى غير ذلك من مهام . وعندما شغل رونالد ستورس هذه الوظيفة ، ظل على هذه الدرجة المتواضعة حتى جاء السير هنرى ماكماهون مندوبًا ساميًا لمصر فى عهد الحماية البريطانية ، فنجح فى نقله إلى السلك الدبلوماسى بدرجة « سكرتير ثان » ، فى وقت كان فيه ستورس الصانع الحقيقى للسياسة البريطانية من وراء كواليس دار المندوب السامى .

* * *

ونستنتج مما أورده ستورس عن تجربته فى العمل سكرتيرًا شرقيًا أن فترة جورست القصيرة كانت بمثابة محاولة استيعاب للمجال الجديد الذى خاضه دون أن يحظى بفترة تدريب مع هارى بويل ، فبمجرد اختياره أرسل إلى دمشق لتعلم اللهجة الشامية التى كان لا يعرفها ، ولكنه استدعى – بعد ما يزيد قليلاً على الشهر – لتسلم العمل لأن بويل رغب فى التبكير بترك موقعه ، وعندما تسلم ستورس العمل لم يجد – على حد قوله – أى أدلة يهتدى بها لمتابعة مهام وظيفته ، لأن بويل لم يترك وراءه ما يفيد فى هذا الصدد ، ولا حتى قائمة بأسماء عملائه ، ومصادر المعلومات التى كان يلجأ إليها ، وجاء تعرفه على هؤلاء بمبادرة من جانبهم عندما جاءوه مستأنفين عملهم ، وشيئًا فشيئًا ، ومن خلال الانكباب على العمل – اقتداء بما كان يفعله بويل – استطاع ستورس أن يقف على أرض صلبة ، زاد من صلابتها تمسك اللورد كيتشنر به ، عندما تولى منصب المعتمد البريطانى خلفًا لجورست (وكان بدوره صديقًا حميمًا لهارى كست خال ستورس) .

وتألق نجم ستورس فى عهد كيتشنر الذى أولاه ثقته التامة ، واستمع إلى نصائحه ، وتبنى مقترحاته ، وأدرك طلاب الحاجات - على اختلاف مواقعهم الاجتماعية - ذلك ، فتقاطروا عليه ، وبدأت الصحف تتتبع أخباره . ولما كانت سمعته كمؤثر قوى فى صناعة القرار قد ذاعت ، فقد انتحل بعض المحتالين شخصيته فى حادث اتخذت منه الصحف المعارضة سبيلاً لإلقاء الأضواء على ما أحرزه « السكرتير الشرقى » من نفوذ .

ولم يكن ذلك « دخانًا بلا نار » ، فقد لعب ستورس دورًا مهمًا فى الأزمة الوزارية التى واجهت كيتشنر عندما فقد محمد سعيد باشا رئيس النظار « عطف » الخديو ، وأصبح عليه أن يستقيل ، وأرسل ستورس فى مهمة سرية إلى الأقصر لمقابلة مصطفى فهمى باشا ، وإقناعه بقبول المنصب ، ولكن الشروط التى وضعها ، وتسرب أنباء مهمة ستورس إلى الصحافة ، جعلا المعتمد البريطانى يبحث عن شخصية أخرى تقبل رئاسة الحكومة ولكن دون جدوى ، وهنا اقترح ستورس إسناد الوزارة إلى حسين رشدى باشا ، فتم ذلك بالفعل (٥ أبريل ١٩١٤) ، فكان اختيارًا مناسبًا ، فما لبثت أن أعلنت الحماية على مصر بعد سبعة أشهر من توليه رئاسة الحكومة (نوفمبر ١٩١٤) ، وأثبت حسين رشدى قدرته على اجتياز فترة الحرب الأولى بمصر كرجل دولة متميز ، ووضعت خلالها السياسات اللازمة لفترة ما بعد الحرب أملاً فى حصول مصر على الاستقلال ، ولعب دورًا بارزًا (وإن ظل خافيًا عندئذ) فى تشكيل « الوفد المصرى » برئاسة سعد زغلول باشا ، كما كان له فضل مساندة ثورة ١٩١٩ عند قيامها، واستقال فى أبريل ١٩١٩ عندما لمس تراجعًا سلبيا فى موقف السلطان أحمد فؤاد .

وقبيل قيام الحرب العالمية الأولى (الحرب العظمى) لعب ستورس دورًا مهما فى المشاورات التى دارت فى دهاليز الحكومة البريطانية حول فكرة « ضم مصر » إلى الإمبراطورية البريطانية فى حالة انضمام تركيا إلى دول الوسط فى الحرب ضد الحلفاء ، وكان من دعاة فكرة إعلان الحماية البريطانية على مصر ، وترك تقرير مصيرها إلى مؤتمر الصلح .

وبعد إعلان الحماية وخلع الخديو عباس حلمى الثانى لعب ستورس دوراً مهماً - أيضاً - فى إقناع الأمير حسين كامل باعتلاء العرش الخالى ، باعتباره أكبر أعضاء أسرة محمد على سناً ، ولصداقته الحميمة بالإنجليز . وقد نجح ستورس فى ذلك ، وكان لقب « سلطان مصر » الذى حمله الحاكم الجديد من اقتراح ستورس ، الذى عارض مطالبة حسين كامل بلقب « ملك مصر » حتى لا يتساوى فى اللقب مع « سيده » ملك إنجلترا (على حد قوله) .

* * *

ولكن الدور الأهم الذى لعبه روناك ستورس خلال الحرب الأولى هو إقامة الصلات الأولى بين بريطانيا والشريف حسين بن على شريف مكة ، ويدعى لنفسه فضل التفكير فى تشجيع الشريف على الثورة ضد الأتراك فى الحجاز ، أو ما أسماه « ثورة الصحراء » ، ولكن الفكرة كانت موضع دراسة ونظر من وزارات الخارجية البريطانية ووزارة المستعمرات ووزارة الهند وزارة الحرب منذ أوائل عام ١٩١٤ ، بهدف إجهاض أى محاولة من جانب تركيا وحليفتها ألمانيا للهجوم على مصر من فلسطين عبر سيناء واحتلال قناة السويس ، وبذلك تصاب الإمبراطورية البريطانية بالشلل ، فلا بأس - إذن - من جعل بلاد الهلال الخصيب منطقة تفتقر إلى الاستقرار بتشجيع « ثورة عربية » تستنزف قوى الأتراك وحلفائهم فى كل من الشام والجزيرة العربية ، مع قيام حكومة الهند البريطانية باحتلال ولايتى البصرة وبغداد ، وبذلك يصبح على الأتراك وحلفائهم الألمان أن يواجهوا ميداناً متشعباً إلى ثلاثة أقسام : الشام ، والجزيرة العربية (حيث الثورة) ، والعراق حيث الغزو البريطانى ، مما يؤدى إلى تشتيت قوات الجيش التركى على هذه الميادين الثلاثة ، عندئذ يسهل على القوات البريطانية اجتياح بلاد الشام وطرد الأتراك وحلفائهم منها .

ولكن من يقود « الثورة العربية » ؟ لقد كان قادة الحركة العربية فى الشام والعراق على صلة بالإنجليز أملاً فى مساعدتهم ، كما كانوا على صلات مع الشريف حسين بن على - من خلال ولده فيصل - لتنسيق الجهود ، ولحل مشكلة قيادة الحركة فى حالة وقوع صدام مع الأتراك .

وقد فكرت دوائر صنع القرار فى بريطانيا فيمن يصلح لقيادة عمل عسكرى مضاد للأتراك ، باعتباره الشخصية المقبولة عند الجميع ، وطرحت أسماء ثلاثة : شيخ الكويت ، والأمير عبد العزيز بن سعود شيخ نجد ، والشريف حسين بن على .

وأخيراً رجحت كفة الأخير لعلمهم بما يلقاه من دعم من رجال الحركة العربية فى الشام والعراق ، ولما بدر منه من إشارات توحى باستعداده - الضمنى - للعب هذا الدور ، عندما عبر الشريف عبد الله بن الحسين لكيتشنر وستورس عن الرغبة فى الحصول على السلاح ، خاصة المدافع الثقيلة ، للدفاع عن النفس ضد الأتراك (وكان ذلك فى ربيع ١٩١٤) ، وقد اعتذر ستورس عن عدم استطاعة بريطانيا ذلك لصداقتها لتركيا .

وعند قيام الحرب ، وحشد الأتراك وحلفائهم الألمان للقوات التى أعدت للاستيلاء على قناة السويس عبر سيناء يزعم ستورس أنه أبرق إلى كيتشنر (الذى أصبح وزيراً للحرب) ، مذكراً إياه بطلب الشريف عبد الله ، مقترحاً الاتصال بالشريف حسين للتعرف على مدى استعداده للقيام « بثورة الصحراء » فى الحجاز بمساعدة المجهود الحربى التركى - الألمانى ، وأن كيتشنر بادر بالرد طالباً تكليف ستورس بإجراء الاتصال .

ولعل فكرة ستورس تلاقت مع قرار اتخذه مجلس وزراء الحرب بالفعل بتشجيع الحسين بن علىٍّ على القيام بثورة فى الحجاز لفتح جبهة جنوبية تستنزف قوى الأتراك والألمان ، وتؤدى إلى خلخلة الحشود التركية فى فلسطين ، مما يسهل اختراق القوات البريطانية لها . وكان تكليف ستورس بهذه المهمة منطقيًا ؛ لأن هذا العمل يدخل فى دائرة اختصاصه ، ولأن له عميلاً فارسيًا يدعى حسين روحى يستخدمه فى جمع المعلومات عن الحجاز . وعن طريق هذا العميل تم إجراء اتصال جس النبض الأول ، تلاه ذهاب ستورس للقاء الشريف عبد الله ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، والتقى يزيد بن الحسين ، وشريفًا آخر ، ولا يذكر ستورس أى أمور سياسية فى هذا الاجتماع ، وإنما اقتصر الحديث على مطالب القوات العربية من السلاح والدعم الجوى والضباط العرب .

وفى زيارة ثانية التقى ستورس عبدَ الله فى جدة ، وتحدث إلى والده هاتفيًا ، ثم قابله بعد ذلك ، نجده لا يشير - أيضا - إلى أى أحاديث ذات طبيعة سياسية ، مثل استقلال العرب ، وإقامة الدولة العربية ، ولكنه أشار - عرضًا - إلى مسألة إصدار طوابع بريد للحجاز واختيار علم خاص بها، وأفرد مساحة أوسع لاعتراضه على اتخاذ الشريف لقب « ملك » (للأسباب نفسها التى ذكرها عند اعتراضه على اقتراح الأمير حسين كامل حمل هذا اللقب) ، ويبدى حنقه الشديد على الحسين بن على ؛ لأنه أعلن نفسه (ملكًا) دون انتظار موافقة بريطانيا العظمى ، وكذلك حمله لقب « خليفة المسلمين » ، وركز فيما أورده من حديث دار بينه وبين الشريف فى هذه اللقاءات على ما كان يطلبه الشريف من المال والسلاح .

وبرغم أن المراسلات التى تمت بين الشريف حسين بن على والسير هنرى ماكماهون (المندوب السامى البريطانى فى مصر) كانت تتم كلها بمعرفة ستورس ، فكانت رسائل ماكماهون تصاغ بمعرفة حسين روحى باللغة العربية ، أما ردود الحسين فكان يتولى ستورس عرض ملخص لها على المندوب السامى ، وكان هذا الملخص يُبلَّغ إلى الخارجية البريطانية ، ومنها إلى الوزارات الأخرى المعنية بشئون الإقليم ، وبذلك لم تكن هناك سوى الصورة التى نقلها ستورس عن رسائل الحسين إلى الحكومة البريطانية ، ولم تكن ثمة صورة كاملة قدمت لصانع القرار البريطانى للمطالب السياسية التى طرحها الشريف حسين فى مراسلاته : الدولة العربية ، وحدودها ، وعلاقتها ببريطانيا ، إلى غير ذلك من تفاصيل أشير إليها عندما كشف الروس أمر اتفاقيات « سايكس بيكو » الخاصة بتقسيم مناطق النفوذ بين بريطانيا وفرنسا فى شمال العراق والشام ، وما أثاره العرب عن حنث بريطانيا بعهودها . فمن الثابت أن ستورس لم يرسل إلى الخارجية البريطانية النصوص الأصلية لخطابات الحسين المرسلة إلى ماكماهون ، وإنما احتفظ بها بدرج مكتبه بالقاهرة ، كما لم يرسل ترجمة كاملة للنص العربى ، وإنما أرسل ملخصًا أتاح له إسقاط ما يريد ، ومن ثم التأثير فى صنع القرار البريطانى تجاه الحركة العربية .

ولا يعنى ذلك أن بريطانيا كانت على استعداد للاستجابة لمطالب الحسين - التى قدمها باسم العرب - لو وقفت على تفاصيلها : فالحرب العالمية الأولى لم تقم من أجل

إنصاف الشعوب المضطهدة ، ومنحها حق تقرير المصير (الذى بشر به الرئيس الأمريكى ويلسون) ، ولكنها كانت صراعًا بين القوى الإمبريالية المتطلعة إلى أن تنال نصيبا أكبر من الهيمنة الاستعمارية ، وكانت الإمبراطورية العثمانية (التى كانت بلاد العرب خاضعة لها) أحد مجالات الصراع الأساسية من أجل اقتسام مناطق النفوذ والسيطرة على الموارد الاقتصادية والطرق الإستراتيجية .

ولكن موقف ستورس يوضح مدى خطورة منصب « السكرتير الشرقى » وقدرته على التأثير فى صناع القرار ، فقد كان ستورس يعتبر « ثورة الصحراء » وسيلة لأداء غرض عسكرى خدمة للمجهود الحربى للحلفاء فى منطقة الشرق الأدنى ، وأنه لولا الدعم الذى قدمته السفن الحربية بقصف القلاع التركية بالمدفعية بعيدة المدى ، وكذلك ما قدمته بريطانيا من مال وسلاح ، لما استطاع العرب أن يحققوا شيئًا ، وأشار من طرف خفى (دون ذكر تفاصيل) إلى إفراط الحسين فى الطلبات ليحقق « ربحًا وفيرًا .. بجهد قليل » ، ولم ينظر إلى الحسين نظرته إلى الحليف ، بل نجده – فى أحد المواضع – يستنكر أن ثمة « أمة عربية » ، ويرى أن هذه البلاد (العراق والشام) تضم مجموعات مختلفة الأعراق والمذاهب والديانات ، وأن من يحدد مصير هذه المنطقة هم الإنجليز الذين (حرروها) بسلاحهم ودماء جنودهم ، وليس العرب .

وعلى كل ، مع بداية عام ١٩١٧ لم يعد ستورس مسئولاً عن ملف « ثورة الصحراء » ، فقد انتقلت مسئوليتها إلى ما سمى « المكتب العربى Arab Bureau » ، وهو مكتب تابع للمخابرات البريطانية العسكرية ، كان يشغل غرفتين بفندق الكونتيننتال ساڤوى بميدان الأوبرا بالقاهرة ، ويعمل به ستة من الضباط المستعمرين ، كان من بينهم ت. إى. لورانس الذى أرسل مع ستورس فى آخر زيارة له للحجاز ، ثم انتقلت إليه وزملائه فى « المكتب العربى » مهمة متابعة « ثورة الصحراء » بالتنسيق مع وزارات : الحرب ، والبحرية ، والخارجية ، والمستعمرات ، والهند .

واختلط لورانس بالعرب ، فارتدى زيهم ، وعاش عيشتهم ، واستطاع أن يؤثر فى فيصل قائد القوات العربية ، وكان بصحبته عند تطوير الهجوم المضاد ضد الأتراك بعد الاستيلاء على العقبة ، ونسف القناطر التى يعبر فوقها خط سكك حديد الحجاز .

وهناك التقى لورانس بصحفيين أمريكيين صنعا عنه فيلمًا تسجيليًا ، أطلقا عليه لقب « لورانس الجزيرة العربية » و«ملك العرب غير المتوج » . واستمر دور لورانس فى التأثير على فيصل بن الحسين فى مؤتمر الصلح بباريس ، وهو الذى دبر اللقاء الشهير بين فيصل وحاييم وايزمان (رئيس المنظمة الصهيونية) هناك ، وتولى الترجمة بينهما ، وجاء ما أعلنه عن لسان فيصل منافيًا - من وجهة نظر فيصل - لمجرى الحديث الفعلى .

* * *

استقرت الأوضاع فى مصر تحت الحماية البريطانية ، وتحول ملف « ثورة الصحراء » إلى المخابرات التى كان رئيسها الأعلى السير ريجنالد ونجت ، سردار الجيش المصرى وحاكم السودان ، الذى لم يكن يرتاح إلى ستورس ، والذى خلف ماكماهون عام ١٩١٧ فى منصب المندوب السامى لمصر ، وبذلك لم يعد « الملعب » خاليا على سعته أمام ستورس ، كما كانت عليه الحال أيام عمله مع كيتشنر وماكماهون ، وعندما سافر فى الصيف لقضاء إجازته السنوية بإنجلترا تم استبعاده ليتولى سكرتارية لجنة شكلت للنظر فى طريقة تناول الخارجية البريطانية للشئون المصرية ، واقتراح إنشاء « قسم مصرى » بالخارجية يتولى الشئون المصرية ، ويعمل به خبراء ممن عملوا بمصر . وعندما انتهت هذه المهمة ، ندبه مارك سايكس ضابطًا سياسيا معاونًا له ، وسافر بهذه الصفة عائدًا إلى مصر بصحبة چورچ بيكو .

ولما كان عمل « السكرتير الشرقى » قد تولاه فعلاً سكرتير ونجت ، وبقى لستورس « لقب » ووظيفة بلا مضمون أو عمل (ويبدو أن ذلك كان تمهيدًا للبحث عن وظيفة أخرى له) فقد تم إيفاد ستورس فى مهمة إلى بغداد - كضابط سياسى - لمساعدة جرترود بل (وهى مستعربة كانت تعمل ضمن « المكتب العربى » بالقاهرة) فى التعرف على التركيبة الطائفية فى العراق ، واستكشاف أوضاع المجتمع العراقى ، تمهيدًا لوضع نظام لإدارة العراق تحت الاحتلال البريطانى . وهكذا وجد ستورس نفسه فى مهمة يدرك تمامًا أن الهدف منها إبعاده عن القاهرة ، فمجال الخليج والعراق يدخل فى اختصاص وزارة الهند وحكومة الهند البريطانية ، وهو مجال بعيد تمامًا عن

مجال خبرته . وكأنه كان يريد أن يذكر وزارتى الخارجية والمستعمرات بمجال تخصصه ، وفى محاولة لتحقيق شىء إيجابى يشفع له عند تحديد موقع عمله الجديد، أقنع السير بيرسى كوكس (المندوب السامى فى العراق) برغبته فى القيام بمهمة وساطة بين عبد العزيز بن سعود والشريف حسين بن على ، واختار لذلك شهر يونيو للقيام برحلة مع إحدى القوافل إلى بريدة للقاء ابن سعود ، ثم يخترق نجد إلى الحجاز للقاء الشريف حسين ، واستطاع بيرسى كوكس أن يحصل على موافقة ونجت – المندوب السامى فى مصر – ورئيس ستورس على القيام بهذه المهمة ، التى ربما يكون قد وافق الأخير عليها ليقينه من فشلها ، فما لم يكن يعرفه ستورس أن رجال « المكتب العربى » ، ومعهم رجال حكومة الهند ، كانوا يدخرون ابن سعود لاستخدامه ضد الحسين بعدما تنتهى الحاجة إليه عندما تجتاح القوات البريطانية الشام ، ويصبح الخطر التركى فى خبر كان ، ولما كانت مطالب الحسين السياسية مثاراً لقلق بريطانيا ، وتتعارض مع الاتفاقات التى أبرمتها بريطانيا مع حليفتها فرنسا للسيطرة على الشام والعراق ، فلا سبيل للتخلص من هذه الورطة إلا بإطلاق ابن سعود ضد الحسين بن على ، وكانت المسألة مجرد مسألة وقت ؛ لذلك كانت موافقة ونجت على مهمة ستورس لا تعنى شيئًا ، فهى محاولة – لو تمت – محكوم عليها بالفشل .

وكان من حسن حظ ستورس أن أصابته ضربة شمس جعلته وأعوانه ينفصلون عن القافلة ، ويعودون أدراجهم إلى الكويت ، ومنها تابع الرحلة إلى مصر ، يداعبه الأمل فى أن ينجح السير بيرسى كوكس فى إقناع وزارة الهند بتعيينه « سكرتيراً شرقياً » له فى بغداد ، فقد أعجب بالعراق ، ووجد لنفسه دوراً مرتقباً يمكن أن يلعبه فى تحديد نظامها ورسم مستقبلها .

وعندما عاد إلى القاهرة طربت أذناه لسماع إشاعة ترشيحه لوظيفة « السكرتير الشرقى » بالعراق ، ولم يشر ستورس بعد ذلك إلى هذا الترشيح من قريب أو بعيد ، ويبدو أن وزارة الهند لم تجد أنها فى حاجة إلى خدماته مع وجود جرترود بل التى أثبتت قدرات عالية فى تناول الشئون العراقية ، فغضت الطرف عن هذا الترشيح .

عاد ستورس إلى القاهرة ليجد أنه مازال فى الموقع الذى ندب له قبل سفره إلى بغداد ، « الضابط السياسى » المعاون لمارك سايكس ، وعند احتلال القدس فى ديسمبر ١٩١٧ ، ذهب – بهذه الصفة – فى مهمة إلى هناك مع كلايتون ليساعده فى تنظيم الإدارة (٧ – ٢٨ ديسمبر ١٩١٧) ، وعندما كان يتأهب للعودة إلى مصر ، صدر قرار الجنرال أللنبى قائد عام القوات البريطانية بتعيينه حاكمًا عسكريًا للقدس ومنحه رتبة كولونيل .

وبذلك أصبح ستورس المدنى حاكمًا للقدس لا تربطه بالعسكرية سوى البزة التى يرتديها والرتبة التى يحملها على أكتافه ، ولم يعد دبلوماسيًا من رجال وزارة الخارجية ، وإنما أصبح حاكمًا استعماريا من رجال وزارة المستعمرات ، وقد كلفه هذا الانتقال للتبعية أن يظل بلا مرتب نحو ستة أشهر ، حتى تمت تسوية وضعه على الوظيفة الجديدة من خلال وزارة المستعمرات .

وظل ستورس حاكمًا عسكريا للقدس حتى قيام حكومة الانتداب على فلسطين (يوليو ١٩٢٠) ، وتعيين السير هربرت صامويل مندوبًا ساميًا ، وقد أبرق إليه الأخير قبل وصوله إلى فلسطين عارضًا عليه أن يستمر حاكمًا للقدس فى ظل الإدارة المدنية ، فقبل العرض ، وبذلك استمر عمله حتى عام ١٩٢٦ عندما ترك فلسطين ليصبح حاكمًا عامًا لمستعمرة قبرص .

كانت سعادته بالغة بهذه الوظيفة التى تمناها لنفسه منذ وصوله إلى القدس ، فبعد الشهور التى عانى فيها الإهمال – حيث وجد نفسه تابعًا بعد أن كان متبوعًا ، مهملاً بعد أن كان يحتل بؤرة الضوء – جعلته هذه الوظيفة حاكمًا مطلقًا ، لا معقب لكلمته التى أصبحت قانونًا خلال السنوات الثلاث السابقة على الانتداب ، كما استمر نفوذه واسعًا فى سنوات الانتداب الست الأولى بفضل تأثيره فى هربرت صامويل (المندوب السامى) ، كما أصبح معروفا للرأى العام فى أوروبا وأمريكا من خلال ما كتبته عنه الصحف مدحًا وقدحًا على حد سواء .

* * *

صدر تصريح بلفور قبل سقوط القدس فى يد الإنجليز بشهر واحد ، وهو التصريح الذى قدمت فيه الحكومة البريطانية على لسان وزير خارجيتها وعدًا بإقامة « الوطن القومى » لليهود فى فلسطين ، واعتبر عرب فلسطين مجرد « طوائف غير يهودية » .

وكان من واجبات « الحاكم العسكرى للقدس » ، وكذلك « حاكم القدس » فى ظل حكومة الانتداب تقديم كل المساعدات الممكنة لتنفيذ ما وعدت به الحكومة البريطانية .

كانت الإدارة العسكرية ملزمة بالحفاظ على « الأوضاع الراهنة Status quo » حتى يقرر مؤتمر الصلح ما يراه بشأن التصرف فى أراضى العدو المحتلة ، بمعنى عدم التدخل لتغيير الأوضاع القائمة فى فلسطين عند احتلال الإنجليز لها ، أو السماح لأحد بتغيير تلك الأوضاع ، وقد التزمت الإدارة العسكرية بذلك ، فيما عدا موقفها من الصهيونية ، فقد اتسم ذلك الموقف بقدر كبير من المحاباة ، ازداد فى عهد الحكومة المدنية ، بعدما تضمن صك الانتداب التزام الدولة المنتدبة بإقامة « الوطن القومى » لليهود فى فلسطين ، وهو التصاعد الذى أدى إلى قيام حركة المقاومة العربية التى بلغت ذروتها فى الثورة الكبرى عام ١٩٣٦ .

وتمثل الفصول التى أفردها ستورس لتلك التجربة ، وكذلك الفصل الذى خصصه لتجربته مع الصهيونية ، مصدرًا مهما من مصادر تاريخ فلسطين المعاصر ؛ فهو يقدم تفاصيل غنية عن الأوضاع فى القدس وفلسطين ، وموقف العرب من الإدارة البريطانية ومن الصهيونية ، وألاعيب الصهاينة وضغوطهم وابتزازهم للإدارة من أجل الإسراع فى عملية تهويد فلسطين ، ولكنه يحرص دائمًا على أن يعلن - من حين لآخر - تعاطفه الشديد مع بنى إسرائيل ، وإيمانه أنهم يحملون على كواهلهم اضطهادًا عمره ألفا عام ، وأن ذلك يبرر كل ما بذلوا من جهود لإقامة « الدولة اليهودية » ، وفى الوقت نفسه يستطرد فى تقديم نماذج فجة لتلك « الجهود » من خلال عرضه لممارسات الأشكنازيم و « اللجنة الصهيونية » ، وما اتسمت به من عنف وتطرف ، تجعل القارئ يحس أن ستورس يبدو كمن يسير فوق سلك مشدود ، لا سبيل لاجتيازه إلا بالمحافظة على توازنه ، ولكن فطنة القارئ تجعله يدرك أن الرجل كان مستاء من سياسة بلاده

تجاه فلسطين ، وما اتسمت به من تحيز واضح تجاه الصهيونية ، وإغفال تام لحقوق سكان البلاد . وإن كان ذلك لا يعنى قوله بعروبة فلسطين ، فهى عنده يهودية وعربية معًا ، ويمكن أن تظل كذلك لو أحسن العرب عرض قضيتهم سياسيا ، وتجنبوا سبل العنف ، ورأى أن الأخذ بفكرة تقسيم فلسطين إلى « كانتونات » يمثل أحد الحلول التى يجب النظر فيها .

* * *

أما تجربة ستورس فى قبرص فكانت ذات طابع خاص ، فقد احتلت بريطانيا الجزيرة عام ١٨٧٨ مقابل مساندتها للدولة العثمانية – صاحبة السيادة على الجزيرة – ضد روسيا . وفى نوفمبر ١٩١٤ ضمتها إلى الإمبراطورية البريطانية ، وأصبحت بذلك من مستعمرات التاج البريطانى .

ولما كانت الأغلبية الساحقة للسكان من اليونانيين مع وجود أقلية تركية ضئيلة ، فقد غلبت على الحركة « الوطنية » فى الجزيرة المطالبة بالوحدة مع اليونان ، وبرغم الإصلاحات التى حاول ستورس تنفيذها بالموارد المالية المتاحة ، خاصة بعد إلغاء « الجزية التركية » التى كانت تذهب لسداد قرض عثمانى ضمنته بريطانيا ، قامت ثورة عارمة بالجزيرة عام ١٩٣١ ، أحرقت فيها الجماهير مقار الحكومة ، بما فيها منزل الحاكم العام فى نيقوسيا ، وترتب على ذلك تدخل الحامية البريطانية والأسطول ، وإلغاء المجلس التشريعى ، وفرض الأحكام العرفية ، ومعاقبة الثوار بالنفى والسجن ، وتلا ذلك نقل ستورس إلى روديسيا الشمالية التى لا يشير صاحب المذكرات إلى تجربته فيها .

والحق أن المذكرات تقل أهميتها بانتقال صاحبها إلى قبرص ، فبرغم عشقه للثقافة اليونانية القديمة ، وإعجابه بالجزيرة و « خفة ظل » أهلها ، فإن المجال هناك كان جديداً عليه ، يختلف عن مصر وفلسطين تمامًا ، ومنقطع الصلة – نسبيا – مع ما كان له من خبرات بالمشرق العربى .

* * *

ولم يكن باستطاعه ستورس كتابة هذه المذكرات لولا حبه الشديد لأمه ، وحرصه على أن يرسل إليها صورة من يومياته (ينسخها بالقلم الرصاص) بصفة دورية حتى وفاتها ، وبرغم أنه لم يتابع ذلك مع والده ، فإن رسائله لوالده تضمنت بعض ما كان يرويه من تفاصيل .

ولما كانت كل مقتنيات وكتب وأوراق ستورس قد قضت عليها النيران فى حريق مقر حاكم قبرص فى أثناء حوادث ثورة ١٩٣١ ، فلم يكن هناك ما يعتمد عليه فى كتابة مذكراته سوى صورة اليوميات التى نسخها لوالدته وأصول الخطابات التى أرسلها لوالديه ، كما استخدم أرشيف وزارتى الخارجية والمستعمرات فى الرجوع إلى بعض التقارير الرسمية التى كان قد أعدها بصفته سكرتيراً شرقيا بالقاهرة أو حاكمًا عسكريا للقدس ، وذكر ذلك فى موضعه من الكتاب .

وإضافة إلى هذه المادة الوثائقية الأصلية ، حفل الكتاب بالعديد من اللوحات القلمية ، التى رسم فيها ستورس صور من عرفهم والتقى بهم من الشخصيات - بالكلمات وليس بالخطوط - وكذلك العديد من « الحكايات » عن المواقف التى صادفها ، وأوضاع المجتمع فى مصر وفلسطين والعراق وقبرص ، ووصف المدن المهمة وأحوالها العمرانية وأسواقها وبعض عادات أهلها برؤية ثاقبة لمراقب واسع الخبرة .

وهكذا تضمنت المذكرات فيضًا زاخراً من المعلومات السياسية التى تتصل بمصر فى عهدى الاحتلال والحماية البريطانية فى تناولها للشئون المصرية ، وفى صياغتها لنظام الحماية ، كما تتضمن المذكرات عرضًا تفصيليا لواقع المجتمع العراقى عشية الاحتلال البريطانى ، وما كان مطروحًا فى أذهان صناع السياسة البريطانية من أفكار حول مستقبله ... وتفيض المذكرات بالحديث عن الجهود التى بذلتها بريطانيا فى فلسطين لتمهيد الأرض لتنفيذ « وعد بلفور » ، والعمل على وضع أسس « الوطن القومى » لليهود على حساب العرب من سكان فلسطين ، هذا فضلاً عما احتوت عليه المذكرات من تفاصيل عن « الثورة العربية » (عام ١٩١٦) أو « ثورة الصحراء » كما سماها صاحب المذكرات ، خاصة المراحل التمهيدية لها التى شارك فيها ستورس ، أضف إلى ذلك ما فاضت به المذكرات من معلومات مهمة عن مجتمعات البلاد التى

خدم فيها صاحبها : أوضاعها ، وأحوالها المعيشية والعمرانية ، إلى غير ذلك من رصد مهم لتلك المجتمعات في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين .

وقد حرصنا على تعريب المذكرات دون تدخل فيها بالحذف أو الإضافة ، وبذلنا أقصى الجهد حتى نجعل ستورس يخاطب القارئ العربي بأسلوب واضح ، ولسان مبين ، لا لبس فيه ولا غموض ، ومن يعرف النص الإنجليزي يقدر - دون شك - ما تحملناه في سبيل ذلك من العناء .

ولما كان المؤلف يعبر عن أفكاره في فقرات طويلة مركبة ، تزيد - أحيانًا - على الصفحتين من صفحات الكتاب ، فقد قمنا بتفكيك تلك الفقرات حتى لا يعاني القارئ العربي مما يعانيه قارئ الطبعة الإنجليزية من صعوبة تتبع الفكرة في إطار ما تشابك معها من أفكار . وجاءت ترجمتنا للأبيات الشعرية ترجمة نثرية مرسلة . أما الأمثال العامية المصرية فقد أوردها المؤلف بنصها العربي مطبوعة بحروف لاتينية ، ولم نجتهد في ترجمتها . وقد خلا الكتاب من عناوين الفصول ، فاكتفى المؤلف بذكر فترة زمنية لكل فصل ، فيما عدا الفصل الخاص بالصهيونية ، والفصل الخاص بلورانس ؛ لذلك وضعنا عناوين للفصول من عندنا ، راعينا انطباقها على مضمون الفصل أو تعبيرها عن محتواه بقدر الإمكان .

(والله ، وخدمة تاريخ أمتنا العربية ، من وراء القصد)

١٠ نوفمبر ٢٠٠٢

تقـــــــــديم

إن كتابة مثل هذا الكتاب من الصعوبة بمكان ، فقد أتت النار على كتبى وجميع أوراقى فى حريق شب بمنزلى عام ١٩٣١ ، وبذلك لم يكن لدى مادة مهيأة أو محفوظة يمكن الاستعانة بها ، ولكن كانت لدى عادة التزمتها منذ غادرت إنجلترا عام ١٩٠٤ هى الكتابة إلى أمى أسبوعيا ، وأن أرفق برسائلى لها بعض الأشياء التى قد أرى فيها ما يهمها ، وقد احتفظت أمى بكل هذه الخطابات والوثائق المرفقة بها ، وبعض المذكرات التى كتبتها عن مهام أو جولات كُلِّفْتُ بها أيام الحرب (العالمية الأولى) ، ومن بين تلك المذكرات المستفيضة واحدة عن بغداد أصف فيها زيارتى لها عام ١٩١٧ ، وقد قامت أمى بتحبير الرسالة التى كتبتها أصلاً بالقلم الرصاص ، حتى إن بعض الكلمات التى أخطأت فى قراءتها (عند التحبير) لم أستطع فك طلاسمها الآن ، وقد قمت بالنقل عن هذه المادة التى نجت من الضياع فى هذا الكتاب ، مع مراعاة عدم الاكتفاء بذكر الحقائق المجردة التى ربما كان معظمها معروفًا الآن ، وإنما حاولت إضفاء بعض الحيوية عليها بتسجيل مشاعرى – فى ذلك الوقت – مع ذكر بعض الحكايات التفصيلية ، التى برغم تفاهتها ، تصور الجو الذى عشناه فى تلك الأيام ، وهو أصعب ما يمكن استرجاعه من الذاكرة بعد مرور الزمن ، ولم أقم بالتصويب ، ولكنى قمت بحذف الكثير ، خاصة ما اتصل بملاحظاتى الشخصية التى قصدت بها الاستهلاك المحلى ، وجاء احتفاظى ببعض الأخطاء التى تعود إلى العامية التى يفضلها الشباب ، والعبارات السوقية التى تتجاوز حدود آداب الحديث ، لطرافتها ، ولكونها تضفى على الأسلوب مسحة القدم التى تغطى بعض المساحات التى يشغلها الأسلوب العصرى .

ولا ريب أن ضياع المكتبة التى كونتها ببطء وبالتدريج ، وضمنتها كل ما كان يهمنى من الكتب ، كان عقبة كبيرة واجهتنى عند الكتابة ، وإن كان فقد المكتبة أقل أهمية من فقد الوثائق المهمة . وإذا كنت قد استعضت عن ذلك بالاستعانة بمكتبة

المتحف البريطـانى ، التى تتيح للمتـرددين الاطـلاع على كل شىء دون امتلاك شىء مما يطلعون عليـه ، فقـد أتاح لى ذلك اسـترجاع بعـض الذكريات ، وضبـط بعض المعلومات .

وفى كتاب كهذا مملوء بالأسماء الشرقية ، لا يستطيع الكاتب أن يتغاضى عن مشكلة ضبط هجاء تلك الأسماء بالحروف اللاتينية ، وهو أمر لى فيه رأى ثابت محدد يدعمه شعور فياض ، ففى عام ١٩٢٠ أسند إلى السير هربرت صامويل مهمة رئاسة لجنة خاصة بضبط هجاء الكلمات العربية باللهجة الفلسطينية بالحروف اللاتينية . وقد أنهت اللجنة عملها وقدمت للمندوب السامى (هربرت صامويل) نتيجة عملها ، وعندما أقرأ اليوم تلك النشرة التى تضمنت تلك الكلمات أحس بالضيق والعجب معًا ، فما كاد ما انتهت إليه اللجنة من عمل يصل إلى لندن حتى قررت أن تتبع القواعد التى وضعتها الجمعية الجغرافية الملكية . وكان لورانس بارعًا فى هجاء الكلمات العربية على حين كان بقية أعضاء اللجنة لا يحسنون الهجاء . وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أحدد بدقة الكلمات العربية دون أن أرهق القارئ الإنجليزى .

وقد ميزت الفقرات التى اقتبستها من رسائلى إلى أمى (١٩٠٤ - ١٩٢٣) ، ومن رسائلى إلى أبى (١٩٢٣ - ١٩٢٩) ، وبعض رسائلى إلى خالى ، وتلك التى اقتبستها من يومياتى بطباعتها ببنط أصغر حجمًا .

وبرغم تمتعى بذاكرة قوية لا تشوبها شائبة ، فإن بعض الوقائع غابت عن ذهنى مثل حادثة عام ١٩١٦ عندما صدمت سيارة عربة (الحنطور) التى كانت تقلنى ذات مساء بالإسكندرية ، فقد اختفت تلك الحادثة تمامًا من ذاكرتى حتى اطلعت على مجموعة خطاباتى ، وفى حدود المعلومات التى غابت عنى لاحتراق أوراقى قد أحتاج إلى بعض التصويبات ، ولكن الأرقام والإحصاءات التى أوردتها دقيقة لاعتمادى فيها على المطبوعات الرسمية ، كما اعتمدت أيضًا على كتاب لورانس « أعمدة الحكمة السبعة » .

ومثل هذه المذكرات لا تتضمن هجومًا أو اتهامًا أو تجريمًا للأفراد سواء كانوا أحياءً أو أمواتًا ، أو للشعوب التى كانت حليفة لنا ، أو وقفت على الحياد ، أو ناصبتنا

العداء . فقد تركت الوثائق تتحدث على سجيتها ، حتى تلك التى لم تعد بمحتواها أو أسلوبها تعبر عن شخصى الآن ، فقد كان الوطنى المصرى عام ١٩٠٤ لا يقل خطورة (فى نظر الإنجليز) عن الأتراك أو الروس زمن الحرب عام ١٩٢٠ . وبعضنا يسعدهم الآن أن يكونوا أصدقاء لثلاثتهم .

ففى الصراع لا تختلف هذه الكلمة عن الحقيقة ، وما أطمح إليه هو تقديم الجانبين ، خاصة ما لا يعد معلومًا فى كل أمر من الأمور ، ولعلنى أضيف بذلك مادة خامًا ليستخدمها فى المستقبل المؤرخ المعنى بالشرق الأدنى والشرق الأوسط .

أتوجه بخالص الشكر إلى صحف : التايمز ، والدايلى تليجراف ، والصنداى تايمز ، والأبزيرفر ، والإسبكتاتور ، والنير إيست أند إنديا ، لسماحها لى بنشر بعض ما ورد بأعمدتها ، كما أشكر مؤسسة لورانس : السير جون موراى ، والسير چورچ آرثر ، والسير سدنى كوكريل ، والفيسكونت أستور ، وف . ب هولاند ، و م . جان فوتيادس لسماحهم لى باستخدام الخطابات الواردة من ت . إى . لورانس ، وإليزابيث باريت براوننج ، ولورد كيتشنر ، وولفرد سكاون بلنت ، والفيسكونت أستور ، وكونتيسة نواى ، وغيرهم ممن سمحوا لى بالاطلاع على أوراقهم الخاصة ، كما أدين بالشكر والعرفان للسير إدوارد مارش لنقده البناء الذى انعكس على معظم صفحات الكتاب ، كما أدين للمسز هنرى كست ، كما أدين بالكثير لزوجتى .

رونالد ستورس

الفصل الأول

الأصول والتكوين

(١٨٨١ - ١٩٠٤)

عاد الكابتن هنرى فرانسس كست - الضابط بسلاح الفرسان الثامن بالهند - إلى إنجلترا فى أوائل أربعينيات القرن التاسع عشر لقضاء الإجازة . وكان الابن الأكبر لزوجين اجتمعت فيهما خصائص نادرة ، فوالده هو رجل الدين المبجل كانون كست المنتمى إلى كنيسة سانت جورج بواندسور ، وأمه هى الليدى أنّا ماريا نيدهام عمة اللورد كيلمورى الذى كان غارقًا فى الدين ، وتم تهريبه مرتين من سجن الدائنين داخل نعش . وكان هنرى فرانسيس مثقفًا محترمًا دون ادعاء أو استعلاء ، استوعب تمامًا أعمال كبار الشعراء .

وفى أثناء إجازته ، قام هنرى فرانسيس كست برحلة إلى إسبانيا ، واختار أن يزور قصر الحمراء مساء على ضوء القمر ، وبعد أن تجول بين أرجاء الأثر الذى يعكس ما كان من مجد الإسلام ، التقى فى فناء القصر بزوجين إنجليزيين يدعيان سترتيفيلد ، وكانت الزوجة تنتمى أصلاً إلى آل كوكسون من ملدون هول بمنطقة نورثمبرلاند ، وترعى زوجها العاجز . وقد وصفتها إليزابيث باريت براوننج بقولها : « فاتنة وجذابة ، وفاضلة ، من أرق المخلوقات التى نراها فى هذا العصر ، وهى إلى جانب ذلك ذكية وعطوف »[1]. وقد جعلتها جاذبيتها الزوجة المثالية لهنرى كست الذى تزوجها بعد وفاة زوجها المريض سترتيفيلد . ولا شك أن هذا الزواج جلب بعض عناصر الحياة والبهجة إلى أسرة كست المتسمة بالصراحة . وترك هنرى كست خدمة الجيش ، وأصبح وكيلاً لخاله اللورد براونلو فى إدارة مزرعة بريدج ووتر باليسمير بمنطقة شروبفاير . وقد أنجب هنرى كست أربع بنات وولدين . أما ابنته الكبرى لوسى أنّا ماريا فهى أمى ، وقد ولد ابنه الأكبر هارى كست بعد ذلك بسنوات عدة .

واستطاع جدى أن يستفيد من الضرائب المعتدلة فى الستينيات والسبعينيات والثمانينيات (من القرن التاسع عشر) للاحتفاظ بموقع الأسرة فى بدفورد شاير

(١) من رسالة غير منشورة لإليزابيث براوننج .

كمقر إقامة فى الصيف وفى غيره من المناسبات ، وأن يقوم بواجبات الضيافة فى بيت اليسمير ويستخدمه فى المواسم الانتخابية . وهناك التقت لوسى كست شابا وسيمًا جذاب الصوت ، وكثرت فرص لقائهما . وكان ذلك الشاب هو القس جون ستورس راعى كنيسة سانت بيتر فى أيتون سكوير ، وقد انحدر والده من يوركشاير ، وباع ممتلكاته فى إنجلترا ، وانتقل إلى كورنواليس فى نوفا سكوشيا ، ومازال اسمه يذكر حتى الآن بقدر كبير من الاحترام والتقدير ، وقد رأى أن من الحكمة أن يرسل ابنه الأكبر إلى إنجلترا لتحصيل العلم ، وحصل جون على منحة لدراسة الرياضيات فى بمبروك كوليدج بكامبردج .

ولست أحسد جون ستورس على تعلقه الشديد بلوسى كست ، فقد تردد الماجور كست فى تزويج ابنته المفضلة لقسيس (برغم أنه كان ابنًا لأحد رجال الكنيسة) ، كما أن عائلة كست كبيرة ومترابطة ولا تشجع مثل هذا الزواج . واحترامًا لوالدها وإجلالاً له ، قامت لوسى بتأجيل موعد الزواج ، فطالت فترة الخطبة قبل أن يتم الزواج ، وذلك لأنها كانت ترعى شئون الأسرة بعد وفاة والدتها ، وكانت عندئذ فى السادسة عشرة من عمرها ، وكان جدى برغم دماثته وجاذبيته ، يغضب عندما يعارضه أحد من أفراد أسرته ، وفى اليوم الذى نشرت فيه صحيفة المورننج بوست خبر الخطبة ، دعا جون ستورس لتناول الإفطار معه ، فى مقهى ترافيلرز كلوب ، وواجه القس الشاب الخجول موقفًا محرجًا فى ذلك المقهى عندما وجد عيون الناس تتجه نحو المائدة التى يجلس إليها مع صهر المستقبل الذى صاح قائلاً : « إننى أحبك كثيراً أيها الشاب ، ولكنى أعرف ما سيحدث ، فبعد موتك ستعود لوسى إلىَّ ومعها نصف دستة من الأطفال » ، وانفجر باكيًا ، ولكن القس الشاب ما لبث أن تولى خدمة أبراشية بيورى سانت إدموند (وهى واحدة من أجمل وأكبر الأبراشيات) ، وبذلك بعث قدراً من الطمأنينة فى نفس جدى .

وبعد بضع سنوات قضتها الأسرة فى بيورى سانت إدموند ، حيث ولدت فى ١٩ من نوفمبر ١٨٨١ ، اختار المستر جلادستون (رئيس الوزراء) أبى نائبًا للأسقف لعدد من الكنائس التى كانت تقع فى المكان الذى يشغله الآن مسرح وستمنستر (ترى

كم من رؤساء الوزارة بعد جلادستون وجد متسعًا من الوقت للمرور بتجربة الاستماع شخصيا إلى موعظة يلقيها المرشح لوظيفة نائب الأسقف ؟) ، وانتقلنا إلى الأسقفية التى تقع فى ٢ جروسفنز جاردنز ، وهو أول بيت أذكره ، وأمتع وأسعد بيت يحلم أى طفل بالحياة فيه [٢] .

وقد ظل والدى طوال حياته يتمتع بروح رياضية بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، فبعد تناوله العشاء مع ثلاثة من زملائه الكهنة ليلة أحد الأعياد ، اقترح أحد الثلاثة أن يركع الجميع ويقدم كل كلمة للناصر الوحيد (الله) . فقال أبى « لا داعى لهذا ، فلا يجب أن نحقق مغنمًا غير شرعى من وراء هزيمة الآخرين » . كان أبى سابقًا لعصره فى حب وتقدير الأمريكان ، ولكنه رأى فى صيحات مشجعى فريق كليتهم ما يثير السخرية . وكان واعظًا مخلصًا أكثر من كونه عالمًا ، رشيق العبارة ، لا يقرأ عظته من نص مكتوب ، وكانت أكثر فترات خدمته نجاحًا وأصالة عندما كان يتولى قداس الأطفال بكنيسة سانت بيتر ، فقد فاق كل ما هو معروف فى هذا المجال ؛ إذ كان يهبط درج الهيكل ، ويسير فى الممر مناديًا كل طفل باسمه ، ويطرح عليه بعض الأسئلة دون أن يثير الخجل أو الغرور عند الطفل ، إن عظة الأطفال قد تكون أسهل من عظة الكبار ، خاصة المثقفين ، ولكن إتقان فن الوعظ للأطفال بالغ الندرة ، وحتى الآن يحيينى الكثيرون من الكبار « أبناء الساعة الثالثة » (موعد القداس) ؛ مما يعكس مدى عمق تأثير أبى فيهم ، وفى قداس الأطفال قمت بالإنشاد وحمل الصليب وجمع التبرعات .

ولم يكن والدى يقرأ بعمق ، مما أصاب ابنه فى مرحلة الدراسة الجامعية بنوع من الإحساس بخيبة الأمل ، ولكنه عرف بخبرته العملية أن كثرة قــراءة الكتب عند القس (وكذلك عند رؤسائه) تلوث الثياب .

(٢) كان البيت ملكًا لأوقاف الملكة أن بإراضى وستمنستر ، وقد بيع عام ١٩٣٠ بمبلغ ١٦٠٠٠ جنيه إسترلينى . ولم أدخل البيت منذ رحيل أبى ، المقر الحالى للأسقفية فى ٢٤ شيستر سكوير . أما رقم ٢ جروسفنز جاردنز فهو الآن [وقت تدوين هذه المذكرات] مقر لشركة كهرباء مياه فلسطين .

ولكنه – من ناحية أخرى – كان يعشق هاندل ويرى فيــه موســيقيا عظيمًا ، كان أبى مملوءًا بالتحيز والتناقضات ، فهو لا يرى سوى الصفات الخلقـية لنابليون[٣] (الذى كان بالنسبـة لأمى حلما عظيما لا يصدق) ، فالدبلوماسيون عنده أفاقون ، والجنود مثلهم ماداموا يعدون العدة للحرب ، وخلال الحرب يصبحون فجأة أبطالاً كما فى أنشودة كبلنج ، أما البحرية فلا ترتكب خطأ . ولا شــك أنه كان متحـيزًا ، ولكنه لم يكن أبدًا متعصبًا أو مغاليًا ، وكان يفضل أن يقرأ ما أسماه كتب الأحــد الجـادة (ولم لا ؟) واعتبر بعض الألعاب غير مناسبة للعصر ، خاصة إذا كان اللعب قبل الظهر ، أو إذا كان اللاعب لا يذهب إلى الكنيسة .

هناك دائمًا نسبية حتى فى الدين ، وكان سبت لندن فى ١٨٨٨ – ١٨٩٥ معتدلاً مقارنة بتشدد الشمال وبساطة القارة ، ولكنه مازال يمثل محنة قاسية ، وكانت ممارسات أبى الكنسية التى خلت من البخور والطقوس تعتبر متخلفة بالنسبة للندن فى ذلك العصر ، وكان زملاء أبى فى الشمال من المتشددين ينتقدونه فى ذلك قائلين « لقد عاد چون المسكين إلى روما » . فقد كانت هناك صلوات عديدة فى سانت بيتر كل منها يناسب نوعًا معينًا من المتعبدين . وكان الأسقف يعرف كل فرد من رعايا الكنيسة ، وخلال سنوات خدمته الثلاثين تم تجديد الجانب الشرقى من سانت بيتر .

وقد عمل والدى واستمتع بحياته حتى نهايتها ، ومات فى الثالثة والثمانين من عمره ، وكان يشغل منصب عميد روشستر ، وقد تعلمت منه احترام كنيسة إنجلترا والعمل من أجلها عندما كنت فى خدمة السلطة ، والتيقن من خسة الهجوم على الكهنة الإنجليكانيين ، وأود أن أسجل هنا أنه برغم كثرة ترحالى لم أصادف الشخصية المزدوجة للقس التى ترسمها مجلة « پنش Punch » إلا على صفحات تلك المجلة .

وقد ورثت أمى الذكاء والحنان عن والديها ، وقامت حياتها على أساس المحبة والكراهية الشخصية ، والخدمة الاجتماعية (وهى عبارة وضعتها موضع الممارسة لمدة

(٣) مازال الاستياء الڤيكتورى من تدهور المستوى يعلق الآمال على هتلر دون كراهية لليهود ، أو موسولينى دون كورفو أو الحبشة ، أو كرومويل دون أيرلندا .

أربعين عاماً قبل أن يظهر هذا المصطلح فى الوجود) ، وكانت شديدة الولاء لأسرتها ولكل من كان له فضل عليها ، فى السراء والضراء ، حتى ماتت . ولم يكن لديها إحساس بالعدالة المطلقة شأنها شأن غيرها من النساء اللاتى عشن حياتهن كبنات وزوجات وأمهات بطريقتهن الخاصة ، وكن يعادين بقوة وشدة الحركة النسائية ، وقد ولدت قائدة ولم تكن كغيرها ممن وجدن أنفسهن فى مواقع لم يحلمن بها ، ويجب أن أعترف بأنها كانت ترى أن تعميم التعليم العام سوف يضع حداً للمبادرة الفردية ، فكانت تقول : « ترى ماذا يحدث لو التحق كل ولد نابه بالجامعة ؟! » وهو شعور محزن ورجعى ، ولكن الفلاحين العرب لديهم مثل المعنى نفسه « لما أنا باشا وأنت باشا من يسوق الحمير » ، وقد كانت تحب الحيوانات فى مطلع شبابها ولديها بعض كلاب الصيد ، ولكن بعد انتقالها إلى سانت إدموندز كزوجة لنائب الأسقف ، وأصبحت أمًا لعدد من الأطفال ، تحول حبها للحيوانات من الناحية العملية إلى الناحية النظرية . وسوف تظل أسرتها تذكر لها بالتقدير ما تركته من قيم ومثل فى أمور الحياة . فكانت تقتصد فى الإنفاق على ما تراه غير ضرورى ، تعف عن استخدام الفنادق الفخمة ، وماتت فى السبعين من عمرها ، وكثيراً ما عبرت أوروبا فى طريقها إلى مصر أو فلسطين ، ولكنها لم تستخدم أبداً الدرجة الأولى أو عربة النوم ، غير أن بيتها كان جميلاً ومتميزاً ، وبرغم أنها لم تنفق كثيراً على الملبس ، كانت أنيقة دائمًا ومحط الاهتمام فى كل مجتمع تتواجد فيه .

كان رعايا كنيسة سانت بيتر ينتظرون بفارغ الصبر المساعدة الأخيرة لزوجة الأسقف ، فكانوا ينالون نصيبهم من حين لآخر . وكانت تجلس ذات مرة فى الصف الثانى فى أثناء قداس الأحد ، وأمامها سيدة غزيبة وفدت إلى الكنيسة لأول مرة شغلت عن الصلاة بالاهتمام بهندامها وما معها من أشياء فلامتها أمى على ذلك ، وعنفتها بشدة .

ونشرت مجلة الأبراشية ذات مرة صورة لأمى جاءت داكنة اللون ، يصعب التعرف عليها ، فتجاوزت عن الخطأ الذى وقع فيه رئيس التحرير . وكان لديها حدة فى الطبع ، ولكنها كانت تفضل التنفيس عنها فى الجماد ، وذات مرة كانت أوانى المائدة البورسلين قد غسلت ووضعت على منضدة تمهيداً لصفها فى الدولاب الخاص بها ،

وتعثر والدى فى أثناء مروره بتلك المائدة فسقطت بعض الأوانى على الأرض وتكسرت ، فما كان من والدتى إلا أن حملت أحد المقاعد الخشبية إلى أعلى وألقت به على الأرض فتحطم المقعد . وقالت : « ليكن هذا مصير چون ستورس بأمر الله » . وفى بعض الأحيان كانت تسبب حرجًا للشباب ، لا تهتم بالمظاهر ، وقد تشهر بعمال المحلات إذا بدا منهم بعض التقاعس فى خدمتها . وكثيرًا ما جعلتنى وإخوتى نحمل عطايا عيد الميلاد لنوزعها على المستحقين المتجمعين حول الميدان الذى تقع عليه الكنيسة ، وكثيرًا ما كنا نسمع عبارات الاستهجان من أولئك القوم ، فكانت تستجيب لعلامات الامتعاض التى تراها على وجوهنا ، مما يبعث الارتياح فى نفوسنا ، وعندما وجدت زى المدارس الخاصة يبدو سخيفًا جعلتنا نرتدى (البلوفر) الأزرق وبنطلون البحارة حتى بلغنا العاشرة من العمر ، مما جعلنا دائمًا عرضة لسخرية التلاميذ الذين يرتدون السترات ، وكنت أشعر بالخجل عندئذ ، ولكنى لم أتبين حسن ذوقها إلا بعد ذلك بعشرين عامًا . وكانت تزين مغلفات خطاباتها لنا برسوم بديعة بقلمها .

كان هذا الحب الدائم والحنان الذى تمتعت به من والدىّ يجعل أى اضطراب فى علاقتنا - مهما قصر أمده - مؤلمًا ، وقد حدث ذلك مرة عندما كنت فى السابعة من عمرى ، وقد أطلقت عليه كلمة الخوف ، فقد أرسل أحد أصدقاء والدى صندوقًا من العنب الفاخر الذى نادرًا ما نراه عندنا ، وأويت إلى فراشى كالمعتاد فى موعد تناولهما للعشاء ، وجاءت أمى إلى الغرفة لتسألنى بحدة عمن أكل العنب ، ولما لم أكن قد أكلت شيئًا منه فقد أخبرتها بذلك ، ولكنها طلبت منى أن أعترف ؛ لأن أكل العنب خطأ صغير يجب ألا يتحول إلى خطيئة بالكذب على أمى ، فأصررت على موقفى ، وغادرت الغرفة دون أن تقبلنى مما جعلنى أظل مستيقظًا حزينًا طوال الليل حتى الصباح ، وظلت تتجاهلنى مدة يومين ، حتى اتضح أن أخى الأصغر قد أكل العنب ، ولما لم يوجه إليه أحد الاتهام أو يعلم بما حدث لى ، فقد أسرّ الأمر فى نفسه .

ولما كنت الابن الأكبر ، فقد تمتعت بقدر من التدليل ، وأذكر أننى كنت أعبر عن أنانية بغيضة حتى إن الخادمة قالت لى ذات مرة « سيدى رونالد ، تذكر أنك لست الوحيد فى هذا البيت » إشارة إلى ما لإخوتى من حقوق يجب أن أراعيها .

وأظن أننا كنا نروح عن نفوسنا بأنفسنا دون حاجة إلى الإنفاق على أدوات التسلية خارج البيت ، مما يعد غريبًا هذه الأيام ، وكنا نقرأ كل ما يقع فى أيدينا بسعادة بالغة .

وكنا ننظم مباريات عائلية فى الشطرنج ، فقد تعلمناه من أبى ، الذى كان يعد الشطرنج ملك الألعاب ولعبة الملوك ، ويقول دائمًا إن من يعشق الشطرنج لا يضيع وقته أو ماله فى لعب الورق ، وكان لعب الكريكيت مثيرًا فى بلجراف سكوير أو جروسفنتز جاردنر ، حيث تعد علامات مسار لعبة الجولف لتستخدم مناشف الخيل كحواجز . وكنا نجد متعة فى إسقاط أوراق الشجر من شرفة بيتنا على رءوس المارة من المتجهين إلى الكنيسة لصلاة المساء . وقمنا بعمل أشياء دون أن نتوقع أو ننتظر جزاءً ماديًا ، سواء كانت تلك الأشياء نافعة أو كانت غير ذلك ، فقد كنا نقدم المساعدة لمن يحتاجها والاهتمام لمن نراه فى حاجة لذلك ، لمتعتنا الشخصية فحسب . وأذكر أننى شاهدت أول مسرحية عندما كنت فى الثالثة عشرة ، وذلك لأن عنوانها كان « علامة الصليب » .

وبعد أن قضيت عامًا تحت الاختبار بمدرسة فرانسس هولاند بشارع جراهام فى بمليكو ، أرسلت إلى فرثيرن هاوس بشارع بيكر فى يورك بلاس فى مواجهة شقة الشخصية الأسطورية شرلوك هولمز . وكان للمدرسة حافلة تجمع الطلبة صباحًا ، وتعيدهم إلى بيوتهم مساء . وكان التعليم جيدًا فى تلك المدرسة ، ولكن كنا نعاقب بالضرب لأتفه الأسباب ، وفى عام ١٨٩٢ ذهبت إلى تمبل جروف بمنطقة إيست شين ، وكانت المدرسة من قبل منزلاً للسير وليم تمبل ، حيث ألف دين سويفت « قصة حمام » ، وكان بالمدرسة تقليد بديع قديم من حيث الاهتمام بالأدب اللاتينى ، ولكن بعض المواد الكلاسيكية كانت تبعث على الضيق ، وكانت مراحيض المدرسة تقع فى ممر ضيق لتوفير المساحة للأنشطة الأخرى ، وكانت أرض صالة الألعاب (الجمنازيوم) مغطاة بلحاء الدباغة بدلاً من الحاشيات (المراتب) ، ولكن روح الحرية كانت شائعة .

وأذكر أن المدرس والطلاب أصابتهم الدهشة عندما سألت عما إذا كان باستطاعتنا الحديث فى الصف إذا اضطر المدرس إلى أن يتركه للحظات ؟! وكنت فى

هذا متأثراً بظاهرة التجسس التى كنا نعانى منها فى مدرسة فرثيرن هاوس . وكان من بين من تعلموا فى مدرسة تمبل جروف : السير إدوارد جراى ، ومونتى جيمس ، وآرثر بنسون ، وابن خالى شارلز كست ، وقد عاصرت فى أثناء الدراسة الأخوين التوأم جرينفل اللذين قتلا فى الحرب ، والكاتب القدير الأب مرتندال .

وقد واجهت الخوف مرة أخرى فى تمبل جروف ، فقد خاطب أحد التلاميذ مدرس الموسيقى بأسلوب غير لائق ، فقام بجلده على إليته ست جلدات ، وكان حق جلد التلاميذ مقصوراً على ناظر المدرسة . وقد لجأ التلميذ إلى زملائه شاكياً (وكان محبوباً لديهم) ، فعقدوا اجتماعًا سريا فى المدرسة ، حيث قرروا تسجيل سخطهم بالصمت الاحتجاجى فى حضرة ناظر المدرسة عند تناول الغداء ، فإذا كان هذا موضع مساءلة ، فلا يجب ذكر أسماء قادة هذا الاحتجاج . ولم يكن لدى علم بما بيتوا النية عليه ، فقد كنت عندئذ مشغولاً فى مباراة شطرنج مع مدرس الألمانية ، وعندما اتجهت نحو مطعم المدرسة قيل لى أن ألتزم الصمت ، دون أن أعرف السبب فى ذلك ، وبمجرد انتهاء تناول الطعام ، دعينا إلى الاجتماع بالقاعة الكبرى ، ووقف ناظر المدرسة يسأل بعبارات حادة متقطعة عن أسماء أولئك الذين تسببوا فى إهانته أمام تلاميذه .

وإدراكًا منى لإمكان الربط بينى وبين التلميذ الذى طلب منى الصمت فى المطعم وكذلك زملاؤه ، قمت واقفًا ، لأجد نفسى الوحيد بين التلاميذ الذى فعل ذلك . وبعد برهة صمت قال لى الناظر (بنظرة حزن عميق) ، إنه لا يقبل هذا السلوك ، وإننى أعد مثلاً سيئًا لزملائى ؛ لذلك فإن علىَّ أن أجمع أغراضى كلها وأترك المدرسة على الفور . وهكذا خرجت مطروداً من المدرسة وسط صمت مطبق من التلاميذ وشعور عام بالحزن والضيق .

وأذكر كيف سرت فى الممر منبوذاً ، وكان مما يدعو إلى العجب أن أصبح شخصية ذات أهمية كبرى برغم أنى لم أكن متقدمًا فى المدرسة أو بارعًا فى الرياضة . وكان من الممكن أن ينتهى كل شىء بالنسبة لى ، غير أن رقيب المدرسة كان قد رآنى ألعب الشطرنج مع مدرس الألمانية ، ويعلم تمامًا أنه لا صلة لى بتدبير الاحتجاج . فهرع إلى مدرس الألمانية ، وأقنعا الناظر ببراءتى ، فدعا الناظر إلى اجتماع آخر ، وأعلن أمام التلاميذ أنه قرر العفو عنى هذه المرة ، على ألا أعود إلى ذلك مرة أخرى .

وكنت قد فشلت فى الحصول على منحة بمدرسة أيتون ذلك العام ، ولكنى حصلت على منحة مدرسة شارتر هاوس التى كانت من الناحية الكلاسيكية تكرارًا لمدرسة تمبل جروف ؛ حيث كان الاهتمام محدودًا باللغات الحديثة التى تأتى فى المرحلة الثالثة بالنسبة للتلاميذ الذين يعدون للالتحاق بالجيش ، وجاءت العلوم بعد الكلاسيكيات والرياضيات وحتى التاريخ من حيث الأهمية ، وشغلت كرة القدم اهتمامًا ليس فى موسم المباريات فحسب ، بل وطوال الصيف ، حيث كانت مدرسة شارتر هاوس تتصدر هذه اللعبة التى فاقت الكريكيت من حيث الأهمية ، وكان ناظر المدرسة يحتفظ بالدروع والكئوس باعتزاز كبير .

وكان توماس إيثلبرت بيج بارعًا فى تدريس الإنسانيات ، برغم ما كان يواجهه من صعاب ، وما كان يقع على كاهله من أعباء . ولم يكن لديه وقت أو استعداد لتدريب التلاميذ أو صقل مواهبهم ، ولكن أولئك الذين لازموه (كما فعلت لمدة ثلاث سنوات) شربوا منه رحيق المعرفة . وإذا كان الهدف من دراسة الكلاسيكيات هو الإبداع وليس مجرد معرفة النحو وقواعد اللغة والأسلوب ، فإن حب العظمة الروحية يزداد على مر العمر ، ولكن من المؤسف أن توماس إيثلبرت بيج – أحد المدرسين القلائل الملهمين – عُيِّن – فى منتصف العمر – أستاذًا جامعيًا للاتينية أو اليونانية بإحدى الكليات الكبرى ، هذا للأسف يعود بالطبع إلى تلاميذ مدرسة شارترهاوس الذين حرموا من علمه ، وسوف نظل إلى الأبد نحمل على كواهلنا دينًا ثقيلاً لهذا المدرس الفذ لا يمكن أن نرده يوما ، إنه دين أبدى وعرفان بالفضل ، وهناك فجوة كبيرة بين كفاءات أستاذ الجامعة ومدرس المدرسة يصعب تجاوزها ، ولكننى رأيت فى حياتى الكثير من المواهب والكفاءات التى وضعت فى غير ما تستحق من مواضع ، مما يؤدى إلى تبديد قدراتها . فالناظر الذى خلف الدكتور هيج براون فى شارتر هاوس – ويدعى دكتور راندل – كان أستاذًا جامعيًا لديه قدرات محترمة كعالم وكاتب ، ولكنه لم يكن يعرف شيئًا عن التلاميذ .

وفى كلية بيمبروك بكامبردج عين أحد نظار المدارس (بعد وقت قصير) كبيرًا للمعلمين بالكلية ، وفشل الكثير من كبار المعلمين فى أن يصبحوا نظارًا للمدارس ، تمامًا كما يعجز السكرتير العام الجيد أن يشغل وظيفة المحافظ .

وكانت الأم مس أتفيلد أكثر إثارة للرهبة عند التلاميذ من ناظر المدرسة ، ودعم مظهرها الصارم قراراتها المتشددة ، فإذا كان التلميذ يشكو الصداع أو أصاب كوعه جرح أدماه ، فالأم أتفيلد تعالج كل الحالات بما كان يسمى « مزيج البيت » ، فإذا اعترض التلميذ هددته بإبلاغ الناظر عندما تتحدث معه ، والمرة الوحيدة التى رأيتها تخجل فيها ، عندما جاء إلى المدرسة أمير ملكى سيامى ، وعندما سئل عن إخوته قال إنه لا يعرف عدد إخوته وأخواته ، وذلك لأنه لم يحاول أن يحصى عددهم .

وقد كان الاهتمام كبيرًا فى مدرسة شارتر هاوس بالألعاب الرياضية ، فكان تلاميذ المدرسة جميعًا يحضرون المباريات لفريق كرة القدم والكريكيت وغيرها . وكان الاهتمام الموسيقى كبيرًا أيضًا ، حيث يتعلم التلاميذ العزف والتذوق بأنفسهم دون خجل ، على عكس ما كانت عليه الحال فى مدرسة أيتون ، حيث التركيز على الموسيقى الكلاسيكية وحدها . ولم نعرف شيئًا عن البلاد المحيطة بنا ، ولم تكن لدينا عادة الترحال إلا إذا كان فريق المدرسة مشتركًا فى مباراة مع فريق أخر خارج المدينة ، أما ما عدا ذلك فكان الترحال يعد نوعًا من مضيعة الوقت .

وكان أداؤنا للواجبات المدرسية محدودًا ، ومع ذلك كنا موضع الرضا . وكنا نمرح فى الإجازات الرسمية وغير الرسمية على عكس بعض التلاميذ الذين عرفتهم فيما بعد ، ولن أنسى أبدًا الدهشة التى أصابت اللورد بالمر عندما قام بالتفتيش على مدرسة غزة بفلسطين ، وقرر منح الطلاب نصف يوم إجازة بمناسبة زيارته للمدينة ، فتلقى الطلاب العرب الجادون هذا القرار بالامتعاض والضيق .

وعلى كلٍّ ، من السهل أن توجه الانتقادات إلى نظام المدارس العامة التى عرفت دائمًا بالنمطية ومحدودية المستوى وضيق الأفق ، لقد اكتسبت المدارس مسحة إنسانية - دون شك - فى السنوات الخمس والثلاثين الأخيرة ، ولا تزال قابلة للمزيد من التحسن كغيرها من المؤسسات الإنسانية ، وإذا كان انتقاد المدارس العامة قد شاع فى الخارج من كاليه إلى كلكتا إلى الخرطوم ، من حيث كونها أدوات للتلقين وليس التعليم ، فإن ذلك الانتقاد يتغاضى عن الجوانب الإيجابية فى التعليم العام التى أمكن تحقيقها . فهذه المدارس كالملح فى الطعام ، إذا غاب أدركنا مدى الحاجة إليه ، لقد صليت ذات مرة من أجل ألا تلمح مس أتفيلد الدموع فى عيونى .

وقد فزت بمنحة لدراسة الكلاسيكيات ، ليست ذات مستوى رفيع بكلية بيمبروك التى تعلم فيها أبى بكامبردج ، وخيبت ظن مدرسى عندما فشلت فى حل مسائل الجبر (لأنى لم أعد لذلك) . وقد عانت قاعة مارى أيمردى فالنس القديمة على يد مهندس معمارى كاد يدمر مبنيين فى كامبردج وآخرين فى إكسفورد . وكانت الحجرات الخاصة بنا فى المبنى المعروف بالأحمر معتمة ، بسبب حجب الأشجار للضوء حتى فى فصل الصيف . ولم تكن حجرة المعيشة عندى ترى الضوء إلا عندما يكسو الجليد الأرض ، وذلك لمدة عشرة أيام طوال مدة إقامتى التى امتدت إلى ثلاث سنوات . وعلى عكس الكليات الأخرى ، لم يكن لدينا إنارة كهربائية ولا حمامات للاغتسال . وبرغم ذلك كانت كلية بيمبروك متميزة عن غيرها من كليات كامبردج . وكانت الكلية متقدمة فى ألعاب الكريكيت وكرة القدم ، واستطاعت أن تحتل المركز الأول على مدى خمس سنوات فى أثناء وجودى بها ، وكانت بمثابة امتداد لنظام المدارس العامة فى أحسن مظاهرها ، فكان مستواها عاليًا وسمعتها طيبة ، خاصة فى تنمية الإدراك .

وكان معلمى ليورنارد هويبلى (الشقيق الأصغر للكاتب شارلز هويبلى) مدرسًا محبوبًا وصديقًا عزيزًا ، وكان د. أ. نيل مدرسًا بارعًا فى الكلاسيكيات ، ولو قدر له أن يعمر طويلاً لأصبح أستاذًا لليونانية ، وكان أ. ج. براون أستاذ اللغة العربية ، لغويًا ومستشرقا يأتى فى المرتبة التالية عالميا لفامبرى ، واندفعت ذات مرة نحو النهر بعد فصل دراسى مضنٍ ، وأمضيت وقتًا طويلاً فى لعب التنس ، وكنت – ولا أزال – أشعر بالقلق لضياع الوقت ، فقد قضيت ساعاتٍ طوالاً بددت فيها طاقتى ومالى . ولعبت البريدج من الحادية عشرة للحادية والعشرين ، وقمت بتدخين الغليون ، وجمع أحدث الكتب عن الآثار القديمة فى البلاد ، ولكنى لم أوسع نطاق قراءاتى ، وهى عادة – وإن لم تفد المرء مباشرة فى عمله – تهيئ له فرصة بناء الرأى المستقل والنظرة النقدية ، مما يحقق له النجاح فى عمله ، وأستطيع القول إننى غادرت كامبردج وقد صممت على أن أصرف كل جهدى لدراسة الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية ، مع التعمق فى مريديت ، وسوينبورن ، وموباسان ، وأناتول فرانس ، وبرامز ، وفاجنر ، وباخ ، وزيارة معرض بروج ١٩٠٢ ، وحضور محاضرات كونوايز سلاد عام ١٩٠٢ ، وقد أعطتنى زيارة المعرض وحضور المحاضرات نظرة إعجاب إلى البدائية الفلمنكية ، حتى إننى بدأت حياتى بالقدرة على تقديم البرهان على الأشياء المتميزة .

كان چونى هو من قدمنى إلى ندوة بمبروك التى كانت تعقد مساء السبت من التاسعة مساء حتى منتصف الليل ، ويحضرها أصدقاء چونى الذين يحتلون مقاعدهم ومعهم أكواب الشراب أو القهوة والغلايين للاستماع إلى المتحدث والمشاركة فى الحديث . وكانت ندوة چونى مصدراً للتنوير ، تناقش فيها الفنون والآداب ، والدين والسياسة ، وأمور الحياة الجامعية ، وكغيره من اللغويين لم يكن چونى يركز على اللغة التى تخصص فيها وحدها (الفارسية) ، ولكنه كان يتبنى نظرة أوسع وأشمل للأمور . وكان يتولى مسئولية الجمعية الوحيدة المعنية بالكتاب وهى « دوللى ديالوچ كلوب » .

وعلى مسافة ٢٠٠ ياردة من كلية الملك (King's Coledge) قام أوسكار براوننج بتكوين مجموعة من الجمعيات كانت تجتذب المهتمين بالنظريات وبتاريخ العالم ، خاصة العالم الملكى (أى الإمبراطورية البريطانية) ، بينما كان منافسه فالدشتين يمارس نشاطاً مماثلاً ، ولكن فى مجال الفنون الكلاسيكية ، ولكن جمعيته لم تجتذب رجال كامبردج ؛ لأنه برغم تبحره فى الكلاسيكيات لم يكن يعرف اليونانية .

وذات مرة رآنى هنرى جاكسون (من أعلام كامبردچ العباقرة قريب الشبه من سقراط) عند مكتبة دافيد بالسوق أقلب الملفات ، بينما المطر ينهمر بغزارة ، ولمح وجه الشبه بينى وبين عائلة كست فدعانى إلى غرفته فى نيفى كورت ؛ حيث أدهشنى عندما خلع سرواله وعلقه بجوار المدفأة ليجففه مما أصابه من مطر ، بينما كان يحكى لى ما تذكره به هذه الزيارة ، وفى يوم من أيام سباق القوارب التقيت بأرثر بالفور فى نادى سفيل ، حيث كان هناك يناقش السباق عندما دخل بعض الأعضاء ، وقد التقطت آذانهم ما كان يدور من حديث ، وحاول أرثر بالفور ألا يخيب آمالهم فاستطرد معلقاً على السباق : وهكذا يا أستاذ أنت تنظر نظرة متشائمة إلى مستقبل الأنتولوجيا ، وأراه اليوم يلخص مقولة چى دى موباسان Bel Ami (صديقى الجميل) فى كتاب ألفه وغد عن الأوغاد ليقرأه الأوغاد ، ولكن القراءة الجيدة متشابهة دائماً .

ومازلت أذكر بالفخر والإعزاز يوم انتخبت عضواً بالديسمفيرى ، وهى جمعية من عشرة ينتخبون من مختلف الكليات تجتمع مساء كل أربعاء فى حجرة أحد أعضائها

لتناقش موضوعًا مثل : « الفحم المصقول أفضل من الألماس الغفل » ، أو أن « نظام المدارس العامة فاسد » ، وينتهي الاجتماع عند منتصف الليل ، وكان من أبرز أعضاء تلك الجمعية شارلز تينيسون ، وكان عندئذ محدثًا لبقًا ، و.ج.م. كينز ، وكان معارضًا غير إنساني ، وليتون ستراتش الذى كان قادرًا على الحديث بصوت عالٍ يلفه الغموض فلا تستطيع أن تميز أقوال المؤيدين من أقوال المعارضين ، وكان ستيفن جاسيلى - كدأبه دائمًا - شخصية بارزة فى كامبردج وهو بعد فى سن العشرين ، وكان محط اهتمام الكثير من الأصدقاء ، باعتباره عالمًا بالكلاسيكيات من الطبقة الأولى ، وبدراسة الكتاب المقدس ، وفن البيليوجرافيا ، وكان يغطى شعره بشبكة عندما يلعب التنس ، ويربى القطط السيامية ، يطعمها قطعًا من رئة البقر يحتفظ بها فى طبق على رف مكتبه ، وتظل مدفأته مشتعلة كل يوم على مدى العام ؛ لأن إنجلترا باردة ، وأسس مطعم دايبنوسوفست ، حيث يلتقى الأعضاء مرتدين معطف العشاء المبطن بحرير الليلاك . ويبدأون بشرب الفودكا ، ويستمتعون بالطعام الشهى والسمر : وكان جاسيلى يقرأ ويكتب اللغة القبطية القديمة .

وبرغم نفورى من لعب الورق والقمار ، اشتركت منذ وقت مبكر فى نوع من المسابقات التى كانت تتم أيام الأحد فى شارترهاوس عندما كنا نتراهن بمبالغ بسيطة على مطالع أناشيد قداس المساء ، وكان من الممكن أن يأوى المرء إلى فراشه غنيا برغم قلة مبالغ المراهنة ، وقد قضيت عامى الأخير بكامبردج (١٩٠٣) فى المراهنة على من سيتم انتخابه بابا جديدًا بمناسبة انتخابات البابوية . وقد راهنت على رامبولا ، غير أن اعتراض إمبراطور النمسا عليه خيب أملى فى كسب الرهان .

وقد عملت بجد فى الشهرين الأخيرين لأداء امتحان الامتياز ، ولحسن حظى ، ومن أجل إسعاد من يهمهم أمرى ، حصلت على المركز الأول ، وقد عدت مملوءًا بالفخر إلى لندن ، وعندما سألنى والدى عما أنوى عمله ، قلت لا أريد أن أقدم على شيء يتطلب اجتياز المزيد من الامتحانات . وحدث مصادفة أن ذكر رينل رود لصديقه هارى كست أن السير ألدون جورست المستشار المالى للحكومة المصرية بدأ خطة جديدة لتوظيف الخريجين (الإنجليز) فى الإدارة المصرية والسودانية ، وأنه موجود الآن فى لندن لهذا الغرض . فقمت بمقابلته ، ووقع علىَّ الاختيار ، وعدت إلى كامبردج لقضاء عام آخر مع غيرى ممن وقع عليهم الاختيار لدراسة وإتقان العربية على يد الأستاذين

براون والشيخ حسن توفيق الذى يعد أول صديق مصرى بين العديد من الأصدقاء المصريين . وقد لمست عنده الجهل المطبق بالدراسات المقارنة للغات السامية ، وهو ما تعلمته - فيما بعد - على يد مستعربين كبار فى مصر وفلسطين والعراق . وكان الشيخ حسن توفيق طفلاً من الناحية المعرفية ، فقد كان يصر على أن كلمة (سولونج) « Solong » الأمريكية مأخوذة من « سلام » .

ولما كنت أعيش خارج يمبروك بالقرب من كينجز ، فقد أتاح لى ذلك معرفة العديد من الزمـــلاء وتوسيع آفاق صلاتى بالناس ، وبعد أن اجترنا امتحان اللغة العربية بنجاح ، قررنا إقامة حفل وداع لبراون والشيخ حسن توفيق ، وبعد أن اجتمع شملنا حول مائدة العشاء تلقينا رسالة من الشيخ يعتذر فيها عن عدم تمكنه من الحضور فى الموعد ، ويطلب منا أن نتناول العشاء دون انتظاره ، وبعد العشاء قمنا بزيارته لنجده فى مرحلة احتضار ، ولبثنا بجواره حتى مات ، وسرنا فى جنازته حيث دفن هذا الرجل الطيب فى بلاد غريبة .

وبعد ذلك بقليل علمنا أن السير ألدون جورست صاحب فكرة توظيفنا بالإدارة المصرية سوف يترك مصر ، فأصابنا ذلك بالإحباط ، وبعد عودتى من كامبردج ، قبلت عرضاً من أسرة رود لأسافر معهم مدة شهرين إلى سورنتو ، لأعلم ولدهم فرانسس اللاتينية واليونانية والعهد القديم ، مع إطلالة عامة على تطور الحضارة ، وقد أتاحت لى هذه المهمة فرصة التزود بالخبرة عن البلاد الأجنبية والحياة الدبلوماسية ، بالإضافة إلى لقائى اليومى مع شخصيات ممتعة ، وما أذكره عن نابولى جمال البرونز وقبح الطبيعة والعروض التى تتم أمام حشد هائل من الناس فى الهواء الطلق ، وفى سينيا - فى طريق العودة - كان من حظى قضاء ثلاثة أيام فى زيارة معرض موسترا (١٩٠٤) ، وأن أقيم أول صلاتى مع العالم الخفى المعنى بنقد الفنون ، وفى فلورنسا أنفقت كل ما حصلت عليه من أجر فى سورنتو لتلقى دروسى الأولى فى الإيطالية . وفى نهاية سبتمبر ودعت إنجلترا ، ومكثت نحو ثلاثة أيام بباريس مع أمى وإخوتى ، وتركت ورائى سعادة موطنى ووالدى اللذين أحببتهما ، لأذهب إلى مارسيليا لأستقل السفينة آرابيا فى الطريق إلى مصر .

الفصل الثانى

موظف بالمالية المصرية

(١٩٠٤ - ١٩٠٥)

رست السفينة « أرابيا » فى ميناء بورسعيد يوم ٥ من أكتوبر ، ولم أستطع اللحاق بقطار المساء المتجه إلى القاهرة ، وكان رفاقى الذين تم اختيارهم للعمل فى خدمة الإدارة المصرية هم نورمان ماكناجتن وينحدر من إحدى عائلات أيتون ، وأ. س. ناشن ، وهـ. ف. أرتشر (١) .

وغادرنا الباخرة فى المساء مدفوعين بما يشاع عن المدينة من أنها أسوأ مكان على الأرض ، ولكن ذلك كان محض افتراء ، فالمدينة كانت أهدأ قليلاً من وست جيت ، وتحتوى على بعض الدكاكين التى تبيع المعلبات .

وفى اليوم التالى ، كانت الرحلة إلى القاهرة التى استغرقت ست ساعات دون طعام أو شراب برهانًا على قيظ رمضان ، ووصلنا إلى فندق الكونتننتال حيث استأجرنا جناحًا كاملاً مقابل ١٢ شلنا فى الليلة أى ما يعادل ستة قروش مصرية . « والقرش عملة لعينة ، كل قرشين يساويان خمسة بنسات والخمسة قروش تساوى بوب ، و٩٧,٥ قرش تعادل جنيهًا إسترلينيًا واحدًا - ترى هل يوجد ما هو أسوأ من ذلك ؟ » .

قابلنا السير فنسنت كوربت - المستشار المالى - ووجدت أنه قد وقع الاختيار علىَّ للعمل فى وزارة المالية ، بينما كان على زملائى الثلاثة التوجه إلى الإسكندرية ليتدربوا على العمل بوزارة الداخلية .

وكانت الإقامة بفندق الكونتننتال تتجاوز قدراتى المالية ؛ إذ كان مرتبى عشرين جنيهًا شهريا ، ولذلك انتقلت إلى « بنسيون توفيق » الذى كان يديره إيطاليون ، ولم يكن مكانًا سيئًا أبدًا ، فكنت أدفع تسعة فرنكات مقابل غرفة النوم ووجبات الطعام الثلاث ، الإفطار والغداء والعشاء ، « وقرشًا واحدًا مقابل الإنارة » .

(١) أصبح - فيما بعد - حكمدار بوليس القاهرة .

وكانت وزارة المالية بناءً ضخمًا بنى أساسًا من خشب (البغدادلى) والجص ، وكثيرًا ما كانت السقوف ترشح من مكان لآخر . وكان السلم الوحيد بالمبنى يتحول من وضع الاستقامة إلى الوضع الدائرى . وكان المبنى فى الأصل خاصا بحريم إسماعيل بك المفتش (الحرملك) الذى كان وزيرًا للمالية ومستشار السوء للخديو إسماعيل . وعبر بوابة هذا المبنى كان إسماعيل المفتش يخرج يوميا للقاء سيده الخديو ليتناقش معه – دون أن يخشى أن يسترق الحوذى السمع ، فقد كان أطرش – حول أفضل الوسائل للحيلولة دون اعتصار ما بقى من الملايين من كد الفلاحين لتصب فى أيدى الدائنين الأجانب .

ومن بين المصالح الحكومية ، كانت إدارة البريد (البوستة) من نصيب الفرنسيين ، وكانت السكك الحديدية (بما فيها التلغرافات) مرتعًا للأقباط . أما وزارة المالية (التى كانت لها اختصاصات الخزانة البريطانية عندنا وفى البلاد الأوروبية الأخرى) فكانت آخر قلاع اليهود السفارديم القادمين من سالونيك ، والشوام . وكان الموظفون الإنجليز بوزارة المالية معدودين ، فإلى جانب المستشار المالى ، كان هناك وكيل الوزارة ، ومدير الضرائب ، ومدير مصلحة الأملاك الأميرية ، إضافة إلى طبقة محدودة من المفتشين ، ونتج عن ذلك أن أى نظام للمحاسبة لا يتماشى مع أهواء الأقباط أو الشوام يواجه العقبات التى من الممكن أن تضايق أكثر المصلحين صبرًا وعزمًا ، ولكن المسلمين الذين تعلموا بفضل اللورد كرومر بدأوا يحتلون مواقعهم ، وبدأ الاعتماد يقل تدريجيا على الشوام المبغوضين ، وكانت ساعات العمل بوزارة المالية من الثامنة حتى الواحدة بعد الظهر يوميا بما فى ذلك الأحد ، ما عدا يوم الجمعة وهو يوم الراحة والصلاة عند المسلمين . وكانت أكواب القهوة المصرية تقدم نحو ست مرات يوميا ، كما تقدم للشخص إذا انتقل إلى قسم آخر مجاور لقسمه لإنجاز أمر يتعلق بالعمل .

وسوف أظل أذكر ما شملنى به زميلى هـ. ن باودن سميث – السكرتير الخاص للمستشار المالى – من عطف فى بداية عملى بالوزارة ، وكان بارعًا فى تقليد خط وأسلوب الكتابة والخطابة للسير ألدون جورست رئيسه السابق ، وقد عرفت بعد مرور

عشرين عاما على عملى بالشرق الأدنى أن أحد مرءوسىّ المصريين كان يقلد طريقة تعاملى مع العرب وطريقة مشيتى ولبسى للقبعة ذات الطراز القديم .

ولم يكن وكيل الوزارة ألفرد ميتشل آنئذٍ قد عاد بعد من إجازته ، فوجدت نفسى بين يدى نوبار أنيس بك وهو إنســان ودود شــامى من أصل إسكتلندى - أرمنى ، استطاع أن يجعل كتبة وكالة الوزارة غير الأكفاء على مستوى عال من الانضباط دون أن يؤدى ذلك إلى تحسين مستوى أدائهم لعملهم . وكانت معظم المراسلات لا تزال تكتب بالفرنسية وتتعلق بالإضافة والخصم وغير ذلك من العمليات المالية مثل بدلات السفر ونفقات الخيل .

وكان نوبار يعاملنى بود، ولكنه لم يسند إلى عملاً محدداً ، وكنت أقضى اليوم أتفحص الملفات بصبر وأناة حيث إنه لم يطلب منى عملاً ما ، وكان الوقت يمضى متثاقلا لا نفع منه . فلو كانت الإدارة تفكر جيداً لكان علىَّ أن أقضى أسبوعين بكل قسم مع المرور بنوع من الامتحان أو التقييم فى نهاية المدة ، بينما بدأ زملائى الثلاثة الذين ذهبوا إلى الإسكندرية فى التدريب على ركوب الخيل والتدريبات العسكرية وأعمال التفتيش على مراكز الشرطة والسوارى . وعادوا إلى مقر وزارة الداخلية بعد ثلاثة أو أربعة شهور سعداء بتجربتهم العملية ، بينما لم تتح لى مثل تلك الفرصة ، وقد وجدوا أسماءهم منشورة فى أحد التقارير الذى وصفهم « بالاستعداد والاحترام » .

ولكن وزارة المالية شهدت حوادث يمكننى أن أنظر إليها بقدر من السخرية « مساء أمس اصطدنا فأراً بحجرة المستشار المالى ، وقبل أن يتم التصرف فيه أحضره باودن إلى ولز وإلىَّ وأرسلنا فى طلب قطة ، فجاءوا بواحدة بيضاء لا نفع منها ، فطلبنا غيرها ، فجاءونا بقط أسود شرس ما كاد يرى الفأر حتى طارده داخل سراويل الساعى الذى أخذ يصرخ طالباً من الله أن يحميه من النجاسة ، وقد وافقنى على أنه كان يخشى أسنان القط أكثر من خشيته الدنس » .

وحدث مرة أخرى عندما كنت أساعد باودن سميث أن وقف فجأة أمام المستشار دون أن يحمل معه مفتاح الخزانة فقد نسيه فى منزله ، وكان على محمود - ساعى المكتب - أن يجد حلا للمشكلة ، فعاد بعد قليل ومعه مجرم أعمى اتجه نحو الخزانة

وصنع مفتاحًا لها ، ما كاد يضعـــه فى القفـل حتى ارتد باب الخـزانة إلى الوراء ، مما زادنى احترامًا لبراعة أرباب الحرف فى الشرق التى تعود إلى الماضى السحيق .

«إن مقولة إن مصر أم المدنية ومن أوائل أعمدتها مجرد خدعة ، وإلا ففى أى بلاد الدنيا يكلف موظف مدنى (قبيل انقضاء أسبوع على بداية خدمته) من رئيسه باصطحاب أحد كبار رجال الكنيسة الإنجيلية فى جولة لتفقد القاهرة القديمة ؟! لقد تناولت الغداء مع الرجل فى فندق شبرد ، ثم استأذنت منه أن أتركه لمدة نصف ساعة هرعت فيها إلى البيت لأقرأ بعض صفحات دليل بايديكر السياحى وعدت لأصحبه فى جولة بالقاهرة القديمة لأريه مقياس النيل ، وهو المكان الذى كان يقام فيه مولد موسى (ولم يعد يقام الآن) والكنيسة القبطية القديمة مارى جرجس حيث يعتقد أن العائلة المقدسة حطت رحالها هناك للراحة عند قدومها إلى مصر » .

وكان المسافرون إلى الشرق الأدنى والأوسط - الذين يعدون أنفسهم زوارًا ، ونعتبرهم نحن سياحًا - مصدر متعتنا أحيانًا ، ومصدر شقائنا فى أغلب الأحيان ، وفى حالات معينة يثيرون انفعالنا وغضبنا ، فبعد جولتى مع رجل الكنيسة الإنجيلية ببضعة أيام ، دعتنى عائلة من السياح لتناول العشاء بفندق مينا هاوس ، وسألنى صاحب الدعوة عما إذا كان الإطار الذى يزين قاعة الطعام من الأرابيسك أو الزهور ، فقلت له إنه نص قرآنى ، وقرأته بصوت عال ثم ترجمته إلى الإنجليزية ، فقال الرجل بعدما أحس بجهله بما رأى « القرآن ، نعم ، دعنى ألقى نظرة عليه ، أجل إنه القرآن الخاص برمسيس أليس كذلك ؟! » ولاحظت - فيما بعد - عندما خدمت بفلسطين أن مثل أولئك السياح يتأرجحون بين الدقة المفرطة والسذاجة الشديدة . وقد عرفت سيدة إنجليزية عجوزًا ، أخذت معها ترجمانًا فى رحلة إلى الصعيد ، ولم تترك نصا هيروغليفيا دون أن تسأل عن معناه، فكان حسن الترجمان - الأمى - يتفحص النص باهتمام ثم يجيب « إن الرب طيب » ، وتقبلت السيدة ذلك باقتناع تام فى كل مرة يردد فيها قراءته الوهمية للنص . وقد درج بعض الحمَّارين على أن يخروا راكعين أمام بعض السياح الذين يجدونهم منعزلين عن غيرهم ، ويقولون لهم بإنجليزية ضعيفة « صدقينى يا سيدتى إننى فى حاجة إلى النقود » ، وقد يجد ذلك الحمَّار نفسه وقد

كوفئ "ببدلة" جديدة وخمسة جنيهات تكفيه للعيش لمدة عام حتى يحين الموسم التالى ، فيكرر نفس المشهد مع سائح آخر .

وفيما عدا الجيش والموظفين (الإنجليز) ، كانت القاهرة لا تزال تتكلم وتفكر بالفرنسية ، وتعيش عيشة فرنسية ، بقدر ما كانت الإسكندرية إيطالية ويونانية ، وكان نادى الترف **Turf Club** يقع فى شارع المغربى فى مقابل المعبد اليهودى السفاردى (الذى يبدو محترماً رغم رداءة عمارته) ، ويعد ذلك النادى ملاذاً مغلقاً للفئات العليا من الجالية البريطانية فى مصر ، وكان معظمهم يقضى ما بين الساعة والخمس ساعات يوميا بين جدران النادى . وكان البواب رجلاً من الجبل الأسود « بالبلقان » ذا هيئة مميزة ، وكان كبير طاقم الخدمة يونانيا سريع الحركة لماحًا ، ينادونه باسم « ألفونس » ؛ لأن اسمه الحقيقى « سقراط » لا يتفق مع مهنته من وجهة نظر هارى بويل ، السكرتير الشرقى بدار المندوب السامى . وكانت قيمة الاشتراك السنوى بالنادى سبعة جنيهات ، ويمكن الحصول على حجرة نوم بخمسة جنيهات شهريا يضاف إليها ثمانية جنيهات فى حالة تناول الوجبات الثلاث بالنادى ، ولما لم أكن قد ترددت على أى ناد من قبل ، فقد بهرتنى كمية وتنوع الصحف والمجلات المتاحة بالنادى، ولكن ما لبثت أن رأيت الاقتصار على قراءة التايمز والڤى باريسيان **Vie Pari-sienne** . ويقع نادى الجزيرة الرياضى فى موقع بديع ، أهداه الخديو توفيق (للإنجليز) فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، ثم تم تحسينه فيما بعد ، وأصبح بدوره المعقل الآخر للجالية البريطانية ، وكان من الصعب على الأجانب (من غير الإنجليز) أن ينتخبوا لعضوية النادى ، وكان محظوراً على المصريين دخول أى من الناديين . وقد لمحت ذات مرة مصريا بنادى الجزيرة يلعب التنس وتبين لى أنه أحد الوزراء (وأصبح رئيسًا للوزراء فيما بعد) .

والشيء الرئيسى الذى أذكره عن الأسابيع الستة الأولى فى مصر أننى كنت أعانى الوحدة والحنين إلى الوطن . وما لبثت أن انتقلت من « بنسيون توفيق » إلى فندق المتروبول بحثاً عن إقامة أفضل ، وهو بناء غير جذاب يبدو على غير حقيقته ، ولا يعرفه إلا القليل من المقيمين بالقاهرة ، كما لا يعرفه أى سائق حنطور ، ومقابل خمسة

جنيهات شهريا حصلت على غرفة نوم بحمام مضاءة بالكهرباء ووجبة إفطار غنية أتناولها فى السابعة والنصف صباحًا .

أما زملائى بالإسكندرية ، فقد كانوا يعيشون معا فى ظل نظام صارم شغل معظم تفكيرهم ووقتهم ، وفى القاهرة ، كان الموظفون الإنجليز الصغار يعملون مفتشين أو وكلاء إدارات يحيط بهم أصدقاؤهم ومعارفهم ، ولكنى كنت وافدًا جديدًا وحيدًا بوزارة المالية ، بلا أصدقاء أو معارف ، ثم حققت تقدمًا فى هذا الاتجاه عندما تعرفت على أرنست ريتشموند ابن السير وليم ريتشموند الرسام ، وحفيد چورچ ريتشموند الفنان وصديق وليم بلاك ، ولم يكن صديقًا جذابًا كريمًا فحسب، بل تعلمت منه الكثير الذى يجعلنى مدينًا له بالفضل ، وقد أحب ريتشموند المصريين وأحبوه ، وتعلمت منه المشاركة فى الحديث مهما يكن موضوعه جدًا أو هزلاً ، وقد أتاح لى ذلك التعرف على المصريين وتحسين لغتى العربية .

وقد أخذنى للإقامة معه فى الشقة التى يسكنها مع هوارد كارتر مفتش الآثار الذى كان يعمل بمنطقة سقارة ، وحرصًا من ريتشموند على عدم إثارة غضب كارتر الذى أشيع عنه حدة الطبع (وهو ما لم ألمسه فيه) ، زعم له أننى مجرد ضيف، رغم أنى كنت شريكًا لهم بالشقة .

وقد عاد كارتر إلى الشقة ذات مساء ، يبدو عليه الضيق وذكر لنا القصة التالية : بحكم كونه مفتش آثار سقارة فهو مسئول عن السرابيوم حيث تقبع أربع وعشرون مومياء للعجل المقدس ، جاء كبير الخفراء مهرولاً ليخبره أن هناك مجموعة من صغار الموظفين الفرنسيين والبلجيك جاءوا إلى السرابيوم ، وأنهم يشربون الخمر ويتصرفون فى المكان تصرفات غير لائقة ، فذهب كارتر إليهم باذلاً النصح لهم ، ولكنهم لم يهتموا به ، فما كان منه إلا أن أطلق عليهم ثلاثة من الخفراء السودانيين الذين طرحوا اثنين أو ثلاثة أرضًا ، وكان القصد من تصرفه هذا الحرص على حماية الآثار التى تقع مسئوليتها على عاتقه ، ولكن بمجرد عودة أولئك الزوار إلى القاهرة قدموا شكوى رسمية ضده إلى القنصل الفرنسى المسيو دى لابولنييه ، فاستدعاه كرومر لمقابلته لتأنيبه على ما فعل ، ولكنه خرج بانطباع (أبديناه فيه) أن اللورد كرومر مرتاح للطريقة التى تصرف بها كارتر ؛ فقد وجد اللورد أقل انزعاجًا مما كان متوقعًا .

ولم يكن القنصل الفرنسى متحمسًا للشكوى وأصحابها ، ولكنه كان يخشى احتمال نشر القصة بالصحافة الفرنسية المحلية فيصل الأمر إلى باريس ، ولم يكن قد مضى عام على توقيع « الوفاق الودى » ، ولذلك كان على كرومر أن يقدم ترضية له ، فأمر كارتر أن يقدم اعتذاراً للقنصل الفرنسى عما حدث .

وقد دهش اللورد لرفض كارتر تقديم الاعتذار مصرا على أنه قد أدى واجبه ، وزاد على ذلك برفضه صيغة الاعتذار حتى لو كان مخطئا ، ومن ثم كان عليه أن يترك خدمة الحكومة المصرية ، وبذلك يقدم مثلاً للتدهور الإدارى الناجم عن المجاملة التى تتجاوز أصول المعاملة الرسمية . ولعل قدراته الخاصة استطاعت أن تفتح له الطريق ، وإلا لما كانت رسومه المائية للوحات الجصية المصرية قد حققت ما حققته من شهرة ، وما كانت قد حققت له الشهرة التى جلبها له كشف مقبرة توت عنخ أمون ، ولما كنت وريتشموند نجهل ذلك ، فقد أبدينا تعاطفنا مع كارتر باعتباره بطلاً يسعى لتدمير نفسه .

وكانت إيجارات الشقق بالقاهرة (قبل ثلاثين عامًا)(*) لا تغطى سوى المكان والأدوات الصحية ، ولكن توصيل الكهرباء وحتى الأجراس لا يدخل فى مسئولية المالك . وكان علىّ وريتشموند أن نتحمل تكلفة ذلك عندما انتقلنا إلى شقة بالعمارة ٢ شارع شريف التى كانت مملوكة للسيد إبراهيم وفا ، وتضمن عقد الإيجار نصا يقول إن « المالك يتعهد بمعاملة المستأجر معاملة الأب الطيب للعائلة » ، وهكذا عشنا سعداء مقابل إيجار زهيد ، وإن كان التأثيث شاقًا ؛ لأن الذوق الإيطالى – الشامى الذى يغلب عليه التذهيب والطلاء الأزرق الفاتح والرخام يثير الامتعاض . واضطر ريتشموند فى نهاية الأمر أن يصمم الأثاث ، ويكلف نجاراً محليًا بعمله .

كان من الممكن أن أظل بسكرتارية المالية إلى الأبد ، وقد أرقى إلى مراتب مجهولة ، وقد أنزل فى هوة سحيقة ، لولا تمتعى بكرم وعطف الليدى كرومر التى كنت أحمل لها خطاب توصية ، وقد استدعتنى للقائها فور عودتها من إنجلترا ، وسألتنى عما إذا كنت أحب عملى ؟ فقلت لها إننى لا أستطيع أن أؤكد ذلك ؛ لأنه ليس لدى عمل ما . فنقلت هذه المعلومة إلى اللورد كرومر الذى أسعده أن يعرف ما يدور داخل

(*) من وقت تدوين هذا الكتاب .

المالية ، فالتقى مستشار المالية فى صباح اليوم التالى ولامه على « جلب أوائل خريجى الجامعات الذين يتقاضون مرتبات كبيرة » ثم لا يسند إليهم عملاً محدداً . وأدى ذلك إلى تحريك الموقف بالنسبة لى ، فاستدعانى المستشار المالى وسألنى عما إذا كنت أقبل العمل سكرتيراً لمصلحة المناجم والمحاجر التى أنشئت حديثًا ، فسارعت بقبول العرض ، وكان رئيسى الجديد هو ج. ف. ولز المفتش العام للمناجم ، وكانت له صفات طيبة منها فهمه للشاب الذى يعمل معه ، ويفتقر إلى الخبرة الفنية ، ولكنه على استعداد أن يتعلم .

وبصفتى سكرتير مصلحة المناجم ، صحبت ولز فى بعض رحلاته إلى الصعيد ، فيما وراء معبد إدفو حيث النقوش اليونانية واللاتينية التى حفرها السجناء وهم يموتون جوعًا وعطشًا ، وفيما وراء الجبل الجرانيتى الأحمر حيث قام الرومان بقطع الجرانيت وحمله لتزيين منشآتهم الإمبراطورية ، وقد طلب منى فى الليلة الأولى أن أقيم أول معسكر فى حياتى ، فوجدت الجَمَّالة من أجهل أهل الأرض ، لم يروا فى حياتهم مقعداً أو طاولة ، ولكنهم فى غاية الطيبة ، وقد شجعتهم بالحديث عن فوائد المعرفة ، وكيف أنها قد تجعل منهم بكوات وباشاوات ، فقال أحدهم وكان يحمل برميل ماء ثقيلاً « ولعلنا نصبح صدفة جَمَّالة مرة أخرى » .

وقد قمنا بالتفتيش على مناجم الذهب الخاصة بشركة وادى النيل بالعلاقى ، وهى أعمق من الطبقة الفرعونية بما يوازى مائتين أو ثلاثمائة قدم ؛ حيث يتم استكشاف الأعماق ، وما وجدته هناك أو بعبارة أدق ما لم نجده هناك هو عدم إعطاء طريقة استخراج الذهب المصرية القديمة حقها من التقدير والاهتمام ، وقد استنتجت ذلك مما رأيت ، ومما قرأت بالقاهرة من تقارير الخبراء . وكانت المناطق المحتمل وجود الذهب فيها وامتياز تأجير المناجم الذى تنافست سوق لندن من أجل الحصول عليه يشبه ما جاء بقصيدة هيلار بيلوك :

أرض عفير البيضاء ، يبحث فيها عن الذهب

بأمر سليمان منذ القدم

الذى أبحر شمالا إلى بريم ،

وأخذ كل الذهب معه

تاركًا وراءه العديد من الحفر ،

فراغات تبعث اليأس

فى تلك الأرواح الوليدة

اكتشفنا أنهم قد اشتروا نصيبًا

فى الأفق العظيم ، حيث

الصحراء المضنية القحلة ،

تمتد إلى مالا نهاية

ورغم أن استخدامى لهذه القصيدة كان دقيقًا ومعبراً ، ولكنه عند المستر ولز لم يكن مستحبًا ، وخاصة عندما يصدر عن مرءوس شاب إلى رئيسه الممتلئ بالحماس لتنمية صناعة مهمة ، ومازالت تعيش أزمة حتى الآن ، فقد انتقلت المناجم المصرية من إخفاق إلى آخر ، وقد ضجت المصلحة بالحركة ذات صباح عندما أعلن أنه تم اكتشاف الفحم فى نفس الموقع . وقد تم إحضار عينة من الفحم أخذت على التو إلى الوزارة لتعرض فى مكتب الوزير . وقد ارتدينا "البدل" ذات الأزرار المحكمة وعلى رءوسنا الطرابيش ، ووقفنا فى حضرة مظلوم باشا وزير المالية ؛ حيث قام ولز بوضع بعض قطع الفحم فى المدفأة ، ولكن الفحم استعصى على الاشتعال ، وتبددت معه آمال مصر فى إنتاج الفحم .

ورغم أن عملى لم يكن مناسبًا ، فإن الحياة فى القاهرة لها منافعها ؛ إذ كان باستطاعة المرء أن يحجز مقعداً مناسبًا فى الأوبرا الخديوية بما يعادل أربعة شلنات ، وكانت الفرق الفرنسية والإيطالية تتلقى دعمًا يبلغ نحو أربعة أو خمسة آلاف جنيه كل عامين ، وكان الإيطاليون يقدمون أعمالاً أوبرالية متميزة ، بينما كان الفرنسيون

يقدمون المسرحيات ، ومبنى الأوبرا مكون من الخشب (البغدادلى) والجص ، ولكن كوكلان يزعم أن المبنى شديد التحمل وجانبه الأيمن يحمل مقصورات الحريم حيث يمكنك أن تلمح عند المدخل بريق المجوهرات والعيون الجميلة . وكان من الممتع إمعان النظر فى مقصورات الوزراء . فالباشاوات يحضرون عادة متأخرين ويغطون فى النوم بعد خفوت الأضواء ، وعندما يحين موعد فقرة رقص الباليه تراهم قد استيقظوا فجأة وكأنهم تلقوا أمراً بذلك ، ويمسك كل منهم بمنظاره يرقب الراقصات ، والاستراحات طويلة بين الفصول ، كما هو الحال فى جنوب أوروبا والشام ، فلا ينتهى العرض عادة قبل منتصف الليل .

ولم يكن باستطاعتى تحمل نفقات العشاء ، ولكن بعض أصدقائى كانوا يدعوننى أحياناً إلى مطعم سان چيمس - أو چيمى - الذى كان ملتقى طلاب المتعة غير المكلفة، وكان جهلى بأمور الحياة مطبقًا حتى إننى سألت مضيفى يومًا هامسًا : « هل هذه الكونتيسة كونتيسة بحق ؟! » ولم أكن أعرف أن السيدة تجيد الإنجليزية ، فأدركت مدى سذاجتى ، وهبت واقفة تدور حول نفسها لتكشف عن الوشاح الذهبى المطرز على ذيل قميصها الداهلى .

وكان السير حول المساجد وخلال الأسواق يجلب لى المتعة ؛ حيث كنت أحاول أن أتعرف فى تلك الجولات على أمزجة الناس وأفكارهم ، وأعتقد أن أكبر الأسواق فى الشرق الأدنى توجد فى القاهرة وإستانبول وحلب . وكان بازار بزستن فى إستانبول أكثرها جمالا ومتعة . وتقدم سوق حلب السلع الضرورية أكثر من تقديمها للتحف . وقد أحببت أسواق القاهرة منذ وقعت عليها عيناى ، ورغم أنها أصبحت الآن أقل أهمية وأكثر حداثة إلا أنى مازلت أحبها . وجاء نحو التسعين بالمائة من التجار بالأسواق ، والسلع التى يتجرون بها ، من خارج مصر ، فكان من بينهم الشوام والفرس واليهود والأرمن واليونانيون والطرابلسيون والچورچيون والجراكسة ، ولا تكاد تجد مصريا بينهم .

وفيما عدا النحاس الأصفر والأحمر وبعض شرائط حرير المحلة من قصر أحد الباشاوات ، جاءت معظم السلع المهمة من إستانبول والشام وفارس وتونس واليونان . ومن الأشياء غير ذات القيمة المطرزات البلغارية الرخيصة المصنوعة آليًا ، والشيلان

الإسبانية كانت يابانية الصنع ، شأنها فى ذلك شأن الأقلام الرصاص وعلب السجائر التى تحمل رسوماً فرعونية .

أما المخمل الزواوى ، وطرابيش الحريم المطرزة بالترتر ، وعطور « نفحات الصحراء » ، والعنبر ، والزجاج ، والعقود المرجانية ، فكانت أسعارها تختلف باختلاف مصادرها والقيمة الفنية للعمل ، ومدى إمكانية منافسة بضائع باريس وبرمنجهام ، وما يسمى الآن بتشيكوسلوفاكيا لتلك المنتجات الشرقية .

وكانت العوائد الجمركية (وهى الضرائب الوحيدة التى يدفعها الأجانب فى مصر) عالية ، وحتى لو لم تكن كذلك ، فإنه من المعروف أن ثمن السجاد الفارسى أو الأناضولى فى لندن أرخص منه فى أصفهان ، وكذلك المرمر اليونانى أرخص منه فى أثينا . ومازال أهل أوروبا يجدون متعة فى شراء الأشياء التى تعبر عن جو ألف ليلة وليلة ، أكثر من اهتمامهم بأجواء السوق وروائحه . ولا شك أن الغرب الحريص ماديا سوف يسمح بتدفق السياح ، ولو حدث ذلك فسوف يتمكن كبار الملاك الذين يسافرون إلى الخارج من تحقيق أرباح كبيرة ، فى وقت لا يرون فيه إلا أماكن محدودة من مصر زمن الشتاء .

وتباع معظم التحف الأثرية المصرية فى المحلات الخاصة بذلك ، التى تنتشر حول الفنادق الكبرى . وهنا تلعب المعابد فى الأقصر والأهرام دوراً فى فرض أسعار باهظة يتقاسمها الفلاح الذى عثر على الأثر والسمسار والبائع ، ولا يهتم المشترى عادة إلا بعدد القرون التى مرت على إنتاج التحف ، وقد يزيد الثمن عنه فى لندن وباريس وبرلين . وقد رأيت تجاراً مصريين فى لندن يكدسون بضائعهم فى سانت چيمس ليتم بيعها فى الموسم التالى لزبائنهم فى قصر النيل أو الأزبكية .

وكان خان الخليلى وسوق الحمزاوى يبعثان البهجة فى نفسى ، حيث التفاؤل التام بالصباح ، والعطور والبخور ، ونداءات الباعة بعد الظهر ، وانعكاس ضوء القمر على الحوارى الضيقة والمبانى فى مقابل الظلال ، والسكون التام المناقض لصخب السوق فى النهار ، الذى لا يقطعه إلا شخير الخفير أو أصوات قطع النرد على موائد أحد المقاهى المنزوية بعيداً عن العيون ، وقد ينادى الحشاشون على بعضهم البعض وسط

الظلام قائلين : « يا حاج أحمد فين التعميرة ؟ » وقد يأتيه الرد بأنها جاهزة هناك . وقد ذكر لى أحدهم أن من مزايا الحشيش أن المرء قد يرى أعمدة البواكى بشارع محمد على وقد تباعدت عن بعضها البعض عدة أميال . وعندما سألته عما يجعل تلك الأعمدة أكثر قرباً من بعضها ، نظر إلىَّ باستهزاء ووجدنى لا أستحق أن يفضى إلىَّ بأسراره .

وفى شهر رمضان ، تقام سرادقات أمام المحال تعلف فيها خراف ذات ذيول مصبوغة بالحناء لكى تذبح فى العيد . ويحيى الناس بعضهم بعضاً بعبارة « رمضان كريم » فيأتى الرد - عادة - « والله أكرم » وفى المساومات عند الشراء عندما يصل السعر إلى نهايته يقول البائع « برى فكس » أى السعر محدد (تحريفاً للتعبير الفرنسى المعروف Prix Fixe) ، فإذا تعجلت فى الشراء أو أبديت تمسكًا بالسلعة أو قبلت شيئًا على سبيل الهدية ، انعكس ذلك كله على السعر. فإذا أظهرت عدم الرضا عن السعر بقولك « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » حرص البائع على إنكار ذلك بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وقد ينتهى الأمر بأن تدفع جنيهين فى سلعة بدأت المساومة عليها بعشرين جنيها .

ولا أظن أن موظفًا بريطانيا شابا جديداً تطلع إلى إجازة يقضيها فى الوطن بعد قضاء فترة عمل قصيرة غير مجدية فى بلد متحضر حار المناخ ، مثلما كان سكرتير مصلحة المناجم يتطلع إلى تلك الإجازة ، فرغم أننى لم أعد وحيداً ، كنت مازلت أعانى الحنين إلى الوطن ، وكانت التعليمات تقضى بعدم الحصول على إجازة بالنسبة للموظف الجديد قبل قضاء شتاءين فى مصر ، ولكن حدث نوع من التراخى فى تطبيق القاعدة (ولكنى حصلت على إجازة بدون مرتب) وفى ٥ من مايو ركبت باخرة شركة لويد النمساوية « سميراميس » إلى برنديزى ثم البندقية (فينسيا) ومنها إلى لندن .

وقبل أن تتحرك السفينة كانت سعادتى بالغة عندما تعرفت على اللورد ملنر الذى كان عائداً تحيطه هالة من المجد وعدم السعادة معًا من مهمة فى أفريقيا عبر مصر التى عرفته كوكيل بارز لوزارة المالية ، إلى إنجلترا التى كانت تبدو عندئذ لا تهتم بالتعرف عليه . وكان ملنر نموذجًا للحقيقة التى آمنت بها وهى أن عظماء الرجال هم

أكثرهم تواضعاً ولطفاً ليس فى التعامل مع أقرانهم فحسب ، بل وفى التعامل مع من دونهم منزلة . فكان يتمشى معى على سطح الباخرة بعد الغداء والعشاء يتحدث باستفاضة فى أحد الموضوعات ، ويتناول فى حديثه جميع الأمور من أهم الكتب التى قرأها إلى أحسن الوسائل لتجنيد عملاء المخابرات ، وعندما وصلنا إلى البندقية ، استطعت بحكم صغر سنى وسرعة حركتى أن أصل إلى فندق دانيللى – وهو الفندق الوحيد الذى أعرفه – قبل أن يصل إليه الآخرون ، واستطعت أن أحصل على الحجرة اليتيمة التى بقيت فارغة بالفندق ، ولما كنت أعرف أن ملنر يعتزم الإقامة فى دانيللى ، سألت عما إذا كانت هناك غرفة محجوزة له فجاء الرد بالنفى ، عندئذ طلبت من إدارة الفندق أن يحجزوا غرفتى باسمه حتى أوفر على هذا الرجل العظيم عناء البحث عن مكان آخر . وما كدت أغادر فندق دانيللى حتى التقيت مسافراً آخر هو السير هيوبرت ميلر فأصر على دعوتى لقضاء أسبوع فى شقته الفاخرة ضيفاً عليه ، فكانت المرة الوحيدة فى حياتى التى كوفئت فيها مباشرة على عمل حسن قمت به ، وقد تناولت العشاء مع ملنر وزرت الكنائس بصحبته ، وأعجبنى اهتمامه الشديد بكل شىء .

* * *

وفى إجازتى الأولى فى الوطن ، شربت شراباً كثيراً لا لأنها المرة الأولى ، ولكنها كانت بداية لإعجاب شديد .

وقد سبق أن أشرت فى الصفحة الأولى من هذا الكتاب إلى أبوة خالى هنرى جون كست الذى كان يكبرنى بجيل كامل ، ولكنه جذب اهتمام كل من قابلوه أو عرفوه فى شبابه ومن عرفوه بعد ذلك . وأذكر بعض ما حفظته ذاكرة هؤلاء عن هذه الشخصية الفذة .

كان عضواً محافظاً فى قسم ستامفورد فى لنكولنشاير عندما التقى عام ١٨٩٢ وليم إستور فى حفل عشاء ، وقد اختاره بعدها رئيساً لتحرير صحيفة البولول جازيت ، فاستطاع أن يحلق بها فى آفاق الشهرة ، فلم تكن تضاهيها أى جريدة مسائية أخرى فى إنجلترا ، وكان من [illegible] جريدة رديارد كبلنج ، وهـ. ج. ولز

وجورج ستيفنز الذى أصبح فيما بعد أشهر مراسل حربى فى عصره ، وكانت هذه الجريدة أول صحيفة تنظم مسابقات أدبية .

وفى ربيع عام ١٩١٠ زار مصر وبصحبته زوجته ، كما حج بعدها إلى القدس مرتين ، وكان فى تلك الزيارات وفى غيرها يترك أثراً كبيراً فى نفوس من يلتقى بهم ، وكان شديد الاعتداد بنفسه تربطه صداقات واسعة بعدد من المحافظين وخاصة الوزراء ورؤساء الوزارات ، كما كان عضواً بالبرلمان ، وقد ترك رئاسة تحرير البولمول جازيت عام ١٩٠٦ ليتفرغ لأعماله الأدبية والسياسية .

وقد اقتربت منه فى السنوات الأخيرة فى كامبردچ وأحسست بأبوته ، وتوطدت صلتى به فى إجازتى الأولى بعدما أصبحت موظفاً بمصر .

الفصل الثالث

من مفتش جمارك إلى مراجع مالية

(١٩٠٥ - ١٩٠٧)

من مثل تلك البيئة ، وذلك الوسط ، عدت إلى مصر فى يوليو ١٩٠٥ مفعمًا بحنين إلى الوطن يقترب من اليأس . وكانت رحلتى بالقطار عبر أوروبا إلى تريسته لألحق بباخرة شركة أوستريان لويد مليئة بالحيوية ، فقد دخلت فى حوار مع أحد الإيطاليين الوطنيين ، احتجت فيه إلى التحلى بالصبر لجهلى بلغته ، ولكن الحديث كان ممتعًا حتى غادر القطار فى ڤيرونا ، فغططت فى نوم عميق ، مما أدى إلى فقدى المواصلة التى تحملنى إلى تريسته ، ووجدت نفسى فى البندقية (فينسيا) عند منتصف الليل ، وقد بدا علىَّ الارتباك والضيق حتى إن سيدة أجنبية كانت فى نفس مقصورة القطار ، تجيد الإنجليزية ، سألتنى عن السبب ، وأمرت صاحب الجندول أن ينقل متاعى إلى قصرها فى ريو خارج القناة الكبرى ، وقد تناولت العشاء مع السيدة، وسألتنى عن مصر ، ثم أعادتنى إلى المحطة فى الساعة الواحدة والنصف صباحًا لأستقل القطار إلى تريسته ، ولم أستطع التعرف عليها ، وسواء كانت على قيد الحياة أو توفيت فأنا مدين لها بالشكر .

وعندما بلغت المحطة ، علمت أن القطار لن يغادر فينسيا قبل السابعة والنصف صباحًا ، ولن يصل إلى تريسته قبل الظهر ، وكانت الباخرة « سميراميس » التى ستقلها إلى مصر ستبحر فى الثانية عشرة والنصف ، فاتخذت مقعدى بالقطار وحولى متاعى ، واستغرقت فى النوم .

وقد تحرك القطار فى موعده ، ولكنه أبطأ كثيرًا فى سيره بعد ميستر ، وأصبح واضحًا أنه لن يصل إلى تريسته قبل الواحدة بعد الظهر . فأحسست باليأس ، وما قد يقال عن موظف مبتدئ لا يحترم المواعيد ، يعود من إجازته بعد خمسة أيام من موعد العودة من أول إجازة يحصل عليها ، وأصابنى الفزع ، فنزلت فى عدد من المحطات بالطريق لأرسل برقيات لقبطان السفينة بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية بأسماء مختلفة مستعارة راجيًا إياه أن يرجئ الإبحار لمدة ساعة واحدة . وبعد ذلك – كما يقول العرب – سلمت أمرى لله . وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد الظهر

عندمـا تحـركت بى العـربة فى اتجـاه الميناء ، وهدأت نفسى عندمـا رأيت علم شـركـة أوستربان لويد يرفرف فوق الباخرة « سميراميس » التى كانت لا تزال راسية هناك . وحملت أوراقى وجواز سفرى فى يدى وهرعت إلى مدخل الباخرة ، فسـألنى الموظف : « أين بقية المجموعة ؟ » فقلت له إننى أسافر وحيداً ولا أدرى عنهم شيئًا ، وما كدت أصل إلى مـقصورتى بالباخرة ، حتى قـرر القبطان الإبحـار بعد عشـر دقائق ، دون انتظار للآخرين ، ولم يسـألنى أحد عمـا إذا كنت قد أرسلت برقيات طالبًا إرجاء الإبحار ، ولم تتح لى الأيام الأربعة التى قطعتها الباخرة فى رحلتها إلى الإسكندرية فرصة الاحتكاك بالقبطان أو ضباطه أو حتى المسافرين الآخرين .

وكـان الوزراء المصريون ووكـلاء الوزارات والسكرتارية الخـاصـة بهم قـد انتقلوا عندئذ إلى الرمل بالإسكندرية لقضاء الصيف ، وكانت الرمل ضاحية مليئة بالحدائق ، وليست محـاطة بمبان خرسـانية كمـا هو الحـال فى جاردن سيتى بالقاهرة ، وتحولت أجنحـة فندق كازينو سـان إستيـفانو إلى مكاتب ، وكان معظمنا يفضلون العـمل فى الشـرفات المطلة على البحـر التى تحـجب المظلات الشـمس عنهـا ، وفى الدور السـفلى كانت تقع قـاعات الطعام والشراب والرقص ، وكـان الأطفال يلعبون ويصرخون حتى الظهيرة ، ويهدأ المكان بعد الظهر ، وتتألق الموائد المغطاة بالرخام لاستقبال مجموعات من الأوروبيين الذين يتـولى خدمـتـهم نوبيـون يعملون ببطء ولكن دون توقف حـتى فى الساعات الباكرة من الصباح .

ولم أكـن أعرف أحـداً بالفندق الذى اسـتـأجـرت فـيه حـجرة صـغيـرة فى نهـاية المدخل ، بعيـداً عن البحـر مقـابل ثلاثة عشـر شلنًا يومـيًا للإقـامـة الكاملة . وكـانت الإسكندرية – عندئذ – تبـدو خـاليـة من النـاس ، فكنت أمـشـى لمسـافـات طويلة على الشـاطئ الشـرقى دون أن ألقى أحـداً . وكنت أسبح أحيـانًا وأركب الخيـل أحـيـانًا أخرى ، أو أجمع بين الاثنين معًا ، وقد جددت صداقتى مع هارى دى لاروس فرنال الدبلوماسى البريطانى عضو صندوق الدين (المصرى) ، وهو من الروس القلائل الذين يعيشون خارج بلادهم . وكان فرنال يحمل بين جنبيه قلبًا من ذهب ، موسوعى المعرفة محبًا للشعر ، رغم مظهره المتأنق وملامحه الصارمة ، ولم يكن له تأثير شخصى علىَّ ، غير أنه أعطانى كتابًا صغيراً جعلنى أقترب من عالم دانتى .

.. عدت فى الخريف إلى القاهرة التى يصفها دين بوتشر بأنها موت الروح ، وهى كذلك لمن لا يجد عملاً يستغرق وقته ، أو شيئًا يثير اهتمامه .

وبدأت علاقتى بولز تنتقل من سيئ إلى أسوأ ، فهو يرى أن يكون سكرتير المصلحة الجديد مجرد هاو ، ومن الصعب عليه وعلىّ - أيضًا - أن أبدى حرصًا على معرفة أمور المصلحة . وكانت هذه أول تجربة شخصية لى لما قد يترتب على وضع الأشرار الأغبياء فى مناصب رئيسية ، ولكن هذه الحالة لم تكن أتعس مما واجهت بعد ذلك فى حياتى العملية ؛ لأن الخطأ لا يعود إلى السلطات التى تحدد من يشغل مثل هذه المناصب . لقد كان السبب بسيطًا وواضحًا ، فلا عمل لى بالسكرتارية ، ولم تكن هناك سكرتارية لمصلحة المناجم ، فما الحاجة إلى موظف جديد بينما يمكن الاستعانة بأحد الموجودين ؟ لماذا - إذن - لا يتم التخلص من خريج كامبردج الذى لا نفع منه ؟ ولحسن الحظ ، وعلى غير توقع ، خلت وظيفة مفتش بمصلحة الجمارك ، فقد كتب شيتى بك - مدير المصلحة - إلى المالية طالبًا « أحد المتعلمين » لشغل هذه الوظيفة . وانتهز المستشار المالى هذه الفرصة ، وقرر أن يتخلص منى ويخلصنى منه ، وأن يلبى طلب شيتى بك ، ولكن الموقع الجديد أصابنى بالقلق ، فقد رأيت فيه إبعادًا لى عن ديوان الوزارة وعن العاصمة إلى عمل تافه كالتفتيش على متاع المسافرين ، وكنت قد ارتحت إلى مجال العمل فى المناجم كما يرتاح الأثينى إلى محاجر سيراكيوز ، ولكن الموظف الجديد عليه أن يقبل ما يعرض عليه شاكرًا ، ولذلك قبلت الاقتراح قبل أن يصدر به أمر رسمى .

وقبل أن أترك موقعى بثلاثة أيام ، أرسلت إلىّ الليدى كرومر دعوة تلقاها اللورد كرومر باللاتينية من جامعة أبردين ، وطلبت منى أن أكتب ردًا عليها بنفس اللغة ، ولم أكن أعلم أن قاضيًا ورجلاً آخر قد اعتذرا عن عدم القيام بهذا العمل بحجة عدم وجود قاموس أو كتب لاتينية لديهما ، فقمت بهذا العمل وأنا فى غاية السعادة . ورغم أنه لم تكن لدى أى كتب لاتينية ، أعددت ردًا بليغًا قدمته لليدى كرومر وقت تناول الشاى ولم يكن قد مر من الوقت نحو الساعة منذ تلقيت هذا التكليف . فدعتنى إلى تناول الغداء ، وقالت إن اللورد وصف ما كتبت بأنه « بالغ الجودة » ، وعلى مائدة الغداء وجدت اللورد

سعيداً بما فعلت ، وقال لى إنه شعر عند توقيع الرد بأنه منافق متطفل ، وأهدى إلىَّ نسخة من ترجمته لمختارات يونانية .

وقد سعدت بما سمعت ، وغادرت الإسكندرية (ولكن أحد هواة جمع التوقيعات سرق منى كتاب المختارات اليونانية) . وقبل أن أغادر الإسكندرية أهديت علبة سجائرى لأحد الأصدقاء ودخنت الغليون طوال الرحلة إلى القاهرة التى استغرقت ثلاث ساعات ، وقبل أن أصل إلى القاهرة بخمس دقائق ألقيت بالغليون وكيس التبغ من النافذة لأدخل عالم غير المدخنين لعدة سنوات .

واستقبلنى شيتى بك (السير آرثر شيتى فيما بعد) بالترحاب ، وظل يعاملنى بعد ذلك بلطف وحساسية ، وقال لى إنه يعتقد أننى لن أحب عملى الجديد ، ولكنى سوف أعتاده .

وقد ذكر لى العديد من الرؤساء الذين ارتبطت أسماؤهم بالجمارك ، وأن التحاقى بالمصلحة يعد فرصة جيدة لى ، وأننى أعد محظوظاً لتعيينى بهذه الوظيفة . وقد شجعنى ذلك على الاستغراق فى العمل بالمصلحة التى كان شيتى بك منشئها . وقدم لى شيتى بعض التفاصيل عن الإدارة التى كان يرى أن مهمتنا فيها أن نصل الليل بالنهار لمصلحة مصر ، والعمل على راحة المصريين الذين يعملون بها . ولعل ذلك جعل المصريين يذكرونه دائما بقولهم : « شيتى بك ، والله راجل طيب » . ولأول مرة شعرت بالارتياح النفسى ؛ لأن هذه المصلحة الصغيرة تسعى لتحقيق الأفضل .

كان الجانب الأكبر من دخل الضرائب (نحو المليونين) يأتى من التبغ الذى يرد إلى مصر ليستخدم فى صناعة السجائر ، إضافة إلى بورسعيد والسويس ودمياط ، ويرجع الفضل فى تدفق الموارد على خزانة الجمارك إلى حكمة المدير العام ودقة الروتين الذى وضعه ، ولكن الأمور لم تكن تسير دائمًا سيراً حسنًا ، فقد بنى أحد رجال الجمارك ڤيلا جميلة ، وكان مسئولاً عن تقدير الجمارك على المنسوجات القطنية ، وكانت هذه الفيلا تسمى فى الجمارك « بيت مانشستر » . وقد أسس شيتى مع جورست مصلحة الأموال المقررة ، وقيل إنها قد نظمت على أساس أن تسير الأمور

فيها بدقة بالغة . وكانت مصلحة الجمارك صنيعة الإسكندرية ، فهى معبرة عن جو بلاد الشرق الأدنى ، علاقة العمل فيها جيدة ومسلية .

وكانت الإسكندرية أقرب إلى أوروبا منها إلى القاهرة من الناحيتين الرسمية والتجارية ، واختلفت عن غيرها من مدن البلاد الإسلامية فى أن الحركة لم تكن تتوقف فى المدينة وعلى أرصفة الميناء يوم الجمعة ، ولكنها كانت تتوقف يوم الأحد ، وإلى جانب الإنجليز الستة الذين يعملون بالجمارك كان هناك مسلمون من عائلات طيبة مثل الغرياني ، وراسم بك ، وبعض الأقباط الظرفاء مثل نجيب بك مسئول رصيف الشركة الخديوية ، ومعلوم بك . كما كان هناك بيكر (السكرتير الخاص السابق للإمبراطورة إليزابيث إمبراطورة النمسا) ، ثم هناك مدير جمرك الإسكندرية خليل باشا حمدى حمادة الذى كان شاميًا قديرًا ومستبدًا معًا .

وجاءت ترقية أحد المفتشين الإنجليز إلى وظيفة مساعد مدير لتتيح لى فرصة الانتقال إلى الجمارك لشغل إحدى الوظائف الناتجة عن هذه الترقية ، وهو ما يبعث على الارتياح ويبقى قدرًا من الأمل فى العدالة . ولكن الحال لم تكن كذلك ، فقد كان هناك موظف منضبط يأتى إلى العمل قبل مواعيد العمل الرسمية ، ويتركه بعد موعد انتهاء العمل بساعات ، يعد ملفات دقيقة بالعربية ، متأنق فى مظهره ، لا يدخل على المدير دون أن يحكم أزرار المعطف وكذلك الطربوش ، ولكنه ظل لسنوات طوال ينتظر الترقية دون جدوى ، مما جعله موضع سخرية زملائه عندما تم الاستغناء عنه ليحل محله موريس بك (ابن أحد الباشاوات) وكان يحضر بعد موعد العمل بما يزيد على الساعة مع صديقه الجمال (الذى كان من طبقته) ويغادران المصلحة قبل موعد الانصراف بساعات ، ولم يكن يحتفظ بملفات مرتبة أو غير مرتبة ، بالعربية أو بغيرها من اللغات ، ويرتدى أحدث طرز الملابس الأوروبية ، ولا تسمع له صوتًا فى الإدارة إلا عندما ينادى « يا أحمد .. هات اثنين قهوة مضبوطة » ، ويجلس فى حضرة الباشا المدير متكئًا على مكتبه ، يشاركه احتساء القهوة ، ويقدم له سيجارة من علبته المرصعة بالجواهر .

وكان من واجبى كمفتش للإدارة العامة أن أقوم بزيارات مفاجئة للأقسام الخاضعة لى (والتى حددها شيتى بك بدقة) ، وكان الأمر يتطلب الاحتفاظ بعلاقة

جيدة مع مدير الجمرك . وقد طبقت بعض المعايير التى لقيت استحسانًا عند الجادين من موظفى الجمرك ، وكنت أسجل ما يعن لى من ملاحظات أرفعها إلى شيتى بك من حين لآخر . وكانت الضرائب الجمركية محددة بنسبة ٨ ٪ من قيمة البضاعة ، فإذا لم يكن باستطاعة المورد أن يدفع قيمة الضرائب الجمركية ، أخذت الضريبة عينًا بواقع ثمانى قطع من كل مائة قطعة . ولما كان ذلك يؤدى إلى نقص فى الموارد المالية للجمارك مما يؤثر على دفع رواتب الموظفين وسداد كوبونات الدين ، كانت الجمارك المحصلة عينًا تباع مرتين أسبوعيا بالمزاد فى مخزن يعرف باسم « منه فيه » ، وكنت أحضر هذا المزاد للتأكد من دقة تقدير قيمة السلعة عند طرحها فى المزاد .

وكان تقدير قيمة البضاعة ، ومن ثم الضريبة الجمركية من سلطة الإدارة وحدها ، فقد قمت مرة بحضور مزاد على ست لوحات قدر مأمور الجمرك الضريبة المستحقة عليها بخمسة عشر جنيهًا على أساس أن قيمتها ١٦٠ جنيها ، فطلب صاحبها طرحها للبيع بالمزاد ، وعندما رأيتها وجدتها نسخًا رديئة جدًا منسوخة عن نسخ للوحات معروفة ، فقدرت قيمتها بثلاثين جنيها .

وكان مهربو الحشيش يخفونه فى أرجل الكراسى وداخل آلات البيانو وغيرها من الأماكن التى تعبر عن براعة البشر فى التحايل على القانون ، فقد كان الحشيش ممنوعًا بحكم القانون ، وقيل إن الطن الواحد منه يساوى ما يتراوح بين ثلاثة وخمسة آلاف جنيه ، وكان الكيلو يساوى خمسة جنيهات ، ورغم ذلك كان متاحًا ، فيكفى أن تبدى كرمك لزوارك فتأمر الخادم أن يشترى الحشيش ببضعة قروش ، فيعود إليك بعد برهة يحمل فى يده عينة منه ، وإذا كان أكل وتدخين الحشيش من الموبقات التى ابتليت بها مصر ، فإن الجهود التى بذلت لمكافحة تهريبه وإنتاجه محليا والتى بذلها راسل باشا ، فتحت الباب أمام تهريب الهيروين الذى منع كذلك ، وأدى ذلك إلى زيادة استهلاك وشرب الشاى المغلى الأسود ، فالبحث عن مادة مكيفة أقوى من التبغ ظاهرة شائعة فى الشرق .

ولم يكن التهريب قاصرًا على المخدرات وحدها ، فذات يوم كنت أرقب عملية تفتيش باخرة فرنسية قادمة من لبنان ، وكانت هناك امرأة شامية منقبة ، فلا ترى

منها شيئًا من رأسها إلى أخمص قدميها ، وترتدى قفازًا فإذا بقطعة من المعدن تسقط عند قدمها ، ولما لم يكن من حقى تفتيشها فقد طلبت من المفتشة مسز براون ذلك ، فأمسكت بيد السيدة وأدخلتها الغرفة للتفتيش ، وعادت بعد قليل وبيدها مسدس محشو بالرصاص ومجموعة من الخناجر ، ولم تكن السيدة ذات سجل إجرامى ، ولكن زوجها جعلها تحمل ذلك السلاح ليتهرب من سداد الضريبة الجمركية .

وكان يتم مصادرة كميات كبيرة من السلاح والذخيرة بصفة دائمة ، وكذلك العديد من الكتب وبطاقات البريد التى تحمل مواد أو رسومًا مخلة بالآداب العامة . وكنا نضع المضبوطات من المطبوعات وبطاقات البريد على قارب ونبحر بها إلى عرض البحر لنلقى بها فى الأعماق .

وفى ذلك الوقت تقريبًا ، وقعت حادثة العقبة التى أصبحت منسية الآن ، فقد قام السلطان عبد الحميد الثانى بمحاولة لدفع خط الحدود الفلسطينية من موقعه الحالى (رفح - العقبة) فى الاتجاه نحو قناة السويس . وقامت القوات التركية بإزاحة علامات الحدود ، فقد دفعت فكرة الجامعة الإسلامية عبد الحميد إلى أن يعمل على دعم الخلافة التى كتبت نهايتها على حدود مصر عام ١٩١٤ . وقد اعتبرت بريطانيا ذلك نوعًا من الخداع ، ورفضت الإذعان للتهديد ، فلم يكن باستطاعتها إلى أن تسلم مصر التى جاءت لتحميها ، ولأنها تعلم أنه منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد كانت الدولة التى تملك سيناء تسيطر على مصر ، سواء كانت هذه الدولة شرقية أو غربية ، وقد تم توجيه إنذار للسلطان حتى يسحب قواته خلال عشرة أيام ... وقد أذعن للإنذار قبل ساعة واحدة من انتهاء مدته .

وقد كتبت جريدة « اللواء » - أكثر الصحف المصرية عداء (للإنجليز) - أن بريطانيا نفذت كل مطالب السلطان ، وأنه تعطف بقبول رجاء بريطانيا ، وأن تركيا حققت الكثير من المكاسب من وراء ذلك ، وأن الصحافة فى كل بلاد العالم قد خدعت فلم تدرك هذه الحقيقة . وقد أنعم السلطان برتبة الباشوية على مصطفى كامل - محرر الجريدة - الذى يحظى بتأييد ألمانيا . وكان الجنود الأتراك أكثر أسفًا لإقرار السلام ، فقد كانت القوارب البريطانية تزودهم بالطعام فى طابا ، كما أن البدو لم يهاجموهم لأنهم لا يملكون ما يستحق النهب .

ولم تكن الإسكندرية مدينة واضحة لمن يفد إليها ، فقبل معرفتها معرفة حقة ، يحتاج المرء إلى دراستها وعشقها ، وقد أحببت المدينة من شارع شريف باشا الذى يحمل ملامح بوندستريت بلندن ، وحى أنسطاس، وحى الجمرك وقراقول العطارين . وفى جو هذه المدينة المصرية أحسست بسحر الشرق : الفراعنة ، وسليمان ، وهوميروس ، والإسكندر ، وفرجيل ، والقديس بولس ، ودانتى ، ودانلولو ، وأنطونيو وكليوباترا ، وتاجر البندقية . عالم ينظر إلى الماضى أكثر من نظره إلى المستقبل شأن القارات الكبرى .

كانت حياتى مرهقة بدنيًا ووقتى مشغولاً ، استأجرت كابينة تابعة لخفر السواحل تقع على الطرف الشرقى لخليج ستانلى بالرمل مقابل ثلاثة جنيهات شهريًا ، كان البحر يحيط بجانب منها ، ولا ينقطع سماع هدير الأمواج ، وكان بالكابينة بعض الكتب وبيانو ، ولكنى لم أمكث فيها إلا نادرًا ، ولما كنت قد أصبحت ناقدًا أوبراليًا لجريدة الإچبشيان جازيت ، حضرت العروض التى كانت تقام على مسرح زيزينيا الصغير الأنيق ، فكنت أسير لمدة عشر دقائق إلى محطة الترام ، ثم تستغرق رحلة الترام بالإسكندرية ٢٥ دقيقة ثم أسير عشرين دقيقة إلى الجمرك ، وأعود إلى منزلى بعد انتهاء العمل لأغتسل وأرتدى ملابس السهرة ، وأتجه إلى مسرح زيزينيا لحضور عرض الأوبرا ، ثم أكتب نقدى للعرض على مائدة رخامية فى مواجهة المسرح ، وألحق بترام الساعة الواحدة والنصف صباحًا وهو آخر ترام من الإسكندرية إلى الرمل ، ثم أركب الترام مرة أخرى بعد نوم لا يزيد على أربع ساعات فى الطريق إلى عملى بالجمرك .

* * *

وفى عام ١٩٠٦ حصلت على إجازتى وسافرت إلى اليونان ، حيث قضيت أسبوعًا لا ينسى بالمدرسة الإنجليزية وعشت فى الأكروبولس ، ثم ذهبت بالبحر من بتراس إلى برنديزى ، فوصلت إليها فى السابعة صباحًا ، واتجهت مباشرة إلى شركة توماس كوك لأستعلم عن موعد القطار التالى إلى ميلانو ، فقال لى الموظف إن القطار يتحرك فى الثانية بعد الظهر ، فصحت قائلاً : « يا إلهى ، هل سأنتظر فى هذه القاعة لمدة سبع ساعات » ، فإذا بالموظف يقول : « لقد انتظرت هنا سبع سنوات » ، وقد

أحسست بالضيق ، وأردت أن أكفر عن هذه السقطة ، فانتظرت حتى حان وقت انصراف الموظف ودعوته لتناول الغداء معى ، وقد استمتعت فى هذه الإجازة بصحبة موراى جوثرى ، الذى عرض علىَّ وظيفة بشركة ناشيونال ويسكونت ، ولكن مواهبى المحدودة فى المسائل المالية جعلتنى أعتذر عن عدم قبول العرض .

وفى نهاية العام ، ترك شيتى بك إدارة الجمارك ليصبح مستشاراً لوزارة الداخلية ، ولكنه لم يستطع أن يمضى قدماً فى عمله بعد عامين من القلاقل والصعوبات ، من بينها اغتيال بطرس غالى باشا ، وأخيراً استقال من الخدمة . وظل الطريق من فندق شبرد حتى المحطة مزدحماً لمدة ساعتين بالباشوات والعمد والشيوخ وكبار موظفى الحكومة الذين جاءوا بدافع من عرفانهم بفضل الرجل ، لمصافحته لآخر مرة قبل رحيله عن مصر .

أدين بأمرين لفترة خدمتى بالجمارك ، أولهما أن ضيق الأفق والسلبية والتوجس التى نادراً ما تتوفر عند الرجال ، ولا يعرفها النساء ، تمثل ضمير الجمارك ، فبغض النظر عن متاعب جباية الجمارك ، فإن عدم رضا رؤساء الأقسام وإدارة الحسابات وحتى مصلحة الإحصاء ، ناهيك عن المدير العام ، مازالت تأكل فى لحمى . أما الأمر الثانى الذى أدين به للجمارك فهو السعادة التى وجدتها فى السير على أرصفة الموانى فى أى وقت ، ليلاً أو نهاراً ، ومشاهدة الأوناش الضخمة ، وطريقة تكسير الفحم ، وأصوات صفارات السفن التى لا تنقطع .

وقد جاء فى المنصب من خلف شيتى بك الذى كان يصعب على أحد أن يملأ الفراغ الذى تركه بالانتقال إلى الداخلية . وانتهى دورى فى الجمارك ، عندما وصلت برقية بتعيينى مساعداً للسكرتير الخاص للسير فنسنت كوربت المستشار المالى .

وعدت إلى وزارة المالية لأجدها كما تركتها من قبل ، ففى مكتب المستشار المالى حل أثرنجتون سميث محل باودن سميث (ولا تميز لأحدهما عن الآخر فى شىء) ، ولم يكن هناك عمل يكفى لشخصين ، وهأنذا فى السادسة والعشرين من عمرى ، لدى معرفة للعمل بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية والعربية ، ولدى خبرة بالعمل فى المناجم والجمارك وسكرتارية المستشار المالى ، ولكنى لا أجد ما أعمله !!

وكان المستشار المالى يزور اللورد (كرومر) كل صباح لتلقى التوجيهات منه (فقد كان المستشار بمثابة رئيس وزراء اللورد) وتعلمت وأثرنجتون أن نستنتج من تعبيرات المستشار أمورًا تتضح دقتها (فيما بعد) ، وذلك لأن اللورد لم يكن يبدى احترامًا للأشخاص ، وكانت قوة شخصيته ومكانته تجعل تأثيره مريعًا فى بعض اللحظات ، كان وقع اسم اللورد كرومر له ثقله الكبير . كانت دار المعتمد البريطانى من الناحية الرسمية لا تزيد من حيث الوضع القانونى عن غيرها من القنصليات الأخرى ، ولكن مكانة المعتمد البريطانى فى مصر كان لها وزن نائب الملك فى الهند ، وحاكم المستعمرة ، والسفير ، فى نظر المصريين والأجانب على السواء ، إنه يمثل ١٠ داوننج ستريت (رئاسة الوزراء) وقصر باكنجهام مجتمعين معًا .

ذكرت لى الأميرة نازلى فاضل أنها كانت تجلس ذات مرة مع ابن عمها الخديو توفيق ، عندما سمعا صياحًا فى الطريق ، فقال لها توفيق ، وقد اكفهر وجهه ، « اسمعى .. إننى أميز صيحات السايس أمام عربة بارنج (لورد كرومر فيما بعد) ، ترى ماذا يريد أن يقول لى ؟! » . وفى يوم بلغ التوتر السياسى فيه ذروته ، رأى سكان القاهرة هذه الشخصية المعروفة (كرومر) يتجه بعربته صوب نادى الجزيرة ليلعب التنس . وهو يصدر النصائح لتنفذ على الفور ، فهى فى حقيقة الأمر مجرد أوامر لا تناقش أو ترد . وقد وقفت أخيرًا على براهين على تأثير كرومر فى الوطن (إنجلترا) ، فقد كان اللورد سولسبورى رئيسًا للوزراء ووزيرًا للخارجية ومعروفًا بالشك والتسلط معا . فقد عثرت على برقية مرسلة إليه من المعتمد البريطانى يشكره فيها على تعليماته ، ولكنه يوجه عنايته إلى أن برقية القاهرة الأخيرة كانت تعلمه بما تم عمله بالفعل وليس بما يقترح عمله ، ولم يحدث سوى مرة واحدة أن يأتى تعجله وتسلطه بنتيجة عكسية . فعندما عاد من مصر بإجازة ، طلب مقابلة الملك فتحدد له موعد المقابلة بعد ثلاثة أيام ، فقال اللورد كرومر للسكرتير الخاص للملك إنه كان يأمل أن تتم المقابلة بعد ظهر نفس اليوم حتى يستطيع أن يركب قطار المساء للاستجمام بإسكتلندا ، فقال الملك إدوارد عندما علم بذلك « يبدو أنه يظننى الخديو ! » .

كانت قراءات اللورد كرومر واسعة وعميقة ، كما يتضح من مؤلفاته الشهيرة ، ويعد من بين القلائل الدارسين للهللينية منذ القدم حتى اليونان الحديثة ، ولكن تواضع

معرفته فى مجالين من مجالات الآداب جعله لا يقدر عوامل التخلف أو يتواضع معها . ذهب يومًا إلى حجرة الاستقبال التى كان يشغلها كاتب شاب مقيم بدار المعتمد البريطانى ، وكان الرجل غير موجود وقد ترك على المنضدة مجموعة متفرقة من الكتب المصورة بالفرنسية فجمعها كرومر ، وألقى بها فى المدفأة ، وعاد صاحبها ليجدها على هذه الحال ، فصاح قائلا : « إنه فن قوطى، ياله من متوحش » .

أما زوجـــة كرومر الثانيـة (الليدى كرومـر) فكانت نبيلة فى شخصيتها ومظهرها ، لا تعنى كثيرًا بالحياة الاجتماعية الدبلوماسية ، وكانت شديدة الاهتمام بمصر القديمة والإسلامية والحديثة ، كتبت إلىَّ يومًا ما : « عزيزى مستر ستورس .. سوف يكون فضل منك إذا استطعت الذهاب معى غدًا إلى الأهرام فى ترام الساعة الثالثة .. المخلصة : كاترين كرومر » ، وكانت الصداقة والبساطة والنبل هى سمات مثل تلك الرحلات .

ومن الصعب أن نتبين بعد مرور ثلاثين عامًا عمق الصدمة التى وقعت فى مصر عند استقالة اللورد كرومر ، فجمعت بين الأسف والأسى ، وعدها البعض إبعادًا للقوة المحركة والدولاب الدوار الذى كان مسئولاً عن تقدم مصر خلال تلك السنوات .

وزاد من تأثير الصدمة الطريقة التى اتبعتها الخارجية البريطانية بالتكتم على الخبر حتى أعلنته وكالة رويتر . لقد عمل كرومر لمدة ٤٩ عامًا دون كلل من الصباح الباكر حتى المســاء ، وكانت تقع عـلى عاتقه مسئوليات جسام تشابكت معها المؤامرات . عندما سمع النبأ قال لى محافظ الإسكندرية التركى العجوز « إن هذا من أسوأ أيام مصر ، والله وحده يعلم » ، وكنت قد التقيت الليدى كرومر قبل إعلان النبأ بيوم واحد فوجدت اللورد وقد بدا متقدمًا فى السن ، مهزوزًا ، يسير ببطء ملحوظ ، وعندما تذكرت رؤيتى له يلعب التنس فى أغسطس ، كان الفرق كبيرًا ، وبلغ من الضعف حدًا جعله لا يقبل الدعوة لحفل عشاء على شرفه ، وألقى خطابًا بالأوبرا بدلاً مـن حفل الوداع الرسمى . وأخذ كوربت (المستشار المالى) يعـد الترتيبات لذلك ، مما يعنى أن المقترحات الأخرى استبعدت ، أما المصريون الذين يخشون الخديو ، فليس لديهم ما يمكن عمله، وحوالى نصف الصحافة العربية تصب اللعنات على اللورد.

وقد بقيت فى ذهنى ثلاث أو أربع ذكريات من الحفل الكبير ، لم يحضر من الأمراء المصريين سوى حسين كامل (الذى أصبح سلطانا خلال الحرب) وسعيد حليم ، اللذين وجدا الجرأة الكافية للحضور . وانتدبت الجاليات الأجنبية رئيس الجالية الفرنسية الكونت سوريال لإلقاء كلمة الجاليات والتعبير عن مشاعرها . وكان رد كرومر على الكلمات واضحا ومباشرا وصارما ، متضمنا التقدير من آخر دكتاتور أجنبى حكم مصر إلى أول دكتاتور وطنى بقوله : « ما لم أكن مخطئًا ، فإن هناك مستقبلاً سياسيًا كبيراً ينتظر وزير المعارف الحالى سعد زغلول باشا ، فلديه الكفايات اللازمة لخدمة بلاده ، فهو مخلص وقادر وشجاع فى الدفاع عن معتقداته ، وقد تحمل الكثير من المضايقات من مواطنيه ، وتلك كلها مواصفات ذات قيمة عالية ، فعليه أن يمضى قُدمًا للأمام » . وهذا ما فعله سعد زغلول .

وبدت السعادة على اللورد كرومر وهو يقارن بين العلاقات الإنجليزية الفرنسية عند حضوره إلى مصر عام ١٨٨٣ عندما كان كل بلد ينظر إلى الآخر نظرة الشك والعداء ، وعندما كانت تذكره الصحافة الفرنسية باسم « المدعو بارنج » أو « الطاغية كرومر » ، ولذلك عندما وصف أخيراً بأوصاف إيجابية فإن ذلك يعنى أن تغيراً مهمًا قد تحقق ، وقد أهدانى كل من اللورد والليدى كرومر كتبًا قيمة قبل رحيلهما أعتز بها . وكان رحيل كرومر يسجل نهاية لفترة ما قبل الحرب وليس مجرد نهاية لعصر كرومر .

* * *

وفى ذلك الوقت تقريبًا ، كنت أشارك فيليب جريفز- مراسل الإجبشيان جازيت التى كانت تصدر بالإسكندرية - شقة من غرفتين ، وكنا نبحث عن شقة أفضل .

كنت أحتاج إلى حجرة ذات دولاب وأرفف للكتب تضم أغراضى وكتبى ، فلست أفكر فى حياة مرفهة طالما كان راتبى محدودًا ، وقد تركت التدخين اقتصاداً للنفقات وغيره من النفقات غير الضرورية ، وكان هناك مقهى بلدى يقع فى مواجهة سكننا يزداد صخب رواده من الثامنة مساء حتى الثالثة من صباح اليوم التالى . وأخيراً عثرت على شقة جذابة بميدان قصر النيل ذات إيجار زهيد . وما كدت أوقع عقد

الإيجار حتى عين فيليب جريفز مراسلاً للتايمز بإستانبول ، فكان عليَّ أن أبحث عن شخص آخر يشاركنى الشقة الجديدة .

وجاءنى محام يدعى ديفونشاير ، أعجبه المكان ولكنه كان يريد ماءً ساخناً ، وضايقه صوت الموسيقى ، رغم أننى خفضت الصوت إلى أقل درجة ممكنة ، ولكنى كنت أفتقد فيليب جريفز الذى كان أعز من صادقت قبل أن أتعرف على لورانس .

خلف السير بول هارفى السير فنست كوربت مستشاراً للمالية ، ووجدت أن عملى معه أصبح محدوداً أكثر من ذى قبل . عندئذ كان قد تقرر إقامة إدارة للمراجعة بالحكومة المصرية ، تتبع المستشار المالى مباشرة ، وكما حدث عندما عينت بالمناجم ، اجتمع الزمان والمكان والشخص المغبون معاً ، وهكذا عينت بالإدارة الجديدة تحت رئاسة آرثر ميدلتون ، الذى كان من الذين خدموا بالهند ، وجاء إلى المنصب الجديد من مصلحة السكك الحديدية المصرية ، حيث استطاع أن يوفر للمصلحة آلاف الجنيهات سنوياً . وكان زملائى فى الإدارة الجديدة هم : ليلاند باكستون الذى أصبح من رجال البورصة فيما بعد ، وألكسندر بالس وهو يونانى قدير ، وقبطيان هما نخلة أفندى تادرس نخلة ، وصادق بك حنين الذى أصبح بعد الحرب وزيراً للمالية فى حكومة سعد زغلول ، وقد جمعنا الود جميعاً ، ومتعة العمل معاً .

وقد أدى عملى بإدارة المراجعة إلى التقائى بالعديد من المصريين من الإسكندرية إلى أسوان ، وأدركت أنه فى مجال التعامل اليومى العادى لا يوجد فى العالم شعب من الشعوب أطيب معشراً من المصريين ، غير أن انفعالهم يبعث على الخوف ، ومازال هذا الانفعال سلاحاً فتاكاً فى أيدى المهيجين .

ويرى عامة الناس أن زلزال ميسينا ليس سوى أكذوبة اختلقتها الحكومة الإيطالية لجمع الأموال ، وهؤلاء القوم هم الذين كانوا يرون أن الهدف من خزان أسوان توفير ماء النيل لنقله إلى بريطانيا !

كانت دمياط هى المنطقة التالية التى قمت بالتفتيش فيها ، وهى مدينة من العصور الوسطى ، ومازال مظهرها وروحها ينتميان إلى الماضى ، ولا نجد فى مينائها الذى كان مشهوراً سوى بعض الفلايك (القوارب) ، وقد تسلم المركز خزانة حديدية

ماركة ملنر منذ ربع قرن ، ولكنها مازالت مهملة ، وعندما سألت عن السبب أجابنى توفيق أفندى الباشكاتب الذى نقل إلى دمياط منفيًا من القاهرة : « دمياط بلد جامد قوى » ، ويعنى بذلك تشعب الصلات الحضارية التى عاشتها المدينة . ولما كنت من مفتشى الجمارك من قبل ، فقد اتجهت إلى استراحة الجمارك ، وتناولت الغداء مع زميل قديم .

وكان القبانى بك - المدير - مصريا يهيم حبا بتركيا ويعدد مفاسد المصريين . قال لى إن أحسن مدير عرفه كان تركيا أميا ، يضع سيفًا جاهزًا دائمًا فوق مكتبه ، ليستخدم حده متى شاء ، ولم تحدث حالة قتل واحدة طوال السنوات الثلاث التى تولى فيها منصب المدير ، واليوم تقع ثمانى حالات قتل فى الأسبوع بمديرية البحيرة . وتعد دمياط - دون شك - مدينة ميتة ، نالت حتفها على يد بورسعيد ، وكان يسكنها ١٥٠ ألف نسمة قبل أربعين عامًا ، فأصبح يسكنها الآن أربعون ألفا . وقد تدهور وضعها الإدارى من مديرية إلى مركز . ويحاول المدير الحفاظ على النظام لتحسين الوضع المتردى ماديا ، فالجنود تراهم شاهرين السلاح كلما حدثت مشادة ، وعندما يمر المدير بالمكاتب ، يقف رؤساؤها وقفة انتباه وكل على باب مكتبه يؤدى تحية للمدير ، وقد شبك كل منهم يديه وأحنى رأسه ، بينما ينظر المدير فى الاتجاه العكسى .

غير أن دمياط مثلت عند دانتى الاتجاه نحو الشرق ، فهو لا يذكر القاهرة أو الإسكندرية ، أما عن قرطاج هانيبال ، فإن قدرها كان أقسى مما عرفته دمياط ، فتحولت إلى مدينة من الدرجة الثالثة فى تونس .

وكانت وزارة المالية المصرية محظوظة لوجود أحد الشعراء بين موظفيها هو جورج بورنت ستيوارت ، وعندما كلفه الوزير ببحث شكوى قدمت له من تعنت المفتشين ، بصحبة اثنين من المحامين كبار السن ، وخبير عملة متمكن ولكنه لا يركب الخيل ، كتب ستيوارت القصيدة التالية :

تحرك حشمت باشا فى مقعده ،

وقال « بدل الحصان » هذا ليس عادلا ،

سوف أشكل لجنة للنظر فى إصلاحه ،

من حيدر وراسين وروكاسيرا

وفى الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ،

اجتمعت اللجنة تفرك عيونها وتتثاءب ،

فهم عادة يأتون فى وقت متأخر ،

هكذا يفعل روكاسيرا وراسين وحيدر ،

عندئذ قرروا أن البداية الصحيحة

هى الإجابة عن السؤال : ما هو الحصان ؟

لأن الحصان شىء غامض

عند حيدر وراسين وروكاسيرا

وما يجب بحثه بعد ذلك - قال راسين

هو العلف الذى يأكله الحصان

فهل يستطيع أحدكم أن يقدم معلومات ؟

فأجاب روكاسيرا وحيدر : « لا أحد »

ونطق حيدر بكلمة

قال : « إن سؤالك غامض بالنسبة لى »

إنه محام فقط ، فما جدوى معرفته لأى شىء ؟

« لا داعى لذلك » - قال راسين

وسجل ستيوارت فى قصيدة أخرى انتهازية موظف كبير عرف بتردده على دار المندوب السامى ، وتملقه لكرومر حتى يحصل على رتبة السير ووسام الفارس (الصليب الكبير) .

وهناك إجازتان رسميتان إسلاميتان هما العيد الكبير الذى يسميه الأتراك « قربان بيرم » ، وعيد الفطر الذى يسميه الأتراك « بيرم » فى كل منهما أربعة أو خمسة أيام إجازة ، فإذا لحقها أو سبقها يوم الجمعة ، أصبحت أسبوعًا ، وخلال إحدى تلك الإجازات زرت دير القديس أنطون على جبل القلزم بصحبة مدير عام خفر السواحل فأبحرنا من السويس ، ونزلنا جنوب الخليج على الشاطئ الغربى ، ثم سرنا ضمن قافلة على ظهور أجود الجمال فى العالم .

وقد بلغنا الدير الذى كان يقع على بعد أربعة أميال من الموقع الذى استرحنا فيه مساء . كانت الرياح تهب باردة من الشمال ، وفى الصباح بدأنا المسير إلى الدير ، واكتشفت أن البطريرك (رقم ١١٢ منذ القديس مرقص وبابا الإسكندرية) لم يزودنى فقط بخطابات توصية ، ولكنه أرسل رجلاً إلى رئيس الدير قبل وصولنا ليتأهب للقائنا ، فوجدنا مدخل الدير مزينًا بأغصان النخيل ، ووقف الرهبان عند الباب الذى لا يفتح إلا فى المناسبات لاستقبالنا بالتراتيل . ويرجع تاريخ الدير إلى القرن الثالث ، وحديقته الغناء يرويها جدول رقراق منحدر من الجبل ، ويبدو أنهم لا يعملون ، ورفضوا إطلاعنا على المخطوطات القديمة التى قيل إنهم يحتفظون بها ، فقد أنكروا وجودها ، وصعدت مع إحدى السيدات الإنجليزيات إلى الصخرة حيث كان موقع كهف القديس أنطون وهو طريق شاق ؛ لذلك لم يشاركنا الباقون فى الصعود إلى المكان الذى يستحق أن يزار .

كان هواء الصحراء الجاف نسيم الحياة ، وعندما نصبنا معسكرنا ، كنا نستطيع المشى على الرمال الناعمة النظيفة من الصباح حتى غروب الشمس عند الأفق ، فبدت الشمس كسمكة ذهبية تغوص فى محيطها ، وكان الزلط الناعم الصغير يتألق تحت أقدامنا مثل بريق المعدن ، ويصدر عنه صوت فى أثناء المشى يحدث ضوضاء تتردد أصداؤها فى الصحراء .

وبعد ذلك بعام تقريبًا ، دعانى أرثر ويجول - مفتش عام الآثار فى الصعيد - لمرافقته فى جولته التفتيشية على المعابد فيما بين أسوان وحدود السودان عند وادى حلفا ، على متن الذهبية الحكومية « دندرة » . قال لى المراكبى « لا تطلب منى إعداد الشاى الآن يا سيدى فإن يدى تفوق قدمى قذارة » ، وبعد أيام وصلنا إلى الرمال الصفراء الذهبية الناعمة عند معبد أبو سمبل الشهير . وعندما أوينا إلى الفراش مساء كنا نسمع من بعيد أنشودة امرأة تنادى حبيبها الغائب :

يا حبيبــــــــــــى يا محمــــــــــد

تعــــــــــالَ لعينـى فى المنـــــــام

ووجدنا معبد فيلة « درة المعابد الفرعونية » غارقًا حتى سقفه بسبب التعلية الأخيرة لخزان أسوان . وكنا قد وصلنا إليه عند الغروب فلم نستطع مقاومة الرغبة فى خلع ملابسنا والغوص فى النيل داخل المعبد الغارق .

وفى أوائل القرن العشرين ، كان يانصيب البنك العقارى وأسعار القطن يوصفان بالعربية بعبارات لا تجد نظيرًا لها إلا فى « العهد القديم » (التوراة) ، ربما كانت سيارات الرولز رويس الفخمة تمرح فى بوند ستريت بلندن ، وأفضل الجمال تمرح فى التركستان ، ولكنك تجد فى القاهرة الجمال والرولزرويس تسير جنبًا إلى جنب أمام فندق سافوى ، وتتوقف فى إشارة المرور عندما يضاء الضوء الأحمر ، وتسير عندما يضاء الضوء الأخضر ، وتجد الحراس والجمالين يصيحون « إوعى رجلك » عندما يمر ترام أو جمل . وبحار الذهبية الفخمة فى النيل ينظر إلى حجرة الآلات صائحًا : « توكل على الله » وهى عبارة معتمدة عندهم كبديل لعبارة « أطلق للمحرك العنان » .

وردود أفعال الناس للحوادث الطارئة لا يمكن توقعها ، كنت أركب « الكارتة » بصحبة صديق ونسير فى جانب الطريق ، عندما دهمت العربة فجأة أحد الأشخاص ، وقفزنا على الفور من العربة لنساعد الرجل المصاب ، ولكن المارة تجمعوا حولنا ، ونصحونا أن نغادر المكان بسرعة « قبل أن تأتى الشرطة لتأخذنا » . وحين كنت أسير ذات يوم من عام ١٩٠٦ بإحدى الأسواق ومررت أمام مقهى بلدى نظر إلىَّ أحد الجالسين أمام المقهى وأراد أن يتباهى أمام رفاقه فشتمنى بالعربية قائلاً « يلعن أبوك

يا إنجليزى ! » . كنت عندئذ شابًا ، سريع الغضب ، فلم أتردد فى سبه بنفس الطريقة باللغة العربية ، وزدت على ذلك بقولى له إننى سأعن أباه إذا حدد لى اسم الرجل بين عشاق أمه التسعين الذى أنجبته منه . وتنبهت إلى أننى قد تجاوزت الحدود التى قد تثير غضب اللورد كرومر إذا تم تصعيد الأمر ، وبلغ مسامعه ، ولكنى فوجئت بالرجل الذى شتمنى يهب واقفًا ، ويمسك ذراعى بكلتا يديه وقال لى : « تعالى .. معلش .. اشرب معانا يا أخى قهوة ودخانًا » إننى لم أكن أدرى أن عملك يتطلب معرفة اللغة العربية ، فإذا بك تعرف حتى الألفاظ البذيئة ،وسوف نستفيد قطعًا من آرائك المهمة .

الفصل الرابع

من المالية إلى قصر الدوبارة

(١٩٠٧ - ١٩٠٨)

ولما كنت قد استمتعت بزيارتى السابقة لإيطاليا واليونان ، فقد فضلت أن أزور تركيا فى الطريق إلى الوطن لقضاء إجازتى السنوية الثالثة . كانت رحلة فاخرة فعلاً ذات مستوى رفيع نظمتها شركة البوستة الخديوية التى وفرت كل وسائل الراحة بتكلفة قليلة .

وفى أزمير نزلت إلى الشاطئ فى قارب البريد الإنجليزى ، فقد كان لكل دولة قارب بريد خاص بها حتى لا يتحمل الأتراك مشقة فحص بريد الدول كلها . وزرت قبر القديس بوليكارب ، وكان الأتراك قد فتحوا القبر قبل أربعة قرون ودفنوا فيه أحد شيوخهم (الأولياء) لذلك تجد الصليب فى جهة من القبر تقابله عمامة فى الجهة الأخرى .

وما كدنا نصل إلى محطة حيدر باشا المقابلة لإستانبول حتى كان القارب المتجه إلى إستانبول قد غادر المحطة للتو ، وكان من الممكن أن ينتظرنا ، فراح مضيفى (ديك جريفز) يعاتب الموظف الذى أدهشه ما نشعر به من ضيق ، فقال : « بعد ساعة واحدة سيكون هناك قارب آخر » ، وعندما تابعنا احتجاجنا قال لنا إنه مجرد شرطى لم يحصل على راتبه منذ أربعة شهور ، شأنه فى ذلك شأن غيره من الموظفين .

وكان من حسن حظى أن شاهدت من الشرفة الدبلوماسية فى يلدز كُشكًا فى طرف سلاملك (مسجد صلاة الجمعة الرسمية) للسلطان عبد الحميد . وكان علىَّ أن أحصل على تصريح رسمى من السفارة ، وأن أرتدى بذلة رسمية وقبعة عالية (قمت باستعارتها) ووقفت فى الشرفة التى تطل على الطريق بين القصر والمسجد قبل أذان الظهر بساعة كاملة . وإلى جانب كل ضيف وقف أحد رجال القصر يرقب كل شخص فى مسئوليته ، فلم تكن تعفى الصفة الدبلوماسية أى فرد من أن يكون موضع شك ، وعندما كان الموكب يمر وئيدًا تحت الشرفة حركت يدى نحو جيبى فإذا بهم يجذبون ذراعى إلى الخلف بقوة حتى كادت ضلوعى تتكسر . ولم يتركونى حتى تأكدوا أن جيوبى خالية تمامًا من السلاح أو القنابل ، عندئذ كان السلطان يمر على مرمى حجر

فى عربة تجرها خيول عربية ، وكانت لحيته مخضبة بالحناء ويبدو أنيقًا مهيبًا رغم وجود الوزراء وكبار رجال القصر حوله وخلفه إلا أنهم لم يخطفوا الأبصار عنه ، فبرز وقاره واضحًا فى ذلك الموكب .

وعندما وصلت إلى لندن ، عرض علىَّ آرثر ريتشموند وظيفة مفتش فى التعليم ، ولكن رغم حبى الدائم للندن ، وجدت أننى لو قبلت العرض الكريم لكان فى ذلك إهدار لما حصَّلت من معرفة وتجارب ، وكان ذلك أقصى ما يمكن إهداره ، كما تبين لى ذلك فى نهاية خدمتى .

ولاحت لى فرصة أخرى فى العام التالى ، فقد أعطتنى الأميرة نازلى فاضل خطاب توصية لكامل باشا الصدر الأعظم ليبحث لى عن وظيفة لدى الحكومة التركية ، وكنت قد مررت بإستانبول فى طريق العودة من الإجازة . وتحدد موعد لقائى بكامل باشا بعد يومين بمقر الصدر الأعظم ، قضيتها فى مشاهدة « سلاملك» آخر ، وفى المناقشات التى دارت بينى وبعض السياسيين والصحفيين الأتراك . كان السلاملك الذى دعيت لمشاهدته مختلفًا ، فقد شهدت تركيا تغيير الطاغية عبد الحميد بطغاة تركيا الفتاة .

وصلت إلى السفارة بإحدى العربات فى تمام الساعة الحادية عشرة بصحبة جريفز ، لننضم إلى موكب العربات الذى قاده السير أندرو رايان ، وأخذنا معنا بعض رجال البحرية فى الطريق إلى يلدز . ولما كانت معظم المحلات مغلقة ، فقد أخذ المارة ينظرون إلى موكبنا ببلاهة ، ولم نشهد فى العام السابق مثل هذا الجمع من المارة ، فقد قام الفرسان عندئذ بإخلاء الطريق من الناس وغلقه تمامًا فى المسافة الواقعة قبل بلوغ بوابات القصر .

كانت المسألة البلغارية – عندئذ – تلقى بظلالها على إستانبول ، وقد تحدثنا بشأنها مع بهاء الدين ، واستنتجنا من ذلك الحديث أن المسألة البلغارية تسبب القلق لتركيا الفتاة ؛ لأن مطالبة البلغار بالاستقلال تضع النظام الجديد فى مأزق ، فتركيا لا تستطيع أن تبدأ عهدًا جديدًا باقتطاع أحد بلاد الإمبراطورية ، كما يعرفون أنهم إذا رفضوا منح بلغاريا الاستقلال ، فسوف تقوم بإعلانه من جانب واحد ، وستجد تركيا

نفسها عاجزة عن عمل شيء في مواجهة ذلك الإعلان ، وذهب بهاء الدين إلى أن الدول لن تسمح لبلغاريا بأن تبدأ بإعلان الاستقلال ، وإن كان الأمل في ذلك يمثل نوعًا من التسليم بالنتيجة المحتملة في رأينا .

وقد أكدت مقابلتي لكمال باشا صحة تلك الشائعات ، كان الصدر الأعظم قصير القامة يحاول أن يضفي على ملامحه الوقار فيرفع ذقنه دائمًا إلى أعلى ، وكان يتحدث الإنجليزية جيدًا ، وقال لي إنه يود أن يوظفني لديه ، ولكن لا توجد وظيفة خالية الآن . وأبدى إعجابه وتقديره للأميرة نازلي . وعندما كنت في طريقي خارج القاعة أعلن الجاويش عن وصول مسيو جويشوف (الوزير البلغاري) الذي جاء ليعلن للدول استقلال بلغاريا .

وأبحرت إلى أزمير على قارب روماني يعمل بالبترول ويتسم بالسرعة ، وما كدت أصل إلى أزمير حتى تناولت الغداء على مائدة نائب القنصل هيثكوت سميث ، واشتريت قطعتين من عملة الإسكندر من فان لينب (قنصل هولندا وتاجر) بثمن مرتفع ، وزرت السكة الحديد التي كانت محاطة بالجنود بسبب الإضراب الناجم عن مقتل أحد العمال برصاص الجنود . وكان مدير السكك الحديدية في حيرة من أمره ، فاقترحت عليه أن يكتب للحكومة المصرية طالبًا مساعدة مصلحة السكك الحديدية المصرية ، وأعد المدير خطابًا بهذا المعنى ، في الوقت الذي تلقى فيه برقية تفيد انتهاء الإضراب ، وهكذا فقدت فرصة الوساطة التي ربما كوفئت عليها بتذكرة سفر مدى الحياة من أزمير إلى البوسفور .

كان اللورد كرومر ، ومن خلفه من القناصل الإنجليز يحظون بمساعدة بعض رجال الخارجية البريطانية الأكفاء ذوي المقدرة المتحمسين لعملهم ، ولكن هؤلاء كانوا كالنجوم المتألقة ، يظهرون في سماء دار المعتمد البريطاني فجأة ، وقد يختفون فجأة أيضًا ، وكان التقليد المعمول به بالدار هو أن يتولى الحفاظ على الوثائق والأرشيف - السياسي والدبلوماسي والاجتماعي - مسئول معين هو « السكرتير الشرقي » الذي يلعب دور العيون والآذان للمعتمد البريطاني ، كما يقوم - أيضًا - بعمل المخابرات (بالمفهوم العسكري) . ويشرح وتفسير الأمور للمسئول البريطاني الأول في القاهرة ،

وكان نفوذ السكرتير الشرقى ممتدا بامتداد نفوذ المعتمد البريطانى . وفى ذروة النفوذ البريطانى فى مصر - منذ ١٨٩٠ حتى الحرب - كان يتولى هذا المنصب رجل يختار من بين من خدموا بقنصليات الشام ، وكان المنصب يعد من المناصب الصغرى المهمة فى الشرق الأدنى .

كان اسم هارى بويل (السكرتير الشرقى) هو أول الأسماء التى سمعتها فى الترف كلوب ، وقد شغل المنصب لسنوات طوال ، وكان موضع إعجاب وتقدير مجموعة صغيرة من كبار الموظفين الإنجليز . وكان صغار الموظفين الإنجليز الذين التقيتهم يرون أنه « يعرف الشرق تمام المعرفة ، فإذا كنت تريد رجلاً يجيد التخطيط لمد النفوذ الإنجليزى ويعمل على إبقاء الإنجليز هناك ، فلا يستطيع ذلك أحد سواه .. » ، وكثيراً ما كنت أقول لنفسى إنه من حسن حظ إنجلترا أن الرجل لا يشبه أولئك الذين تحدثوا عنه ، وقد غاب هارى بويل لعدة شهور ، وكان أبرز برهان على أهمية الرجل ، انتظار عربة فتحى باشا زغلول - وكيل وزارة الحقانية - خارج البيت الصغير الذى يسكنه بويل .

أخيراً ، أرسلتنى وزارة المالية برسالة خاصة إلى دار المعتمد البريطانى ، فدخلت مكتب السكرتير الشرقى ، فوجدت طاولة عليها آلة كاتبة ينحنى عليها شارب ضخم فوقه أنف مقوس وعينان سوداوان ، فانتحيت جانباً انتظاراً لانتهاء السكرتير الشرقى من تناول غدائه ، كان أمام الآلة الكاتبة طبق من البيض المقلى بالسمن ، وعلى يمينه أبريق ماء وعلى يساره آخر للبراندى ، وقد أتى عليها جميعاً بسرعة ملحوظة ، وقد وضع أمام الطبق جريدة « المقطم » يقرأ المقال الرئيسى أثناء تناوله الطعام ويسجله فى ذاكرته ، ثم يطبع على الآلة الكاتبة ترجمة له بأسلوب نثرى بديع .

ولم يكن اسم بويل يدرج فى قوائم حفلات العشاء الرسمية (حتى تلك التى يقيمها المعتمد البريطانى) ، ولم يصحب اللورد يوما إلى قصر عابدين ، ولكن خدماته لسيده كانت لا غنى عنها ، وإخلاصه له لا يعرف حدوداً ، ورغم ما وجه له من نقد قرب انتهاء خدمته من أنه ينظر إلى مصر بمنظار شامى ، كانت معرفته دقيقة بكل ما يجرى وما سيجرى على الساحة السياسية ، تحت السطح وفوقه ، ويمكن القول - دون

مبالغة - إن معرفته بكل الأمور كانت تمتد إلى منطقة الشرق الأدنى كلها ، ولا يفوق تقاريره عن أسباب موت الخديوين دقة سوى ما لديه من معلومات واسعة عما ظهر وما خفى من حياة الباشاوات والبكوات الذين مازالوا على قيد الحياة . وبالإضافة إلى عمله المتعلق بالمعلومات الشرقية ، كان هارى بويل يقضى وقتًا طويلاً فى تشفير البرقيات المرسلة للندن ، وحل شفرة البرقيات الواردة منها ، وكان يطبع توقيعه بالأحرف الأولى فى نهاية الرسالة التى يكتبها على الآلة .

وكان يعشق القراءة خاصة الأدب الإنجليزى والفرنسى فى القرن الثامن عشر ، وكان متبحرًا فى اللغتين ممتعًا فى حديثه أيما إمتاع ، وكان يتمشى بالخارج بعد الظهر مرتديًا ملابس بسيطة : معطفًا قديمًا وبنطلونًا قديمًا ، لا يعرف شيئًا عن المكواة ، ويرتدى حذاءً عتيقًا فى طرازه وهيئته ، وهذا المظهر المتواضع جعله على صلة بالعديد من المصادر ، كان يتناول الشاى ذات مرة بشرفة فندق شبرد عندما اقترب منه رجل غريب يسأله : « هل أنت قواد الفندق يا سيدى ؟! » ، فأجاب بويل على الفور دون تردد « نعم سيدى ، ولكن الإدارة - كما سترى - تحسن معاملتى فتمنحنى ساعة للراحة أتناول فيها الشاى من الخامسة إلى السادسة ، فإذا كنت لا تستطيع الانتظار يمكنك اللجوء إلى هذا الرجل » ، وأشار بيده إلى السير توماس ليبتون ، ثم استطرد قائلاً: « إنه يقوم بعملى الآن ، وهو يستطيع أن يوفر لك ما تريد مقابل عمولة بسيطة مع ضمان الخصوصية ، ويمكنك الاطمئنان إليه » . ثم دفع بويل الحساب ، وقفز داخل عربة ، لم تكد العربة تتحرك حتى سمع صوت توماس ليبتون يسب الرجل ، وصوت لكمة قوية طرحت بالرجل أرضًا .

وكثيرًا ما لا يقدر كبار المعاصرين بعضهم بعضًا ، فلم يكن جورست محبوبًا أو متقبلاً عند بويل ، وعندما خلف جورست كرومر فى منصبه قلص عمل ونفوذ بويل إلى لا شىء . وكنت كثيرًا ما أراه عندئذ وأغترف من معلوماته وأفكاره اللامعة ، وعاد جريفز إلى الشقة ذات مساء ، وأسرَّ إلىَّ أن بويل سوف يترك وظيفته فى الخريف ، وأننى سوف أحل محله ، وشاع الخبر فى الترف كلوب ، رغم أننى كتمته حتى على أمى ، وانتشر فى المالية والمراجعة والصحة كما تنتشر أشعة الشمس . وعندما تلقيت العرض رسميًا قبلته فورًا ، وعملت على سبيل الإعارة من الحكومة المصرية

(على أن يستقطع ٥ ٪ من مرتبي للمعاش) واعتبرت نفسي أسعد الناس حظا على ظهر الأرض . ورغم أن تطلعاتي المالية قد تحققت بأكثر مما كنت أتوقع ، فلم أندم يوماً على قبولي لهذه الوظيفة . وأسرعت في السفر إلى إنجلترا لقضاء إجازتي .

وقد قطعت إجازتي وعدت عن طريق سوريا لأتعلم في دمشق اللهجة الشامية قبل أن أتولى منصبي الجديد ، الذي يجعلني أتعامل مع أناس يتكلمون عدة لهجات عربية .

وفي قطار الشرق السريع التقيت امرأة ألمانية (تحصل على معاش تفقده إذا تزوجت مرة أخرى) ورجلاً اخترع آلة وبندقية آلية ومسدساً آلياً ، وقد قام بتهريب بعض القطع ليعرضها على حكومة الصرب ، وكان يعرف أن النمساويين سيلقون القبض عليه إذا اكتشفوا ذلك . وما كدنا نصل إلى الحدود الصربية حتى تم إلقاء القبض عليه ، وعومل معاملة سيئة حتى غاب عن أنظارنا . ولما كان فيليب جرينفز مازال يعمل بإستانبول ، فقد ساعدني هناك ، وسافرت من هناك إلى بيروت حيث صعدت الجبل إلى منتجع عين صوفر لأستمتع بالمكان ، ولكني وجدت الفندق مغلقاً ، وكانت هناك أماكن تؤجر غير أن الضوضاء كانت شديدة ، أصوات الجراموفون ممتزجة مع أصوات لعب النرد والدومينو وفرقعة زجاجات الشمبانيا مع ارتفاع أصوات الناس ، ثم سافرت إلى دمشق .

وتعد دمشق أقدم مدينة بالشرق الأدنى ، يلاحقك فيها الترام البائس الذي تجره الخيول ، وقد احترقت سوقها ، فأعيد بناء سقف السوق من الحديد ، وسمعت صيحات الباعة التي أطربتني ، فبائع الآيس كريم ينادي « بالك أسنانك » ، وبائع الزهور ينادي : « صالح حماتك » .

وما كدت أصل إلى دمشق حتى علمت أنني يجب أن أختصر إقامتي فيها ؛ لأن بويل قدم موعد رحيله شهراً كاملاً ، وأن المتاح أمامي هو معرفة اللهجة الشامية من احتكاكي بالناس وليس من خلال الدراسة ، وعانيت من حمى شديدة الوطأة .

ولكن قبل أن أغادر دمشق ، طلبت من القنصل ديفي أن يصعد معي جبل الشيخ . استيقظنا في الرابعة صباحاً ، وتركت دمشق بصحبة نيقل (الموظف بالبنك

العثماني) وديفي في رحلة على ظهور الخيل بصحبة فارسين من الضبطية بأسلحتهما ، وبعد مسيرة ساعتين اقترح ديفي التوقف لتناول الإفطار . وهنا وقع حادث ، فقد طلبت من أحد رجال الضبطية أن يمسك بزمام حصاني بعدما ترجلت ، ولكنه أهمل ذلك ، فجرى الحصان ومعه بقية الخيل ، ورفس ديفي الذي تدحرج نتيجة ذلك ، واستطعنا بعد محاولات مضنية أن نسيطر على الجياد ونتابع رحلتنا .

وبلغنا قرية عرنة ، وهي قرية درزية في أعلى التلال ، واتجهت إلينا جماعة من الدروز طوال القامة بملابسهم وعمائمهم البيضاء ، وبينما كنت أتأهب لمخاطبتهم بالعربية إذا بهم يتحدثون بالإنجليزية قائلين : « إننا سعداء لرؤيتكم أيها الغرباء ، تفضلوا بالجلوس » ، وكان معظمهم قد قضى بضع سنوات بالولايات المتحدة طلبًا للرزق ، وقدموا لنا البيض وعسل النحل ، وماء عذبًا قراحًا من الجداول المتاحة بالموقع . وقضينا بضع ساعات في محاولة يائسة للنوم نظرًا لنباح الكلاب وكثرة الحشرات ، واستأنفنا صعود الجبل في الواحدة والنصف صباحًا ببغال استأجرناها من تلك القرية . وبلغنا القمة بعد خمس ساعات مضنية ، وأصبحنا على ارتفاع ٩٠٥٠ قدمًا ، وكان المنظر بديعا ، جبل لبنان وما وراءه وسوريا بينهما ، وإلى الشمال منابع نهر الأردن ، وإلى الجنوب بحيرة طبرية ، وهناك بعيدا تحت السحاب يقبع البحر الميت ، بحر لوط (كما يسميه العرب) . وتسمى قمة جبل الشيخ « قصر عنتر » ، وهناك آثار لمعبد داخل كهف . وقد نزلنا من الجبل عن طريق منحدر شديد ، وتركنا ديفي يتناول العشاء مع القائمقام ، وعدنا إلى البوابة الغربية لدمشق في السابعة والنصف مساء . وقد استغرقت الرحلة كلها ٣٨ ساعة ، قطعنا فيها سبعين ميلاً صعودًا إلى جبل الشيخ ونزولاً إلى دمشق ، ولكن متعة الرحلة ضاعت عندما أصبحنا عاجزين عن الجلوس .

وكان الانطباع الذي خرجت به من هذه الرحلة أن أكثر الناس معرفة هم التجار الرحل ، ومن هؤلاء الإسكتلنديون والألمان والأرمن يأتون في القمة ، أما الإنجليز فلا يكلفون أنفسهم مشقة المعرفة .

وقد تركنا بيروت في الساعة الحادية عشرة مساء ، ووصلنا إلى حيفا (جبل الكرمل) صباح اليوم التالي ، وقد نزلت إلى البر بصحبة مهندس إسكتلندي ،

واشتريت بعض العملة ، وركبت عربة إلى حيفا لمدة ساعة ونصف ، كان رفيقى خلالها يطلق النار من مسدسه على الغربان دون أن يصيب أيًّا منها ، وعكا مدينة قديمة ذات طابع فينيقى ، وهناك زرت عباس أفندى رئيس طائفة البابية الدينية .

تسلمت العمل من بويل فى ١٥ سبتمبر . وأعتقد أنه قرر ألا يطلعنى على طريقته فى العمل أو أسماء عملائه ، وقد استنتجت من الطلبات التى تلقيتها - فيما بعد - أنه كان مثلى قليل الاعتماد على المصادر التى تقدم المعلومات مقابل أجر [١]. وكانت حجرة مكتبه قبلية تقع على فناء دار المعتمد ، حارة ما عدا منتصف الشتاء ، فسمح لى رجال الديوان بمشاركتهم حجرتهم ، فأضيف مكتب رابع إلى المكاتب الثلاثة الموجودة بالغرفة ، وكان هناك هاتف واحد مثبت بالحائط لخدمة الجميع ، وكان المستشار هو رونالد جراهام [٢] الذى شملنى بكرمه وعطفه ، وساعدنى كثيراً على التخلص من جهلى بالإجراءات الدبلوماسية ، وكان على معرفة واسعة بالسجاد الشرقى تتكشف عندما نتجول فى الأسواق ، كما أفادنى كثيراً . وقد حل جراهام محل شارلز دى منسفيلد فندلاى [٣]، وهو معروف فى مصر بتصرفه نيابة عن اللورد كرومر فى حادث دنشواى عام ١٩٠٦ ، عندما قام بعض الضباط الإنجليز بإطلاق النار على الحمام الخاص بالقرية فهاجمهم الفلاحون وقتلوا أحد الضباط . وكانت العقوبات التى صدرت عن المحكمة المخصوصة مبالغًا فيها وتحمل طابع العصور الوسطى ، ورغم أن القليل ممن يعرفون مصر أو يعرفون ضباطنا يقبلون أفكار چورچ برنارد شو ، والرواية المضادة للرواية البريطانية لهذا الحادث ، فإن بعضنا أحس أن هناك خطأً تم اقترافه فعلاً .

وكان روبرت كليف رئيسًا للديوان الذى كانت طبيعته السمحة ومسودات مراسلاته التى أمتعت جورست مبشراً لكل من عرفوه عن قرب بنجاحه فى ميونخ وفى سفارته باليابان . وبتوجيه كليف أدى ديوان المعتمد البريطانى دوره المتميز فى مرحلة

(١) مات هارى بويل فى أبريل ١٩٣٧ .
(٢) أصبح جراهام فيما بعد سفيراً فى روما .
(٣) أصبح فندلاي وزيراً مفوضاً فى النرويج فيما بعد .

ما قبل الحرب . وكان أهم حدث تشهده القاهرة صدور التقرير السنوى للمعتمد البريطانى فى لندن والقاهرة فى وقت واحد بالإنجليزية والفرنسية والعربية ، وكانت تقارير الوزارات والمصالح المصرية ترد على دار المعتمد البريطانى قبل طبع التقرير بشهور حافلة بالتفاصيل ، فيقوم كليف بتوزيعها علينا لنتولى « طبخها » . وأخشى أن تكون تلك التقارير دليلاً على نظام العمل عندنا فى القرن التاسع عشر ، فقد اعتبرت الصحة العامة والتعليم مملة ، وزوائد يمكن التخلص منها ، وكانت انتقادات السير ألدون جورست ذات تأثير كبير ، حتى إننا لم نعد نذكر عبارة « نقل الرقيق الأبيض » فأصبحنا نسميها « التجارة غير المشروعة » .

وكان يجلس إلى المكتب المجاور لى روبرت فانسيتارت ، وقد كتب بالفعل روايتين بالفرنسية نشرتا فى باريس ، ويبدو أن اهتمامه بالشعر الفارسى انعكس على شخصيته ، وكان يقضى فترة بعد الظهر والصباح الباكر أحيانًا فى كتابة روايته الأولى « جون ستيوارت » على الآلة الكاتبة الخاصة بالديوان . وكان بارعًا فى لعب الورق ويحظى بتقدير جورست ، وكثيرًا ما كنا نتبادل الخبرات معًا .

* * *

كان تعيين السير ألدون جورست معتمدًا بريطانيًا فى مصر متوقعًا منذ وقت طويل ، ولذلك لم يكن ذلك التعيين مفاجئًا لأحد ، رغم بعض الأحقاد ممن كانوا رصفاء له ، ويقتربون من قدراته ، على عكس الحال بالنسبة لسلفه العظيم (كرومر) .

وقد حمل جورست اسم « جون ألدون جورست » منذ مولده ، وأطلق عليه أصدقاؤه اسم « جاك جورست » ، وعندما نال رتبة الفارس ، حمل اسم « السير ألدون جورست » للتمييز بينه وبين والده السير جون جورست (العقل القانونى المفكر للحزب الرابع) ، وقد عمل جورست مع كرومر كسكرتير ثالث ، وكان له سجل وظيفى متألق فى الإدارة المصرية . وقد بدت مواهبه فى المالية عندما أصلح أحوال مصلحة الأموال المقررة ، وأبدى تعاطفًا مع الإدارة المصرية عندما كان مستشارًا لوزارة الداخلية ، كما برزت قدراته الدبلوماسية والسياسية عندما شغل وظيفة المستشار المالى الذى يعد - من الناحية الفعلية - ...ئيس وزراء كرومر فى ظل نظام

الحماية المقنعة ، واستطاع - دون غيره من كبار الموظفين الإنجليز - أن يكسب ثقة الخديو ، مما كان له أثره على علاقته باللورد كرومر . كانت قدراته لا حد لها ، وكذلك كان طموحه الشخصى . ولم يكن باستطاعته أن يتسامح مع المخطئين أو يقبل بحماقاتهم ، كما لم يمنح جسده وعقله الراحة ، فلم يكن لها معنى عنده ، ولم يحصل فى حياته على إجازة حقيقية ، يمتطى أحد خيول السباق الخاصة به ، ويعدو به فى ساحة السباق قبل تناول الإفطار ، ثم يعمل بتركيز شديد حتى موعد الغداء ، ويعطى ذهنه فرصة استرخاء من خلال قراءة أحد الأعمال العلمية حتى يحين وقت لعب ثلاثة أشواط من التنس ، يبدع فى كل ضربة مضرب مع شركاء اللعب الذين يصغرونه عشرين عامًا . وبعد ذلك يغرق فى سلسلة من المقابلات حتى السابعة والربع مساء ، عندئذ يعزف مقطوعة موسيقية على البيانو ، وعند الثامنة ينشغل بالترتيبات الخاصة بعشاء رسمى ، فلا يترك أيا من تفاصيل هذه الترتيبات دون أن يوجه الانتقاد لها من خلال ما يبديه من ملاحظات ، وإذا لعب « البريدج » يكرر نفس الخدع بنظام دقيق فى نهاية اللعب . وعندما يسبح ، يظل يعوم حتى يتعب ، ثم يغادر حمام السباحة ، ليمارس بعد ذلك مباشرة نشاطًا آخر . ولذلك عندما وصف بأنه « قاطرة تندفع فى بداية تحركها بزيادة دفع البخار » كان لهذا الوصف ما يبرره .

وخلال سنواته الأخيرة فى منصب المستشار المالى ، كان عليه أن يقوم بمهمة بالغة الحساسية ، وهى تمثيل المصالح المصرية فى مفاوضات « الوفاق الودى » ، وعندما شغل وظيفة مساعد وكيل وزارة الخارجية البريطانية ، كان أول من يغادر داوننج ستريت ، فقد كان لا يطيق الانتظار إلى ما بعد الظهر طالما لم يعد لديه ما يعمله فكان بذلك :

روحا عالية ، خلقت لتعمل دائما ،

فأضنت الجسد المكدود المهترئ ،

وزادت الضغوط على بيت من الطين

لأن قامته لم تكن مديدة ، كما لم تكن لديه الشخصية التى توازن هذا الضعف البدنى ، فتضفى الهيبة على صاحبها ، كما لم يكن ذلك يمثل الجانب السلبى الوحيد عنده ، كانت الحكومة البريطانية قد قررت أن تستفيد من التغيير الكبير فى شخص المعتمد البريطانى ، لتدخل تغييراً كبيراً على أسلوب عملها فى مصر ، وأعطت لجورست تعليمات قوية وواضحة فى هذا الاتجاه ، فأسندت حكومة حزب الأحرار إلى جورست تنفيذ سياسة التوسع التدريجى فى إعطاء مصر نوعًا من الإدارة الذاتية ، وكان ذلك ضرورياً إذا كانت بريطانيا تنوى الالتزام بما قطعته على نفسها بالجلاء التام عن مصر (فى رأى بعضنا) ، ولم يكن ضروريا مطلقًا ، إذا كنا ننوى البقاء فى مصر إلى الأبد .

لقد صنع اللورد كرومر مصر ، وكان على خليفته أن يصنع المصريين الأكفاء . ولكن مهما تكن تلك السياسة ضرورية ، فلم يكن من الحكمة أن تهبط من أعلى ، وإلا فلن تكون هناك نهاية للعقبات الفورية غير العملية التى يضعها المحرضون المتطرفون فى كل من لندن والقاهرة . ولم توصف هذه السياسة - رسميا - بأنها صادرة عن حكومة صاحب الجلالة ، ولكنها نسبت إلى « ضعف جورست » . ولم ير ذلك الموظفون الإنجليز وحدهم ، الذين اعتقد معظمهم أن هذه السياسة سوف تؤثر على وضعهم ، بل كان ذلك ما رآه الكثير من المصريين الذين كانوا يخشون استبداد الخديو والحكم الوطنى ، ومن ثم رأوا ضرورة استمرار بل وتوسيع نطاق السلطة البريطانية فى مصر . وكان تقدير الجالية البريطانية ذات المصالح فى مصر ما قبل الحرب كما عبرت عنه الصحافة الإنجليزية والجدل الذى دار فى « الترف كلوب » أن سياسة جورست « ضعيفة » .

ولكن جورست كان أقوى رجل رأيته أو عملت معه ، فقد غلبت علىَّ الحيرة حول تحديد مفهوم « القوة » الذى عناه زملائى وأصدقائى عند حديثهم عن جورست أو من جاءوا بعده (كتشنر وأللنبى) ، فلم أجد ما يدعونى إلى العدول عن التعريف الذى توصلت إليه عام ١٩١١ « للرجل القوى » ؛ فهو « الرجل الذى عليه أن ينفذ ما يريد منه نقاده أن يفعله دون أن يسأل عن الأسباب (ودون أن يفكر فى الأمر) وذلك بمجرد

توصيل النقد إليه » . وكان جورست على درجة من القوة مكنته من تمرير قانون الرقابة على الصحف ، كما لم يفكر لحظة واحدة فى الاستسلام للضغوط أو مجافاة المنطق .

وقد رتب جورست اجتماعًا ضم نحو المائتين من الموظفين البريطانيين فى مصر ، حدد لهم فيه إطار « سياسته » والخطط التى يرى اتباعها لتنفيذ تلك السياسة ، وكان ذلك الاجتماع ضروريا ، رغم أنه لم يتضمن جديدًا ، أو تعليمات محددة .

وكما نصح الرئيس تيودور روزفلت البريطانيين بعد ذلك بعامين ، أن يمضوا قدمًا فى دعم سياستهم بمصر أو يخرجوا منها ، فكان ذلك التصريح أول تصريح ينال القبول باعتباره « صراحة لا ضرورة لها » ، ولكن الجميع عجزوا عن تصور ضرورة تلك النصيحة من الناحية الفعلية .

وصل جورست إلى القاهرة حاملاً تلك التعليمات الجديدة فى جيبه ليجد الحاكم الشرعى للبلاد (الخديو) واقعًا تحت تأثير بعض الأفكار الواقعية والكثير من الأفكار الخيالية ، متحالفًا مع الحزب الوطنى – رغم أن تطلعات الوطنيين كانت تتناقض مع مصالحه – فى جبهة قوية معادية لبريطانيا ، ولما كان جورست يعرف أكثر من غيره عيوب الخديو ؛ فقد اتخذ دائمًا موقف الحيلولة دون تمكين الخديو من الإقدام على عمل غير مرغوب فيه قبل أن يتم ذلك العمل . وقد أشاع أعداء الخديو ذلك ، فالنصيحة الشخصية التى تصاغ بأسلوب لين كانت مقبولة عند ذلك الحاكم الشرقى الحساس الذكى الذى كانت كراهيته للإنجليز ترجع إلى ما تعرض له من إهانات علنية على يد كرومر ، واعتمد النظام الجديد على الصلة الوثيقة بين القصر ودار المعتمد البريطانى التى لم تكن – لسوء الحظ – مستمرة دائمًا .

ومن ناحية أخرى ، كان التمادى فى التشاور مع الخديو والتعاون معه ينقص من قدر المعتمد البريطانى فى أعين الجالية البريطانية فى مصر ، وقد بادر جورست بالتعبير عن مجاملته للخديو ، وأعطى له قدرًا محدودًا للتحرك فى أمور بسيطة مثل التصرف فى مالية الأسرة الخديوية ومنح الرتب والنياشين ، وقد أثار ذلك شكوك رجال الحزب الوطنى ، فهاجموه فى صحافتهم بأنه قد باع نفسه للإنجليز ، فأثاروا غضبه ودفعوه إلى توجيه ضربات مضادة لهم كان بارعًا فيها .

وبعد مرور ستة شهور أصبحت دار المعتمد البريطانى وسيطًا بين الطرفين المتصارعين بعد أن كانت هدفًا لهجومهما المشترك ضدها .

وواجه جورست صعوبات فى محاولته وضع أسس الإدارة الذاتية بإنشاء مجالس المديريات ، فقد راح الكثير من المصريين والإنجليز الذين ينظرون إلى سياستنا بعقولهم لا بعواطفهم ، يرون أنه من غير المعقول ، بل من المستحيل أن نشكك فى صلاحية منجزات كرومر ، وتوصلوا إلى استنتاج مؤداه أن هذه السياسة السابقة لأوانها محكوم عليها بالفشل ، فعدم كفاية السلطات الجديدة قد تبرهن لحكومة الأحرار وللشعب البريطانى والعالم أجمع على فشل تلك السياسة ، وذلك عندما نواجه بصعوبة تطبيقها ، وأن الحكومة البريطانية قد تتجه فورًا إلى تشديد قبضتها على بلد يرتبط الوجود البريطانى فيه بسداد الديون والارتباطات الدولية الأخرى ، ومن ثم رأوا أن تلك الإصلاحات لن تتقدم إلى الأمام قيد أنملة .

وحتى إذا نفذت تلك الإصلاحات ، فقد كانت - بالنسبة للكثير من الموظفين الإنجليز - غير مرضية وغير مريحة . ففى بداية الاحتلال البريطانى كانت نظرية الحكومة تقوم على استخدام « الرءوس البريطانية والأيدى المصرية » ، على نحو ما أوضحه ملنر فى كتابه ENGLAND IN EGYPT : فهناك الوزير المصرى ومستشاره البريطانى ، ومدير المديرية ومهندس الأشغال والرى ، ومفتشهم الإنجليزى ، وأحيانًا المفتش العام البريطانى ، وقد طبقت هذه النظرية بشكل مريح طالما كان المستشارون والمفتشون محدودى العدد ، ذوى كفاءة عالية ، ولكن بحلول عام ١٩١٠ زادت أعدادهم ، فقد كان من عملوا فى الثمانينيات والتسعينيات (من القرن التاسع عشر) مثالاً للمستوى الفنى والاجتماعى ، يحسنون التصرف ، ويقيمون علاقات شخصية متميزة ، ولكن التطور - رغم منطقيته ومعقوليته - حمل معه بذور انهياره .

وكانت مساوئ النظام الجديد فى المديريات أبرز منها فى القاهرة ، كان المستشار المالى وغيره من المستشارين رجالاً عصريين ، بينما كان الوزراء يتقاضون مرتبات كبيرة دون أن يعملوا شيئًا سوى بعض التوقيعات ، ولا تكاد تقع على عاتقهم أية مسئوليات محددة، حتى جاء تعيين سعد زغلول باشا وزيرًا للمعارف فكان كل شىء

هادئًا على جبهة الوزراء . ولكن سلطات وأعداد المفتشين والمفتشين المساعدين زادت في المديريات مع اتساع نطاق الإدارة . وأخذ نفوذهم ومكانتهم يفوق ما كان لمدير المديرية من مكانة ونفوذ ، فكان صغار الموظفين وأصحاب الحاجات والمظالم يوجهون شكاواهم إلى المفتشين الإنجليز وليس لمدير المديرية ، وكان المفتش يتعامل مباشرة مع مستشار الوزارة ، وما على مستشار الوزارة إلا تقديم النصح للوزير باعتماد ما يطلبه المفتش . ولا شك أن ذلك الأسلوب أتاح الفرصة لظهور بعض حالات الظلم والفضائح ، وإن كان بعض المفتشين قد أثبتوا كفاءتهم ، وأقاموا علاقات طيبة مع المديرين وأعيان الريف ، وكان أداؤهم موضع إعجاب المصريين الذين ظلوا يذكرونهم حتى بعد رحيلهم إلى مواقع أخرى .

وحتى لو كان المفتشون البريطانيون يجمعون بين فضائل البشر والملائكة معًا ، فإن هذا الوضع العام الذي ورثه جورست عن سلفه يعمل على إضعاف روح المبادرة المصرية والقدرة على تحمل المسئولية ، فهو نظام زائف . ومعنى ذلك أن النظام الجديد الذي تقرر في داوننج ستريت يهدف – على حد قول العرب – إلى فرض المستحيل ، ويعد غير مستساغ نظريا ، فتطبيق هذا النظام كان يقتضي أن يتحلى الموظفون الإنجليز والمصريون الذين يتعاملون معهم بما كان لدى جورست من عزيمة وقدرة على التكيف ، ولكن المشكلة أن البعض ناور من أجل تضييق مجال التغيير ، بينما كانت الأساليب التي اتبعها المخلصون للتجربة الجديدة تبدو بالنسبة لمرءوسيهم الإنجليز متطرفة سيئة التقدير .

فكان المفتش الإنجليزي القادم من الإسكندرية أو إحدى المديريات لمقابلة المستشار يضطر للانتظار ساعتين حتى يسمح له بالمقابلة ، بينما يسمح للموظفين المصريين بمقابلة المستشار على الفور ، وإن كان بعض المصريين الطيبين قد تحاشوا ذلك ، ولكنهم قلة ، كما لم يحاول بعض المديرين أن ينتزعوا لأنفسهم بعض صلاحيات مستشار الوزارة ، وكان عدم الاهتمام بتعليمات المفتش ، وعدم الأخذ بتوصياته على المظالم والطلبات التي تقدم له ، تثير الضيق والإحباط عند المفتشين ، فبعد أن كان مجرد إحاطة المدير علمًا بالشكوى يؤدي إلى إزالة أسبابها فورًا ، أصبح المدير يتلقى

رأى المفتش بلطف ولكن يهمل الاستجابة له ، لقد كانت مرحلة الانتقال دقيقة وصعبة وغير مقبولة من الجميع ، ولم يكن اللورد كرومر - أعظم معتمد بريطانى فى القرن التاسع عشر - مخطئاً عندما كان يرى أن استيعاب وتوسيع مدى السلطة وتحقيق منجزاتها على صعيد البناء والإنتاج ، يتطلب مواهب عقلية وشخصية غير عادية أكثر من احتياجه إلى الاعتدال والتدرج .

ولم يحل حرص السير ألدون جورست على أداء واجهاته السياسية والإدارية المضنية ، دون أدائه لواجباته الاجتماعية ، ولم يختلف فى ذلك عن ممثلى بريطانيا الآخرين فى الدبلوماسية والمستعمرات . فكلما كانت هناك جالية بريطانية ، فلابد من توفر الروح العامة الرياضية والكرم بمختلف مظاهره بما لا يقارن بما نجده عند غيرنا من الأمم ، وسوف نجد نسبة كبيرة من الجالية تضم أفراداً طيبين محسنين ، يقدرون صعوبة الأمور ، والجهود التى يبذلها ممثل بريطانيا فى مصر لمواجهة تلك المصاعب . وكثيراً ما مررت عبر إستانبول والبلقان وعواصم وسط أوروبا فى طريقى لقضاء الإجازة بالوطن لاكتشف أن الجالية البريطانية فى كل مكان تعلق آمالها على ممثل بريطانيا ، فتعبر عن خيبة أملها ونقدها الحاد أحيانا . وقد يكون محبوبا عند السكان المحليين ولكن علاقته سيئة بالجاليات الأجنبية ، ومهما تكن صفاته ، فهو يتعرض دائماً للوم من مواطنيه ، ولا يتلقى منهم مديحاً .

ولم تكن القاهرة يوماً استثناءً من تلك القاعدة ، ولم يكن جورست أحسن حظا من غيره ، مع مراعاة أنه كان من الناحيتين السياسية والشخصية مثيراً للجدل أكثر من سلفه، ولكن من الغريب أنه تلقى معاملة بالغة السوء من مواطنيه رغم حسن طويته. كان اللورد كرومر فى سنواته الأخيرة بمصر - بعد وفاة زوجته الأولى ونتيجة ضغوط العمل وتقدمه فى السن - قد قلل من المناسبات التى يقيم فيها حفلات الاستقبال لأبناء الجالية ، وحدد من توجه الدعوة إليه ، مما أثار ضيق واحتجاج من لم توجه الدعوة إليهم ، وإدراكًا من السير جورست لأهمية ذلك ، عمل على إبداء مظاهر الكرم على نطاق واسع بمساعدة زوجته الشابة الجذابة ، فتحمل مشقة استضافة أعداد كبيرة لتناول الغداء أو العشاء بصفة دورية ، دون أن يصاحب ذلك تحسن مادى أو تنظيمى لمثل تلك الحفلات الكبيرة . ومع ذلك لم يسلم من ألسنة الناقدين الذين رأوا أن قبولهم

لدعوة المعتمد البريطانى لا تعنى شيئًا لأن الجميع يذهب إلى هناك . ولم تجد محاولات جورست الاختلاط بالمدعوين نفعًا ، بل زادت من حدة الانتقاد بل والسخرية أحيانًا .

ومالبثت السحب أن تجمعت فوق رأس جورست ، فقد رفض الموافقة على قرض بمليونى جنيه لم تكن هناك حاجة ماسة إليه بحجة استقرار السوق ، فأثار غضب كبار المولين فى لندن ، وهجومهم عليه فى الصحافة البريطانية والصحافة الأجنبية المحلية على السواء . فتعرض للانتقاد الشديد بسبب كثرة الحفلات التى يقيمها ، وخروجه على أصول اللياقة بقيادته سيارته بنفسه ، وتدريبه خيول السباق بنفسه .

وعندما فتحت البريد ذات مساء وجدت مقالة بإحدى الصحف الأسبوعية كالت التهم للسير ألدون جورست ، منها أنه ذهب لمقابلة أمير بريطانى على محطة القاهرة راكبا دراجة بخارية وعلى رأسه قبعة من القماش ، وكانت المقالة مليئة بالافتراءات والأكاذيب . وقد حملت الجريدة إليه دون أن أدرك ما يسببه له ذلك من آلام ، فقد ظننت أنها ستثير سخريته ، فإذا بوجهه يكفهر ، ويكتب برقية للخارجية على الفور يطلب السماح له بطلب تعويض قدره عشرة آلاف جنيه عما لحق به من ضرر . وطبعًا رفضت الخارجية طلبه ، مما أطلق العنان لكتاب الأعمدة للنيل من الرجل والإساءة إلى سمعته ، تلك الإساءات التى ظلت عالقة بالأذهان لعدة سنوات .

وعند استقالة مصطفى باشا فهمى رئيس الوزراء عام ١٩٠٨ الذى قال عنه اللورد كرومر إنه من أكثر الرجال الذين عرفهم فى حياته رقة ، استجمع السير ألدون جورست شجاعته ، ونصح الخديو بتعيين بطرس باشا غالى (متعدد المواهب) رئيسًا للوزراء . ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يعين فيها مسيحى فى هذا المنصب ، فقد سبقه نوبار باشا فى شغل هذا المنصب . ورغم ذلك ، أمضيت الكثير من الوقت لتطييب خاطر أصدقائى المسلمين الذين كانوا حانقين لتعيين قبطى رئيسًا للوزراء . وأكدت لهم أنها فرصة ثمينة بالنسبة لهم لإثبات عدم صحة مقولة إن الإسلام يقترن بالتعصب ، ولكن حتى الأميرة نازلى كانت تعانى من الصدمة . ورفع القاضى عرفان بك - الرجل الوقور - يديه إلى السماء ، يصب اللعنات على اليوم الذى ولد فيه (بطرس غالى) . وقال : « يجب أن نتذكر دائمًا أن الدين عند هؤلاء يحتل مكان القومية » .

وقد تكون هناك فرصة لأى قبطى آخر بارز وموهوب ليصبح رئيسًا للوزراء فى مصر المستقلة ، ولكن بطرس مصرى لا يقل ولاؤه لبلاده عن مواهبه ، غير أنه وقع على المعاهدة المصرية - الإنجليزية الخاصة بالحكم الثنائى للسودان ، ولذلك كان دائمًا هدفًا للقول بأنه صنيعة الإنجليز .

وفى ذلك الوقت تقريبًا ، تقدمت شركة قناة السويس - التى كان من المقرر أن ينتهى امتيازها عام ١٩٦٩ - بطلب إلى الحكومة المصرية لمد الامتياز ستين عامًا أخرى ، مقابل سداد أربعة ملايين جنيه للحكومة المصرية . وكان احتياطى النقد عند الحكومة يتناقص بصورة خطيرة ، ومن ثم كانت أى موارد تأتى موضع ترحيب ، وكانت هناك آراء مؤيدة لمد الامتياز ، وأخرى معارضة له ، وكان لابد من تأكيد الحفاظ على تلك المؤسسة ذات الخبرة والدراية مع إضفاء شىء من الدولية على هذا الممر المائى العالمى.

ومن ناحية أخرى ، كان هناك من يرون عدم ضرورة إبقاء الامتياز ممتدًا لنصف قرن آخر تحظى خلاله الشركة بما تحققه من أرباح كبيرة ؛ لأن القناة مصرية ، حفرها المصريون ، وراح ضحية ذلك عشرات الآلاف من المصريين دون أن يدخل الخزانة المصرية قرش واحد من عائداتها ، كان هذا رأى رجال الحزب الوطنى ، ورغم ما يترتب على مد الامتياز من فوائد ، كان لهذه المعارضة وجاهتها . وقد أعطى جورست مؤشرًا أنه يناصر هذا الرأى بتركه القرار فى يد « الجمعية العمومية » . ودافع بطرس غالى عن مد الامتياز ببراعة ، وأيده فى ذلك عن اقتناع ويقين سعد زغلول باشا ، ولكن القرار جاء سلبيا .

وفى ٢١ فبراير ١٩١٠ ، شملنا جورست بكرمه ، فنظم رحلة إلى البدرشين وسقارة لخالى هارى كست وزوجته (وكان يعرفه منذ أيام الدراسة فى إيتون) . وفى أثناء عودتنا من سقارة رأينا ناظر المحطة يجرى فى اتجاهنا حاملاً فى يده برقية . وكان جورست يركب حصانًا عربيا (أما نحن فكنا نمتطى الحمير) فهرع إلى المحطة حيث استقل قطارًا خاصا إلى القاهرة ، ولم نعرف ماذا حدث ، فقد فاته أن يبلغنا ما جاء بالبرقية ، وهو نبأ اغتيال بطرس باشا غالى .

وعندما كان جورست يتلقى خطاب تهديد ، كان يسلمه لى ، حامداً الله على خطاب لا يحتاج إلى رد . أما بطرس غالى فكان يطوى تلك الخطابات ويضعها فى جيبه ، وهو يتمتم : « لن يجرءوا على ذلك » ! ولكن الوردانى وجد لديه الجرأة الكافية ليغتاله . وتحمل بطرس آلام عملية جراحية لم يكتب لها النجاح ، وقال للخديو وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة : « إننى أموت وأنا أعلم تماماً أننى لم أعمل شيئًا ضد مصلحة بلادى » . وقد اقتنع الكثير من المصريين بذلك ، وقال شيخ الأزهر على قبره : « لقد فعل المسلمون القليل من أجل هذا البلد ، ولكن هذا المسيحى فعل من أجل بلاده الكثير » . ولكن حرارة العامة وصلت إلى درجة الغليان ، فاشتد الهجوم على الإنجليز والأجانب ، وطالبت الجاليات الأجنبية باتخاذ موقف ، غير أن جورست لم يوافق على ذلك ، ولم تقم محكمة خاصة كمحكمة دنشواى للنظر فى القضية ، ولكن تمت إحالتها إلى محكمة الجنايات ، وطالت المحاكمة ، ولكنها كانت طبيعية ، وحكم على الوردانى بالإعدام ، عندئذ أصبح أشبه ما يكون بالبطل القومى ، وخاصة فى أوساط الطلبة . وقد خرجت عصابات من هؤلاء طافت شوارع القاهرة تنشد : « الوردانى الوردانى .. إللى قتل النصرانى » .

وأقسم بعض كبار السن أنهم لن يسمحوا بإعدام الوردانى ، وإنه سوف يتمكن من الهرب قبل تنفيذ العقوبة ، ولكن تعليمات جورست كانت صارمة وباردة ، وتم إعدام الوردانى فى الزمان والمكان المحددين . ولم يقض الرصاص الذى أطلقه الوردانى من مسدسه على بطرس غالى وحده ، ولكنه قضى أيضًا على آمال جورست ، ومهما يكن سبب الفتنة ، فإنها تعود دائمًا إلى سياسة وشخصية الحاكم ، « ولو كان هناك شخص آخر لسارت الأمور فى اتجاه مختلف » . وكانت أذهان المصريين والأجانب المقيمين بمصر مشتتة ، وفى إنجلترا - كما فى مصر - اعتبر ما حدث نكسة يحمل جورست وزرها ، رغم أنه حصل على ما يشبه الإجماع فى موافقة مجلس العموم على الإجراءات التى اتبعها .

كانت حوادث العقبة ، ودنشواى ، ورحيل كرومر ، ومقتل بطرس غالى ، هى الحوادث الأربع الكبرى التى شهدتها مصر خلال السنوات العشر السابقة على الحرب ، وكنت عندئذ فى حالة عدم استقرار ، أهيم فى شارع الدواوين على وجهى

بصحبة جريفز ، فرأينا ما أدهشنا ، مأتماً فى أحد البيوت تصدر منه أصوات النادبات والنائحات .

ومما زاد الطين بلة ، أن الإيطاليين بالإسكندرية ، اختاروا هذا الوقت العصيب ليقترحوا أن تقيم البلدية تمثالاً لدانتى ، ولما كان دانتى قد وضع كلاً من محمد وعلى فى الجحيم ، فإن ذلك الاقتراح سوف يواجه معارضة قوية من جانب المسلمين .

لقد أيقنت أن وضع السكرتير الشرقى غير محدد جيداً ، حتى إننى أستطيع أن أختار ما أقوم به من أعمال ، فقد كنا فى القداس الذى أقيم على روح الملك إدوارد ، ووجدتنى مسئولاً عن الممثلين المحليين ، رغم أن الوزارات المعنية هى التى يجب أن تعنى بذلك ، وكان علىَّ أن أدبر أماكن لكل هؤلاء ، كما كان علىَّ أن أقدم تقريراً عن مقابلاتى مع حاخام اليهود ، وبطريرك الأقباط ، والباشاوات ، وكبار الأعيان – أو بعبارة أخرى : كبار العاطلين – وكان الجو حاراً ، فأصاب الإغماء بعض الجنود .

انتقلت دار المعتمد البريطانى فى الصيف إلى ڤيلا ألليندال ، وهى ڤيلا كبيرة ذات حديقة جميلة بضاحية الرمل بالإسكندرية ، وأقمت وكليف مع عائلة جورست ، ولما كان الجميع يجيدون لعب الشطرنج ، فقد وجدت متعة فى ذلك .

وضعنا أيدينا على سلطان مراكش السابق ، واختلفنا حول من يلقاه أولا ، وبأى لقب نناديه ، وأخيراً استقر رأينا على مناداته بلقب « صاحب الجلالة » . وقد تم إيفادى لاستقباله وتقديم راسل له باعتباره مرافق الشرف . وقد حرصنا على أن نجعل نائب القنصل الفرنسى يصعد الباخرة قبلنا ، وهو جميل سيقدره لنا مدى الحياة ، ثم صحبت « جلالته » داخل سيارة السير دون جورست إلى الفندق الذى سيقيم فيه ، وانبهر الرجل كثيراً عندما ركبنا المصعد ، فصاح قائلا : « الله أكبر ، لقد أصبحت الأرض تحتنا ! » فقلت له إن العناية الإلهية سوف تسحب المصعد حتى يبلغ شقة جلالته ، وقد تبين لى أنه إنسان طيب ، لا يتسم بالعناد ، وأظن أنه سيستعيد عرشه قريباً ، ولم يجلب السلطان حريمه معه ، مما جعل راسل يشعر بالارتياح .

وفى منتصف الصيف تقريباً ، عانيت الخوف للمرة الثالثة ، مما جعلنى أدرك بعض ما عناه هنلى بمقولة : « فقدان السيطرة على الظروف » . فقد كان بعض الزملاء يقضون إجازاتهم ، ولم تكن هناك وسائل للتسلية بالرمل ، فأخذت على عاتقى بعض الأعمال التى لا تدخل فى اختصاصى وأضفتها إلى عملى . فقد دعا السير ألدون جورست إلى حفل عشاء وسلمنى قائمة المدعوين ، فقمت بإرسال الدعوات على الفور ، وانتظرت تلقى ما يفيد قبول الدعوة ، وقد وصلت فى الموعد المعتاد ، وبعد يومين دق الجرس ودخلت مكتب جورست لأجد وجهه عابساً على غير العادة ، فسألنى عن أخبار حفل العشاء ، فقلت كل شىء تمام . وسألنى عما إذا كنت قد أرسلت جميع الدعوات ، فأجبت بالإيجاب ، ثم سألنى عما إذا كنت قد فعلت ذلك بنفسى ، فدهشت وأكدت له أننى فعلت ذلك ، فسألنى بهدوء تام « إذن ما هذا ؟ » وأخرج من جيبه خطاب دعوة مطوياً ومكتوباً بخط سيئ وكأن كاتبه سكير أو معتوه ، وسألنى « هل هذا خطك ؟ » ، فأجبت بالنفى ، وقلت له إننى سوف أبحث عمن كتبه ، ولم يعقب جورست بشىء ، ولكنى خرجت من مكتبه حزيناً يائساً ، وكان رفق الدعوة خطاب من تلقاها وهو صديق قديم لجورست ، يلفت نظره إلى أن الدعوة تجاوزت حدود الأصول الرسمية بهذا المظهر السيئ .

خرجت وأنا لا أكاد أعى أين أذهب ، وخشيت ألا يكون جورست قد صدقنى ، وشغلنى التفكير فى كيفية إصلاح الأمر ، ووجدت نفسى بالقرب من شارع ستانلى بك بالقرب من البيت الذى يسكنه صاحب الدعوة . وحيانى البواب النوبى - الذى كنت أعرفه من قبل - وهو جالس فوق أريكته . وسألته عما إذا كان قد جاء لسيده فى الأيام الثلاثة الأخيرة خطاب من دار المعتمد البريطانى ، فأجاب بالنفى أولاً ، ثم سألنى عن سبب استعلامى عن ذلك . وجعلنى شىء ما أهدده بأنه إذا لم يقل لى من الذى تلاعب بالخطاب ، فسوف أسلمه للشرطة ، فاعترف لى بأن سيده كان يتوقع تعيينه وكيلاً لوزارة ، وكان يترقب تسلم خطاب بهذا المعنى من دار المعتمد البريطانى ، لذلك قام البواب بفتح الخطاب لمعرفة ما فيه حتى يأخذ « البشارة » ، ولكن المظروف تمزق فى يده ، فلجأ إلى أحد القواسين العاملين بالدار ليحصل على مظروف بديل وكتب عليه

العنوان ، دون أن يدرى ما ترتب على ذلك من متاعب . فأخذت منه الظرف الممزق الذى يحمل خطى ، وقدمته لجورست ورويت له القصة ، فهب واقفًا ووضع يده على كتفى ، وسألنى عما إذا كنت قد أبلغت صاحب الدعوة عما فعله البواب ، فأجبت بالنفى ، وسألته عما إذا كان لا يزال فى حاجة إلى برهان على صدقى فقال : « كن أكثر كرمًا ، فلا تعاملنى بالمثل » .

هذه التجارب الثلاث وغيرها ، جعلتنى أتعاطف مع من توجه له تهمة ، وربما يقبض عليه ، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه فى مواجهة أدلة تبدو منطقية ، ترى ماذا يكون موقفه أمام محبيه وأصدقائه ومعارفه ، عندما يرونه قد أخذ بجريرة تكاد تقطع الأدلة بصحتها ؟ وعاهدت نفسى من تلك اللحظة ألا أدين أحدًا بسبب أدلة لا يدعمها اعتراف منه بما فعل .

وعلى كل ، خفت حدة الأزمة السياسية ، وخفت معها الضغوط التى تعرض لها السير ألدون جورست ، ولكنه عانى فجأة من مرض فتاك دون مقدمات ، وقد بدأت حالته فجأة تسوء وقيل إنها ضربة شمس ، وكنت أقوم بالعزف على البيانو من أجله ، وأقرأ له بعض الأعمال الأدبية ، ولم يعد قادرًا على ممارسة أى رياضة ، وأظن أن علىَّ أن أرافقه فى حالة سفره بالإجازة ، ولم يستطع أى متخصص أن يقدم له العون ، وعاد إلى مصر لتتدهور حالته الصحية تدريجيا طوال الشتاء ، ولكنه تابع عمله فى صراع مرير مع الألم ، فكان يكتب مراسلاته للخارجية البريطانية وكذلك تقريره السنوى ، بينما جعلت الآلام وجهه يتصبب عرقًا .

وفى أول أبريل ١٩١١ دخلت إلى غرفته لأتسلم منه برقيته الأخيرة التى يعتزم إرسالها بالشفرة إلى السير إدوارد جراى (وزير الخارجية البريطانى) مؤكدًا أن حالة الآلام العصبية التى يعانى منها تزداد سوءًا ، وأنه فى حاجة إلى إجازة يعود فيها إلى لندن للعلاج ، ولكن العلاج لم يُجدِ معه نفعًا ، فتم نقله إلى بيته فى كاسل كومب بمنطقة ولتشاير حيث انتهت حياته الحافلة القصيرة . وعندما كان راقدا فى بيته جاء الخادم ليخبر شقيقته أن رجلاً ينتظر فى عربته أمام الباب الخلفى يريد رؤية السير

جورست ، فذهبت شقيقته لتجد خديو مصر الذى جاء خصيصًا من باريس لتوديع صديقه ، فأخبرت أخاها الذى سمعها بصعوبة دون أن يعى تمامًا ما تقول ، وجاءت بالخديو إلى سريره الذى أمسك بيده وقال له : « إن الله قد تخلى عنك فى الأيام السالفة ، ولكنه سيكون معك الآن » ، فهم الرجل بالجلوس ولكنه عجز عن ذلك ، ولم يستطع الكلام مطلقًا. لقد قيل إن الشرقيين يحتفظون بصلواتهم إلى وقت الغروب ، ولكن مهما تكن الأخطاء التى ارتكبها الخديو ، فلا أستطيع منذ ذلك الحين أن أسىء الظن بعباس حلمى الثانى [٤] .

وقد قرأنا برقية واردة من رويتر ، جاء فيها : إنه عند الاحتفال بتتويج الملك چورچ، نُقل السير ألدون جورست إلى جوار النافذة ليشهد مظاهر الاحتفال الذى عجز عن حضوره . وكان ذلك مثار تعليق أعدائه ، فقال لى أحد وكلاء الوزارات الذى التقى بى بأحد شوارع القاهرة : « إنه نوع من الإعلان عن النهاية » . وقد أنعم الملك عليه بوسام رفيع قبيل موته بأيام قلائل .

كانت نظريات جورست الاجتماعية والإدارية ثمينة ومثالية ، عندما أضع فى اعتبارى كيف استعاد امتلاك زمام الأمور بعد مقتل بطرس غالى ، وكيف كان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق خطته عندما دنا أجله ، أشعر أن خسارته لا تعوض ، فقد كان قادرًا بما له من خبرة ولديه من عزيمة على أن يحقق التقارب بين مصر وإنجلترا ، ويعالج سوء التفاهم الذى يعترى العلاقات بين البلدين .

لقد تحدث معى اليوم اثنان من الوزراء وقد اغرورقت عيونهما بالدموع حزنًا على الصديق الذى فقدناه ، وعبرت الصحافة عن تلك الخسارة بنفس المعنى .

لم أحظَ بالوقت أو الموهبة لكى أكون مؤرخًا ، ولكنى كنت أتمنى أن يهتم المؤرخون بذلك الخادم المخلص للتاج البريطانى :

(٤) تأثر الخديو كثيرًا لوفاة ألدون جورست ، وكان يحرص على زيارة قبره سنويًا فى كاسل كومب ، ويضع فوقه الزهور .

عندما ينتهى عملها ، تتعفن الأكذوبة ،

الحقيقة عظيمة ، وستظل باقية

عندما لا يهتم أحد ببقائها أو غيبتها

وبعد وفاة جورست ببضعة أيام ، أعلن اللورد هالدان فى حفل عشاء مع الليدى هورنر ، أن كتشنر قد عُين معتمداً بريطانيا فى مصر ، وكان فى غاية السعادة ، وقد ظلت الصحف تتساءل عن السبب الذى يجعل وزارة الحرب غير راغبة فى الاستفادة من خدمات الجندى الأول للإمبراطورية ، والآن تحددت مسئولياته لسنوات قادمة فى خدمة وزارة الخارجية .

الفصل الخامس

مجتمع القاهرة

(١٩٠٩ - ١٩١٤)

لابد أن الثمانينيات والتسعينيات (من القرن التاسع عشر) قد مثلت العصر الذهبى لمجتمع القاهرة ، فقد حققت عبقرية اللورد كرومر السلام والتقدم والرخاء ، وساد النفوذ البريطانى ، ولكنه لم يتعلم - بعد - كيف يسيطر ، إذ كانت المستويات الاجتماعية أوروبية الطابع : فرنسية الطراز ، ذات ملامح شرقية ولكنها دولية الطابع . فكان تبادل البطاقات يتم بين المسلمين والأقباط ، والأرمن والشوام ، كما كان يتم بين وجهاء الأوروبيين ودار المعتمد البريطانى . كانت الجالية الإنجليزية صغيرة نسبيا ، وكان تمسكها بالرسميات يقلل من اشتراكها فى الرحلات ، وحفلات القراءة والموسيقى ، أو حتى ركوب الحمير ، غير أن السردار نفسه لم يجد حرجًا فى أن يمتطى يوميا حمارًا أسيوطيا أبيض اللون من منزله إلى مكتبه .

وحتى السنوات الأولى من القرن العشرين ، كنت ترى هذه الحمير العالية علو المهر ، التى تتغذى جيداً ، ذات شعر مقصوص لامع ، تمشى بأقدام ثابتة على الطريق ، تذب الذباب بحركة طبيعية من آذانها الطويلة ، ويبلغ سمك عضلات العنق ست بوصات ، وأطراف ذيولها مخضبة بالحناء ، يعلق فى رقبتها حجاب فضى يحمل عبارات قرآنية ومعه خرزة زرقاء تقى المطية عين الحسود . وكان المخصص للإيجار من تلك الحمير يحمل لوحة معدنية عليها رقمه بالإنجليزية والعربية ، مثل « حمار رقم ١٧٢ » ، تعلق على جانب السرج . وكان هذا النوع من الحمير يستمتع بدخان السجائر عندما ينفخ تجاه أنوفها ، وقد يعبر الحمار عن هذا الاستمتاع برفع رأسه قليلاً إلى الخلف وإغماض عينيه . (وقبل وصولى إلى القاهرة ١٩٠٤ - كانت الحمير قد أصبحت مخصصة للسياح بالمناطق الأثرية ، وأعطيت - كالجمال فى منطقة الأهرام - أسماء الخيول الرابحة فى السباق أو أسماء رؤساء أمريكا ، حسب مزاج وجنسية المستأجر) .

وكانت التسلية تتم داخل البيوت أكثر منها فى النوادى والمطاعم . وكان الزوار الإنجليز الذين يقضون الشتاء بالقاهرة يعدون من أفراد الجالية الإنجليزية بالقاهرة ،

ولكن عام ١٩٠٤ كان بداية تدهور هذه الظاهرة ، وجاء عام ١٩١٤ ليضع نهاية ، فقد جاء تطبيق الوفاق الودى ليميط اللثام عن الحماية المقنعة ، ويجعل مصر أشبه ما تكون بالمستعمرة التابعة للتاج البريطانى ، وتحققت السيطرة الفعالة للخارجية البريطانية ، ولم يعد انتقادها المتشنج لما يقوم به الاحتلال فى مصر يضع فى حسابه الدول المعارضة لحكومة صاحب الجلالة البريطانية . ومن الناحية الرسمية ، كان التغيير للأحسن ، ولكن إلى حين ، فقد اختفت التصرفات الشاذة و « الحمايات » ، وأصبح باستطاعة الحكومة المصرية أن تنفذ عدداً من الإصلاحات الضرورية . ولم يعد المعتمد البريطانى مضطراً لمساومة زملائه القناصل حاملاً قبعته فى يده ، مقدماً بعض التنازلات لترضية أطماع منتهزى الفرص .

ولكن تدهور النفوذ الأوروبى فى مصر ، وما تبعه من تدهور المكانة الاجتماعية للأوروبيين ، مع تزايد عدد صغار الموظفين الإنجليز ، واتساع نطاق النادى الاجتماعى والنادى الرياضى ، وتضاعف أعداد الفنادق ، وتضخم أعداد السياح الذين يزورون مصر كلها فى عشرة أيام ، ويطالبون بعدم التمييز فى مراقص الفنادق ، كل ذلك أدى إلى الحد من الاختلاط والتفاهم بين المصريين والأجانب ، وتدهور المستوى الاجتماعى للجاليات الأجنبية واهتزاز شخصيتها ، فكلما سهلت الاتصالات فسدت العادات الطيبة ، وقد شعرت بالخجل يوما وأنا أسمع أحدهم يمتدح زائراً كبيراً : « ما كاد يرانى حتى طلب بطاقتى » ! فقد اختفت التقاليد الاستعمارية القديمة . وأصبح كل إنسان وكل شىء أكثر نظافة ، وثراء ، وبساطة ، واعتدالاً . ولكن المتعة قلت - بطريقة ما - ورأيت أعراض ذلك فى أماكن أخرى ؛ فقد ضاعفنا - فجأة - كمية الحصاد على حساب المتعة .

كان الموظف البريطانى فى القاهرة والإسكندرية (حيث تركز التفتيش على المديريات فى المدينتين) يعمل بجد وأمانة ، يواظب على العمل بدقة فى مصلحته أو وزارته من الصباح الباكر حتى ما بعد الظهر ، وقد يقود سيارته أو دراجته فى الطريق إلى بيته أو الترف كلوب لتناول الغداء ، ثم يلعب التنس أو الجولف بنادى الجزيرة حتى الغروب ، ثم يعود إلى الترف كلوب لمناقشة مختلف الأمور ، وقد يتناول العشاء هناك أو فى شقته ، وكل ما كان يراه الموظفون المصريون - كباراً كانوا أو صغاراً - من هؤلاء

الموظفين الإنجليز هو التحديق فى وجوههم وهم جلوس خلف مكاتبهم من الثامنة صباحًا إلى الواحدة بعد الظهر ، ما عدا يوم الجمعة . أما غير الموظفين من المصريين فلا يرون حتى هذا القدر من أولئك الموظفين الإنجليز . وأصبح التزاور غير معروف ، واختفت مئات الصلات الناجمة عن التعرف على الناس عن طريق التزاور المنزلى ، من السؤال عن تسنين الطفل أحمد ، إلى الاطمئنان على تقدم مصطفى فى الإنجليزية أو كرة القدم. كما لم تبذل زوجات الموظفين الإنجليز جهدًا فى التعارف - فضلاً عن عقد أواصر الصداقة - مع زوجات وبنات زملاء أو مرءوسى زوجها المصريين (ما عدا حالة واحدة أو حالتين استثناء) وقد تقوم الزوجة الإنجليزية بقدر من الترفع والاستعلاء بزيارة سيدة مصرية أو تركية تلبية لدعوتها ، وهى تعتقد فى قرارة نفسها أن صاحبة الدعوة أقل منها أصلاً وتربية ومعرفة ومظهرًا وملبسًا .

وليس من العدل أن نرجع هذا الإهمال والإغفال التام إلى العزلة وعدم الاكتراث ، فالحديث ليس سهلاً دائمًا إذا جرى بين من ينتمون إلى أعراق وبلاد ولغات وديانات مختلفة ، ويعود ذلك إلى غياب الأرضية المشتركة وبصفة خاصة قبل انتشار التعليم الأوروبى فى مصر ، فإذا وضعت - فى القاهرة - كل معرفتك بالتنس والجولف وآداب السلوك الاجتماعى وآخر ما صدر من الروايات الإنجليزية فى جانب ، ثم وضعت فى الجانب الآخر ما اتصل بالسياسة المصرية وهمومها ، والأدب الفرنسى ، وأحوال محصول القطن ، والاهتمام لساعة من الزمن بالعائلة والأعراض التى تعانى منها ، أصبح الحديث - أحيانًا - بالغ الصعوبة . كان هناك طبعًا - ولا يزال - الجدل الدائر حول عزوف المصريين عن التزاور ، ورغبتهم فى أن نظل منغلقين على أنفسنا ، وفى هذا تجن شديد وبخس لحق الشعب المصرى الذى يعد من أكثر الشعوب وُدًّا وكرمًا .

وقد عرفت من يرون فى المصريين غير ذلك ، ثم يقومون بالتنظير حول ما يحبون وما يكرهون ، ولم يتم اكتشاف السلبيات المترتبة على النفور من المصريين إلا بعد الحرب ، عندما لم يعد بالإمكان علاج تلك السلبيات ، أو إدراك دورها فى الانفجار المفاجئ عام ١٩١٩ . أضف إلى ذلك ، يقظة آسيا على يد اليابان ، وانفلات أعمال السخرة التى تمثلت فى تجنيد فرق العمال خلال الحرب ، ومتاعب بريطانيا خلال الحرب ، وأخيرًا - وليس آخرًا - روح العصر ، فكل هذه العوامل ساهمت بدرجات

متفاوتة فى الاتجاه نحو المطالبة بالجلاء ، ولكن هذه العملية كان من الممكن أن تتم بالتدريج بقدر أقل من المرارة التى سببتها للطرفين ، لو كانت هناك فرصة لتلطيف جو العلاقات بتحقيق قدر من الاختلاط بين الإنجليز والمصريين الذين كانت مصالحهما دائمًا متماثلة ومتطابقة .

وقد شهدت فلسطين - فى السنوات الأولى للانتداب - روحًا أفضل من تلك التى سادت فى مصر ، ولكنها كانت أسوأ حالاً فى قبرص ، ولكنى أعتقد أن من له خبرة عملية بهذه البلاد الثلاثة قد لا يرتاح إلى القول بأنه بينما كان العزوف عن الاختلاط الاجتماعى فى قبرص وبروزه فى فلسطين نتيجة للتطلعات السياسية ، فإنه فى مصر كان محركًا لها .

ولا أستطيع الادعاء أن تفسير تلك الاختلافات (التى تعبر عن رأيى الشخصى) قد سببت لى أى متاعب شخصية ؛ فكل شىء مهم أو ممتع - وخاصة فيما اتصل بعمل السكرتير الشرقى - ممتزج بالارتياح التام .

وفى عام ١٩٠٩ استأجرت وبادون سميث شقة كان يسكنها من قبل السير وليم جارستن واللورد إدوار جليشن وتقع فوق سكن إبراهيم بك الهلباوى - صاحب العقار - وعلى بعد مائتى ياردة من دار المعتمد البريطانى ، والهلباوى بك محام قدير بارز ، وكان المدعى العام فى قضية دنشواى ، وقد أرسل ولده حسن إلى إنجلترا لدراسة الزراعة حتى يكتسب خبرة تساعده على حسن استغلال أطيانه الزراعية ، ولكن حسن لم ير فى دراسة الزراعة ما يحقق بغيته ، ففضل اكتساب الخبرة العملية بالعمل لدى شركة مسكلين وديفانت ، بعدما أقنع والده بذلك ، وقد عاد إلى مصر أخيرًا ، وهو من ألطف من رأيت من الشباب ، وكنت أستمتع بالحديث إليه ، وقد خاب أمل والده فيه لانصرافه عن الزراعة إلى الأعمال الفنية .

وكانت الشقة واسعة ومكلفة بالنسبة لمواردنا المحدودة ، فضممنا إلينا صديقى القديم فى إدارة المراجعة ألكسندر أنسطاسيوس بالس . كان والده المعروف يقود حركة أدبية فى اليونان تدعو إلى أن يكتب اليونانيون اللغة كما يتكلمونها ، وقد أثارت طبعته الجديدة للإنجيل اهتمامًا يفوق ما أثارته الطبعة الإنجليزية ، ولكنها أثارت ضده

جماهير أثينا الذين تظاهروا ضد الطبعة ، واضطر الرجل إلى أن يهرب ملتمسًا النجاة من الموت ، وقد مات بعد ذلك دون أن يدرى به أحد شأن غيره من الأدباء المبدعين ، وقد تخرج ابنه (صديقنا) فى أيتون وباليول . وكانت أحاديثه معنا على الإفطار ممتعة حقًا ، حيث كان يستفيض فى الحديث عن اللغة اليونانية والأدب اليونانى ليكشف لنا ما فيهما من ثراء لا يعادله إلا ثراء اللغة العربية الفصحى ، ولا يستطيع الأجانب أن يجادلوا فيما يطرحه هذا المتحمس الغيور على تراثهم من آراء .

وعندما تركنا باودن سميث بسبب زواجه ، شاركنى وبالس فى الشقة چون يانج الفنان رقيق الإحساس ، وكان لا يقبل مسخ طابع الشرق ، ويصر - مثلى - على أن يطلب من خادمه ارتداء العمامة بدلاً من الطربوش . وكان يانج يردد - مخلصًا - إنه على استعداد للموت دفاعًا عن العمامة ضد عدوها الطربوش .

وكان لدينا ثلاثة من الخدم المصريين الذين فضلناهم على النوبيين مظهرًا وحديثًا بالعربية ، وقد لمسنا فيهم الأمانة والدقة فى العمل ، مما يبرز قدرة المصريين على التكيف مع الظروف ، وكان الطباخ عبدالعزيز شديد العناية ، فإذا قدم لنا مشهيات تختلف عن المستوى المألوف ، استدعيناه لنشكره ، ونطلب منه أن يقدمها لنا مرة أخرى ، فيحرص على ذلك لمدة عامين دون أن يغير من مكوناتها شيئًا .

وفيما بين ١٩٠٨ و١٩١٧ ، استمتعت بالنوم العميق فى الشرفة البحرية للشقة ، حيث كنت أنام على حشية معسكرات داخل ناموسية تقينى لدغات البعوض فى جو مصر الجاف . لم أشعر يومًا بالأسف لانشغالى الشديد بواجبات عملى التى حرمتنى من الاندماج فى إحدى المجموعات (الشلل) المتنوعة بالقاهرة ، كان هناك أشخاص - مازالوا على قيد الحياة - يكرهون الاحتلال ، ويذكرون ثورة عرابى عام ١٨٨٢ ، مثل رياض باشا رئيس الوزراء الأسبق الذى كان صعب المراس ولكنه كان مهذبًا ، وبقيت التركية شائعة كلغة للعائلة الحاكمة والأرستقراطية والحريم . وكانت اللغة العربية التى تتحدثها الأميرة نازلى فاضل أقرب ما تكون إلى الركاكة ، وكانت تتحدث التركية مع قريباتها وخدمها ، وقد سمعت كثيرًا عبارة كانت ترد على ألسنة زوارها من الوزراء هى « بس أرابلر » أى « عرب أوساخ » ، وقد سمعتها أيضًا من رجل مهذب مثل ابن

أخيها الأمير حيدر فاضل ، الذى كان ولاؤه موزعًا بين الطريقة البكتاشية التى كانت توجد فى كهف أسفل المقطم ، والانكباب على دراسة أعمال جوستاف فلوبير ، الأديب الفرنسى المعروف .

ولا يعنى ذلك أن التمسك باللغة التركية قد رافقه الميل إلى الباب العالى أو الدولة العثمانية ، سواء بين من هم على علم بما فعله الأتراك فى مصر ، أو بين من يقارنون سوء الأحوال فى تركيا بالرخاء المتزايد الذى تشهده مصر . غير أن المصريين مازالوا يحترمون الترك باعتبارهم الطبقة الحاكمة ، ولطريقتهم فى ممارسة السلطة ، كما أنهم يتحمسون لتركيا باعتبارها الدولة المسلمة الوحيدة المستقلة ، دولة الخلافة وحامية الحرمين الشريفين والقدس ، وكثيرًا ما استفاد الحزب الوطنى بهذه المشاعر التى يكنها المصريون تجاه تركيا فى حشد المعارضة ضد الاحتلال البريطانى ، ولذلك كان على الاحتلال أن يقاوم فكرة الجامعة الإسلامية التى أثبتت الحرب (العالمية الأولى) عدم صلاحيتها ، وتلقت ضربة قوية على يد ثورة الصحراء ، واضطرت أن تلفظ أنفاسها على يد مصطفى كمال باشا .

وكانت الجامعة الإسلامية تعامل فى السياسة البريطانية ، وكذلك الخلافة من جانب وزارة الهند ، من أجل الإرضاء المفترض لستين مليونًا من رعايا صاحب الجلالة البريطانية المسلمين فى الهند ، التى ظهرت وتوارت وراء « حساسيات المسلمين » ، وأدت إلى تعطيل الإصلاحات فى الشرق الأدنى والأوسط ، كما أدت إلى بقاء بضعة ملايين من المسيحيين الأرثوذكس رعايا تحت السيادة العثمانية ، وأدت أيضًا إلى الحيلولة دون التدخل ضد مذابح الأرمن الأبرياء ، وإن كان هناك أساس للخوف من فكرة الجامعة الإسلامية حتى الحرب ، فقد أثار اللورد كرومر انتباه حكومته تجاهها بعد حادثة العقبة بتضمين الكتاب الأبيض هذه الرسالة التى تلقاها من مسلم مجهول الهوية :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى اللورد كرومر المعتمد البريطاني ومصلح مصر

من المعلوم لكم أن التلغرافات والصحف تورد كل يوم لنا ما يفيد وجود خلافات حادة بين إنجلترا والدولة العثمانية حول أمور تتصل بأراضي مصر بلادنا ، ولما كانت آمال الرجال في تحقيق ما يرغبون تخيب غالباً ، وأن مخاوفهم من الشر - بلطف من الله - تتبدد ، ندعو الله أن يكون الأمر كذلك الآن ، وأكتب لكم باسم « جميع المصريين » وأنا لست من رجال السياسة أو أصحاب الشهرة ، ولست معروفاً لكم ، وكذلك لا تعرفون مكان إقامتي ، ولكني أشعر بالاستفزاز من الأعمال الحمقاء الكثيرة التي يتم ارتكابها ، وأسمع الكثير من الكلام الأحمق الذي يقال ، وأقف لأقول قولة حق بما يرضي الله .

يقول بعض الحمقى أحياناً ، ويظنون أن ذلك يقربهم من الله « لعن الله المسيحيين ، وأدخل الكفار ونساءهم نار جهنم » ، وهي دعوات لا تتحقق لأن اللعنات تصيب شفاه من ينطق بها ، والجمل يتربص بصاحبه الذي يسيء معاملته ، وقد خاطبتك في أول هذا الخطاب بعبارة « مصلح مصر » ، وهو الاسم الذي تعرف به في الفيافي والبحار ، وقد اقتدى بك الكثير من الإنجليز (وليس كلهم) ممن عملوا معك ، كما يقتدي الأطفال بأبيهم ، إن الأعمى هو من لا يرى ما فعله الإنجليز في مصر ، فقد فتحت أبواب العدل أمام الفقراء ، وجرت المياه بين أيدي الفقراء دون أن يستطيع الأغنياء إيقاف جريانها ، وارتفع شأن الفقير وانحط شأن الغني ، وضرب على أيدي المرتشين عندما امتدت لترتكب الإثم ، إننا نرى هذه الأشياء ونعرف من أين أتت . قد تقول : « كونوا شاكرين يا رجال مصر ، وباركوا من عمل لصالحكم » ، والكثير منا من أصحاب الفكر الحر الذين لا يقبلون النفاق أو الرياء يلهجون بالشكر لكم ، ولكن الشكر يأتي من سطح القلب وتحته بئر عميقة ، فبينما يسود السلام البلاد تغط روح الإسلام في نوم عميق ، فنحن نسمع الإمام في المسجد يصب اللعنات على الكافرين ، ولكن لعناته تتبدد في الهواء وتذهب أدراج الرياح ، يسمعها الأطفال للمرة الأولى ولا يفهمونها ، والكبار يسمعونها منذ الطفولة ولا يعيرونها اهتماماً ، ويقال إن الحرب ستنشب بين إنجلترا وعبد الحميد خان ، فإذا حدث ذلك فلابد أن تتغير الأمور ، فإن

كلمات الإمام تتردد فى الصدور وعلى كل مسلم أن يلبى نداء الدين . إننا لا نحب أبناء عثمان ، ويعرف الطفل الرضيع فساد أعمالهم ، وأنهم استغلوا المصريين حتى ذبلت أعوادهم ، ولكنهم إخوان لنا لأنهم مسلمون ، والخليفة يحمى الحرمين والمقدسات الإسلامية . ورغم أن الخليفة قد يكون لا حول له مثل بيازيد ، أو قاسى القلب كمراد ، أو مجنونًا كإبراهيم ، فهو ظل الله على الأرض ، ولابد أن ينهض كل مسلم لتلبية دعوته للجهاد كما يطيع الخادم المخلص سيده . فتلبية دعوة الخليفة من الإيمان ؛ لأنها تحمل معها أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم . إننى والكثيرون معى نأمل أن يتحقق السلام ، ولكن إذا وقعت الحرب أؤكد لك أن كل من يحمل سيفًا سوف يشهره ، وكل من لديه عصا سوف يقاتل بها ، وستقف النساء فوق أسطح المنازل صائحات « نصر الله الإسلام » . وستقول عندئذ « إن المصريين لا يقدرون المعروف ، شأنهم فى ذلك شأن المجنون الذى يقوض سقف داره فوقه » ، وقد يبدو الأمر كذلك فى أعين العالم ، ولكن عندما يتعرض الإسلام للخطر ، يزهد المسلم فى أمور الدنيا ويتعطش فقط لخدمة دينه حتى لو كان الموت نصيبه . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يدفع عنا الشر .

توقيع : باسم جميع المصريين　　　القاهرة ١٠ مايو ١٩٠٦

ورغم أن هذه المشاعر قد ماتت كما تموت الخراف – كما اتضح ذلك للفلسطينيين وأصابهم بخيبة الأمل – ولكن أى اعتداء من مسيحى أو يهودى على الحرم الشريف بالقدس كفيل بأن يشعل نيرانًا يمتد لهيبها من الإسكندرية إلى أسوان ، ولكن لأسباب عملية استُبدل الاستقلال الوطنى بالثيوقراطية القومية وبالجامعة الإسلامية ، ولذلك لم يعد يصح القول بأنه « لا وطنية فى الإسلام » ، ويذكر جرجس بك حنين – وكيل مصلحة الأموال المقررة – إنه قد أجبر وبعض الأقباط أيام الثورة العرابية أن يصعدوا إلى أعلى مئذنة المسجد ، ويؤذنوا ويعلنوا إيمانهم برسالة محمد [1] . وفى عام ١٩٢٢ ، دعى الأقباط بمودة بالغة ليخطبوا تأييدًا للوطنية من على منبر الأزهر ، قلعة الإسلام الكبرى .

(١) هذه فرية لا سند لها تاريخيًا ، فقد كان مجلس شورى النواب (سند الثورة السياسى) يضم أعضاء من أعيان الأقباط ، وكان من بين أعضاء الجمعية العمومية التى أعلنت خلع طاعة الخديو بطريرك الأقباط وأعيانهم ، وشارك الأقباط فى الجيش دفاعًا عن البلاد . (المعرِّب)

وقد أثارت بعض خصائص ومظاهر القاهرة مخيلتى عندما رأيتها لأول مرة . فقد بدا رئيس الوزراء بطرس باشا غالى وكأن روح وزير فرعونى قد تقمصته ، فقد كان - من حيث الشكل - يشبه التمثال الخشبى المعروف باسم « شيخ البلد » المودع بالمتحف المصرى ويعود إلى الأسرة الرابعة . وقد ولد بقرية كيمان بالصعيد ، مسقط رأس أجداده ، وكذلك « القديس أنطون » ، وتعلم فى المدرسة القبطية التى أقامها البطريرك كيرلس الرابع (تولى البطريركية فى المدة من ١٨٥٤ - ١٨٦١ ، وقيل إنه قتل بالسم لمحاولته توحيد الكنيستين الأرثوذكسية اليونانية والكنيسة القبطية) ، وأخذ يرقى فى مختلف المناصب عن جدارة واستحقاق ، وكان شديد الاهتمام بالنهوض بطائفته ، على عكس غيره من الأقباط الذين تولوا مناصب كبرى ، وكان واحداً بين القلائل من معاصريه الأقباط الذين كانوا متبحرين فى الثقافة العربية ، فكان يعشق الشعر العربى ، وكثيراً ما كان يردد بعض الأبيات أثناء ارتدائه ملابس السهرة ، وبدأ تعلم الإنجليزية عندما كان فى الأربعين من عمره وكان يتحدثها بطلاقة . وكان أسلوب كتابته للفرنسية واضحاً وبديعاً . وعندما سأله البابا ليو الثالث عشر فى مقابلة تمت بينهما عما إذا كان يعرف القبطية ، أبدى أسفه الشديد لجهله بها ، وما كاد يعود إلى القاهرة حتى غرق فى عدد من المراجع والقواميس القبطية ، واستطاع أن يلم بلغته القديمة .

وكان بطرس يفخر دائماً ببراعة الأقباط فى الأمور المالية ، وقد جاءت بعض ثرواتهم الكبرى من أصول غير عادية ، يحكى أن « فلان أفندى مجهول » سافر من القاهرة إلى الصعيد قبل أيام القطار ذى الممر الطويل ، ونزل إلى محطة قرب المنيا لبضع دقائق ثم عاد ليركب القطار ، ولكن القطار تحرك تاركًا إياه على المحطة ، ورآه رجلان على تلك الحال فسألاه عن سبب مجيئة إلى هناك ، فرد « فلان أفندى » الذى يخشى أن يجيب مباشرة على أى سؤال ، إنه جاء بالصدفة دون أن يكون لديه ما يفعله، ولما كانت الحقيقة وحدها هى التى يمكن تقبلها فى مصر ، فقد تركه الرجلان وانصرفا ، ثم عادا ليعرضا عليه مائة جنيه مقابل الانصراف من المكان ، فتعجب « فلان أفندى » وقال : « لماذا ؟ ألم يقبل الأوروبيون أخذ تلك النقود ؟! » وشكرهم فلان أفندى بوقار ، ولكنه اعترض على المبلغ فزادوه إلى ٥٠٠ جنيه ، واحتج لأنه ليس

موظفًا صغيراً ، وأن وقته أثمن من أن يضيعه معهم سدى ، فأخذوا يزيدونه حتى وصل المبلغ إلى ٨٨٠٠ جنيه دفعوها له نقداً ، فأخذ المبلغ وعاد إلى القاهرة . وهناك علم أنه كان ثمة مزاد لبيع أراض تساوى خمسين ألف جنيه فى تلك البلدة ، وأن وصوله المفاجئ جعلهم يظنون أنه جاء للمزايدة على الأرض ، وبهذا المبلغ ، ومع إتقان فنون إقراض النقود ، تكون رأس مال إحدى العائلات الثرية فى أسيوط .

وفى بداية القرن كانت عائلات الأرمن الكبرى : نوبار باشا رئيس الوزراء ، وتيجران باشا ذات نفوذ ومكانة . وكثيراً ما كانت سيارة رينو أنيقة (فى أوائل أيام السيارات) تصل إلى باب دار المعتمد البريطانى حاملة صاحب السعادة والإرشاد عبد الرحيم مصطفى الدمرداش باشا ، فيجرى القواسون للترحيب بأكثر المصريين أناقة ، ويساعدونه فى رفع ذيل قفطانه الحريرى وعباءته الثمينة أثناء صعوده الدرج ، يفوح منه عطر الياسمين ، ولكنه للأسف يرتدى حذاء برقبة بجوانب مطاطة . وقد أنقذت الحماية البريطانية أملاكه من الضياع بسبب سوء تطبيق القانون فى المحكمة الشرعية ، وكان السيد يدل على أبناء بلده بالقول بأنه لولا الإنجليز لما استطاع أحد أن يلبس « ملابس ملوكى كما يفعل الأتراك » ولاضطر جميع المصريين إلى ارتداء الملابس الرثة . وقد جعلت هذه التصريحات من عبد الرحيم باشا موضوعاً للسخرية فى المجلات الهزلية التى كانت تطلق عليه « المستر دمرداش » .

وتواترت زيارات الزبير باشا لدار المعتمد البريطانى ، فهو يتصل أسبوعياً مطالباً بمبلغ مليونى جنيه إسترلينى ، وأستطيع أن أؤكد أنه كان على حق فى مطلبه ، ولكن لم يعد هناك أحد على قيد الحياة يستطيع ردها له ، فقد طرده جوردون من أملاكه ونفاه لكونه من تجار الرقيق ، وقتل ولده ، وأثناء ثورة الخليفة التعايشى عرض الزبير أن يدعم جوردون فى قلعته بما له من وزن وما لديه من قوات ، فكتب جوردون إلى لندن طالباً الموافقة ولكنها رفضت طلبه ، والآن يعيش ملك السودان غير المتوج فى عصر آخر ، فى ضاحية حلوان على معاش صغير ، تاركًا لى ذكرى صبره الشديد ، وخاتمه الفضى التركواز ، وبرودة يده التى تشبه أيدى الموتى .

أما الكونتيسة ديللا سالا ، فكانت تشبه الزبير فى انتمائها إلى عصر ما قبل الاحتلال من حيث طريقة تعاملها وسلوكها . وكانت روسية ابنة الأمير جاجارين ،

تزوجت من رجل عجوز هو الكونت بكيتوف أحضرها معه لزيارة مصر ، وتعرفت على مغامر إيطالى جذاب يدعى الكونت ديللا سالا ، وأثناء حفلة صيد بالقرب من الأهرام ، طاشت رصاصة لتقتل بكيتوف الزوج العجوز ، لتتزوج أرملته الثرية من ديللاسالا الأفاق الغارق فى الديون ، واشترطت عليه أن يعدل عن لعب القمار ، وأن يترك المراهنة على الخيول ، وعادت الكونتيسة إلى الترمل قبل قدومى للقاهرة بوقت طويل . وكانت صديقة حميمة لأسرة كرومر وللأميرة نازلى فاضل ، وأقطاب الجاليات الأجنبية فى مصر ، وبذلك كونت لنفسها مكانة خاصة لا ترتكز على نشاطها فحسب ، بل ترتكز على قدرتها الفائقة على اختلاق المبررات التى تلائم الظروف ، ورغم إبدائها التعاطف والتحمس الدائم للروس ، كان كل ما قدمته لجموع الروس الذين لجأوا إلى مصر فى أثناء الحرب هو التبرع بدستة واحدة من فرش الأسنان .

ذهبت مع جريفز لتناول الشاى عند الأميرة نازلى فاضل ، المرأة المتحررة الوحيدة التى تنتسب إلى الأسرة الحاكمة وقد جاءت فى الثالثة واستمرت تتحدث إلينا حتى الرابعة والربع وكل ما استطعنا قوله : لغة إنجليزية جيدة مطعمة بالعربية . كانت امرأة جميلة ، ولا تزال متألقة فى العقد السابع من عمرها ، ذات عيون أخاذة ، كانت ابنة عم الخديو إسماعيل ، ولكنها تكره حفيده الخديو عباس . وقد تزوجت وهى بعد صغيرة السن ، وعاشت سنوات طوال فى إستانبول ، حيث شملها سفيرنا السير هنرى لايارد بعطفه ، فكان لها بمثابة أب ثان ، وأطلعها على أحسن جوانب الحرية الأوروبية ، وأتاح لها فرصة التعرف على أساليب الحياة العصرية ، وهى تمتلك قصراً ذا حديقة واسعة خلف قصر عابدين تحتفظ فيه ببطانة من الخدم ومجموعة من عبيد العائلة القدامى . وقد عرفت نازلى الملكة فيكتوريا والملك إدوارد والسلطان عبد الحميد ومعظم مشاهير الرجال والساسة فى عصرها ، وعند موت زوجها أو طلاقها منه – فلم أعد أذكر المناسبة على وجه الدقة – عادت إلى القاهرة ، وتزوجت ، بحكم الضرورة ، من رجل تونسى هو بوحاجب بك عمدة المرسى (الذى ظل مقيماً بتونس) ، وكانت تستقبل وتستضيف مجموعة مختارة من المصريين والأوروبيين بالكرم المشهود لأسرة محمد على . وكان سعد زغلول محاميها وقد تعلم الفرنسية بناء على نصيحتها أو أمرها (فلا فرق بين الاثنين) ، واستطاع أن ينال منصباً وزارياً .

سرنا وراء اثنين من الخصيان سُميا بأسماء الزهور أو الأحجار الكريمة (حسبما جرت العادة) كانا ينتظراننا عند حجرة البواب ، وفي أثناء مرورنا في الفناء رأينا مجموعة من القطط الجميلة ، وما كدنا نصل إلى المدخل حتى صحنا « ياساتر » لإشعار السيدات أن هناك رجلاً في الطريق فيحتشمن ، وجرى أحد الخصيان على السلم ليعلم « البرنسيسة » بوصولنا ، بينما انتظرنا في حجرة الاستقبال (وسواء إذا حضرت مبكراً أو في الموعد المحدد أو متأخراً ، فعليك الانتظار ، ولو لدقائق معدودة) ، والحجرة التي تعد قيمة ، كانت ذات طابع كوميدي مرعب ، ولكنها تعبر عن صاحبتها ، وعن الثراء المقترن بتعدد من ينصحونها بشراء ما غلا ثمنه ، فهناك النجفة المذهبة معلقة بالسقف ، والمقاعد طراز لويس الخامس عشر مذهبة براقة بطريقة تدعو لعدم الارتياح ، وكل مائدة مثقلة بالصور ، إضافة إلى كونسير قديم به بيانولا كاملة ، ولابد أن يكون عدد الصور في تلك الحجرة يبلغ نحو الألف صورة إضافة إلى صور العائلة المالكة البريطانية داخل أطر ثمينة ، وصور السلطان عبد الحميد ولورد جرانفيل ولورد كرومر ، ولورد كيتشنر ، كما كان كل شبر من الحوائط الأربعة مغطى بصور ملصقة من الصحافة المصورة ، فإذا ضقت بالحديث ، تستطيع أن تمعن النظر إلى ما لا يقل عن عشرين عاماً من الأحداث التي شهدها العالم .

وكانت الأميرة مؤيدة للإنجليز بقوة تبعث أحياناً على الحرج ، وتنتمي إلى مدرسة « امض قدماً ، أو اخرج » ، ومن العجيب أنها لا تثق بأبناء بلادها ولا تتعاطف معهم ، أو حتى تحاول إقناع « الطرف الآخر » برأيها ، فهي تحتقر المصريين ، وعندما قام روبرتسون عضو البرلمان الإنجليزي عن الأحرار بزيارته الأخيرة للقاهرة ، وهو معروف بتأييده « للتطلعات » الوطنية المصرية ، فكتبت إليه نازلي تدعوه لزيارتها مرتين ، وعندما أكد لها اعتذاره عن عدم قبول الدعوة لأنه لا يجد متسعاً من الوقت لقبولها ، ردت عليه برسالة غاضبة قالت فيها : « سيدي .. بعدما تلقيت بالأمس اعتذارك الثاني عن عدم استطاعتك الحضور لرؤيتي أعتقد الآن بصحة ما قاله أصدقائي من أن أصدقاءك من المصريين لن يسمحوا لك بالحديث معي ، ولم أكن أصدقهم لأنني لا أظن أن رجلاً إنجليزياً يخضع لتأثير المصريين إلى هذه الدرجة ، ولكنني تبينت الآن أن مشاعرك نحو المصريين تفوق مشاعري نحو الإنجليز ، وكم كنت

أتمنى أن ألقاك لأتحدث معك حديثًا طويلاً عن بلدى وبلدك دون أن أخشى أحدًا أو أحترس من شيء، وأتمنى أن تستطيع قبل مغادرتك مصر أن تدرس الطرفين جيدًا، وأن تقدر لبلادك ما حققته من عدل ورخاء لمصر ، أرجو أن تصدق ما قلته لك ... المخلصة: نازلى » . وهذه وثيقة يسعدنى أن أقدم نسخة منها دون مقابل لكل من يقول إن بريطانيا لم تحقق نجاحًا أو مارست الاستبداد فى مختلف أرجاء الشرق الأدنى والأوسط.

وذات مساء ، تناولنا العشاء مع نازلى ، التى رغم ميلها للإنجليز تعادى جورست ، وأصبحت ميالة للخديو . وقد كتب لها كيتشنر خطابًا مطولاً هذا الأسبوع ، وبعد تناول العشاء لعبت الشطرنج مع حسين رشدى باشا ناظر الأوقاف ، وقد خسرت ، ربما بسبب مهارته فى اللعب أو بسبب عشاء نازلى ، لست أدرى !

حسين رشدى باشا طبوزاده ، الذى أصبح بإرادة إنجلترا ، وعن استحقاق رئيسًا لوزراء مصر خلال الحرب ، كان متعدد الكفاءات ، نزيهًا ، وعاشقًا لباريس ، بليغًا فى الفرنسية ، وكثيرًا ما قابلت عند نازلى الشيخ على يوسف رئيس تحرير « المؤيد » لسان حال القصر ، الذى استطاع أن يتحدث بمهارة ساعة كاملة مع سعد زغلول الذى كان – رغم رزانته – يبدى حنقه على الخديو ويؤيد كرومر بكل قوة ، ولم يستطع أخوه فتحى باشا زغلول أن يصبح وزيرًا رغم دماثته وذكائه وما قام به من خدمات ومنها ترجمته لكتاب ليبون « سر تفوق الأنجلو سكسونيين » .

وكانت نازلى مسلمة متدينة ، تناولت الغداء معها ذات يوم بصحبة جريفز ، وكانت فى أحسن حال ، ولكنها حانقة على دانتى « الإيطالى السيئ المنحط » ، وكانت على وشك انتزاع الصفحة التى أثارت غضبها من كتابه ، ولكنى اقترحت عليها أن تطمس الاسمين ، وأن تضع مكانهما اسمى من تمقتهم من البشر ، فأعجبتها الفكرة ، وذكرت لنا أنها كانت تقيم ذات مرة فى بيت كبير ببلغاريا وغادرت البيت على الفور بعد أن أبلغت المالك اعتزامها المغادرة بخمس دقائق ، عندما أبلغها رجل مريع أنه يكتب كتابًا عن مثالب الرسول .

وقد ازداد كرم الأميرة نازلى عندما دعتنا لرحلة غير عادية إلى التكية البكتاشية ، وهى طريقة صوفية شيعية يقع مقرها عند سفح المقطم ، وكان شيخ

الطريقة يدعى محمد على داده بابا عجوزًا مهيبًا وسيمًا . وتم شواء خروف كامل على شرفنا ، وكانت الأطباق عديدة ، وجرت العادة على ضرورة تناولها كلها دون التغاضى عن أحدها ، فكان علينا أن نتسلق التل حتى نهضم ذلك الطعام الثقيل ، وقد زرنا جبانتهم المحفورة فى نفق صخرى ، وكان علينا أن نردد عبارة « السلام عليكم يا أهل القبور » بين الحين والآخر ، ثم نرد نيابة عن الموتى بعبارة « السلام عليكم يا أهل الدنيا » .

فإذا نسى الزائر ذكر إحدى العبارتين مات ابنه الوحيد خلال ثلاثة شهور ، وأتت النار على بيته ، وينسى الناس ذكره ، وكأنه لم يعش فى هذه الدنيا ، وكان من الطبيعى أن نضيق ذرعًا بتلك الطقوس التى لا فكاك منها .

وحفلات الغداء والعشاء التى كانت تقيمها الأميرة نازلى فاضل للوزراء المصريين ، ولأعضاء البعثات الدبلوماسية أكدت روعة الضيافة التى وصفتها صحيفة « المورننج بوست » . كانت الست وسيلة تعزف على العود بمهارة . ويقوم عبد حبشى بعزف منوعات على البيانولا ، وترقص على تلك الأنغام التونسية فطومة . وفى بعض الليالى المتميزة يطرب الشيخ يوسف الضيوف بغنائه ومواويله ، ويبدى الحضور إعجابهم من حين لآخر بكلمة « الله .. يا شيخ » .

٢١ ديسمبر ١٩١٣ – تلقيت مكالمة تليفونية صباح الأحد من السراى تفيد وفاة الأميرة نازلى فى الساعة الرابعة صباحًا ، بعد اتصالى للسؤال عن صحتها بيوم واحد ، عندما أبلغتنى إحدى جواريها أنها أحسن حالاً . وسألت عما إذا كان باستطاعتى القيام بأى عمل . وذهبت إلى هناك لأجد الأمير حسين كامل وزغلول باشا وغيرهم جلوسًا فى القاعة الكبرى بالدور الأرضى للسراى . وقال لى الأمير حسين إنه كان معها حتى السابعة والنصف مساء ، وإنها كانت تبدو بحالة جيدة ولكن معنوياتها كانت متدهورة وتصر على أنها لن تعيش بعد شهر ديسمبر الذى شهد موت والدها ووالدتها . وجاء موتها نتيجة سكتة قلبية ، وقبل أن تلفظ آخر أنفاسها ، أغمضت عينيها بيديها ، وبموتها يصبح الأمير حسين كامل أكبر أفراد أسرة محمد على سنًا ، وكان قلقًا جدًا لموتها ويكرر دائما عبارة « هذه عبرة ، هذه عبرة » بالفرنسية ، وبقدر ملحوظ من الجزع ، وأذكرها دائمًا كصديقة لطيفة عرفتها لمدة سبع سنوات تقريبًا ،

وحزنت لفقدها . وقبل موتها بخمسة أيام ذهبت لرؤيتها مساء ، وكنت أتحدث معها ونضحك معًا لمدة ساعة ، وكانت معنوياتها مرتفعة ، وذكرت لى بعض النكات الطريفة .

وأذكر من أفراد الأسرة الخديوية الآخرين الأمير فؤاد الذى أصبح سلطانًا ثم ملكًا ، وكان نشيطًا ، متنورًا ، أوروبى المزاج ، وإن لم يكن أوروبى الأسلوب ، مغرمًا بلعب البوكر ، وحفلات قصر الدوبارة (دار المعتمد البريطانى) . كما أذكر الأمير يوسف كمال الذى كان يجمع القطع النادرة من المشكاوات الزجاجية البديعة التى تعود إلى القرن الثالث عشر . وكانت هوايته الصيد فى مختلف بقاع العالم ، ودعانى يومًا إلى الصيد بحقول القصب بنجع حمادى مع مجموعة من الضيوف الإنجليز على ظهور الخيول وكلاب الصيد تتقدمهم ، كما عرفت الأمير محمد على الذى أصبح بعد ذلك وصيًا على العرش ، وخاتمه الزمردى الذى يجلب له الحظ ، والذى أحيا الفن الشرقى الأصيل فى قصره بالمنيل ، وأذكر له كرمه وحسن رعايته لأمه .

وقد ورث طباع الملوك التى اتسم بها محمد على باشا الكبير وأكثر من فرد من أفراد أسرته . كان أحدهم يسير بصحبة زوجين ليطلعهما على حديقة قصره ، وكانت الزوجة تسير بجوار الأمير بينما كان الزوج يسير خلفهما ، وفجأة انحنى على الأرض لينتزع نبتة نادرة من الصبار ، وعندما استدار الأمير نحوه ، ذكر الرجل اسم النبات وهو يعيده إلى موقعه متظاهرًا بربط حذائه ، ولم يعلق الأمير . وبعد تناول القهوة وانصراف الضيفين ، وجدا فى سيارتهما نباتًا مماثلاً ملفوفًا بعناية داخل علبة من الصفيح .

وخلال العقد الأول من القرن العشرين تبدد الأمل فى محافظة المصريين على زيهم الوطنى وطرز أثاثهم وعمارتهم ، فقد كانت الأمم فى كل أنحاء العالم تحارب من أجل الحفاظ على هويتها الوطنية ، وكانت القومية – عند معظمهم – هى المسألة الأساسية ، وأحيانًا كانت اللغة هى المسألة الرئيسية – كما هو الحال عند الفلمنك – أو ذات طبيعة سياسية عامة كما يراها الشعب العراقى ، أو تجمع بين الأمرين – كما هو الحال فى المجر . أما الشعوب غير الأوروبـ ‘‘ تستطيع فى الوقت الراهن تحقيق

كل ما تتطلع إليه فى هذا الاتجاه ، فتتجه إلى الأخذ بالإطار الخارجى المميز لحضارة مادية أرقى عن طريق تقليدها شكليًا ، طالما لا تستطيع عمل ذلك سياسيًا ، فأغفلوا الجمال الذى صنعه أولئك بأنفسهم (فى ظل الحرية الاقتصادية) ، وتمسكوا بالأشياء المتاحة التى ينتجها الغرب على نطاق واسع ويبيعها لهم ، وكان مظهر الاحتجاج اليائس على هذه العبودية المنتشرة على نطاق واسع هو مغزل المهاتما غاندى .

وكان بعضنا - ممن يعملون فى مصر - خلال الحرب وفى أعقابها ، يرى أنه مازال باستطاعة مصر الحفاظ على مصالحها وتقاليدها دون التضحية بالضرورات الحديثة ، ولم يدرك ذلك إلا القليل من أثرياء وأعيان الريف المصريين ، فقد كان الدمرداش بقفطانه أحسن الناس هندامًا فى مصر ، وضرب الأمير محمد على المثل بقصره الرائع الشرقى الطراز بالمنيل ، وقد قلده فى ذلك واحد أو اثنان من الباشاوات ، ولكن السواد الأعظم من المصريين اعتبر ذلك أمرًا شاذا ، أو اعتبروه - فى أحسن الأحوال - مفرطًا فى الفخامة ، كما لم تقم ورش صناعة الأثاث الشامية والإيطالية بالموسكى ، أو آلات صقل العاج بوقف إلهامى بقصر النيل ، أو حتى فن صناعة الحقائب الذى رعته وزارة المعارف ، لم تقم أى من تلك بتشجيع المصريين الشباب الذين تطلعوا إلى الحياة ، بقدر تطلعهم إلى الحصول على حق التصويت والتظاهر باعتبارهما من الحقوق الوطنية .

غير أنه لا يزال هناك الكثير مما تستطيع مصر إنتاجه وما أنتجته بالفعل ، ولكن المصريين لا يستخدمون تلك الأشياء العديدة الجميلة النافعة ، التى أزاحها الإنتاج الأجنبى جانبًا ، وفى زمنى كنت لا تجد موظفًا يرتدى زيه الوطنى : من الوزير إلى الكاتب البسيط ، كالجلباب والقفطان والعمامة ، بل على العكس اعتبر ذلك الزى « بلديًا » (تحقيرًا له) ، يبعد من يرتديه عن العمل فى دوائر الحكومة ، ويقلل من شأنه فى نظر الأجانب .

وقد قمت وچون يانج بإجبار الخدم الذين يعملون عندنا بارتداء الجلباب والعمامة ، ولكنهم استاءوا لذلك ، وكانوا يفضلون ارتداء الطربوش عند حضورهم من منازلهم ، وانصرافهم إليها ، وقال لى إسماعيل إنهم لا يريدون أن يظنهم الناس من

تلاميذ الأزهر القادمين لتوهم من الريف ، ولا أظن أن ذلك الانتصار النبيل الذى حققته الوطنية المصرية عام ١٩٣٦ سوف يمتد للعمل على إحياء الزى الوطنى الذى يناسب جو البلاد .

وقد شاع شرب النبيذ ، كما بدأت البيرة تغزو الأسواق ، وأصبحت متاحة حتى فى الأسواق ، وقد شاهدت أحدهم يشرب البيرة باستمتاع ، فقلت له : « من أى أنواع المسلمين أنت ؟ » فأجاب « أنا من عشاق التحرر ! » .

ومن العادات الأوروبية التى أخذ بها المصريون « بطاقة الزيارة » ، وهى تتضمن معلومات مفصلة عن صاحبها ، على عكس الحال فى إنجلترا . ويتولى الأرمن طباعتها بالعربية والفرنسية بثمن زهيد ، وتتضمن عادة تفاصيل عن مهنة صاحبها ، ولكن بطاقة قداسة البطريرك هى البطاقة الوحيدة - فيما أعلم - التى طبعت بالقبطية ، وحفلت بطاقات الماسون بالرموز المعبرة عن هويتهم ، وتحمل بطاقة صديقى أسقف جبل سيناء إلى جانب درجة الشرف التى حصل عليها من كامبريدج رسماً يمثل الجبل المقدس والصليب على قمته ، وكان نيافته يقيم بالقاهرة طوال الموسم ثم يذهب بعد ذلك إلى كارلسباد .

* * *

وقد كوفئت على عشقى لقاهرة العصور الوسطى بتعيينى عضواً بلجنة « المحافظة على الآثار العربية » ، وهى لجنة صغيرة مصرية - أوربية مشتركة ، تجتمع مرة واحدة شهريا ، للنظر فى الحفاظ على آثار القاهرة القديمة ، وجعل ذلك من واجبى - فضلاً عما فيه من متعة - أن أكتشف مساجد القاهرة الرائعة الفريدة : مسجد السلطان حسن العظيم ، ومسجد قلاوون ، ومساجد الغورى وابن طولون (الذى يبدو كقصر آشورى كبير) ، ومسجد إبراهيم أغا ذا القرميد الأزرق ، ومسجد محمد على بالقلعة الذى يتوج المدينة بحكم موقعه . وقد رأيت فى مآذن وقباب المساجد المملوكية من الدقة والجمال ما لم أشاهده فى أية منشآت معمارية أخرى . وأظن أننى ارتقيت كل مئذنة أمكننى ارتقاؤها فى القاهرة ، وأحب أن أفعل ذلك ثانية إذا عدت إلى مصر .

ولما كانت اللجنة استشارية - تقدم النصح لمدير عام مصلحة الأوقاف (الإسلامية) - لم يكن لها اهتمام بالآثار القبطية ، التى بدأ الاهتمام بها يزداد . لقد كانت المسيحية الدين الرسمى لمصر ذات يوم ، ولم يرتبط الأقباط برابطة الدم مع العرب "الغزاة" ، فهم ينحدرون مباشرة من الشعب الفرعونى . وقد اهتم معظم الأقباط بما قبل المسيحية والبدايات الأولى للمسيحية ، تماما كما يهتم المسلمون بالجاهلية وصدر الإسلام ، وكانت الكنائس منذ الفتح الإسلامى مهملة ومتواضعة مقارنة بالمساجد العظيمة ، ولذلك لم تحظ باهتمام الأوروبيين الذى اتجه إلى الحفاظ على الآثار الإسلامية ، ولكن تلك الآثار كانت تحتفظ فى تصميمها وزخرفتها بمؤثرات عبقرية من مصر القديمة . وهذه المؤثرات - إضافة إلى غيرها مما جاء من اليونان وآسيا - تم صهرها فى بوتقة واحدة ليخرج منها نمط فنى متميز .

ونجد ملامح الفن القبطى فى المنسوجات التيلية التى ترجع إلى صدر العصر القبطى ، ومزهريات الكنائس المصنوعة من النحاس والبرونز والفضة ، والمخطوطات وكتب الترانيم ، والحفر على الخشب بأعماق غير عادية التى نجدها مبعثرة هنا وهناك فى مصر . وقد خصص ماسبيرو - أول أثرى يهتم بالآثار القبطية - قسماً خاصاً لها بالمتحف المصرى ، ولكنه لا يكفى لاستيعابها . وكان مرقص سميكة باشا - الموظف الكبير بمصلحة السكك الحديدية ، ووكيل المجلس الملى - أول من اهتم بالآثار القبطية ولاحظ وجود معظم الكنائس والأديرة خارج نطاق عمل اللجنة ، ولذلك بقى الكثير من الآثار القبطية التى لا مكان لها بالجناح القبطى بالمتحف المصرى ، وبدأ سميكة باشا عملية حصر الآثار القبطية القديمة ، وأخذ يجمع الأيقونات والأناجيل القديمة فى غرفة بإحدى الكنائس القديمة بالقاهرة . وكان كريماً عندما أشركنى معه فى حركته البديعة لإقامة متحف للفن القبطى يقام خصيصاً من أجل عرض الآثار القبطية .

وقد بدأنا بناء المتحف فى منطقة حصن بابليون إلى جانب الكنيسة المعلقة البديعة التى تعود إلى القرن العاشر . وبالقرب من الحصن المسيحى المعروف باسم « قصر الشام » الذى استولى عليه العرب عام ٦٤١ . وجعلنا المبنى يتخذ شكل البيت القبطى من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ، تم تزيينه وبناؤه بالأعمدة الرخامية

ونوافذ المشربيات ، والنافورات . وجمع المبنى بين ألوان الكنائس والحصون ، إلى جانب الحديقة الغناء ، ما يسر الناظرين .

وقد حصلت من يَسّى بشارة بالأقصر على مجموعة من الصلبان القبطية القديمة والبرونزيات التى تم ضمها إلى مجموعة المتحف القبطى ، وقد نوهت الصحافة القبطية بهذه المكرمة تشجيعًا لغيره على أن يحذو حذوه . وكان لذلك أثره الإيجابى ، فقد زارنى أسقف الإسكندرية وقدم لى مخطوطًا للإنجيل يعود إلى القرن الرابع . هناك الكثير من الأموال التى يحتاج إليها الكثير من المشروعات ، لو وجدت من يحسن إقناع الناس بالمساهمة فيها .

وبعد ما تم إنجاز المتحف القبطى صدر مرسوم ملكى عام ١٩٣١ ، أضفى عليه الصفة الرسمية ، وكانت مساهمتى فى إنجاز هذا العمل الخلاق من أهم ما فعلت فى ربع القرن المنصرم ، وقد استطعت أن أوسع مجال هذا الاهتمام بالآثار عندما عملت بالقدس وقبرص ، وهى أعمال جعلتنى أحس بالرضا ، أكثر من إحساسى بأهمية ما قمت به من أعمال دبلوماسية وسياسية وإدارية أخرى .

ونظرًا لخبرتى بالأسواق والمساجد ، رافقت المئات من زوار القاهرة فى جولات ممتعة فى المدينة القديمة ، مع تقديم المعلومات المناسبة ، ولذلك اكتسبت خبرة جعلتنى أحس أن القاهرة القديمة آخذة فى التلاشى . وكان التنافر واضحًا فى استخدام الألوان أو المواد ، فقد تطلب إحدى السيدات شيئًا رأته فى الجزائر باسم معين ، فإذا جيء بالطلب اتضح أنه فى القاهرة يعنى شيئًا آخر ، فقد شاع بين الجميع تفضيل ما لا يمكن العثور عليه فى السوق المحلية ، وقد وجه نفس النقد للأسواق ذاتها ، فهى إما مماثلة تمامًا لغيرها مما يشاهد فى بلاد أخرى ، أو أنها دون المستوى الذى كان يتوقعه الزائر . وكنت دائما أحاول أن أوفق بين الأمزجة والأذواق ، وما هو متاح فعلاً ، وقد لاحظت أن الرجال يقدرون قيمة الأشياء بشكل أدق من النساء ، ونادرًا ما التقيت سيدة لديها معرفة أو اهتمام بالسجاد الشرقى .

ويتجه بعض السياح الذين يخشون المغالاة فى السعر إلى خفض السعر الذى يحدده البائع إلى أدنى حد ، فيصيح البائع : « وما الفائدة التى سأنالها من هذه

الصفقة ؟ » . ومن النوعية نفسها من السياح من قد يدعوك إلى تناول الغشاء في فندق « مينا هاوس » ويثني على جو الصحراء الذي ينعش الإنسان كما تفعل الشمبانيا ، ولكنه يطلب كأساً أخرى من نبيذ المائدة . ويبدي بعضهم امتعاضه من المستوى المتاح بمصر لأنه يقل عما هو متاح في المنتجعات الشتوية في بريطانيا ؛ مما يجعلني أتساءل : لماذا كلف نفسه مشقة الحضور إلى مصر مادام لا يقدر قيمة ما يراه فيها؟ وبينما كنت أرافق مجموعة من سبعة أشخاص في زيارة لسقارة ، وكنت أشرح لهم واحداً من قبور سقارة ، فوجئت بأن العدد أصبح ثلاثة ، وعندما بحثت عن الأربعة الآخرين وجدتهم يلعبون البريدج فوق لوحة عليها نقش يعود إلى الأسرة الخامسة .

وقد أخذنا ما يسمى « أسطول الصيد الشرقي للسيدات » سنويا فيما بين مالطة والهند ، ويعود مرة أخرى من الهند إلى مالطة ، حيث يرمي شباكهم رجال معظمهم من جيش الاحتلال مع بعض أفراد من رجال الخدمة المدنية ، ولم يكن ما يتم صيده مناسباً أو مرضياً دائماً ؛ لأن كل فريق كان يرى الآخر على ضوء الكشافات .

وقد اجتذب شاب عادي يتحدث العربية أنظار سيدة قدمت لتوها من برد أوروبا ترتدي آخر أزياء باريس واعتبرته نصف بطل ، ولكنهما إذا عاشا في إنجلترا فسوف تقل جاذبيته تدريجياً ، ولن تكون أناقتها فريدة بأي حال من الأحوال . وكانت صالات الرقص بالفنادق التي تتم فيها مثل هذه اللقاءات الغرامية لا تختلف كثيراً عن صالونات القرن الثامن عشر في شيوع استخدام الأسماء المستعارة . وتلقى صديقي ريتشارد جريفز منذ البداية التحية باعتباره « جريفز المتميز » لتلقائيته ووسامته ، وأطلق على شقيقتين بدينتين تشبهان البجع اسم « القوية » و « الفظيعة » عندما بدأتا الاشتراك في الرقص ، كما أطلق على اثنتين أخريين امتلأ عجزاهما اسم « طبول المقدمة والمؤخرة » .

وكانت مدام إيثل سمايث التي زارت مصر عام ١٩١٣ لتكمل الأوبرا الأخيرة لها ، على نقيض السياح في كل شيء عدا الحماس ، وكانت معزوفاتها الموسيقية تدخل البهجة على النفوس ، فتجعلنا نعيش مع يوهان برامز ، وكلما جاءت إلى بيتنا ملأته بالحياة .

وخلال الإجازة الصيفية ، قابلت للمرة الأولى الأميرة إدمون دى بلونياك ، وكانت هــذه السيدة ابنة لمغن أعتقد أنه جعل الحياة هنيئة سهلة للعشيقة والزوجة أكثر من غيره ، وكانت هذه الأمـيرة تمتلك كوخًـا فى سارى وبيتـا فى تشلسى « بإنجلتـرا » وفندقًا فى باريس ، وقصراً فى البندقية (فينسيا) . وتستخدم ثروتها فى رعاية الفن بقدر من التعقل والحكمة ، وتحيا حياة شبيهة بتلك التى كانت لأميرات عصر النهضة الأوروبية ، وقد رسـمت لوحـات بيعت فيما بعد (دون علمها) على أنها من أعمال مانيه ، وكانت تعزف على الأورج أعمال باخ ، كما لعبت البيانو فى كونشرت مشترك مع أرثر روبنشتين ، ويمكن القول إنها تعلمت الموسيقى منذ نعومة أظفارها ، وقد طافت حـول العـالم فى يختـها الخـاص ، وكانت كراتها بعيدة المدى عندما تلعب الجولف ، وإذا حضرت حفلاتها الموسيقية فى باريس فلن تحتاج إلى الاستماع إلى المزيد ، تبالغ فى الترحيب بزوارها فى فينسيا ، وكان الأمير إدمون الذى مات قبل تعرفى عليها بوقت طويل شريكًا لفاجنر فى تأسيس « حلقة الاتحاد الفنى » .

وقد أعطتنى مدام دى بلونياك عام ١٩١٣ ديوان شعر أصفر صغيراً يحمل عنوان « الأحياء والأموات » ، وقد قابلت فى العام التالى فى بيتها الشاعرة الموهوبة العبقرية أنّا دى نواى ، وكانت هذه الشاعرة صغيرة الحجم كبيرة النفس ، ذات شعر طويل داكن السواد ، ويدين رقيقتين معبرتين ، وعينين واسعتين تشعان حزنًا ، وأنف يشبه أنف الإله المصرى حورس . وقد حدثتها عن رأيى فى ملامحها ، فاستمعت لذلك باهتمام كبير . وكانت تجتذب أى مجموعة تستمع لحديثها فلا تعطيهم مجالاً للمداخلة فى حديثها الشيق . وكلما مررت بباريس كنت أحج إلى بيتها بشارع شيفيه ، وذات مرة وجدتها ترقد شاحبة للغاية ، وقد تناثر شعرها الأسود فوق الوسادة ، وكانت الحجرة والسرير والموائد وكل قطع الأثاث مغطاة بالكتب ، فقالت : « لماذا جئت لترى أنّا فى مثل هـذه الظـروف بالذات ؟ » (وكـانت هنـاك أزمـة عندئذ بين بريطانيـا وفرنسا) ، ثم استطردت قائلة : « أم جئت لترى آخر فرنسية يمكن أن تؤيد أحد سكان الجزر ؟ » ، وأخذت ترتعش لما بذلت من جهد فى ذلك الحديث دون أن تفقد عزيمتها ، وقضت أسابيع طريحة الفراش .

ولم يكن هناك ما هو أجمل من أن أحصل من أنّا على ما أسميه الغفران الغالى لأبناء الجزر (*) ، فكتبت إلىَّ تقول : « سعدت لسماع أخبارك عزيزى ساكن الجزر ، .. أود أن أعرف لماذا يسمونكم بسكان الجزر مع أن شعبكم ينتشر فى جميع أنحاء العالم ، وفى جميع البحار وتحت الشمس وجميع الكواكب؟ لقد شرحت ذلك فى قصيدة كتبتها إلى كبلنج » .

وكانت تتحدث عن الموت من حين لآخر ، وكانت تحب أن تستمع إلى مقولة سوفكليس « كان من الأفضل ألا نعيش » ، لتلتقى مع نقيضها فى الإنجيل « عندئذ نذهب كما جئنا » . ترى من كان يستطيع أن يفكر فى موت تلك الشفاه التى كانت أكثر حياة من النار ؟ وليس هناك فى نهاية الأمر سبب يبرر موتها .

ليس سهلاً الآن أن نتصور فينسيا قبل الحرب ، وقبل الأزمة ، وقبل المغامرة الإيطالية ، بما كانت عليه المدينة من بهاء اجتماعى ، كنا نرى من قصر بولنياك فى خريف ١٩١١ و١٩١٢ و١٩١٣ ، والقناة الكبرى ولاجون ، والبيازا (الساحة الكبرى) والبيازيتا (الساحة الصغرى) تتألق أمام حزنى لمغادرة أوروبا مثل علامات الأبراج الفلكية ، كانت المسز إيدن تستمتع بحديقتها ، وتقيم الليدى هيلين فنسنت فى جستنيانى بالاس ، أما مدام دى بورتال فكانت تقيم فى ريو مارين . إن روح فينسيا باقية فى الذاكرة بقاء ذكرياتها مدونة على الورق ، ولم أجد رفيق سفر يحسن الكلام عن فينيسيا مثل المستر إسكويت (فى زيارته الأولى عام ١٩١٣) ونزلنا ضيوفًا على أسرته فى قصر كاتيوكمينى الخاص بالليدى كونارد ، وكان رئيس الوزراء يحمل دليل بايدكر السياحى فى يده ، ويسألنا من حين لآخر عن اسم من رسم ذلك القديس فى تلك الكنيسة التى رآها منذ نصف ساعة ونحن نتهادى بالجندول ، وكان من المخجل أنه لم يستطع دائمًا أن يقدم الإجابة الصحيحة ، ولكن الأمر لم يكن كذلك دائمًا ، فعندما عدنا إلى سان چيورچو ماچيورى لم يتذكر خالى هارى كست ما إذا كان الحيوان الذى يمسك به القديس هو ترايفونيوس أو باسيليك ، مردفًا ذلك بقوله :

(*) يقصد تسامح الفرنسيين « أبناء بلاد الغال » مع الإنجليز « سكان الجزر » . (المعرِّب)

عند الترايفونيوس باسيليك

الذى لم يكن يحرك ذيله ليطرد

البراغيث بعيداً عن ترايفونيوس،

ولكنها عادت يملؤها الطمع

لتأكل من اللحم المقـدس

فصاح : لا تحركه مرة أخرى فليس هناك سوانا

الفصل السادس

عملى مع كيتشنر

(١٩١١ - ١٩١٤)

قبيل السابعة والنصف من مساء الخميس ٢٨ من سبتمبر ١٩١١ ، كان رصيف محطة القاهرة مزدحمًا بقناصل الدول وكبار الموظفين وكبار رجال الدين ، وخلال السنوات الخمس والعشرين الماضية رحل الكثير من تلك الشخصيات التى كانت لامعة عندئذ ، وأصبح بعضهم الآخر مديرين أو محافظين أو سفراء أو وزراء ، ولم يبق من كل هؤلاء سوى سعيد ذو الفقار باشا مدير مراسم الخديو عباس حلمى الثانى الذى ظل يخدم فى نفس الموقع أربعة من الحكام ، تولى خلالها استقبال وتوديع الوزير أو المندوب السامى ، ومازال بعد ربع قرن من إعادة ترتيب وضع الأسرة الحاكمة والحزب يمارس نفس الوظيفة بما له من خبرة فيها فى خدمة ابن عم سيده الأول .

وما كاد القطار يتهادى داخلاً الرصيف حتى أخرج الجميع ساعاتهم من جيوبهم ونظروا إليها ، فقد وصل القطار الخاص الذى يحمل اللورد كيتشنر قبل موعده بدقيقة واحدة ، ونزل من عربة القطار ذلك الرجل المشهور فى كل مكان ، وفى كل بيت فى مصر ، منتصب القامة ، عسكرى الخطوات رغم زيه المدنى حيث كان يرتدى معطف (الفروك) الرمادى التقليدى ، والقبعة العالية التى يرتديها دائمًا ممثلو بريطانيا العظمى ، وبدا اللورد منشرحًا ؛ لأن فرصته المتاحة فى الشرق الأدنى وليس فى غيره من المناطق ، كما أنه يعرف معرفة شخصية الكثيرين ممن تجمعوا لاستقباله وتحيته ، ومر على البساط الأحمر الممتد إلى الباب الرسمى الذى لا يفتح إلا للشخصيات ذات المقام السامى ، واستعرض حرس الشرف من جيش الاحتلال البريطانى والجيش المصرى ، محاطًا بالتصفيق الحاد من حشود المصريين التى تجمعت أمام المحطة ، رغم أنه كان من المتوقع أن يكون موقفها معاديًا بسبب الحملة التى قادتها الصحافة المتطرفة ضد تعيين « سفاح الخرطوم » معتمدًا بريطانيًا فى مصر ، وسار موكب اللورد حتى بلغ قصر الدوبارة ، وقد ربط بعض الحضور بين هذه المناسبة ورحيل اللورد كرومر ، أكبر مصلح أجنبى عرفته أمة شرقية ، وكان كرومر قد اتجه إلى المحطة فى نفس العربة التى حملت كيتشنر ، ولكن وسط شوارع سادها صمت مطبق كالثلج .

وقـد سـبقت رئيسى الجـديد فى الوصـول إلى قصـر الدوبارة بسـيارة سريعة متـواضـعـة ، ورتبت أوراقى ، وجلست فى الديوان أنتظر رنـين الجرس لاسـتـدعـائى . ورغم الإثارة والمشاعر المتصلة بموكب القدوم ، كان عندى سبب متواضع للحماس ، فقد كان تعيينى الأصلى فى هذه الوظيفة بتوصية من السير ألدون جورست الذى كان اللورد كيتشنر على علاقة حميمة معه لسنوات حفلت بتبادل المجاملات بينهما ، وكان أول لقاءلى باللورد كيتشنر عام ١٩١٠ ، عندمـا تناول الغداء بدار المعتمد البريطانى بعـدما اسـتقـال من منصب القائد العـام فى الهند ، وكان فى طريقـه إلى لندن . وقد ظننته - عندئذ - متعاليًا وعدوانيا ، فالجو العام عندئذ كان سيئًا على أية حال ، وكانت المناسبة الثانية التى التقيته فيها فى حفل عشاء كبير أقيم فى شارع أرلنجتون ، عندما التقى اللورد كيرزون لأول مرة منذ افتراقهما بالهند . وعندما سأل خالى هارى كست اللورد كيرزون بعد بضعة أيام عن علاقتهما الحالية قال : « إننا نلتقى دون شعور بالخجل من ناحيتى ، وعلى كل فأنا لا أنشد صحبته » . وكان استقباله على محطة القاهرة هو المرة الثالثة التى قابلته فيها .

لقد جاء فرعون لا يعرف يوسف ، ولا يحب أصله الرسمى ، وقد أفهمت - بصورة مؤكدة - أننى موضع قبوله ، وأننى يمكن أن أعود فى أى وقت ، مما جعلنى أشك فى صعود نجمى . وأخيرًا جاء رنين الجرس ، وخطوت داخل تلك الحجرة المعتمة التى تشبه حجرة ناظر المدرسة ، والتى اتخذ بها العديد من القرارات المهمة ، وتحدد فيها المستقبل الوظيفى لبعض المصريين ، وانتهى بالنسبة لبعضهم الآخر . وحملت معى صينية عليها كومة كبيرة من برقيات التهنئة ، كتبت بالإنجليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، والإيطالية ، واليونانية ، والتركية ، وفوق كل ذلك : العربية ، وتحمل توقيعات أمراء وباشاوات وكبار رجال دين ، ورجال بنوك ، وشيوخ ، ومديرين وضباط كبار من الذين ينشدون الاستفادة من المناسبة تزلفًا أو شهرة .

وكان الفيلد مارشال (كيتشنر) يسدد النظر إلى المكتب سائلاً عما تحتويه تلك الأوراق ، فأجبته ، وسألته عما أفعله بها ، فقد جرت العادة أن البرقيات الواردة من أفراد الأسرة الحاكمة والوزراء والوزراء السابقين يتولى الرد عليها السكرتير الأول أو الثالث حسب مكانة الشخص عند دار المعتمد ، ويتولى السكرتير الشرقى توجيه

الشكر للشخصيات المحترمة المعروفة ، ولا يتم الرد على الآخرين . فأصابتنى الدهشة والفزع عندما أصدر إلىّ أمراً بأن يحظى الجميع بمستوى واحد من التشريف والتقدير . إن الفيلدمارشالات أناس اعتادوا أن تنفذ أوامرهم دون نقاش ، ولعل اللورد كيتشنر كان أكثرهم تشدداً فى هذا الصدد ، وفى تلك الظروف أدركت أن أى تعليق من قبيل الدردشة ، وخاصة دردشة المدنيين ، سوف يبدو وكأنه اعتراض على رأى اللورد . وكنت أتطلع منذ شغلت منصب السكرتير الشرقى إلى أن أحصل على راتب الوظيفة ، فخرجت متثاقلاً من المكتب لتنفيذ التعليمات ، قائلاً إن باستطاعتنا أن نقلل ما قد يترتب عليها من آثار ، وما كدت أصل إلى عتبة باب المكتب حتى سألنى «أى آثار تقصد ؟ » ، قلت (يائسًا) إن الفئة الأولى سوف تشعر بالإهانة عندما تتلقى ردوداً مماثلة لما وصل إلى الفئة الثانية ، وسوف تطالب الفئة الثانية بأن تعامل دائمًا على قدم المساواة مع الفئة الأولى ، وأن الفئة الثالثة قد تستخدم اسم اللورد لابتزاز الفلاحين الجهلة الأميين فى الريف . ومرت لحظة صمت مخيفة كنت خلالها أفكر فيما إذا كان باستطاعتى أن أعود إلى لندن بالدرجة الأولى إذا طردت على الفور من العمل ، وأفقت على صوته الآمر : « باستطاعتك أن تفعل ما تراه مناسباً » . وخرجت بسرعة لأرسل الردود قبل أن يغير اللورد رأيه ، وقد أعقب هذا اللقاء الأول قضاء ثلاث سنوات سعيدة ممتعة من المسئولية التى خصنى بها اللورد مما يستحق الثناء . يحرص الكثير - وليس جميع - الرؤساء على مكافأة مرءوسيهم الناجحين فى عملهم ، ولكن لا يتوفر علو النفس عند الكثير منهم لتذكر الإنجازات الإيجابية لمرءوسيهم عندما يقعون فى الخطأ . وفوق ذلك كله كانت الثقة التى يمنحها اللورد لمن يعمل معه ثقة مطلقة لا حدود لها .

وخلال الأسبوع الأول من وصول كيتشنر إلى القاهرة ، علمت من مصدر موثوق أن عدداً من الموظفين الإنجليز سوف يقدمون استقالاتهم ، كان بعضهم ممن يكرهون كيتشنر وبعضهم الآخر أجبروا على تقديم استقالاتهم ، وعندما حذرت اللورد من ذلك (دون ذكر أحد) فتح درجًا من مكتبه ، وقال لى « إن من الأفضل أن تذهب إلى النادى وتعلن للجميع أننى أعددت نموذجًا موقعًا لقبول الاستقالة لا ينقصه سوى كتابة اسم صاحبها لتصبح سارية المفعول » . وقمت على الفور بنشر تلك المعلومة ،

فلم يتقدم أحــد باستقالته ، ودفعنى الفضول لكى أرى نص نموذج قبول الاستقالة فى اليوم التالى ، وعندما فتحت الدرج لم أجد سوى علبة سيجار كبيرة الحجم .

وأتاحت لى فرصة السنوات الثلاث التى قضيتها فى اتصال يومى مباشر مع كيتشنر أن أقارن بين السمعة والواقع ، لأجد أن الحقيقة أغنى وأكثر تنوعًا من الصورة التى رسمتها لكيتشنر صحافة التسعينيات (من القرن التاسع عشر) باعتباره الرجل القوى الصامت ، أحد بناة الإمبراطورية ، يكره النساء ولا يهتم بشىء سوى عمله ، ولا يفتح فمه إلا عندما يصدر أمرًا ينفذ فورًا ، وتعود حساسيته نحو النساء إلى البيئة ، وإلى تأثير النساء على أذهان معارضيه .

ولم يكن يتــردد فى اتخــاذ قــرار يختـــلف تمامًا عن قرار سابق إذا أدرك أنه غير مناسب وبدا ذلك واضحًا بعد وصوله إلى القاهرة بقليل ، فعند تحديد الموعد المعتاد الذى يستقبل فيه الخديو زواره ، طــلب اللورد كيتشنر مقــابلة خاصة مع الخديو بقصر القبة ، وأعطى تعليماته – فى اليـــوم التالى – بأن يحضر اثنان من رجال دار المعتمــد البريطــانى – حددهما – استقبال الخديو ، وكان اختياره قد وقع على روبرت كريجر [١] ، وشخصى للقيام بهذه المهمة ، ورغم تقديرنا لهذا الشرف الذى أضفاه علينا اللورد ، أبدينا تشككنا فى أن نكون بديلاً مناسبًا لسعادته فى مناسبة يحضرها ممثلو الدول الأوروبية فى مصر الذين سوف ينظرون إلى هذا التصرف بعين الشك . وللأسف حدث ما تحسبنا وقوعـــه ، فقـــد افترض ممثـــلو الدول فى مصـــر أن « ادعاء وضع خاص » للمعتمد البريطانى هو بمثابة انقلاب يدشن تغييرًا فى وضع بريطانيا فى مصر . وكانت الطريقة التى استقبلنا بها من الدبلوماسيين الآخرين بالقصر تنم عن أننا مسئولون عما حدث ، فنفر منا الجميع ، حتى أولئك الذين كانت تجمعنا بهم صداقة شخصية ، وكانوا يسهرون معنا فى الليلة السابقة على الاستقبال أهملونا ، وتبادلوا الحديث مع بعضهم البعض دون اعتبار لوجودنا ، مع إبداء اهتمـام (له دلالته السياسية) بالصور الرسمية الكبيرة المعلقة فى القاعة لحكام أسرة محمد على ، وأرسل القناصل برقيات مطولة مشفرة عن طريق شـركة التلغرافات الشـرقية

(١) السـير روبرت كريجر فيما بعد ، ومندوب بريطانيا فى صندوق الدين بالقاهرة فيما بعد .

(المؤسسة الإمبراطورية التى تنتفع من كل أزمة) إلى وزارات الخارجية فى بلادهم وإلى الصحف الكبرى فى أوروبا ، وفى الاستقبال الدورى التالى حضر اللورد كيتشنر بنفسه دون أى تأثير على مكانته ، وكان ترتيبه الرسمى موضع اعتبار لكونه أحدث القناصل فى مصر ، مما بعث الارتياح عند الدول التى أثارها التصرف السابق .

كان اللورد كيتشنر سريع التغاضى عن المسائل غير المستساغة ، كما لاحظنا عند حضور أكثر كبار موظفى الحكومة المصرية حملا للألقاب الفريق الجنرال البارون السير رودولف فون سلاتين باشا حفل غداء بقصر الدوبارة ، وقد جاء ليتحدث فى أمر المعاش الذى يحصل عليه ، وكان من الواضح أنه يرمى إلى شىء محدد عندما قال : « حسنًا لورد كيتشنر ، أخشى أن أكون قد فشلت فى تحقيق نجاح مالى فى حياتى » ، فرد عليه اللورد قائلاً : « إن كل من يعرفك – عزيزى سلاتين – لم يدر بخلده أبدًا أنك تستطيع تحقيق ذلك ». وهو رد يتسم بالتغاضى عن المغزى الذى رمى إليه سلاتين ، وينم عن استقبال فاتر ، فاستطرد سلاتين قائلاً : « هاأنذا ، بعد أن قضيت اثنى عشر عاما أسيرًا عند المهدى ، عاريًا ، مقيدًا بالسلاسل ، بعدما أسرت فى أثناء الخدمة ، دون أن يدخل جيبى قرش واحد من مرتبى طوال تلك المدة » ، فرد كيتشنر قائلاً : «حسنًا سلاتين ، إنك لا تستطيع القول إن النفقات التى لم تخرج من جيبك خلال تلك الفترة كانت باهظة » ، ثم شغل الحضور بعد ذلك فى نقاش حول الطيران ومحصول القطن ، ولكن من يرى أن اللورد عديم الإحساس ، عليه أن يراه عندما وقف إلى جانب قبر صديقه الكابتن ماك مورдو الذى أنقذ حياته بالقرب من سواكن عام ١٨٨٨ .

فى غضون مايو ١٩١٣ ، جاءنى محرر روسى سابق لإحدى الصحف اللبرالية بسان بطرسبورج ، وأخبرنى أنه تلقى استدعاء للمثول أمام قنصل بلاده ، وأنه يشك فى أنه سوف يقبض عليه إذا استجاب للاستدعاء . فقد هاجم جواسيس القنصلية شقته ، ووضعوا وثائق تدينه وقنابل بين أغراضه الشخصية لتجريمه . وكنا بالطبع لا نستطيع التدخل فى عمل تقوم به القنصلية الروسية فى مصر، ولكنى أخبرت كيتشنر الذى قال لى بحزم إن كل ما أحتاجه هو أن تقول لهذا الروسى إننى طلبت منك إبلاغى على الفور بمغادرته للقنصلية ، وكان يقصد بذلك أنه لديه ما يشغله ، فلا يجب إزعاجه بمثل تلك الأمور ، وأن علىَّ أن أتصرف بما أراه مناسبًا ، وقد نصحت الرجل

بألا يستجيب لدعوة القنصل إذا كان بريئًا ، عندئذ ستضطر القنصلية الروسية إلى تقديم دليل إدانته للسلطات المصرية فتكون هناك فرصة لفحصها بمعرفة السلطة القضائية ، فإذا كان يخشى الإدانة فعليه أن يلجأ لمحام يساعده على عدم الوقوع فى أيديهم بقدر الإمكان .

وكان كيتشنر حازمًا فى عباراته ، وإلى جانب ذلك كان لطيفًا مجاملاً ، وحدث ذات مرة عندما أراد الخديو اتخاذ قرار واجب النفاذ باعتباره الحاكم الذى ينفذ إرادة سيده السلطان ، قال كيتشنر : « إن وضعى الشخصى هنا شاذ بالقدر الكافى ، ولا نستطيع حقيقة أن نحتمل وجود اثنين من الشواذ فى هذا البلد » . وحدث فى أثناء حفل راقص أقامه كيتشنر على شرف ولى عهد ألمانيا وزوجته ، أن تودد الكونت هيرمان هتزفلت قنصل ألمانيا العام ، إلى الآنسة فون ستام وصيفة الأميرة وخطبها ، فتلقى فى اليوم التالى رسالة تهنئة من اللورد كيتشنر ومعها الوسادة التى كان جالسًا عليها عندما عرض الزواج على الوصيفة .

وعندما جاء كامل باشا القبرصلى العجوز الذى كان صدرًا أعظم أربع مرات فى الدولة العثمانية ، وعرف بدفاعه عن الصداقة التقليدية التركية - الإنجليزية ، عندما جاء إلى مصر مطرودًا من إستانبول بقرار من تركيا الفتاة ، لم تعره الحكومة المصرية اهتمامًا ، ولكن اللورد كيتشنر قام على الفور بزيارته فى فندق سميراميس . وقد ذكره كامل باشا - بلغة إنجليزية فصيحة - بأنهما التقيا من قبل عندما كان كيتشنر قنصلاً لبريطانيا فى الأناضول ، وكان كامل باشا واليًا للإقليم ، فرد كيتشنر الفيلد مارشال والقائد العام للقوات البريطانية فى الهند سابقًا بقوله : « نعم ، ولكن سعادتكم حصلتم على ترقيات كبيرة سريعة ، لقد كنت قنصلاً عندئذ ، وقضيت ثلاثين عامًا حتى أصبح قنصلاً عامًا » . كان كامل باشا يقترب من التسعين من عمره ، وكثيرًا ما كان يقارن بمحمد على باشا الكبير مؤسس الأسرة الحاكمة فى مصر الذى ولد فى نفس السنة التى ولد فيها نابليون (عام ١٧٦٩) . وكان من الممتع رؤية وجهى كيتشنر وكامل ، وسماع حديثهما ، فهما يمثلان من بقى على قيد الحياة من نادى العظماء فى الشرق الأدنى الصديق ، حيث تلك التقاليد الحميمة والمشاعر والسياسات التى لا يفهمها إلا أولئك الذين قضوا العديد من السنوات فى العمل من أجلها ، وخلال تلك

الزيارة مر الملك جـورج الخـامس والملكة مارى عبر قناة السويس فى طريقهما إلى دلهى دربار بالهند ، فوجهت الدعوة لكامل باشا للقاء الملك جورج الخامس على ظهر اليخت « المدينة » حيث التقطت له صورة مع الملك ، بينما كان الخديو وأخوه الأمير محمد على واللورد كيتشنر والسردار يقفون فى الصف الخلفى ، كان الملك يقف إلى جانب كامل باشا الصدر الأعظم ، وأصر الملك على أن يجلس كامل باشا فى المقعد المجاور لمقعد الملكة ، فالتقدم فى السن مازال موضع الاحترام فى الشرق ، وتلك اللفتة الملكية كانت مثار الإعجاب فى مصر والسودان .

وعندما زار كامل باشا مصر بعد ذلك ، قابلته مرة أخرى ، وسعدت لملاحظته الفرق فى الطريقة التى استقبل بها هذا العام ، فعندما كان من المتوقع أن يصبح صدرا أعظم فى أى وقت ، كانت الاستراحة الملكية تفتح له ، ويمد له البساط الأحمر ، وكان المحافـظ والأمـــير حيدر ، والمنـــدوب السامى العثمـــانى يقفون فى انتظاره على الرصيف .

كان كيتشنر خاليًا من العيوب المشينة ، ولم يكن حقودًا ، ولا مغرورًا ، ولكنه يمكن أن يكون فظًا ، فقد أعطانى - ذات صباح - خطابًا تلقاه من مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء السابق يلتمس فيه تعيين صهره سعد زغلول باشا فى منصب رئيس البعثة التعليمية فى فرنسا الذى أصبح خاليًا ، ورغم حماس وأمانة زغلول ، فقد كان إداريا صعبًا ، وعندما كان وزيرًا للمعارف ، كثيرًا ما كان يستقبل الطلاب المطرودين متخطيا فى ذلك نظار مدارسهم بل ووكيل الوزارة . كما كانت علاقته بزملائه سيئة ، وقد ساءت علاقته - أيضًا - بالخديو ، وهو الآن متقاعد يعانى من القلق والضيق ، وطلب منى اللورد كيتشنر أن أبدى رأيى فى هذا الطلب ، فلم أستطع إنكار تلك العيوب التى شابت أداء سعد زغلول ، ولكنى قلت إن حماس الباشا للشباب يجب ألا يحرمه من رعاية المبعوثين المصريين فى فرنسا . ولكن اللورد كيتشنر قال : « إنه مثير للمتاعب أكثر مما يجب ، ويجب أن نبحث عن الأفضل » ، وربما كان مصيبًا ، ولكن تاريخ مصر الحديث ربما تغير كثيرًا إذا كان سعد زغلول قد قضى سنواته الأخيرة فى باريس وليس فى القاهرة .

وحرصًا من السير ألدون جورست على الالتزام بالتعليمات الصادرة إليه من حكومته قلل من تدخله فى الشئون المصرية ، واقتصر على التدخل فى الأمور المؤثرة على المصالح البريطانية . وكان ذلك يعنى إغماض العين عن الأشياء غير الضرورية ، وعدم الاستماع إلى الشكاوى الموجهة ضد القصر والباشاوات طالما كانت صادرة عن غير اليتامى والأرامل والمظلومين ، وكان هذا العزوف عن التدخل لا يشمل بعض الشخصيات ذات المكانة العالية من الأمراء والأميرات الذين يشكون من تدخل كبير العائلة فى ملكياتهم ، والوطنيين المعادين للإنجليز الذين يهربون من الظلم إلى النكران ، وكان صاحب الشكوى الذى لا يلقى استجابة يتجه بشكواه إلى جهات وأماكن أخرى ، ليست - بالضرورة - أكثر استجابة من دار المعتمد البريطانى ، ولكنها قد تكون أكثر اهتمامًا على حساب الولاء السياسى ، ولا يعود ذلك إلى قصور فى حياد جورست المفروض عليه ، أو إيجابية السياسة المناقضة التى اتبعها كيتشنر ، حتى نستطيع القول إن التغيير كان موضع الترحيب الفورى واسع النطاق .

فقد شعر الناس من مختلف الطبقات أن بإمكانهم اللجوء إلى سلطة أعلى ، وتركوا دار المعتمد البريطانى سعداء برفض اللورد لطلباتهم أكثر من توصلهم إلى تسوية الأمور بنسبة ٨٠ ٪ مع موظف صغير ، وكثر عدد المترددين من العمد والأعيان والبكوات والوزراء والموظفين السابقين المصريين الذين خدموا تحت رئاسة كيتشنر بالسودان ، أضف إلى ذلك كبار الموظفين الإنجليز ورجال السلك الدبلوماسى وضباط جيش الاحتلال . وبذلك أصبحت دار المعتمد البريطانى على حد تعبير إحدى الصحف المحلية « مثل مكة بالنسبة للنهضة المصرية فى المجالات الاجتماعية والسياسية والتجارية والصناعية والزراعية » .

وبين عشية وضحاها ، تضاعف عمل السكرتير الشرقى ثلاث مرات عما كان عليه من قبل . وكان الوقت الذى خصصه اللورد للمقابلات لا يتسع لكل من يطلبون المقابلة . ورغم أن كيتشنر لم يضع حاجزًا اجتماعيا بينه وبين الناس ، فإنه كان يحب تصفية الموضوعات التى لا يستدعى الأمر اطلاعه المبكر عليها أو إحاطته علما بها .

وكانت بساطة اللورد لا تتماشى مع مثل هذه الشخصية الطاغية ، فكان الكثيرون ممن جاءوا غاضبين يعودون من لقائه مبهورين ، ولكن قد يكون الأمر مختلفًا على نحو ما حدث للشيخ البدوى للوم بك السعدى . فقد عاد كيتشنر من إجازته إلى مصر قبيل قيام إيطاليا بإعلان الحرب على تركيا وغزوها طرابلس على حدود مصر الغربية . وقد أثار هذا الغزو الإيطالى لبلد إسلامى المشاعر فى مصر رغم التزام الحكومة الحياد فى تلك الحرب . غير أن الشعب المصرى أبدى حماسه الشديد بالتبرع للهلال الأحمر (الذى تبرع له كيتشنر بمبلغ مائة جنيه تم تلقيها بالترحاب) وكذلك التبرع لمساعدة تركيا فى تلك الحرب ، لم يكن هناك سبيل لتحييد القلوب ، فقد بذلت الحكومة المصرية والسلطات البريطانية وسعهما لمنع تهريب السلاح والذخيرة إلى طرابلس عبر مصر ، ولكن الحدود الغربية طويلة غير محددة جيدًا ، ومن الصعب التحكم فيها ، وقد أبلغت كيتشنر أن للوم السعدى نظم اجتماعًا سريا – قبل مقابلته بليلة واحدة – مع غيره من شيوخ البدو لترتيب نقل كمية كبيرة من البنادق والذخيرة على ظهور الإبل من مكان بالقرب من المنيا عبر الحدود إلى طرابلس ، ودخل الشيخ حجرة اللورد وجلس على المقعد ، وانطلق فى الحديث مهنئًا المارشال على سلامة الوصول ، مؤكدًا أن السرور قد عم جميع المصريين وكذلك البدو . وتركه كيتشنر يتحدث على سجيته ، ثم فاجأه بالسؤال عما كان يفعله ليلة الأمس ، فاكفهر وجه الشيخ وارتعدت فرائصه ، ثم قال « لا شىء مهمًا ، لقد كنت مع عائلتى » فقال كيتشنر : « إذا كان البدو يتلهفون على الاشتراك فى الحرب ، باستطاعتى أن ألغى على الفور إعفاءهم من التجنيد » . وكان التهديد بإلغاء هذا الامتياز الذى حصل عليه البدو منذ عهد محمد على باشا ، إضافة إلى ما يحظى به التجنيد من كراهية ، كافيًا ليجعل للوم وقبيلته وغيرها من قبائل البدو يفتر حماسها منذ ذلك الحين ، وتلزم الحيطة والحذر .

وعلى نقيض كرومر ، لم يكن كيتشنر عالمًا أو كاتبًا ، كما لم يكن ميالاً للقراءة . ورغم بعده عن كل تلك الفنون التى لا تروق له ، كانت مراسلاته (للخارجية البريطانية) رهينة الظروف ، لا يجد حرجًا فى أن يضع نهايات تتسع الفجوة بينها وبين البدايات . وكان قبل القيام برحلة من الرحلات ، يرسل الكولونيل فيتزجرالد إلى إحدى المكتبات القريبة من فندق شبرد ليشترى له نصف دستة من الروايات . وكان

يفضل لعب الشطرنج فى رحلاته البحرية أو بالقطار ، والتى يمكن أن نقول عنها إن قلبه كان أفضل من عقله ، فلم يكن له قدرة جورست على تنوق الموسيقى والشغف بالعلم ، ولا عشق أللنبى للرياضة والشعر ، ولكن حبه للفنون الجميلة وخاصة الزخارف والتحف القديمة كان يفوق من جاءوا قبله أو بعده من المعتمدين ، ولا أنسى الملاحظات التى أبداها عندما أبلغه السير جاستون ماسبيرو – مدير الآثار الشهير – أن معابد النوبة الكبرى بدت بعد ترميمها « مثل رأس المطرقة الجديد » ، أو ما اعتراه من ضيق عندما علم أن مجموعة النقوش واللوحات التى تم اكتشافها فى حفريات هرم منقرع ، قد سُمح بخروجها لتودع فى متحف بوسطن بالولايات المتحدة .

وقد غير كيتشنر زى القواسين الذين يحرسون باب دار المعتمد البريطانى ليصبح مذهبًا وجميلاً ، وأصبحت جوانب حجرة الاستقبال متحفًا للخزف الصينى والأيقونات البيزنطية ، بينما كانت قاعة الرقص ، وهى قاعة الاحتفالات الرسمية كئيبة ، فأقيمت قاعة جديدة بدلاً منها ، وكان يختار الوقت غير المناسب لإجراء التعديلات فى ترتيب الأثاث ، فكان يتولى نقل إحدى القطع من موقعها ذات يوم ليضع بعض اللوحات مكانها عندما جاءه محمد سعيد باشا رئيس الوزراء ليبحث الأزمة الوزارية معه ، وكان يتردد على الأسواق ومحلات التحف مرتين أسبوعيا حيث كان الباعة يعرفونه منذ ربع قرن من الزمان ، وكان يبدو – عندئذ – فى غاية السعادة والانشراح ، وكان يقول إن السنوات سقطت عن كاهله فى تعبير عن حنينه إلى الطفولة ، وعندما يعود إلى الدار ، كان يهرع إلى مكتبه ، ويدق الجرس يستدعى بعض مساعديه ليعرف رأيهم فيما اشترى من تحف .

وكان أكثر الأسابيع ازدحامًا بالعمل فى قصر الدوبارة هو أسبوع وصول حقيبة بريد وزارة الخارجية ، وعندما نقدم لكيتشنر خطاباته فقد يلقى بها على مكتبه المزدحم دائمًا بالأوراق ثم يغوص بأصابعه فى الكومة ، ويبحث ذات اليمين وذات الشمال عن رسائل وزير الخارجية ووزارة الحرب ، والإدارات الأخرى ، ثم يلتقط مظروفًا طويلاً يتضمن تقريرًا من وكيله عن مدى تقدم أعمال الترميم لملكيته فى بروم بارك ، حيث قام بتخفيض السقوف ، ورفع مستوى الأرضية ، وتم تركيب مواسير الصرف ، وبعد أن يفرغ من قراءة التقرير ، قد ينتقل بعد ذلك إلى قراءة البريد

الرسمى ، مثل أعمال مؤتمر البحرية بمالطة ، أو الامتيازات الأجنبية ، أو حادثة سكك حديد مريوط .

وكان اللورد كيتشنر معتدلاً لا يتمسك بالنص الحرفى . ولا يتذكر الأسماء والألقاب ، وكان من الممتع مجاراة اتجاهه الفكرى ، وتلقى التعليمات منه دون إرهاقه بالأسئلة التى لا لزوم لها ، فإذا سأل مثلاً عن بروس فهو يقصد برش السكرتير الثالث ، أو عندما يتحدث عن اعتزامه الكتابة إلى منتو من أجل توريد بعض الخزف الصينى ، فإنه لا حرج من الاتصال بساوث أودلى ستريت ، والرغبة فى رؤية أزمير بعد ظهر اليوم لا تعنى حجز تذاكر الرحلة من توماس كوك ، ولكنها تعنى مقابلة الكونت سميرنوف والكونت لويس ستشينى قنصلى روسيا والنمسا (على التوالى) . ولكن عليك أن تكون سريعًا وعلى دراية بسجل الزوار ، فعندما يقال لك إن الوقت قد حان لدعوة ولسنجهام إلى الغداء ، فإن عليك أن تتصل بماسنجهام رئيس تحرير الناسيون فى الوقت الذى تجده فيه معسكرًا عند الهرم مع چون جولثورثى .

وكانت معرفته للعربية إجمالية وليست متخصصة ، كما كانت معرفته بالمصطلحات العسكرية منها أكثر من المدنية أمرًا طبيعيا ، ولم يكن يحتاج إلى من يساعده فى فهم العربية إلا إذا كان فى حضرته القاضى أو المفتى أو شيخ الأزهر . وكانت فرنسيته سليمة وجيدة ، وكان باستطاعته أن يتتبع ويستوعب أى حديث بها ، وقد أحب فرنسا والحياة الفرنسية ، وقد قام ذات مرة بخطوة غير عادية عندما كتب إلى المسيو كامبو السفير الفرنسى فى لندن نيابة عن القنصل الفرنسى بالقاهرة لخشيته أن يكون الآخر قد تأثر بالصحافة المحلية ، وبالتدخلات المحلية ضد السياسة البريطانية ، وقد أحب الدبلوماسيين الفرنسيين - عامة - وأحبوه بدورهم ، وبعد حديث يطول لمدة ساعة كاملة يعرض فيها كيتشنر وجهة نظره على أحد القناصل الفرنسيين ، صاح الأخير قائلاً : « الآن - سيدى المارشال - دعنى أقول لك الحقيقة » .

وكان تعبيره بالإنجليزية واضحًا وقويا ، وكذلك خطه ، طالما كان يكتب ما يجول بخاطره ، ولكنه كان يعانى ضعفًا فى التقديم واستخدام بعض المصطلحات الضرورية فى كتابته (وقد لعب روبرت كريج دوره بإخلاص لتقويم تلك الأخطاء بحكم كونه رئيس

الديوان) . وعلى نقيض سابقيه لم يتعلم أبدًا إملاء الرسائل ، وإن كان المرء يجد نفسه أحيانًا جالسًا بمكتبه يمسك ورقة وقلمًا من الرصاص ، يسجل بعض الجمل والعبارات بينما اللورد يتمشى فى الحجرة جيئة وذهابًا يدخن السيجار ويلقى ببعض العبارات .

وعند معالجته للمشاكل والأزمات الكبرى (وعندما لم تكن هناك واحدة منها بمصر ، كان معنى ذلك وجود الاثنين معا) ، كانت للورد كيتشنر عادتان ، فيعهد بها أولاً إلى أحد مرءوسيه ، ويسأل الرأى فيما يجب اتباعه حيال المشكلة أو الأزمة ، وبعد أن يستمع إلى الآراء ، قد يقترح فى اليوم التالى حلا مشابهًا تمامًا لما جاء برأى مساعده ، مما يدعو إلى الدهشة . أما العادة الأخرى ، فتتمثل فى تقدمه بعدد من الحلول العنيفة والمتعصبة بهدف معرفة الكيفية التى تواجه بها تلك الحلول .

وبينما كان يتحدث بسهولة أكثر مع الرجال ، كان باستطاعته أن يسترخى ساكنًا فى صحبة مجموعة من النساء الذين يعرفهن منذ سنوات طوال . وقد لوحظ ذلك عند زيارة بعض الأصدقاء القدامى لقصر الدوبارة مثل الليدى لابارد (وفيما بعد) الليدى سولسبورى والليدى ديسبورو وعائلاتهن . ويشعر بالسعادة عندما يصطحب بعض الزوار فى جولاتهم السياحية ، وكانت سعادته لا حدود لها عندما يتناول الغداء أو الشاى ضيفًا على الأميرة نازلى فاضل ، فقد عرفت الأميرة كيتشنر منذ كان شابًا برتبة كابتن ، وظلت حريصة على أن يظل حبل الود موصولاً بينهما . وكانت الأميرة تجلس وإلى جانبها نصف زجاجة من الشمبانيا وإلى جوارها منضدة صغيرة مطعمة بالصدف ، تدخن بصورة مستمرة السجائر الروسية ، ثم تطفئها فى منفضة ، حتى إذا امتلأت سارعت فطومة أو عزيزة بتغييرها بمساعدة فريق من الخدم يقف بالباب انتظارًا للأوامر ، ومن الغريب أن كيتشنر كان يستمع إلى حديثها الذى كان مزيجًا من الإنجليزية والفرنسية والتركية والعربية ، عندما تقول : « هل تعتقد أن المصريين يخافون اللورد كيتشنر وهو قابع فى قصر الدوبارة ؟ .. إنهم يضحكون .. ولماذا لا يضحكون وهم يرونك تسمح بعمل رجل قذر عفن مثل .. وزيرًا ؟ » فيرد كيتشنر قائلاً : « لا أظن ذلك يا أميرة نازلى .. » فتستطرد قائلة : « إنك لا تعرف ، فإذا كنت قد عينت ... » وتأتى على ذكر الضحية الأخرى للخلاف ، كل ذلك وكيتشنر يجلس فى حالة استرخاء تام ، لا يأخذ الحديث مأخذ الجد .

وكان اللورد كيتشنر يرفض مقابلة السيدات صاحبات الشكاوى من مختلف الأعراق والأوضاع الاجتماعية والأعمار حتى لو كان مع الشاكية مرافق ، حتى لا تثار حوله الشائعات ، وكان الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة ليس فيه مدعاة للسرور . فقد أرسلنى ذات صباح برسالة إلى رئيس الوزراء ، وعند عودتى أدهشنى أن أسمع من القواس أن اللورد قابل إحدى الأميرات . وقد خرج كيتشنر عن القاعدة واضعًا فى اعتباره أن السيدة قريبة للأميرة نازلى فاضل ، ولكنه اكتشف بعد ذلك أنها أوروبية معروفة فى الأوساط القاهرية باسم الأميرة على فاسيل .

كانت مظاريف الخطابات العديدة التى حملت الالتماسات التى كان علىَّ قراءتها وتحليلها ، تحمل عناوين بالإنجليزية « إلى كيتشنر باشا » أو « صاحب الجلالة المستر كيتشنر » وكانت محتويات تلك الالتماسات - حتى ما جاء منها من إنجلترا - ركيكة ، وتتضمن أشياء متنوعة منها طلب وظائف أو طلب مقابلة . ولم يكن هناك من يساعد السكرتير الشرقى فى عمله كالكتبة أو غيرهم ، بل كان يقوم بهذا العمل منفردًا ، وكان يدخل فى اختصاصه إجراء المقابلات مع طلاب الحاجات للتعرف على تفاصيل شكاواهم ، والتصرف فى بعضها ، والتقرير عن الجميع للمعتمد البريطانى .

ورغم أن اللورد كيتشنر كان يفضل ألا يزعجه أحد معظم ساعات النهار (شأنه فى ذلك شأن غيره من الموظفين الكبار) فقد كان لا يقبل تناول وجبات الطعام وحده أو يقضى الأمسيات وحيدًا . وبصرف النظر عن الدعوات الرسمية ، كانت هناك دائمًا ترتيبات لتناول العشاء معه فى غيبة فيتزجيرالد السكرتير العسكرى أو ستيوارت السكرتير الخاص ، وقد كشفت فرص عشائنا معًا الجوانب الطيبة فى كيتشنر ، فقد كان يذكر بعض الطرائف حتى يرفع الكلفة بيننا ، فكان يتحدث عن الحوادث الطريفة التى يذكرها من أيام الدراسة أو بداية حياته الوظيفية ، كما يتحدث عن تحديده لبعض الأماكن الواردة بالإنجيل عندما كان يعمل بفلسطين مع « جمعية الاكتشافات الفلسطينية » إلى غير ذلك من موضوعات .

وكــان من الواضـــح دائمًـــا أن البطلين اللذين أثرا فى حـــيـــاته همــا اللورد سولسبورى ، الذى كان أول من أخذ بيده ، والجنرال جوردون ، وكان من عادة الأخير أن يكتب بنفسه البرقيات التى يرسلها إلى المديرين الفاسدين حاملة تعليماته إليهم ، ويبدأ البرقية بقوله : « أنا جوردون باشا أرى عبر الأسلاك وأراقب أعمالك فلا تتقاض رشوة ، واجعل هذا الرجل يمضى إلى حال سبيله » ، وكانت قوة شخصيته تجعل الموظف الذى يتلقى البرقية خائفًا ، يسقط القلم من يده ، وترتعد فرائصه ، ويصيح « سمعًا وطاعة يا سيدى » وهناك الحادثة التى تسببتها برقية جوردون من الخرطوم إلى الحكومة المصرية بالقاهرة مقترحًا ترقية أحد البكوات إلى رتبة الباشا ، ولكن سمعة هذا الرجل كانت سيئة ، وكانت وزارة الحربية المصرية تعلم ذلك ، ومن ثم رفض طلب جوردون ، فأرسل الأخير برقية هدد فيها بالاستقالة إذا لم تتم ترقية الرجل .. فردت الحربية المصرية مرة أخرى تعد بالنظر فى الترقية من باب التسويف حرصًا على جوردون ، غير أنها تلقت من جوردون برقية ثالثة يطلب فيها صرف النظر عن طلبه الوارد بالبرقيات السابقة ؛ لأنه قام بإعدام الرجل الذى كان قد ألح فى طلب ترقيته إلى رتبة الباشا .

وقال لى كيتشنر إنه تحدث إلى الملك إدوارد السابع لمدة ساعة يوم الخميس قبل وفاته . وكان الملك يبدو فى أحسن صورة وأنعم على كيتشنر برتبة الفيلد مارشال وميداليتها التى نسيها على المنضدة قبل مغادرته القصر ، فأمضى عشر دقائق عصيبة يحاول الاتصال تليفونيا بستامفوردام الذى استطاع أن يعثر على الميدالية قبل أن يكتشف الملك نسيانه لها فيغضب لذلك .

وحدثنى كيتشنر أيضًا أنه فى عام ١٩١٢ عندما مات الميكادو (الإمبراطور مايجى إمبراطور اليابان) ، قام الأميرال نوجى بالانتحار على طريقة الهراكيرى ، وأعلن النبأ فى أثناء حفل عشاء فى البالمورال . فقال الملك چورچ لكيتشنر « هل تستطيع أن تفعل ذلك عندما ترى جسدى محمولاً إلى مثواه الأخير ؟! » فرد كيتشنر « وهل تريدنى أن أفعل ذلك يا مولاى ؟! » وكان الرد مناسبًا لدبلوماسية العسكر .

وفى غضون أبريل ١٩١٤ ، تناولت العشاء مع اللورد كيتشنر (وكنا وحدنا) فأدهشنى حديثه عن بولر Buller فقال إنه كان يتمتع بالكفاية والمقدرة وسرعة الحركة والشخصية المتميزة والقدرة على التنظيم . وإنه فشل كجنرال فى الميدان لأنه كان يستمع كثيراً لنصائح غيره من الجنرالات ، وإنه عرض نفسه ورجاله لفظائع كثيرة . وقد بذل أقصى جهده حتى يتفادى ترك الدرشوت لجنوب أفريقيا ، وأنه كان يعرف جيداً نقاط الضعف عنده من البداية إلى النهاية ، وكان عندما التقاه كيتشنر فى بريتوريا مجرد حطام . وقال كيتشنر إن قمة أدائه كجنرال كانت فى عطبرة عندما كان كل مستشاريه يعارضون دخوله المعركة ، ولكنه دخلها وانتصر ، وكانت فكرة تحريك الجيش ليحارب على عمق أربعين كيلو متراً داخل الصحراء تؤرقه ، وقرر بينه وبين نفسه ألا يعود إذا تعرض للهزيمة .

وفى أثناء عشاء آخر تناولناه معاً ، استعاد كيتشنر ذكرياته فى باكنجهام (القصر الملكى بلندن) ، عندما كان يتحدث إلى ابنة القيصر تقدم إليه القيصر وليم قائلاً : « حسناً لورد كيتشنر ، هل لديك ما تريد إبلاغه لى عن ابنتى ؟ » وأخذ كيتشنر يشرح للقيصر بالتفصيل الترتيبات التى يقوم بها فى مطبخه فى بروم حتى يخفف عن الخدم عناء العمل .

* * *

ولم يكتف كيتشنر بالاتصال مع من يفدون إلى دار المعتمد البريطانى من المصريين ، بل عاد إلى ممارسة الجولات التفتيشية على نطاق واسع بزيارة المديريات ليرى بنفسه أحوال الفلاحين ، وكانت تلك الزيارات شبه الملوكية بقطارات خاصة (تقدم خلالها وجبات الغداء على نطاق واسع) تحظى بشعبية كبيرة فى الريف ، وينظر إليها الخديو نظرة عدم الارتياح . وكانت تقام سرادقات كبيرة يجلس فى صدرها كيتشنر وإلى جانبه مدير المديرية والقاضى وحكمدار البوليس واثنان من كبار الأعيان ، وفيتزجيرالد أو كريتشتونى ستيوارت وأنا . وكانت تعلق لافتات كبيرة من القماش مكتوب عليها بالعربية والإنجليزية « مرحباً باللورد كيتشنر صديق الفلاح » ، وكانت فرقة الموسيقى الخاصة بمدرسة التجارة تعزف السلامين الوطنيين البريطانى

والخديوى . وتلقى الكلمات وبعض القصائد القديمة التى يتولى إلقاءها المتقدمون من تلاميذ المدارس .

وكانت إصلاحات كيتشنر بسيطة وعملية ، فتم إنشاء « الحلقات » التى يحمل إليها الفلاح قطنه ، حيث يوزن رسميًا ويخزن ، كما تضمن الإصلاح تجفيف البرك والمستنقعات فى الريف ، وتدريب القابلات « الدايات » فى الريف ، إلى جانب مشروعات تعبيد الطرق واستصلاح الأراضى والرى ، كما صدر قانون خمسة الأفدنة الذى لا يجيز الحجز على خمسة أفدنة فأقل من أطيان الفلاح واثنين من حيوانات الجر وفاء للدين ، وتم إنشاء صندوق توفير البريد . فقد قيل إن تطبيق قانون خمسة الأفدنة جعل توفير القروض للفلاحين مستحيلاً .

وهناك شكوك لا يقوم عليها دليل أن المديرين أجبروا الفلاحين الفقراء على اقتراض الأموال بفوائد باهظة ، وطلب منهم أن يودعوا هذه الأموال فى صندوق توفير البريد حتى يبدو للورد كيتشنر عامراً بالأموال ، وكانت إحصائيات الديون تتصاعد أرقامها مع كل زيارة يقوم بها اللورد للريف ، وقد قامت محاولات للتخلص من هذه السلبيات وغيرها على الطبيعة بفضل اهتمام اللورد وحسن نواياه .

ولا شك أن قلب كيتشنر كان دائمًا معلقًا بمصر ، وجاءت عودته المبهرة إلى مسرح كفاحه المبكر بمثابة النهاية الذهبية لسجله الحافل . وقد اعتبر صديقًا حقيقيا للفلاح ، ويذكر كل من رآه كيف كان ينظر من نافذة عربة القطار الخاص إلى الخضرة اللا متناهية تكسو الحقول ، وكان يحب الالتقاء بالمصريين والحديث إليهم والضحك معهم ، ولم يحدث أن قال عنه المصريون كما جرت العادة من قبل « وجه الإنجليز مبوز ! » ، وكان يكن الاحترام والتقدير للمسلمين دون أن يجرى مقارنات سخيفة بين الإسلام والمسيحية .

ولكن يجب أن أسجل موقفًا اتسم بالفشل . فسعيًا وراء توفير الأموال اللازمة للتعليم الزراعى والصناعى ، دفع كيتشنر بفكرة ضريبة التركات ، ولما كان إقرار الضريبة لا يتم إلا بموافقة الجمعية التشريعية ، فقد دعا كيتشنر عشرين عضواً من الجمعية للاجتماع به فى دار المعتمد البريطانى ، كانوا جميعًا من كبار ملاك

الأراضى . واستمر الاجتماع مدة ساعتين ، كان اللورد يتحدث خلالها ، وكنت أقوم بالترجمة شارحًا مزايا الضريبة التى لن يدفعها أى من الحاضرين ، وكان بعض الأعيان الحضور من أصحاب الملايين ، وقد أبدى الجميع إعجابهم بخطة اللورد ، ولكن رأينا على وجوههم جميعًا تعبيراً واحداً ، هو أن الأرض تعود إلى أجدادهم الذين قضوا نحبهم تحت ضرب السياط دون أن يبوحوا بموضع مدخراتهم لجباة الضرائب أو لإسماعيل المفتش ، ولم يتم تقديم مشروع قانون ضريبة التركات وتناول الحضور طعام الغداء مع اللورد فى صمت مطبق .

والمرة الوحيدة الأخرى التى كان كيتشنر فيها يعانى الحيرة ، كانت إحدى الأزمات الوزارية التى لا يقل اهتمام الصحافة المصرية بها عن اهتمام الصحافة الأثينية بمثل تلك الأزمات ، ففى مارس ١٩١٤ فقد محمد سعيد باشا - الذى خلف بطرس غالى باشا فى رئاسة الوزراء - « عطف القصر » لدرجة جعلت من الصعب عليه الاستمرار فى منصبه . ولم يكن هناك سبب محدد يعطى لكيتشنر فرصة الإصرار على استمرار سعيد باشا فى منصبه رغم فقده لثقة الخديو . ووافق كيتشنر على إقالة سعيد باشا على مضض لغياب الشخصية المماثلة لشخصية مصطفى فهمى باشا - فى الأزمة الوزارية الكرومرية - ليتولى هذا المنصب ، وخاصة أن مصطفى فهمى باشا لم تكن لديه الرغبة فى العودة إلى تولى الوزارة ، وزاد من صعوبة الموقف أن مصطفى فهمى باشا كان موجوداً عندئذ بالأقصر ، ولم يكن قد تم ربط هذه المدينة بعد بالقاهرة هاتفيا ، فأوفدت سرا إلى الأقصر لمقابلة الباشا وحثه على إعادة النظر فى رفضه للمنصب . وبعد ساعة من الجدال الوقور فى غرفته بالفندق ، وصل إلى نقطة القبول بشرط أن يتم تغيير عضوين غير مقبولين من أعضاء مجلس الوزراء ، وعدت مسروراً بهذا الحل المشروط ، لأجد أن القاهرة كلها قد عرفت بمهمتى ، ورغم أن مصطفى فهمى باشا - المعروف بدماثته ونبله - لم يقل شيئًا ، فقد أشيع أن الرجل يتعرض للضغوط للقبول بالمنصب ، وعندما قابل مصطفى فهمى باشا اللورد كيتشنر بعد ذلك أصر على اعتذاره عن عدم قبول المنصب (وربما كان ذلك بتأثير صهره سعد زغلول باشا) ، ما لم يؤذن له بالتخلص من اثنين من أكفأ الوزراء وأكثرهم نشاطًا ، ولم يقبل أى من الطرفين بذلك ، وانصرف الباشا .

وقبل اللورد كيتشنر باقتراحي إسناد هذا المنصب إلى حسين رشدى باشا الذى كان فى مركز يسمح له بالتخلص من الوزراء غير المرغوب فيهم ، وانتهت الأزمة عندئذ . ولكن الحادث ترك عندى انطباعًا بأنه قد جرح كبرياء اللورد كيتشنر الذى بدا وكأنه أخذ يطوف بمنصب رئاسة الوزراء ، حاملاً قبعته فى يده ، وسط الانتقادات الحادة ، والظروف الصعبة ، واعتراض غير الراغبين من المرشحين للمنصب ، وهى تجربة تعلمت منها الكثير فى المناسبات التالية .

ولا يجب أن ننسى عند الإشارة إلى هذه « الأزمة الوزارية » أن الشغل الشاغل للثلاثة من المعتمدين البريطانيين الذين عملوا فى مصر فيما بين ١٨٩٢ و ١٩١٤ هو موقف الخديو عباس حلمى الثانى ، سابع الحكام من أسرة محمد على ، والخديو الثالث والأخير الذى تولى حكم مصر . وكان عباس حلمى سيئ الحظ من نواح عدة : منها عدم تحرى الدقة فى اختيار حاشيته ، فلم يكن هناك مناص من نسبة فسادهم إلى سيدهم ، ودفعوه بحكمة تأثيرهم عليه إلى اتخاذ مواقف ناجمة عن سوء الرأى ، مثل منح بنك درسدن حق شراء خط السكك الحديدية الممتد من الإسكندرية إلى الغرب ضاربًا عرض الحائط بتحذير تلقاه من اللورد كيتشنر والإنذار الذى تلقاه من حكومة صاحب الجلالة (البريطانية) . وقيل إن ألقاب الباكوية والباشوية وكذلك الأوسمة والنياشين الرفيعة كانت تسوق بين أعيان الريف وأحيانًا تتم المزايدة عليها بمعرفة رجال البلاط (دون أن تعود على سيدهم فائدة من ذلك) ، الذين كانوا ينفقون ببذخ فى بارات سفنكس وسبلندد .

وقام الخديو بإجراء حديث مع صحفى فرنسى لا تكف صحيفته عن كيل الشتائم للورد كيتشنر والوزراء . وكان تأثير ذلك سيئًا على الجماهير التى لم تكن تعلم أن حكامها يتمتعون بميزة إدارة الخد الآخر . ولو كانت تلك الجريدة مصرية لتم إيقافها على الفور منذ زمن بعيد ، وذلك بسبب الامتيازات الأجنبية .

وكان هذا العداء المستمر محرجًا للوزراء المصريين على وجه الخصوص الذين تحددت درجة رضا السراى عنهم على ضوء قربهم أو بعدهم من دار المعتمد البريطانى . غير أننى أعتقد - رغم ذلك - أن الصعوبات التى واجهت الخديو لم تلق

حلا عادلاً . فقد كانت يد كرومر قوية ، ولعل الموقف كان يختلف لو كان المعتمد البريطاني عندئذ شابا متحمسًا عند تولى هذا الأمير العطل من الخبرة عرش بلاده . كما نال عباس حلمي على يد كيتشنر في الماضي الإهانات عند الاحتكاك به ، ولا يوجد إلا القليل من المصريين الذين يرون توسيع صلاحيات القصر على نقيض ما تتجه إليه دار المعتمد البريطاني متسائلين عن الدعاوى البريطانية التي يمتلكها الخديو تجاه قصر الدوبارة . فقد كان يعلم تمامًا أن الأمور التي تؤثر على سمعته يتم الحديث عنها من وراء ظهره بين الأجانب والمصريين ، وكان يرد دائمًا على تلك الشائعات المبالغ فيها بطريقة لا تتناسب مع مكانة الأمراء . ترى ما حجم الحقيقة فيما قد يسمعه ملك دستوري أوروبي ؟ وكم يكون نصيب الحاكم الشرقي في بلد خاضع للاحتلال من تلك الشائعات ؟ ولما كان عباس حلمي محرومًا مما يراه السلطات الشرعية لحاكم مصر ، حاول عباس أن يستبدل بها نفوذًا بالعمل على إثارة المصريين والأتراك والإنجليز ضد بعضهم البعض ، الكبار والصغار ، منهم على السواء ، وأدت هذه السياسة إلى فقدانه ثقة الجميع ، وتعرضه لمحاولة اغتيال في منتصف ١٩١٤ ، وقبيل نهاية العام ، كلفته هذه السياسة عرشه .

وفي ذلك الوقت تقريبًا ، واجهت محنة كان من الممكن أن تثير مخاوفي للمرة الرابعة ، لو كان رئيسي رجلاً شريراً ، فعندما كنا نسير في حفل غداء قال لي اللورد كيتشنر : « ماذا فعلت بالجنيهات الثلاثمائة؟ » ، فعبرت عن عدم فهمي لما يقصد ، فضحك وقص على ما يلي : قد اشترى عبد الرحيم القناوي أربعة فدادين من الأرض بالمكس قرب الإسكندرية ، واضطر لفقدها نتيجة حكم استئناف قضى بأن الأرض ملك للدولة . ولكن صديقه خليل السيد - سمسار قاهري - طيب خاطره ، وقال له إنه يعرف « شخصًا » بدار المعتمد البريطاني يستطيع أن يؤثر على اللورد كيتشنر لإلغاء الحكم، مؤكدًا له أن الوقت يعني المال عند السكرتير الشرقي ، والمال الوفير حتى يصل جانب منه إلى المستوى الأعلى ، واستطاع عبد الرحيم القناوي أن يدبر مائة جنيه ثم ما لبث أن ضاعفها مثنى وثلاث دون أن يرى نتيجة إيجابية ، ولما ساورته الشكوك طلب مقابلة المستر ستورس شخصيًا ، باعتباره أيسر الطرق لنيل بغيته ، وأسهلها للتعبير عن امتنانه ، فيذهب المستر ستورس إلى عبد الرحيم في المكس ليتفق معه على الشروط ،

وحضر فى الموعد رجل أبيض الشعر يضع على عينيه نظارة سوداء ويتحدث العربية بلكنة إنجليزية لتناول العشاء مع عبد الرحيم ، وتم كل شىء بنجاح فقبل المستر ستورس من مضيفه رزمة من الأوراق المالية « لم تكن له » دسها فى جيبه دون أن يعد النقود ، وحصل لنفسه على قطعتين من السجاد الشرقى وغزال .

وخلال أربعة شهور اتصل النصاب (وكان يدعى مصطفى كامل أفندى) بعبد الرحيم ليصل بالمبلغ إلى ٦٦٠ جنيها ، دون أن يتحقق شىء . ودعاه خليل إلى الحضور إلى قصر الدوبارة لمقابلة ستورس ، وبينما كان ينتظر عند الباب بصحبة أحدالقواسين (الذى كان ضالعًا فى الاحتيال) وصل « المستر ستورس » فى سيارة كبيرة ، واقتنع عبد الرحيم أن الأمور تسير على ما يرام . ولما نفد صبر الرجل وساوره الشك أنه وقع ضحية بعض المحتالين ، قام بإبلاغ البوليس الذى ألقى القبض على المحتالين الأربعة بأحد المقاهى بينما كانوا يدبرون المزيد من الخطوات التى تتخذ مع الضحية .

وكان اللورد كيتشنر مسرورًا من الطريقة التى تكلم بها « السكرتير الشرقى » المزعوم العربية بلكنة إنجليزية والشكل الذى بدا به ذلك المحتال .

وأخيرًا نشرت « الإجبشيان جازيت » القصة قائلة : « إن مغامرات « المستر ستورس » المزعوم الذى تقمص شخصية السكرتير الشرقى أثارت الكثير من الاهتمام .. فالسكرتير الشرقى لا يختلط عادة بالناس ولا يعرفه إلا من يرتادون الحفلات الرسمية » .

وكانت آخر مرة ورد فيها اسم السكرتير الشرقى بالصحف عام ١٩٠٦ عندما هاجم الكابتن چورچ نلكن ڤالدبرج – وهو يهودى رومانى ، خدم فى جيش الأرجنتين ويحمل جنسية أمريكية واسمًا سويديًا ينتمى إلى الكنيسة الأرثوذكسية – هاجم اللورد كرومر على صفحات الجريدة الفرنسية التى كان يصدرها فى القاهرة ، واتهم المستر هارى بويل (السكرتير الشرقى للورد كرومر) والقنصل العام ببرلين ، بتقاضى عشرة آلاف جنيه على سبيل الرشوة من الأميرة صالحة ، كما اتهم كارتو دى ڤيار المحامى بتحقيق منفعة لنفسه من وراء هذه السيدة ، وأثارت القصة اهتمامًا كبيرًا عندئذ.

وتضخمت الشائعات وتشعبت . وهكذا يجد الناس فى مصر اهتماماً بعمل السكرتير الشرقى دائماً .

وبعد إبرام الوفاق الودى عام ١٩٠٤ ، لم تكن الدول الأوروبية الأخرى ممثلة فى مصر بمثل المستوى الجذاب المتميز الذى مثلت به ألمانيا ، بسواء عند وجود الكونت برنستروف قنصلاً عاما ، أو الأمير يلمان هتزفيلد ، أو العالم القدير الهر فون ميكويل الذى كان قنصلاً عاما قبل الحرب مباشرة ، ولكن نشاطهم كان اجتماعيا وليس سياسيا ، وكان الغازى مختار باشا – المندوب السامى العثمانى العتيد – قد أعلن عام ١٩٠٥ أنه « لن يكون من الصعب علينا إخراج الإنجليز من مصر باستخدام قوات الجيش العثمانى الموجودة فى سوريا ومساندة الألمان » ، وفى السنة نفسها ، لاحظ فيليب جريڤز وجود أنشطة غير رسمية يقوم بها ميستر باشا ومعاونوه الألمان عند مسح واستكمال خط سكك حديد الحجاز حتى المدينة المنورة .

وفى عام ١٩٠٥ نظم البارون أوبنهايم (المعروف لنا بكونه جاسوس القيصر) حفل استقبال فى برلين لمصطفى كامل باشا زعيم الحزب الوطنى ، كما كان أيضاً على اتصال مباشر مع الغازى مختار باشا ، وكان معروفاً بالحرص الدائم على تذكير الصحافة المتطرفة بالأكنوبة القائلة إن الإسلام مهدد من جانب أوروبا ، وإن بريطانيا وفرنسا تتزعمان الحركات المعادية للإسلام ، وإن السلطان هو الأمل الباقى للمسلمين ، وإن ألمانيا صديقة السلطان ، ولذلك فهى الدولة الأوروبية الوحيدة التى تحترم الإسلام وتقدره ، وكان « جاسوس القيصر » يعمل سكرتيراً شرقيا بالقنصلية الألمانية بالقاهرة ، وكان يوصف بأنه « من غير الرسميين » رغم تمتعه بالمزايا التى يحظى بها الدبلوماسيون ، وكان معنيا بالآثار وإن لم يكن متبحراً فى العلم بها .

وعندما خلف جورست كرومر فى منصبه ، صرح دبلوماسى ألمانى فى برلين بأن البارون أوبنهايم لم يكن سعيداً فى القاهرة ؛ لأن السلطات البريطانية فى القاهرة لم تعطه الاهتمام الذى كان يتمتع به من قبل ، ففى الأيام السالفة كان اللورد كرومر يتأثر بمقابلات أوبنهايم مع مصطفى كامل باشا ، وينشر سعاة البريد حول بيته لمراقبته ، بينما الآن يتعرض للسخرية من جانب جورست ، وفى عام ١٩٠٧ حصل

الألمانيان على ترخيص لزيارة سيناء عبر خط سير حدد فى الطلب ، ولكنهما لم يتبعا المسار المحدد ، اتبعا مسار صلاح الدين ضد الصليبيين ، كما تبين ذلك فيما بعد ، عام ١٩١٤ .

وفى عام ١٩٠٩ ، اشترى ميكانيكى ألمانى خالى الوفاض ، صحيفة « مصر الفتاة » ، وكانت من أكثر الصحف معاداة للإنجليز ، وكان تعطيل الجريدة يتطلب موافقة السلطات الألمانية . وأكد البارون شون للسير إدوارد جوشن السفير البريطانى فى برلين أن ألمانيا حريصة على إلغاء الامتيازات الأجنبية وحث الدول الأخرى على القبول بذلك . وأجاب على السفير الإيطالى - فى صباح نفس اليوم - بأنه « على الدول الكبرى أن تحكم قبضتها على ما لديها من امتيازات » .

ولكن الخلاف مع ألمانيا بلغ الذروة حول مشكلة تعيين خلف للدكتور مورتز - مدير دار الكتب الخديوية - فقد كان هذا المنصب يحفظ دائمًا لألمانى ، على حين ظلت إدارة الآثار المصرية من نصيب فرنسى ، وذلك من خلال تفاهم تم التوصل إليه من قبل ، أدرج ضمن مفاوضات الوفاق الودى ، وعندما استقال الدكتور مورتز من خدمة الحكومة المصرية ، أبلغ القنصل العام الألمانى الحكومة المصرية أنه قد تم اختيار الدكتور كورت بروفر لشغل المنصب . وكان الإبلاغ فجًا ؛ لأنه لا يلزم الحكومة المصرية بتعيين ألمانى مديرًا عامًا لدار الكتب الخديوية فحسب ، بل يفرض عليها شخصًا بعينه دون أن يترك لها حرية الاختيار .

وحتى إذا كانت الطريقة مقبولة ، فإن الشخص المعين يثير الفضول ؛ لأن الدكتور كورت بروفر كان السكرتير الشرقى للقنصلية الألمانية فى القاهرة ، أى إنه الشخص المقابل لى عندهم . وقد عرفت الدكتور بروفر وأحببته وقدرت كفاءته ، ولكنى كلما ازددت معرفة بكفاءته ومواهبه ، جعله ذلك أقل صلاحية لشغل هذا المنصب الذى سيجعله - من حيث الواقع - على اتصال يومى مباشر مع المثقفين المصريين الشباب .

وقد أزعج هذا التعيين رشدى باشا فاتصل على الفور باللورد كيتشنر ، فقررا عدم الموافقة على بروفر . وعرضت الحكومة المصرية على الجانب الألمانى وظيفة أخرى أرفع قدرًا وأكبر راتبًا يشغلها أحد الألمان فى مصلحة الآثار المصرية أو فى إدارة

الحجر الصحى ، مع الإنعام على الدكتور بروفر بوسام ، ولكن القنصل الألمانى رفض كل تلك المقترحات على أساس أن المناصب المعروضة لا تتساوى مع منصب مدير دار الكتب الخديوية ، وأعلنوا أن الدكتور بروفر ليس له اهتمام بالسياسة ، ولكنه معنى بالثقافة والآداب الشرقية ، ولكن يبدو أن الجامعات المتحدة فى ألمانيا لا تستطيع أن تخرج بديلاً له ، وقد أعطى المنصب فى النهاية لأحمد لطفى بك السيد ، وهو مصرى مسلم . وعندما قامت الحرب . وشنت الحملة التركية – الألمانية على قناة السويس فى العام التالى ، كان الدكتور كورت بروفر يعمل مديراً للمخابرات السياسية والخدمة السرية الألمانية ، متخذاً من القدس مركزاً له .

وفى أبريل ١٩١٤ تمت زيارة مهمة للقاهرة ، تحدد بناء عليها مصير الشرق الأدنى والأوسط ، ولم يتم بعد حصر نتائجها الكاملة ، وأعنى بذلك زيارة الأمير عبد الله الابن الثانى لشريف مكة ، قادماً من إستانبول ، ضيفاً على الخديو ، حيث استقبله اللورد كيتشنر . وبدا أن لديه ما يريد قوله ، ولكن لم يصل بعد إلى نقطة البوح بما يريد . كما أننا علمنا من سفارتنا بإستانبول أن مثل تلك المقابلات تغضب الباب العالى الذى يشك دائماً فى مؤامرات العرب فى الحجاز وسوريا ، ولذلك لم يلتق اللورد كيتشنر عبدالله مرة أخرى ، ولكن بعد قليل استدعانى عبد الله للقائه [٢] . فقمت بزيارته فى قصر عابدين ، وقضيت ساعتين منبهراً بما نتج عنها من ارتباط بيننا تزايد مع الأيام ، وأدهشتنى قوة حافظة عبد الله للمعلقات السبع ، درر العصر الجاهلى ، وشعر عنترة بن شداد ، وقد استهلكنا خلال اللقاء نصف صندوق من قهوة الخديو . وتشعب الحديث فى دروب حساسة حتى وجدت نفسى فى موقف يصعب

(٢) سجل كيتشنر ما جاء فى الزيارة فى خطاب خاص أرسله إلى الخارجية البريطانية بتاريخ ٢٦ أبريل ١٩١٤ ، جاء فيه :

« أرسل الشريف عبد الله فى طلب ستورس ، الذى أبلغه (بناء على تعليماتى) أن عرب الحجاز لا ينبغى أن يعوّلوا كثيراً على أن يلقوا تشجيعاً من جانبنا ، وأن كل ما نهتم به فى الجزيرة العربية هو راحة وسلامة الحجاج الهنود .. . وقد بدا الشريف مستاء من نتيجة زيارته لإستانبول ، ومن إصرار الحكومة التركية على مد السكك الحديدية إلى مكة ، مما يسبب – فى رأيه – دماراً اقتصادياً للعرب الذين يعتمدون على قوافل الإبل . وسوف نتابع التطورات فى جزيرة العرب ؛ إذ يبدو أنها ستكون ذات أهمية » .

الدفاع عنه أمام عبد الله ، عندما سألنى عما إذا كانت بريطانيا العظمى تقبل أن تهدى لشريف مكة دستة أو حتى نصف دستة من المدافع الآلية ؟ وعندما سألت عن الغرض الذى ستستخدم فيه ، أجاب بأنه الدفاع ، وأكد بوضوح أن الدفاع قد يكون ضد هجوم الأتراك (٣) . ولم أكن فى حاجة إلى تعليمات خاصة لكى أقول له إننا لا نعطى السلاح ليستخدم ضد الدول الصديقة . ولم يكن عبدالله يتوقع إجابة أخرى ، وافترقنا كصديقين.

وقد غادر كيتشنر مصر فى ١٨ يونيو ١٩١٤ لقضاء إجازته الأخيرة .

وذات مرة ، على متن الباخرة « حلوان » التابعة لشركة أوستريان لويد ، أطلعنى كيتشنر على برقية شفرية – بعد تردد غير عادى – تلقاها من رئيس الوزراء ، يقترح عليه تقديم اسمه إلى جلالة الملك لمنحه لقب إيرل **Earl** ، وقال لى إنه قرر أن يسمى نفسه إيرل بروم **Earl of Broome** ، نسبة إلى بروم بارك حيث تقع ضيعته فى كنب ، وسألنى عن رأيى فى ذلك . فقلت إن هناك لورد بروجام **Lord Brougham** الذى ينطق لقبه بنفس الطريقة ، وحتى إذا لم يكن هناك اسم شبيه ، فإن اختفاء لقب كيتشنر أوف خرطوم يعنى خسارة لأحد أعمدة الإمبراطورية البريطانية . فقال إنه كان مخطئًا ، ولكنى علمت فيما بعد أن الاقتراح رفض .

وقد استقبلنى – فيما بعد – بمنزله فى بروم ، حيث قضيت فترة بعد الظهر كلها معه ، وقد باح لى بكل شئونه الخاصة الاقتصادية والصحية وغيرها ، وكان لا يزال مقيمًا فى بيت الوكيل لحين الانتهاء من إعداد منزله الذى لم يعش لينام فيه ليلة واحدة ، وهو المكان الذى كان دائمًا موضع اعتزازه ، ولم أزر مقره فى لندن إلا عندما كان يستدعينى للقائه ، فقد كان يحملنى بالعديد من الرسائل ويطلب منى أن أخلصه منها . وكان من عيوبه عدم إدراك ما يثيره إهمال الرؤساء (من جانبه) من ضيق لهم .

(٣) كانت هناك شائعات عن وجود قطيعة بين الشريف حسين ووالى الحجاز التركى ، وأن العرب كانوا يغلقون دائمًا الطريق بين جدة ومكة .

وفى يوليو ١٩١٤ ، وقعت محاولة لاغتيال الخديو . فقد حرض الشيخ عبد العزيز جاويش شابا مصرياً متعصباً يدعى مظهر ، كان مدرساً للعربية فى أكسفورد ، ومن أعضاء الحزب الوطنى وأدوات تركيا الفتاة ، للقيام باغتيال الخديو بإطلاق الرصاص عليه كما فعل الوردانى عندما اغتال بطرس غالى ، وأوهمه بضمان العفو عنه ، وكان المفترض أن يتم الاغتيال فى إستانبول ، وما كاد مظهر يقبل القيام بالمهمة حتى أبلغ الشيخ جماعة الاتحاد والترقى ، محذراً إياهم من إبعاد رجالهم حتى يتم الاغتيال ثم يقومون بإحضار القاتل . وترك جاويش المدينة إلى خارجها .

وبعد ذلك بأربعة أيام اتجه الخديو للقاء الصدر الأعظم بناء على موعد سابق ، وعندما أبطأت العربة التى كانت تقله من سيرها أمام الباب العالى ، اقترب مظهر لمسافة ثلاث ياردات من العربة وأطلق النار على الخديو من مسدس أتوماتيك ماركة براوننج ، فأصابت إحدى الرصاصات الخديو بجرح بسيط فى خده ولسانه وكان برفقته حلمى باشا من ياوران البلاط ، فانحنى إلى الخلف عند إطلاق الرصاص ولم يحاول حماية الخديو ، بينما قام الحوذى بإيقاف الجياد تماماً بدلاً من أن يسرع بالعربة . وسمح لمظهر أن يفرغ مسدسه البراوننج قبل الإمساك به ، وبعد ثلاثة أيام من « التحقيق » أصدر بوليس إستانبول بياناً أعلن فيه أن مظهراً مختل عقلياً نتيجة صدمة تلقاها من حب فاشل لفتاة يهودية . ولم يذكر سبب الاعتداء إلا بإشارة إلى أنه التخلص من الخديو حتى لا يرأس اتحاداً فيدراليا عربيا معادياً للأتراك . وأذكر أن لورد كيتشنر كلفنى عند زيارته بمقره بلندن أن أكتب للخديو برقية تهنئة بنجاته .

قابلت اللورد كيتشنر باستمرار من أجل أمور تتصل بالعمل أو لقضاء أوقات الراحة خلال موسم ١٩١٤ الحافل ، وقد حضر مرتين الباليه الروسى فى كوفنت جاردن ، وفى الإجازات الصيفية كنت أنضم إلى مجموعة اليخوت الخاصة بالمسز ليدز ، ثم أذهب بعد ذلك إلى جولة بالسيارات فى صقلية . وقد قام اللورد كيتشنر بزيارة أشردج فى يوليو ، وعرف على مائدة الأفطار يوم رحيله بحادث مقتل أرشيدوق النمسا الذى جعل إيقاع الدخول فى حرب يسرع كثيراً فقال : « إننا مقبلون على الحرب » . ولما كان كيتشنر لا يريد التورط فى مغامرة وأن يعمل فى الموقع الذى يكون فيه سيد الموقف ، فقد قررت العودة إلى مصر على وجه السرعة . وفى منتصف

الأسبوع الأخير من يوليو أمرنى من ضيعته فى بروم أن أتأهب للسفر بحراً فى يوم الاثنين الثالث من أغسطس ، وبعد محاولات عدة للتعلق بأمل السلام أرجئ السفر ثم قدم وأخر حسب تغير الظروف ، وبينما كنا على وشك التحرك من دوفر بالباخرة حضر فيتزجيرالد حاملاً برقية من رئيس الوزراء يطلب فيها من كيتشنر البقاء ، فعاد إلى مقره بلندن .

ولم تتم دعوة كيتشنر إلى مجلس الوزراء إلا بعد ظهر أول يوم أعلنت فيه الحرب ، وقد ذهب إلى هناك وقد قرر فى نفسه ألا يقبل أى عمل يسند إليه سوى منصب وزير الحرب بكل ما له من صلاحيات . وقد تجمعنا نحن معظم العاملين معه فى ردهة مقره اللندنى برقم ١٧ جريفز سكوير : السردار السير ريجنالد ونجت ، واللورد إدوارد سيسل المستشار المالى ، ومضيفه بندلى رالى ، وفيتزجيرالد والسير چورچ آرثر ، ننتظر نتيجة المقابلة على أحر من الجمر ، ودق جرس الهاتف ، وعلمنا أن كيتشنر قد عين وزيراً للحرب وأنه قبل المنصب ، وفى الصباح التالى أمرت أن أكون موجوداً فى رقم ١٧ جريفز سكوير فى العاشرة صباحًا ، وبدأت مبكرًا فوصلت قبل الموعد بساعة كاملة وتسكعت أمام بعض المحلات لأرى مدى تأثير الحرب عليها ، وتأثرت بكلمة المسز بلوك تاجرة التحف «كل شىء لا يساوى شيئًا، وما لا يساوى شيئًا يساوى كل شىء» .

وقد أبلغنى اللورد كيتشنر أنه قرر تعيينى سكرتيراً خاصًا له فى وزارة الحرب ، ووضع فى يدى سلة ممتلئة بالأوراق ، وقال إنه يريد قرضًا لبيت فى كارلتون هاوس تيراس وسيارة رولزرويس قبل موعد الغداء . وسألته عما إذا كان قد رتب انتقالى للعمل بوزارة الحرب بالاتفاق مع وزارة الخارجية ، فطلب منى ألا أزعج بالتفاصيل ، وأن أنهى هذا الإجراء بنفسى ، وكان إصرارى على أننى لا أعرف شيئًا عن وزارة الحرب غير مجدٍ عنده ، كما أن الخارجية قد تعترض على انتقالى إلى وزارة الحرب . ولذلك أسرعت بترتيب موضوع البيت والسيارة ، وعبرت الجموع الحاشدة من المجندين والفضوليين للقائه بوزارة الحرب ، وعبرت داوننج ستريت .

وكان رد أول موظف قابلته بالخارجية أن هذا من غير المعقول لأن عملى فى مصر ، ويجب أن أكون هناك الآن . وكانت هذه فرصة نلتها لأعرف قيمة نفسى ،

ولم أنكر شيئًا من كل ما قاله ، ولكنى قلت له إننى أنفذ أوامر رئيسى ، وإنه إذا كان وجودى بمصر ضروريًا ، فإن عليهم إبلاغ الفيلد مارشال بذلك . ويبدو أن الاقتراح لم يكن مستساغا ، وبعد قليل دعيت للقاء السير آرثر نيكلسون الوكيل الدائم لوزارة الخارجية ، فاستمع إلىَّ قليلاً ثم قاطعنى قائلاً : « قل للورد كيتشنر إنك لابد أن تعود لعملك فى القاهرة غدًا » .

وعدت إلى بلجراف سكوير مثقلاً بالهموم ، لأجد اللورد يغتسل استعدادًا لتناول العشاء . وكان يجلس إلى جانب مقعدة ثلاثة من الجنرالات الفرنسيين والمستر والترلونج . وجاء معى إلى الممر وقال إنه سمع عن المسألة من وزارة الخارجية ، وإنه كان على خطأ ، وإنهم على صواب ، وإن الأمر محزن له ، ولكنى أعرف جيدًا ما كان يريده لمصر ، وصافحنى قائلاً : « حظ سعيد أتمناه لك » . وعدت لغرفته ، وكانت هذه آخر مرة أراه فيها .

إن من يهتمون بمعرفة التاريخ على حقيقته سوف يدرسون حياته وترجمة السير چورج آرثر ؛ لأن هناك الكثير ممن كتبوا المقالات أو الفصول أو الكتب عن الإخفاقات [٤] (ولا يهتمون بالوقوف أمام النجاحات) عن السردار الذى صنع الجيش المصرى ، والجنرال الذى خطط وكسب معركة أم درمان ، الجنرال العظيم (حسب تقدير كتاب تاريخ أركان الحرب الألمانى) لحرب البوير ، والحاكم العام الذى أسس إدارة السودان ، وشجع الشعب الإنجليزى على بناء كلية جوردون بالخرطوم ، والقائد العام الذى نظم جيش الهند ، وعن الدبلوماسى الذى أثار إعجاب الأفريكاندر ، وقدر

(٤) ذكر مراسل للتايمز فى ربيع ١٩٣٧ نقلاً عن اللورد بالفور أن كيتشنر كان (رجلاً غبيًّا) ، وذكرنا فى الوقت نفسها أن الجنرالات الإنجليز الآخرين تنبئوا باستمرار الحرب لمدة ثلاث سنوات . على كل لم نسمع هذه التنبؤات علنًا . وهذا تعليق جنرال ألمانى قابل كيتشنر فى الهند فى ١٩٠٨ - ١٩٠٩ : « لقد بهرنى وضوح رؤيته لمستقبل أوروبا ، وأشار بقوة وصراحة إلى أنه يرى أن الحرب بين بريطانيا وألمانيا أصبحت أمرًا يصعب تجنبه ، لا لوجود عداوة حقيقية بين الأمتين ، ولكن بسبب ضعف ساسة البلدين فى صنع القرارات . وأن الحرب البريطانية الألمانية سوف تستمر لمدة ثلاث سنوات مهما يكن عدد المشاركين فيها ، وأخيرًا لن يكون هناك منتصر على الإطلاق ، فسوف تفقد الدولتان نفوذهما فى العالم ، وخاصة فى المحيط الهادى ، أما الرابع من وراء هذه الحرب فهما الولايات المتحدة واليابان » التايمز ، ٥ يناير ١٩٣٧ .

المصريون حماسه وإخلاصه ، ووزير الحرب الذى جذب اسمه جيشًا جرارًا من المتطوعين لم يكن له نظير من قبل ، والشخصية العالمية التى كان فقدها خسارة كبرى ، وسيظل عند من عملوا معه وتمتعوا بثقته ، وتعرفوا على أفكاره وآرائه الرئيس المثالى .

أصبح البحر مرقده

وأمواج المحيط قبره

ولكن لشهرته فى البحر والبر

لا يوجد ما يكفى لمقر

الفصل السابع

الحرب وصناعة نظام الحماية

(١٩١٤ - ١٩١٦)

كانت روح إنجلترا ومظهرها فى الأيام الأولى للحرب اندفاعية أكثر من كونها قتالية (وكان ذلك واضحًا حتى فى لندن) ، ويرجع ذلك فى جانب منه إلى أننا لم نكن عندئذ (ولازلنا الآن) دولة عسكرية ، كما يرجع فى جانب آخر إلى حدوث تغييرات فى فن الحرب ، وخلال حملة جنوب أفريقيا فى ١٨٩٩ ، سارت القوات من مختلف الأسلحة بالفرق الموسيقية فى الشوارع تصحبها دموع الأقارب وهتافات غيرهم . وكانت الأرقام التى يحملونها والألقاب والوحدات وغيرها من المعلومات (مثل أسمائهم وأوزانهم وأعمارهم) متاحة لمن يريد استخدامها من الأعداء ؛ إذ كانت منشورة ومصورة فى الصحف ، ومن ثم كانت بين يدى جنرالات البوير قبل أن تصل القوات إلى الميدان بوقت طويل ، وفى أغسطس ١٩١٤ ، كانت غالبية القوات تعبر القنال الإنجليزى وتتجه إلى الجبهة قبل أن تعرف الزوجات والشقيقات أنهم قد غادروا معسكراتهم ، غير أنه لم يكن هناك دليل واضح عن مدى الاستعدادات النهائية ، بل على العكس كان الهدف غير واضح ، كما لم تكن هناك خطة محددة ، وأذكر أننى شعرت أننا نبالغ فى تقدير الأمور ، وعندما حاول اللورد كيتشنر الاتصال هاتفيًا بالقائد العام الفرنسى ، اتضح أن الخط معطل .

كان علىَّ أن أعود إلى مصر يوم الجمعة السابع من أغسطس ، فاشتريت مسدس براوننج ، ومائة خرطوشة رصاص ، عندما أدركت احتمال الوقوع فى يد أحد عملاء الأعداء فى أحد شوارع القاهرة الجانبية دون أن أكون مسلحًا ، وودعنى خالى هارى كست وزوجته نينا عند باب منزلهما ، فكان هذا وداعى الأخير له ، وودعنى أبى وأمى وأخى فرانسس على رصيف الميناء فى تلبورى لتحملنى الباخرة مولتان فى رحلة كئيبة بعيدًا عن إنجلترا لمدة ثلاث سنوات غريبة .

وكانت الباخرة مكتظة بالركاب ، فقد كان هناك سبعون ضابطًا يزيدون على الطاقة الاستيعابية لمقصورات الدرجة الأولى ، ينامون كالسردين ، واستغرق وقت تقديم طعام العشاء ساعتين ونصف الساعة ، وكان كل ثمانية من الرجال ينتظرون

دورهم أمام المرحاض كل صباح ، وصحبتنا الطرادة مونماوث إلى جبل طارق ، لترافقنا طرادة أخرى من هناك . وقبل أن نصل إلى مصر بوقت طويل ، تلقينا أخبار الهجوم على البوسفور .

وقد وقفنا بضع ساعات فى بلايموث التى بدت أسهل موقع فى العالم يمكن أن يقع فى يد بحرية أجنبية ، إذا قدر لها أن تبقى حتى تصبح فى مجال تلك البحرية . وكانت تصاحبنا الطرادة مولتان لحراسة الموظفين (الإنجليز) المتجهين إلى مصر ، وحملت الباخرة الجنرال ونجت حاكم عام السودان ، وسكرتيره الكابتن سايمز الذى سيصبح حاكمًا عاما فيما بعد ، والكابتن كلايتون الذى سوف يصبح من أبرز الشخصيات المعروفة فى الشرق الأدنى . كما كان على متن الباخرة الأمير چورچ - الملك الحالى لليونان - وعمه الأمير كريستوفر الذى كان عضواً فى فريقنا لحفلات اليخوت ، وكان يجيد العزف على البيانو .

وكان منظر جبل طارق فى العاشرة مساءً بديعًا ، يعد أكثر المواقع جمالاً ، وعندما وصلنا عند الغروب أحاطت بنا ستة من قوارب الطوربيد وكذلك الغواصات التى بدت كالدرافيل بجوار الباخرة . وكان السكون مخيماً على الميناء ، وأضواء سبتة تلوح من بعيد عبر المضيق ، وهناك ٥٦ سفينة راسية خارج الميناء تتبادل الإشارات الضوئية مع بعضها البعض ، وكانت الأمواج الفضية تمرح فى البحر يبدو رذاذها فى الضوء كحبات اللؤلؤ ، وإلى جانب الباخرة كانت الأنوار الكاشفة الثابتة تضىء جانب صخرة جبل طارق ؛ فكان المنظر كله مؤثرًا فى النفس .

وفى بورسعيد ، عندما اكتشفت شخصية الأمير چورچ وصل الخبر إلى كل بقال وخضرى فى المدينة ، خرج اثنا عشر ألفًا من اليونانيين ، ملأوا الشوارع المحيطة بالميناء لتحية « وريث العرش » اليونانى .

وكان تشيتهام - مستشار دار المعتمد البريطانى - القائم بعمل اللورد كيتشنر والمعروف بحسن تصرفه خلال الأزمة ، قد عاد من المقر الصيفى بالإسكندرية ، لنجد أنفسنا غارقين فى العمل بالقاهرة ، وحتى نظل متابعين لعملنا ، فى وقت لم يكف فيه الهاتف عن الرنين ، كنا ننام فى الشرفة الكبيرة المطلة على النيل فى قصر الدوبارة ،

فكنت ترى فراشى وفراش كل من تشيتهام ، وكريج ، وكلينج ، وجون سيسل ، وجريج تتألق فوقها النجوم ، وكان العيب الوحيد فى هذا المكان هو وقوعه على النيل حيث يصبح الهـواء مثقلاً بالرطـوبة عند الفجـر حتى إننا كنا نجد ملابسنا مبللة بالندى عند الصباح .

وكان من أهم واجباتى أن أعرف كل ما يقوله المصريون والأجانب ، وما يفكرون فيه ويشعرون به ، وكذلك ردود الأفعال عندهم ، وقد تم تقديرها بمعرفة مجموعة متنوعة من الأقسام المدنية والعسكرية المعنية « المتناقضة أحياناً » .

وفى المساء كنت ألتقى أولئك الأشخاص الذين تكفى رداءة سمعتهم لتحول دون دخولهم قصر الدوبارة أو غيره من الأماكن فى ضوء النهار . كان هؤلاء يحملون إلىَّ كل أنواع المعلومات من التتبع الحقيقى لمؤامرة تركية - ألمانية ، إلى التحذير من شخص غير محدد الاسم يدعو مظهره إلى الريبة ، وعندما يتم بحث الأمر يتضح أنهم بعض أفراد ينتمون إلى جهة سياسية ما ، أو يتضح - على أسوأ الأحوال - أنهم من البوليس السرى .

قمت بتجميع بعض المقالات والقصاصات من التايمز والصحافة العربية ، ثم أرسلت عملائى مساء يجوبون الأسواق والمقاهى ليجمعوا تعليقات الناس على تلك المقالات التى كانت تحمل عادة توقيعات مثل « مسلم مستقل » أو « وطنى » أو « ساكن النيل » ، فيعودون إلىَّ بكم كبير من التعليقات . وكان من بين تلك المقالات السخيفة للغاية هى تلك التى كتبها من جعلتهم مهارتهم يصدقون حقيقة عظمتنا ، حتى إن كاتباً عقد مقارنة بين كيتشنر والخليفة أبى بكر الصديق .

وفى هذا الجانب الصحفى من عملى ، أتيحت لى الفرصة لأتبين التأثير الضار المدمر للبعد ، سواء كان بعداً زمنيا أو مكانيا ، فقد تلقت دار المعتمد على الفور نبأ ثورة مارتز بجنوب أفريقيا (على سبيل المثال) وحذرت الجميع لإبقاء الأمر سراً ، فلا تسرب الأخبار حتى لا تثير الفظائع التى ارتكبت الرعب ، ولم تكن تلك الفظائع ذات أهمية عند الحلفاء بقدر ما أثار مخاوفهم انضمام تركيا إلى دول الوسط . إن المدى

الزمنى معيار طبيعى لوضع حدود لكل الأمور ، والأخبار المثيرة يبقى لها بريقها بعدما يزيد على الشهر أو عبر الكرة الارضية .

كان التخلص من رعايا الأعداء أقل حساسية وأكثر صعوبة ، فلا يمكن أن يصدق أحد أن الوزير النمساوى والقائم بالأعمال الألمانى كانا (فى ٢٤ أغسطس) لايزلان يعملان ضدنا بنشاط .

تقرر اعتقال الكثير من الألمان وبعض النمساويين ، ولكن كان هناك أفراد - يحملون الجنسية النمساوية خاصة - من إستانبول وأزمير حصل أجدادهم أو أباؤهم على الجنسية النمساوية لما توفره لهم من حماية ، وكان بعضهم قد تعلم فى إنجلترا ويؤيدون تمامًا موقف الحلفاء . وبدا من الخطأ سياسيا واقتصاديا تطبيق قرار الاعتقال على الجميع آليا دون تمييز ، وقد تدخلت شخصيا فى بعض الحالات التى لم يحدث منها ما يجعلنى أندم - فيما بعد - على ذلك . وقد تلقيت خطابًا من مدير البريد البريطانى يشكرنى على إنقاذ جولد شتين من الاعتقال ، ويصفه بأنه من أهم وأكفأ العاملين فى إدارته .

وقد فقد جميع رعايا الأعداء وظائفهم بالحكومة المصرية ، كما صودرت محلاتهم وممتلكاتهم ، وهو تصرف حتمى أدى إلى تحطيم معظمهم ، ولكن الأعمال المالية والتجارية البريطانية لم تكن على درجة من سرعة الحركة تمكنها من الاستفادة من وراء تصفية مصالح الأعداء فى مصر .

لذلك دعوت فيليب جريفز أن يكتب فى التايمز وغيرها من الدوريات التجارية داعيًا ، قارعًا طبول التنبيه لتجارنا الجامدين حتى يدب فيهم نوع من الحياة ، فقد تبين أن الشركات النمساوية والألمانية تفوق طاقتهم ، ومازال الأمر كذلك حتى الآن حتى فى المجالات التى كنت أظن أننا تفوقنا فيها ، وكان من المبادئ المتقبلة - بدرجة ما - فى القاهرة ، أن تكون محلات الخياطة ، والخردوات ، والبقالة ، والتصوير ، وصالات الشاى فى يد الألمان تحت الحماية البريطانية الفعلية ، رغم أنه يبدو للمراقب الخارجى أن بيع الكتب الإنجليزية وإدارة أماكن ممارسة عادة إنجليزية (تناول الشاى) فى الساعة الخامسة بعد الظهر لابد أن يقوم بها الإنجليز . والآن بعد تصفية تلك

المنافسة تماماً ، إذ أغلقت مكتبة دايمر ، ومنعت صالات الشاى ومحلات التصوير الألمانية من العمل ، لم يقم أحد بمحاولة الحلول محلهم ، وجمع الأموال الجاهزة للإنفاق . وقد شكا إلىّ الكثير من المصريين أنهم لا يستطيعون تناول كوب من الشاى فى محل إنجليزى . وقد شعرت شخصياً بالخجل لقيامنا ببيع الكتب البيضاء المتنوعة والنشرات التى كنا نصدرها خلال الحرب من خلال وكلاء فرنسيين أو يونانيين أو إيطاليين . وكذلك عندما علمت من موظفى الحكومة المصرية أن عطاءات الملابس والآلات لا ترسو على شركات إنجليزية إلا نادراً .

وكانت مكتبة دايمر - سالفة الذكر - بالقرب من فندق شبرد مثالاً حيا لذلك التهاون ، فقد كانت المكتبة تحتل موقعًا رئيسيا يؤهلها لإدارة وكالة دعاية ، إضافة إلى كونها عملاً تجاريا مربحًا ، ولكن لم تبد أى مصلحة أو أفراد فى مصر أو إنجلترا اهتماماً بها ، رغم أن القيمة التى عرضت لبيع رصيد المكتبة وترخيصه كانت فى حدود الألفى جنيه ، حتى اللورد نورثكليف أبدى أسفه - عندما رأى حماسى لذلك - لأنه لا يستطيع قبول اقتراح إقامة « نادى التايمز للكتب بالقاهرة » ، وانتقلت المكتبة إلى ملكية مستثمر يونانى هو « ليفاداس » .

نفدت نقود عبد الرحيم الدمرداش باشا فى باريس ، ولما كانت معظم أرصدته فى بنك ألمانى (رغم تحذيرى له بخطورة ذلك قبل سنوات) فقد ظن أنه عند عودته إلى مصر يستطيع بيع بعض من أطيانه بثمن بخس ليواصل متابعة حياته ، ولكن زوجته قالت له ، وهى تسحب حقيبة ثقيلة مملوءة بالمال من تحت البلاط ، هل تصور يوماً ماذا تفعل بالنقود التى كانت تلح فى طلبها منه ؟ وتناول الرجل حقيبة النقود ، وأحصى ما بها ليجد المبلغ ٦٠٠ جنيه .

لقد ذكرت أن شغلنا الشاغل كان التهديد التركى لقناة السويس لا لما قد يترتب عليه من آثار عسكرية ، ولكن لما قد يكون له من أثر على مصر المسلمة ، فقد كانت كل المؤشرات الواردة فى الرسائل التى اعترضنا طريقها ، وفى الصحافة التركية تشير إلى الحرب . ونشرت جريدة « العدل » - وهى الصحيفة العربية الوحيدة التى تصدر فى إستانبول - فى العاشر من أغسطس مقالاً جاء فيه : « مصر العزيزة ، أرض

الفراعنة ، وموقع كرسى العزيز ، أمل العرب والفرس .. انظرى كيف بخسك العالم حقك وحقوق البشر حتى أصابك الضعف .. لقد ظلم الآخرون مصر ، ولكن الأتراك كانوا رفقاء بها . فإذا لم يقم عرابى – جعل الله قبره جحيمًا – بالفتنة ، ما تعرضت مصر للاحتلال . ويدين المصريون للأتراك بالذوق ونبل الإحساس ، فقد تعلموا من الأتراك كيف يأكلون ويلبسون ويعيشون ، ويدين لهم المصريون بحسن النظام وجودة الإدارة ، ونبل المقاصد . والحق أن المصريين يعلقون آمالهم على الترك .. » . ولا شك أن الأتراك علقوا بدورهم أملهم على المصريين ، ولكن أيًّا من تلك الآمال لم يتحقق .

تناولت الغداء مع حسين رشدى باشا وعدلى يكن باشا فلمست منهما الود والصداقة ، ولكنى وجدتهما يريدان أن يعرفا بالضبط موقع البلاد من تلك الأحداث ، وفهمت أنهما يتطلعان إلى أن نقوم بإنهاء تبعية البلاد لتركيا ، وأتمنى أن نستطيع قطع الصلات بتركيا بطريقة لا تضر بما نريد تحقيقه من مكاسب فى هذه الحرب .

وفى الملاحظات التى كتبتها لأضمنها تقريرى الأول عن الأوضاع فى مصر ، لاحظت أن هناك تباطؤًا فى إيقاع تدفق المعلومات من الأقاليم . ويمكن إرجاع النقص الشديد فى المعلومات الواردة من المدن الإقليمية إلى تحذيرات المراقبين من الشوام والمسيحيين والأقباط واليهود والأرمن ، ففى بداية الحرب بدت فى بعض الدوائر موجة من المعاداة للإنجليز والتأييد للألمان أدهشت الأوروبيين وحيرت المراقبين المصريين . وكنا نتوقع تفاقم الشعور المعادى لبريطانيا من جانب رجال الحزب الوطنى المتطرفين ، كما أن التحالف الإنجليزى – الروسى لم يكن مستساغًا عند المسلمين وعائلات اليهود النمساويين ذات الوزن الكبير بالإسكندرية . وكانت الطبقة العليا – فيما عدا العائلة الخديوية التى كانت عندئذ فى مفترق الطرق – والطبقة الدنيا التى تأرجح جانب منها بين هؤلاء وأولئك ، كانوا يقفون إلى جانب بريطانيا . يهز المسلمون المتدينون رءوسهم قائلين « نتمنى من بعيد أن يحقق الأتراك النجاح » . أما الأثرياء والأكثر معرفة يدركون أنه حتى لو صحت المعلومات القائلة بفظاعة الألمان وبطشهم بالمستعمرات ، فإن تقدمهم يعنى استبدال شيطان مجهول بالشيطان الذى نعرفه .

وكان مما يلفت النظر فى التيار المعارض للإنجليز هو حدته فى أوساط الطبقة الوسطى المحلية من الأتراك والجراكسة والمحامين والصحفيين المتطرفين ، وانتقلت عن طريقهم إلى الآخرين الفكرة القائلة بأن لمصر مصلحة فى انتصار الألمان . وقدمت ألمانيا باعتبارها الدولة الكبرى صديقة الإسلام التى لم تستول على أى بلد إسلامى ، وتمت الإشارة دائمًا بكثير من المبالغة إلى اللفتة النبيلة للقيصر الألمانى عند زيارته للشام وإهدائه لتركيا سفينتين حربيتين بدلاً من السفينتين اللتين استولى عليهما الإنجليز فى وقت كانت الدولة العثمانية فى أمس الحاجة إليهما .(ولم يتم وضع حد لهذه الدعاية إلا بعد إبعاد النمساويين والألمان الرسميين وغير الرسميين من مصر) .

وأشيع أنه فى حالة انتصار الحلفاء ، سوف تحتل روسيا إستانبول ، وأن هناك برقيات إنجليزية وفرنسية تشير إلى أن نصف الأسطول البريطانى قد أغرق ، وأن الألمان اجتاحوا باريس ، وأنهم بعد الانتصار على الإنجليز سوف يحررون مصر من الوجود البريطانى لتعود إلى السيادة التركية ، ومعنى ذلك أن البلد سيحكم بالأسلوب القديم عن طريق الباشا وبطانته ، أو تمثل مصر فى البرلمان التركى بعدد من النواب المصريين ويتولى البرلمان إدارة الولايات الباقية من الإمبراطورية العثمانية .

وزعم بعض كبار المصريين ممن كانت لهم علاقة بإستانبول من الطبقة العليا أنهم سمعوا أن تأكيدات قدمتها حكومة جلالة الملك إلى الباب العالى بأن الوضع الحالى لمصر لن يتغير طالما بقيت تركيا هادئة . ولما كان من المفترض فى جميع الأوساط الدولية أن يعلن ضم مصر إلى الإمبراطورية البريطانية أو فرض الحماية عليها فى المستقبل القريب ، فقد أثارت هذه التأكيدات بعض الدهشة والارتباك ، وصدرت إشارات واضحة إلى أن تغييرًا لابد أن يدخل على النظام ، يراعى فيه الإبقاء على وضع الاحتلال دون المساس بإحساس المصريين « بكيانهم الوطنى » ، ولكنه قد لا يلقى الترحيب . وأشير إلى أن نقل السيادة من السلطان إلى جلالة ملك بريطانيا مع ضمان « الاستقلال الذاتى » لمصر ، أو « الاستقلال » مع إلغاء الامتيازات الأجنبية ، قد يؤدى إلى إراحة ضمائر الموالين لتركيا ، ويركز التطلعات الوطنية محليا ، ويؤدى إلى تلاشى التحمس للجامعة الإسلامية . وكانت الرغبة فى إيجاد من يتحمل

المسئولية فى هـذه الظـروف الانتقالية تعود إلى قلق الوزراء المصريين من استمرار غياب الخديو (١) .

وجاءتنا التقارير من الشام تفيد أن الحكم العثمانى يزداد إرهابًا ، فكتب أحد المراسلين الصحفيين من بيروت يقول : « منذ أرسلت لك الرسالة الأخيرة فى الخارجية البريطانية يفر المسلمون (الذين ضللتهم إستانبول بمقولة عدوان الحلفاء) إلى داخل الشام » . وهبطت علىّ تحذيرات كثيرة من الشخصيات المريبة التى أقابلها دون إدراك لحقيقتها ، وبسبب هذا الارتباك البائس الشديد ، قصرت صلاتى على من عرفتهم منذ عشر سنـوات ، وعلى الروابط القوية والواسعة التى استطعت إقامتها خلال تلك السنوات ، وهى صلات لم تخيب ما عقدته عليها من آمال ، حسبما أعتقد .

وكان هناك اتجاه للشك فى خيانة الضباط والموظفين المصريين لنا ، وهو اتجاه يعد فى رأيى ظالمًا وخطيرًا ، وقد أنفقت الكثير من الوقت والجهد فى كتابة المراسلات التى كنت أصر فيها على ضرورة الثقة فى الجميع ، أو تخوين الجميع ، وبعبارة أخرى إما أن نثق فيهم أو ننتهى تمامًا . وفى طقس بداية الخريف الحار الرطب ، كانت تلك المشاغل وغيرها مدعاة للتوتر . وقد عقدت العزم منذ بعض الوقت على الذهاب إلى الإسكندرية بضعة أيام للتخلص من ضغوط العمل ، فلا أدرى إلى متى أستطيع بدنيا تحمل إجراء مقابلات مع العديد من الأفراد من التاسعة صباحًا حتى الواحدة والنصف بعد الظهر ، سبعة أيام فى الأسبوع ، وبأربع لغات دون وجود من يساعدنى فى هذا العمل .

ولكن ، أخذ يتضح لنا يومًا بعـد يوم أن الحملة الإسلاميـة الألمانية - التركية على وشك النجاح ، إلى درجة حث الحكومة العثمانية فى أى لحظة لإعلان الحرب على الحلفاء بما فيهم بريطانيا - التى ظلت صديقة للدولة العثمانية على مدى نصف القرن .

(١) معلوماتى هنا مستقاة من سكان المدن الذين تعرضوا للدعاية ، والذين لم يكن لديهم ما يخشون عليه ، فانتظروا لحظة التسليم ، وفى أغسطس ١٩١٤ كانت الأقاليم موالية للإنجليز لا عن حب ، ولكن حرصًا على ضمان تسويق قطنهم . وكان النقيض عند نهاية الحرب مأساويا .

واستمرت تركيا فى إزعاجنا بحشد أعداد كبيرة من قواتها على مسافة بعيدة نوعًا ما عن حدودنا فى سيناء حتى تنفى عن نفسها تهمة اعتزام العدوان . وكانت السلطات العسكرية ترى أن الهجوم البرى عبر سيناء عمل مقضى عليه بالفشل ، ولكن الكثير من الشوام والعرب والتقدميين عامة كانوا يعلقون الآمال على أن ذلك الهجوم سوف يتم ، وأنه سوف يقود إلى بداية تفكك الإمبراطورية العثمانية . وبدأت الأموال تتدفق تدريجيا على « صندوق أمير ويلز » بعد ثلاثة أسابيع من تلقى الأخبار المشجعة ، لأنه رغم عدم وجود ما يدعو المصريين إلى كراهية ألمانيا وبغض الأتراك ، فإنهم كانوا لا يزالون مبهورين ومخدوعين بالدعاء « للحاج محمد غليوم » (القيصر وليم – قيصر ألمانيا) على منابر المساجد بالشام ، حتى إن موقفهم اتسم بالحرص على عدم إظهار الميل تمامًا لنا ، تحسبا للظروف فى حالة تحول الأمور لغير مصلحتنا . وقد سارت القوات الهندية عبر شوارع القاهرة ، وقد رأى البعض أنهم يفتقرون إلى وسامة الترك ، ولكنى أراهم على درجة عالية من الانضباط ، وظن المصريون أن الجنود الآسيويين الآخرين يابانيون يرتدون الزى العسكرى البريطانى ، ولم أبذل جهدًا لنفى الشائعة ؛ لأن المصريين لديهم إعجاب شديد باليابانيين ويعتبرون أن معاداتهم لروسيا فاتحة النهضة العامة فى الشرق [٢] .

وعندما أماطت تركيا اللثام عند نهاية أكتوبر ، وجاء تفجر التوتر مبعثًا لارتياحنا ، فقد علمنا أن ألفين من البدو المسلحين قد عبروا حدود سيناء واحتلوا الآبار على مسافة عشرين ميلاً داخل سيناء ، وتلقت لندن برقية مفادها أن قوارب الطوربيد التركية أغرقت عبارة روسية فى ميناء أوديسا ، وبذلك أصبح عدم وقوع الحرب بعد ساعات أمرًا مستحيلاً : لأن الأتراك لن يوقفوا البحرية الألمانية والبعثة العسكرية الألمانية عن تطوير الموقف ، وهم الذين علقوا كل آمالهم عليهم . وأصبح الصدام العثمانى – الروسى معروفًا فى مصر بسبب بعض الإهمال من جانب الرقابة على

(٢) كان وصول القوات الهندية موضع ترحيب ، ولكن رجال الحزب الوطنى المصريين زعموا أن الإنجليز يقودون الهنود كالحمير ، وأنهم لن يقبلوا الاشتراك فى القتال . وكان الهنود – من ناحية أخرى – يحتقرون المصريين ، ويعتقدون أن المصريين ليست لديهم تقاليد يتمسكون بها .

الصحف ، التى سمحت بنشر برقية لرويتر وردت إلى بورسعيد ، رغم أن لديهم تعليمات بعدم نشر البرقيات التى وصلت إلى القاهرة والإسكندرية .

ونتيجة لذلك تلقيت سيلاً جارفًا من التساؤلات حول وضع هذا البلد (مصر) ، فالذين تجرى الدماء التركية فى عروقهم كانوا فى وضع صعب حساس [٣] . فمشاركة الجيش المصرى فى الحرب التركية – الإنجليزية يعد صدمة للتقاليد التى تربوا عليها ، وقد جاءنى ذات صباح (على سبيل المثال) جعفر بك والى ، وهو جركسى ، وكيل وزارة الداخلية ، وأخبرنى صراحة أن الأخبار سببت له الضيق مما دعاه للحضور إلىَّ للاطمئنان ، ولما كان هناك ١٢٠ بدويًا ينتظرون مقابلة الجنرال مكسويل لهم (وكان علىَّ الترجمة له) فقد كان حضور جعفر والى فى الوقت غير المناسب . وقد دعوت ذات مساء حسين رشدى باشا رئيس الوزراء وعدلى يكن باشا وزير الخارجية لتناول العشاء معى ، فوجدتهما يعانيان التوتر ، وهددا بالاستقالة إذا لم يكن لدينا القدرة على أن نقدم لهم بعض التنازلات على طريق الحكم الذاتى أو « الإدارة الذاتية » ليقدموها لبلادهم فى حالة إعلاننا الحماية على مصر ، وقد تنبأت بهذا الطلب بعد أسبوع من عودتى من الإجازة ، ويسعدنى أن أقول إننى أرسلت بهذا التنبؤ إلى الخارجية فى مذكرة تصف الأوضاع فى مصر ، غير أن شيئًا لم يتم خلال شهرين منذ أرسلت المذكرة ، وها نحن الآن نواجه أزمة ، وإن لم يكن من العسير أن نجد من يتولى الوزارة أو رئاسة الوزراء (وكان حشمت باشا مستعدا لذلك) ولكننا لا نستطيع التأكد من قدرة من نختارهم لهذه المناصب على نيل احترام المصريين ، والفوز بثقة البلاد .

ولم تكن مصر هى البلد المسلم الوحيد الذى أصابه الحرج من هذا الموقف ، فقد أبلغنى صديق تونسى أنه قد طلب من القنصل العام الألمانى أن يغادر تونس عند بداية

(٣) كانت البيانات التى يصدرها قائد الجيش الرابع التركى توزع سرا فى مصر ، وتضمنت فتوى شيخ الإسلام بإستانبول يبيح فيها للمسلمين الذين ينتمون إلى بلاد تحارب بلاداً إسلامية ، أن يحاربوا ضد قوات بلادهم لمنعهم من الاعتداء على إخوانهم المسلمين حتى لو استشهدوا فى سبيل ذلك ، فإن مصيرهم الجنة .

الحرب ، ورفض ذلك ما لم يتلق كتابًا بهذا المعنى من الباى ، فقابل المقيم الفرنسى الباى وأمره بإعلان الحرب على ألمانيا ، فارتعدت فرائص الباى وتوسل إلى المقيم الفرنسى أن يعدل عن ذلك ، ولكنه أكد له « إنها أوامر باريس » ، فوقَّع كتابًا يطلب فيه من قنصل ألمانيا مغادرة بلاده خلال عشرين يومًا .

وتم إعلان الأحكام العرفية فى مصر يوم ٢ من ديسمبر . وقد أبدى المقيمون الأجانب خوفًا لا مبرر له من الترك، حتى إن راهبتَيْنِ فى المعادى فى شرخ الشباب ، اتفقتا على أن تطلق كل منهما الرصاص على الأخرى عند وصول الباشبوزق (الجنود العثمانيين) .

وكان على حكومة صاحب الجلالة أن تتأهب الآن لتوجيه ضربة مضادة فى مصر . ويرز سؤالان أساسيان : ماذا سيكون عليه وضع مصر الدولى ؟ ومن سيكون حاكمها المباشر ؟

وقد عجز الخديو عن تأكيد ذاته قبل تجمع سحب الحرب ، كصديق (لبريطانيا) فى ظل اعتدال المناخ السياسى ، وذلك بغض النظر عن حسناته ومساوئه (التى اتخذ منها موقفًا) ، وخاصة أن الاتفاق كان تاما بين السلطات المصرية والبريطانية على أن عودته إلى مصر من إستانبول ليست محل نقاش . وأبدى الوزراء المصريون تطلعًا إلى عزله من منصبه ، ولم تكن تركيا أو غيرها من دول العالم تتصور أن تتسامح دولة محتلة عندما تهاجمها الدولة صاحبة السيادة ، فتبقى على تلك السيادة التى كانت كلمة بلا مضمون على مدى نصف القرن . وكان السؤال الملح هو أى نوع من الحكومة تحل محل السيادة الملغاة ؟ وكان يجب العمل على إلغاء الارتياب فى الاحتلال بما ارتبط به من آمال بعيدة ومخاوف لا مبرر لها ، ويجب ألا يكون اختيار الحاكم الجديد موضعًا للشك .

كان الأمير حسين كامل معروفًا ومحترمًا من المصريين كمهتم بالزراعة ، وكان معروفا بين الأجانب والسلك الدبلوماسى كرجل عظيم تعلم أصول السياسة فى بلاط التويلرى ، وباعتباره شقيق الخديو الراحل توفيق ، وابن الخديو إسماعيل العظيم ، وكان حسين كامل طموحًا ، ولا يرفض - من حيث المبدأ - تولى العرش ، ولكنه كان

يدرك وضعه فى العالم الإسلامى كخلف لحاكم شرعى ، فرضه « الاحتلال المسيحى » أو فرضته الحماية ، ولذلك عندما عرض عليه المنصب فى نوفمبر رفضه مرتين ، ولكن الوقت كان يمر بسرعة ، وتضايقت الحكومة البريطانية من التأخير فى حسم الأمر ، فاقترحت ضم مصر إلى الإمبراطورية البريطانية .

وكان هناك فريق قوى فى لندن يدعو إلى ضم مصر ، حتى إن دار المعتمد البريطانى بالقاهرة أبلغت يوم ١٣ نوفمبر أن قرار الضم قد اتخذ بالفعل ، وأن نص القرار قد كتب انتظارًا لإضافة تاريخ الإعلان عنه ، وقد جاءت هذه التعليمات بمثابة صدمة للعاملين فى الميدان ، فقد أصر كرومر وأكد جورست ، ودعم كيتشنر فكرة أن الاحتلال إجراء مؤقت ، وأنه يرمى إلى إعداد المصريين لتولى حكم أنفسهم بعد الاستقلال ، وكانت تلك هى السياسة المعلنة للوزارات البريطانية المتعاقبة على مدى أربعين عامًا . ومازلنا نتلاعب بفكرة « قصاصة الورق » تلاعبًا ثقيلاً ناجحًا مبررًا ، فإذا عدنا إلى الوراء الآن ، وتراجعنا عن كل تلك التأكيدات لنخلع عن هذا البلد مظهر الشخصية الذاتية ، فإن ذلك يعنى فقدان الثقة نهائيا فى وعودنا فى الشرق الأدنى والأوسط جميعًا ، وقد قبل الوزراء المصريون تحمل مسئولية الإدارة ، واستطاعوا الحصول على تأييد الجناح الدينى على أمل الحصول على الحماية البريطانية ، فإذا ضمت بريطانيا مصر ، كان عليهم الاستقالة من مناصبهم ، مما قد يؤدى إلى نتائج وخيمة لا يمكن التنبؤ بها ، وقد أرسل تشيتهام احتجاجًا إلى الخارجية البريطانية ، طالبًا فيه العدول تمامًا عن فكرة الضم ، وأن يتم الأخذ بفكرة الحماية ، وبذلك يصبح الأمر مجرد نقل للسيادة وإعادة ترخيص وتقنين الاحتلال باعتباره شرعيا وليس مجرد أمر واقع ، والمحافظة على حكم أسرة محمد على ، بالقانون الأساسى والوضع الدولى الذى تمتعت به مصر قبل الاحتلال وبعده .

وقد أسعدنا وأراحنا قبول حكومة صاحب الجلالة للفكرة البديلة للضم وهى الحماية فى ١٩ نوفمبر ، ولكن كان يجب أن يتم شغل العرش قبل إصدار إعلان الحماية ، وتردد الأمير حسين كامل فى القبول سعيًا للحصول على شروط أفضل ، وكشف النقاب عن المفاوضات التى جرت معه ، وتعرض لضغوط قوية من الأسرة الحاكمة ، كما حرضه مبعوثون سريون من إستانبول على إطالة المباحثات حتى

منتصــف يناير (١٩١٥) - حيث يكتمل استعداد الأتراك لغزو مصر - وعندئذ يقطع المباحثات ، ولا أظن أن الأمير تأثر كثيراً بهذه المحاولات ، رغم أن الحريم فى تلك الأيام كن جميعًا تركيات ، ورغم الضغط المحلى الذى كان - رغم قوته المحدودة - مؤثراً . ووضع الأمير حسين كامل فى اعتباره ضرورة تحقيق رغباته بالنسبة لمسألة الوضع الدولى ، فقد كان يرى وجوب تحول مصر إلى « مملكة » يحكمها « ملك » ، وكان من المستحيل أن يحمل أمير تابع نفس لقب سيده (ملك إنجلترا) ، فجاسرت باقتراح لقب « سلطان » الذى كان صلاح الدين أول من حمله فى مصر ، والذى كان لقب رأس الدولة العثمانية صاحب السيادة على مصر ، وقد قبل الطرفان اقتراحى . وكان لقب « صاحب الجلالة » مرفوضاً لاقترانه « بالملك » للسبب سالف الذكر ، وكذلك لقب « صاحب السمو » غير المرغوب فيه لارتباطه بالعهد السابق (الخديو) ، ومن ثم كان لقب « صاحب العظمة » مناسباً ، حتى يكون التمييز واضحًا بينه وبين العديد من الأمراء الذين يخاطبون بلقب « صاحب السمو » ، ولكن لم يتم اتخاذ القرار ، وظل كل طرف غير ملتزم بشىء ، وقد يؤدى أى تحول سلبى فى موقف الحلفاء على إحدى الجبهات إلى إضعاف موقفنا ، ويجعلنا نرفع من سقف الإغراء حتى يتم قبول العرش .

وقد تحدثت من وقت لآخر مع الأمير حسين كامل حديثًا غير رسمى بحكم وضعى الوظيفى المتواضع ، وفى ذاكرتى التعقيدات والإهانات التى ارتبطت بالأزمة الوزارية لمصطفى فهمى باشا ، واستمرت المفاوضات لمدة شهر ، وأخيراً ضاقت شقة الخلاف على أساس أن تعرض الحكومة البريطانية العرش على الأمير حسين كامل بلقب « سلطان » ، ولا شىء أكثر من ذلك ، وقد تصرف الأمير بقدر كبير من الوقار ، ولكنه أشار إلى أن الوثيقة لم تتضمن وراثة العرش فى عائلته أو - تحديداً - أسرة محمد على ، وأنه لم يعط حق تحديد العلم ، كما لم يكن هناك تأكيد أن يكون لمصر علم خاص ، وأنه لم يبلغ عما إذا كان المصريون سيتحولون إلى رعايا بريطانيين أم يحتفظون بهويتهم وجنسيتهم المصرية تحت الحماية البريطانية . وقد اعتبرت أن له الحق فى استيضاح هذه النقاط الثلاث ، ولكن كانت لدينا تعليماتنا ، وكان يبدو من المستحيل حمله على القبول ، وكان البديل إعلان الحماية دون أن يكون هناك حاكم مصرى على الإطلاق .

كان فرض العلم البريطانى الذى يتضمن ثلاثة أشكال للصليب قد يؤدى إلى آثار سيئة فى مصر ، وقد تترتب عليه آثار أكثر سوءًا فى الجزيرة العربية ، كما أن الحزب الخديوى – التركى الكامن كان لا يزال موجودًا ، وقد تصبح قوته لا حدود لها عندما يتضح أننا عجزنا عن أن نجد مطالبًا منافسًا بالعرش يقبل به دون الإساءة إلى كرامته ، وقد أبلغنا الوزراء صراحة ، أنهم لن يستمروا فى مناصبهم إذا ظل العرش خاليًا .

وفقدنا جميعًا الأمل ، وأعددنا برقية تتضمن رفض الأمير حسين كامل للمنصب، قمنا بكتابتها وطبعها على الآلة الكاتبة وأصبحت جاهزة على مكتب تشيتهام لتشفيرها ، وفى آخر محاولة قبل إرسال البرقية ، لجأت إلى على شعراوى باشا وهو مالك كبير ثرى كان طوال حياته صديقًا للأمير حسين كامل ، وكذلك لجأت إلى أمبرواز سينادينو ، وهو يونانى كان على صلة وثيقة وحميمة بدار المعتمد البريطانى طوال السنوات الخمس والثلاثين الماضية ، وقد ذهب كل منهما إلى الأمير منفردًا ، وكأنه لا يعلم شيئًا عن الظروف (وكنت فى الحقيقة قد أطلعتهما على قدر محدود منها) ليقول له إن التوتر والقلق يسود البلاد لتأخر صدور الإعلان ، ويتمنى ألا يكون سموه مسئولاً عن هذا التأخير ، وألا يؤدى ذلك إلى ظن الإنجليز أن ذلك يضر بمصالحهم فيقدمون على عمل يوقع البلاد فى كارثة .

وتلقيت مساء الأحد مذكرة من سينادينو يقول فيها : « عزيزى ستورس .. لقد بذلت أقصى جهدى على مدى ساعة ونصف ساعة مع صاحب السمو ، وهو ينتابه القلق من التفويض المعطى لتشيتهام ، ويطلب أن يراك غدًا الاثنين ظهرًا بدائرته ، وسوف يتحدث معك حديثًا من القلب للقلب » ، وقمت بحث تشيتهام على إرجاء إرسال برقيته النهائية ، وتحدثت إلى الأمير هاتفيا ، طالبًا منه أن يسمح لى بلقائه الليلة بدلاً من الغد ، فاستقبلنى بالترحاب فى قصره بمصر الجديدة فى مقابلة استمرت من العاشرة حتى الثانية عشرة مساءً .

ولم يكن الإيجاز والدخول مباشرة إلى لب الموضوع من طباع الأمير حسين كامل ، وبدأ بالإشارة إلى العديد من المواقف التى أثبت فيها صداقته ووده لبريطانيا

العظمى ، وكدت أفقد الوعى وهو يروى لى كيف قام بنقل بعض الأشجار من حديقته بالجيزة إلى حديقة كرومر هدية منه لزوجة كرومر الأولى ، حتى كدت أقول له : « سيدى ادخل فى الموضوع ! » وأخيراً طرق الموضوع ، متحدثاً معى بلا تحفظ أنه يريد أن يقبل «السلطنة» ، ولكنه لا يستطيع قبولها من يد حكومة صاحب الجلالة ، فرجوته أن يثق فى حكومة صاحب الجلالة من أجله شخصيا ومن أجل بلاده ، وخاصة أن الحكومة البريطانية أعادته من منفاه ، ولم يبد منها أى تقصير نحوه ، ولكنه تمسك بموقفه الرافض ، وعندما بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف قلت له إننى أخشى أن أكون قد جرت على وقت راحته ، فسألنى عما إذا كنت سأعود من هذه المقابلة يائساً ، فقلت « لا ... سوف أعود بانطباع عن أمير لا يثق باللورد كيتشنر ، ولا بالحكومة البريطانية » ، فتراجع قليلاً وقال : « لا يمكن أن أجعلك تخرج من هنا بمثل هذا الانطباع ، فماذا تظن أنه من الأفضل عمله ؟ » فاقترحت عليه أن يدعنا نقدم طلباً قويا لمسألة الوراثة ، وأن يرجئ مسألة العلم والجنسية لحكمة المندوب السامى البريطانى الذى يوشك على الوصول إلى مصر .

وقلت له إن سلطاناً يجلس على العرش ، أقوى مركزاً فى التفاوض من مطالب بالعرش مهما تكن صورته ، وإن وزارة الخارجية البريطانية قد تمنحه قدراً كبيراً من الثقة ، وقدراً من حرية الحركة فى المستقبل عندما تتبين حسن نواياه . ففكر مليا ، ثم قال : « إذا ضمنت لى أن المندوب السامى سوف يتخذ فى المسألتين الأخريين قراراً لصالحى ، وأن موضوع الوراثة سيقر ، فإننى أقبل » . فقلت له : إن هذا ليس قبولاً على الإطلاق ، وإنما إرجاء زمنى لمطالبة . وأبديت أسفى لتمسكه بمثل هذه الأشياء البسيطة التى تحول بينه وبين ما يجب عمله ، وإننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً الآن سوى إرسال البرقية التى تتضمن رفضه . فقام بوداعى بحرارة مؤكداً تقديره لحرصى على ألا تقع السلطنة فى يد من لا يستحقها .

وقد تركته عند منتصف الليل وأنا معجب بتمسكه بكرامته ، موقن بعدالة قضيته ، وأبلغت تشيتهام بما توصلت إليه ، وفى الصباح الباكر من اليوم التالى استدعى الأمير حسين كامل الوزراء لمقابلته ، وأبلغهم بكل ما دار بيننا ، واتصل بى تليفونيا ليبلغنى

قبوله بالمقترحات التى تقدمت بها ليلة الأمس ، وزار تشيتهام (الذى لم يخف سروره) وسحب رفضه السابق ، وقدم اقتراحه الجديد الذى تم الإبراق به إلى لندن .

لقد أسهبت فى الحديث بقدر كبير من التفصيل عن الجهود التى بذلت من جانب دار المعتمد البريطانى ، لوضع تلك الآلة المتهالكة القديمة التى كانت لها قائدتها (الاحتلال البريطانى) لمصر فى مخزن المهملات ، لتوضع أسس السيادة البريطانية على مصر محلها .

وقد استقبل نقل السيادة على مصر من دولة إسلامية إلى دولة مسيحية - شأنه شأن غيره من انتصارات الحلفاء - فى الأقاليم بقبول أحسن منه فى المدن ، وقال الفلاحون والخفراء فى المنوفية لزميلى چون يانج إنهم مسرورون لتولية السلطان حسين؛ لأنه « رجل طيب يفهمنا ويفهم البلاد » . وفى مساجد القاهرة ، تكرر الدعاء لخليفة المسلمين ثلاث مرات ، وكانت الاستجابة فى كل مرة شاملة والأصوات مرتفعة ، بينما كانت الدعوات لسلطان مصر ضعيفة ولا تلقى استجابة من المصلين ، وارتدى طلاب مدرسة الحقوق رابطات عنق سوداء وبدا عليهم السخط ، وذهبت معظم طالبات مدرسة البنات الثانوية متشحات بالسواد . وعندما مر السلطان بميدان عابدين فى موكب التولية فى طريقه إلى القصر بالمنصة التى كان يقف عليها العمد والأعيان صفقوا له تصفيقًا ضعيفًا ، بينما كان كل منهم ينظر حوله ليرى ما يفعله الآخرون ، والحقيقة أن الكثيرين لم يصدقوا أن الهزيمة قد تحيق بالألمان ، وكانوا لا يزالون يتوقعون زحف الأتراك على مصر .

لقد استحق الأمير حسين كامل ثقة بلاده وأسرته الحاكمة وبريطانيا العظمى ، لتحقيقه فترة انتقال خالية من إراقة الدماء أو الاضطرابات ، وكان من شأن قدرته كرجل دولة ، والمزيد من حسن النوايا على الجانب الآخر ، أن يحقق علاقة أفضل بين مصر وبريطانيا .

« صباح السبت ، ذهبت بصحبة تشيتهام بعربة رسمية لتقديم التاج للسلطان الجديد ، وكان الرجل متوترًا ومنبهرًا بالجاذبية التى تضفيها المناسبة ، ولكنه بدا فى وضع لا بأس به ، وتوفرت فيه أفضل خصائص الملوك التى أعرفها . فى الساعة الثانية

والنصف بعد الظهر ذهبت - بناء على تعليمات سابقة - لمقابلة الأغاخان الذى وصل توًا إلى مصر لإقناع المسلمين المنزعجين بما يحققه الإسلام من فائدة ومنفعة من وراء التمتع بالحماية البريطانية . وقد أحببت الأمير (أغاخان) ، ولكن كان معه رجل هندى مسلم يسمى بيج - عضو بمجلس وزير الهند - وسوف يستقبلهما السلطان اليوم ، وبعد ذلك سيتناولان الشاى معى ليلتقيا مع رئيس الوزراء وعدلى يكن باشا الذى سوف أتركه معهما بعد ذلك .

وقد ركب تشيتهام ورجال دار المعتمد - مرة أخرى - العربة الرسمية التى سارت خلف عربة السلطان محاطة بالحرس لمصاحبته فى الطريق إلى قصر عابدين عبر الشوارع التى تحرسها القوات العسكرية ، وكان تشيتهام ورجاله أول من استقبلهم السلطان قبل غيرهم من علية القوم . وكنت قد اكتشفت فى الليلة السابقة أن خمسة من الأتراك قد اشتروا مسدسات براوننج وراحوا يتدربون عليها ، بقصد إثارة الاضطراب فى البلاده ، وإزعاج السلطات ، وكانت الشوارع مزينة نهارًا مضيئة ليلاً حتى بدت القاهرة أكثر تألقًا مما كانت عليه أيام الرخاء . وقد تأثر السكرتير الخاص للسلطان تأثرًا عاطفيا عند دخول سيده إلى قصر آبائه ، فانفجر باكيًا وأخذوه إلى حجرة جانبية لتهدئته وإنعاشه بكأس من الكونياك » .

وفى السادسة مساء قام السلطان برد الزيارة لنا ، وكلفنى تشيتهام بعمل كل الترتيبات الخاصة بذلك على النحو اللائق بحجة أننى على معرفة بكيفية استقبال السلاطين عند توليتهم العرش ، وكانت الساحة التى يقف فيها حرس الشرف معتمة لدرجة لا يمكن معها رؤيتهم ، فجعلتهم يصطفون حول الباب ، وأضأت كل أنوار قصر الدوبارة ليبدو الحرس واضحًا للعيان ، واستعرت فناجين قهوة مطعمة بالجواهر من أحد محلات التحف ، حتى تبدو دار المندوب السامى البريطانى فى عين السلطان على درجة كبيرة من الأبهة تليق بحكومة صاحب الجلالة .

وقد قدرنا احتمال إطلاق الرصاص أو القنابل على موكب السلطان فى الطريق إلى قصر عابدين بنسبة تتراوح بين ٢٠ - ٣٠ ٪ ، ودهشنا لأن ذلك لم يحدث ، فهل استطاع السلطان أن يجتذب أعداءه ؟ على كل ، حدثت محاولات الاعتداء عليه بعد

ذلك ، وقد أدهشنى أن عدد تلك المحاولات – خلال الحرب – لم يتجاوز مرتين ، كما أدهشتنى قلة الاهتمام على الصعيد العالمى باغتيال الحكام أو رجال السياسة الأجانب . وقد أثبتت فظائع بلجيكا وأرمينيا أن الامتناع لا يعود إلى تعقل المعتدين ، ولكن الأمر يتعلق بصعوبة العثور على قاتل مستعد للتضحية ، وعدم الفرار لينجو بنفسه .

* * *

وحسين كامل ، أول سلطان لمصر الحديثة ، كان الابن الأصغر للخديو إسماعيل وشقيقًا للخديو توفيق ، كان أكبر أبناء أسرة محمد على سنا ، وجاءت توليته تطبيقًا لمبدأ ولاية الأرشد الذى دفع الخديو إسماعيل الآلاف للباب العالى من أجل تغييره ، وقد خلف حسين ابن أخيه عباس حلمى الثانى ، وقد خلفه – بدوره – أخوه الصغير – السلطان ثم الملك فيما بعد – فؤاد الذى خلفه بعد موته عام ١٩٣٧ ابنه الوحيد الملك فاروق .

وكان السلطان حسين متوسط الطول ، وزاد تأثير ذلك عند ركوبه عربته الملكية سواء كان جالسًا أو واقفًا ، له عينان بهما مسحة حزن ، وشارب تركى كبير ، وطربوش طويل يميل قليلاً نحو اليمين ، وكان بارعًا بالغريزة والتدريب فى كل الأمور المالية والحكومية والمواقف تجاه المصريين والأجانب، مما يجعله ابنًا مثاليا لأبيه الخديو إسماعيل ، كما يبدو من كرمه الشديد ، وحرصه على أن يؤدى كل شىء بدقة ، وعدم التعصب ضد الأوروبيين . وكانت جاذبية شخصيته ضرورية لتأثيره الشخصى ، وكان على قدر كبير من المسئولية تجعل عرض أى مقترح عليه يتطلب عناية فائقة وإعدادًا جيدًا حتى يستطيع فى النهاية أن يوافق عليه ، وكان تعليمه وثقافته فرنسية على نحو ما يمكن توقعه ممن قضى جانبًا من شبابه فى بلاط الإمبراطورية الثالثة ، ولكن ذلك لم يؤثر – بأى شكل من الأشكال – على آرائه المؤيدة للإنجليز التى حافظ عليها بقدر من المخاطرة الشخصية طوال عهد الاحتلال ، وقد كوفئت الآن ودعمت بالحماية .

وفى أول وزارة فى عهده ، كان يكن كل تقدير لحسين رشدى باشا رئيس الوزراء ، ولكنه يخص عدلى باشا بثقته الشخصية بحكم الصداقة الطويلة التى تربطهما ببعضهما البعض ، وقبل بوجود سرى باشا دون حماس كبير باعتباره أمرًا

لا مناص منه ، وكان معجباً بذكاء عبد الخالق ثروت ، ولم يكن متحمساً لأى من وهبة أو حلمى . وكان حسين كامل يتمتع بذاكرة قوية يحفظ نصوص ما دار معه من أحاديث ، وهو يذكر التفاصيل بدرجة كبيرة من الدقة .

وكنت أراه بانتظام طوال العام الأول من حكمه ، فلمست فيه الكرم والنزاهة ، وكرم الضيافة ، وقد تغير الشعور تجاهه عندما ألقى مرض الموت عليه بظلاله ، ومازلت أذكر لقاءاتى الأخيرة معه .

وقد أثار إطلاق مصطلح « الحماية » على النظام الجديد المصريين والأجانب على السواء ، ولكنى لم أسمع ما يشير إلى ذلك عندئذ ، وقد ناقشت مع رئيس الوزراء استخدام مصطلح « الحماية » و « المندوب السامى » فطلب أن أمهله بعض الوقت للتأكد من سلامة المدلول على واقع الحال ، ثم اتصل بى هاتفيا مؤكداً عدم الاعتراض على استخدام المصطلحين بالعربية . ولم تكن العبرة بالمصطلح ذاته ، ولكن بما يمثله من حقيقة واقعة ، فهى أقرب ما تكون مناسبة لنظام حكم شعوب بربرية ، مما يجعل استخدامها فى مصر مثيراً للحساسية . كذلك كان الاعتراف باستقلال الحجاز ، وحرمان مصر من مثل هذا الاعتراف سبباً فى تفجير الموقف فى مصر بعد الحرب .

وفى ذلك الوقت تقريباً ، بذلت جهداً لتطوير عمل دار المندوب السامى . كانت الدار لا تزال فى وضع القنصلية العامة ، ولكنها من حيث الواقع مساوية لوزارة وحكومة إحدى مستعمرات التاج البريطانى ، تصدر التعليمات للوزارات والمصالح الحكومية ، ولكن بحكم تقاليد العمل الدبلوماسى يجب أن يمر كل شىء من خلال رئيس الديوان ، ولم يكن هناك ما يربط بين أ ، ب ، ج إلا إذا كان باستطاعة كل منهم أن يلم بكل شىء وكل فرد فى مدى زمنى قليل ، وإذا كان ذلك مناسباً من قبل ، فقد أصبح الآن مصدر ارتباك للإدارات . فقد تقدم مدير مصلحة الصحة العامة بمشروع للإصلاح ، حصل على رأى المندوب السامى فيه من خلال أحد أفراد السكرتارية الذى يمكن أن يستشار أيضاً فى مسائل خاصة بالتعليم والزراعة وغيرها ، وعندما يتصل المدير بالهاتف فى اليوم التالى ليستعلم عن شىء أو يقترح شيئاً ، فإنه يجد (أ) غير موجود ، و (ب)

مشغولا ، ويصبح عليه أن يلجأ لـ (ج) الذى لا يعرف شيئًا عن موضـوع عليه أن يدلى برأى فيه ، فيحتـاج إلى سمـاع القصة من أولها ، وأدى ذلك إلى إثارة ضـيق الموظفين الإنجليز والمصريين على السواء لغياب المتابعة الضرورية فى أمور الإدارة .
وقد تراكمت تلك الهموم على السكرتير الشرقى ، باعتباره أكثر الموظفين بدار المندوب السامى استمرارًا فى وظيفته . ورغم ما يعانيه فى نطاق عمله ، كثيرًا ما يستدعى للعمل على فك آخر الاشتباكات ، وقد طلبت فى المذكرة المختصة التى قدمتها أن يوزع العمل بحيث يصبح كل موظف على دراية تامة بكل فروع الخدمة التى تدخل فى مسئوليته أمام المستشار (رئيس الديوان) أو أمام المندوب السامى ، وأن تعد قائمة بتوزيع الاختصاصات تعمم على جميع المصالح الحكومية ، ولكن لم يهتم أحد بالمذكرة التى كان على إنقاذها بعد أسابيع من سلة مهملات متربة ، وظللت محتفظًا بها حتى دمرت مع غيرها من وثائقى فى حريق ١٩٣١ ، ولكن الأمور التى تناولتها كانت موضوع بحث اللجنة المنبثقة عن مجلس الوزراء عام ١٩١٧ التى سأتحدث عنها فيما بعد .

وبدأت أقاليم الريف المصرى تحس الحرب قرب نهايتها ، وقد يقال إن القاهرة والإسكندرية لم تشعرا بها نهائيًا إلا عندما انتهت بالفعل .

« كان هناك سباق للخيل بالأمس ، حضر العديد من الناس لمشاهدته ، كما اكتظت ملاعب التنس بالمتفرجين ، ويصعب الحصول على مائدة فى النادى ، الأسواق مفتوحة وتمارس بعض النشاط . ولكن ذلك لا يعنى إغفال القول إن الطبقة الدنيا من الطلاب والسياسيين والصحفيين مثيرى القلاقل ومطلقى الشائعات مازالوا هناك ، ولا يجد المرء عناء فى التعرف عليهم من تطلعهم المتوتر يمينًا ويسارًا خشية قيام أحد المخبرين المتعممين (الذين لا يحسنون عملهم أبدًا) باعتقالهم » .

والإسماعيلية – مقر قيادة قناة السويس – قد أصبحت مقرا لضباط الجيش البريطانى ، ولذلك أصبحت فنادقها مكتظة ولا يجد أصحاب المحلات وجها لمقارنة الرخاء الذى يتمتعون به سوى عام ١٨٦٩ عند الاحتفال بافتتاح القناة على عهد الخديو إسماعيل . وكل من يعرفون سيناء يدركون صعوبة قيام قوات تحمل المدافع

باختراقها وصولاً إلى قناة السويس ، ومع وصول طائراتنا الآن أصبح الخوف من هجوم تركى مباغت لا معنى له .

ولا توجد لدينا مشكلة مع الحدود الغربية ؛ لأن تأكيدات السنوسى تتوافق مع مصالحه فى ألا نتحد ضده مع إيطاليا . ويطوف الصحفيون الإيطاليون بالقاهرة معلنين عدم تأييدهم لبريطانيا ويشتكون من تعسف الرقابة معهم .

وفيما يتعلق بنظام حياتى فهو كالتالى : أستيقظ فى السادسة والنصف صباحاً ، وأقرأ أعمالاً أدبية حتى الثامنة ، وأذهب إلى قصر الدوبارة فى التاسعة ، أقرأ الرسائل وأمليها حتى العاشرة ، وأبدأ المقابلات التى تنتهى فى الواحدة والنصف بعد الظهر . وفيما بين الثالثة والثامنة مساء أوزع الوقت بين استراحة القيلولة والمشى وتناول العشاء ، وقد استمر ذلك طوال أيام الأسبوع (سبعة أيام أسبوعيا) منذ ١٨ أغسطس ، الذى يبعث طقسه على الضيق .

وكتبت بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩١٤ :

« خلال الأسبوعين الماضيين ، تغير مظهر القاهرة كثيراً للأحسن ، أصبحت الشوارع مزدحمة بالجنود الذين جاء معظمهم من أستراليا ، والمصريون يكنون لهم الاحترام ويخشونهم فى نفس الوقت ، وهم معروفون بعدم الانضباط ، وقد رأيت تراماً مليئاً بهم فى الساعة السابعة والربع صباحاً فى الطريق إلى الثكنات ، وهم جميعاً ينشدون « لا نريد العودة إلى البيت إلا فى الصباح » وكثيراً ما يتشاجرون فى المطاعم شاهرين مسدساتهم ، وكثيراً ما يتعرضون للاحتيال لأنهم لا يحملون إلا نقوداً فضية إنجليزية ، أما الوحدة القادمة من سيلان فقد تركت انطباعاً جيداً » .

وفى ٢١ ديسمبر ١٩١٤ كتبت :

« الأستراليون والنيوزيلانديون ينفقون بين ثلاثة وأربعة آلاف جنيه فى القاهرة يوميا ، وذلك من أموالهم الخاصة وليس من الاعتمادات المالية العسكرية التى زادت بزيادة القوات التى جلبت إلى مصر ، وتتمتع تلك القوات بالشعبية ، ولكنها تثير مخاوف الناس » .

ومازلت أذكر السير چون ماكسويل قائد عام القوات البريطانية فى مصر . فقد كان فى العقود الماضية يعمل فى وظائف إدارية ، وكانت خدمته فى الوحدات القتالية محدودة ، ولكنه أثبت فى تلك المرحلة الانتقالية المقدرة المتوقعة منه ، عرف واجبه كما عرف واجب الكثير من المصريين على مر الثلاثين عاما المنصرمة ، وكان حريصًا على قراءة كل شكوى أو طلب بنفسه واستقبال صاحبه ، وكانت أحكامه عادلة ، وكذلك القرارات التى يتخذها .

وجه السلطان الدعوة إلى أول حفل غداء يقيمه منذ توليه العرش ، وكان على شرف الأغاخان ، وذلك ليقدم له الأمير فؤاد وحسين رشدى وتشيتهام وشخصى مع بعض كبار المدعوين الآخرين الذين عقد الحرج لسانهم فلم يجدوا من اللائق الكلام فى حضرة السلطان ، وقد اتسم الأغاخان بالجاذبية الملحوظة . وهناك دعوة أخرى غدًا فى القصر لكبار الضباط الإنجليز (١٤ جنرالاً) لتناول العشاء مع السلطان ، ولا يعرف أحد منهم الفرنسية سوى ماكسويل ، أما السلطان فلا يجيد سوى ثلاث كلمات إنجليزية . وقد مر ذلك العشاء دون حدوث ما يعكر الصفو سوى تأخر الموسيقى عند كل نخب ملكى قليلاً .

تحظى السلطنة بالشعبية التى تفتقر إلى الحماس ، ويحتاج الأمر إلى بذل جهد كبير لإبقاء الرأى العام الحالى على ما هو عليه من اعتدال ، فالأخبار التى تأتى من قناة السويس مشجعة ، والكثير من أتراك الأناضول يهربون من وحداتهم ويلجأون إلينا ، مما أدى إلى زيادة شعبية السلطان نوعًا ما وقلل من العداء لنا وإن لم يقض عليه تمامًا ، فهم يشيعون أن الترك استولوا على القناة ، وأن بعثة عسكرية فرنسية جاءت لتصحيح الأخطاء التى ارتكبها ماكسويل .

ومازال الطلبة والصحفيون يكرهوننا ويعادون السلطان ، فإذا أعلنت البلاغات الرسمية عدد الأسرى الذين وقعوا فى أيدينا ، افترضوا وجود أعداد مماثلة من جنودنا وقعت أسرى فى يد الأتراك ، وتساءلوا : لماذا لا نأتى لهم على ذكر ؟ أو القول بأنهم جنود تنكروا فى شكل جنود أتراك وقعوا فى أسرنا ، فإذا كانت ملابسهم رثة وأحذيتهم ممزقة ، فقد فعلنا ذلك حتى نؤثر سلبيًا على جنود الخليفة .

وإذا ذهبنا إلى الإسكندرية لقضاء ثلاثة أيام ، قالوا إننا نتجه إلى الميناء لنكون بالقرب من البحر حتى يسهل علينا الهرب . فلا نهاية لحماقتهم . وأقوم يوميا بتجميع هذه الشائعات والرد عليها أسبوعيًا فى الصحافة العربية ، ولا تعمر هذه الشائعات طويلاً على أى حال ، ولكن مع غياب الخديو والترك والألمان عن المشهد تقل كمية الملح التى تضاف على الشائعات ، وتتلاشى تدريجيا (ولن يقضى عليها إلا الإصلاح وحسن الإدارة) .

الفصل الثامن

الاتصال بالشريف حسين وثورة الصحراء

(سبتمبر ١٩١٤)



إذا خضعت تركيا للإلحاح الألمانى المتواصل وانضمت إلى دول الوسط - كما يبدو ذلك الآن مؤكداً [١] - يجب أن تهتم مصر بحدودها الشرقية ، لأنه رغم أن أعداءنا لا أمل لهم فى النجاح فى غزو مصر (ومن ثم يقطعون حبل الوريد للإمبراطورية البريطانية) ، فقد يستطيعون احتواء آلاف الجنود الذين يمكن أن يقفوا فى مواجهتهم على الحدود الغربية .

لقد كانت مصر - من الناحية الإستراتيجية - حتى قرب نهاية الحرب جزيرة محاطة بالبحار والمحيطات من الرمال التى تصعب الملاحة فيها ، واستطاع المخططون الإنجليز فى مجالى السياسة والعسكرية أن يخرجوا البحار من اعتبارهم ، وكان الجو لا يزال عاملاً محدوداً جدا ، لم يتطور سلاحه ولم تتم تجربته ، ولم يكن هناك إلا نوع واحد من السفن يستطيع أن يخترق سيناء : الإبل ، سفن الصحراء [٢] . وكنا ندرك تماما أن الجمال ضرورية جداً وفعالة كأداة نقل قد يستخدمها الغزاة عبر سيناء ، وأن عرب الحجاز يمكنهم تزويد أولئك الغزاة بأسطول من الإبل ، وبذلك كانوا فى وضع يسمح لهم بإسراع إيقاع الهجوم التركى ، أو إبطائه بالامتناع عن تزويدهم بالإبل ، أو بتهديد جناحهم الأيسر .

وكنت لا أزال أذكر كيف أن الشريف عبد الله قد غادرنا فى ربيع ذلك العام ويده ممدودة ، طالبة العون منا ، ولذلك قدمت مذكرة مختصرة ، ذهبت فيها إلى أنه فى حالة التشاور مع مكة فى الوقت المناسب يمكننا ضمان حياد الجزيرة العربية فى

(١) تم توقيع معاهدة التحالف السرية التركية - الألمانية فى ٢ أغسطس ، وصاحب ذلك تلغيم الدردنيل .

(٢) ذهب البعض إلى أن هذه المقولة مجازية لم يستخدمها أصحاب الإبل أنفسهم ، فلو رأى البدوى باخرة تمخر عباب المحيط لما جرؤ أن يطلق عليها اسم « جمل البحر » .

حالة وقوع عدوان تركي . ولكن قصر الدوبارة كان مشغولاً بالمفاوضات حول العرش ، كما أن الإستراتيجية من اختصاص العسكريين لا المدنيين من أمثالى ، وعلى كل فلم تكن إستانبول قد أعلنت الحرب بعد ، ومن ثم مرت الأيام ، بل والأسابيع دون أن يحظى اقتراحى بالنظر والمناقشة .

وقد لزمت الهدوء (مثل الكثيرين ممن خلفونى وكانوا أفضل منى) وهى حكمة تعلمتها من الكابتن كلايتون ، « بدتى » الخرطوم والقاهرة وفلسطين والعراق فنصائحه لا تؤثر عليها الأزمات كما لا يتأثر بها حظه الجميل ، وقد اختصر السير هربرت صمويل وصف شخصيته كضابط وإنسان - عند مغادرته القدس - بكلمة ماركوس أوريليوس « نبيل » . كان الكابتن كلايتون ممثلا لحكومة السودان بالقاهرة (التى يدخل فى اختصاص سردارها جزيرة سيناء وحدود فلسطين) ، كما كان مديراً لمخابرات الجيش المصرى : الوقت والموقع المناسبان لامتلاك مفاتيح المعرفة ، وبالإضافة إلى قدراته الطبيعية لازمه عامل الحظ الذى بدونه لا يستطيع الإنسان أن يحقق إنجازاً . وقد أيد كلايتون فكرتى ، وأيد أيضا فكرة تجاوزى للروتين بطرحها مباشرة على كيتشنر فى خطاب خاص ، وقد أرسلت الخطاب فعلاً . وعلى كل ، فمازال اللورد كيتشنر رئيسى ؛ لأنه لم يكن قد عين خلف له فى مصر بعد ، ولم يكن قد استقال من عمله كمعتمد بريطانى فى مصر ، وانتظرت الرد ، ولم يمض أسبوع حتى وصلتنا برقية نصها كالتالى : (٢)

« ٢٤ سبتمبر ١٩١٤ - إلى ممثل صاحب الجلالة فى مصر ، من اللورد كيتشنر أبلغ سنورس أن يرسل مبعوثًا سريا يحسن اختياره - يمثلنى - إلى الشريف عبد الله للتأكد مما إذا كان النفوذ الألمانى العسكرى فى إستانبول سيدفع السلطان إلى التحرك رغم إرادته ، وإذا كان الباب العالى سوف يشن العدوان والحرب على بريطانيا العظمى ، وهل سيقف والده وعرب الحجاز معنا أم ضدنا ؟ » .

(٢) صورة هذه البرقية مكتوبة بخط يد اللورد كيتشنر - فى أوراق وزارة الحرب .

جاء هذا التفويض من وزير الحرب مرضيًا من وجهين ، فهو يقبل ضمنا بمبدأ الثورة فى الصحراء ، ويختارنى لمتابعتها . والحقيقة أن الخطر التركى الألمانى كان أكبر بكثير مما كان معروفًا فى إنجلترا ، فلم يكن قاصرًا على التأكد من مواجهة عمليات عسكرية ضد قناة السويس ومصر ؛ إذ كان هناك المشروع الأبعد مدى والذى يستحق أن يوضع فى الاعتبار ، وهو إقامة قواعد للغواصات ومحطات للاسلكى على طول شاطئ البحر الأحمر ، الذى لو تم تنفيذه لحقق الأتراك والألمان تقدمًا فى الحرب .

كان الألمان قد وضعوا الماجور فرايهر أوثمار ڤون ستوتزنجن على رأس فريق من خبراء اللاسلكى ، تلقى أمرًا بإنشاء مركز معلومات بالقرب من الحديدة بهدف إقامة خط اتصالات مع القوات الألمانية فى شرق أفريقيا .

وتلقت كل السلطات العسكرية والمدنية التركية تعليمات بتقديم العون للماجور ڤون ستوتزنجن ورجاله ، على أن تستخدم معدات اللاسلكى التى يحضرها الماجور لنقل الأوامر والمعلومات من القيادة العامة للقوات التركية ، كما يستخدم اللاسلكى فى بث الدعاية فى السودان والصومال والحبشة .

ولكن الخطر الحقيقى كان يكمن فى تأثير العداء التركى لبريطانيا العظمى على السكان المسلمين فى الهند البريطانية ومصر والسودان . وقد علق الألمان أهمية كبرى على هذا التطور المحتمل ، وعلى ما قد يحققه الخليفة العثمانى من تأثير .

أعددت خطابًا إلى عبد الله مع هدية مناسبة ، واخترت لمهمة المبعوث السرى حما عميلى الفارس حسين روحى ، الذى صحبه حتى السويس ، وعاد الرجل إلى القاهرة فى وقت مناسب حاملاً ردًا مطولاً ووديًا من عبد الله ، وذكر لى مغامراته التى ترجمتها فى الرسالة التالية :

شريف مكة

تقرير شفوى من المبعوث السرى

فى ٣٠ أكتوبر ١٩١٤

غادر المبعوث السرى السويس فى ٥ أكتوبر ووصل إلى جدة بعد ثلاثة أيام . وأخبرنى أن التفتيش فى الجمارك كان شكليا ، وأن بضعة قروش كفيلة بتمرير لفافات كبيرة . وقد قام باستئجار حمار بجنيهين وغادر جدة فى الساعة السادسة مساء فوصل إلى مكة فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى ، فقطع الرحلة طوال الليلة (التى يقطعها البغل فى يومين والجمل فى ثلاثة أيام) ، ولم يجد فندقًا ، فدفع ثمانية جنيهات إيجارًا لغرفة واحدة طوال فترة العمرة بالقرب من باب السلام ، ومارس طقوس العمرة التى اعتبرها نوعًا من الرياضة البدنية . وكان كل شىء بالغ القذارة . وتناول وجبة من اللحم بما يعادل نصف دولار وكوبًا من الشاى فى مقهى تركى ، فاستعاد بذلك عافيته وقدرته على التفكير .

وكان الشريف حسين وعائلته يقيمون فى الطائف ، ولكن استطاع المبعوث أن يقابل الشريف شرف وكيل الشريف حسين . وكان هذا الوكيل يمارس كل السلطات التى يمارسها الوالى العثمانى الذى لم يلجأ إليه أحد فى أية مسألة سواء كانت مدنية أو جنائية . وقد دهش المبعوث عندما رأى أن كل من قابلهم – بغض النظر عن ملابسهم ومظهرهم – كانوا مدججين بالسلاح بمن فى ذلك من يقودون الحمير والبغال ، وكان وكيل الشريف يعقد نوعًا من المحكمة تنظر فى الدعاوى ويتم الحكم فيها مباشرة بأسلوب تقليدى ، وعندما يصاب شخص ما بجرح سكين فى مشاجرة ، يتم قياس طول وعمق الجرح ويحدد بناء على ذلك مبلغ الغرامة ، ويتم خصم الجروح الصغرى من مساحة الجروح الكبرى التى على المعتدى أن يدفع مالا مقابلها . وقد استطاع المبعوث أن يتصل بالوكيل الذى دعاه إلى بيته تلك الليلة ، وأدى الصلاة معه وغيره من أفراد عائلته ، وبعد الصلاة جرى نقاش فى السياسة ، وأدهش المبعوث تطابق آراء

الوكيل مع آراء المصريين [٤] ، واستمر يزور بيت الوكيل كل مساء ثلاث ليال متعاقبة ، ولم يكن حتى ذلك الوقت قد تعافى من أثر ركوب الحمار ، فاستأجر جمالاً بجنيهين ليحمل رسالة منه إلى الشريف عبد الله بالطائف ، فذهب الجمال على وجه السرعة وعاد بعد ثلاثة أيام ، وطالبه بالانتظار لمدة يومين ، وقال له إن الشريف يعلم بوجوده « منذ وصل إلى مكة » . فظل ينتظر مع استمراره فى زيارة الوكيل الشريف شرف كل مساء .

وعندما وصل الشريف حسين إلى مكة ، خاطب الوكيل تليفونيا حول المبعوث الذى حصل على إذن بأن يكون بين أول من يقابلون الشريف ، ويقبلون ذيل ثوبه ، وكان بعض مريديه يقطعون رحلة شاقة تزيد على نصف اليوم لرؤيته . وبعد المقابلة انصرف الوكيل إلى بيته ، والشريف إلى قصره الكبير المكون من أربعة طوابق « على شكل جبل » . أخيراً استدعى الشريف عبد الله المبعوث إلى غرفة صغيرة ، وطلب منه الرسالة التى يحملها ، فأعطاها له ، فقال الشريف عبد الله إنه يعتقد فى قرارة نفسه أن المستر ستورس مسلم ، فوافقه المبعوث على ذلك ، وكان الشريف متأكداً من ذلك بسبب الاقتباسات القرآنية التى وردت فى رسالة ستورس ومخاطبته له « بالأخ » .

وأخذ المبعوث بعد ذلك إلى حجرة فخمة تناول فيها الطعام مع الشريف حسين وأولاده الأربعة . واستغرق ذلك كله الوقت من الصباح حتى ما بعد الظهر ، وبعد ذلك بقليل طلب منه الشريف عبد الله أن يستريح حتى يزوده بخطاب يحمله معه إلى المستر ستورس ، وخلال دقائق وجد المبعوث نفسه وحيداً ، فجاءه أحد الخدم وأخذه إلى حجرة أحسن من سابقتها تقع فى الطابق العلوى ، حيث وجد الشريف حسين يجلس وحيدا فى تلك الغرفة .

عندئذ خاطب الشريف المبعوث قائلاً : « اسمع يا بنى ، رغم أنى لست المخاطب بهذه المسألة ، فإن علىَّ أن أتكلم » (وقد أرسل خطاباً من خلال ابنه عبد الله) ، وتحدث الشريف حسين وهو يقطع الغرفة جيئةً وذهاباً ، مصراً على أن يظل المبعوث

(٤) سوف أشرح ذلك فى الفصل التاسع .

جالسا يستمع ، قال الشريف : « إن للدولة العثمانية حقوقًا علينا ، كما أن لنا عليها حقوقا ، وقد شنت الحرب ضد حقوقنا ، ولست مسئولاً عن ذلك أمام الله إن هى جارت على حقوقنا ، ولست مسئولاً أمام الله إذا قمنا بمحاربتها دفاعًا عن حقوقنا » ، وكان الشريف يعبر بحركات يديه فى أثناء الحديث مشمرًا أكمام الثوب عن ساعديه ، وقال : « إن قلبى مفتوح أمام ستورس مثل هذا (ومد يديه على اتساعهما) مادام يمد لنا يده ، ولن نقدم – أبدًا – أى مساعدة للمعتدين ، وعلى العكس سنساعد كل من أحسن عملاً ، فهذا ما يأمرنا به الله ، ونحن لا نخشى ولا نوالى أحدًا إلا الله ، بلغه (أى ستورس) تحياتى له ولبلاده بما يليق بهما » . فرد المبعوث : « سمعًا وطاعة يا مولاى » .

وعندما رأى وكيل الشريف المعاملة الطيبة التى لقيها المبعوث من الشريف ، اعتذر له عما بدر فى أحاديثه السياسية من ميل نحو الألمان ، رغم أنه لم يكن يعرف شيئا عن طبيعة مهمته والغرض من ورائها .

وفى طريق العودة ، رافق أولاد الشريف المبعوث وحوالى ١٥٠ معتمرًا مسلحًا ، وفرقة موسيقية ، بحجة التوجه إلى جدة ، ولكن الهدف الحقيقى كان تأمين الطريق ، ووصف الرجل ذلك بأنه « فاق ما يمكن أن يحلم به » ، وقضوا الليلة فى موقع يقال له بحرة فى منتصف الطريق بين مكة وجدة ، وهناك قال له الشريف عبد الله : « لقد أعطيت التعليمات لشقيقى الشريف فيصل » . وسلم فيصل الخطاب غير المعنون وبداخله خطاب يحمل عنوان مندوب الشريف بالقاهرة إلى سليمان قابيل (٥) فى جدة . وسلم الخطاب إلى المبعوث بعد صعوده على متن الباخرة اليابانية التى تأخرت يومين مع غيرها من السفن فى ميناء جدة ؛ لأن البلدية أخذت معظم الفحم لتشغيل محطة مياه المدينة .

ويرى المبعوث أن قادة العرب يعتقدون أن ألمانيا لن تستطيع هزيمة بريطانيا ، إضافة إلى ميلهم نحو الإنجليز . وهم يعتبرون أن الإدارة فى مصر مثالية وكأنها الجنة

(٥) مندوب الشريف فى جدة ، وعندما وصلت إلى هناك كان قد أصبح حاكم جدة .

على الأرض . وقد رأى بمكة الكثير من الضباط الأتراك ، ولكن جنود الحامية العثمانية لم يزيدوا على ٣٠٠ جندى ، وليس لدى الناس هناك أى فكرة عن احتمال إعلان تركيا الحرب على بريطانيا والحلفاء ، ولكن قيل لهم إن القوات المصرية تبادلت إطلاق النيران مع القوات الإنجليزية فى مصر ، وقد نشرت « وكالة ما » العديد من التقارير المزيفة التى أوضح المبعوث – لمن تحدث معهم – عدم صحتها ، ولاحظ أن عرب مكة يهملون زوجاتهم ، ويقضون أيامهم ولياليهم فى المقاهى (٦) .

وفى ٣١ أكتوبر أبرق اللورد كيتشنر طالباً إبلاغ سلامه للشريف عبد الله ، وأن ألمانيا قد اشترت الحكومة التركية بالذهب ، وتناست الأخيرة أن بريطانيا وفرنسا وروسيا ضمنوا وحدة وسلامة أراضى الدولة العثمانية إذا وقفت على الحياد فى الحرب ، وأن الحكومة التركية مارست العدوان – دون موافقة السلطان – بهجومها على حدود مصر بعصابات من الجنود الأتراك ، فاذا ساعدت الأمة العربية بريطانيا فى هذه الحرب ، تضمن بريطانيا عدم التدخل فى الجزيرة العربية ، وتقدم المساعدة للعرب ضد أى عدوان خارجى .

وفى ١٠ ديسمبر ، عاد المبعوث من رحلته الثانية إلى مكة ، وكان الشريف مخلصاً فى صداقته ، ولكنه لا يستطيع أن يقطع العلاقات مع الترك على الفور ، ولذلك كان فى انتظار حجة يتخذ منها مبرراً لذلك .

ولا أريد أن أتتبع تفصيلاً المفاوضات المعقدة التى جرت ، وفى أبريل ١٩١٥ فوض حاكم عام السودان لإعلان أن حكومة صاحب الجلالة سوف تجعل من بين الشروط الأساسية فى معاهدة السلام عند نهاية الحرب ، أن تكون الجزيرة العربية والأماكن الإسلامية المقدسة دولة واحدة مستقلة ذات سيادة . وكان من الصعب عندئذ تحديد الأراضى التى تضمها تلك الدولة . وكان أول اقتراح محدد تقدم به الشريف هو ذلك

(٦) كانت هذه المعلومات أول ما قرأه لورانس ، فسر لها ، ففى خطاب كتبه قبل موته بعام واحد قال : « لقد سبق أن قلت لك إن أحسن ما قرأت من كتاباتك هو إملاؤك للتقرير عن زيارة المبعوث لمكة ومقابلته للشريف حسين قبل الثورة فى الحجرة العلوية بقصره » (١٣ سبتمبر ١٩٣٤) ، غير أن التقرير كان مجرد ترجمة لما جاء برواية المبعوث الذى يعود إليه وحده الفضل .

الذى تلقاه السير هنرى ماكماهون فى يوليو ١٩١٥ (مع خطاب شخصى من الشريف عبد الله موجه إلىّ دون توقيع أو تاريخ) ، والذى طلب فيه الشريف دعم حكومة صاحب الجلالة لقضية استقلال العرب ، ويقترح حدوداً معينة للدولة العربية المستقلة المقترحة . وبينما كنت أكافح لقراءة كتابته الصعبة وكذلك أسلوبه الصعب ، وجدت نفسى أتمتم بهذا المقطع :

فى أمور التجارة يخطئ الهولنديون

فى تقديم القليل مقابل ثمن باهظ

لأن الشريف طالب بكل البلاد التى تتحدث العربية فى جنوب غرب آسيا باستثناء عدن ، وكان المندوب السامى على حق عندما رأى عدم التزام الحكومة البريطانية بأراض معينة ، وخاصة فى غرب سوريا وجنوب بلاد الرافدين ، ومع مرور الوقت أصبح الحديث عن الحدود قليلاً ، والحديث عن الثورة فى الحجاز أكثر أهمية وإلحاحاً (وخاصة أن اتصالاتنا كانت بطيئة وعرضة للخطر) .

وكنت أرى عندئذ – ومازلت عند رأيى – أن الشريف فتح فمه على اتساعه ، وأن الحكومة البريطانية فتحت كيسها على اتساعه أيضاً [٧] ، ولما كان الشريف يشغل وظيفة « المدير الدينى » عند الأتراك ، فلا بد من أن يحظى وشعبه بمعاملة طيبة ومكافأة مناسبة إذا منحوا الفرصة لتحقيق نصر مشرف على عدوهم التقليدى ، مع منحهم ضمان عدم التعرض لعدوان خارجى فى موقعهم الحالى بالأراضى المقدسة ، والاعتراف بالاستقلال والسيادة لبلدهم الأصلى : الحجاز . فإذا وافقت غالبية المسلمين على أن تضيف إلى ذلك لقب « الخليفة » فإن ذلك مرجعه لهم وحدهم وليس لنا نحن ، رغم أن اتحاد القوة الدينية مع الضعف المادى للدولة يخدم مصالحنا .

(٧) كتب لورانس فى أكتوبر ١٩١٦ : « تألقت المدن الساحلية بالذهب والروبيات التى يذهب معظمها للحاكم » ، ولكن الذهب الذى تم إرساله كان يقل عن ١٠ ٪ من إجمالى التكلفة التى تحملها دافع الضرائب البريطانى لتمويل ثورة الصحراء التى بلغت ١١ مليوناً من الجنيهات وإضافة إلى المبالغ التى حملتها إليه ، حصل حسين على ١٢٥ ألف جنيه شهريا اعتباراً من ٨ أغسطس ١٩١٦ ، وجملة ما حصل عليه حوالى المليون جنيه ، أما العشرة ملايين الأخرى فتمثل تكلفة العمليات العسكرية والإمدادات التى قدمتها بريطانيا .

ولكن الشريف حسين الذى كان على اتصال مع الثوريين فى سوريا ، من خلال ولده فيصل ، ادعى أن ذلك بمثابة تفويض له باعتباره ملك العرب كزعيم روحى للقومية العربية ، وهو يدرك تمامًا - بقدر ما ندرك نحن - أنه ليس ثمة ادعاء أصيل بذلك . فمن بين الشعوب العربية الكبرى فى شمال أفريقيا من قد يدعى لنفسه الأحقية فى الخلافة السنية ، وبلاد أخرى مثل مصر والسودان تفضل كثيرًا التمسك بحضارتها الراقية القديمة . كما لن يعترف مسيحيو لبنان بالشريف كملك للعرب ، ومعظم بلاد الرافدين من الشيعة الذين لهم موقف متحفظ من السنة ، وفى الجنوب لا يحظى باعتراف من الإمام يحيى ، بينما كان ابن سعود إلى الشرق مباشرة يسير على الطريق الذى قاده - فيما بعد - إلى تدمير سلطة الشريف ونفيه .

وبعبارة أخرى ، لم يكن هناك احتمال لقيام وحدة عربية أكثر مما هو عليه الوضع الآن ، ولما كنا ندرك أن ٩٠ ٪ من مسلمى العالم سوف ينظرون إلى الشريف حسين نظرتهم إلى المغتصب المتآمر والخائن للخليفة ، لم نخف عن أنفسنا (كما لم نخف عنه ذلك أيضًا بعد جهد جهيد) أن ما يطالب به لا يقوم على أساس منطقى : غير أن تضحيته الجزئية بسمعته فى العالم الإسلامى التى كانت ضرورية بالنسبة لقضيتنا ، رغم كونها تخدم مصالحه ، فرضت علينا التزامًا حقيقيا للحفاظ على مكانته إلى الحد الممكن ، ولهذا الغرض وتحقيقًا لهذه الغاية كنا ملزمين بمده بالأموال ومعدات القتال ، وتقديم الوعود التى يصعب تحقيقها ، وهو ما كان لا يدور بخلد معظمنا فى سبتمبر ١٩١٤ .

وقد قال العرب وغيرهم من النقاد الكثير حول غموض وتناقض وعودنا ، و « خيانتنا » دون أن يقدموا تبريرًا لذلك ، ولكن كانت لهم أسبابهم فى ذلك ، فقد أعد «روحى»(*) نصوص مراسلاتنا مع مكة ، ولغته العربية جيدة ولكنها ليست رصينة (فهو عميل جيد وليس عالمًا) ، وقمت بمراجعتها بنفسى فى ظل ضغوط العمل ، فلم يكن لى مساعد أو مرءوسون أو مكتب ، ولذلك عندما أتغيب للقيام بمهمة ما ، يتولى غيرى

(*) هو حسين روحى الخطيب ، وسترد الإشارة إليه فى الفصل الثانى عشر «ضابط سياسى فى مهمة بالقدس» صفحة ٣٦٠ . (التحرير)

متابعة العمل (ربما بشكل أفضل) ، ولكن تنقطع استمرارية المتابعة [8] ، وكانت خطابات حسين مكتوبة بأسلوب نثرى معقد ومجهد ، يمتزج فيها أسلوب الفصحى الحجازى مع العبارات والمصطلحات التركية ، ولم يكن لدينا أى علم بمفاوضات سايكس - بيكو عندما وصل مارك سايكس إلى القاهرة عام ١٩١٦ فأعطانا معلومات محدودة وغير واضحة . وكانت تلك المفاوضات خاصة بتقسيم تركيا بين الدول الثلاث : فرنسا ، وروسيا ، وبريطانيا ، وقد ألغيت بعد ذلك واستبدلت ، بسبب خروج روسيا . كما أننا لم نكن على علم كامل بعمليات حكومة الهند فى العراق ، أو عن تشجيع حكومة الهند لابن سعود .

وفيما يتعلق بنا ، يبدو أن أحداً لم يهتم بالتنسيق وتحقيق التناغم بين وجهات نظر وسياسات وزارات الخارجية ، والهند ، والحرب ، والبحرية ، وحكومة الهند ، ودار المندوب السامى فى مصر ، وعندما قامت الثورة بالحجاز ، احتاج الأمر إلى تعاون ثلاث قيادات عسكرية : هى مصر ، والعراق ، وعدن ، وبعد الانسحاب من شبه جزيرة جاليبولى ، أدمجت « قوة الحملة المتوسطية » فى القوة المصرية لتصبح « قوة الحملة المصرية » التى تم تحتها تجميع كل خيوط قيادة القوات البحرية وحكومة السودان ، وكذلك « المكتب العربى » الذى تولى إدارته د. ج. هوجارث ، وكان لورانس عضواً فيه .

وسوف نرى أن ضخامة تلك التعقيدات ، وصعوبة التوفيق بين الادعاءات والمصالح المتصارعة جعلت الأمور تزداد تطرفاً فى مؤتمر الصلح .

إن احتدام الجدل المتبادل ، والإشارة إلى إنجلترا (كما تشير مكة إلى إستانبول) وإلى التعليمات ، وما لحقها من تغيير ، يبدو لا نهاية له . ولكنه أكد على أية حال أن العرب وشبكة اتصالاتهم لم تكن فى متناول الجيش التركى . لقد غامر الشريف حسين أخيراً عندما أزعجه النشاط التركى وبعثة ستوتزنجن . وفى ٢٣ مايو

(٨) لم أر المراسلات مرة أخرى بعد سفرى إلى بغداد فى أبريل ١٩١٧ ، وقد أبرقت إلى القاهرة «جميع أصول مراسلات الشريف بالملفات، رجاء الرجوع إلى الفهرس، وإعادة ختم الملفات بعد الرجوع إليها».

١٩١٦ أبرقت رسالة إلى السير هنرى ماكماهون من بورسودان جاء فيها : « عبد الله ابن الشريف يطلب من ستورس أن يأتى إلى الساحل العربى لمقابلته ، سوف تبدأ الحركة بمجرد وصول فيصل إلى مكة » .

لقد ضاعت يومياتى عن الرحلة ، ولكنى وجدت فى وزارة الخارجية التقرير الذى أعددته عنها للمندوب السامى ، يقدم أول رواية منشورة لمشروع مهم خلدته عبقرية لورانس ، أقدم هنا نصًا له :

« تنفيذًا لتعليمات صاحب السعادة المندوب السامى ، غادرت القاهرة الساعة السادسة والربع مساء ٢٨ مايو بصحبة اللفتنانت كوماندر د. ج. هوجارث ، والكابتن كورنوالث ، آخذًا معى عشرة آلاف من الجنيهات الذهبية فى حراسة ضابطين من البحرية حتى السويس ، وتأخر وصول المترجم السورى الذى يعمل على الباخرة دافرين (وهى عبَّارة بريطانية قديمة نوعا ما) فلم نغادر السويس قبل العاشرة والربع من صباح اليوم التالى .

وحتى يوم ٣٠ (مايو) لم نكن على اتصال لاسلكى مع السفينة فوكس أو بورسودان ، ولكننا تلقينا استفسارات من السفينة هاردنج (التابعة للبحرية الهندية) عن وجهتنا ، وعلمنا بعد ذلك من نفس السفينة أن الشريف حسين أصدر أوامره للقوات التركية بمغادرة مكة .

وفى يوم ٣١ وصلنا جنوبيًا بغرب وعبرنا بمحازاة الساحل الأفريقى إلى فنار سنجريب الذى يقع على بعد ١٥ ميلا من بورسودان ، حيث التقينا السفينة فوكس (التى تقوم بدوريات فى البحر الأحمر) الساعة الثانية عشرة والنصف ، وصعد عميلى روحى إلى سطح دافرين على الفور ، وقال لنا إن علينا أن نتجه شمالاً ٢٣٠ ميلاً إلى رأس مخلوف (أو رأس العرب) لنلتقى عريفان (مندوب الشريف) الذى سيسرع بالذهاب إلى مكة ليحضر عبد الله خلال أربعة أو خمسة أيام إلى نقطة أخرى على الساحل ، وطلب عريفان جنيهًا إسترلينيا واحدًا ليحضر لنا رءوس سبعة من الألمان قتلوا الأسبوع الماضى ، فأبديت استعدادى لدفع خمسة جنيهات إذا أحضر لنا كل الأوراق التى كانت معهم (وهو ما لم يفعله) .

غادرنا بورسودان مساء اليوم نفسه ، ورسونا أمام قديمة (بعد أن قمنا بالالتفاف حول الشعاب المرجانية) ظهر يوم أول يونيو حيث كانت هناك بعض القوارب الصغيرة التى يحاول أصحابها الحصول على الخبز أو الأرز مقابل السمك . ولم يصل عريفان قبل الثالثة والنصف بعد الظهر وليس بجعبته أخبار معينة سوى أن عدد الجنود الترك فيما بين مكة وجدة مائتا جندى وليس خمسمائة ، ولكن أرقامه لا يعول عليها ، ولذلك لم نتقبلها باهتمام ، مثل قوله إن هناك عشرة آلاف جندى تركى جاءوا من العراق إلى المدينة ، ووصول ستين ألفًا من الأصدقاء المسلحين مؤكدًا أنه استوثق الخبر من جيرانه ، وكان الموعد الذى حدده لى عريفان لمقابلة عبد الله هو يوم الخميس التالى فى سروم القريبة من بسميمة عند جدة ، وهو تأخير لا يمكن التسامح فيه .

وأرسلت مذكرة لعبد الله بالرصاص مشيرًا إلى « الأشياء المهمة » التى ينتظرها دون أن أفصح عن شىء منها ، وأرفقت بها أعداد « المقطم » التى صدرت فى الشهر الماضى ، وبعض نسخ من المنشورات الألمانية المعادية للإسلام . كما أرسلت برقية لاسلكية للمندوب السامى أطلعه على ما حدث . وحوالى التاسعة من صباح ٢ يونيو تلقيت رسالة لاسلكية نصها كالتالى : « وافقت الخارجية على دفع عشرة آلاف جنيه لعبد الله وخمسين ألفا لشريف مكة ، ولكن المبلغ الأخير لا يدفع إلا عند القيام بعمل مؤكد وبداية الثورة » .

غادرنا قديمة حوالى الساعة الثامنة واتجهنا شمالاً إلى ما وراء رابغ حيث كان فى انتظارنا ثلاثة قوارب تقف بعيدًا عن الشاطئ رافعة أشرعتها تنفيذًا لتعليمات الحصار البحرى .

وفى الثالث من يونيو وصلنا إلى جزيرة حسانى التى تقع فى مواجهة أم اللج حيث مدينة وميناء أم اللج ، وذلك حوالى الساعة الحادية عشرة صباحًا وعبرنا الحاجز لنلقى نظرة فاحصة على المدينة ، وكانت بها حامية تركية من عشرين جنديًا يهربون إلى التلال الصغيرة كلما شاهدوا طرادًا يقترب من الشاطئ ، وذلك منذ قامت السفينة فوكس بإطلاق مدافعها على القلعة من مسافة نصف الميل ، فدمرتها دون أن تصيب المسجد بسوء . ويقال إن جزيرة حسانى تلعب دور المنتجع الصيفى لأم اللج ، ولكن

الموسم هذا العام كان على ما يبدو مخيباً للآمال ، فلم يكن بالجزيرة أحد على الإطلاق .

وعدنا فى السابعة لنجد عربيا يُدعى دخيل الله حمدان ذكر لنا أنه قد شاهد عدداً من الرجال والنساء الألمان يتجهون إلى ينبع على ظهر سمبوك . فاقترحت على القبطان أن يأخذ الرجل وقاربه إلى شرم ينبع مساء ليجمع بعض الأخبار ، وأن نلتقطه فيما بعد فى طريقنا شمالاً قادمين من سروم .

وفى الرابع من يونيو ، تلقيت الرسالة التالية من المندوب السامى حوالى الساعة العاشرة صباحًا : « تسأل الهند عما إذا كانت الأوضاع تتطلب إيقاف الحج من الهند ، ولا تريد حكومة الهند أن تؤذى مشاعر المسلمين بإعلان إيقاف الحج ، رجاء بحث ذلك مع عبد الله » .

وفى شرم ينبع ، التقطنا العربى حمدان الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر وقاربه القديم ، وأبحرنا ببطء فيما وراء الميناء ولكن بالقرب منها ، وهى مدينة ليست على درجة سيئة من الناحية المعمارية ، يحدها من الشمال جبل رضوان .

وأصبحنا أمام جدة فى اليوم التالى الخامس من يونيو حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، وهى مدينة جيدة بها منازل من أربعة أو خمسة طوابق ، وبها مئذنة تميل قليلاً بما يشبه برج بيزا الشهير . وجاء عريفان من الباخرة فوكس حاملاً رسالة من الشريف حسين نفسه موقعة بلقبه الكامل « حسين – أمير مكة المكرمة » ، موجهة إلىَّ (وهى مكتوبة كلها بخط يد عبد الله ما عدا التوقيع) جاء بها : « المحترم والمبجل .. أعبر لكم عن عميق أسفى لعدم استطاعتى إرسال عبد الله لأمر طارئ سيشرحه لك حامل الرسالة ، ولكن أخاه سوف ينوب عنه وبصحبته أحد أبناء عمومته هو الشريف شاكر أمير العتيبة وهو على نفس قدره » ، ومع الخطاب قصاصة غير موقعة ، جاء فيها : « رجاء أن تطلب باللاسلكى على الفور خمسمائة بندقية من نفس الصنف الذى سبق إرساله لنا من قبل والتفاصيل عند ولدينا زيد وشاكر ، وكذلك أربعة مدافع آلية والجميع مع ذخيرتهم » . وكذلك خطاب آخر يحمل توقيع عبد الله بن الحسين جاء فيه : « إلى المكرم والموقر المستر ستورس أعبر لكم عن عميق أسفى لعدم استطاعتى

مقابلتكم شخصيا ، فقد جد ما تطلب وجودى وشغلنى ، وسوف يأتيكم أخى بكل الأخبار ورجائى منك أن تبذل ما تستطيع من جهد لتبدأ العمليات فى سوريا ، أعاننا الله ، سوف نلتقى فيما بعد » .

وكان عريفان قد ترك الرويس يوم السبت الثالث من يونيو عند الغروب ، ووصل إلى مكة عند شروق شمس صباح الأحد ، وقابل الشريف حسين عندالظهر ، وأخبره الشريف أنه ليس بالإمكان إرسال عبدالله لمقابلتى ؛ لأنه يتجه الآن إلى الطائف ليضرب حصاراً حول الوالى التركى ، ومع وجوده هناك تقرر أن تبدأ الثورة يوم ١٠ يونيو بدلاً من يوم ١٦ على نحو ما تقرر من قبل . وكان عبد الله حاضراً ، وبعد انتهاء المقابلة ترك هو ووالده عريفان وعادا ليسلماه الخطابات مع تزويده بالتعليمات لتسليمها جميعًا ؛ لأن زيد كان قد غادر مكة بالفعل بحجة مرافقة عبدالله ، وتم ترتيب مكان اللقاء فى سميمة التى تقع على بعد ستة أميال جنوب غرب جدة ، على أن يتم الاجتماع يوم الثلاثاء فجر السادس من يونيو .

وكان عريفان قد غادر مكة مساء ليصل إلى الرويس فى صباح يوم الاثنين ٥ يونيو ، وقال إن الحركة سوف تقوم فى المدينة بقيادة فيصل وعلى ، وفى نفس الوقت فى مكة بقيادة الشريف ، وفى الطائف بقيادة عبد الله ، وفى جدة بقيادة الشريف محسن أمير قبيلة حرب ، وأن خطوط التلغراف بين مكة وجدة فى يد الشريف ، ولكنها قطعت بين مكة والمدينة ، كما تم قطع السكك الحديدية أيضًا ، كما ذكر أن الألمان الذين سبقت الإشارة إليهم جاءوا من يافا . وجاءنا بويل - كبير ضباط البحرية فى البحر الأحمر - من السفينة فوكس ، سائلاً كيف يتصرف إذا دعته الظروف ومسئولياته إلى ذلك ، وقد يتطلب الأمر أن يقوم بمظاهر بحرية أمام جدة يوم السبت ، فقمت بإرسال برقية لاسلكية إلى المندوب السامى لأطلعه على ما تم ، وأسأله الرأى فيما يجب أن تفعله البحرية .

وفى مساء الخامس من يونيو رسونا فى مواجهة سميمة ، وغادرنا دافرين الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالى على بعد نحو الميلين من الشاطئ على متن قارب بخارى حتى الشعاب المرجانية ، ثم بقارب شراعى صغير فى اتجاه

الشـاطئ ، فـأصـيب القـارب بكسـر فى الدفـة ، وكـان مـعى هـوجـارث وكـرنـواليس ، وعريفـان ، وعميلى روحى والعشرة آلاف جنيه وكيسان من « الحقيقة » (نشرة دعائية بالعربيـة) وبعض المشروبات الخفيفـة لنشربها مع المجموعة التى سنلتقى بها على الشاطئ . ومـا لبث أحد القوارب التابعة للشيخ على أن أطلق النار علينا ، وهـو يحصل على نصيب من الذخيرة التى نرسلها من بورسودان . وقادنا عبر الشعاب المرجانية إلى مركب يمتلئ نصفه بحمولة من الذرة ، ولم نر أى أثر لزيد على الشاطئ ، فلبثنا ننتظر أكثر من ساعة ونصف ونحن جلوس فوق أجولة الذرة جلسة غير مريحة مطلقًا .

وأخيرا ظهرت عند الأفق مجموعة من عشرة جمال ، أخذت تتجه نحو الشاطئ ؛ حيث كان عرفان قد نصب خيمة الشرف لاستقبالهم ، وما لبث أن جاءنا بقاربه ، وقال إن الشـريف زيد يريد أن يرانى وحـدى على انفـراد . وكنا مـهـيئـين لمثل ذلك الطلب ، ولكنى طلبت منه أن يبلـغ زيد إمـا أن يرســل فى طلـب هوجـارث وكرونواليـس أيضـًا أو يأتينا والشريف شاكر بقارب لنعقد الاجتماع على ظهر الباخرة دافرين .

وتحـركت بالقـارب وبصـحـبتـى روحى إلى مسـافة ثمـانين ياردة من الشـاطئ ثم انتقلت إلى قـارب عريفان الذى كانت المياه تتسرب من قاعه مما جعلنى أفضل الوقوف فيه ، وحملت فى العشـر ياردات الأخيرة إلى الشـاطئ على أكتـاف اثنين من العبـيد تعثرا فى تلك المسافة القصيرة فتبلل سروالى بالماء حتى ما فوق الركبتين ، ورأيت زيد وشـاكر يتجهان نحوى ببطء ، وشغلت بإصلاح هندامى ، فقد جاء هؤلاء لمقابلة ممثل المندوب السامى لصاحب الجلالة . وصافحانى بقوة ، ورحبا بى باسم الشريف حسين وعبدالله وسرت معـهما إلى داخل الخيمة ، مقدمًا إليهمـا تحيات المندوب السامى ورسائله وتشجيعه للشريف ، وعلى يمين مدخل الخيمة كان يقف الحراس بالملابس البدوية البسيطة يحملون السيوف والبنادق ، وكانت الخيمـة مقسمـة من الداخل إلى ديوانين صغيـرين كل منهما مفروش بسجادة بسيطة ، وتحت أقدامنا قطعة من الكليم ، وأجلسنى زيد إلى جواره ، بينما جلس شاكر فى مواجهتنا . وقلت لروحى بالإنجليزية أن يظل واقفًا حتى يسمح له زيد بالجلوس ، وقد سمح له بذلك بعد حوالى دقيقتين ، فـجلس بجـوار شـاكر . وجلس الحراس فـوق الكليـم حتى أمـرهـم زيد بالانصـراف من الخيمة فغادروها إلى حيث موضع الإبل .

وزيد أصغر أبناء الشريف حسين من زوجته الثانية التى تنحدر من أسرة جركسية عريقة ، ويبدو فى حوالى العشرين من عمره . وقد اختبرت مدى معرفته بالتركية - فيما بعد - فوجدته يعرفها جيداً ويتحدثها بطلاقة ، طوله حوالى خمسة أقدام ونصف قدم ، أبيض البشرة ، جميل العينين مستدير الوجه ، وهى الصفات المميزة لليونانيين والجركس . ويبدو أنه يبذل جهداً فى إطالة لحيته الخفيفة ، وتبدو عليه سمات عدم الخبرة ، وقد بدا خجولاً فى بداية الأمر ، ولكن عندما استطرد فى إبلاغ رسائل التحية إلى عبد الله تساءل عن السبب الذى يجعل عبد الله عندما يطلب رجلاً ترسلون إليه بثلاثة رجال ، وأخيراً تخلص من تحفظه ، وبدأ يسأل ويجيب بصراحة تامة وهو يسدد النظر إلىّ ، أما شاكر فهو أطول بوصتين من زيد ويكبره عمراً بنحو عشر سنوات ، وكان وسيماً لولا آثار الجدرى الواضحة فى وجهه ، وتذكرت رؤيته مع عبدالله بقصر عابدين فى ربيع عام ١٩١٤ ، وأظن أنه سر عندما علم أننى مازلت أتذكره ، وتبدو عليهما علامات الصحة ، يرتدى كل منهما قفطاناً من الحرير المصرى الثمين ، ويرتدى زيد عباءة سوداء وكوفية ، وينتعل كل منهما خُفًا مكيًا ، ويضع على رأسه عقالاً مذهبًا ، ويبدو على هندامهما أنهما توقفا بالقرب من مكان اللقاء لتغيير ملابسهما .

ولما كان القارب الذى يحمل هوجارث وكرونواليس لا يزال منتظراً تحت الشمس ، وكانت الساعة قد أصبحت الثامنة ، استأذنت زيد أن أقدم له زميلىّ ، وعندما رفض ذلك قلت بحدة إن عليه وشاكر أن يقبلا بأن يتشرفا بقبول استضافة البحرية البريطانية لهما ، فنظر مرة أو مرتين إلى شاكر ثم سكت برهة ، فقلت إننى أشكره على قبوله الدعوة . وغيرت الموضوع ، ثم نظرت إلى ساعة يدى الذهبية لأرى كم مضى من الوقت ثم نظرت إليه مرة أخرى فوجدته ينظر إلى الساعة باهتمام وإعجاب . ولما كنت لم أحضر له أى هدية ، وكان المبلغ الذى أحمله لأخيه عبد الله ، ومن أجل الحفاظ على روحه المرحة ، خلعت الساعة من يدى وشرحت له كيف يملؤها ويضبطها على الوقت العربى وقمت بتثبيت إسورتها فى معصمه بكل احترام . وقررت أن أخذهما على ظهر السفينة دافرين ، وخاصة أن القهوة التى كانت تعد خارج الخيمة قد شربت بالفعل .

عندئذ أكد زيد المعلومة التى تلقيتها من عريفان أن الثورة ستبدأ يوم السبت القادم ، وسلم لى رسالة موجهة إلىَّ من عبد الله (نقلها إلىَّ عريفان من قبل فى أثناء قدومى معه بالقارب) ومؤداها أن أبقى فى الباخرة فوكس أمام جدة لمراقبة نتيجة الثورة ، فقلت إننى مضطر للعودة إلى القاهرة ، ولكن إذا كان وجودى مفيداً ، ولم تكن هناك ضرورة لوجودى فى القاهرة ، فقد يرى المندوب السامى أن يرسلنى مرة أخرى ، فوافق على ذلك ، وتمنى أن يكون حضورى مرة أخرى ممكناً ؛ لأن عبد الله لديه تساؤلات كثيرة عن أشياء ليس فى إمكانه الخوض فيها ، وأن تقديم موعد الثورة هو الذى منعه من لقائى ، عندئذ سلم لى رسالة تحية قصيرة واعتذار من عبد الله موجهة إلىَّ ، ورسالة مطولة من والده تصف الخطط الخاصة بالمدينة ، فطلبت منه أن يخبرنى بالضبط عما ينوون عمله فى كل مركز من مراكز الثورة ، فقال : « سوف ندعو الترك للاستسلام ، ونطلق عليهم النار إذا رفضوا ذلك ، فإذا استسلموا سوف نأسرهم حتى نهاية الحرب ، وننوى تدمير سكك حديد الحجاز إلى الشمال حتى مدائن صالح التى تكون نقطتنا الأمامية » .

وألقيت نظرة سريعة على قائمة الطلبات فى الرسالة الأولى المقدمة إلىَّ ، لاحظت ذكر خمسين ألفًا من الجنيهات أضيفت إليها عشرون ألفًا ليصبح المبلغ سبعين ألفًا من الجنيهات ، فشرحت لزيد موقفنا من هذه المسألة ، وقلت له إن المبلغ الأول سيصل فى أقرب فرصة ممكنة بمجرد تأكدنا من قيام الثورة ونجاح خطواتها الأولى . عندئذ قال : « يسعدنى إبلاغك أن الثورة بدأت فى المدينة بالأمس » ، ولما سألته عما حققته من نتائج قال إنه يقصد « ببدأت » أنه تقرر قيامها أو أنها قد بدأت بالفعل ، ولكن نظراً لبعد المسافة فلا توجد الآن معلومات تفصيلية فى الوقت الحاضر . فقلت له عندئذ إنه إذا كان له شريك يقدم العون المادى ، فإنه قد لا يجد هناك ما يشجعه على مواصلة تقديم المساعدة ، فوافق على ذلك وقال إنه شخصيًا وكذلك والده فى حاجة إلى هذا التشجيع ، فقلت إنه متى وقفت الحركة على أقدامها ، فإن حكومة صاحب الجلالة لا تتقاعس عن الوفاء بالتزاماتها تجاه حلفائها .

وسألته عما إذا كان يعلم أننا ندفع الآن ملايين الجنيهات لمن أثبتوا لنا صداقتهم ، وقد اقتنع زيد وشاكر بأن ذلك يبدو أمرًا معقولاً ، وقالا إن البرهان يوشك

أن يصبح فى أيدينا ، وسأل زيد عما إذا كنا نهتم بمسألة إحداث تحول فى سوريا ، فإذا حققت الثورة النجاح كما نتمنى ، أليس من الممكن أن يهبط عليهم الثمانون ألف جندى تركى مسلح الموجودون فى سوريا فيقضون على حركتهم ؟ وقال إن والده يفكر جدياً فى هذه النقطة . فشرحت له أن هناك « المجلس الأعلى للحلفاء » الذى يتابع باستمرار كل تهديدات الحرب ، والذى قد لا يفكر الآن فى وضع خطط لحركة لم تنضج بعد . وعارضت تقديره بالنسبة لسوريا ، مؤكداً أن الأتراك لن يقدموا على مغامرة رابعة بعد ما أصابهم فى القوقاز وسيناء والعراق ، فإذا جرءوا على تحريك قوات فى سيناء فسوف نهجم على مؤخرتهم . فقال زيد إنه إذا استطعنا أن نعدهم بذلك فإن ذلك الوعد سوف يبعث الارتياح فى نفوسهم . فقلت إننى لست عسكرياً ، ولست مفوضاً بالوعد بشىء سوى تقديم المساعدة المالية والذخائر والإمدادات العسكرية بما فى ذلك المدافع . ووعدته بإرسال طلبه إلى المندوب السامى فى برقية لاسلكية ، وإن مثل هذا الطلب سيقابل بقدر كبير من الاهتمام ، ولكنى نبهته إلى أن الوقت الذى تركه لنا قليل ، وأن هذه الأمور لا تتم على طريقة جنى البلح من النخيل .

ورد على سؤالى حول الحجاج الهنود بقوله إنه مع رفع الحصار البحرى بعد نجاح الثورة فإن الحجاج سوف يسمح لهم بالقدوم . وبينما كنت أكتب بعض نقاط مادار من حديث ، قلت له إن والده الشريف حسين سوف يتلقى قريباً خطاباً من سلطان مصر بالتعليمات الخاصة بالمحمل . عندئذ طلب زيد إرسال الفاروقى – وهو ضابط سورى يعمل بحكومة السودان – وكذلك أى عدد من الضباط السوريين يرى المندوب السامى إرسالهم على أن يصلوا أمام جدة يوم السبت ١٠ يونيو . وسأل بشغف كبير عما إذا كانت فيردان مازالت تقاوم . وقد شعرت بالارتياح لأنه لم يشر إلى سوريا وموضوع الخلافة من قريب أو بعيد . وكان زيد يوشك أن يتحدث معى عن العلم الجديد للدولة العربية المستقلة عندما جاء خادم يقدم لنا القهوة ، وما كدت أفرغ من ذلك حتى نهضت واقفاً ، وصافحته قائلا إن الوقت قد حان للعودة إلى السفينة حيث يشرفنا تناوله الإفطار معنا ويأخذ ما أرسله المندوب السامى لعبدالله وتركنا ما معنا من مشروبات للحراس ، وتم حملنا إلى القارب حيث قدمت لهما هوجارث وكورنواليس (اللذين وصفتهما بأنهما ضابطان كبيران على علم واسع بالجزيرة

العربية) ، ووصلنا إلى الباخرة دافرن حوالى الساعة التاسعة والربع ، وشرحت لهوجارث وكورنواليس النقاط التى تحدثنا فيها .

وذكر كورنواليس لزيد العدد الصحيح (كما نعرفه) للقوات التركية فى سوريا وهو ثلاثون ألف جندى ، ولكن زيد اعترض على الرقم ، وقد ودعناهما بعد أن عاتبانا على السماح لعريفان وروحى بالجلوس معنا على مائدة الإفطار . ثم قمنا بكتابة مسودة البرقية ، وكنت قد أطلعتهما على جهاز اللاسلكى وشرحنا لهما عمله ، وبدا عليهما الانبهار به ، كما شاهدا مدافع السفينة وحمام القبطان ، وغيرهما من التجهيزات . وكانت المقاعد والسجاد قد فرشت على سطح السفينة حيث جلسنا نناقش بعض النقاط الخاصة التى استعلم عنها هوجارث وكورنواليس حتى وصل بويل من فوكس ، فسألته عما إذا كان باستطاعته أن يقدم مدافع ماكسيم ، وعن الوقت الذى يستغرقه إحضار الضباط السوريين أمام جدة . فوعد بتدبير مدفع ماكسيم واحد ، وأن ينقل الضباط إلى الموقع المطلوب يوم الثلاثاء القادم ١٣ يونيو . وعندما عرض بويل التعاون ، قبل زيد ذلك متردداً ، على أساس أن يكون ذلك بناء على طلب كتابى ، وشرحنا له بالتفصيل استحالة تزويدهم برماة البنادق المهرة بمجرد طلبهم ذلك ، وكذلك صعوبة تحويل مدافع السفن لتصبح مناسبة للقتال الميدانى . وفكرنا فيما بيننا أن مصر أو السودان (إذا هدأت الأمور فى دارفور) قد تستطيعان تقديم بعض الأسلحة الأخرى وربما بعض رماة البنادق ، وتلبية لطلب طبيب السفينة وقفنا وجلسنا لالتقاط صور للمجموعة ، وعدت بإرسال نسخ منها إلى زيد وشاكر . وبعدها كتبا خطابين (كما كتبت خطابين يفيدان استلام رسالتى الشريف حسين وعبد الله) ، وزودناهما بالماء ، وتركا السفينة حوالى الساعة الثانية عشرة والنصف على متن القارب البخارى ورافقتهما وكورنواليس حتى بلغ القارب البخارى موقع قاربهما ، فقاما بتوديعنا حاملين معهما العشرة آلاف جنيه وكيسى « الحقيقة » ، وأرسلت لهما من السفينة ألف سيجارة لفيصل وعلى باعتبارهما المدخنين الوحيدين فى العائلة .

وواضح أن زيد رجل المهام فى العائلة ناعم فى أسلوبه ، غامض فى أفكاره . وعلى كل ، يبدو أنه شخص قادر على وزن الأمور ، صريح ، صادق ، قادر على أن ينقل أى تعليمات أو إيضاحات من وإلى والده فيما يوكل إليه من أمور ، أما شاكر

فلا يبدو فى الاعتبار ، وليس لديه معلومات سليمة ، ويبدو مستمعًا أكثر منه متكلمًا ورغم أن يقينهم فى النصر السريع الشامل يحمل مظنة المبالغة ، ويصعب تبريره على ضوء الحقائق والدلالات ، فإن خطة الثورة وطريقة القيام بها تحمل كل مظاهر الأصالة . وبعد أن تركناهما ، نقل إلىَّ عريفان تعليق شاكر : « ألا يرى الإنجليز أنه إذا لم يستطع الشريف أن يفى بوعوده للعرب بتقديم المال لهم ، يعد كاذبًا ، ويفقد مكانته بينهم ؟ فأين يكون النجاح إذن ؟ » .

وقد أبرقنا برسالة عن طريق بورسودان تضمنت وصفًا لما سبق ، ولكنها لم تصل إلا فى وقت متأخر من اليوم التالى (٧ يونيو) بسبب رداءة مجال الاتصال .

وقد تم إعداد مذكرتين عن هذه الرحلة ، وقد تلقيت يوم ٤ يونيو رسالة لاسلكية عن طريق الكابتن وارين تهنئة على أول وسام حصلت عليه ، ولكن هوجارث الذى يفضل التروى نصحنى بأن أتأكد من أن التهنئة وصلت فعلاً عن طريق وارين وليست لوارين نفسه . وقد كتبت الخطاب التالى إلى أسرتى :

« ما يسعد المرء أنه بعد عشرين شهرًا من تحمل ضغوط السلطات وإدارتهم الخد الأملس للنقد المضلل الذى تقدمه بسلمى ، مع دعم وإثارة عزيمة أصدقائنا فى مكة ، قام العرب بطرح نير الاستبداد والظلم جانبًا (كما ستعلن رويتر اليوم) بعد أن تحملوه كل تلك السنين . وسوف يوجهون ما يمكن أن يكون ضربة قاضية إلى المكانة الدينية للأتراك . وسوف يصبح التمييز بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، ومفهوم الدين والدولة ، والعرش ، والمسجد ، أمرًا لا معنى له (لأن السلطان القوى يضع عرشه فوق المنبر قبل الجلوس عليه) . إن فقد الحرمين الشريفين اللذين استغلا لزمن طويل سيحدد نهاية حياة اليهود [٩] الذين يحكمون عند البوسفور » .

عدنا إلى مصر فى غاية السعادة ، ووصلنا إلى السويس فى وقت مناسب للحاق بقطار الصباح الباكر . واشتريت صحيفة « البورص إجبشيان » الموالية للإنجليز

(٩) كان معظم أعضاء جماعة الاتحاد والترقى من الدونمة (اليهود المتخفين) ومن ثم كان تأثيرهم كبيرًا على سياساتها .

وصحيفة « الجورنال دى كير » المعادية لهم (ولكنها كانت - عندئذ - لسان حال الحلفاء) ، وقرأت العناوين « الحلفاء يكرمون اللورد كيتشنر » ، حيث تحدثت عن حفلات وكلمات في مدن عدة ، واستغرقت فى النوم ، وعندما استيقظت فى محطة القاهرة وجدت مجموعة من الأصدقاء المصريين فى انتظارى ، وقد ملأهم الحزن والدموع تترقرق فى مآقيهم ، وقالوا لى إنهم جاءوا ليقدموا إلىَّ واجب العزاء فسألت : « فيمن ؟ » ، فتعجبوا أن أكون لا أعرف حتى الآن بما حدث ، وقالوا لى : « إننا أصدقاؤه ، مثلك تماماً ، فلا تخف حزنك عنا ؛ لأن وكالة رويتر أذاعت الخبر » . عندئذ علمت أن اليد القوية التى وضعتنا على طريق الممكن ، القلب الكبير الذى أدين له بالكثير ، والولاء للوطن الذى لا يتأثر فى أى أزمة ، قد رحل إلى الأبد ، وشعرت - كما شعر الملايين غيرى دون شك - أننا الآن نواجه كارثة . وصاح أحد الشيوخ : « اللورد مات .. الله يرحمه » . وبعد عشرة أيام حمل إلىَّ البريد المتأخر رسالة بخطه المعروف ، تحمل تهنئة لى . وعلمت بعد ذلك بسنوات من السير چورچ آرثر أنه عندما كان يسير بسيارته لآخر مرة فى كينجز كروس ذكره كيتشنر بتهنئتى ، وكتبت إلى خالى هنرى كست :

« إن فقدى لرئيسى القديم العزيز ، الذى تعلم قبل غيرك كم أدين له بالفضل ، وقع علىَّ وقع الصدمة ، ثلاث سنوات مضت دون أن أسمع كلمة من الرجل الذى أثقلت كاهله المسئوليات ، والذى انحاز دائماً إلىَّ، وسيظل بالنسبة إلىَّ ذكرى عزيزة تشرفنى وأعتز بها . لقد كان وقع النبأ هنا حزيناً ، وقد تأثرت كثيراً لتلقى العديد من البرقيات التى تضمنت العزاء الشخصى وكأننى كنت من أقربائه المقربين ، وليس مجرد مرءوس وضعته الظروف بالقرب منه » .

* * *

كانت نتيجة الاتفاقية الأخيرة مباشرة ، فاستسلمت حامية مكة يوم ١٣ يونيو ، كما استسلمت حامية جدة يوم ١٦ يونيو بعد مهاجمتها برا وقصفها بحراً بواسطة السفينة الحربية البريطانية فوكس . وسقطت الطائف بعد ذلك ، ولكن حامية المدينة بقيادة فخرى باشا العنيد صمدت حتى نهاية العام . وقد أسر العرب جنودها دون

وقوع خسائر فى الأرواح على الجانبين ، وسبب نجاحهم الارتباك للأتراك والألمان؛ فذكرت صحيفة « كولنيش زيتونج » بتاريخ ٢٣ يونيو « إن التقرير كله يجب أن ينظر إليه كمحاولة لتدمير المكانة الروحية للسلطان .. ولكن النجاح يصبح محدوداً ، إذا وضعنا فى اعتبارنا أنه الرئيس الروحى للشيعة » . وأعلن اللاسلكى الرسمى ببرلين فى ٢٧ يونيو : « إننا فى وضع يسمح لنا أن ننفى تماماً أن ثمة ثورة قامت فى الحجاز » ، وفى ٢ يوليو أعلنت أنه : « وضعت نهاية سريعة للاضطرابات التى قامت بولاية الحجاز .. وتمت استعادة النظام ، والعدد المحدود من المتمردين يقيم الدليل على عدم أهمية الموضوع الذى حاولت الصحافة الإنجليزية والفرنسية أن تزيد من حجمه » .

وقد أصابت أنباء الثورة فى الحجاز المثقفين المصريين – فى بداية الأمر – بشعور من الاندهاش الممتزج بعدم الارتياح . وأعلنوا أن الأخبار زائفة ، وأن الإنجليز إنما يريدون بترديدها خداع الشعب المصرى والحط من شأن الأتراك . وحذرت الصحافة الإسلامية قراءها من انتظار التأكيد الرسمى لما نقلته وكالة رويتر من أخبار . وشاعت بين الناس نظرية تقول إن الشريف يتلاعب بالإنجليز على نحو ما فعل السنوسى العام الماضى ، وإنه استطاع بذلك أن يحصل منهم على ثلاثة ملايين جنيه . وبينما كان آخرون يتقبلون الثورة كحقيقة واقعة ، قللوا من شأنها باعتبارها مجرد واحدة من حركات العصيان التى تقوم بها القبائل فى الجزيرة العربية ، فالعرب أبعد ما يكونون عن الاتحاد الذى يحقق مواجهة فعالة للجيوش التركية ، وحتى لو تم تحقيق نجاح وقتى ، فإن مصيرهم ستحدده ميادين القتال فى أوروبا ؛ لأن الأتراك يستطيعون استعادة كل ما فقدوه عند انتصار ألمانيا فى الحرب .

وأبدى عدد من الخدم والحرفيين والفلاحين وطلاب الأزهر ابتهاجهم؛ لأن إخوانهم العرب سوف يتخلصون من القيود المفروضة على إمدادات الطعام . وألقى المعادون لبريطانيا من رجال الحزب الوطنى ، وأنصار الخديو ، والمؤيدون للأتراك ، اللوم على الشريف باعتباره عاصياً للخليفة وأداة فى يد الإنجليز .

وبعد بضعة أيام ، وبعد نشر الوصف التفصيلي للمناطق التي تم احتلالها وما ترتب على ذلك من نتائج ، تلاشت تدريجيا علامات الشك حتى اختفت تماما ، غير أن ثمة إشاعة انتشرت بين الناس وصدقها الكثيرون مفادها أن الثورة عمل مدبر تم الاتفاق عليه مع الأتراك بغرض إعادة فتح الاتصال البحرى بين الحجاز وتركيا . أما غالبية جماهير الشعب المصرى فظلت ترقب الموقف .

وإذا استطاع الشريف أن يحقق النجاح ، فإنه سيلقى تأييد عدد كبير من الأصدقاء فى مصر . وإذا فشل ، فسوف يلام لعصيانه الخليفة ، وستكون الإدانة قوية له ولمؤيديه .

وقام الباب العالى فى ١٦ يوليو بتعيين الشريف على حيدر شريفًا لمكة بدرجة وزير . وقد أصدر – فى أغسطس – إعلانًا يحمل خاتم إمارة مكة ، ولكنه لم يستطع الوصول إلى ما هو أبعد من المدينة ، وأشار فى ذلك الإعلان إلى أن العصيان قد تم بأوامر صدرت من المسيحيين [١٠] . وكانت هناك نتيجتان مباشرتان للثورة ، للحيلولة دون امتداد العمليات العسكرية التركية جنوب شرق جبهة التحالف الشرقية برا أو بحرًا ، وتحويل القوات البريطانية فى قناة السويس من وضع الدفاع إلى وضع الهجوم بتكوين رأس حربة تخترق قلب الدولة العثمانية [١١] .

وقبل مضى وقت طويل ، دعت الحوادث التى وقعت بجدة إلى إمعان النظر ، والوضع هنا لا يمكن أن يستمر على ما هو عليه سواء نجحت الثورة أو فشلت ، وبغض النظر عن استعادة النظام الداخلى (البلدية والشرطة وغيرهما) فقد كان من الضرورى إقامة شكل من أشكال الإشراف على الجهات التى تتولى أمور المدينة المحلية والدولية ، مثل الميناء والحجر الصحى ، وتعيين حاكم للمدينة قد يثير شكوك

(١٠) قمت بزيارة الشريف حيدر عام ١٩٢٣ ، وهو رجل مهذب يتمتع بقدر كبير من الجاذبية ، وذلك فى منزله ببيروت . وأحد ولديه عازف كمان ممتاز يحظى بإعجاب الكثير من الأمريكان ، وقد زارنى ولده الآخر فى قبرص حيث كان وكيلاً لشركة جنرال موتورز للسيارات .

(١١) (فى يونيو ١٩١٦) وجهت القيادة العامة الأوامر إلى السير موراى لبحث التقدم نحو العريش بحثا جديا بعد أن كان ذلك مجرد احتمال غامض .

العرب والحلفاء وحتى الزملاء المحايدين ، وقد تمت مواجهة الأمر بتعيين الكولونيل ويلسون – من جيش السودان – الذى استطاع أن يكسب ثقة الشريف . وكان مزوداً بمجموعة من الموظفين الأكفاء بمن فيهم حسين روحى الذى أعطيته الاسم الكودى « الفارسى الغامض » . وكتبت لويلسون « لقد قلت لروحى إننى قد سلمته لك جسداً وروحًا ، وأن عليه ألا يعتبر نفسه عيونك وآذانك فحسب ، بل ويديك وقدميك إذا تطلب الأمر ذلك ، وربما تدعوه الظروف يومًا ما أن يكون أنفك أيضًا » .

وبذلك أصبح « الفارسى الغامض » موجوداً بالحجاز ، يقدم خدماته الثمينة للعرب والإنجليز على السواء . وكانت خطاباته التى كتب نصفها بالإنجليزية ونصفها الآخر بالعربية تبعث فى نفسى السرور : « إننى الآن فى المدينة (جدة) أمضى الليل ، ذهبت إلى منزل محمد ناصف فأخبرنى أن الفاروقى وجميل يعملان بحماس لجعل الأهالى هنا يكرهون الإنجليز .. وأخبرنى شخص آخر أن رشيد رضا قادم إلى الحجاز ، وأنه سيبذل جهده لجعل الناس يتجاهلون الإنجليز . أرجو أن تبذل جهدك لإبقائه فى مصر أو ترحيله إلى مالطة . والغالبية هنا تتجه إلى الشعور بروح الصداقة تجاه بريطانيا ، وخاصة معظم أعضاء اللجنة الحاكمة .. أتمنى أن أستطيع التوصل إلى حقيبة الفاروقى ، وأحصل على نسخة من كتاب الشفرة حتى نستطيع أن نعرف كل ما يدور بينه وبين رئيسه ، فهو يضع الكتاب فى حقيبة صفراء صغيرة يمكن أخذها إلى صانع أقفال لفتحها فى غيبة الفاروقى . أعتقد أنه وغد » .

مازلت منشغلاً بما يجرى فى جدة ، فالعرب كانوا – دون شك – عراة غير مسلحين ، وأكثر اعتداداً بالنفس من اليونانيين ، رغم أنهم لا يملكون شيئًا . ولذلك علينا الآن التزام تجاههم ، وضرورى بالنسبة لنا أن نصب فى فم جدة الفاغر سيلاً متدفقًا من القمح والمال والإمدادات العسكرية ، لينتفع بها أناس على درجة عالية من الحساسية إزاء كل تصرف يمكن تفسيره أمام العالم العربى على أنه اعتداء على استقلالهم (حتى لو كان يستهدف الحفاظ على الصحة أو الأمن) . فإذا استطعت مواجهة الشريف وجها لوجه وهو ما لا مفر منه ، فسوف أشرح له الوضع وأحصل منه على كل التسهيلات والضمانات ونحن نتناول القهوة . ولا أظن أن الأمر يستحق أن

أقوم برحلة إلى جدة لأتحدث معه عبر خط الهاتف بين جدة ومكة ؛ لأن الوسطاء العرب لا يستطيعون نقل رسالة بغير الطريق البحرى .

وحانت الفرصة فى سبتمبر عندما أبلغت بمرافقة الأميرال ويميس ، قائد سفينة القيادة يوريالوس التى رافقت المحمل إلى جدة . ومازالت لدى يوميات هذه الرحلة التى أنقل عنها ما يلى :

٢٢ سبتمبر ١٩١٦ - غادرت سيدى جابر الساعة الرابعة وعشر دقائق مسافراً فى المقصورة المجاورة لمقصورة زوجة رشدى باشا التى أرسلت لى صغيرها غالب الذى يبلغ السابعة من عمره ليساعدنى على استخدام بعض ما أعرفه من التركية ، وفى بنها لاحظت وجود بعض العلماء بالقطار فى طريقهم إلى الحجاز لأداء الحج على نفقة سلطاننا ، فلم أحاول التحدث معهم حتى لا أكشف سر رحلتى وأجعل منها موضوعا للحديث بينهم . وركبت يوريالوس بميناء السويس فى تمام العاشرة لأجد الأميرال ، ونيثل برمستر ، والسكرتير يلعبون البريدج فى أكمام القميص .

٢٤ سبتمبر ١٩١٦ - لعبت الشطرنج مع الأميرال بعد الغداء ، ويمكن القول إنه يلعب أحسن من العزيز كيتشنر ، وبينما كنا نلعب الشطرنج تلقينا نبأ سقوط الطائف باللاسلكى ووقوع ١٨٠٠ جندى تركى فى الأسر ، كما تنبأت فى ٢٤ بالضبط، مما أكد قدراتى على التنبؤ ، وقد أحسسنا بالارتياح ، وكان معنى ذلك أن باستطاعتى أن أرى عبد الله وهـــو فى الطريق إلى فيصل ، وربما نحضر معنا غالب باشا والى الحجاز أسيراً .

٢٥ سبتمبر ١٩١٦ - تغلب علـــىَّ الأميرال فى الشطرنج (وكان ببغاؤه الرمادى لا يكف عن الصياح طوال الوقت بعبارة « اللعنة للقيصر » بلهجة إكسفورد) .

٢٦ سبتمبر ١٩١٦ - مررنا عبر شعاب جدة الخطيرة حوالى الساعة الثالثة والنصف لنجد السفينة هاردنج ترفع العلم المصرى الأخضر ذا الأهلة الثلاثة [١٢] على

(١٢) اختار السلطان حسين هذا العلم بديلاً لعلم مصر العثمانى الذى كان أحمر اللون يتوسطه هلال ونجمة واحدة .

ساريتها لتعلن عن أنها تحمل « المحمل » الذى كان موجوداً على متنها ، وبدت المدينة تحت شمس ما بعد الظهر كأنها منحوتة من العاج ، وصعد ويلسون إلى ظهر السفينة وبرفقته بويل من السفينة فوكس وبدا أكثر ابتهاجاً مما كان عليه فى مصر ، وهو لا يعتقد الآن أن الأتراك يستطيعون التقدم جنوب المدينة ، بل يتحدث عن انسحابات من بعض المواقع وردت بالتقارير .. ويعنى ذلك أنه لا حاجة لإرسال ألاى مصرى أو بطارية مدفعية فرنسية إلى رابغ ، مما جعلنى أتنفس الصعداء ، ونحرك المحمل على وجه السرعة صباح الخميس ، ونغادر بعد ذلك على متن هاردنج إلى رابغ التى تقع على مسافة سبع ساعات شمالاً ، على أمل أن أركب من هناك طراداً بريطانيا يقلنى على وجه السرعة إلى السويس ، وإلا تجاوزت المدة المتاحة لى . وقد وصل الكولونيل بريمون – رئيس البعثة الفرنسية – على ظهر السفينة برفقة حسين روحى حوالى الساعة الرابعة والنصف ، ومعهما سورى يرتدى السروال والعمامة ، وأسعدنى أن أعرف أن روحى رتب أموره للذهاب إلى مكة حيث يمكن أن يقوم بعمل مفيد . أما السورى اللزج فقد زعم أنه « مدير الأمن العام بجدة » . والجو شديد الحرارة رطب والهواء ساكن يبعث على الضيق . لعبت الشطرنج مع الأميرال ، وأرسلنا برقيتين إحداهما لقيادة البحرية والأخرى للمندوب السامى ، وآويت إلى الفراش فى الحادية عشرة ، وأنا أشعر أننى نصف مسلوق .

٢٧ سبتمبر ١٩١٦ – قرأت ما قمت بإملائه من قبل ، فوجدته يفتقد روح الصحة مثل أى شىء يخضع للتصويب الرسمى ، فقد أعددت التقرير لمصلحة الأميرال ، ولكنه الآن أصبح بالغ الاقتضاب . تركنا يوريا لوس فى التاسعة والنصف صباحًا ، وأبحرنا فى اتجاه مدينة جدة ، وتلقينا التحية ١٨ طلقة من مدافع مورتر قديمة ، واستقبلنا أعيان المدينة وويلسون .

وقبل مرور وقت طويل ، وصل روحى يحمل رسالة هاتفية من الشريف حسين يدعو الأميرال إلى حفل عشاء بجدة مساء الغد . فاعتذر – لحسن الحظ – عن عدم قبول الدعوة لضرورة توجهه إلى رابغ فى مهمة لصالح الشريف ، وقررت أن أبلغ رد الأميرال بنفسى واتجهت إلى الهاتف وطلبت رقم (١) مكة ، وبعد فترة صمت ، وصلنى صوت الشريف حسين ذاته ، مرحبًا بى فى جدة ترحيبًا حارا ، وسألنى عما إذا كان

الأميرال قد قبل دعوته ، عندئذ سمعت ثلاثة أو أربعة أصوات على الخط وقلت للشريف إنه يبدو أن المكالمة تسجل . فرد بأنه من المستحيل أن يحدث ذلك بمكة . فقلت إننى لا أعرف من أى اتجاه على الخط تأتى تلك الأصوات ولكنى واثق من سماعها . وسألته عما إذا كان قد سمعها بدوره ؟ فقال إنه فعلاً سمعها ، ووجدته يصرخ فى عامل السنترال بعبارات لم أتوقع سماعها من شخصية دينية مثله ، وطلب من العامل قطع جميع اتصالات الحجاز بالخط ما عدا هاتفه الخاص والخط الذى أتحدث منه وذلك لمدة نصف ساعة . وقد تم ذلك على الفور ، وأصبحنا نتحدث معا وسط سكون تام (١٣) .

وبعد أن سألت عن صحة سموه ، وهنأته على سقوط الطائف ، شرحت له السبب الذى يجعل الأميرال غير قادر على تلبية دعوته لحفل العشاء ، وعبرت له عن سعادة الأميرال لنيله شرف مرافقة المحمل إلى الحجاز . وقد أعرب عن تقديره لذلك ، وقال إن أمة تتمسك بدينها كالأمة الإنجليزية لابد أن تكن الاحترام لديانة غيرها .

وقد أعرب الشريف عن أسفه لعدم استطاعته الوجود فى جدة للترحيب بالأميرال شخصيا ؛ لأن وجوده ضرورى فى مكة فى مثل هذا الموسم ، وأنه بعد الانتهاء من موسم الحج ينوى إرسال ولده عبد الله إلى القاهرة ليتصل بالسلطات هناك ، أو أن يحضر الشريف بنفسه إلى جدة ، وفى هذه الحالة يأمل أن يعوض ذلك غيابه عن استقبال الأميرال . وتكلم بقدر أكبر من التفاؤل مما جاء بخطاباته الأخيرة عن الأحوال فى الحجاز ، واستطرد فى ذلك حتى أحسست أنه يلمح إلى مساعدة الحكومة الفرنسية ، فتظاهرت بعدم الاستماع إلى الإشارة الأخيرة وقلت إن الله ينصر جنده المؤمنين . وبعد عشرين دقيقة من الحديث الودى ، قلت له إننى أعرف أن موعد غدائه قد حل ، وبذلك أعطيته الفرصة لإنهاء المحادثة بعد أن وعدته بالزيارة قبل مغادرة جدة .

وبعد تناول الغداء مع يانج وكوتشران (اللذين بدا عليهما الإرهاق الشديد من كثرة العمل) مشيت فى المدينة إلى ما بعد البلدية لألتقى الشريف محسن وبطانته

(١٣) فى أول مقابلة لى مع الملك جورج الخامس عام ١٩١٩ ، رويت له هذه الواقعة ، فقال إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك فى لندن .

وأعود بهم إلى متن السفينة يوريالوس ، فأصروا على أن أركب معهم قارب البلدية الذى حملنا إلى فوكس ، وانتقلنا منها إلى سفينة القيادة يوريالوس حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر . ولم يكن هناك الشريف وبطانته فحسب ، بل كان معهم عدد كبير من الحراس ذوى المظهر المزرى ، عند تفقدهم لسفينة القيادة . وقد بهرتهم المدافع الكبرى حتى إنهم لم يصدقوا أن تكون هذه مدافع على الإطلاق ، كما انبهروا عند رؤيتهم الروافع ونظام الإشارة ونظافة مقصورة الأميرال وتوفر وسائل الراحة بها ، وغادروا السفينة وقد علق بأذهانهم عظمة المدافع والشعور بالرضا لاختيارهم الجانب الرابح لمساندتهم ، وأسعدنى أن يكون ذلك الأثر واضحًا عند الشريف محسن وسليمان قابيل ، وهما أكثر أعضاء الفريق ذكاءً .

قال الأول : إن ما شهدناه يمثل القليل مما عليه حال إمبراطورية بريطانيا العظمى . وقال لى الآخر : إنه لم يكن يصدق قبل ذلك أن مثل هذه السفينة الضخمة تستطيع أن تطفو على سطح الماء .

ونتيجة لهذا اللقاء ، تلقى الأميرال دعوة للركوب على رأس موكب المحمل عبر مدينة جدة ، وهو تشريف جرأنا دون تردد على الاعتذار عن عدم قبوله [١٤] .

وبمجرد عودة القارب إلى فوكس ، ذهب الأميرال إلى السفينة هاردنج لرد الزيارة الرسمية التى قام بها فتحى باشا أمير الحج صباح اليوم . وكان اللواء فتحى باشا مرتديًا ملابس الإحرام منذ الصباح ، وعزفت الموسيقى سلام التحية ، وكان جميع العازفين وقائد الفرقة الموسيقية - أيضًا - بملابس الإحرام .

قمت بتحرير برقية بالفرنسية موجهة من الأميرال إلى السلطان حسين يهنئه فيها على سلامة وصول المحمل . جدة مدينة ممتعة وإن كانت مرهقة ، تكاد شوارعها تخلو من النساء . وعلمت أن الحشيش والخمر متوفران على أطراف المدينة ، وبيع الخمور غير مباح علنًا ، ولكن اليونانيين يبيعونه من نوافذ بيوتهم ، ويحاول الشريف أن يضع

(١٤) لأسباب مماثلة لذلك ، وبعميق الأسف ، كان علىَّ أن أرفض الدعوة الشخصية التى تلقيتها من الشريف لزيارته فى مكة .

حداً لتلك التجارة ، والمدينة نظيفة بصفة عامة وتفتقر إلى الأصالة ، وعند عودتى للسفينة أمليت باسم الأدميرال مقتطفات من يومياتى ، ولكن إسماعيل - خادمى الخاص - ذهب إلى المدينة منذ الصباح ، ولم أره بعد ذلك .

٢٨ سبتمبر ١٩١٦ - استيقظت فى الخامسة والنصف ، وتركنا السفينة مع الأميرال وجميع الطاقم فى السادسة والنصف فوصلنا إلى الشاطئ بعد السابعة ، لنجد أن موعد موكب المحمل قد تغير للمرة الخامسة ، وأنه لن يبدأ التحرك قبل التاسعة ، فلم يستطع الأميرال تحمل ذلك ، وهو الذى « تسير حياته كلها وفقًا لمواعيد دقيقة » ، وأدهشه عدم شعورى بالضيق ، وقد قررنا أن نشاهد نزول المحمل إلى البر من فوق مبنى الحجر الصحى .

قام الأميرال مشكورًا بترتيب انتقالى شمالاً من رابغ على متن طراد إلى السويس ، وصلنا رابغ الساعة الرابعة والنصف ، وفى المساء سمعنا من مترجم السفنية دافرين أن الشريف على بعث برسالة يمنعنا فيها تمامًا من النزول إلى الشاطئ ، وغضب الأميرال لذلك ، فأرسلنا روحى إلى الشاطئ حاملاً رسالة نقول فيها إننا جئنا بناء على طلب الشريف حسين لمساعدته ، وإنه إذا لم نجد الخيول على الشاطئ صباح الغد على نحو ما تم الإتفاق عليه من قبل ، فسوف نقوم بسحب جميع السفن ونتركه لمواجهة مصيره وحده ، وفى الوقت نفسه أرسلنا برقية لاسلكية إلى يانغ فى جدة ليتحدث هاتفيا إلى الشريف حسين شارحًا وجهة نظرنا .

٢٩ سبتمبر ١٩١٦ - استيقظت فى السادسة ، وحزمت أمتعتى لترسل إلى الطراد إسبيجل ، وعلمت من روحى أن الشريف على لم يرسل أبداً الرسالة المنسوبة إليه ، وأن الخيل والكوفيات التى تقينا حرارة الشمس معدة لاستقبالنا ، وجاء الشريف على إلى الباخرة فى السابعة والنصف ، وهو رجل وسيم نحيل متوسط الطول ، ويصحبته نورى بك المستشار العسكرى من بغداد ، وأحد الأسرى لدى حكومة الهند الذين قمنا بإطلاق سراحهم ، وكان يرتدى البزة العسكرية الكاكى وعلى رأسه كوفية ، أما الشريف على فكان يرتدى عباءة سوداء ، وكوفية من الحرير وعقالاً مذهبًا ، وقدمنا له القهوة على ظهر السفينة عندما قدمنى روحى له ، فحيانى بحرارة وأجلسنى

إلى جواره ، وقبل الثامنة ذهبنا إلى الشاطئ ، ووضعنا الكوفيات الحمراء فوق خوذاتنا ، وركبنا الدواب ، وقمنا بفحص خطوط الدفاع في مواجهة أي محاولة للتقدم من المدينة إلى جدة ومكة عبر رابغ ، وكان ارتداء الكوفية لا يقينا الشمس بقدر ما كان الهدف منه أن يقي الشريف علي من انتقادات البدو للسماح للمسيحيين لابسي الخوذات بالنزول إلى أرض الحجاز . وقد تركت الأميرال يتحدث إلى الشريف علي لأطول وقت ممكن ، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً ، فما لبث علي أن استدار قائلاً : « لماذا لا تسير إلى جوارنا ؟ » ، وعبرنا سهلاً رمليًا واسعًا ، ووجهنا أنظارنا صوب جبل صبح ، نتأمل موضع الجناح الأيمن لقوات العرب ، ومررنا عبر الوسط إلى الجناح الأيسر ، واستغرقت تلك الجولة من الثامنة والربع حتى الثانية عشرة إلا عشر دقائق . والخط محاذٍ للطريق السلطاني من المدينة إلى رابغ ، وعلى مسافة سبعة آلاف ياردة من مجال نيران مدافع السفن الحربية التي بإمكانها تغطية الجناحين نهارًا . وأظن أن الأتراك لا يستطيعون التسلل عبر بساتين النخيل ليلاً إلا نادرًا ، وهناك مساحة حوالى ٢٠٠ ياردة على الشاطئ تصلح مطـــارًا ، ولكن وجــود الماء ليس مؤكدًا ، وأدهشني أن عليًا لم يكن قد سمع بخبر وفاة اللورد كيتشنر ، فقد علمت أنه قضى ثلاثة شهور في الصحراء لم تصله خلالها الصحف ، وشرحت له سبب ترددنا في إرسال قوات بريطانية حتى إلى ساحل الحجاز ، فذكر لي أنهم إذا حصلوا على ثلاث بطاريات مدفعية ، واحدة للدفاع ، واثنتين للزحف على المدينة ، فإن ذلك يكفي بالنسبة إليهم . وعلى عكس نوري الذي يجيد الفرنسية ، واستطاع التقاط بعض الإنجليزية فترة وجوده في الهند ، فإن الشريف علي لا يعرف إلا العربية ، وهو رغم جاذبيته ليس له قوة الشخصية التي لعبدالله وفيصل ؛ مما يجعلهما الروح المحركة للأسرة ، وعدنا بعد تبادل التحية ، ونقلني الأميرال عند الظهر إلى الطراد إسبيجل ، ثم سافرت بالقطار من السويس إلى الإسكندرية .

إن قضاء ثلاثة أيام وست ساعات في الرحلة التي قطعها إسبيجل تحذير كاف لكل من تسول له نفسه الإسراع في العودة إلى العمل ، فالسفينة صغيرة الحجم ذات تسهيلات محدودة . وقد ذكر لي القبطان عدة مرات أن قاع المركب أعمق بوصتين حتى إن الآلات لا تصل إلى سرعتها القصوى وهي ١٣,٥ عقدة ؛ لأن المد ينقص عقدة من

السرعة ، وعانت نقصًا فى رصيد الفحم ونحن فى خليج السويس ، وكان من حسن حظنا أن وصلنا السويس يوم الاثنين .

* * *

ما كدت أصل إلى الإسكندرية حتى تلقينا برقية من الشريف عبدالله يطلب منى العودة – مرة أخرى – إلى الجزيرة العربية للالتقاء به ، ومن المفترض أن أشعر بالسعادة لهذه الأهمية (١٥) التى اكتسبتها ، ولكن لم يكن هناك طراد فى السويس عندئذ . والسفينة الوحيدة التابعة لشركة البوستة الخديوية استعارتها قيادة البحرية البريطانية ، ولم أقبل نصيحة رئيسى بأن أتجه إلى السودان برا ، ثم أتجه من هناك إلى جدة ربما على سفينة نقل الفحم . وكم تمنيت أن يطلب عبد الله مقابلتى عندما كنت فى بلاده ، كانت هناك أزمة أخرى فى رابغ حيث من المتوقع أن يقوم الأتراك بهجوم لفك الحصار عن المدينة .

وفى أكتوبر قمت برحلتى الثالثة إلى الحجاز ، وبررت هذه الزيارة بإرسال التقارير نقلاً عن يومياتى الخاصة بها ، ولأعطى فكرة عن الجو الذى تمت فيه هذه الزيارة ، إنها تلك الإثارة (التى أوردتها فى أكثر من موضع فى كتابى) ، ولكن لأنه خلال هذه الرحلة – وبعدها بقليل – جاء لورانس من القاهرة ليصبح بعد قليل « لورانس الجزيرة العربية » والشهرة العالمية التى اكتسبها تجعل من الصعوبة بمكان أن أحل مكانه فى المفهوم الأصلى الذى عرف به ، وأعترف – بقدر من الخجل – أن إشارتى إليه تأتى عرفانًا بفضله لمساعدته لى فى موضوع طابع بريد الحجاز وفى غيره من الأمور ، وللقيمة العالية التى يضفيها تقديره لأى أمر من الأمور ، وصحبته الطيبة البديعة ، وتتضمن مقتطفات يومياتى عن أكتوبر ١٩١٦ ذكره الذى يرد بصورة غير منتظمة أو دقيقة .

(١٥) كنت أتلقى من وقت لآخر برقية من مكة عبر جدة وسواكن « الرجا حضوركم على وجه السرعة ، وأن تحمل معك مثل المبلغ نفسه الذى أحضرته فى المرة السابقة » ، وهى دعوات مكلفة ، ولم يصاحبها دائمًا حظ حسن .

١٢ أكتوبر ١٩١٦ - فى الطريق بالقطار من القاهرة بصحبة لورانس الشاب ، رفيقى الجديد .

١٣ أكتوبر ١٩١٦ - الساعة الثانية على ظهر الباخرة لاما من بواخر الهند البريطانية حمولة ٢٠٠٠ طن ، القبطان حسن المظهر ، وخصص لى مقصورة الطبيب الجيدة تمامًا ، فى الطريق إلى جدة لشراء جمال بما يعادل عشرة آلاف جنيه ، وقد شارك لورانس أحد البحارة مقصورته ، وهناك جراموفون « مهدى من سيدات بومباى » يعمل باستمرار . وأعلن أن وصولنا إلى جدة قد يكون مساء الأحد أو صباح الاثنين على أكثر تقدير . وبعد أن أعلن القبطان عن الفأل السيئ لإبحارنا يوم الجمعة ١٣ بعشر دقائق انفجر أنبوبان من أنابيب الغلاية ليجعل ذلك الوصول مساء الأحد أمرًا مستحيلاً ، وأتنبأ بصعوبة العودة من جدة ، ولكنى سوف أصمم على العودة للسويس بعد عشرة أيام ، ما لم يمنعنى من ذلك أمر طارئ . فيكفى ما عانيته من زياراتى الثلاث . وقد تحدثت لمدة عشرين دقيقة مع ضابطين مصريين يبدو أنهما لا يعرفان عما يجرى إلا قليلاً ، وأويت إلى فراشى بعد قراءة ٦٠ صفحة من إحدى الروايات .

١٤ أكتوبر ١٩١٦ - استيقظت فى السابعة والربع ، ويبدو أننى قضيت معظم اليوم فى الكتابة وقراءة الروايات والنوم ، فالحرارة أخذت تشتد ويزداد معها الملل والضيق . وتبين لى أن السفينة محملة بالفحم والذخائر بما يزيد على حد الأمان بقدمين ، وهو اعتداد بالنفس قد يكلف القبطان - زمن السلم - غرامة قدرها ٥٠٠ جنيه إسترلينى . تعلمت من لورانس فكرة وتطبيق شفرة بلاى فير ، وبدأت أتعجب لتميزه عنى ، أيرجع ذلك إلى تعامله مع الظروف كل بالطريقة التى تلائمها وإن واجهته بعض العقبات القليلة ؟! أصيب خادمى سعيد بدوار البحر مرة أخرى ، وأصابه الرعب عندما قلت له إن الإصابة الثالثة تجلب الموت من كثرة القيء بالقرب من أرض الحجاز . أويت لفراشى فى العاشرة والربع .

١٥ أكتوبر ١٩١٦ - واصلت قضاء الوقت فى القراءة ، وأعددت قائمة تتضمن معلومات دعائية ليتم توزيعها من جدة عن موضوع طابع بريد الحجاز الجديد . تدريب

على استخدام المسدس بعد الغداء بإطلاق الرصاص على الزجاجات فوق سطح السفينة ، لم أشترك فيه لإحساسى بالنعاس ، ولكن صوت الرصاص صم أذنى وحرمنى من القيلولة ، وأخذت فى اعتبارى فكرة عدم البحث عن أية سفينة متجهة شمالاً فى رحلة العودة والقفز على متنها ، وقد وجد الكابتن سكوت أن رأيى هذا له وجاهته ، وفى الليل تم تبادل الحديث مع سفينة الحجاج الخديوية المتجهة إلى السويس .

١٦ أكتوبر ١٩١٦ – وصلنا ميناء جدة الساعة السابعة صباحًا ، وجاء يانج إلى السفينة ليأخذنا معه إلى القنصلية ، فوصلناها الساعة التاسعة والنصف ، وجدت ويلسون فى حالة مزاجية سيئة ، لا يعرف من يمثل ، وممن يتلقى أوامره ، ولم يخبرنى بشىء عن التفاصيل ، أو عما يسميه « السياسة العامة » . وقلت له إن هذا المصطلح لا وجود له خارج ألمانيا فيما عدا الولايات المتحدة واليونان ، من منطلق مفهوم الدفع نقدًا والتغاضى عن الاستدانة .

وصل الشريف عبد الله ، وعسكر خارج المدينة على بعد أربعة أميال إلى الشمال الشرقى ، وقد ركبت وويلسون عبر باب الشمال ، وكانت تقع على يميننا فى أثناء الطريق المعسكرات التركية التى هدمت نصفها مدافع أسطولنا فى يونيو ، وقد تم إصلاحها ، وتقيم بها الآن المدفعية المصرية بقيادة سعيد على باشا ، وبعد ذلك بقليل يوجد مبنى محاط بسور أبيض وسط سهل « ضريح أمنا حواء » ، تعلوه قبة خضراء جميلة يحيط به عدد من البيوت القليلة ، مشكّلة بذلك ضاحية للمدينة . وكان معسكر عبد الله مكونًا من ست خيام : أربع دمشقية الصنع واثنتان هنديتان ، وخرج عبد الله لتحيتنا بحرارة ، وقدمت ويلسون له ، ولم يكن قد تغير من لقاء كيتشنر وعابدين قبل عامين ونصف العام بالقاهرة ، وأعجب لتعرفى على أحد حراسه الذى كان برفقته عند وجوده بالقاهرة ، وكان عبد الله يرتدى كوفية صفراء من الحرير وعباءة من وبر الجمل وقميصًا حريريًا أبيض وحذاء بأزرار ، ولم يكن لدى أو لدى ويلسون أخبار مثيرة ننقلها إليه ، أو هدايا نحملها إليه ، واكتفى بالحديث معنا لمدة أربعين دقيقة ، مفضلاً أن يكون حديث العمل عند زيارته للقنصلية بعد الظهر . ولم أر فى حياتى توافقًا مثلما وجدت بين الخيمتين الدمشقيتين ، فالمدخل يمثل واحدًا من جوانبها

الثمانية ، وجانب آخر يمثل الباب إلى مكان النوم ، والحوائط مزينة بزخارف كتلك التى نجدها فى الخيامية بالقاهرة ، ولكنها أخف ومليئة بالطيور والزهور وعبارات تحض على الفضائل وتقبح الطغيان .

وقد أخبرنا عبدالله أنه بعدما تلقى تحذيراً من الدكتور معلوف من وجود حمى فى جدة فضل أن يقيم معسكرًا خارجها ، ولهذا السبب لا يوجد اتصال تليفونى معه . وأبدى أسفه الشديد لوفاة اللورد كيتشنر ، وأبدى علامات التعاطف مع الخديو السابق ، ويرجع هذا التعاطف إلى تمتعه بضيافة الخديو مرات عديدة ، وتمنى أن نستطيع عمل شيء من أجله ، كما اعترف بإعجابه بالألمان كرجال وكذلك بالأتراك . وبعد مرور ثلاثة أرباع الساعة حاولنا التحرك للانصراف ، ولكنه لم يأذن لنا ، وصمم على بقائنا لتناول طعام الغداء . وأصر على موقفه حتى اضطررنا للقبول ، وكنا سعداء بذلك ، فقد وجدنا فى خيمة هندية وجبة أوروبية فخمة أعدت خصيصا من أجلنا ، وكان صاحب هذه الفكرة هو سليمان قابيل رئيس البلدية . وعندما أبديت إعجابى بالطعام ، سألت عبدالله عن طبيعة وظائف البلدية فأصر على أنها مدنية وأن سليمان ينفق عليها من جيبه الخاص ، (ميزانية البلدية الشهرية ١٤٥٠ جنيهًا إسترلينيا ندفع منها ٤٠٠ جنيه والباقى يدفعه الشريف) . وقد جلس ويلسون فى مواجهة عبد الله ، وجلست إلى يمين عبد الله ، وفى مواجهتى رجل أشيب اللحية قيل لى إنه سيتولى وزارة مالية الشريف وإلى جانبه شيخ من حضرموت يبدو كتمثال من الخزف الصينى ، وعند طرف المائدة بعيداً عنى جلس ضابط سودانى عجوز (من ضباط كيتشنر) . وفجأة هبت رياح السموم متجهة نحو الخيمة . وفى أثناء تناول الطعام أبدى الضابط السودانى رغبته فى الانصراف إلى بعض واجباته العسكرية وانسحب من المائدة ، ولم أعلم إلا بعد خمس دقائق من انصرافه أن الفلفل طار من الإناء الخاص به فى اتجاه عينيه ، واعتبرت المجموعة هذه الواقعة طرفة مضحكة . وبعد تناول القهوة المرة ، طلبت أن أشرب فجيء بالماء فى كوب فضى ، وعندما شربته عن آخره صمم عبدالله أن آخذه معى ، واستنتجت أن الكوب خاص بالشريف ، وقام خادم عبد الله بلف الكوب لى .

وأطلعني عبدالله على سيف غالب باشا الذى سلمه له عند سقوط الطائف ، وهو سيف عادى ، وحوالى الثانية بعد الظهر انصرفنا إلى جدة ودخلناها هذه المرة من باب مكة (الذى خرج منه مئات الملايين لأداء الحج عبر ١٣ قرنًا من الزمان) ، ومررنا على « ضريح أمنا حواء » مرة أخرى ، وعندما عدنا إلى القنصلية وجدت أن طمسون قد نجح فى ترتيب عودتى فى اليوم التالى على متن سفينة الحج الفرنسية أورينوك التى كانت راسية لإنهاء خدمات الحجر الصحى .

لم أكن أتطلع إلى عودة عبد الله للتباحث معنا ، فقد أدهشنى أن أعلم من ويلسون أنه قد تلقى برقية من السردار بالقرار النهائى لحكومة صاحب الجلالة بعدم إرسال قوات بريطانية إلى الحجاز . وأن نخبر عبد الله أن الآلاى الذى وعدنا بإرساله أكثر من مرة لن يتم إرساله ، وأن طلعات الطيران التى وعدنا بإرسالها إلى رابغ قد تم سحبها ، فى الوقت نفسه الذى أعلن فيه عن ظهور الطائرات التركية . ومن الناحية الشخصية كان لى شرف الحصول على تعليمات تمنعنى من التحدث فى الأمور العسكرية ، وأننى لن أتلقى التأييد فى حالة وعدى بأى دعم سياسى ، كما لم أزود بالعشرة آلاف جنيه التى طلبها منى عبد الله ، فأحسست أننى لست مهيأ للعب الدور المفترض أداؤه ، وكتبت الكثير عن الصداقة مع عبد الله ومدى نفعها فى الشئون العربية ، وقد التقيناه عند وصوله إلى القنصلية أمام الباب الخارجى ، وقرأ له ويلسون البرقية بالإنجليزية بصوت عال ، وقمت بالترجمة إلى العربية . وكانت اللحظة التى شرحنا فيها أن قرار عدم إرسال الآلاى يصاحبه عدم إرسال الطائرات لحظة ذات وقع سيئ ، ولم يكن فى نيتى أن أقدم موقف حكومة صاحب الجلالة لعربى للمرة الثانية على ضوء تلك البرقية ، وتلقى عبد الله الأمر برباطة جأش ، وطلب أن نسمح له بشرح واقع الحال .

ووجه حديثه على الفور إلىَّ ، فقلت إنه لا تتوفر لى المعرفة ولا الكفاءة ولا السلطة للخوض فى المسائل العسكرية ، فأجاب : « عفوًا ، لقد كان خطابك ورسائلك وراء قيام هذا الأمر » ، وقدم عرضًا موجزًا للمفاوضات التى دارت معه ، ذاكرًا وعود حكومة صاحب الجلالة بأن نقدم كل ما باستطاعتنا لمساعدة العرب ، وأورد جملة من خطاب تلقاه من ماكسويل يضع تحت تصرفهم المطلق ما يمكن جمعه من القوات البريطانية ،

وكانت هذه الوثيقة فى مكة ، ولكنه استطاع أن يحضرها لنا بعد عشر ساعات ، وقال إن موقفنا تجاه العرب أصبح باردًا ، وإن ثقتنا بهم قلت ، وطرح علينا سؤالاً مباشـرًا « من كان المسئول الحقيقى عن إدارة العمليات ؟ » .

لم يخف زملائى العسكر لمعاونتى ؛ لأن ويلسون لم يفهم نصف العربية الفصحى الجميلة التى يتحدث بها عبدالله ، والتى كنت أترجم بعضها من حين لآخر ، ولكن لورانس فهم الحديث بصورة أفضل ، واستمرت المناقشات دون التوصل إلى نتيجة مهمة . وتم الاتفاق على متابعة المحادثات مع عزيز على بك المصرى - رئيس أركان جيش الحجاز - وسعيد على باشا (وزير الحربية) فى العاشرة من صباح اليوم التالى ، وأخذ عبد الله على عاتقه مهمة إبلاغ والده بما أعلناه عليه هاتفيًا ، وقد تحدثت أيضًا إلى الشريف حسين مقدمًا التحية ، وكنت أستمع فى أثناء الحديث إلى صوت الموسيقى التى كانت تعزفها فرقة خارج القصر فى مكة ، وقد تلقى الأمر برباطة جأش تدعو إلى الإعجاب ، قال إن لديه ثقة تامة فى نوايانا ومشروعاتنا ، ولكنه دعانى وويلسون إلى إرسال برقية لحث حكومتنا على إعادة النظر فى قرارها الأخير ، من منطلق اعتقاده بقدرتنا على التأثير على قرارات مجلس الحرب . وغادر عبد الله القنصلية حوالى الساعة السابعة والربع (بتوقيت جدة الذى يسبق توقيت مصر بساعة) ، وتركنا جميعًا ونحن نحس بالإعجاب به ، والاشمئزاز من أنفسنا .

ولم يسمع عبدالله أو ويلسون نبأ اعتزامى السفر صباح اليوم التالى على ظهر الباخرة « أورينوك » ، ولذلك عدلت عن السفر ، على أمل أن يسعدنى الحظ بالعثور على فرصة أخرى للسفر تضمن وصولى السويس قبل يوم ٢٦ أكتوبر . وتناولت العشاء فى السابعة والنصف مع الكولونيل بريمون والبعثة الفرنسية بمقر القنصلية الفرنسية ، فجلست على يمين بريمون فى مواجهة المترجم ، وابن غبريت رئيس البعثة المغربية الإسلامية الفرنسية الذى كان قد عاد لتوه من الحج ، وكان رئيسًا لديوان مولاى حافظ (سلطان مراكش) ويعمل - فى الوقت نفسه - جاسوسًا لحساب الفرنسيين ، وهو الآن يعمل مستشارًا سياسيا بالخارجية الفرنسية . كان ابن غبريت مهندمًا فى زيه الوطنى ، ماهرًا يرسم على وجهه ملامح مزيفة لا تعبر عن حقيقة مشاعره ، عيونه متطلعة دائمًا لمن حوله ، وكان إيمانه مثيرًا للضحك على نحو ما

تبين من وصفه لشعائر الحج فى مكة . وعلق على سلوك رشيد رضا ، وأبدى استغرابه لسماحنا له بالتوجه إلى مكة للحج ، وكنت حذرًا عند الرد قائلاً : إن من مصلحة المغرب الإسلامى أننا لا نحول بين إنسان وحقه فى أداء فروضه الدينية . وأشاد ابن غبريت بصحيفة « القبلة » ، وقال إن علَينا بذل الجهد لتوزيعها على نطاق واسع ، وإن محررها فؤاد الخطيب (الذى أعرفه بميوله الفرنسية) رجل طيب ، وأبدى إعجابه بالشريف حسين الذى يتسم بالهيبة والوقار معًا ، يستقبل حوالى ثلاثة آلاف زائر يوميا ويقدم لهم القهوة . وذكر أن وسائل الراحة نادرة فى مكة ، ولكن أسعار الحاجات الضرورية معقولة فيما عدا إيجار السكن ، وأن بيع العبيد ما زال موجوداً ، وأن أحد أعضاء البعثة اشترى جارية جركسية ، وعند رجم الشيطان فى منى فقد جزءًا من ذخيرته من أجل الحصول على كمية من الحصى .

وعندما جاءت الشمبانيا رفع بريمون كأسه ، وقال - بشىء من الوقار - إن قريبه الوحيد من الذكور لم يكن قد قتل أو أصيب حتى الآن ، ولكنه أصيب بجرح خطير، ولذلك فمن دواعى فخره وواجبه أيضًا أن نشرب نخب الحلفاء ، وليعبر عن سعادته بمشاركته للإنجليز ، وشربت نخب شفاء ابن عمه ونجاح البعثة الفرنسية فى جدة .

وكان طريق العودة إلى الحجر الصحى يذكرنى ببيت ملتو (زجزاجى) فى أحد ميادين فينسيا مما أثار استغرابى ، كما كانت الشوارع المحيطة بالميناء مليئة بحشود من الحجاج النائمين على أرض مبللة رطبة لتأخر وصول السفن التى تحملهم إلى ديارهم ، أو انتظاراً للصعود إلى متن السفن . ووصلنا إلى الباخرة لاما الساعة الحادية عشرة والنصف ونحن فى غاية الإرهاق .

١٧ أكتوبر ١٩١٦ - تركت لاما فى التاسعة صباحًا ، وكان لدى وقت كاف للحديث مع سعيد على باشا - الذى أحبه كثيرًا - قبل وصول الشريف عبد الله إلى القنصلية ، وكان ويلسون قد أفهمنى أن سعيد على وضباطه طلبوا العودة إلى السودان ، ولكن تبين لى أن ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة ، وهو يقول إن العرب يتسمون بالجبن وعدم الانضباط ، وعبر عن خشيته من أن يتخلى هؤلاء عن القيام بدورهم ذات يوم تاركين رماة البنادق يواجهون الموت على يد الأتراك (ويجب أن

نعترف أن لهذه المخاوف ما يبررها) ، وهو يشكو من أنهم اعتادوا ترك سلاحهم بالمعسكر ليلاً ، وأن الكثيرين ممن تسلموا سلاحًا وذخيرة من الشريف اختفوا فى الصحراء ولا يعرف عنهم شيء . وأضاف أن عبدالله على علم بتلك العيوب ، ولكن الشريف حسين لا يعرف عنها شيئًا ، وأنه لا يستمع إلى أى نقد يوجه للقوات العربية ، وأن الضباط السوريين يتكلمون كثيرًا . أما عن الترك ، فإذا لم يصدقوا أن فى مواجهتهم ثلاثين ألفًا من الجنود المصريين المدربين ، لكان باستطاعتهم القضاء على الخارجين عليهم فى جدة ومكة والطائف ، فقد أحرقوا فى الطائف مجموعة الكتب القديمة التاريخية التى امتلكها الشريف . وسمح لسعيد على أن يأخذ غالب باشا والأسرى الأتراك ، وعندما غادر الطائف شكره غالب باشا بحرارة ، وقال إنه يعرف أن العرب كانوا ينوون قطع رقابهم ، فى النهاية ، لم يكن سعيد على باشا يرغب سوى فى الاستمرار فى القتال من أجلنا ، ولكن يفتقد هنا وجود نواة من القوات المدربة أو المنضبطة على الأقل التى يمكن الاعتماد عليها . قلت إنه إذا كان اللورد كيتشنر وغيره من كبار الضباط الإنجليز قد تصرفوا على هذا النحو قبل عشرين عامًا ، لما كان للجيش المصرى وبطاريات المدفعية وسعيد على نفسه وجود فى الوقت الحالى .

وصل عبد الله حوالى الساعة العاشرة ، وأخذنا نتابع النقاش فيما كنا نتحدث فيه بالأمس مع معاونة سعيد على باشا وعزيز على بك المصرى ، وقد بدأ عبد الله بقراءة برقية من فيصل مؤداها أن هناك طائرتين تركيتين بدأتا العمل ضدهم ، وأثار القصف الجوى فزع العرب ، وقال إنه إذا لم يتم إبعاد الطائرتين أو التخلص منهما فسوف يتفرق شمل العرب ، وأكد سعيد على احتمال حدوث ذلك ، وقال إن من المستحيل تدمير الطائرتين عن طريق الرشوة ؛ لأن الأتراك لا يستخدمون العرب إلا فى قوافل الإبل . ورأى عزيز على أنه ليست هناك حاجة إلى ألاى من الجنود ، ولكنه لم يستطع أن يقول ذلك أمام عبد الله الذى كتب طلبًا رسميًا بذلك ، وطلب منا أن نرفقه ببرقيتنا ، وحوالى الثانية عشرة اتصل بنا الشريف حسين هاتفيا ، واستمر يتصل بنا بين الحين والآخر - بلا هوادة - حتى الواحدة والنصف ، وكرر ما قاله لى أكثر من عشر مرات طالبًا مده بالألاى والطائرات ، حتى اضطررت أن أقول له إننا لا نحتفظ بالجيش البريطانى فى حديقة القنصلية ، وهنا أيضًا وجدت زملائى العسكريين لا نفع

منهم ، وقد تركت أمرهم لويلسون ، ورفضت أن يضمّن ويلسون البرقية التى أرسلها أيًا من آرائى الشخصية . وقبل أن ينصرف عبد الله أبدى رغبته فى أن يرانى على انفراد بعد الظهر ، وبعد الغداء تجولت فى المدينة لالتقاط بعض الصور ، ولقيت تعاونا من المارة . وأبدى رجل عجوز رأيه فى صعوبة إدخال مبنى كبير فى آلة تصوير كوداك بهذا الحجم الصغير . وجدت المدينة أنظف وأحسن رائحة وأكثر رونقـًا من أسواق القاهرة إلى حد كبير .

وركبت الحصـــان ، وذهبت عبـر باب الشمال لمقابلة عبدالله على بعد ميل من المدينة ، وقـد أخطأت فى التوقيت العربى ، وكان عليه أن يلتقى مع بريمون الذى سار معى تقريبًا ، ولكنى أبطأت حتى لا يتأخر وصوله إلى القنصلية الفرنسية ، حيث أنوى البقاء إلى ما بعد الساعة الخامسة ، وجمعت معلومات عن مكة من مصادر عدة مفادها أن الحجاج بلغوا هذا العام عشرين ألفًا مما يجعل النجاح محدودًا ، ولم يكن الشريف نفسه يتوقع مثل هذا العدد ، والحالة فى مكة جيدة ، وطريق جدة – مكة – الطائف آمن تماما مثل الطرق البرية فى مصر ، ولقى الحجاج المصريون والهنود معاملة طيبة وترحيبًا حارًا . وقدتحدث حاجان هنديان ضدالشريف هما مصطفى غلام رسول ، وعبد النبى كشميرى ، ووضعا ملصقات مهينة له على حائط قصره (وأظن أن القصة قد أبلغت لحكومة الهند البريطانية) ، وكانت بعثة الحج الفرنسية تحظى بالشعبية ، ولكنها لم تكن موضع تقدير الشريف الذى لا يريد أن يجعل الفرنسيين « يعرفون أكثر من اللازم » عن بلاده . وتحظى شخصية الشريف بمكانة كبيرة ، وعبد الله هو العضو الوحيد بالعائلة الذى لا يهابه ، رغم أنه يتعامل معه بدبلوماسية أكثر من أخيه فيصل المندفع ، كثير الكلام . ويحظى الجيش المصرى بالإعجاب وقدر كبير من المديح ، وتكاليف المعيشـــة رخيصـــة حيث تأتى الخضـــراوات والفاكهة الجيدة مـــن الطـــائف (وقد أعجبنى العنب تمامًا) ، والعملة المتداولة هى التركية والمصرية والهندية وهى جميعًا عملات فضية ، إضافة إلى العملة الذهبية الإنجليزية ، ويخسر المرء قليلاً عند تحـــويل العملة ما عـــدا العمـــلة الهـندية ، والدكاكين صغـيرة ، يملكها المكيون ، والهنـــود ، واليمنيون ، أو الجاويون ، ومن الناحية العملية ليس هناك اهتمام بالحرب أو بالشئون الداخلية .

وقد شرب روحى كمية كبيرة من ماء زمزم للحفاظ على سمعته كرجل متدين ، وقد تركت عليه أثرًا سيئًا جعله يبدو بائسًا منذئذ .

وصل عبد الله حوالى الساعة السادسة ، وقد أخذته على الفور إلى الشرفة العليا الشمالية التى تطل على سور المدينة والصحراء ، وبدأ حديثه بالقول إن الوضع فى رابغ بلغ الدرجة التى تعطيه أسبقية على غيره من الأمور . وكان شديد الإحساس بخيبة الأمل لعدم إحضارى العشرة آلاف جنيه التى طلبها فى برقيته . ولما كانت المساعدات الأخرى لن تصل ، فإن هذا المبلغ ضرورى وعاجل . وشرحت له - دون مواربة - أننا نعتبر أن المعونة الكبيرة التى ندفعها لوالده يجب أن تغطى عمليات أولاده أيضًا ، فرد بأن والده يبذل أقصى جهد ممكن ، وأنه شخصيا (أى عبد الله) أنفق من ماله الخاص ثلاثة آلاف جنيه عند الاستيلاء على الطائف ، وإنه فى حاجة تامة إلى كل قرش نرسله إليه ، ورجانى أن أرسل إلى المندوب السامى التماسًا شخصيا قويا ، وأن يتم إرسال المبلغ دون تأخير فوعدته بذلك ، وإننى أظن أن الطلب سيلقى استجابة .

وبعد أن تحدث قليلاً عن « الخلافة » ، اتجه للحديث عن لقب « جلالة ملك العرب » ، فقال إن من الصعب أن يحمل حاكم الجبل الأسود لقب « جلالة الملك » ويحرم شريف مكة منه ، (وغريب أن أواجه بنفس الحجة فى محادثاتى مع السلطان حسين على مدى ٤٩ يومًا سبقت توليه العرش) ، وذكرت عبد الله أن نيقولا عندما أعلن نفسه ملكًا للجبل الأسود كان يضع يده فعلاً على جميع أراضى الجبل الأسود ، فهل يستطيع الشريف حسين أن يدعى ذلك والحال على ما هو عليه فى المدينة ورابغ ؟ وهل من المفيد أن نغذى شكوك كل من الإمام والإدريسى ، وابن سعود وغيرهم ، وأن نستعديهم على الشريف الآن ؟ يجب على الأقل السيطرة على جميع أنحاء البلاد ثم يتم بعد ذلك تغيير وضعها . ويبدو أنه اقتنع بهذا الرأى ، ووعد بنقله إلى والده عند عودته إلى مكة ، ووعد بأن يرسل لى نسخة من أول ميزانية للحجاز التى قد تكون مادة مهمة للقراءة إذا قدر لها أن تصدر بالفعل ، وتحدث بمرارة عن ابن الرشيد (حاكم حائل) ووصمه بالخيانة ، وتحدث حديثًا طيبًا عن ابن سعود ، وتساءل عن مدى استعداده للحرب إرضاء لنا ، وأبدى تعجبه من مبرر وجود الإمام قائلاً :

« إن أذاه لا يؤذينا ، ونفعه لا ينفعنا » . ونصحته بأن يبذل كل جهده للإسراع فى تسهيل مهمة شراء الجمال ، وأن يغير الشفرة التى يستخدمها ، والتى يستطيع الترك – على ما يبدو – قراءتها بسهولة .

هنا جاء ويلسون ، وبعد انتظار طويل لسعيد على باشا وعزيز على بك (هكذا تقدر قيمة الوقت عندالعرب) بدأنا تناول العشاء . وتقديراً لعبد الله استعرنا من سعيد على فرقة الموسيقى التركية وأدواتها التى تم الاستيلاء عليها فى الطائف وكانت النتيجة جيدة ، وقال عزيز على – بعد قليل – إن هناك مقطوعة تسمى « الصدى » يمكنهم عزفها بمهارة كبيرة ، وصاح من النافذة آمراً بعزفها ، ولكنها لم تكن ذات قيمة ، وبعد قليل قال سعيد على باشا : « أليست تلك هى الموسيقى التى تعزف فى الجنازات ؟ » وهو فأل سيئ ، قلت لعبد الله إنه يعنى تمنى الموت لأعدائه ، وبعد قليل هز عزيز على رأسه قائلاً : « يبدو لى أن كل عازف يعزف وفق مزاجه الشخصى » . وقال جراى – مسئول الشفرة – وهو عازف متواضع ، إنه يظن أن المقطوعة هى « موت نلسون » وهو ما أظنه كذلك ، وعلى كل ، كان لهذه المجاملة لعبدالله مفعولها ، فعندما تركنا المائدة كان الشريف حسين قد اتصل وعندما سمع صوت الموسيقى طلب فتح جميع نوافذ القنصلية ، حتى يستطيع الاستماع إلى الموسيقى وهو فى قصره بمكة عن طريق الهاتف . وقال لى عبدالله إنه لا توجد بمكة إلا بعض الآلات الأوروبية التى يثير سماعها الشجن ، ويشاركنى عبد الله الإعجاب بألف ليلة وليلة ، ويرى إنها « مكشوفة قليلاً » .

ذكر لنا بريمون – الذى كان شديد التشاؤم – أن الشريف يسعى للتوصل إلى الصلح مع الأتراك . فانتهزت الفرصة لكى أسأل عبدالله بلطف عما إذا كانت هناك مشاعر من هذا النوع تم تبديدها ؟ فقال إن ثمة محاولات غير رسمية وغير جدية قد تمت ، وإن والده كان يؤكد دائماً أن العرب الآن حلفاء لبريطانيا العظمى ، ولا يستطيعون إبرام الصلح منفردين عنها . وغادرنا عبدالله دون أن يودعنا حتى الغد . وكانت الساعة قد بلغت التاسعة والنصف ، فوصلت إلى السفينة لاما قبل الحادية عشرة .

١٨ أكتوبر ١٩١٦ – ذهبت لوداع عبدالله حوالى العاشرة ، والتقطت بعض الصور له ، كما ودعت والده الذى خاطبنى فى الهاتف بكلمة « ولدى » ، ومن المؤكد أن ابن غبريت يريد أن ينفذ تعليمات الحكومة الفرنسية ، ويبذل جهداً كبيراً ليجعل من نفسه موضع القبول . وودعت عبد الله وداعا حارا ، ومازلت متمسكا بانطباعى الأول عنه فهو يتسم بالذكاء والنشاط والجاذبية ، ولا يحتاج سوى بعض التوجيه المهذب ليصبح من الأعمدة الأساسية للسياسة العربية فى المستقبل ، ويعطى انطباعًا أنه كان يحظى بقدر من التدليل عند والده ، وربما كانت مهمة التأثير عليه قد تمت فى الخارج ، ولكنه مشغول الآن بالتهديد التركى لرابغ .

التقطت بعض الصور لباب مكة من على ظهر حصان ويلسون المتعب ، ووصلت إلى الباخرة لاما الساعة الواحدة والنصف صباحًا . وهناك علمت أن باستطاعتى ركوب الباخرة التجارية بلفيون التى تغادر رابغ إلى السويس فى الحادية عشرة من صباح الغد ، وقررت ألا تفوتنى هذه الفرصة ، واستلقيت على الفراش منهكًا طوال فترة بعد الظهر .

وفى المساء بقيت مع عزيز على المصرى ، حيث قمت بدراسته وازددت إعجابا به ، وقد اكتسب شهرة فى ربيع ١٩١٤ عندما أنقذه كيتشنر وصحيفة التايمز – على خلاف رأى سفارتنا بإستانبول – من حكم بالإعدام صدر ضده بدافع الغيرة عند أنور باشا . كان جده سالم عرفات تاجراً بالبصرة يتاجر عادة مع بلاد القوقاز عند البحر الأسود ، وكان وكيله هناك جركسيًا يدعى حسن بك الذى زوج شقيقته لعرفات وجعله – رسميا – فرداً من أفراد قبيلته ، وكان ذلك فى عهد السلطان محمود . وهاجر الجيل الثالث الذى جاء نتيجة هذه الزيجة إلى إستانبول ، ومع تجارتهم بالرقيق استقروا بمصر ، ولكن كانوا قد أصبحوا – عندئذ – أقرب إلى الجراكسة منهم إلى العرب ، رغم أنهم كانوا لا يزالون يحافظون على روابطهم بالبصرة ، كما أقاموا صداقات حميمة مع العرب ، وخاصة فى غرب مصر ، وقد خطب عزيز فتاة أوروبية (لعلها ألمانية) لمدة ثمانى سنوات ، وكان يتمنى أن يتزوجها ويستقيل من الخدمة ويستقر فى سويسرا ، وقد اكتسب منها لمسة « المدنية » التى وجدتها عنده ، وهو مغرم بسماع الموسيقى ، يعرف بعض أشعار جوته وشديد الإعجاب بكورنيل ، ولا يعجبه هوميروس الذى قرأه

فى ترجمة البستانى ، وسوف أرسل له الترجمة الفرنسية ، وهو رجل أعزب ومتين ، ويستحق رأيه عن العرب التسجيل ، فهو يرى أن سكان بغداد أكثر ذكاءً وتقدماً ، وقد قام بعض نسائها بالمساعدة وتوجيه النصيحة فى اجتماع الحركة المعادية لجماعة الاتحاد والترقى فى إستانبول ، وكن يحضرن الاجتماعات سافرات ، والسوريون أكثر تعلمًا وتهذبًا ولكنهم يفتقرون إلى الحكمة وقوة الشخصية ، يأتى بعد هؤلاء الطرابلسيون (الليبيون) الذين يرى فيهم قدرًا كبيرًا من القوة ، ولكن لن تتحقق بالتأكيد . وقد تحدث بشىء من التحفظ عن المثل الأعلى الذى حارب من أجله فى طرابلس الغرب وفى ثورة جزيرة العرب . وبعد الطرابلسيين ، يضع اليمنيين فى المرتبة التالية لهم ويعتبرهم أرقى من الحجازيين ، ولعل ذلك يرجع إلى ظهور أجيال أحسن غذاء وصحة .

وكان عزيز بك متفائلاً بالنسبة للمدنية ، ينتقد أساليب الشريف بقدر أقل من انتقاد سعيد على باشا لها ، رغم ولائه الشخصى له . ويعتبر تعيينه رئيسا للأركان « كلاما فارغا » ، وهو متأكد أنه بعد سقوط المدينة ، سيقوم أبناء الشريف بالإجهاز على الخائن ابن الرشيد ، ثم يتم التقدم نحو سوريا . وسألنى بصراحة عما إذا كانت إنجلترا تريد ذلك أم لا ، فلم يكن باستطاعتى أن أجيب . واستطرد قائلا إنه رغم تمنيه أن يخرج العرب من أزمة الحجاز سالمين ، فإنه لا يعتزم الاشتراك معهم فى حملة لا تحظى بتأييد الحكومة البريطانية ؛ لأنهم – عندئذ – سيواجهون تعقيدات كثيرة ، ولذلك يعتزم الانسحاب إذا تلقى تحذيرًا فى الوقت المناسب ، ورجانى أن أعلمه بأى وسيلة من الوسائل ، ويستحسن أن يكون ذلك قبل الخامس من نوفمبر فى رابغ ، فإذا لم يسمع منى حتى ذلك التاريخ (رغم تأكيدى له باستحالة ذلك)، فلا يجب أن نندهش ، وأن نلتمس له العذر إذا سار فى التيار العام ، فإذا ترك خدمة جيش الحجاز ، أعتقد أنه سيعود إلى مصر . وأرى أنه يصلح لشغل وظيفة مدير لإحدى المديريات . آويت إلى الفراش فى العاشرة والنصف .

١٩ أكتوبر ١٩١٦ – وصلت إلى رابغ الساعة السابعة والنصف صباحًا ، وانتقلت من السفينة لاما إلى الباخرة التجارية « بلفيو » ، وهى سفينة قديمة قضت ٢١ عامًا فى الخدمة ، قبلت دعوة نورتون لتناول الإفطار على متن السفينة الحربية « نورث

بروك » التابعة للبحرية الهندية الملكية حيث تناولت إفطاراً إنجليزيا فخماً فى حجرة بديعة مفروشة بالسجاد ، مقامة على سطح السفينة ، وفى أثناء ذلك جاء الشريف على ليرتاح ثلاثة أيام على ظهر السفينة التى كانت تقوم بأعمال حراسة ودعم رابغ ، ترى ماذا تستطيع قواته العربية دائمة الحركة أن تفعل ؟ وجلب على معه أخباراً سيئة من فيصل ، فهناك قوات كبيرة نقلت من معان إلى المدينة ، وقد غطت تلك الأنباء على تفاؤل عزيز بك وأصابتنا جميعا بالقلق والاقتناع بضرورة وصول بطاريات مدفعية الجبل الثلاث .

وتركت السفينة بعد ذلك لأنتقل إلى « بلفيو » التى كانت سرعتها القصوى تسع عقد ، تصل إليها عندما تكون محملة خمس عشرة قدما أعمق مما هى عليه الآن ، ومؤمن عليها بمبلغ ٨٠ ألف جنيه ، ولكنها تتسكع فى إبحارها ، وتنازل لى القبطان تشرشل عن مقصورته ، ولكنى فضلت راحته وراحتى ، فطلبت سرير معسكر أنام عليه بالسطح ، وكانت السفينة تحمل بعض الطائرات على متنها ومعها طياران ، ولم يكن بها إنارة كهربائية أو آلة لصنع الثلج أو جهاز لاسلكى ، كذلك كانت خدمة الطعام والاستحمام سيئة . وزاد على ذلك رياح شمالية أدت إلى تأخير وصولنا يوماً عن الموعد المقرر . ولم تصلنا أى صحف أو خطابات أو برقيات أو أخبار من رويتر منذ يوم الجمعة ١٣ أكتوبر . فقضيت معظم الوقت فى قراءة ما أحمله من كتب وروايات .

وأخيراً وصلنا السويس فى منتصف ليلة الأحد ، واستطعت أن ألحق بقطار السابعة إلا الربع المتجه إلى القاهرة ، لأجد أن البريد الخاص بى قد أرسل عشوائيا إلى مواقع مختلفة من البحر الأحمر ، وبذلك لم أجد فى انتظارى خطاباً واحداً ، وكم كنت أتمنى أن أستمتع بقراءة رسائلى فى أثناء سفرى بالقطار .

القاهرة الساعة الثانية والربع ، لم تكن السيارة فى انتظارى ، فاستخدمت عربة جمعية الشبان المسيحيين ، وتناولت غدائى بدار المندوب السامى ، ولم أكن قد ذقت طعاماً من الثالثة من بعد ظهر اليوم السابق .

ولم أكن قد التقيت بالشريف حسين شخصياً ولا بالأمير فيصل حتى زيارتى الرابعة للحجاز قبيل آخر ١٩١٦ ، عندما كتبت الرسالة التالية :

السفينة " دافرين " التابعة للبحرية الملكية

١٠ ديسمبر ١٩١٦

لمحت الآن بعيداً إلى الشرق الكتلة الداكنة لجبل رضوان (على بعد ٤٠ ميلاً) الذى يمتد شمال ينبع على بعد ٢٠٠ ميل شمالى جدة ، فقد هرعت إلى هناك ؛ لأن ماكماهون قرر فى اللحظة الأخيرة أن يستجيب لنداء ويلسون واستغاثة الشريف حسين، فأرسلنى إلى هناك ، وكانت السفينة دافرين قد أبحرت لمسافة ٣٠ ميلاً فى الخليج عندما تم استدعاؤها لهذا الغرض ، ولديها الآن تعليمات أن تحملنى بأقصى سرعة إلى جدة . وبعد ذلك انتقلت إلى السفينة لاما فى ينبع لتحملنى إلى السويس ، أملاً أن تكون هذه الرحلة أكثر حظاً من سابقتها ، وأن أصل إلى القاهرة يوم الجمعة الساعة الثانية بعد الظهر ، ويبدو أن مجموعة من الآلات (البواخر) وضعت فى خدمة شخصى المتواضع ، وآمل أن أفعل ما يجعل لذلك ما يبرره . الجو هنا شديد الحرارة إذا قيس بالقاهرة ، وهو حتى أشد حرارة من أسوان ، ولكنه لا يقارن بحالة الجو عندما قمت بزيارتى الأولى للحجاز فى يونيو الماضى .

١٢ ديسمبر ١٩١٦ – ذهبت فور وصولى إلى جدة ظهر الاثنين ١١ ديسمبر إلى الشاطئ ، وزرت الكولونيل ويلسون بالقنصلية ، وهناك علمت أن الشريف حسين قد ركب من مكة إلى جدة على متن بغل ، فوصل جدة يوم الأحد ١٠ منه ويقيم بمنزل محمد ناصف ، وأنه استدعى الكولونيل ويلسون والكابتن لويد (عضو البرلمان) للقائه مساء اليوم نفسه ، كما التقى أيضاً الكولونيل بريمون قنصل فرنسا والكولونيل برنابى قنصل إيطاليا ، وتمت مناقشة الوضع العام ، خاصة الحالة فى رابغ باستفاضة ، وأن الشريف قرر أن يطلب من حكومة صاحب الجلالة إرسال قوات بريطانية للمحافظة على خط رابغ ، وهو قرار عاد من أجله صباح اليوم التالى .

وبعد الظهر أرسل الشريف حسين ياوره الخاص (وهو ضابط عربى بغدادى الأصل) للترحيب بى . وفى السادسة مساء ركبت الحصان بترتيب من الكولونيل ويلسون إلى منزل محمد ناصف .

وقد ترك الشريف حسين انطباعًا طيبًا عند الكولونيل ويلسون والكابتن لويد ، كما وجدته شخصًا مقنعًا . وبعد اجتماع قصير وتحيات حميمة ، أخذنا إلى حجرة صغيرة بها مقاعد جلدية وثيرة ، يضيئها مصباح إستيلين قوى وأجلسنا حوله ، ويبدو الشريف أكثر طولاً مما كنت أتوقع ، يرتدى قفطانًا أسود أنيقًا تحته جلباب مطرز من الحرير الفارسى ، يضع على رأسه طاقية مكية محاطة بعمامة بيضاء ، يميل طرف العمامة قليلاً إلى اليسار (على طريقة بنى عبد الله سادة مكة) ، بشرته بيضاء وملامحه عادية ومتناسقة ، وعيناه متسعتان بنيتان ، وحواجبه كثيفة ، وأنفه قصير دقيق تحته شفة علوية عريضة نسبيًا ، وأسنانه كاملة وجيدة ، ولحيته كثيفة ولكنها ليست كبيرة ، رمادية ميالة إلى البياض ، وقال لى (دون أن أسأله) إن سنه ثلاثة وستون عامًا (ولكن روحى قال لى إنه يعترف أحيانًا بأن عمره ٦٦ عامًا) .

وشخصية الشريف حسين أسرة تتميز بالنبل والوقار ، ولا أستطيع أن أنسى أنه أمضى جانبًا كبيرًا من حياته فى إستانبول (وفى لحظة انشراح قدم لى الشكر بالتركية ، ثم ما لبث أن أدرك ذلك ، فتحول إلى الحديث بالعربية) ، ويضفى عليه ذلك جاذبية عثمانية .

وبعد تبادل التحيات ، بدأت بنقل تحيات المندوب السامى ووداعه للشريف حسين ، وتمنياته بأن تحقق القضية العربية انتصارها النهائى . ورد الشريف بإبداء تأثره الشديد بهذه المشاعر الطيبة ، وقال إنه لن ينسى أبدًا السير هنرى ماكماهون أينما ذهب فى الإمبراطورية البريطانية ، ويقدر مشاعره النبيلة وصداقته المخلصة . وقال : « إن المندوب السامى هو الذى يدرك مبرر حركتى ، وعندما أقابله فى أى مكان أمسك بتلابيبه باعتباره شاهدى على هذا العمل » .

واستطرد فى الحديث بنفس الأسلوب العاطفى يخاطبنى أحيانًا « يا ابنى » وأحيانًا أخرى « يا عزيزى » ، ثم راح يقدم عرضًا عامًا للموقف على وجه الإجمال الذى أعرفه تمامًا ، ولذلك اكتفيت بالاستماع ، ولم أقاطعه إلا قليلاً ، كلما ذكر اقتباسات من خطابات أرسلتها له دار المندوب السامى ، وتعهد حكومة صاحب الجلالة بتدمير سكك حديد الحجاز . وكان من حسن أو سوء حظى أن زياراتى الثلاث السابقة

لجدة جاءت فى إطار احتدام الأزمة في رابغ ، ورغم أن الأزمة الحالية أكثر حدة من غيرها ، فقد كان همى الرئيسى التأكد مما إذا كانت لا تزال هناك حاجة لألاى المشاة وبطاريات المدفعية الثلاث ، وما يمكن اقتراحه بشأن الثورة العربية . ولم يكن هناك ما يشير إلى احتمال حدوث ذلك فى وقت قريب ، ولكن المطلب الخاص بإرسال ١٥٠٠ جندى مسلم لدعم خط رابغ شرح ، وبرر ، وكرر عدة مرات ، رغم أن الوقت أصبح متأخرًا لوقف تقدم الأتراك .

وقد نصحنى ويلسون فيما يتصل بخدمات عزيز على ، طالبًا منى التزام الحذر لحساسية المسألة ، وألا أضعها فى اعتبارى إلا عندما تحين الفرصة لذلك . وبدأت أشعر باليأس ، وبعد حوالى ساعتين ونصف ساعة من النقد، وجه الشريف اللوم لنا ؛ لأننا لم نزوده بقائد عسكرى مسلم برتبة لواء ليدير عملياته العسكرية . فأجبت بأننا لم نحلم أبدًا بالتدخل فى مثل تلك الأمور الداخلية . ولكن مادام قد أثار الموضوع ، فليسمح لى بأن أوجه عنايته بصراحة إلى وضع عزيز على المصرى بك .

قلت إنه من الملاحظ أنه رغم تقديم حكومة جلالة الملك ستين ألفًا من البنادق والذخائر وما ارتبط بها من إمدادات إلى حكومة الحجاز ، فلا يبدو أن هناك جيشًا يتم تكوينه بالفعل ، وأن نموذج المجلس الأعلى للحرب فى أوروبا يبين أن لدى الحلفاء الآن كيانات عسكرية غير محددة التعريف ولكنها فعالة ، عند تقدير دورها فى عمليات الحلفاء الآخرين ، بالقدر الذى يمكننا من التساؤل عما إذا كان من الممكن الاستفادة من حماس وخبرة هذا الضابط العربى المتميز بإعطائه الفرصة لإقامة قيادة مستقلة بميزانية معقولة لتدريب وتجهيز نواة يكون باستطاعتها أن تقوم - على الأقل - بإغلاق الطرق الجنوبية فى وجه القوات التركية التى قد تتجه إليها ، هذا إذا لم يكن فى مقدرتها التقدم مباشرة إلى المدينة ، وفى هذه الحالة تحتفظ عائلة الشريف بالقيادة العليا لجميع العمليات ، وأنهم إذا عملوا - كما يغلب الظن - فى ظل الخوف من أن يحول عزيز على المصرى موقفه ليلعب دور أنور باشا (أو حتى يخونهم لحساب الترك) ، فعليهم أن يعلموا أنهم ماداموا يملكون زمام التمويل ، يستطيعون أن يوقفوه فيصبح عزيز ضعيفًا متى شاءوا ذلك .

وتساءل الشريف حسين عما إذا كان عزيز بك يحمل تعليمات حكومة صاحب الجلالة ، فوجهت عنايته إلى البرقية الأخيرة للسردار فى هذا الصدد . فصمت الشريف برهة ، ثم قال بلهجة تحمل سمة اتخاذ القرار : « وهل تعلم أننا لا نكن لعزيز بك إلا الإعجاب ، إننى أعلن لكم الآن أننى قد عينته وزيراً للحربية بميزانية مستقلة لتلبية كل متطلباتـــه » . قلت إننى على ثقة بأن هذا التعيين لا يعنى إزاحة عزيز بك من الجبهة ، فهى المكان الوحيد الذى يمكن بأن يفيد فيه ، فأيد الشريف ذلك ، ووعد بأن يسمح له بالبقاء فى الجبهة ، وأن يختار من ينوب عنه فى أمور النقل والإمداد والتموين إلى غير ذلك من أمور يتخذ القرار بشأنها فى مكة ، وأن يتحمل الشريف راتب هذا المندوب ، وتعهد الشريف بإرسال برقية التعيين صباح اليوم التالى ، وأشعر أنه سوف يفعل ذلك ليضمن الالتزام بكل الترتيبات .

كانت الساعة عندئذ قد بلغت التاسعة والنصف ، وبذلك استغرق لقاؤنا بالشريف حسين ما يزيد على ثلاث ساعات ، وانصرفنا على وعد اللقاء صباح اليوم التالى . ورغم أن المحادثات كانت مرضية ، إلا أنها كانت مجهدة بسبب الضجيج المستمر خارج المنزل ، وحرارة وقوة مصباح الإستيلين ، وعدنا متأخرين نسير على ضوء القمر عبر الأسواق فى الطريق إلى السفينة ، وقد لفت نظرى ما أبداه الخفراء من نشاط وانضباط يرجع - دون شك - إلى وجود سيدهم بالمدينة ، فكانوا يستقبلوننا ويودعوننا عند كل نقطة بصفير غريب يتلقون عليه صفيراً آخر من النقطة التالية .

ذهبت للقاء الشريف وحيداً صباح اليوم التالى ، وقضيت ساعتين معه فى لقاء منفرد . ولما كان قد تلقى خطابات من أبنائه الثلاثة ، فقد عرض الأوضاع العسكرية بصورة عامة تبدو وردية قياساً بالعرض الذى قدمه لنا ليلة الأمس ، واستدعى سكرتيره الخاص ، وأملى عليه برقية تعيين عزيز على المصرى بك ، ولتقديم البرهان القوى على صدق عزيمته اتخذ عدداً من المقترحات التى لا بأس بها وإن كانت غير عملية . فعلى سبيل المثال ، لم يكن مرتاحاً للفاروقى كممثل له فى القاهرة ، وأبدى استعداده لتعيين من يروق لنا اختياره بدلاً عنه ، وكان حريصاً على اتخاذ شفرة خاصة لمراسلاته مع المندوب السامى البريطانى بالقاهرة مباشرة ، وهو نفس الطلب الذى عرضه عبدالله فى لقائه الأخير معنا ، ولكنى على يقين أن الاقتراحين الأخيرين

قد جاءا من قبيل المواءمة والتوافق ، ولا يرجعان إلى أى شك فى الثقة أو عدم التقدير للكولونيل ويلسون (الذى كانت اتصالات الشريف بالمندوب السامى تتم عن طريقه) فالعلاقات كانت حميمة وذات طبيعة ودية بين الشريف وويلسون .

كنت قد حرصت قبل مغادرة جدة فى الزيارة السابقة أن أكرر فى حديث هاتفى مع مكة الملاحظات التى أبديتها لعبد الله حول اقتراح استخدام لقب « الملك » . وحذرت الشريف من أن اتخاذ مثل هذه الخطوة – مع وجود المعارضين لها الذين يعرفهم جيداً – دون التشاور مع حليفه الرئيسى ، سوف تسبب الحرج لجميع الأطراف المعنية ، وقمت بحثه على تأجيل المسألة حتى يحين الوقت الذى تجد فيه حكومة صاحب الجلالة أن الوقت أصبح ملائمًا لمواجهة ما يترتب على صفة « الملكة » من نتائج ، وسررت بما حققت من نجاح فى هذا الصدد ، وأبرقت بذلك إلى القاهرة ، وركبت أول سفينة متجهة شمالاً ، وما كدت أصل إلى السويس حتى علمت أن الشريف حسين قد أعلن نفسه منذ ثلاثة أيام « ملكًا » . وقد تأثرت كثيراً بهذه المعاملة على ضوء الصراحة والود اللذين اتسمت بهما علاقتنا من بداية هذا الموضوع ، وقلت ذلك « لجلالته » عند زيارتى التالية لجدة دون أن أستخدم كلمات لينة . فوضع يده على كتفى مردداً المثل العربى : « ضرب الحبيب كأكل الزبيب وحجره رمان » . وقد قبلت منه ذلك كأسلوب للترضية [16] .

واستطرد قائلاً إنه طالما أصبحت دار المندوب السامى تخاطبه بلقب « الخليفة » (وهو لقب لم يسع إليه) ، فإنه اعتبر ذلك اللقب الكبير يتضمن ما هو أقل ، فلم يكن

(١٦) ربما اتسمت خطابات الملك حسين بالغموض ، ولكن نادراً ما كانت خالية من الوصف « فيما يتعلق بنولادى : مازال عبد الله بالطائف محاصراً الأتراك ، وهو يفضل ذلك على سفك الدماء ، بينما الأتراك كالسحالى التى كسر ظهرها » . كما لم يكن عبد الله وراءه دائمًا : « أشكرك يا عزيزى لتذكرك إياى وأنا فى وادى عيسى لا يذكرنى إلا القليل من الناس ، إن سرورك من أجل نجاحى فى التوائم مع قول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة . . .

أتمنى لك طول العمر والرفاهية ، فأنت أصل كل مساعدة قدمت للعرب فى هبتهم لاسترداد كرامتهم ، ولا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك » .

من الحكمة أن يزعجنا بمثل هذا الأمر . فأشرت إلى أنه رغم مرور كل مراسلات دار المندوب السامى بين يدى ، فلم أر الوثيقة التى أشار إليها ، ولكن على ضوء خبرتى مع عبد الله فقد عرض أن يحضرها من مكة ، فلم أجد من باب اللياقة أن أتمسك بذلك ، ولم أدفع بالأمر إلى ما هو أبعد من ذلك (رغم علمى بإمكانية الانتفاع إستراتچيًا من أرشيف رسمى بعيد وفى غير متناول أيدى الكفار) .

وقبل السفر ، رتبت أمورى أن أعود إلى الباخرة مودعًا إياه ، وفعلت ذلك فى الساعة الثانية والنصف وبصحبتى رقيب بحارة السفينة دافرين ، وهو بارع فى التصوير الفوتوغرافى حتى يتم التقاط صورة لنا ، ولكن الشريف رفض ذلك ، وطلب منى أن أبحث له عن طبيعة قرحة صغيرة فى ركبته اليسرى (لم يكن باستطاعتى رؤيتها) . وعندما اعتزمت مغادرة الغرفة ، قال لى : « إننى أقبل ذلك من منطلق التقدير » ، فأدركت أنه لن يستطيع أن يمنع من يصورونه من فعل ذلك ، فطلبت من الرقيب أن يلتقط له صورتين وهو جالس . وعند الانصراف سلمنى خطابًا للمندوب السامى ، واحتضننى مرتين ، ثم ودعنى حتى السلم ، وأرسل معى ياوره الخاص وسكرتيره الخاص لمرافقتى حتى السفينة ، وقد تأثرت كثيرًا عندما وجدت على رصيف الميناء حرس الشرف يقف لتقديم التحية لى ، وعلمت باهتمام التكوينة المتنوعة لرجال الحرس ، فقد جاءوا من يافا وسوماك وبخارى والقدس وبغداد والحبشة ، وصافحت الشيخ سليمان قابيل وبعض الوجهاء الآخرين ، وعدت إلى السفينة التى غادرت إلى ينبع فى الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر .

وصلنا ينبع فى الثامنة من صباح يوم ١٣ ، وانتقلت على الفور إلى الباخرة لاما ، وأبلغت الشريف فيصل بأننى أقترح زيارته فى الساعة التاسعة . وتبين لى أن الأوضاع فى ينبع وما حولها أبعد ما تكون عن الاطمئنان ، فالأتراك أصبحوا على بعد ١٥ ميلاً من المدينة وقد يهاجمونها فى تلك الليلة . وكان هناك مدفع مونيتور ٣١ مم معدًا لقصفهم عند الضرورة (ولم يكن الكولونيل ويلسون قد أبلغ بوصول المدفع بعد) ، وكانت سفينة الطائرات ريڤن موجودة فى ينبع ، وبدأت الطائرات البحرية تقصف الأتراك منذ قليل ، ووجدت الخندق الذى تمت إقامته عبر السهل الذى سيأتى الهجوم التركى عبره ، وفى يوم ١٢ كانت هناك حالة فزع على الشاطئ ، ولجأ

فيصل وبعض الوجهاء إلى السفينة هاردنج ، وأفادت التقارير أن الترك مازالوا على مقربة ستة أميال (فى تقدير البعض) وأن أعدادهم أكبر مما كان متوقعًا ، وقد رفض العرب تمامًا البقاء فى الخندق ، على أمل أن يترك أمر التحكم فى السهل لمدفعية السفن البريطانية .

زرت الشريف فيصل حوالى التاسعة والربع ، ويبدو أن المذكرة التى أرسلتها له طالبًا المقابلة أتاحت له أن يجمع كل الحرير الموجود بينبع ليبدو فى الصورة الأسطورية لأمير عربى ، وكان نحيفًا قليلاً عما كنت أتصور ، وقد علمت أن توتر الوضع فى الشهرين الأخيرين قد أصابه بالهزال . وكان شقيقه الأصغر زيد بك بصحبته ، وحاولت أن أرى الساعة الذهبية التى أعطيتها له فى يونيو الماضى فقال لى : « لقد أخذها عنوة من هو أقوى منى » (وعلمت من روحى أن هذا الشخص الأقوى هو عبد الله ، الذى تزوج أخيرًا للمرة الثانية) .

وبعد تناول القهوة وتبادل التحيات ، كرر الشريف فيصل شكاواه السابقة من تأخر وصول بطاريات المدفعية التى طلبها منذ أربعة أشهر . وقد أقر أنه لا فائدة من إثارة تلك الأشجان الآن ، وانتهزت الفرصة للإشارة إلى أنه بعد الانسحابات التى تمت، تحتاج شجاعة وقوات البدو إلى بعض المصداقية فى نظر العالم ، فحتى لو كانوا غير قادرين على مواجهة العدو فى الأراضى المفتوحة ، فإن معرفتهم الدقيقة بطبيعة المنطقة تعطيهم أفضلية على عدوهم لو لجأوا إلى أسلوب حرب العصابات ، وكان مطلب الشريف فيصل الذى كرره كثيرًا ، أن يضمن له الإنجليز الاستيلاء على رابغ وينبع ، فإذا وقعت فى يده هاتان القاعدتان يمكنه مهاجمة الأتراك فى الوجه . لقد كان الخوف من قطع خطوط الاتصال يشل حركته ، وقبل أن أنصرف أخبرته بالقرار الذى اتخذه والده بشأن تعيين عزيز على المصرى بك ، ورجوته مخلصًا أن يضع ثقته فى هذا الضابط الذى لا يهمه سوى نجاح قضية العرب وانتصار أسرة الشريف ، وقد وعد أن يتعاون بإخلاص مع عزيز ، وتركته الساعة العاشرة والربع لألحق بالباخرة لاما التى أبحرت فى طريقها إلى السويس ظهر الجمعة ١٥ .

إن طبيعة عدم الانضباط والتشنج التى يتسم بها التنظيم العربى ، والعمليات التى يتم تنفيذها ، برهان إضافى على ضرورة وجود قيادة مستقلة للحملة ، ولا يبدو أن هناك ضابطًا مسلمًا قادر على تجميع تلك القدرات مثل عزيز على المصرى بك ، والأمل معقود على أن تتوافر عند الشريف حسين الشجاعة وضبط النفس ليجعل من تعيينه وزيراً للحربية حقيقة واقعة .

ولم يكن أحد منا يدرك أن هناك من هو أكبر من عزيز يتولى القيادة بالفعل .

* * *

لا أدرى كيف أصبحت صديقًا للورانس ، ولكن صداقتنا لم تبدأ مع أول اتصال رسمى بيننا على أى حال ، ولم أكن قد سمعت عنه قبل شتاء عام ١٩١٤ ، عندما أصبح عضواً بفرع المخابرات بقوة الدفاع عن مصر ، وفجأة أحسست وكأننى أعرفه منذ سنوات ، وكان لورانس متوسط القامة ، قوى البنية رغم نحافته ، جبهته مرتفعة ووجهه مستطيل ، يصفف شعره الأشقر على طريقة ما قبل الحرب ، وأنفه مستقيم ، وعيناه زرقاوان ثاقبتان ، وفمه ممتلئ ، وذقنه مربعة .

كان لورانس يكره الأوقات والفصول المحددة ، ما عدا ما اتصل منها بالعمل الرسمى . وقد رأيته كثيراً فى شقتى يقرأ دائمًا كتبا لاتينية ويونانية ، يترك مكانها فارغًا على رفوف مكتبتى الخاصة ، ثم يعيدها إلى مكانها تمامًا دون أن يأخذ أيًا منها معه ، وعندما كان يأخذ بعضها يترك قائمة بما أخذ ، ولم يحدث أن تأخر فى ردها فى الوقت المناسب . ولم تكن بيننا اختلافات أدبية سوى تفضيله لهوميروس على دانتى ، وعدم موافقته على تقديمى لثيوكريتوس على أرسطوفانيس . يحب الموسيقى ، وكان يجلس شبه مغلق العينين مسترخيًا على المقعد يستمع إليها ، وقال لى خادمى إسماعيل إنه عندما كان يطرق باب شقتى كان يسأل دائمًا عما إذا كنت موجوداً وحدى ، فإذا كانت الإجابة بالنفى عاد من حيث أتى ، وعندما عاتبته على ذلك قال لى إنه يخشى أن يكون ثقيلاً أو دخيلاً إذا جاء فى مثل ذلك الوقت ، وأغضبنى ذات مرة عندما دعوته إلى عشاء لأربعة أفراد أقمته من أجله ، فلم يحضر ، وقال لى بعد ذلك

إننى فعلت ما يتجاوز حدود التأنيب عندما قلت له إن عدم حضوره لا يعنينى إذا كان قد أبلغنى بعدم حضوره مقدمًا حتى أدعو غيره لتناول العشاء معنا .

ويبدو أنه قد هضم تمامًا كل ما استطعت أن أنقله إليه من معرفة عربية عندما كنت موجودًا معه على الضفة الغربية لقناة السويس . وأحيانًا كنت أروى له أشياء لمجرد الرغبة فى معرفة تعليقه عليها . وكان شغوفًا بالسير فى الأسواق لا يرهقه المشى ، كما أحب زيارة المساجد الأثرية . ووجدت فيه – منذ البداية – شخصًا جذابًا ، محدثًا لبقًا ، يحب أن تسمى الأشياء بأسمائها ، وألا يكون التصرف حيالها مقيدًا بقواعد اللياقة ، خاصة لو كان ذلك ناتجًا عن إجراءات رسمية ، ولم يثق بإنسان مثل ثقته بهوجارث ، فترتيبه لسفرة المنحة الدراسية أعطى هوجارث فرصته الأولى فى الحياة .

بعد قيام الثورة العربية بقليل وجدنا أن صحافة الأعداء تنكرها أو تخفى أنباءها (وكانت تلك الصحافة تؤثر فى البلاد المحايدة) ، ورأينا أن أول برهان على نجاح الثورة إنما يكون بإصدار طوابع بريد الحجاز التى تحمل الدعاية العربية ، وتكون قابلة للبيع والتبادل فى أركان الأرض الأربعة . وسارع السير هنرى ماكماهون بالموافقة ، كما وافقت الخارجية البريطانية على اقتراح بهذا الصدد . وقد كتبت للملك حسين بشأن هذا الموضوع ، فرد علىَّ برجوع البريد مقترحًا أن تتخذ الطوابع رسومًا من العمارة الإسلامية ، على أن تكون مميزة عن غيرها مما هو شائع ، وأحسست أن ذلك لن يفى بالغرض ، وتجولت فى المتحف العربى مع لورانس بحثًا عن أفكار مناسبة لتصميم الطوابع متضمنة الكلمات والروح والزخرفة العربية الخالصة ، وكذلك عن التطلعات العربية . فاستبعدنا المناظر والصور لكونها غريبة على الحضارة العربية ولا تشكل مكونا من مكونات الفن العربى ، كما أن خطوطها أوروبية . وكان واضحًا أن لورانس قد استوعب على الفور الفكرة ، ولديه المهارة الفنية الخاصة بالطوابع المكونة من ثلاثة ألوان ، وبذلك تتوافر له المقدرة على متابعة الموضوع من بدايته حتى نهايته ، وخلال أسابيع قليلة استطاع أن ينجز هذا العمل .

وقامت مصلحة المساحة المصرية بإعداد تصميمات الطوابع التى جعلتها أقرب ما تكون إلى السمات العربية ، ومن خلال اجتماعات مع بعض أصدقائى المصريين أدركت مدى حرص لورانس على أن يلتمس المعرفة من مصادرها ، وأرسلت حسين روحى إلى مكتبه ليطلعه على كل ما يعرفه عن الحجاز : قبائله ، وطرقه ، وآباره ، والمسافات بين مختلف مواقعه ، وأخيراً طلب منى صراحة أن أصحبه معى فى رحلتى التالية إلى جدة ، ولم يكن هناك ما يسعدنى أكثر من تدبير ذلك ، وحصل على موافقة رؤسائه العسكريين الذين لم يترددوا فى ذلك تخلصاً منه إلى حين ، وقد سجل ما كنا نتمناه ونحن نسير فى شوارع جدة ، ولم يلاحظ أحد أن ظهر معطفه قد أصبح يحمل بقعاً مختلفة نتيجة جلوسه على مقعد جلدى سيئ الدباغة . وعندما سمع عبد الله يقرأ برقية فيصل التى جاء فيها: إنه ما لم يتم إبعاد الطائرات التركية فسوف ينفض شمل العرب . علق بقوله : « إن الطائرات التركية لا تستطيع الاستمرار فى عملها أكثر من أربعة أو خمسة أيام » ، وقد بهرت معرفة لورانس التفصيلية بما لدى العدو من إمكانات الشريف عبد الله ، خاصة عندما أخذ يحدد موقع القوات التركية على الخرائط بمهارة بالغة . ومع تواتر الأسماء السورية والجركسية والأناضولية والعراقية ، حدد لورانس بدقة موقع كل وحدة حتى إن عبد الله التفت إلىَّ قائلاً : « هل هذا الرجل إله يعرف كل شيء ؟ » .

وقد سجلت فى يومياتى أننى ذكرت عبد الله بأننى قد حصلت من الشريف حسين عند حديثى معه هذا الصباح على إذن بالسماح للورانس بالتوجه حتى بئر عباس ، وطلبت منه أن يزود لورانس بخطابات توصية إلى علىّ وفيصل ، وأصبح عبد الله الآن أسير شخصية لورانس حتى إنه جعل والده هو الذى يكتب خطاب التوصية إلى فيصل ، وهو الخطاب الذى حقق حلم لورانس [١٧] . ومازلت أذكر لورانس وهو يلوح لنا ممتناً ، ونحن نتركه على ساحل رابغ قبل عودتنا إلى مصر ، وقبل أن نلتقى به مرة أخرى كان قد بدأ يكتب صفحته البديعة فى تاريخ إنجلترا .

(١٧) عبرت البرقية التى أرسلها إلى « المكتب العربى » تعبيراً ضمنيا عن تطلعاته المستقبلية ، وقد لخص فيها كل ما دار فى المقابلة مع عبد الله ، وما أبداه عزيز على المصرى بك لنا من آراء حول الموقف العسكرى .

الفصل التاسع

عملى مع السير هنرى ماكماهون

(١٩١٤ - ١٩١٧)

كانت بداية صلتنا بالحرب تبنى حكومة صاحب الجلالة لتقدير كيتشنر أن الحرب سوف تستغرق ثلاث سنوات على الأقل ، وتعيين السير هنرى ماكماهون فى ديسمبر ١٩١٤ مندوبًا ساميًا فى مصر ، وكتبت للورد كيتشنر شاكرًا حسن صنيعه لى ، وتلقيت منه ردا مميزا :

١٤ ديسمبر ١٩١٤

عزيزى ستورس :

أشكرك على خطابك ، وسوف أتطلع دائمًا إلى الوقت الذى يجمعنى بك فى مصر مرة أخرى ، إننى سعيد بأن الهجوم على القناة قد قوبل بهذا المستوى من الرد وحسن التعامل معه ، وقد كتبت إلى ماكسويل ليرسل لنا بعض الهاربين المختارين (من الأتراك) ليعرف الآخرون ما ينتظرهم من استقبال إذا جاءوا إلى مصر . أرجو أن تبلغ سلاماتى الطيبة للسلطان والوزراء وجميع الأصدقاء . فسأكتب لك حول إرسال بعض الأشياء الأخرى : الحجر الكبير بالشرفة ، والتمثال الموجود فى فناء الإسطبل ، أحتاجهما لحديقتى فى بروم » .

الحرب تتحرك ببطء ، ولكن الزمن فى صالحنا .

المخلص : كيتشنر

وأستطيع أن أرى السير هنرى ماكماهون يطل بطلعته البهية من القطار ، وإلى جانبى أحد عظماء الأقباط يردد « عيونه تشع منها الطيبة » .

وصل السير هنرى ماكماهون – المندوب السامى – يوم السبت ، وترك تأثيرًا طيبًا فى المصريين والبريطانيين على السواء ، وقد تناول الغداء معى اليوم بالشقة ، وهو ودود ، مقبول ، حصيف ، يبدو أصغر من عمره الذى يبلغ ٥٢ عامًا .

وسوف يتذكر الكثيرون غيرى نبل وكرم الليدى ماكماهون . كان عملهما شاقا ؛ لأنه برغم أن المندوب السامى ترك وراءه سجلاً حافلاً بالهند ، حيث برهنت زوجته على

حسن ضيافتها ، فقد وجدا نفسيهما فى مصر فى مواجهة موقف فريد لا نظير له ، يقع فى بيئة مختلفة تماماً بالنسبة لهما ، فالعربية - وليست الهندستانية المألوفة - هى لغة المصريين ، بينما الأجانب الموجودون بأعداد كبيرة يتحدثون ويفكرون بالفرنسية ، وبدلاً من البروتوكولات والسوابق المنشورة فى وثائق الدولة فى كلكتا وسملا ، كان عليهما أن يسايرا - رسميا واجتماعيا - الأساليب العشوائية الوقتية للحكم التى كانت مؤقتة ، حتى أسابيع مضت ، ولم تعرف التسجيل على الورق ، حيث كانت مصر تحكم فى البداية بالمقابلات ، ثم أصبحت فى نهاية الأمر تحكم بالمكالمات الهاتفية .

كان النظام البريطانى فى مصر وسطًا بين نظام الأوامر الذى قامت عليه الإدارة المباشرة فى الهند ، والنظام البيزنطى الذى رأت الحكومات الأوربية ضرورته للحفاظ على مكانتها وامتيازاتها وعقودها وشركاتها فى مواجهة الباب العالى ، لقد بذلنا المستحيل، وفضلنا الصفة الشرطية ، حفاظًا على روح التمنى المهدرة للوقت والطاقة ، فقمنا بتقديم « النصيحة » للوزراء المصريين ، و « بالتفتيش » على المصالح الحكومية المصرية ، وكان على دار المعتمد البريطانى فى مصر - حفاظًا على هذا النظام المعروف والقادر على التدرج فى أى من الاتجاهين - أن تتمسك بصيغة « الحماية » بدلاً من « الضم » . ومن ناحية المبدأ لم يحدث الشعور بتغيير الوضع لا فى الأمور السياسية التى تركتها الحماية على ما كانت عليه منذ ثلاثين عاماً ، ولا فى الأمور التى يرى الشعب الإنجليزى أهميتها سوى فقدان « الوجه » الاجتماعى ، من الذى عليه أن يبدأ زيارة من أولاً ؟ وإذا لم يفعل هل يتم الاستغناء عنه ؟ وما هى المسائل التى قد تثير العداء والقلق عند المصريين والأجانب على السواء ؟ وعند الإنجليز يعنى الاستغناء أو رد البطاقات للحفاظ على نوع من المراسم القديمة المضحكة التى تنتمى إلى الماضى ، وممارسة تلك التقاليد عند المجتمعات المتحضرة الأخرى تمثل الطريقة المقبولة للمبادرة والتواصل وتبادل المجاملات الاجتماعية .

إننى لا أقصد الهجوم ولا الدفاع عندما أقرر أن القليل مما اتخذناه منذ عام ١٩١٥ من إجراءات سبب عدم ارتياح عام وعميق ، أكثر من التوقف عن إرسال البطاقات للأفراد الذين يحضرون إلى دار المندوب السامى ، تاركين بطاقاتهم للتحية

أو ليسجلوا أسماءهم فى سجل الزيارات ، ولن أنسى التعبير الذى رأيته على وجوه بعض أمراء العائلة الخديوية عندما أخبرتهم بأن عليهم أن يبدأوا بزيارة المندوب السامى ، فكانت شفاههم ترتعش وهم يكتمون فى صدورهم كلمات الاحتجاج .

ولم يكن على السير هنرى ماكماهون أن يواجه « مشكلة أكثر دقة وإلحاحاً وذات أبعاد مصيرية مثل مواجهته للمفاوضات الغربية التى دخلت الآن طريقها الطويل المرهق ، فالمسار هناك كان غريباً عليه كما كان غريباً على البيئة المصرية ، كما لم يكن لديه من الإسكندرية إلى أسوان موظف واحد يعرف عنه شيئاً . ولكن كل من عملوا معه قد أدهشتهم قدرته على اتخاذ القرار فى الأمور الكبرى ، وشجاعته فى هذا الصدد ، ولا أنكر أنه قد استبعد التأثير على الهند أو غيرها فى الموضوعات الأساسية الخاصة بالشرق الأدنى . وكان من الأفضل لو كان بعض المسئولين فى إنجلترا عن سياستنا - حتى خلال التوصل إلى التسوية التركية النهائية فى لوزان - قد برهنوا على قدراتهم على اختراق خدعة الجامعة الإسلامية البالغة الرثاثة والسوء[١] .

وكان السير هنرى ماكماهون بالغ الكرم عندما جعل وزارة الخارجية تمنحنى وضعا دبلوماسيا محليا بإعطائى درجة « السكرتير الثانى »[٢] ، بينما كان السكرتير الشرقى دائماً لا يعد من رجال السلك الدبلوماسى ، ولا يرقى ، ويظل أقل منزلة من أصغر ملحق حديث العهد بالخدمة . ولا يعنى ذلك بالطبع شيئاً غير تحديد الوضع ، فقد كان الكثير من المصريين يظنون أن وضعى الوظيفى أهم من ذلك بكثير ، وقد قام تشيتهام بنشر نبأ الترقية من خلال المكتب الصحفى ، مما جلب علىّ سيلاً من المباركات بأسلوب يشى بخيبة أمل الناس الذين كانوا يتصوروننى أرفع قدراً .

لم تقم دار المندوب السامى بتحسين نظام التفتيش فى الأقاليم لانشغالها تماماً بواجبات الحرب تجاه شعبنا ، وكان أسبوع الإجازة الذى استطاع السير ماكماهون الحصول عليه مدعاة للابتهاج والاحتفال .

(١) يدين خلفاء السير هنرى ماكماهون له بالفضل فى بعد نظره عندما اشترى عام ١٩١٦ أرض باكوس المجاورة لقصر الدوبارة ، مما أدى إلى مضاعفة مساحة دار المندوب السامى وكذلك الحديقة الملحقة بها .

(٢) يشغل السكرتير الشرقى الآن درجة السكرتير الأول .

لقد كانت زيارتنا للأقصر تغييراً وليست راحة ، وتعد نموذجًا لعدم القدرة على رؤية مثل هذا المكان ، فقد ذهبنا إلى هناك يسبقنا بوليس السوارى ، وحولنا القواسون فى زيهم الأحمر ، وجمع غفير من الموظفين المحليين بملابسهم الرسمية ، إن الأقصر مدينة رومانسية مملوءة بالحيوية ، وأعترف بأن التعامل معها بهذه الطريقة ملأنى بالأسى . وكان أهم ما فى الأمر عدم وجود سياح ، وقد أغلق فندق ونتر بالاس أبوابه ، فأقمنا فى فندق الأقصر .

وكان الحدث المهم هذا الأسبوع هو وصول أمير ويلز ، ولم يكن السير هنرى ماكماهون قد أخبر أحداً بذلك حتى السبت الماضى - حيث أبلغ السلطان فقط - وذلك تنفيذاً للأوامر المشددة باتباع السرية ، وقبل أن نعرف ماذا علينا أن نفعل ، وجدنا أنفسنا فى مواجهة التوجيهات المباشرة التى تبنتها الإمبراطورية ، وأعلنت على العالم ، وكان من مظاهر الشرف التى حظيت بها ، أن أصحبَ صاحب السمو الملكى فى زيارة للقاهرة القديمة وأسواقها ، ولم يسبق لى أن صحبت أحداً فى مثل تلك الزيارة ، واستوعب على الفور روح المكان كما فعل أمير ويلز .

وعندما عدت من أول زيارة لى للبحر الأحمر ، حظيت بشرف مرافقة صاحب السمو الملكى إلى عطبرة ، وسافرت معه بالذهبية من وادى حلفا إلى الأقصر ، وقد دهشت من ممارسته التمارين الرياضية الشاقة برغم قلة ما يتناوله من طعام ، وقد وصلنا إلى أبى سمبل عند الظهر ، والقيظ بالغ الشدة ، وبعد زيارة المعبد تصورت أننا قمنا بما يجب ، ولكن الأمير أعلن أنه يريد أن يجرى ، ورفض أن يسمح لنا بمرافقته ، فأخذ يعدو فى الصحراء مرتدياً القميص الكاكى والشورت ، وبصحبته أربعة من الحرس السودانيين طوال القامة الذين ولدوا وتربوا فى بلاد حارة الطقس . واستمر الأمير وحرسه يجرون غرباً ، وبعد ساعتين رأيت الحراس الأربعة يجرون أقدامهم مترنحين وسط الرمال وأمامهم الأمير يبدو فى الحالة نفسها التى بدأ بها ، وقد تردد قبل أن يقبل أن يشرب بعض عصير الفواكه بالصودا ..

لم يعرف الطيارون الأتراك والألمان الفرصة التى ضاعت عليهم ، عندما أبحر يخت القناة « إيجريت » من الإسماعيلية شمالاً ، وعلى متنه القائد العام لقوة دفاع

مصر ، وقائد عام قوات البحر المتوسط ، والمندوب السامى البريطانى ، ونائب الملك فى الهند ، وولى العهد البريطانى . ولكن السلطات العسكرية تحلت ببعض الحذر ؛ لأن الأمير غادر مصر إلى إيطاليا تسبقه مدمرة فى البحر وطائرة فى الجو ، وكانت القنابل قد ألقيت على بورسعيد فى الأسبوع السابق على مغادرة الأمير لمصر ، وقد ودعنا سمو أمير ويلز - أسفين - عند سفره من ميناء بورسعيد . فلم ألتق من قبل مع إنسان على هذه الدرجة من الحيوية والقدرة على تقدير الحياة الشرقية ، وعندما عدت إلى شقتى ، قال خادمى إسماعيل « باين عليه ابن ملك ، فقد تذكر أن اسمى إسماعيل وهو يطلب منى أن أحضر معطفه » .

أرسلت إلى عدن فى عام ١٩١٥ ، بناء على طلب الأميرال ويميس الذى حصل على إذن خاص لى بأن أصحبه فى البحر الأحمر كضابط سياسى ، ولإطلاعى - من ناحية أخرى - على الأوضاع العربية على بعد ١٣٠٠ ميل ، ولكى أرى الأماكن والناس الذين نكتب عنهم - من حين لآخر - المذكرات والمراسلات ، وكانت كل مقصورة بالسفينة « يوريالوس » مكتظة ، واضطررت إلى أن أنام (لأول وآخر مرة) فى مكان مظلم ليس به تهوية ، وكان هناك بعض العمل الذى قمت بإنجازه ، ثم لعبت بعد ذلك الشطرنج مع الأميرال أو مع كبير المهندسين (وخلال رحلاتى البحرية كان دائمًا القبطان أو رئيس البحارة أو الطبيب هم من لديهم الشجاعة الكافية لمشاركتى لعب الشطرنج) ، وفى عدن وقع حادث مؤسف ، فقد واجه الأتراك حاميتنا فى الشيخ سعيد ، ومعهم عدد آخر من الأعداء غير محدد تمامًا . وكان لدينا صديق تعرفت عليه فى القاهرة هو سلطان لحج ، وعندما صدر إنذار عن احتمال وقوع هجوم تركى ذهبت قواتنا إلى لحج للدفاع عنها . وقام أحد جنودنا بمشاهدة شخص فى شرفة القصر شك فى هويته ، فأطلق النار عليه ، وإذا بالقتيل هو السلطان نفسه ، وكانت أمامنا مهام كثيرة تقتضى الإنجاز من خلال المقابلات والمؤتمرات والتقارير الخاصة بموضوعات بعيدة تمامًا عن هذه المسألة التى تستعصى على الحل .

ولكن الأميرال ويميس - بأسلوبه السهل العملى - ركز على الموضوع الرئيسى مع قائد قوات عدن ، والضابط البحرى الكبير المسئول عن دوريات البحر الأحمر ،

والمقيم السياسى بعدن ، وواحد أو اثنين آخرين ؛ حيث كنا نبحث فى سلامة النقل بالبحر الأحمر ، وتحطيم مدافع العدو ، ومنع عملائه من عبور البحر الأحمر ، والتعاون بين القوات البحرية والقوات العسكرية ، وتعيين ضباط سياسيين للسفن ، وتبادل المعلومات بين الضباط السياسيين (وهو ما حاولت دائمًا إثارته فى كل مجال خدمت فيه) . ولا يخالجنى الشك فى أنه لو أتيح للمسئولين الذين كانوا وراء الحملة العربية فى الحجاز أن يتبادلوا الرأى مع زملائهم فى الخليج الفارسى أو حتى يلتقوا بهم قبل قيام الثورة العربية ، لاستطاعوا تحقيق تركيز كبير على الهدف الأساسى ، وتوفير العديد من آلاف الجنيهات التى أنفقت ، وحتى لو لم يكن هناك غرض آخر مثير للاهتمام فى عدن ، فقد كان فحص وتحليل الآثار التى قد يتعرض لها قطاع محدود فقير من الأرض تتم إدارته بشكل جماعى ، أو بمشاركة أكثر من جهة من الجهات التابعة لوزارات الحرب والمستعمرات وحكومة بومباى ، لا يخلو من الفائدة التى قد تنعكس على العمل فى مجالات أخرى .

ولم ألتق بضابط كبير – سواء كان بريطانيا أو أجنبيا – ترك انطباعًا طيبًا على مجتمع القاهرة من قصر عابدين إلى كلوب محمد على سوى الأميرال ويميس ، ولا يعود هذا التأثير إلى جاذبية شخصيته ، وتألق العدسة التى يضعها على إحدى عينيه ، وإتقانه الحديث بالفرنسية فى غرف استقبال قصر الدوبارة فحسب ، بل يعود ذلك التأثير إلى براعته فى التخلص من المآزق .

وقد مر على القاهرة – خلال الحرب – بعض الرجال ذوى الشخصيات البارزة ، لم يكن من الضرورى أن يكونوا من أصحاب الرتب المدنية أو العسكرية الكبرى (مثلما كانت الحال مع لورانس) . من بين هؤلاء ، هناك رجلان مازلت أحمل لهما مشاعر الأسى ؛ فقد كان باستطاعة مارك سايكس أن يحقق لنفسه مستقبلاً مرموقًا فى أكثر من مجال ، فهو واحد من بين كثيرين يمتلئ بهم مجلس العموم البريطانى ، وكان من الصعب أن يفشل فى أن يصبح وكيلاً لوزارة أو حتى وزيراً ، وكرسام كاريكاتير سياسى كان يستطيع أن يملى شروطه على الصحافة المسائية ، وربما انتقدت رسومه « مواقف وزارة الخارجية » ، كما جاء فى النماذج التى أوردها شين لاسلى فى

ترجمته له ، وكانت تلك الروح الفنية تؤهله لكي يصبح ممثلاً كوميدياً من الطراز الأول يجتذب الناس بقدرته الفائقة على تقمص مختلف الشخصيات ، وأدائه لمختلف الأدوار؛ فقد تحدث معي لمدة عشرين دقيقة مقلداً مناقشات البرلمان بنبرات أصوات العديد من السياسيين الكبار ، قائلاً : « إنني أتحدث باسم من يخشون الله ، قراء الإنجيل ، الملتحين ، سكان شمال أيرلندا الذين ليس لهم سوى مطلب وحيد يريدون تحقيقه دون مماطلة أو تأخير ... » . كما مثل أمامي مشاهد من إحدى الروايات ، معبراً عن كل مكونات المشاهد ، بما في ذلك صهيل الخيل ، وصوت السياط ، وصوت اصطدام القطار وإطلاق الرصاص .. كان باستطاعته أن يصبح ممثلاً بارعاً ، كما كان باستطاعته أن يكون كاتباً روائيا يمتع القراء بكتاباته .

لقد سافر مارك سايكس إلى عدن . وأشعر بالارتياح عندما أستعيد صوت هذا الجندي والسياسي ينادي تابعه : « يارقيب ويلسون » أعطني شكسبير ، ليذكرني بمشهد السكير بمسرحية أنطونيو وكليوباترا .

والشخصية الأخرى هي شخصية أوبراي هربرت الذي كانت طيبته ونقاء سريرته يشبهان سايكس من حيث علو الهمة ، وما أثاره من اهتمام عند الشرقيين ، وكذلك لكونه قد أصبح – بعد لورانس – أكثر الضباط إهمالاً في مصر . كان شديد التأثر بمسائل لا تبدو مثيرة للاهتمام عند غيره مثل الألبان ، واللاظ ، والأكراد ، فقد تحدث عن الأكراد يوما أمام جمع من الناس ، فوصفهم بأنهم من أرومة مثالية . فرد عليه فيتزموريس – من سفارتنا في إستانبول – « أجل أوبراي ، إنهم عنصر متميز ، إنني لا أجد عنصراً آخر قد يهب إلى مساعدتي في شن هجوم مفاجئ على الفلاحين العزل » .

ومن بين الشخصيات ذات المراكز المتواضعة التي أذكرها من أيامي في القاهرة جون كبير خدم ماكماهون بقصر الدوبارة ، فقد جاءنا منقولاً من سفارتنا بإستانبول ، ولم يكن معتدا بنفسه وبعمله فحسب، بل كان يصر على شرح واجباته . وقد اعترض على تقديم الخمور للنساء غير المتزوجات من الضيوف ، وكان يملأ كئوسهن بالماء القراح بدلاً من الشمبانيا ، ولن أنسى ما فعله يوماً عندما كنا نهم بمغادرة قصر الدوبارة في الاتجاه إلى قصر عابدين لحضور حفل عشاء ، فتقدم جون إلى الليدي ماكماهون مقترحاً أن تضع قليلاً من البودرة على الجانب الأيسر من أنفها !

فى ربيع عام ١٩١٦ تأكدت أنه ما لم يقم أحد باتخاذ الخطوة المناسبة فإن الذكرى المئوية الثالثة لشكسبير قد تمر دون أن يدرى بها أحد فى هذا البلد. فبدأت الترتيب لحملة، يؤسفنى القول إنها أحرزت فشلاً ذريعًا، واتصلت هاتفيا بالأسقف ماك أنيس، واقترحت عليه أن يتبنى هذا الأمر فى قداس عيد الفصح، كما فعلت الشيء نفسه مع البطريرك القبطى، فتفضل بالتوجيه إلى الدعوة بهذا الاحتفال فى جميع كنائس مصر، واتصلت بعد ذلك بوزير المعارف لتنظيم محاضرة فى كل مدرسة بهذه المناسبة، وأخيراً اتصلت بالصحف الإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية والعربية الصادرة فى مصر، وبالصحافة الأمريكية مقترحًا نشر مقالات وتنظيم جوائز للشعر، وقد تلقيت رسائل كثيرة محلية، على كل كان ذلك أفضل من أن تمر المناسبة دون أن يلحظها أحد، وأردت أن أبرهن للعالم أن الاهتمام بمثل هذا الأمر موجود فى مصر.

أظن أن علم الدعاية الحربية لا يرجع إلى ما قبل عام ١٩١٤، ولذلك لم يكن لدينا كتاب فى هذا المجال نستطيع أن نفيد منه فى وضع أسس أساليب الدعاية عندنا، كان كل ما نعرفه أن التعامل الدقيق والمتقدم مع الرأى العام عند الشعوب الأجنبية، عنصراً، ولغةً، ودينًا، يعد أمراً ضروريا مهما تبلغ صعوبته. وتبين لنا أن المقالات والرسوم البيانية والكاريكاتيرية المنشورة فى أوروبا، والتى أثبتت فعاليتها هناك، تأتى بنتائج عكسية فى الشرق. وبدلاً من أن تثير الرعب من الأعداء، كانت تثير مشاعر الإعجاب عند أهل الشرق. وقد رأيت اللجوء إلى « المقطم » للمساعدة فى هذا المجال، فقامت مجلتها المصورة « اللطائف المصورة » بنشر مجموعة مؤثرة من الرسوم الكاريكاتيرية لخدمة هذا الغرض.

أجد متعة كبيرة فى الاستماع إلى الأحاديث التى تدور بين الجنود، خاصة بين الأستراليين والمصريين، فالأستراليون لا يجدون مشقة فى التعامل مع المصريين بصورة ممتازة، فقد سمعت عريفًا أستراليا يتحدث إلى أحد البكوات المصريين تعليقًا على الخاتم الذهبى الذى يضعه البك فى إصبعه، فقال له العريف: « نعم إنه خاتم جيد .. ألا تعلم أنهم يستطيعون الآن فى إنجلترا أن يصنعوا الخواتم الذهبية من

مخلفات النحاس الأصفر ؟! » . كما أنهم يحسنون التعامل مع السودانيين برغم أن هؤلاء وأولئك لا يفهمون كلمة واحدة من لغة الطرف الآخر .

حفَلَ عاما ١٩١٥ و١٩١٦ بالآمال الكبيرة التى عاش عليها البريطانيون فى مصر للانتهاء من كارثة جاليبولى . وبعد الهجوم البحرى الأول أعلنًا أن من نياتنا العسكرية إقناع أصدقائنا المحايدين (دون أن يشمل ذلك - للأسف - أيًا من الأعداء) بأننا يجب أن نهاجم الإسكندرونة .

ومن أكثر المشاهد المؤثرة التى رأيتها فى هذا البلد ، ما حدث بالإسكندرية فى حضور ١٥ ألفًا من الجنود الفرنسيين ، حيث تحدث قائدهم إلى جنوده ممتدحًا القائد الإنجليزى ، وسار الجنود بنظام رائع جعلنى أكاد أنظر إلى صورة ملونة تعود إلى نحو عام ١٨٢٠ . وبرغم أن الجنود الفرنسيين كانوا أقل قامة من الناحية البدنية عن الجنود الإنجليز ، فإنهم كانوا محل إعجاب الجمهور ، ولكن سكان الرمل غيروا رأيهم فى الفرنسيين عندما وجدوا حدائقهم قد أصبحت جرداء فى صباح اليوم التالى . وهى ملاحظة تحسب لصالح الإنجليز ، فلم يقدم الجنود الإنجليز على مثل هذا العمل . ولعل رد الفعل كان أكثر إيجابية إذا حدث ذلك من الجنود بعد عودتهم منتصرين ، وقد نجحوا فى الاستيلاء على إستانبول .

وقد ذكر لى كولونيل إنجليزى قدم لتوه إلى مصر أنه لاحظ أمرين أثارا ضيقه : أولهما أن هناك صندوقًا يحتوى على ٤٠ دراجة ترك فى العراء حتى كسا الصدأ تلك الدراجات ، والأمر الثانى أن سفينة تحمل ألف طن من الماء العذب جاءت من ليفربول ، وأمرت بالتخلص من حمولتها ، ومنعتها قيادة البحرية من ضخ الماء إلى السفن الأخرى التى كانت فى أمس الحاجة إليه ، وتم تفريغه فى البحر المتوسط دون الاستفادة به .

غير أننا كنا على ثقة بقدرتنا على الاستيلاء على إستانبول حتى إننى تلقيت تعليمات بتفصيل بدلة كاكى لأرتديها بهذه المناسبة ، نتيجة مذكرة تقدمت بها تحمل عنوان « التصرفات المدنية بعد دخول القوات إستانبول » ، تضمنت عرضًا تفصيليا عن

الموظفين ، والعلامات التى تثبت على الصدر ، وبطاقات الهوية ، وترتيبات التفويض مع قوات الحلفاء .

وبدافع الغيرة ، كتبت إلى الكولونيل فيتزجيرالد :

« تحدث روناك جراهام مع سعادة المندوب السامى عن إيفادى للقيام بهذه المهمة التى ربما لم يحن الوقت بعد للقيام بها ، والتى قد تستغرق أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، وقد سبق لى زيارة إستانبول ست مرات من قبل ، كما أننى على صلة بسفارتنا هناك وبجميع أفرادها طوال السنوات الست الماضية ، ولدى إلمام بالتركية » .

ولم يكن هناك ما يمنعنى من الغياب عن القاهرة لأسبوعين أو ثلاثة أسابيع ؛ لأنه لم يكن هناك الكثير من العمل للسكرتير الشرقى - فى ذلك الوقت - مع غياب الخديو والمندوب السامى التركى والقنصلية الألمانية ، وتوقف النشاط السياسى وإحكام الرقابة على الصحف . كنا - عندئذ - فى فترة ركود ، فيما عدا السلطات القانونية التى كانت تواجه المشكلات كل يوم .

ولم تشهد الإسكندرية عودة الجنود المنتصرين ، ولكنها استقبلت سفن الجرحى ، وتحولت المدارس والفنادق إلى أماكن استشفاء ، طفنا عليها حاملين الصحف والكتب والسجائر ، نستمع إلى قصص حقيقية مفزعة . وكانت السجائر المصرية الفاخرة (وهى أحسن سجائر فى العالم) تلقى قبولاً حسناً عند الجرحى ، غير أن بعضهم كان يطلب السجائر الإنجليزية .

خلال إجازتى السنوية عام ١٩٠٧ قمت بأعمال السكرتارية للجنة اختيار العاملين بالخدمة فى مصر والسودان ، وكان هناك أكثر من مائة متقدم لوظائف لا يزيد عددها على ست وظائف . وكان الإقبال على العمل فى خدمة الحكومة المصرية والسودانية كبيراً ، ولما كانت التصفية النهائية جاءت بضعف العدد المطلوب ، اقترح وكيل وزارة المالية أن نجرى « اختباراً اجتماعيا » ، فتظاهر أحد أعضاء اللجنة بالبحث عن علبة سجائره ، وسأل المتقدم عما إذا كان معه سجائر ، وكان مصيره معلقاً على نوع السجائر التى يدخنها ، فإذا كان يدخن ڤرجينيا تم استبعاده ، إن تلك الحادثة تصور

كيف أن تغير الأنواق أدى إلى حرمان الشرق الأدنى من ملايين الجنيهات التى تدفقت على جيوب الغرب الأقصى « أمريكا » .

كنا ننزل فى أشهر الصيف خلال الحرب فى فيلا زرفوداكى البديعة الرحبة فى الرمل ، وكانت الإسكندرية تتكون من قسمين : معسكر ومستشفى ، والميناء مزدحم بسفن النقل وسفن المستشفيات الميدانية . وكان الأطفال المسلمون الذين تجاوزوا الرابعة من عمرهم يقفون فوق أكوام الفحم يطلبون البقشيش من الجنود بلهجة سليمة دقيقة . ومارس اليهود واليونانيون والشوام كل الألاعيب ، خاصة أن الطلب كان كبيرًا ، فالشاطئ مملوء بالجنود الجرحى ، ولم تشهد الإسكندرية مثل هذا الموسم من قبل ، فلا يكاد يوجد مكان للوقوف على الشاطئ فى ستانلى وجليم ، وكان هذا الانتعاش ضروريا للتغطية على المشهد المأساوى فى جاليبولى ، وإن كانت القيادة العامة ترى غير ذلك .

ينتاب الضيق الجنود بسبب منع القيادة العامة حفلات الرقص وسباق الخيل ، وهما لا يعنيان شيئًا عندى ، لأنى لم أحضر أيا من حفلات الرقص منذ بداية الحرب ، ولم أشهد أيا من سباقات الخيل على الإطلاق ، ولكنى أفكر فى حال الجنود الذين يحصلون على إجازة لمدة يومين بعد قضاء شهرين فى سيناء ، فإلغاء وسائل الترفيه كهذه قد يؤثر سلبيا فى أحوال أولئك الشباب .

كنت قد أحضرت معى من القاهرة مجموعة كبيرة من الروايات الإنجليزية والفرنسية . ولما كان الضباط الفرنسيون (بالإسكندرية) يشكون مر الشكوى من حرمانهم من قراءة تلك الروايات ، باعتبارها « تخالف القيم العائلية ، وتعرض الأطفال للانحراف » ، ومن ثم تؤدى إلى تعطيل عجلة التقدم ، فقد قمت بمدهم بغذاء عقلى يختلف عما حدد لهم من قيادتهم ، ترى .. ماذا سيكون تأثيره فيهم ؟

ومن بين القراءات التى وجدتها ضرورية فى فترة الحرب ملحق جريدة التايمز الذى يأخذ القارئ بعيداً عن متابعة الأحداث ، وجاءت مقالات هنرى جيمس العميقة بعيدة تمامًا عن جو العداء العام ، وقدمت نوعًا من الهروب الحضارى والثقافى من

متابعة أحوال الحرب . وكان من أهم ما فزت به من قراءة مقالاته إدراكي لعظمته الواضحة ، فمنذ أسقطت ديدمونة منديلها لم يستطع أحد أن يستخلص الإثارة مما قد يبدو مهملاً سوى هنرى جيمس ، وكان وليم بلاك هو ملجئى الآخر للهرب من هموم الحرب ، خاصة ما كتبه عن الطفولة الأولى أو الثانية لوليم شكسبير .

وكانت هناك صعوبة فى توجيه طاقات زوجات كبار العسكريين والمدنيين بعيداً عن العاصمة ، ولا شك أنهن حاولن ذلك ، ولكن مجتمع الإسكندرية كانت تتنازعه - فى فترة الحرب - صراعات الصليب الأحمر واعتراضه على « تطفل » و « تدخل » سيدات القاهرة فى عمله ، لدرجة أن شكوى زوجات كبار العسكريين والمدنيين تصاعدت ، لأنهن تركن دون أن يكلفن بعمل ما ، برغم وجود نقص كبير فى الممرضات . وكانت تلك الصراعات والمشاحنات على حساب آلام وأنين الجرحى من الجنود مدعاة للأسى ، ولكنى أتمنى أن تستقيم الأمور بصورة عادلة .

وظلت الجزيرة العربية تحتل موقع المقدمة فى تفكيرنا .

أول يوليو ١٩١٦ - وافق شهر رمضان - ذهبت إلى القاهرة بصحبة السير هنرى ماكماهون لحضور مؤتمر فى القيادة العامة للجيش حول المسألة العربية ، وكان سفرنا إلى القاهرة ذهابًا وإيابًا بقطار خاص ، ولم يستغرق وجودنا بالقاهرة أكثر من ساعتين ونصف ساعة ، وكانت تلك التجربة منهكة ، ويجب ألا نكررها مرة أخرى إلا عند الضرورة . وقد طلب القائد العام منى أن ألقى على العسكريين محاضرات عن بلاد العرب ، وبعد ذلك بيومين تلقيت برقية من وزارة الخارجية تدعونى إلى كتابة ترجمة لحياة اللورد كيتشنر باللغة العربية (تمهيداً لنشرها) ، فلم أستجب إلا للدعوة الأولى (المحاضرات) .

وفى غضون ذلك ، اجتاحت بورسعيد جحافل اللاجئين الأرمن الذين نقلتهم إلى ذلك الميناء السفن الحربية الفرنسية من قليقيا ، وهم يقاتلون الترك بشجاعة فائقة ، تذكرنى بالمقولة القديمة « الأتراك القدامى الأشداء » ، مع الاعتذار للقلم عن ترديد هذه العبارة ، فإذا لم تكن مذابح أورفة وأضنة كافية ، فلتكن الفظائع الحالية كافية لتمحو من قاموسنا السياسى الأسطورة الزائفة السخيفة عن « أول جنتلمان فى أوروبا » .

أدرك القليل منا - عندئذ - أن أولئك اللاجئين التعساء ، الذين سببوا للبريطانيين المسئولين عن معسكراتهم متاعب لا حدود لها [٣] ، يعدون بالنسبة للأرمن فى مصر ولغيرهم أبطالاً لإحدى مآسى الحرب « الأربعون يومًا لتيه موسى » [٤] .

وفى الإسكندرية ، كدت أفقد حياتى بما يمكن أن نطلق عليه « مخاطر الحرب المتوقعة » . فبينما كنت فى طريق العودة من حفل موسيقى راكبًا عربة حنطور يجرها حصان واحد ، ظهرت فى مواجهتنا سيارة أجرة مكشوفة تصل سرعتها إلى ما بين ٤٠ و٥٠ ميلاً فى الساعة ، حاولت أن تتخطى منافسها التقليدى القديم (الحنطور) ، ولكن السائق أخطأ فى تقدير المسافة ، فصدم عربتنا عند العجلة الأمامية ، وعندما رأيت السيارة متجهة نحونا لم أتوقع أن تتفادى الاصطدام بنا ، بل كانت أضواء الفوانيس الأمامية للسيارة تبدو فى عينى كضوء الشمس ، وسمعت صوت الصدمة كما شعرت بها ، وفجأة وجدت نفسى جالسًا إلى جانب الطريق وسط نحو عشرين ألفًا من علب الكبريت ، وسائق السيارة أمامى يشرح أسباب الحادث ملتمسًا لنفسه الأعذار ، ولم يبق من عربتى سوى الحصان والقائمين اللذين يربطانه بالعربة . وكان سائق السيارة يونانيا يبدو مضطربًا مكفهر الوجه ، ولكنه شعر بالارتياح عندما وجدنى على قيدالحياة وهو يسمع لعناتى له ولأهله ولليونان كلها ، وقد فقدت السيارة عجلاتها الأربع والمحرك ، وكان بالسيارة سيدتان شاميتان طلبتا من السائق أن يسرع بالتحرك بالسيارة ، ولكنى نبهتهما إلى أن محور عجلات السيارة منفصل عنها تمامًا . كان الوقت متأخرًا ، انقطع سير الترام ، وكذلك العربات ، وبينما كنت أفكر فى المسافة التى علىَّ أن أقطعها فى طريقى إلى الشقة (وكانت نحو ثلاثة أميال) بدت من

(٣) لاحظت ذلك من جانب هؤلاء وغيرهم من أرمن مصر ، وبعض اليهود فى فلسطين ، فأولئك القوم الذين يخطئ الغير فى حقهم يتعاملون بعنف وجنون - لا يندمون عليهما - مع من يساعدونهم على تجاوز معاناتهم ، وقد أصاب الهياج الجالية الأرمنية فى قبرص ، بسبب طرد أحد أعيانهم من النادى الذى لم يكن عضوًا فيه فحسب ، بل كان مؤسسه .

(٤) عجبت لأن رواية ڤرفيل التى تحمل هذا العنوان ، والتى ترجمت عن الألمانية ترجمة إنجليزية بديعة ، لا تحظى باهتمام كبير فى بريطانيا .

بعيد سيارة كبيرة قادمة فى اتجاهى ، فاستوقفتها ، وكان سرورى بالغًا عندما وجدت بداخلها صديقى عمر سلطان باشا الذى كان متجها إلى منزله بعد حضور حفل خيرى لإحدى الإرساليات التبشيرية بالنادى ، وخلال خمس دقائق وصلت إلى مقر دار المندوب السامى ، وأرسل السلطان حسين كامل مدير مراسم البلاط للسؤال عن صحتى فى اليوم التالى للحادث ، ولكنى كنت قد سافرت إلى القاهرة ، فلم ألتق به .

كانت الحرب فرصة ذهبية للاستفادة من انقطاع الواردات الأجنبية إلى مصر ، وأقيم بالإسكندرية معرض للصناعات المصرية ، البناء والأثاث والفنون الزخرفية كانت ضمن المعروضات وقبل اقتراحى بإنشاء وتأثيث « مندرة » بالمعرض ، تعبر عن فكرة مصرية لمكان الراحة الذى يحمل لمسات حديثة مضافة إلى تقليد مصرى أصيل ، ومنتج من خامات مصرية وبأيد مصرية (على نحو ما ذكرت فى دليل المعرض الذى قمت بإعداده بالعربية والإنجليزية والفرنسية) .

وقد لقى المعرض انتباهًا ملحوظًا من جمهور الإسكندرية ، يرجع إلى غياب البديل الأجنبى ، وكانت مزايا المعرض وعيوبه تعبر عن الطابع المميز لتلك المشروعات فى الشرق الأدنى والأوسط ، مما يغرينى بأن أقتبس هنا فقرة من مقال كتبته للإچيبشيان جازيت عن المعرض جاء فيه :

« برغم أن المصنوعات الأجنبية والأوروبية تستحوذ على المزيد من الاهتمام ، فإنه من الطبيعى أن نوجه عنايتنا إلى الفن والإنتاج الحرفى المصرى ، فقد قدمت شركة الغزل المصرية إنتاجها الجيد من القطن المصبوغ الذى زاد من جماله عدم استطاعة الشركة الحصول على مواد الصباغة الألمانية . ولكن على نقيض ذلك ، جاء عرض الخيوط والمطرزات التى حشرت فى مساحة خمسة أمتار مربعة ، كدس فيها كل شىء بأسلوب بالغ العشوائية . لماذا لم ينصح أحد خليل عبد الحميد (من الإسكندرية) بأنه ليس من المستساغ التطريز على قماش الساتان القرمزى حتى لو كانت هذه آخر قطعة قماش متاحة ، وإن كان الموت هو البديل للتطريز على هذا القماش ، فما كان ينبغى عليه أن يختار رسم سيدة مصرية من العصر الفرعونى تحمل زهرة لوتس يحيط بها طائران يحملان التين » .

وباستطاعتى أن أؤكد أن تلك المحاولة - وغيرها من المحاولات - للحفاظ على الفن والصناعة المصرية لم تكن ذات جدوى .

* * *

بعدالجلاء عن شبه جزيرة جاليبولى - الذى مازلنا نقول إنه تحقق عندما كان العدو على وشك الشعور باليأس - عادت مصر إلى احتلال مركز الجاذبية ، وبدأت كل الإمكانات المتاحة للحرب تبذل أقصى جهدها : الجيش المصرى ، وجيش الاحتلال ، وقوة الدفاع عن القناة ، وقوات الحملة المصرية ، ومراكز الإمدادات والتدريب ، والمكتب العربى (الذى تولى توجيه حملة الحجاز) ، ومكاتب المخابرات العلنية والسرية ، والوحدات الطبية الكبرى ، وأماكن الإقامة المحلية . ولكن ، بغض النظر عن الانقسامات والحزازات الناشئة عن عدم تحديد السلطات بدقة ، والتى أثرت فى مجموعة قليلة من الأفراد ، عانى المصريون المتاعب بسبب تأخير الانتقال فى منطقة قناة السويس أحيانًا ، ومنعه أحيانًا أخرى ، بسبب قصر الانتقال على حملة التصاريح الخاصة ، تفاديًا لتسلل الجواسيس إلى المنطقة ، ولم يكن هناك نقص فى الطعام ، برغم حدوث أزمات فى النفط ، ووصول سعر طن الفحم إلى ثمانية جنيهات ، واستمرت المسابقات الرياضية وسباق الخيل وحفلات الرقص - بالنسبة للمدنيين - حتى نهاية الحرب .

وقد حافظت على حضور حفلات الموسيقى كل أربعاء مادمت بالقاهرة ، التى لقيت دعمًا من بعض المواهب التى أوجدتها ظروف الحرب بها . وحدث ذات مرة عند عزف موسيقى برامز أن انسحب وافدان إلى القاهرة خارج الغرفة لاعتراضهما على استخدام اللغة الألمانية (فى الوقت نفسه بدأ سعد زغلول باشا - الذى أصبح دكتاتورًا فيما بعد - يتعلم اللغة الألمانية ، حتى إننى كنت أحييه عند حضوره إلى قصر الدوبارة بعبارة « الهر بارون زغلول ») .

وفى نهاية عام ١٩١٦ ، ترك السير هنرى ماكماهون مصر ، وخلفه السير ريجنالد ونجت مندوبًا ساميًا فى مصر ، ليلقى المعاملة نفسها بعد بضع سنوات ،

ويحظى السير ريجنالد ونجت بمعرفة الأحوال المصرية معرفة دقيقة ، وكان لديه سكرتير قدير . وعندما تذكرت موقف جورست من السكرتير الشرقى الذى ورثه عن كرومر لم أدهش أو أفاجأ بما حدث من إنقاص لاختصاصاتى وتحجيم لوضعى ، غير أنه عندما تقرر تعيين ضابط سياسى من مصر لتمثيل قوة الحملة المصرية فى العراق ، وتم عرض الوظيفة علىَّ ، كنت على استعداد تام للقبول بها بشىء من الترحيب .

فى منتصف شتاء ١٩١٦ - ١٩١٧ ، جاء والدى لزيارة مصر ، وكان قد بلغ السبعين من عمره ، وزار بعدها قبرص مبعوثًا من كبير أساقفة كانتربورى . وأتيحت لى فرصة معرفة المزيد عنه مما تعذر علىَّ معرفته فى صدر شبابى . وقد خيم على نهاية زيارته حزن عميق لكلينا حملته برقية تلقيناها أعلنت وفاة خالى هارى كست .

الفصل العاشر

مهمتي في بغداد

(١٥ أبريل - ١٦ يوليو ١٩١٧)



منذ سقطت بغداد في مارس ١٩١٧ أنشئت فيها القيادة العسكرية العامة لبلاد الرافدين ، متضمنة القيادة العامة السياسية ، وكانت رحلتي من القاهرة إلى بغداد قد استغرقت - بأكثر الوسائل سرعة - شهراً كاملاً ، ولم يكن هناك - عندئذ - اتصال مباشر سوى عن طريق السويس - عدن - بومباي - كراتشي - الخليج الفارسي - دجلة ، وهي رحلة بحرية طولها أربعة آلاف ميل ، بدلاً من المسافة البرية وقدرها ثمانمائة ميل .

ونتيجة لسوء التعامل مع بريدي الخاص ، لم أتلق خلال الأشهر الثلاثة التي غبت فيها عن مصر أي خطاب ، وكانت تغيرات الرحلة ومخاطرها - بالنسبة لي - فتحًا لعالم جديد، احتلت أكبر مساحة من اليوميات التي سجلتها عن الحرب ، والتي كتبتها أصلاً لوالدتي في إنجلترا ، ولذلك نجوت من الحريق الذي أصاب منزلي . وكانت السمة المميزة بصورة مباشرة للشرق الأوسط عقب استيلائنا على بغداد ، هي الارتباط المباشر بين السير بيرسي زكريا كوكس ، الذي كان رجل بريطانيا البارز في الخليج لعقد كامل من الزمن ، وجاذبية ومعرفة وحماس جرترود التي أسعدتني ، وأغامر بالاقتباس المباشر من الوثائق الرسمية التي كتبتها عندئذ .

١٤ أبريل ١٩١٧ - من على متن السفينة نانكن (بنيت عام ١٨٨٨) بالمحيط الهندي غادرت القاهرة الساعة السادسة والربع يوم الأحد الماضي الثامن من أبريل ، وودعني بالإسماعيلية الأميرال ويميس ، الذي وضعني في حماية القبطان نوجمور في طريقه لتولي قيادة الزوارق البحرية ببلاد الرافدين ، وبرفقته نوكس وسناج من كبار ضباط البحرية . واستغرقت الرحلة إلى السويس نصف ليلة ، وخلدت للنوم بفندق جبل سيناء ، وأجريت اتصالاً هاتفيا بدار المندوب السامي ، فعلمت أنني لن أتلقى بريداً من إنجلترا ، مما يعني انقطاع الصلة بيني وبين أوروبا لمدة خمسة أسابيع ، وغادرنا السويس الساعة الواحدة بعد ظهر الاثنين ، ولم نصل إلى عدن قبل الحادية عشرة من صباح السبت ، وقد تمت تغطية جميع الأنوار في الليلتين الأخيرتين

لتفادى التعرض للرادار [1]. وعند وصولنا إلى عدن ، صعد ڤيننج مساعد الجنرال ستيوارت إلى ظهر السفينة ليأخذنى معه إلى دار المقيم البريطانى فى عدن ، وقد نزلت إلى البر بصحبته والجنرال تايج (الضابط السياسى الذى يعد حجة فى شئون عدن) .

وظل خادمى سعيد - الذى يكره ركوب البحر - يلح علىَّ بأن نركب القطار من عدن إلى البصرة بدلاً من متاعب السفر بالبحر .

ذهبت إلى ضابط البحرية الملكية راجيًا تدبير وسيلة سفر سريعة إلى البصرة ، معترضًا على البديلين اللذين اقترحهما : (أ) أن أسافر على ظهر ناقلة نفط تابعة للبحرية الملكية بعد خمسة أيام فى رحلة تستغرق ثمانية أيام ، (ب) أن أسافر على متن صندل بحرى عسكرى يغادر عدن على الفور فى رحلة تستغرق ١٤ يومًا .

تناولت العشاء بدار المقيم البريطانى مع الجنرال ستيوارت ، وهو رجل ودود . وقال جاكوب إن علينا أن ننهى الوجود التركى (فى الحامية التى تقع فى الشيخ عثمان عبر الخليج) فورًا ، مادمنا نفوقهم عددًا ، وبرغم أن عدد المدافع عندهم مساوٍ لعددهم عندنا ، فإن قذائفهم قديمة محدودة الفاعلية (وهى وجهة نظر غير مقبولة عند المقيمين) ، وكانت معلوماته عن السخط والتوتر فى سملا (يونيو ١٩١٦) مفيدة وممتعة ، عندما وصلتها أخبار الثورة العربية ، فحاصروا مقر نائب الملك ، وتنبأوا بقيام الثورة الشاملة فى الهند .

١٩ أبريل ١٩١٧ - السفينة نانكن ، ركبناها بالأمس ، وهى سفينة تدريب محاطة بسيور تفوق عدد قوارب النجاة المعلقة بها ، وحتى تلك القوارب غير مثبتة تماما فى الأعمدة الخاصة بها ، مما جعل سعيد (خادمى) يشعر بالفزع الذى بدا واضحًا فى شحوب وجهه .

علَّمت بعض براعم قوة الطيران لعب الشطرنج ، من بينهم ابن عميد كلية ميد ستون ، وكندى من ساسكاتشوان ، والقبطان لاركن ربان السفينة الحربية البريطانية

(١) كانت هناك سفينة تجارية ألمانية مسلحة تسمى ڤولف تبحر من ألمانيا إلى نيوزيلندا ذهابًا وإيابًا ، تحصى سفن الحلفاء حاملة جهاز الرادار .

درويس . وأعجبت بشخص يدعى أوديل ، يعمل محاسبًا حرا فى برمنجهام ، وهو وسيم حسن الهيئة على علم واسع بحانات وصالات الشاى بلندن .

٢٢ أبريل ١٩١٧ – فى مساء ١٩ ، أويت إلى الفراش ، حيث لاحظت وجود باخرة مملوءة بالأضواء الكاشفة تواجهنا ، ثم ما لبثت أن تعقبتنا لمدة تقرب من الساعة ، أثارت فينا المخاوف والقلق ، ولا نعرف عنها شيئًا سوى أنها ليست سفينة الرادار ، مما جعلنا نشعر بقدر من الطمأنينة حتى اختفت عن الأنظار . وعند تناولى طعام الإفطار فى وقت متأخر تحدثت مع شخص متشائم من الحرب ، برغم أنه يعتبر نفسه متفائلاً بطبعه . وبرغم معرفتى العميقة بالجزيرة العربية ، فإن قسوة الحياة فيها لا تقارن بقضاء يومين على قارب صيد مكشوف دون طعام ، عرضة للأمطار والبرد .

وعندما وصلت إلى بومباى شعرت بالأسف لعدم حملى جواز سفر أو خطاب توصية ، فقد كان الأخير على وجه الخصوص مطلبًا ضروريا فى الهند ، وعندما نزلت من السفينة ركبت عربة مع الكباتن : نوكس ، ولاركن ، ودوجمور إلى مكاتب البحرية البريطانية بالميناء ، ولم نعثر على هيوجز (صراف الرواتب) ، فأخذت معى أحد الكتبة من أبناء جوا فى عربة إلى مقر الوزارة (وهو مبنى من الطراز القوطى ينتمى إلى منتصف العصر الفيكتورى) ، وهناك وجدت أن چوكس (رئيس جمعية بريمبوك للخطابة) هو الشخص المسئول ، فأحسن استقبالى ، وأعطانى توصية لنادى اليخت للحصول على حجرة ، وأخرى لمدير السفريات ، حيث ملأت استمارات جواز السفر ، وعدت إلى مكتب البحرية الملكية لأجد هيوجز (صراف الرواتب) قد وصل ، وفى أثناء الحديث علمت أن السفينة « لنجه » التابعة للهند البريطانية سوف تبدأ الإقلاع ، ولما رآنى على عجلة من أمرى بادر بالاتصال هاتفيا بالشركة ، وأوقف السفينة انتظارًا لى ، ورتب قاربًا لنقلى إليها ، وهرعت للحاق بالسفينة ، وقمت باسترداد أمتعتى من الجمارك ، ثم تابع القارب الرحلة فى الميناء بحثًا عن « لنجه » التى كانت قد فكت مراسيها بالفعل وبدأت الإبحار ، وبصعوبة بالغة استطعت الصعود بأمتعتى على متنها فى جو خانق شديد الحرارة ، وقد اتسخت ملابسى لتعثرى فى حبل على رصيف الميناء وسقوطى على الأرض ، يتملكنى شعور بالأسف لشرحى بعض جوانب مهمتى العاجلة ربما كان ذلك خارج نطاق ما هو مباح ، وكذلك لعدم استطاعتى رؤية بومباى ،

حتى مرت بنا سفينة مستشفى تحمل اسم « سوريا » فتفاءلت لقرب هذا الاسم من نطق الكلمة التى تعنى « صحيح » باليونانية .

كان على السفينة « لنجه » راكبتان لم تظهرا قط ، ورئيس الطاقم المتعجرف الذى لا يريد التحدث إلى أحد ، وعندما حاولت الحديث إليه أسكتنى بكلمة « سملا » ، وضابط بريطانى أسترالى حسن الشخصية ، وأدهشنى أن السفينة لم تخف أنوارها ، وقطعنا المسافة بين بومباى وكراتشى التى تبلغ ٥٠٠ ميل بسرعة أربع عشرة عقدة ونصف عقدة فى الساعة . وسرنا فى جو أوائل الرياح الموسمية التى ما لبثت أن تلاعبت بالسفينة ، ثم بأحشائى ، وأسفت لتناولى طعام الغداء . أما خادمى سعيد فكان فى حال يرثى لها ، وقال لى إن اللحم الذى أجبرته على تناوله على ظهر السفينة نانكن « خرج من عينيه » ، وفى الليلة الثانية نصحه عربى بتناول كمية من البصل كعلاج لدوار البحر ، فاستجاب للنصح ، غير أنه ظل يتقيأ حتى الصباح ، واعتبر تلك النصيحة « وصفة زفت » . وصلنا إلى كراتشى فى العاشرة من صباح الأحد ٢٢ أبريل . وذهبنا عبر القناة لألاحظ – لشديد الأسف – ضآلة وبؤس الهلك (قارب قديم بطىء الحركة) الذى سيحملنا عبر الخليج الفارسى .

٢٣ أبريل ١٩١٧ – فى كراتشى لعب المد دورا لصالحى ، فبينما كنت متردداً فى أخذ أمتعتى معى أو تركها على ظهر السفينة « لنجه » ، والتوجه إلى فندق كارلتون لقضاء الليل ، جاءتنى النجدة على يد مبعوث أوراسى من قبل المندوب المقيم يدعونى للإقامة فى بيت الحكومة . وركبت السيارة مع المبعوث وبصحبتى سعيد وأمتعتى ، وبعد أربعة أميال وصلنا إلى مقرٍّ بُنِىَ على طراز استعمارى قديم ، على مدخله لوحة رخامية مكتوب عليها « السير تشارلز نابييه ، غازى وحاكم السند عاش هنا » . اغتسلت فى حمام رخامى وغيرت ملابسى ، وذهبت إلى مقر المندوب المقيم لورانس لتناول الغداء معه وزوجته ، وهو ينحدر من أسرة لورانس العظيمة ، ظريف ، هادئ ، أما الزوجة فتنتمى إلى عائلة نابييه ، طويلة بيضاء ، كتبت عدداً من الروايات وتغنى السوبرانو ، وقد أغدقا علىَّ من كرمهما ، وتركانى حتى الخامسة لأنال قسطًا من الراحة . وبرغم قلة أجور الخدم فإن ملابسهم وعمائمهم الكبيرة أجمل كثيراً من السفرجية المصريين المطربشين ، وكان المظهر بديعًا حتى إن سعيد (خادمى) أعجب بزيهم وأبدى

استعداده لارتدائه بالقاهرة إذا اشتريته له ، وقد أضفت عليهم لحاهم بعض الوقار الذى لا أظنه يعكس حقيقتهم ، ويجب أن أعترف بأن المصريين هم الأفضل والأرقى .

صحبنى لورانس فى جولة بطيئة بسيارته الفيات ، وقد أعجبت - منذ الوهلة الأولى - بعدد واتساع ونوعية الطرق ، وفهمت لماذا كان كيتشنر يصر على ضرورة التوسع فى بناء الطرق فى مصر . والمبانى العامة والخاصة مبنية من الحجر الرملى البنى ، وأسعدنى غياب القصور ذات الطراز الأوروبى ، والطراز العربى - الأوروبى ، والعمارة الحديثة التى جعلت من القاهرة والإسكندرية أقبح مدينتين على ظهر الأرض . ومن ناحية أخرى اتسمت كراتشى بالطابع الإقليمى على نمط الخرطوم ، ولا تحمل طابع العاصمة ، وهناك حافلات تفى بالغرض تربط أنحاء المدينة ولكنها مزعجة ، فتسمع صوت المحرك عاليًا كلما نقل السائق تروس السرعة ، وتوجد بعض ألعاب الكريكيت الهندية ، وذكر لورانس أن الباريسيين بارعون فى ذلك ، والمصريون لا يبدون ميلا لتلك اللعبة ، ولا أرى مبررًا لذلك ، ولكن يعوض ذلك إقبال المسلمين على كرة القدم . وهناك السيارات والعربات (الحنطور) التى يجرها حصان واحد ، وعدد المستشفيات والكنائس كبير ، ويلاحظ التنوع ، نتيجة تعدد الطوائف ، ولا يستخدم نساء الطبقات الدنيا الحجاب ، وهو أحد مظاهر العبودية الذى تسعدنى عدم رؤيته .

وأطلعنى لورانس على النادى والجمخانة (نادى النساء) ، حيث تتم ممارسة الألعاب المختلفة مساء على ضوء الأنوار الكهربائية . وقد وجدت نظام التوقيت فى الهند يبدو غريبا فى بداية الأمر ، فالإفطار فى العاشرة والنصف ، ثم لا شىء على الإطلاق حتى الخامسة مساء ، ولكنى أعتقد أن ترك أحسن ساعات النهار للراحة بدلاً من تخصيصها للعمل ، كما هو الحال فى مصر ، أفضل بكثير .

لم أنم جيدًا لعدم تعودى على أصوات الرياح ، وفى الصباح وصلتنى إفادة بأن السفينة « دواركه » المتجهة إلى البصرة عليها حالتا إصابة بالطاعون ، وأنها ستتأخر أسبوعًا ، وعلمت من أحد موظفى حكومة الهند أن ناقلة الخيول « علا » سوف تبحر إلى البصرة فجر اليوم التالى ، وأنها تبحر بسرعة عشر عقدات فى الساعة ، وتمر بموانئ الخليج على الساحل الفارسى الواحدة تلو الأخرى . فأرسلت برقية إلى كبير

ضباط البحرية فى بومباى على أمل أن يكون هناك بديل أفضل . وركبت سيارة إلى مكتبة صغيرة لبيع الروايات ؛ حيث صادفت مولا يحمل بعض الأشياء المصنوعة من النحاس الأصفر والخزف لا قيمة لها ، وتوجهت بعد ذلك إلى الميناء لاختيار مقصورة على الناقلة « علا » ، فوجدتها تحمل قطيعًا من الأبقار والعجول مغطاة بأسراب هائلة من الذباب .

فى السابعة إلا الربع مساء صحبنى لورانس بسيارته إلى الصحراء ، حيث نقلتنا من هناك العربات إلى تبة صخرية ، شاهدنا من فوقها قرص الشمس يغرب وسط السحاب فى مشهد بديع للشفق ، وتناولت العشاء عند العودة مع لورانس وزوجته وزوجين بنغاليين ، الزوج طبيب بالجيش والزوجة ترتدى ثوبًا وطنيا مذهبًا جميلاً يعطى تجسيدًا لمشهد الشفق ، وكذلك قاض أنيق المظهر .

٢٥ أبريل ١٩١٧ –ركبنا السفينة « علا » فى السابعة والربع صباحًا ، وغادرت كراتشى فى تمام الثامنة ، وقمنا بتأخير ساعاتنا بساعة واحدة ، واستمتعت بصحبة المستر سميث ، وهو ترزى عسكرى ناجح عرف ببراعته فى تفصيل البزات العسكرية المختلفة بمهارة فائقة ونوق رفيع ، الطعام على درجة من السوء ، ولكن السفينة لا بأس بها بغض النظر عن سوء حال الحمام ومضايقات الذباب ، بالإضافة إلى طول الرحلة ، فقد قطعت حتى الآن حوالى أربعة آلاف ميل فى طريقى من القاهرة إلى بغداد ، ومازالت هناك عشرة أيام علىَّ أن أقضيها فى السفر إلى بغداد .

٢٦ أبريل ١٩١٧ – فى السادسة صباحًا وصلنا إلى شاهبار أبعد ميناء فارسى إلى الشرق ، لأجد مدير التلغراف واثنين من الملازمين يصعدون إلى السفينة ، ونزلت إلى الشاطئ بصحبتهم فى التاسعة والنصف ، وناديت على شخص فارسى يعرف القليل من الإنجليزية ، ودعوته إلى أن يقف أمام الميزان – الذى يغش الوزانون به كلا من الحكومة والجمهور – لألتقط له صورة بآلة التصوير كوداك الجديدة ، ومعظم السكان من البلوش (الذين يكرهون الفرس ، ويقبلون حكمهم على مضض) يميل بعضهم إلى البياض ويغلب الاختلاط بدم العبيد على الكثير منهم .

وتجولت فى القرية حتى مد لى صبى فى الحادية عشرة من عمره يده ، ففهمت أنه يريد مصافحتى ، ففعلت ذلك - وحسنا فعلت - لأنه كان ابنًا لأحد شيوخ القبائل نجح مؤخرًا فى الحصول على الحماية البريطانية ، واعتقدت أن الصبى (حسين خان) ولد طيب ، ودعوت له بالانتصار على أعدائه . وسرت فوق رمال الصحراء الملتهبة إلى ضريح شيخ البلدة الذى يقع وراءه بستان من أشجار المانجو والخضروات ، وعبر خنادق حملت أسلاك التلغراف ، حيث محطة التلغراف وثمانية جنود من القوات الهندية المعاونة التى تحرس القلعة ، رفعت قبعتى تحية لأولئك الشباب الذين تقل أعمارهم عن الثلاثين عامًا ، ويعيشون فى القلعة منقطعين عن العالم ، لا يصل إليهم البريد سوى مرة واحدة كل شهر ، يعيشون بعيدًا عن الأهل والأصدقاء ، ولا يوجد مكان لممارسة الرياضة إلا على بعد أربعين ميلاً . ويحرص الضباط على شغل جنودهم دائمًا بالتدريبات ، ويعدونهم للاشتراك فى مباريات كأس الهوكى التى تنظمها تلك القوات ، وقد طلبوا منا البقاء لتناول الغداء معهم ، وعندما ناقشوا معنا نقص إمكانات القلعة والحاجة إلى ملعب تنس ، وغير ذلك من أمور ، حرصت على أن أقارن حالهم بالوضع على السفينة « علا » ، وبرغم أن شاهبار لا تشبه أصفهان مثلما لا تشبه بورسعيد أو الأقصر فإننى أحسست بالسعادة لوجودى على أرض فارس .

أخبرنى سعيد أن حذاءه البنى الجديد الذى اشتراه قبل السفر من القاهرة بمبلغ ٣٥ قرشًا قد سرق من جواره فى أثناء نومه ، فقلت له إن الكثيرين ذبحوا فى أثناء نومهم ، وإنه يعد بذلك محظوظًا لتفاهة ما تعرض له من خسارة ، ولكنه استمر يندب حظه العاثر ، فتحدثت إلى رئيس خدم الباخرة ، الذى حامت حوله شكوك سعيد ، فأعاد ما ضاع بحلول المساء .

٢٧ أبريل ١٩١٧ - بعد أن نمت نومًا عميقًا على سرير سفرى بمقصورة القيادة استيقظت فى مسقط . كان الخليج بديعًا ، محاطًا بقمم التلال ، تحيطها القلاع والطوابى التى تحمل مدافع قديمة تبرز من مغازلها ، وكتبت أسماء السفن التى ترددت على الميناء منذ سنوات بحروف بيضاء كبيرة ، ومعظمها من السفن البريطانية ، وفى ظهير المدينة الصغيرة البيضاء تبدو بعض البيوت الكبيرة منها القنصلية البريطانية ، وقصر السلطان ، والمستشفى ، وقد أرسلت مذكرة إلى القنصل والوكيل السياسى

البريطاني الذي أرسل اللنش الخاص به مع رد مناسب . فنزلت إلى البر وبصحبتي جميع المسافرين الآخرين ، وتولى التجديف بلوشي وعربي ورجلان من زنجبار ، وهبت علينا - بفضل من الله - ريح شمالية لطيفة بدونها تصبح المنطقة من أشد بقاع العالم حرارة . وتركت رفاقي ، وتوجهت للقاء الماجور هوارث ، وهو سياسي هندي ذكي . والقنصلية بناء قوي وحجرة الاستقبال جميلة ، بها زهريتان صينيتان كبيرتان ، وتلبية لطلبي أرسل هوارث إلى السلطان طالبًا المقابلة ، وهو السلطان السيد تيمور بن فيصل بن تركي ، وهو إباضي ، وله ولد في السابعة من عمره .

وسرنا في شوارع ضيقة يتقدمنا قواس القنصلية في عباءة كبيرة تصل إلى أقدامه وعمامة كبيرة ، ولا يلفت النظر في المدينة إلا أبواب البيوت الخشبية ذات النقوش المحفورة . القصر بناء كبير مربع له فناء داخلي ، وقابلنا السلطان وشقيقه وحولهما الحرس (الذين لا يرتدون بزات رسمية ، ولكنهم يحملون أسلحة عتيقة مزخرفة وأسلحة حديثة) خارج الباب الأمامي ، مما أجبرنا على نزول الدرج أمامه ، وتوجهنا إلى حجرة للمقابلة ذات مساحة معقولة ، مغطاة بسجاد فارسي رديء ، وأثاث نمساوي الطراز ، وعلى الحائط صورة رسمية لجلالة الملك چورچ الخامس على رأسه التاج تبلغ ثلاثة أرباع الحجم الطبيعي ، تماثل تلك التي رأيتها في عدن ، وصورة كبيرة موقعة للرئيس تافت ، وبعض المناظر الكبرى للقاهرة كالقلعة ومسجد السلطان حسن والنيل .

والسلطان متوسط الطول يرتدي زيًا مماثلاً لزي الشريف حسين شريف مكة بما في ذلك العباءة المصنوعة من وبر الجمال ، ولكنه يلبس عمامة كبيرة من اللونين الأحمر والأزرق ، وبشرة السلطان بنية داكنة ، ربما يحمل دماء زنجية ، ولكنها لا تبدو على ملامح وجهه ، وسلوكه بسيط ، مهذب ، جذاب ، ولكنه لا يعكس مظاهر القوة . وقد تحدثنا معًا بالعربية ففهمني وفهمته جيدًا ، وبرغم أن هوارث واسع المعرفة بالفارسية والهندستانية فإنه لا يعرف العربية ، واستخدمت في حديثي معه بيتين من قصيدة للمتنبي استخدمهما مارك سايكس في موقف تأنيب للذات . وبدت منه مظاهر الرضا التام عن حركة الشريف (برغم أن هوارث ذكر لي أن شعبه لا يشعر بذلك) ، وقال لي إن عائلته على صلة بآل عون منذ أجيال ، وهو لا يعرف شيئًا عن الأسرة الحاكمة في

مصر أو وزرائها (ويعتقد أن سمعتهم جيدة فى كل البلاد) . وبعد قليل قدم لى قائد الجيش شقيقه السيد نادر بن فيصل ، وهو رجل أسود ظريف وودود ، سره كثيراً أن يلتقى مع مستعرب بريطانى ، وهو متفتح ، وإن كانت تنقصه معرفة الكثير من الموضوعات .

وكما علمت من هوارث ، فإن الخطأ يعود إلى الشخصية المحبوبة ذات الطابع القدسى لسيد مسقط . ولأنه لا يدخن ، منع زراعة الدخان ، وأدى توسعه فى الاستدانة إلى تحمل الخزانة فوائد مرتفعة للديون ، وبرغم أنه حاكم لبلد يمتد ساحله إلى ١٥٠٠ ميل فإنه يحكم الساحل فقط ؛ لأن الداخل فى حالة ثورة يقودها إمام منتخب وفق المذهب الإباضى .. والعلاج الناجع فى رأى هوارث هو الحماية التى لا تبلغ درجة من الشدة وتتسم بالمرونة ، وذلك لإبعاد أعدائنا عن المنطقة ، ولنجعل تيمور يدرك حقائق الأمور ، مع إطلاق يده ، واحتمال زيادة المعونة التى تقدم له وتبلغ ١٢ ألف جنيه سنويا - والتى يشكو دائمًا من عدم كفايتها - حتى إن تجار بومباى الذين استقروا فى مسقط منذ سنوات طوال يريدون الخروج منها بسبب الكساد .

وفى الساعة الثانية عشرة والنصف استأذنا للانصراف ، فطلب منى السلطان بطاقتى، وصحبنا حتى المدخل ، حيث ودعنا هناك وعاد مسرعًا ، وأرسل لى على الفور صورته داخل إطار فخم .

وعند تناولى الغداء مع هوارث ، علمت أنه عمل مع السير هنرى ماكماهون وأحبه ، وبعد الغداء قام هوارث بالغناء ، فقدم أغنية فولكلورية إنجليزية . وبعد ذلك أرسل لى السلطان حارسًا من حراسه رافقنى فى الصعود إلى القلعة التى بناها البرتغاليون عام ١٥٠٨ ، ومازالت تحمل بعض آثارهم . وعندما نظرت فى إحدى الحجرات وجدت نحو دستة من السجناء المربوطين بالسلاسل بعضهم إلى بعض من الأعناق والأقدام يصرخون فى فزع « لا تضرب ! » ، وكانوا جميعًا شبه عراة ، ويعود فزعهم إلى ظنهم أن الحارس جاء بصحبتى لإطلاق النار عليهم ، فلما اطمأنوا إلى نياتنا ، وإننى مجرد زائر ، طلبوا منى نقودًا ، فقبلت أن أدفع لهم بقشيشًا بشرط أن يقفوا أمامى فى الشمس لالتقاط صورة ، ففعلوا ذلك ، وما كدت ألتقط الصورة حتى

عجز معظمهم عن الاستمرار واقفًا . وتركت القلعة عائدصا إلى « علا » فى الساعة الرابعة إلا الربع مساء .

٢٨ أبريل ١٩١٧ – وصلنا إلى جاسك فى السادسة صباحًا ، ولما كنت قد سمعت أنها أقل شأنًا من شاهبار ، وأن بها فقط محطة تلغراف ، فقد فضلت البقاء على متن السفينة ، وفى العاشرة والنصف مساء استوقفتنا السفينة الحربية البريطانية لورانس لتحصل على البريد الخاص بها وعلى جردل من الحليب . وقد أبلغنى ربان « علا » أن لديه تعليمات صارمة بعدم الاستجابة لأى إشارات ضوئية ، ولذلك كان من الناحية العملية مخطئًا عندما اضطرت « لورانس » إلى اعتراض طريقنا ، فإذا كانت سفينة الرادار هى التى اعترضت طريقنا لكان المصير مختلفًا ، ولكن يبدو أنه لا مفر من ذلك المأزق . ريح قوية وجو ألطف نسبيا من جو كراتشى ، أشغل يومى كله بالقراءة فى التاريخ والأدب .

٢٩ أبريل ١٩١٧ – وصلنا إلى جزيرة هنجام ، حيث توجد ست محطات تلغراف ، وسمعنا أن هناك مباراة كريكيت تجرى بالفعل ، ولا شك أن مثل هذه المباريات وغيرها من وسائل تمضية وقت الفراغ تقى رجالنا من فقدان الجو الحضارى ، وتركنا الجزيرة فى الثامنة ، وأبحرنا اليوم كله فى مياه هادئة كسطح زجاجى ، تقع أنظارنا على جبال جنوب فارس ، التى تبدو مثل المرتفعات البعيدة الوردية فى أعالى النيل ، أقرأ باستمتاع كتاب « بيت الموتى » لدستويفسكى .

٣٠ أبريل ١٩١٧ – نقوم يوميا بتأخير الساعة ، ولكن الحرارة تزداد ارتفاعًا ، وقبل السادسة مساء ألقت السفينة مراسيها خارج ميناء بوشهر ، تماما كما ذكرت فى برقيتى التى أرسلتها إلى السلطات بالأمس ، حيث يقع مرسى البحرية البريطانية ، وفوجئ قبطان السفينة بعدم وجود أى أثر للموظفين والرجال الذين كان يجب أن يكونوا فى انتظارنا ، تماماً كما حدث فى جاسك. وقد ظهروا حوالى الساعة السابعة ، ونقلوا الأشياء التى تخصهم فى أربعين دقيقة ، وعلمت أن سبب التأخير النظام الذى وضعه البريجادير ماجور ، فهناك فرقة من الجنود البنجاب ، وفصيلة من الفرسان ، وفرقة جمال مكونة من ٢٠٠٠ رجل تتولى حماية محطات التلغراف واللاسلكى وغيرها ، كما

تتولى حماية المدينة من التعرض للسلب والنهب ، ويقوم واسماس - القنصل الألمانى العام السابق - ببذل جهود فى المناطق الجبلية لإثارة القبائل ضدنا دون أن يحقق الكثير من النجاح .

عيد مايو ١٩١٧ - اتخذ هذا العيد هنا مظهرًا لا يقل عنه فى بيكاديللى بإنجلترا . وبعد قيظ شديد بالأمس ، هبت ريح قوية فى الواحدة صباحًا ، كادت تطيح بى من فوق ظهر السفينة ، وتصيبنى بالبرد ، وخشيت أن تتطور إلى ما هو أسوأ ، ولكن الربان أكد لى أنها ريح الشمال ، وأنها قد تؤخر وصولنا إلى شاطئ شط العرب ، وكذلك نتيجة لتأخرنا فى بوشهر . وجرت العادة أن ينتظر مرشدو الميناء السفن الداخلة إليها على ظهر قارب أحمر صغير ، وقد ضيعنا ساعة كاملة فى إنزال قارب النجاة الثقيل (لإحضار المرشد) ورفعه مرة أخرى ، وعندئذ أصبح دخولنا الميناء صعبًا ، فقد ارتفع المد فى الساعة ٢٢ : ٨ ، ولذلك ألقت السفينة مراسيها ، وانتظرت حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ، عندئذ أصبت بالإحباط بسبب التأخير وسوء الحظ ، واضطرارى لقضاء ليلة إضافية ضاق بها صدرى . وتضاعف بؤسنا عندما رأينا السفينة « جدة » ، التى سارعت فى التقاط المرشد قبلنا ، تندفع بقوة نحو الميناء . عندئذ تغيرت رياح الشمال لتصبح كرياح الخماسين فى مصر ، حارة ومحملة بالرمال ، تحجب رؤية الشمس والبحر على السواء ، وبعد الثالثة بقليل انحسر المد ليرتفع فى الخامسة ، وخشينا على مدى ساعة من الزمن ألا نستطيع الرسو بالميناء فى ذلك الجو ، واحتمال جنوح السفينة فى الرمال الموحلة ، ولكن المرشد الفارسى (وكان سُنيًا يتحدث العربية) نجح فى إدخال السفينة إلى الميناء . وحوالى الساعة الخامسة والنصف مساء بدأنا نبحر فى شط العرب بين الضفة الغربية التركية والضفة الشرقية الفارسية ، وكلتاهما أكثر خضرة من النيل ، والضفة الغربية مغطاة بكثافة ببساتين النخيل ، وقامت السفينة بتسليم البريد لمحطة تلغراف الفاو ، ثم ألقت مراسيها على بعد خمسة أميال شمال الفاو لقضاء الليل . وقد أخبرنى ربان السفينة بأن الفرس أمهر من العرب فى تفريغ وشحن السفن ، مما يجعل جلبهم من بوشهر أوفر وقتا ومالا من استخدام العرب .

لم أتلق أخباراً من إنجلترا منذ ٢ أبريل ، وليس لدى أمل فى تلقى شىء قبل عشرة أيام .

٢ مايو ١٩١٧ – تحركت السفينة فى الرابعة صباحًا لترسو فى المحمرة فى التاسعة ، فى مواجهة نهر قارون ، ومازالت ريح الشمال المحملة بالرمال تواصل هبوبها ، وهناك كثافة غير عادية لبساتين النخيل على جانبى النهر ، والقنوات المتفرعة من النهر على الضفتين تضفى على المشهد رونقًا يفتقر إليه النيل ، وكما أن مساحات الحشائش الخضراء أوسع منها فى مصر ، وتتوافر فى البصرة كل التسهيلات والمعدات التى نجدها فى الموانئ الكبرى ، ويعنى ذلك استهلاكًا هائلاً للنفط ، ومدينة البصرة جزيرة ، نلمح على شاطئها أكواخًا رثة ، ولكن هناك بعض البيوت الكبيرة الجميلة التى تبين مدى صلاحية نموذج القصر الفينيسى فى مثل هذه المدينة . تناولت طعام الغداء على السفينة « علا » ، ثم انتقلت بقارب بخارى تابع لإحدى السفن الحربية البريطانية ، ونزلت عند رصيف قيادة الجيش ، واتصلت من هناك هاتفيا بويلسون – نائب مأمور الشرطة – وهو من اختيار كوكس ، وسيم ، وكفء ، وذكى ، وواسع الطموح . وصحبنى بسيارة الشرطة (البوكس) السوداء إلى مكتبه ومقر إقامته (فى الوقت نفسه) والمبنى صغير ، ومكتب ويلسون نموذج للفوضى ، مغطى بالتراب (ربما بسبب العاصفة) ، وكان رجاله من الفرس الذين يستخدمون عمائم كبيرة يترددون عليه من حين لآخر . ووجدت لديه برقية من القاهرة تنتظرنى منذ ١٩ أبريل ، يسألوننى عن مكان مفاتيح ملفاتى لمراجعة أصول مكاتبات الشريف حسين للتعرف على عدد الرسائل التى لم تصلنا أصلاً ، ويدعى الشريف إرسالها إلىَّ ، وأنا أعلم أن البعض يريد أن يعطى انطباعًا بأننى قد أضعت تلك الرسائل عمدًا ، ومن ثم يجب ألا أكون مسئولاً عن الاحتفاظ بالوثائق الرسمية . وبغض النظر عن ذلك ، فقد رحبت بالبرقية ، باعتبارها برهانًا على الحاجة الماسة لتنظيم العمل بدار المندوب السامى بالقاهرة ، على نحو ما أشرت من قبل فى مارس ١٩١٥ .

وأخبرنى ويلسون أن سكان بلاد الرافدين بصورة عامة يسهل ترويضهم ، وقادرون على التعلم والاستيعاب ، فهم يدركون حقيقة تخلفهم ونقاط الضعف عندهم ، ويمقتون الترك مقتًا شديداً . ويرحبون بالجديد بدرجة مدهشة من التقبل . وما يتوقعونه منا

وضع نظام جيد للإدارة ، وتحسين الواقع المادى ، وتحقيق الرخاء والتوسع التدريجى فى نقل السلطة إلى العناصر المحلية ، وهدفهم الأسمى أن تصبح العراق مماثلة لمصر.

ويـــرى ويلسون أن هناك عناصر بين ضباط العراق تقدم خامة طيبة للعمل السياسى ، وقد قتل أربعة ممن وقع الاختيـــار عليهم فى أثناء عملية الاستيلاء على بغداد ، ولكن كوكس يريد أن يدفع بدماء جديدة فى مختلف الدرجات الوظيفية ، وألا يقتصر ذلك على المراكز الدنيا أو العليا وحدها ، وهو رأى حكيم دون شك . وكانوا على وشك أن يطلبوا العون من مصر عندما بلغتهم أنباء رفض كلايتون شغل وظيفة مساعد المسئول السياسى . وبرغم أنهم لا يريدون استخدام موظفين سياسيين أو مدنيين من حكومة الهند فإنهم يبدون إعجابهم بدقة ونظام تلك الإدارة ، وفى الساعة الرابعة والربع قابلنا دوجمور على ظهر السفينة بروسربين ، حيث علمت منه أنه علىَّ الذهاب إلى بغداد على متن العبارة النهرية « جنات » صباح الرابع من يوليو .

وقد التقيت بالكومودور بصحبة ويلسون الذى سأله عن الطريقة التى يراها مناسبة لاستقبال كتيبة سلاح المهندسين الهندى التى كتبت له عنها حكومة الهند ، ولكننا علمنا أخيراً أن الكومودور رفض النظر إلى تلك المذكرة . وأبلغنى أن ابن سعود عندما كان على متن السفينة « فونو » ، وأيقظه الكومودور لأداء الصلاة صمم على حضور صلاة الأحد على ظهر السفينة ، وأعجب بالكومودور كمحارب وإمام . بعدئذ ذهبت مع ويلسون فى جولة بالسوق ، وهى سوق مسقوفة منظمة ، وفى مكان ذى قبة فارسية ، وقد تركت بطاقتى لليدى كوكس .

وكان فيننج – فى عدن – قد حملنى رسالة إلى المسز بورى (زوجة طبيب مدنى) حصل ويلسون على موعد معه ، وتناولنا العشاء . والبصرة تشبه ڤينسيا فى المساء بقواربها الطويلة الرفيعة التى تذرع القناة جيئة وذهاباً كما يفعل الجندول هناك . ويحمل المارة المصابيح أو الفوانيس معهم ، والمسز بورى سيدة جميلة ، طيبة ، ومستعربة جيدة . وتناول العشاء معنا أيضاً ضابط برتبة لفتنانت كولونيل علمت فيما بعد أنه كان المحرر السابق لجريدة التاتلار . وتحدثت بعد العشاء عن زيف مقولة القتال النظيف للترك . وعلمت بقدر كبير من الاشمئزاز ما ارتكبه العرب من فظائع

ضد قواتنا فى الكوت ، حيث ضربوا على وجوههم بكعوب البنادق ، وعندما أضناهم العطش قدم لهم السجانون الماء وهم على ظهور الخيل ، وعندما كانوا يتزاحمون لنيل شربة ماء كانوا يركلونهم فى أفواههم . وقص علىَّ ويلسون الكثير حول الخيانات التى تعرض لها ضباطنا .

نمت حوالى الحادية عشرة على عنجريب (سرير من الشباك معلق بالسقف) فى برودة تشبه برودة ليل مارس بالقاهرة ، مما ذكرنى بأن البصرة على خط عرض واحد مع السويس ، كما أن بغداد على خط عرض واحد مع دمشق برغم أن اتساع الصحراء المحيطة بالعراق يجعل جوه أسوأ حالاً ، وصعب الاحتمال ، وقد أخبرتنى المسز بورى بأن هذه المنطقة يُصاب فيها الناس بضربة حر لا تزال موضع الدراسة ، ولكنها تحقق أعلى نسبة من الإصابات .

٣ مايو ١٩١٧ - حوالى الحادية عشرة صباحًا ركبت سيارة بصحبة اللفتنانت كولونيل نوكس - كبير ضباط القضاء العسكرى بالعراق - فى رحلة إلى قرية الزبير لزيارة عبدالوهاب باشا منديل وشيخ الزبير . وسرنا داخل السوق ، حيث تنتشر منتجات لانكشاير ، ويمتلك معظم المحلات يهود من بغداد ، وتحمل اللافتات أسماءها بالعربية والإنجليزية ، ولا توجد أعمال نحاسية قديمة والمعروض من تلك المنتجات أقل جودة من المتاح بمصر ، أما السجاد فلا يستحق النظر إليه ، وسرنا لمسافة ١٥ ميلاً فيما يسمونه الآن الصحراء ؛ لأن شيئًا لا ينمو هناك ، ولكن لو امتدت إليها المياه لأينعت وأتت أكلها ، وقطعنا ميلاً ونصف ميل خارج مدينة الزبير الصغيرة ، وسرنا ما بقى من المسافة على الأقدام إلى بيت الشيخ ، يرشدنا إليه صبى عرض علينا بلغة عربية فصيحة أن يدلنا على « بيت إبراهيم » ، ولو كان الصبى مصريا لقال « بيت سعادة الباشا إبراهيم » .

والمدينة نظيفة بها عدد من المساجد ، ولكن ليست بها بقعة واحدة خضراء ، فالعرب لا يقبلون النوم فيما يسمونه جو البصرة الفاسد ، برغم أن الموازين المستخدمة هناك تحقق لهم ربحًا . وقابلنا الشيخ إبراهيم على باب بيته المبنى بالحجر ، وقادنا عبر فناء الدار الواسع المكشوف إلى حجرة « المندرة » ، وهى بناء بديع ، يرتكز سقفه

على ثلاث بواكى قوطية الطراز ، ومطلية من الداخل بطلاء أبيض . والسجاد ردىء النوع ، واللمبات من النيكل الرخيص ، ويتم تقديم الشاى فى أكواب زجاجية على الطراز الأوروبى ، صنعت فى اليابان .

والشيخ إبراهيم قصير القامة جذاب كسلطان مسقط ، ويفتقر إلى الكفاءة بعده ، ولكنه أكثر تحكمًا فى منطقته ، وعندما وصلت الحرب إلى الإقليم ، تعرض لضغط من جانب الجيش التركى الذى كان على مقربة منه ، وبرغم عدم استطاعته التغلب على مشاعره ، دعم موقفنا بإصدار نداء دينى يدعو باسم الله ورسوله إلى مساعدة المؤمنين بكل ما لدى الناس من موارد دون مقابل ، وكانت النتيجة أن ترك سكان الزبير مدة نصف يوم وشأنهم ، استطاعوا خلالها أن يخفوا ما لديهم من مؤن فى مكان بعيد .

زرنا بعد ذلك عبداللطيف باشا منديل ، وكيل ابن سعود ، وبيته أكبر وأحسن من بيت الشيخ إبراهيم ، وهو أعلى بيت رأيته فى تلك الناحية ، ينتمى إلى الطراز العربى لأواخر القرن التاسع عشر . وهو رجل طويل القامة ، يضع الكوفية والعقال على رأسه شأنه فى ذلك شأن الشيخ إبراهيم ، ولكنه يرتدى قفطانًا من الحرير الفارسى مطرزًا أبيض اللون ، ويدخن النرجيلة ، وقدم لنا قهوة جيدة . ويدرس ولده وبعض أقاربه فى الكلية الأمريكية ببيروت ، ولم يسمع شيئًا عنهم منذ بداية الحرب ، فعرضت عليه أن أتولى الاستعلام عنهم عن طريق القائم بالأعمال الأمريكى بالقاهرة (والوزير المفوض السويسرى فى نفس الوقت) .

وعدنا أدراجنا بعد الثانية ، ومررنا عبر ميدان معركة الشعيبة ، واخترقنا بساتين النخيل على مسافة ميل واحد خارج المدينة ، ثم سرنا على الأقدام بينها . ونوكس نجل أحد قضاة المحكمة العليا فى الهند ، وهو يميل إلى التحفظ على إدخال النظام القانونى المصرى إلى العراق ، ولكنى هدأت من مخاوفه من هذه الناحية .

خرجنا نمشى فى البصرة ، ولاحظت أن نساء الطبقة الدنيا غير محجبات ، ويمارسن الأعمال التى لا تتطلب مهارة بكفاءة تفوق كفاءة الرجال ، ولا يرتدى الطربوش سوى اليهود ، ورأيت بعض رجال قوة العمل اليابانية وقد أحضروا مسرحهم معهم ، ولكنى لم أر أحدا من قوة العمل الصينية ، كما رأيت بعض المصريين ورجلاً

أو رجلين من الأرمن . والمظهر العام للمدينة شبيه ببورسعيد ، ولكنها أكثر جفافًا وتعرضًا للأتربة من بورسعيد .

وروى لي ويلسون - وهو نجل ناظر مدرسة كليفتون - قصة حياته ، فقد قُتل شقيقاه في الحرب ، وأعطاني فكرة عن لجنة الحدود الإنجليزية - الروسية - التركية - الفارسية التي اشترك فيها وحصل نتيجة ذلك على وسام فارس (٢) . وكان من حسن حظه العمل مع رئيس قدير متميز هو السير بيرسي كوكس لمدة ١٢ سنة ، وأن يكون واحدًا من جماعة أصحاب الخدمة المتميزة ، غير أن كفاءته وسعة أفقه وانضباطه تكفل له النجاح في أي موقع . ويرى أن تكون المفوضية البريطانية في طهران تابعة لحكومة الهند ، ولكني أبديت مخاوفي من أن تقوم روسيا - عندئذ - بجعل مفوضيتها تابعة لوزارة المستعمرات أو لوزارة الداخلية ، ولما كان يكره - مثلي - اختفاء فارس ، ولا يرى ضرورة لذلك على الإطلاق ، إذا قرر الروس الالتزام بقواعد اللعبة ، ترى هل يفعلون ؟ قد أعجبتني أفكاره بأنه عندما تتجه منطقة غرب بلوشستان إلى اتخاذ الطابع الأوروبي دون تحفظ ، يجب التدخل لمصلحة الفرس الذين يعتبرهم أقرب إلى الأوروبيين في نواح مختلفة ، بما في ذلك تمتعهم بروح المرح .

تركت ويلسون في العاشرة والنصف صباحًا ، وصعدت على متن الناقلة النهرية « جنات » ، وأويت إلى فراشي على متنها في الحادية عشرة والنصف بعدما أنهكني التعب لإسرافي في المشي لأول مرة منذ شهر .

٤ مايو ١٩١٧ - غادرنا البصرة في الثامنة صباحًا في مواجهة ريح شمالية معتدلة باردة ، واكتشفت أن طبيب العبارة هو ديفيرو مارشال ، طبيب العيون الذي قابلته على الباخرة إيوريالوس حيث استعرت ساعته ، وقد أخبرني بلهجة تنم عن

(٢) بدأ ويلسون حياته العملية ضابطًا بالجيش البريطاني ، ثم بالجيش الهندي ، ثم دخل الخدمة السياسية الهندية ، وعمل لمدة عامين في السكك الحديدية الفارسية . ومنها اختير عضوًا بلجنة الحدود التي أنهت عملها عند جبل أرارات قبل يومين من إعلان تركيا الحرب ، وبحصوله على وسام الفارس أصبح اسمه السير أرنولد ويلسون . كما حصل بعد قليل على وسام الخدمة الممتازة لدوره في حملة العراق ، وأصبح عضوًا بالبرلمان فيما بعد .

الضيق أنها وصلت إليه بعد عدة شهور ، وقد كسرت ثلاثة من فصوص جواهرها .
وجنات عبَّارة ملكية من درجة ذبابة ، تعمل بالنفط ، وقد بنيت لتستخدم في الدانوب بعد أن نستولي على إستانبول ، وغاطسها عمقه أربعة أقدام وثماني بوصات ، وسرعتها القصوى عشر عقدات وربع عقدة في الساعة ، وبها غلايتان ، ومخرجان للعادم ، وتحمل مدفعين عيار ست بوصات وبعض الكماليات الأخرى ، وهي مريحة نوعًا ما ، ولكن سلم السرير العلوي عمودي يهتز باستمرار ، مما جعل من الصعب على سعيد أن ينام في مكانه السفلي ، ولم يكن يستطيع النوم بين المدفعين محاطًا بصفين من القذائف ، خشية أن تنفجر إحداها صدفة فتمزقه أشلاء ، فقلت له ماذا عساي أن أفعل ، وقد تنبأت إحدى العرافات بأنني سأفقد خادمًا في إحدى رحلاتي ، ولكنها لم تحدد اسمه ، ولكن سيحدده الانفجار ، فأخذ يردد: «عجوز سيئة .. عجوز سيئة !».

مررنا بالقرنة صباحًا ، وبضريح عيزرا بعد الظهر ، وهو في رأيي ينتمي إلى الطراز المعماري للقرن السابع عشر ، تعلوه قبة مكسوة بالقرميد الأزرق . أويت إلى فراشي في العاشرة والنصف .

٥ مايو ١٩١٧ – جنات تحتوي على حوض استحمام ، ولكن ليس بها مرحاض فلم توضع مثل هذه الضرورة في الحسبان . والملاحة في دجلة تتجاوز حدود المعقول ، فكثيرًا ما نجد القوارب تندفع في طريقنا في اتجاه الشاطئ . حوالي الساعة ١٢ ظهرا وصلنا إلى العمارة حيث رست العبارة للتزود بالوقود وظلت هناك بقية النهار ، وإلى جانبنا رست باخرة ذات بدال قديم جاءت مباشرة من جرينتش .

وبعد الغداء أخذت سعيد عبر جسر من القوارب ، وسرنا في اتجاه السوق لنجد أن أكثر من نصف المحلات مغلق بسبب راحة السبت ، وهي مبنية مثل المدينة قبل ستين عامًا ، ولكن البناء جيد والمحلات عامرة ببضائع مانشستر ، والسجاد رديء ، والنحاس سيئ ، ولكن نماذج البشر متنوعة : العرب المعممون ، واليهود المطربشون ، والفرس ذوو القلانس السوداء من بشت كوخ ،والنساء المنقبات تمامًا في عباءات الحرير البغدادي المخطط ، مما يوفر نوعا من الترويح بعد الملايات السوداء التي تلبسها نساء مصر . واجهات البيوت على الشاطئ الشرقي جيدة وتحتاج إلى دراسة ، ولكن المباني شيء آخر ، فهي متواضعة ذات فناء صغير وقاعات من دور واحد .

زرت فيلبى (خريج وستمنستر وترنتى كامبردج) وهو المسئول السياسى للعمارة ، وقد قال عنه ويلسون إنه يتميز بالمهارة ، وكان قد عين لتوه مسئولاً عن صحيفة بغداد وعن الدعاية ، وقد حسدته على ذلك ، وكان على موعد فى الخامسة والربع ليلعب الهوكى ، ولتلعب زوجته الجميلة التنس ، ولكنه كان كريمًا معنا ، فاصطحبنا فى السوق وجولة المدينة ، كما شاهدنا ترعة المشرع ، وأخيرًا ذهب معنا إلى محلات الفضيات التى يصنعها الصابئة .

ويوجد معظم أتباع هذه الديانة فى العمارة ، ويقدر فيلبى عددهم فى العراق بعشرين ألفًا ، وتوجد أقلية منهم فى بغداد وبعض المدن الأخرى ، ولكن لا يوجد منهم أحد خارج العراق ، وهم من أتباع يوحنا المعمدان [٢] ، ويتبعون مبدأه فى التعميد حتى الدرجة القصوى . وقد شهدنا عند الترعة منصة خشبية صغيرة ذات درج خشبى يهبط إلى الترعة حيث يغطس العروسان ، فيوحد هذا التعميد بينهما وينعقد الزواج ، وقد شاهد فيلبى تلك الطقوس ، وهو يعتقد أن شيئًا من الزرادشتية وعبادة الشمس تدخل ضمن طقوس الصابئة ، ولكنى لم أفهم جيدًا البراهين اللغوية التى ساقها لتأييد ذلك .

والصابئة يرتدون الملابس العربية ، ويتحدثون اللغة العربية وملامحهم جيدة ، ومظهرهم حسن ، والنساء عندهم غير محجبات ذوات ملامح جميلة ، يخترن أزواجهن بأنفسهن ، ويحفظن عشرتهم . وقد تحدثت لمدة نصف ساعة إلى ظهرون (المندارين الأكبر) والتقطت صورة له ولأخته فى التعميد وطفليهما ، بينما كانت تعد من أجلنا أول قهوة تستحق أن تشرب منذ غادرت القاهرة ، تقدم مغلية بدون سكر ، ولها قوة البراندى ، وأعمالهم الفضية عبارة عن الحفر على الفضة ثم النقوش المحفورة بطلاء معين أسود ، يدخل فى تركيبه الأنتيمون والرصاص والكبريت ، وهم يحتفظون بسر تلك التركيبة ، وعندى أن هذه الأعمال الفضية لا تفوق غيرها مما يصنع من أجل

(٢) ينكرون رسالة عيسى وموسى ، ويرون أن الجنة عند النجم القطبى ، وهى ديانة سريانية ، لا يمارسون الختان ، وقد ذكروا فى الكتب المقدسة بالصابئة ، ولكن اسمهم الحقيقى المندائون ، ولغتهم هى المندائية - السامية .

السياح مثل فخار وشيلان أسيوط . والصور التى تحملها نقوشهم مجرد رسوم غبية للجمال والقوارب والنخيل ، تجدها على ما ينتجونه من علب سجائر وصناديق صغيرة ، وحتى لبيسات الأحذية ، ولم أجد فيما ينتجون شيئًا يعبر عما يستخدمه الأهالى أنفسهم ، وسألت ظهرون كسائح صديق لن يسبب له ضررًا عن الهامش الحقيقى للربح همسًا ، فأطلعنى على علبة سجائر صنعها بناء على طلب العميل قيمتها ١٢ جنيهًا إسترلينيا كلفته ٧٧ روبية (٥ جنيهات إسترلينية) . فدهشت لاعتداله ، وتمنيت أن يقلدوه فى القاهرة .

وفى مباراة الهوكى التى كان يلعبها الجنود الهنود حفاة الأقدام مع ضباطنا ، شعرت بالغبطة ، وتمنيت أن أرى ذلك وما هو أكثر منه فى مصر ، وعدت بقارب فيلبى إلى النادى ، وشاهدت من شرفته أصص الورد الأحمر فوق المنازل على امتداد النهر . عدت إلى « جنات » حيث تناولت عشاءً غنيا ، طال أمده مع ورود القوات والقوارب حتى الحادية عشرة والنصف ، وأحسست بالبرد لهبوط حاد فى درجة الحرارة (علمت من أحد ضباط قوارب المدفعية أن الجيش يوفر الآن كل الاحتياجات ، وتمنيت أن يصيب المعوقين والأرامل شىء من هذا الكرم) .

٦ مايو ١٩١٧ – تركنا العمارة فى الخامسة والنصف صباحًا ، وتوقفنا عند الشيخ سعد للتزود بالوقود . ليلة أخرى باردة عانيت منها . ويبدو أن استخدام حكومتنا للنفط مقصور على النقل ، والنقل وحده ، ولا يضع فى اعتباره ظروفًا كهذه تتطلب التدفئة .

٧ مايو ١٩١٧ – ظهرت المدن الواقعة فى السهل حوالى الساعة السادسة صباحا ، وعند الظهر عبرنا بقرية كوت العمارة التى أصبحت خربة تمامًا ، وتبدو أكثر خرابًا من غيرها من المدن الشرقية لعدم وجودسكان بها ، البيوت تحمل آثار قصف المدافع ، فجوات هائلة فى الحوائط ، والمئذنة الوحيدة هدمت ، ويجب إضافة مأساة كوت العمارة إلى ما لا يمكن تفاديه من فظائع الحرب التى ازدادت بما حدث فى كرونل وجتلاند وشرق أفريقيا والدردنيل ، ولكنها جميعًا لا تقارن بما حدث فى كاليه . وفى السهل الواقع شمال الكوت يقف النصب التذكارى الذى أقامه الألمان

تخليداً لثلاثة من الجنرالات الأتراك قتلوا هناك ، لم تكن قد أزيح الستار عنه عند انسحاب الأتراك هذا العام ، ومازال مكسواً حتى الآن .

وحوالى السابعة ، نزلنا إلى الشاطئ ، والمجرى الملاحى يتغير من حين لآخر ، يتسع حيناً ويضيق حيناً آخر ، ولكن المجرى الضيق أكثر أمنًا من غيره . رأينا مشهدا أوروبيا لغروب الشمس ، فلم يسبق لى أن رأيت مشهداً بمثل هذا الجمال من قبل . وفى المساء شاهدنا حريقًا كبيرًا فى أحراش السهل الملىء بالمستنقعات ، تتسع قاعدته عند الأرض ويرتفع منه عامود من الدخان الكثيف إلى السماء ليكسو خط الأفق . فرغت من قراءة بعض الكتب كان آخرها مقامات الحريرى ، ولكنى مازلت متمسكا برأيى ، أن لا شىء مما كتب فى الأدب العربى يفوق ألف ليلة وليلة . أما كتاب « دليل الرافدين » الذى أعدته وزارة البحرية البريطانية فهو عبارة عن معلومات مجمعة لاتفيدنى فى شىء . آويت إلى الفراش فى العاشرة وما زال البرد شديداً .

٨ مايو ١٩١٧ – تركنا العزيزية فى السادسة صباحًا ، مبحرين فى جو غائم ، والضفتان آخذتان فى الارتفاع ، وتركنا قناة ديالة عن يميننا قبيل موعد تناول الشاى ، وبرغم مضى معظم الساعة فى محاولة اجتياز مجرى ضحل ، كان من حسن حظنا أن انزلقنا نحو بغداد قبيل غروب الشمس ، حيث اتسع مجرى النهر ليتوافق مع عظمة دخول المدينة ، وإلى الشرق تقع مجموعة من الواجهات المدمرة لبيوت على الطراز الإستانبولى ، والضوء الأحمر الذى يشع هناك يبدو كالدماء التى تلطخ الزجاج ، وينعكس أثره على الضفة الغربية حيث لا يوجد على البعد سوى بعض الحقول ، ولا أثر للمبانى هناك ، وفى كل مكان تجد أشجار النخيل بكثافة عالية . وعندما استدرنا فى المنعطف الأخير بدت البيوت الكبيرة ومآذن وقباب المساجد تتألق فى ضوء الشمس ، وبين جمع كبير من السفن ، رست « جنات » ، لألقى بذلك عصا الترحال بعد رحلة استغرقت شهراً كاملاً منذ غادرت القاهرة بالقطار فى الطريق إلى بغداد .

وبعد برهة إذا باللفتنانت كولونيل السير بيرسى زكريا كوكس (الضابط السياسى الكبير والمندوب السامى فيما بعد) وإلى جانبه جرترود بل يرحبان بى ،

وأخذاني بالقارب البخاري إلى منزله - المقر السابق لبنك الشرق الألماني - الذى تنعكس صورة شرفته الرائعة ذات الطراز الفينيسي على صفحة الماء . وكوكس دوق ويلنجتون منذ وقت طويل ، وهو إنسان ودود ، وقد اعتصر ما لديَّ من معلومات على مدى ساعة كاملة في الشرفة ، وكررت جرترود بل ذلك على مائدة العشاء ، التى غادرنا بعدها مقر كوكس سيراً على الأقدام إلى بيتها ذى الحديقة الفارسية التى تقع الغرف فى أركانها الأربعة ، يربطها ممر مزين بألف كلب . وقد بهرتنى الإمكانات المحتملة لهذه الجائزة الكبرى التى حصلت عليها (بالتعاون مع كوكس وبل) ، وكلى ثقة فى أننا سنستطيع تفادى العديد من السلبيات المناظرة فى القاهرة . لقد حان الوقت الآن لذلك .

٩ مايو ١٩١٧ - استيقظت متأخراً ، وتريضت على شاطئ دجلة ، ولما كان كوكس قد استدعى لمقابلة قائد الجيش ، فقد تحدثت حديثًا مفيداً مع جرترود بل ، وبعد الإفطار قدمت أوراقى لكوكس الذى تجاوز كل التحفظات ، وأبلغنى أنه قد اختير مندوبًا سامياً من بين جميع الضباط على اختلاف مراتبهم ، وأن هذا الاختيار فرض عليه من حكومة جلالة الملك ، بما يكفل له وضع أسس حكم البلاد فى المستقبل ، وأن تولى هذا المنصب دون التمتع بصلاحيات وسلطات الجنرال يجعل الأمر صعباً بالنسبة له ، وأنه من الأفضل له وللبلاد أن يستقيل الآن ، وأن يترك كلايتون [٤] يبدأ بداية جديدة . وكان مرهقًا ، اعتزم ترك الخدمة قبل الحرب ، ليعيش حياته ويتمتع بالحياة المدنية مع زوجته التى عانت معه فى الصومال والخليج عدداً من السنوات ، فقلت له إن الغياب المبكر لخبرته ومكانته سوف يصيب عمل أى خلف له بالشلل ، وإن عليه أن يحصل وزوجته على ما يتراوح بين أربعة وستة أشهر فى إنجلترا سنويا ؛ لأن وزارة الخارجية سوف تعامله معاملة مختلفة تماما بمجرد تعيينه مندوباً سامياً ، وإن المتاعب يمكن تجاوزها ، والمنصب - عامة - أحد المناصب الرفيعة فى العالم (فقد وجدت فى القراءة والكتابة والحياة بجوار أحد أكبر أنهار العالم خير حافز على العمل) .

(٤) وكان كلايتون قد تقدم بطلب للتعيين وكيلاً للضابط السياسى .

إن العمل مع كوكس وجرترود بل (التى تضمنت رسالتها للماجستير عن القبائل العربية تفاصيل مدهشة) ممتع للغاية ، فقد ذهبت مع جرترود بل منذ الصباح حتى ما بعد الثانية بعد الظهر بالسيارة إلى مسجد المرجانية ، الذى يتميز بنقوشه بالخط الكوفى البديع ، والمجرى المحفور فى الحجر والطوب ، وقد سُرقت ٦٠ قطعة من البلاط الخزفى سوف نحاول استعادتها ، وصعدنا إلى حجرة صغيرة ذات سقف منخفض ، وتحدثنا إلى الشيخ الألوسى ، العالم العربى الكبير الذى ينتمى إلى المدرسة القديمة ، وقد جلس حوله تلاميذه وأصحابه متكئين إلى الخلف تماماً ، كما تبدو صور العلماء فى الرسوم الفارسية . وقد قال لى كوكس إن الألوسى يتطلع إلى شغل وظيفة شيخ الإسلام التى أظنه جديراً بها ، ويستطيع شغلها بكفاءة تامة ، والمسجد شديد الاتساخ ، ويحتاج إلى الإصلاح ، والمياه ترشح أسفل بعض الجدران ، وفعلت الرطوبة فعلها فى القباب والعقود ، والناس هنا ودودون لا يطلبون بقشيشاً أو إتاوة للمحافظة على الأحذية ، والإمام يصيح بصورة هادئة حتى إنه يكاد يهمس لأحد الشيوخ راجياً إياه أن يسرع لأداء الصلاة بعيداً عن الضوء .

وبينما كنا نسير فى الطريق مررنا بأحد المبانى الرائعة الجذابة « خان قرطمة » الذى يعود أيضاً إلى القرن الرابع عشر ، وهو يشبه جسم سفينة مقلوب ، بحوائط هائلة من الطوب البنى الضخم التى تلتقى معاً تاركة بينها مساحة واسعة فريدة فى نوعها ، ولم أستمتع فى حياتى برؤية بناء كهذا الخان ، وكم كنت أتمنى أن يراه جلبرت سكوت ليقتبس منه ما يفيد عند تصميم كاتدرائية القاهرة [٥] .

وحول تلك الساحة قامت الأسواق على شكل عقود ذات طول كبير ، وفق التقليد الذى مازال معمولاً به ، وتتنوع العقود بإضافة سقف خشبى كما هو الحال فى البصرة ، والمحلات والشكل العام للسوق شبيه بما نجده فى القاهرة ، ولكن السلع أقل دقة فى الصنع ، وإن كانت الأسعار ليست كذلك . وقد طلب منى أحدهم بقشيشاً مرة واحدة ، ولكن الكلمة تجمدت على شفتيه عندما رأى ملامح الامتعاض على وجهى .

(٥) منحت الحكومة المصرية للكنيسة مساحة كبيرة من الأرض لهذا الغرض .

وبعد قليل ذهبنا للقاء محمود شكرى الألوسى ، وهو عالم متدين ، برغم عدم الاهتمام به ، فنهض لاستقبالنا فاتحًا الباب على مصراعيه ، وتشعب الحديث معه والألوسى مثقف ومعقول ، وكغيره من المثقفين الذين قابلتهم كان يستشهد بما تنشره صحيفة « المقطم » ، وأعتقد أن حال هؤلاء الناس كحال المصريين عام ١٨٨٢ ، يمقتون الأتراك ، ويبدو واضحًا أمامهم نموذجًا للسلام والتقدم البريطانى . وقد أوصيت بجدية أن يتم تسجيل الواقع الراهن فى هذه البلاد لينشر هذا الوصف بالإنجليزية والفرنسية والعربية ، قبل أن تطرأ عليه التغيرات ، حتى لا يدعى المطربشون الوطنيون لأنفسهم تلك التغيرات ، وينسبون لأنفسهم الاهتمام بالنظافة ، والصحة ، والماء النقى ، والكهرباء وتنظيم المالية العامة .

عدنا إلى الأسواق مرة أخرى ، وذهبت لمقابلة سيدة أرمنية كان صديق أرمنى من القاهرة قد حملنى خطابًا إليها ، وهى تعيش مع ابنتها فى بيت متواضع يزدان بعدد من السجاد الجيد (برغم الحرب ومذابح الأرمن ، لمحت عدد فبراير عن الأزياء الداخلية للسيدات من مجلة فوج الباريسية على المائدة) ، وقد نصحهما ضابط تركى خفضت رتبته أن يتركا بغداد ، ولكن نظرًا لوجود أغلبية من اليهود والعرب والمسيحيين بالمدينة لم يلحق بالأرمن ضرر فى بغداد سوى بعض حوادث النهب والسلب ، وإلقاء قنبلة فى السوق أمام باب الخروج الخلفى .

ذكر لى سعيد أن عامة الناس يلعنون الترك وكل ما اتصل بهم ما عدا الدين .

عدت أدراجى ، وقد عانيت وجرترود بل من الإرهاق ؛ لأننى أنسى كل شىء عندما أجد متعة فيما أشاهد ، ولم نعد إلا فى السابعة مساء ، وقد لاحظت أن كوكس يستخدم الأوراق التى تحمل اسم بنك الشرق الألمانى فى محررات رسمية . تناولت العشاء مع كوكس ، وعلمت منه أنه سوف يتم إصدار طوابع بريد تركية بعد تعديلها .

غشى الضباب نهر دجلة بعد غروب الشمس ، مما يزيد من نضج التمور ، ويسمع نباح الكلاب بشكل دائم حتى من الضفة الأخرى للنهر ، مما يجعل تبادل الحديث

صعبًا . لقد مرت خمسة أسابيع دون أن أتلقى خطابات من أى نوع مما يصيب المرء بالإحباط ويجعله يتقاعس عن الكتابة .

١٠ مايو ١٩١٧ – ذهبت مع جرترود بل قبل العاشرة صباحًا فى زيارة رسمية لعبد الرحمن أفندى نقيب الأشراف ، ورئيس طائفة السنة بولاية البصرة ، وكان بيته على النهر قد صودر ، أما مسكنه داخل المدينة فله فناء تقليدى واسع لابأس به ، والشريف متوسط القامة ، فى السبعين من عمره ، ملامحه مقبولة ، وأنفه مقوس تمامًا كأنف وجيه تركى أو أرمنى ، يضع على رأسه طربوشًا معممًا ، ويرتدى عباءة من وبر الجمل الأبيض ، وينتعل مركوبًا بنيًا . والشريف معروف بعدائه الشديد للأتراك منذ ما قبل الحرب ، وهو من أعز أصدقائى ، قال لنا إنه برغم ندرة قيامه بزيارة أحد ، حرص على زيارة الجنرال مود ؛ لأنه يعتبره « وكيل الملك چورچ » . وهو يتطلع إلى زيارة مكة والمدينة والقدس والأزهر عند نهاية الحرب . وعندما يتحدث النقيب إلى من يصغى السمع إليه يفيض ويزيد ، وقد رد على بعض ملاحظاتى بأسلوب عربى فصيح يكشف عن تملكه لناصية اللغة باقتدار . ولما كانت جرترود بل قد حذرتنى من عدم جدوى مساجلة الشريف ، لم أعلق على حديثه بعد ذلك ، وكذلك فعل . وقد أخذت بأصالته ، خاصة عندما أبدى أسفه للدم الذى أريق من الجانبين بلا جدوى .

وعند العودة ، استقبلت ممثلا للجريجوريين الأرمن المحليين (وهم أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومية ، وفق ما ذكره كوكس) . وكان هذا المندوب هو فارتابد بارون – نائب البطريرك – رجل دين قصير نحيل ، تفوقه بطانته حجمًا ، وهو لا يتحدث الفرنسية التى يجيدها بنى جلدته فى كل مكان ، جاء هاربًا من رأس العين (وهى مدينة جركسية) ، ووعدنى بأن يكتب لى مذكرة عن تجربته تلك ، وكان يتحدث بصوت عالٍ يصيب المستمع بالدوار ، كم كنت أتمنى أن ألتمس منه الرحمة بخفض الصوت قليلاً . وقد لاحظ أن العرب متسامحون نسبيا تجاه الأرمن ، فلم تعان جالية بغداد شيئًا يذكر ، وهم يريدون إشاعة فكرة البؤس والاضطهاد فى أوروبا لكسب عطف لجان لندن وباريس ، ولكن كوكس اعترض على ذلك ، وعمل بحكمته على عدم تشجيع ذلك الاتجاه ؛ لأنه يظلمنا كما يظلم الذين فقدوا أرواحهم فعلاً من الأرمن الذين يعانون العوز والحاجة .

علمت هنا أن السجاد الجيد نادر وصعب المنال ، وكما هو الحال فى كل مكان ، ترتفع الأسعار إلى عنان السماء بمجرد وصولنا لمصلحة مختلف العناصر المشتغلة بالتجارة .

بعد تناولى الغداء وحيداً بالسيارة خارج ضاحية المعظم عبر بوابة الشمال ، التى يقع داخلها مسجد له مئذنة جميلة مغطاة بالخزف الأزرق ، وبالقرب منها بيت مهدم يقف عليه طائر اللقلاق يرقب الطريق دون اكتراث بأحد ، والطريق متربة غير مجهدة ، ولكنها تمر عبر بساتين النخيل والفواكه وحقول الخضراوات . وتتألق من بعيد القبة الجميلة المغطاة بالخزف الأخضر والأزرق لمسجد وضريح الإمام "أبو حنيفة النعمان" مؤسس أحد مذاهب السنة الأربعة .

وعندما نزلت من السيارة أمام المسجد ، تقدمت إلىّ مجموعة من المشايخ المعممين ، ودعونى لدخول منزل كبير فى مواجهة المسجد ، فقبلت الدعوة ، ووجدتنى جالساً فى فناء واسع ، وأشرب القهوة والشاى كما جرت العادة فى كل مكان قمنا بزيارته ، وقد تحدثت إلى أولئك الشيوخ ومن بينهم الكليدار (حامل مفاتيح الضريح) ورئيس البلدية ، لمدة ثلث ساعة ، ثم تجولت بصحبتهم فى سوق الغلال ، وحول مبنى الضريح من الخارج ، وتركتهم بعد تبادل التحيات ، حاملاً معى ذكرى المسجد المتألق ، والحديقة الهادئة ، والمدرسة الساكنة .

وبعد عودتى بعد الساعة الرابعة ، رتبت مع الكابتن وليم مارشال زيارة إلى الكاظمية فى اليوم التالى ، ثم عدت إلى السوق فاشتريت بعض الأشياء بصحبة شاب يهودى فرض نفسه على فرضا مدعياً أنه عربى ، ولكنى اكتشفت حقيقته برغم أن اسم « سلمان » الذى يحمله هو – أيضاً – اسم عربى ، وبرغم أنه كان مملاً ، فإنه يستحق العشرين بالمائة التى سيحصل عليها بعد انصرافى من التجار الذين اشتريت منهم ، وسرت فى شارع خليل باشا ، الطويل الممتد ، تذكرت إعجابى برجال الشرطة فى مصر ، وقد ذكرت للجميع – بما فى ذلك قائد السوارى محمد عزت – إن الإدارة فى مصر تتوقع من كل رجل أن يؤدى واجبه ، وشتان بين النيل ودجلة . ويؤكد الجميع أن سكان بغداد مسالمون يحترمون النظام ، وهم لا يشربون الخمر ولا يدخنون الحشيش .

وقد قالت لى جرترود بل إنه من المفترض أن يكون رجال الشرطة أشداء فى تعاملهم مع الجمهور ، ولكن الجميع فى بغداد يتحدث عنهم بالخير .

ذهبت لتناول العشاء مع بولارد - من رجال قنصلية الشام سابقًا - وهو زميل دراسة قديم ، وديع وكفء ، يتولى مسئوليات تبدو متباينة ، فهو المسئول عن التعليم والعملة .

١١ مايو ١٩١٧ - تلقيت عند استيقاظى فى الصباح برقية مشفرة من مارك سايكس يقول فيها إننى لست ملزمًا بمد مهمتى الأصلية فى بغداد (وهى عشرة أيام) فأحسست بالارتياح ، ولكنى خشيت أن يكون وراء ذلك أمر آخر ، وأن تكون قواتنا تواجه صعوبات على جبهة غزة .

وفق الترتيب السابق ، غادرت بالسيارة فى العاشرة إلا الربع إلى الكاظمية لأجد جسر القوارب مفتوحًا ، فقد جرفت سرعة تيار النهر مفصل الجسر بضغطها الشديد عليه ، وكان على سلاح المهندسين الملكى أن يطهر المجرى حتى تتم المحافظة على الطريق ، ولم أستطع العبور إلا فى الثانية عشرة والثلث . قضيت وقت الانتظار بالتجول فى السوق ، حيث التقيت بسلمان الذى أخذنى إلى محل لأرمنى لا نفع فيه ، لا وجود للسجاد ، ولكن هناك بعض العملات اليونانية (القديمة) باهظة الثمن ، وبعض اللوحات البالية والأسطوانات - وكلها من صنع محلى . ومنذ عام قبض على تركى لحيازته بعض الأشياء الأثرية ، وقد أبرأ ساحته بأن أثبت أنها جميعًا من صنعه. وبعد إصلاح الجسر عبرنا عليه ، وكانت السيارة تعلو وتهبط بعنف حتى إن خادمى سعيد خشى أن يؤدى ذلك إلى تمزق الإطارات .

ظهرت الكاظمية فجأة وسط بساتين النخيل ، قدم لى الكابتن مارشال وجبة غداء تقشفية ، وهو رجل متزن من فرقة دوجرا (من البنجاب) ، يؤكد دائمًا أنه لا يحير أحدًا أو يخذله ، ظل طوال الحملة منذ ديسمبر ١٩١٦ « المساعد الإدارى لمارشال » . وقد ذكر لى كيف استقبل أهالى بغداد الحملة عند دخول المدينة بالحماس ، وكيف التزموا بالإعلان الذى أصدرته القيادة العامة وأعلنه المنادون بالمدينة ، حتى إنه تفقد المدينة فى الحادية عشرة مساء فلم يجد سوى شخصين يسيران فى الطريق ، فعندما

استوقفهما وجد رجلاً كفيفًا يقوده صبى فى الطريق إلى منزله . ولو كنا فى القاهرة ، لتوافد الباشاوات يشكون عدم اهتمام الجنرال مود بالرد على بطاقات التحية التى أرسلوها إليه ، كما شاهد مارشال واقعة الراية البيضاء المخادعة التى رفعها الألمان والأتراك على موقع مدفع ماكسيم فى مواجهة موقع بريطانى .

التقيت الشيـخ حامد (الكليدار) الذى جمع ١٥٠٠ مجاهد ضدنا العام الماضى ، والسيد جعفر رئيس بلدية الكاظمية ، ورجلاً آخر ذكيا ظريفًا تشبه ملامحه وجه سقراط ، هو حسين الصراف . ويبلغ عدد سكان منطقة الكاظمية ٢٥ ألف نسمة ، ولكنهم فى حقيقة أمرهم من العرب الذين حصلوا على الجنسية الفارسية تهربًا من التجنيد . وقد بالغ الكليدار فى الحديث عن إعجاب العالم بإنجلترا ، فقلت له إننى سعيد لأن الشائعة التى سمعتها فى القاهرة عن المجاهدين كانت زائفة ، فعقب على ذلك فورا بأن أولئك الذين غُرر بهم ما لبثوا أن غيروا موقفهم عندما أدركوا فظاعة ما ارتكبه الألمان نتيجة سياستهم . وهم يذكرون حج الأمير حيدر فاضل (البدين) منذ ما يزيد على سبع سنوات ، وسرت معهم بعد ذلك فى شوارع ضيقة ، ولكنها نظيفة بدرجة مثيرة للدهشة . فى الطريق إلى بيت أحد الوجهاء ، استطعنا أن نطل منه على القباب الذهبية الشهيرة والمآذن فى الكاظمية وقد عقد جمالها لسانى ، فلم أستطع الحديث مشدوها بتلك القباب المتألقة تحت أشعة الشمس .

وقد تجولت بصحبة أولئك الأصدقاء فى مختلف أركان هذا الأثر الجميل ، والتقطت أربعة أفلام من الصور ، ثم توجهت بعد ذلك إلى بيت السيد مهدى السيد حيدر (وهم يكتبونه كهذا ولا يستخدمون مثلا : السيد مهدى بن حيدر) وهو أحد كبار المجتهدين الشيعة ، صعدنا سلمًا خشبيا إلى حجرة مكسوة بالخشب الطبيعى تطل على فناء صغير ، ثم زرت بعد ذلك منزل السيد حسن السيد هادى ، حيث الديكور نفسه ، وهو رجل عجوز لحيته طويلة بيضاء ، وما كاد يعرف أننى أفهم العربية حتى غمرنى بفيض زاخر من الأحاديث بدءًا من الفوائد الخمس للسفر ، ولم أقاطعه متحملاً متاعب الاستماع ، ولكنه انتقل إلى حديث آخر رقيق وذكى ، وهو يعرف جميع الصحف والشخصيات المصرية معرفة جيدة ، وقد استمعت إليه لمدة ثلث ساعة ، ثم تحدثت بقدر كبير من المجاملة ، حتى إننى طلبت فنجانًا آخر من القهوة . ويقول

مـارشـال إن هـذا الرجل يتـمـتع بنفـوذ واسع فى الكاظمـيـة ، وإن تضـيـيع الوقت فى الاستماع إلى حديثه لا يخلو من النفع والقيمة .

عدنا إلى بغداد فى الخامسة مساء ، وقد لاحظ خادمى سعيد أن جميع من تحدث إليهم يمقتون الأتراك ، والشيعة يلعنونهم فى كل موقف ، ثم توجهنا إلى البيت البديع وفنائه الجـمـيل، وزجـاجـه المربع الألماسى الشكل على الطراز التـركى ، والحـوائط والسقوف المزينة بالنقوش ، حيث تناولت العشاء مع كوكس الساعة السابعة والنصف مساء بصحبة الجنرال مود . وعندما وصلنا كان الجنرال يعزف على البيانو . واشتكى من تصرفات القائد الروسى فى خانقين ، الذى قضى معه ثلاثة أسابيع على المقاهى ، ولكنه لم يبذل جهداً فى شن الهجوم ، فى الوقت الذى كان فيه مود مشتبكاً مع معظم القوات التركية ، وأخيراً بعدما انفض الاشتباك تقريباً ، أبرق إلى مود ذات مساء قائلاً إنه يعتـزم الهـجـوم صـبـاح اليـوم التـالى ، ويطلب منه أن يقدم له مـسـاعـدة فـورية ، واسـتـأذن كـوكس فى الانصـراف ، فـغـادرنا بيت مـود فى التـاسـعـة وعشـر دقـائق ، واستمتعت بالحديث إلى كوكس حتى الساعة العاشرة والنصف مساء .

١٢ مايو ١٩١٧ – يوم بلا جدول أعمـال ، قـائظ الحر ، بعثت برسالة إلى النقيب سائلا عما إذا كان يستطيع أن يكلف من يصحبنى فى زيارة لمسجد الجيلانى ، فرد مرحبا ، ولكن لابد من الحصول على تصريح عسكرى ، فذهبت إلى الكولونيل هوكر الحاكم العسكرى ، وقد خدم من قبل بالسودان ، والجندرمة التركية ، وكان ضـابطاً سيـاسـيـا بالبـحـر الأحـمـر عند بداية الحرب ، وهو رجل طيب جـذاب ، فـقـال لى إن الشكوى تكررت من تعبيرى المستمر عن الإعجاب بالشرطة المصرية ورجالها الذين عرف عنهم الصلف والعنف فى التعامل مع الجمهور ، وقال إنه سيعيد الموجودين منهم فى بغداد إلى القـاهرة فـى أول فرصـة . لقـد أثار إعـجـابى تنوع الأنشطة الملقـاة على عاتق أولئك الهواة ، ونجاحهم فى مواجهة الصعاب والتصرف حيالها حسبما تقتضيه الظروف ، إن الروح اللاتينية قد تؤدى إلى التراجع أمام التصـرفات الانتـهـازية غير المنضبطة ، وغير المنطقية دون عمل أى شىء .

وقد طلب هوكر من قيادة حامية بغداد الترخيص لى بزيارة المساجد ، وتلقى ردا ذكيا نصه : « إذا كان المستر ستورس مسلمًا فإن باستطاعته دخول المساجد ، أما إذا كان إنجليزيا من أتباع كنيسة إنجلترا فلا يمكنه ذلك » .

ودفعنى ذلك إلى التوجه إلى القيادة العامة للجيش ، حيث أمر البريجادير جنرال ريدى (من ضباط الجيش المصرى) بإصدار الترخيص لى على الفور . وسألته عما إذا كان جنود الحراسة الهنود يستطيعون قراءة الترخيص المكتوب بالإنجليزية ، فأمر بإضافة ترجمة باللغة الأوردية للنص الإنجليزى للترخيص . وأبدى البريجادير جنرال إعجابه بحملة العمل المصرية ، وقال إن محصلة العمل اليومى للمصرى تعادل عمل ثلاثة من الهنود ، وإنهم رفعوا من مستوى العمل على الخط .

وفى الساعة الخامسة والنصف ذهبت لتناول الشاى عند اليهودى مناحم دانيال فى بيت صغير جميل يطل على النهر ، ومن الواضح أن لديه بيتين آخرين أحدهما فى الكفل والآخر فى الحلة التى أود الانتفاع بها كما يفعل كتبة المدينة . وقد شرب الرجل عدة كئوس من شيرى البراندى ، وأخبرنى أنه فى طفولته لم تكن هناك مدارس سوى مدارس المساجد ، فتعلم بالمسجد . ودعاه ذلك - فيما بعد - إلى بناء مدرسة عبرية كبيرة . وعلل عدم معرفته بتاريخ اليهود إلى عدم توافر مصادر ذلك التاريخ عند غزو هولاكو للبلاد . وأطلعنى على مراسلاته التى يكتبها بالعربية بحروف عبرية ، تمامًا كما يفعل الأرمن عندما يكتبون التركية بحروف أرمنية .

وتناولت العشاء مع البريجادير جنرال هوكر ، والجنرال بيتش مدير المخابرات ، وهو رجل لطيف شديد الإعجاب بصديقى العبقرى ت. أ. لورانس .

تحدثت إلى كوكس الذى يشعر الآن بالكثير من الارتياح بعد تلقيه برقية من الخارجية البريطانية ، عبرت فيها عن القبول بوجهة نظره . وقد تأثرت كثيرًا لموافقته على عرضى العودة إلى مصر عن طريق ابن سعود عبر الجزيرة العربية [٦] ، كما كنت

(٦) لما كنت مشغولاً بالصراع الدائم بين ابن سعود حاكم نجد والملك حسين ملك الحجاز ، فقد عرضت فكرة العودة عبر الجزيرة العربية ، لزيارة كل منهما ، ومحاولة التوفيق بينهما .

متوتراً نوعًا ما ، شاعراً بالأسى لأننى لم أتعلم كيف أستطلع الأمور وأقدر تبعاتها ، ولكنى أخشى ألا توافق القاهرة على ذلك .

١٣ مايو ١٩١٧ – ذهبت بالسيارة لزيارة مسجد عبد القادر الجيلانى ، وكان النقيب فى انتظارى هناك ، لطفًا منه وكرمًا ، واستدعى الحارس الهندى الذى كان رقيبًا يزاحم الغباء التعصب فى تكوينه ، فرفض الترخيص رفضًا تاما ، مشيراً إلى الأوامر التى لديه ، والتى لم يرد بها ذكر مثل هذه التراخيص ، إلا إذا تلقى أمراً من النقيب بذلك ، ولكن النقيب قال إنه ليس من حقه أن يصدر أمراً لجندى بريطانى ، وبعد أربعين دقيقة من الجدل المضنى ، أخذت الحارس الهندى معى فى صندوق السيارة ، وسرنا نحو الميل فى الصحراء إلى معسكره ، وواجهته بضابطه الإنجليزى الذى قدم اعتذاره لى وأعطى الأوامر اللازمة للحارس ، وعدت إلى المسجد ، مرة أخرى ، مستاءً منتصراً . والمسجد والضريح – فى حقيقة الأمر – ليسا على هذه الدرجة من الجمال الذى يحتاج إلى كل هذا العناء ، ولكن بعد ساعات من العرق والجهد لا أستطيع أن أضيع الفرصة مهما يكلفنى ذلك ، ودخلت المسجد والضريح ، كالمعتاد بعد أن خلعت حذائى ، والمدخل ممتع ولكنه يخلو من زحام المترددين والمتسكعين على نحو ما نرى فى المساجد الأخرى .

وقال مرافقى إن باستطاعتى دخول المسجد كما أريد ، ولكن لما كنا نستطيع أن نرى كل شىء من الباب الداخلى ، فلا بأس من الاكتفاء بذلك ، فوافقته من باب المجاملة . وضريح الولى مغطى بكسوة غنية من الفضة سيئة التطريز ، مزين بشمعدان حديث من الفضة بارتفاع أربعة أقدام . وفى أحد العقود الجانبية زوج من الشمعدان من النحاس الأصفر مطابق لما هو فى مصر ، يحمل طُغراء(*) أحد سلاطين القرن السابع عشر . حتى خادمى سعيد لاحظ أنهما أجمل من الشمعدان الفضى الموجود فوق الضريح . وهناك بعض السجاد الجيد من بينه واحدة من هرات . وفى الفناء يوجد برج كبير للساعة يشبه الفنار ، أقامه النقيب نفسه .

تناولت الغداء مع جاربت فى السراى القديم ، وعجبت مرة أخرى لتعدد المسئوليات الملقاة على عاتقه ، فتحت عباءة منصب مسئول الدخل لديه ملفات الزراعة

(*) الطُغْراء : قطعة تتضمن نعوتًا وألقابًا ، توضع أعلى الكتاب أو الرسالة أو ما يشبه ذلك . (التحرير)

والرى والتعليم والقضاء ، وقد عبرت له عن وجهة نظرى فى نحو ثلث تلك الأمور ، وفهمت أنهم يقفون ضد التعليم باللغة العربية . هنا يجب التمسك باللغة العربية الرفيعة المستوى التى تواكب الإنجليزية ، ويجب علينا أن نحثهم على استخدام العربية ، وإلا فلن يمر كثير من الوقت قبل أن نتهم بالقضاء على العروبة . وحذرت جاربت من خطأ التمسك بحرفية القانون ، فأجاب بأنه مهما يكن الأمر فالناس يولدون ويموتون ويتزوجون ويطلقون ويستدينون ويدينون ، وكل هذه الأمور تتطلب تقنينًا ، وأنه إذا لم نستطع دفع الأتراك إلى الوراء فى الشمال الغربى ، والتمكن من بناء سد على نهر دجلة ، فإن نحو المليون فدان من الأرض الزراعية الجيدة سوف تبور .

ورأيت معه مبنى المدرسة ، وهو جيد وكبير ، ولكن الأتراك ألحقوا به الخراب قبل انسحابهم من المدينة ، كما أطلعنى على المشنقتين اللتين نصبتا فى الشارع لإعدام الجواسيس علنًا (حيث يتهمنا المسيحيون علنًا بأننا نتراخى فى اتباع السياسة نفسها) ، وفى السراى هناك أكوام هائلة من ملفات الوثائق تختلط بالأثاث المحطم ، وغامرت باقتراح عدم تكرار الخطأ الذى وقعنا فيه فى مصر ، وأن نجعل المبانى الحكومية وأماكن السكنى تبعد عن ضفتى النهر بمسافة الميل حتى يمكن الحفاظ على مظهر المدينة ، وتجنب ما حدث بالقاهرة (جاردن سيتى مثلاً) . وقد علمت من هوكر أنه عثر على خطة ألمانية لبناء مدينة جديدة على الضفة الغربية ، وأنه ربما يستفاد بها مستقبلاً . وبعد تناول الشاى اطلعت على مجموعة الصور الخاصة ببتش ، واستعرت بعض خرائطه وكتبه . وعلمت أن لدى الأتراك ٢٠ ألفًا من الجنود المسلحين جيداً يقفون فى مواجهتنا ، أما الروس فلا أمل فيهم .

تناولت العشاء مع كوكس وحدنا ، ويزداد إعجابى به كل يوم للطفه ، وبساطته ، ووقاره ، وعلمه ، وذكائه . أويت إلى الفراش فى حوالى الحادية عشرة .

١٤ مايو ١٩١٧ – فى الصباح الباكر قبل التاسعة ، أطلعنى كوكس على البرقية التى يرسلها حول رحلة عودتى إلى مصر ، وسألنى بعد الإفطار عما إذا كنت أستطيع صحيًا القيام بها على هذا النحو ؟ فعبرت عن أملى فى ذلك ، مشيراً إلى رحلاتى السابقة التى لم تكن مملة ، والتى صحبت فيها الصيادين فى الصحراء ، وكانت لا تخلو من متعة .

بعد ذلك قابلت بعض الشخصيات فيما بين التاسعة والنصف والثانية عشرة والنصف . رأيت بصحبة جرترود بل ، جميلَ الزهاوى ، الكاتب المعروف الممتع ، الذى أفادنا أنه قد تم الدعاء للشريف باعتباره خليفة المسلمين على منبر مسجد خانقين فى بداية الأمر . وجميل من المعجبين بهربرت سبنسر ، ويرتدى بدلاً من القميص سترة بيجامة تحت الجاكت الأبيض ، وهو على دراية تامة بالصحافة البريطانية ، وقد نظم قبل عشر سنوات قصيدة بديعة فى مدح إنجلترا ، وأجبر على أن يكتب ـ أسفًا ـ أربع قصائد أخرى ضدنا خلال الحرب .

والتقيت وحدى - بعد ذلك - بأسقف كاثوليكى سورى . وقد اعتاد بطريرك الكاثوليك - التابع لروما - أن يقيم فى ماردين ، ولكنه الآن فى بيروت . والأسقفية تمتد من بغداد إلى الخليج ، وعدد المسيحيين التابعين لها ثلاثة آلاف نسمة ، منهم ألفان فى بغداد ، وادعى الأسقف أن أتباع أسقفيته يعانون الكثير دون أن يذكر حالة واحدة محددة لدعم دعواه ، وقد علمت من مصدر ثقة أن الكثير من المسيحيين المنفيين عادوا إلى العراق بعد وصول القائد الألمانى فون درجولتز .

قابلت بعد ذلك عبد اللطيف الثنيان ، وهو نموذج طيب للمسلم ، له أسنان بالغة الكبر ، له آراؤه وانتقاداته المستقلة ، وهو من مؤيدى صحيفة « المقطم » القاهرية . وقد لاحظت أن المسلمين البغداديين لا يتحاملون على الشوام ؛ لأنهم - فى رأيى - لم يروا بعد أهم مناصب الإدارة تسند إليهم لكفاءتهم برغم ميلهم للتحيز الطائفى والمحسوبية . والكل هنا يريد تعلم الإنجليزية ، مما يدهشنى كثيرًا ؛ لأنه من الأهمية بمكان أن يحرص الإنجليز على تعلم العربية . ويبدى الثنيان عدم الاكتراث بالشريف حسين ، ورأى أن أى حاكم يابانى أو صينى يتولى أمور العراق لا يختلف كثيرًا عن الشريف فى نظر الشعب .

وقابلت بعد ذلك القس الكلدانى تشوريز ، نائب بطريرك بابل . وهو يسير بخطى وئيدة ، والكلدانيون هم أكبر طائفة مسيحية فى العراق ، تنصروا على يد القديسين تاديوس وتوماس ، ثم اعتنقوا المذهب النسطورى . وقد أدهشنى تشوريز ورفيقه عندما رفعا قبعتيهما تحية لى على طريقة الأوروبيين ، وقد أحببتهما ، وهما يعرفان تاريخ

طائفتهم جيداً ، وتأثرا عند علمهما بزيارتى للخارجة ، وهى التى كانت منفى النساطرة فى الصحراء الليبية . وقد وعدا بتزويدى ببعض التفاصيل التاريخية (ولم يفعلا ذلك أبداً) . وقد ارتكب الأتراك مذابح عديدة ضد النساطرة ، وهى مجهولة ما لم يكن البطريرك مارشمعون مازال على قيد الحياة .

وكانت المقابلة التالية للمونسنيور نارسيس صيغريان رجل الدين الأرمنى الكاثوليكى ، طويل القامة رقيق الحاشية ، قدم لى نفسه عند دخوله المكتب . وهم فخورون بما يتميزون به من تنور عظيم باعتبارهم أرمن كاثوليك ، ويتحدثون عن الوقت الذى كانوا فيه « تحت نير الأرثوذكس » ، ويوجد فى بغداد نحو ٥٠٠ أرمنى كاثوليكى .

طلب رجلان أو ثلاثة رجال من المراجع الدينية الشيعية المحترمة منى أن أعود لزيارة الكاظمية مرة أخرى . وبعدهما قابلت راهباً فرنسيا من الكرمليت لمدة عشرين دقيقة ، وهو يرغب فى جعل اللغة الإنجليزية لغة التعليم ، على أن يكون تعلم العربية كلغة إجباريا ، وتعلم اللغة الفرنسية ثانويا ، وأتفق معه فى الرأى بالنسبة للإنجليزية لغة للتعليم ، ولكن فى مرحلة التعليم العالى ، ولكنى لا أقبل بها فى التعليم الابتدائى الذى يجب أن تكون العربية أداته . وهذا الراهب رجل مستتير طيب ، ولكنه يبالغ نوعاً ما فى تقدير الدين الذى يحمله مسيحيو الشرق فى أعناقهم لفرنسا .

السيد هورموز الأرمنى رغب إلىَّ أن أزوره فى أى يوم أراه مناسباً لى ، لأتناول معه الطعام فى أى وجبة تلائمنى ، وذلك حتى يطلعنى على ما تعرض له الأرمن من فظائع على يد الترك ، وما يعانيه اللاجئون والأيتام من بؤس ، وبه انتهت سلسلة مقابلاتى اليوم .

أرسلت سعيد ليشترى برتقالاً بكوبِةْ (*) ، تناولت منه خمس ثمرات كغداء ، وبذلك تكلف غدائى روبية واحدة ، كما علمت منه ، وسعيد متوتر من فكرة العودة عبر صحراء بلاد العرب ، فهو يكره ركوب الجمال ، ويخشى أن تهاجمنا الأسود ، أو النمور أو غيرها من الوحوش .

(*) كوبِةْ : عملة مالية .

ذهبت مع جرترود بل فى الثالثة لمشاهدة الآثار العباسية فى القلعة ، وهى قليلة وصغيرة ، ولكنها على درجة فائقة من الجمال ، وتتكون من بعض الزخارف الهندسية التى صبت بالأيدى على سطح لزج ، وإن كانت تشبه بعض ما رأيته فى القاهرة ، إلا أنها أكثر منها حيوية ، والمهارة فى إقامة العقود الطوبية فى تلك الفترة عجيبة ، وغالبًا يقام الخط الأفقى للعقد على درجة عالية من الصلابة . وهناك أيضًا بالقلعة مدفعان صنعا فى القرن السادس عشر على درجة كبيرة من الجمال عليهما نقوش ورسوم عدة . وقد حاول الترك فى كل مكان أن يصهروا المعادن لصناعة طلقات الرصاص ، ولكنهم شغلوا عن ذلك لبعض الوقت ، وقد دمروا أبواب قلعة بغداد بتفجير الذخائر المخزونة هناك ، ووضعوا فخاخًا من المفرقعات والقنابل فى مختلف أركان القلعة حتى تصيب جنودنا عند تقدمهم فى الظلام ، ورأينا متحف الأسلحة الصغير ، يضم قنابل وطلقات حية لم يتم إبطال مفعولها ، وعلمًا ألمانيا كبيرًا ، وقبل مغادرة القلعة التقطت من جوربى وقفاى بعض البراغيث ، وكذلك فعلت جرترود بل .

وعندالغروب ، صححت الترجمة العربية لبرقيات رويتر التى أعدتها جرترود بل . وبعد ذلك دخلت فى حوار شيق مع الأب أنستاسى - العالم والمستشرق الكبير - الذى يعارض فكرة الكتابة بالعامية ، متمسكا بالفصحى وحدها ، ويرى أن المصرية والمغربية والشامية وغيرها مجرد لهجات عربية .

تناولت العشاء مع الجنرال (س) فى قصره العبرانى الكبير ، وقد أحسست - صراحة - بالضيق والملل ، فهو لا يهتم بسماع ما يقوله الآخر للمرة الأولى ، ولا يفهم شيئًا إذا قيل له ثانية . وهو يزعم أن السكان يحققون مكاسب كبيرة من ورائنا ، وأننا يجب أن ننظم أمورنا بعض الشيء بفرض ضرائب تراخيص ، ففى الوقت الحالى لا يدفع فندق مثل فندق مود أكثر من جنيه إسترلينى واحد فى الشهر .

١٥ مايو ١٩١٧ - يغادر مارك سايكس وليتشمان [٧] القاهرة اليوم متوجهين إلى جدة ، وأرجو ألا يكون ذلك قد تقرر قبل تسلم اقتراح عودتى عبر الجزيرة العربية ، فالأمر يتطلب بالضرورة نحو ثمانية أيام إذا تم البت فيه على الفور .

(٧) ليتشمان هو الشخص المقابل لى فى القاهرة ، فهو ممثل قوة العراق .

كتبت وقرأت مواد من « دليل الخليج الفارسى » [٨] ، وهو عمل خالد يقدم تاريخًا سياسيا للشرق الأوسط لا يمكن مقارنته بأى عمل آخر .

فى حوالى الخامسة والنصف أخذت قاربًا بخاريا بصحبة جرترود بل ، وسرت معها فى مكان لا يرتاده إلا القليل من النساء خارج ضريح السيدة زبيدة (زوجة هارون الرشيد) ، وهو بناء يفتقر إلى الرونق ينسب إلى القرن التاسع الميلادى ، ولكنه بنى فى القرن الرابع عشر ، فليس هناك تناسق بين قبة المبنى والقاعدة التى تحملها من الناحية الجمالية . كان الضريح مغلقًا ، فلم نستطع رؤيته من الداخل ، ومررنا من خلف قبة ومئذنة مسجد الشيخ معروف المغطاة بالخزف ، وسط سحابة من التراب البنى .

رشحت همفرى باومان [٩] للإشراف على التعليم ، وأعطيت عنوانه لكوكس . وأثناء تناولى العشاء مع كوكس حدثنى عن السلبيات التى تعانى منها المخابرات ، وعدم معرفتها لمجال النشاط معرفة دقيقة جيدة ، ويتضح ذلك من تقرير « الشخصيات العراقية » ؛ حيث وردت أخطاء سخيفة فيما يتصل بالأماكن وأسماء الشخصيات .

١٦ مايو ١٩١٧ - استقبلت الحاخام إليعازر ، وقد أخبرنى أنه لا يوجد فى بغداد سفارديم أو أشكنازيم أو قراءون أو صدوقون ، وإنما يوجد صنف نبوخذ نصر كوشر من الكوشار ، وهناك أكثر من ٥٥ ألفًا من اليهود وعدد كبير من المدارس ، والاضطهاد هنا أخف وطأة ، ولكنه أكثر ألمًا عندما يتخذ شكل الإصرار على دفع الذهب مقابل العملة الورقية العثمانية التى كانت قيمتها مستمرة فى التدهور .

قُتل ضابطان بريطانيان وخمسة عشر وطنيًا عندما هاجمهم البدو فى أثناء قيامهم بإجراء عمليات المساحة فى طريق بغداد - سامراء ، حيث من المقرر أن أذهب

(٨) The Persian Gulf Gazetter .

(٩) وقد تم تعيينه بالفعل ، وأسعدنى أن أقوم بترشيحه للوظيفة ، وقد فعلت الشىء نفسه عند ترشيحه للقدس فيما بعد .

إلى هناك هذا الأسبوع . ولما كان السير بيرسي كوكس قد قرر إرسالي في اليوم التالي لزيارة كبار الأئمة والمجتهدين في العتبات الشيعية المقدسة بمدينتي كربلاء والنجف ، أخذت السيارة إلى جاربت حتى يستعد للرحلة ، وكان عليه أن يعد كل مستلزمات الرحلة بما في ذلك فراش المعسكرات وصندوق لحفظ الطعام ، وكانت هناك ثماني نساء منتقبات يجلسن على أرض مكتبه ، وشيخان يجلسان على الكنبة ينتظرون صرف معاشاتهم . وبقى تجهيز السيارات اللازمة لرحلتنا المكونة من سيارة فورد وسيارتي نقل ، وهو ما قمت بترتيبه في زيارة للماجور هوسكنز ، وهو من علماء الفارسية ، ويتطلع إلى مرافقتي .

أطلعني كوكس على رد القاهرة على فكرة عودتي عبر الجزيرة العربية ، وجاء فيه أن مارك سايكس أسعدته فكرتي لفتح قلب الجزيرة العربية ، وأن السير ونجت يضعني بلا تحفظ تحت تصرف كوكس ، ليرى ما فيه الصالح العام .

ذهبت مع الأرمني هورموز إلى الملجأ الأرمني ، وهو بيت صغير كريه الرائحة تجتمع فيه بعض النسوة والبنات الأرمنيات اللاتي تم إنقاذهن « مما يعد أسوأ من الموت » مماعانينه على يد الترك ، وقد أنجبت إحداهن طفلاً واحداً نتيجة لذلك .

قرر الرجل الظريف جولد سميث (الضابط السياسي بالجيش الهندي) أن يضعني في بؤرة اهتمامه ، وأن يعيرني جمله الخاص السريع ، خفيف الحركة .

تناولت العشاء مع جرترود بل . إنها مثل أيام كيتشنر ، عدت لسماع المناقشات المهمة من منبعها قبل وقوع الأحداث ، بعدما كنت أسمع عن الأحداث بعد وقوعها ، وغالبًا بطريق المصادفة ، وبعد ما تصبح شائعة بين جميع الوزارات .

أعارني كوكس آلة التصوير الخاصة به و٥٤ فيلمًا . أويت إلى فراشي الساعة الحادية عشرة والنصف ، والنجوم تتلألأ في السماء حيث أراها من الشرفة .

١٧ مايو ١٩١٧ – تحركنا الساعة السادسة والنصف صباحًا بقافلة تضم ثماني سيارات ، بعضها مخصص للنقل . وكان بصحبتي جولد سميث والنواب (١٠) (الذي

(١٠) مساعد الضابط السياسي لجيش الهند ، ويدعى خان صاحب محمد حسين خان .

يتحمل مسئولية صندوق كبير به ٢٩ ألفًا من الروبيات الهندية) . وأخذنا معنا فى الطريق جاربت الذى جلب معه رصيداً من المؤن ولوازم المبيت ، وكان علينا أن نأخذ عند الجسر شيخين ينتميان إلى القبائل التى سنمر بها ؛ لأن العصابات كانت تهاجم المسافرين طوال الأسبوعين الماضيين ، وكان السائقون البؤساء يقودون السيارات لمسافة مائة ميل بالأمس ، ولم يعودوا إلا فى السابعة مساء ، ليبلغوا برحلة اليوم ، وكانت إطارات السيارات طاعنة فى العمر ، وليس لدينا قطع غيار . وكانت الطريق على الجسر أطول خمس مرات بسبب قطع العرب للجسر فى مواضع مختلفة منه لرى أراضيهم . وأصيب عدد من رفاقنا بالانهيار العصبى بسبب متاعب الرحلة ، وهنا أدركت قيمة البوصلة الحديثة التى استعرتها من جرترود بل . تصاعدت درجات الحرارة ، وزادت مرات الحاجة لتصليح الإطارات ، كما زادت أعطال المحركات ، ويكاد الطريق يرى بصعوبة بالغة عبر الحقول المحروثة والحفر والقنوات ، ولكنى كنت سعيداً باستمرار سير القافلة ، حتى نكسب وقتًا للوصول إلى كربلاء .

وخلال الرحلة كان الجميع يطلب التأنى ولا يرى مدعاة للإسراع فى ظل تلك الظروف ، وكأننا خرجنا لقضاء شهر العسل ! إن حرصى على الاستمرار فى السير كان وراء استمرار الحركة وإلا لما استطعنا أن نمضى قدما فى مهمتنا . وعلى بعد ميلين من خان إسكندرية بدأت ستارة صفراء كبيرة الضخامة تقترب منا ، ثم ارتفعت بما يقرب من ٤٠٠ قدم ، واكتشفنا فيها الخروق الواسعة البنية والسوداء ، وتمنينا أن نستطيع اختراقها لولا أننا سمعنا صوت محرك سيارة نقل تعانى المتاعب ، وبعد حوالى نصف ساعة مر ذلك الشىء بنا بصوت مرتفع ، وبعد سقوط بعض قطرات من المطر اعتدل الجو ، وصفت السماء تدريجيًا ، مما ساعدنا على التوجه نحو خان إسكندرية ، حيث قام خدم جاربت الهنود بتقديم طعام الغداء لنا بمساعدة بدوى من الشرطة المحلية ، ثم تابعنا السير على طريق جيدة إلى مصيعب ، ومنها إلى الفرات الذى يبدو أجمل صورة من دجلة ، فبلغناه فى الثالثة والنصف بعد الظهر . ومصيعب صغيرة وخربة ولكنها مهمة كصومعة . واستقبلنا شيخ القبيلة المسئول عنا من كربلاء إلى النجف وكذلك محمد على كمونة الذى كان عليه استضافتى فى كربلاء ، وتمنيت أن يكون بيته أنظف منه .

١٨ مايو ١٩١٧ – هبت ريح باردة مع الفجر ، جعلتني أرتجف لأنني لم أكن أرتدي سوى قميص واحد . وبدأنا التحرك في العاشرة صباحا ، وكان على سعيد أن يجلس فوق الأمتعة بإحدى سيارات النقل ، فتكررت شكواه من حرارة الشمس والرياح ، وشدة اهتزاز السيارة ، حتى سرقت له مظلة هندى استخدمها طوال الرحلة راضيا قانعا ، وعند وصولنا إلى القبة الصغيرة الزرقاء لضريح عون التي تحدد موقع توقفنا في منتصف الطريق ، كنا قد قطعنا عشرة أميال فيما يقرب من الساعتين ، وهو معدل بالغ الاحترام ، وفي عون ، صمم أحد أعيان العرب المحليين أن يدعونا لتناول الشاى والقهوة الثقيلة الجيدة في خيمته الدمشقية الصنع ، بينما كان نحو الأربعين من رجاله يتابعون كل رشفة من القهوة نبتلعها ، وبعد مرور نحو الساعة من مغادرتنا لعون بدأت بساتين النخيل في كربلاء تلوح للناظرين من بعيد ، ووجدنا أعيان المدينة في انتظارنا خارجها لمرافقتنا عند الدخول إليها ، فقدمنا لهم واجب التحية ، ثم انتقلنا إلى العربات وصهوات الخيول التي أعدوها لنا . دخلنا المدينة بصحبة نحو الأربعين من الفرسان العرب ، والتحمت المجموعتان فيما بعد وسط سحابة من التراب الذي أثارته القافلة ليكسو بساتين النخيل والكروم ، بينما اصطف الناس لاستقبالنا : النساء يزغردن والرجال يلوحون بسيوفهم ومظلاتهم ، وبدا الاستقبال كأنه احتفاء بأبطال الملك العائدين ، ولكن من غير خوض معارك أو إثارة عداوات . وكانت سياراتنا أولى السيارات في التاريخ تدخل المدينة .

وبعد ذلك مضينا عبر بوابة خشبية في السور ، وبعد بضع خطوات ، أصبحنا وسط ما لم أره منذ أغسطس قبل ثلاث سنوات ، خضرة فوق خضرة تحت خضرة . وهناك بستان فارسي للكروم البديع تخترقه ممرات ضيقة ، فكنا نستنشق كل ما جادت به الخضرة في ظلال البساتين . وتبعنا شقيق مضيفنا محمد على كمونة خلال الممرات التي تقع بين الأشجار والنخيل والزهور والمشمش وغيرها ، إلى إيوان خشبي كبير وسط حقل للخيار الأخضر لاستخدامنا الشخصي ، إضافة إلى إيوان خشبي

آخر كبير على مسافة قصيرة نستخدمه كقاعة استقبال ، وتجولت فى هذا المكان الجميل ، ورأيت كيف أن :

الرحيقانى والخوخ البديع أصبحا فى متناول يدى

وتحت تكاعيب العنب وجدنا الحماية من وهج الشمس . إن الحرب لم تبق فى أوروبا على زهرة أو عود أخضر ، أما هنا فعلى نقيض ذلك تمامًا ، فبعد رحلة مضنية بقافلة من السيارات كانت تسير على سرعتها الدنيا ، وصلنا إلى هذا المشهد المدهش .

حوالى الساعة الواحدة والنصف دعينا لتناول طعام الغداء الذى وضع فى أطباق صفت – دفعة واحدة – على طاولة فى الحديقة ، احتوت على عدة أنواع من الأطباق التركية بما فى ذلك البامية التى كرهتها منذ النظرة الأولى ، إضافة إلى البطيخ والمشمش والبرقوق ، ولكن القهوة الثقيلة التى شربتها بعد الغداء جعلتنى أشعر بالوهن بقية اليوم ، وتولى خدمتنا خادم فارسى وقور جذاب ، كان يدخن من حين لآخر سيجارة فى مبسم من الكهرمان الذى يستخدم فى صنع أيدى المظلات فى القاهرة .

وأحضر لنا أحد التجار بعض السلع من بينها سجاد ردىء ، ومشغولات نحاسية ، وأحجار الياقوت والزمرد ، وفى تقديرى أن الألمان قد نزحوا كل شىء ثمين عندما كانوا فى بغداد .

انسحب الجميع وتركونا لشأننا حتى الرابعة والنصف ، عندما حضر « النواب » مرتديًا عباءة حريرية بيضاء ليصحبنا فى جولة بالسوق ولرؤية معالم المدينة . وتقدمنا رجال الشرطة العرب على أكتافهم البنادق ، وبيدهم العصى ليفسحوا لنا الطريق . والسوق طويلة ضيقة ومسقوفة جيدًا ، ولكن كربلاء لا تنتج سلعا خاصة بها ، ولذلك لم يكن هناك ما يثير الاهتمام ، وباعتبارى مهتما بالتصوير ، رأيت صورا كبيرة معلقة على الحوائط لفرانز جوزيف ، والإمبراطور فيلهلم ، وفردينان ، والسلطان محمد الخامس ، فطلبت رفعها ، وقام صاحبها برفعها على مضض .

لم يكن لدى « النواب » فكرة واضحة عن خطتنا ، خاصة أننا ركزنا على دعم وضع جاربت وإبراز مكانته ، ولم يبذل أى جهد لإتاحة الفرصة لنا لرؤية العتبات المقدسة ولو من بعيد . ولم يتم ذلك قبل زيارتنا للبلدية ، عندما طلبت أن أرقب المزارات من فوق منزل مرتفع ، فاختير بيت يازدى لهذا الغرض ، وبرغم صعوبة ارتفاع الدرج إلى سطح المنزل ، فإن منظر القبة والمآذن الذهبية وبرج الساعة الذهبى ، وفناء المسجد المغطى بالخزف البديع حتى إن حوائطه تبدو كالحدائق ، تضفى على المشهد جمالاً وجلالاً أخاذاً .

وقد حيانا الناس على طول الطريق بصداقة ومودة لا حدود لهما ، تحمل وجوههم تعبيراً ينم عن نوع من التحفظ ، إذا صح ذلك الانطباع .

عدنا حوالى السابعة مساءً ، حيث استقبلنا الأعيان الذين بدت عليهم سمات التهذيب والمودة ، مع قليل من الغلظة ، وهم أقل ذكاء من أعيان الكاظمية ، وقد استنتجت من الأحاديث التى دارت أن ثورة الشريف حسين تلقى ترحيبا عند الشيعة ، باعتبارها معادية للترك ، وتتجه إلى إحياء مجد العرب . وكان حديثى أساسًا مع الكليدار (حامل مفاتيح المسجد) وهو رجل ضخم البدن .

اتضح أن مضيفنا كمونة شخص مكروه فى كربلاء ، ولذلك لن يحضر لزيارتنا فى بيته اثنان من أكبر مجتهدى الشيعة .

تمشيت فى الحديقة ، وتناولت عشاء من الشيكولاته والبطيخ ، وآويت إلى الفراش منهكا فى التاسعة والنصف .

١٩ مايو ١٩١٧ – استيقظت فى السادسة ، وقمت بعد الإفطار بجولة من الزيارات ، وكانت الزيارة الأولى إلى حسين مازندرانى وهو أهم المجتهدين بكربلاء ، وهو رجل مسن ، جذاب المسلك ، يجلس فى مكتبة صغيرة مثبتة على عقود داخل الحوائط ، وهى سمة غالبة نجدها دائمًا فى بيوت العلماء ، ويقدم حسين مازندرانى نموذجًا نادرًا لجيل انقرض من الحكماء ، وهو يستخدم العربية والفارسية والهندوستانية بنفس الدرجة من الإتقان مع زواره وفى بيته ، وهو – للأسف – مستعد لفتح باب الجدل حول المقارنة بين أفلاطون وأرسطو ، وعندما لاحظ اهتمامى بكتبه ،

أرسل فى طلب مفتاح مكتبة أخرى من نفس الحجم ، أطلعنى بزهو على محتوياتها ، وعندما استأذنته فى التقاط صورة له ، قال : « بعد عودتك المظفرة من النجف » ، ولما كان ذلك يعنى تهربًا مهذبًا ، فقد استخدمت حقوق الضيف وفق التقاليد العربية ، وقلت للخدم آمرًا : « فليأتنى أحدكم بصورة لسيدنا » وبعد عشر دقائق ، عاد أحدهم حاملاً صورة بديعة للشيخ ختمها خصيصًا لى حسين المازندرانى ، ولم أر فى بيته - أو غيره من البيوت - مقعدًا ، فالجميع يجلسون أرضًا ، وفى كل الزيارات كان الأبناء يجلسون صفًا واحدًا فى مواجهة أبيهم ، وقد سندوا ظهورهم إلى الحائط .

وكان المجتهدون الآخرون يهتمون بحركة الشريف حسين ويؤيدونها ، وقد كان لهذه الزيارات مردودٌ طيب بالنسبة لنا . وقد قمنا بزيارة المدرسة الفارسية ، وهى تقدم نموذجًا مثاليًا للزخرفة التعليمية . وأعمار التلاميذ من الرابعة إلى العاشرة ، ويضع بعضهم العمامة الخضراء التى تميز السادة (الأشراف) ، ويتمنطق الكثير منهم بالأحزمة الفضية الممتازة ، ولم يكن بينهم سوى تلميذ واحد يرتدى حلة أوروبية كاملة وحذاء برقبة طويلة . وقد اقترحت على ناظر المدرسة أن يتخذ التلاميذ الزى الفارسى التقليدى . واستمعنا إلى نشيد وطنى يتغنى بأمجاد « إيران » ألقاه أمامنا التلاميذ . وقمت بتصوير المدرسة من الداخل والخارج .

عدنا لتناول طعام الغداء بالحديقة ، وغادرنا بعده كربلاء آسفين ، وخارج المدينة إلى الغرب تبدو ثلاث قباب مغطاة بالخزف الأزرق لثلاثة من أضرحة الأولياء . والطريق إلى النجف سهلة ، وتنقسم إلى أربعة أقسام تحددها ثلاث خانات ، قمنا بزيارتها فى حدود ساعة لكل منها ، وتبدو من بعيد على الضفة الغربية للفرات أبيار نمرود ، وبرج بابل التى يمكن رؤيتها من على بعد عدة أميال من كل اتجاه . وقد صاحبنا التوفيق بشكل عام ، ولم يحدث ما يكدر الصفو سوى اضطرارنا لدفع بعض السيارات التى غرزت عجلاتها فى الرمال ، وسط القيظ الشديد ، وبعد أن قطعنا ما يزيد قليلاً على منتصف الطريق شاهدنا فى الأفق ماسة تتلألأ فى ضوء الشمس عبارة عن كرة ذهبية تعلو قبة ضريح سيدنا على الشهيد .

وصلنا إلى أسوار النجف قبل الساعة الخامسة والنصف مساء ، وهى على خلاف كربلاء مرتفعة ، ووجدنا الآلاف من سكان المدينة فى انتظارنا ، وأغلقت الأسواق - للأسف - تكريمًا لنا ، والذى صادف عيد بعثة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) .

سرنا خلال الأسواق الطويلة الضيقة المسقوفة جيدًا ، وكان هناك جمع كبير فى انتظارنا فى بيت « الكليدار » ، وهو بيت كبير مكون من مطبخ وحرملك من ثلاثة طوابق ، وتحته سرداب كبير (شأنه فى ذلك شأن سائر بيوت العراق) مرفوع على أعمدة رومانية قوية يؤدى إلى انخفاض درجة الحرارة فى الغرفة التى تعلوه عشر درجات عن غيرها من غرف المنزل الأخرى . وقدم لنا الشاى فى حجرة كبيرة زرقاء - خضراء ، تمثل تقليداً رديئًا للطراز الفينيسى - ذات نوافذ على شكل عقود تحتها أولاد يلعبون ، بعضهم معمم ، وبعضهم الآخر عارى الرأس ، وهم يتعلقون بالنافذة للفرجة على الضيوف ، ويتحملون فى كل مرة زجر ولعنات الكبار الذين يبعدونهم بضعة أمتار ، ليعودوا - كما هى الحال فى الشرق دائمًا - بعد بضع دقائق . وسعدنا عندما دعينا للصعود إلى سطح البيت الذى يقع على بعد ٥٠ ياردة من مقام سيدنا على بقبته ومأذنه الذهبية وبرج الساعة . وهناك التقطت العديد من الصور على ضوء الغروب ، ولبثت على السطح أرقب المشهد البديع المهيب حتى لزمت الشمس خدرها ، وقد أخذنى هذا المنظر إلى ذكريات كامبردج أو بج بن ، ولكنه يفوقها جميعًا بهاء ، وتخلو النجف من المساحات الخضراء ، وبينما كنا نمعن النظر إلى المدينة من فوق سطح بيت مضيفنا الذى كان ودوداً وقلقًا فى نفس الوقت ، ندمنا لأننا لم نقض يوما آخر لنتمتع بأمسية جميلة فى حديقة كربلاء .

أويت إلى الفراش فى التاسعة والنصف منهك القوى ، بعد أن استقبلت فيما بين السابعة والثامنة رؤساء البلدية وكبار الشيوخ ، وألقيت فيهم خطابًا نيابة عن جاربت عن ملايين مصر ، وطريقة الحصول عليها وتكوين الثروة (إنما تكون بدفع الضرائب) .

٢٠ مايو ١٩١٧ - استيقظت فى السادسة ، معتزمًا زيارة الكوفة فى الثامنة ، ولكن اضطررت لاستقبال بعض الأشخاص أولاً ، فتأخر ذهابى إلى الكوفة إلى ما بعد

العاشرة ، وقال لى جاربت إننى كنت أخطب بالعربية فى أثناء النوم ، أما هو فشخيره يتصاعد فى أثناء نومه .

استدعيت تجار السجاد والحرير ، كما استدعيت أشهر الفلكيين . وقد راقبنى بعض الصبية باهتمام عندما كنت أحلق ذقنى ، وعندما كنت أستحم كانت هناك سحابة من الشهود ، مما أثار عجب جاربت الذى يختلف بيته عن بيتى ، الذى جعلنى أستحم فى العراء .

حسب الفلكي طالعى دون أن يسأل عن تاريخ ميلادى وغير ذلك من أمور ، وهو يعمل مدرسًا أصلاً ، له لحية مخضبة بالحناء ، وبعد أن وضع - باهتمام كبير - بعض النقط والشرط والعلامات على ورقة أمامه ، طلب منى أن أسأله ما شئت من الأسئلة عن المشكلات التى أبحث عن حل لها ؛ لأنه ليست لديه ملاحظات يقدمها لى . عندئذ أدركت أنه دجال ، فكل ما قاله لى إننى سوف أعود إلى بلادى بعد عدة سنوات وبطريق البحر ، ولو كان ذلك صحيحًا ، لاستحق الرجل على ذلك عشر روبيات .

وقد تحدثت إلى الشيخ هادى - شيخ جعرو (وتقع على مسافة سبع ساعات جنوب النجف) - معددًا كميات الطعام التى تذهب من عنده إلى ابن الرشيد (حليف الترك) ، فأجاب بأن الطعام ذهب فعلا إلى ابن الرشيد ، ولكن ليس من البدو التابعين له ، وأننا نبالغ فى تقدير ما له من نفوذ ، وأن أرضه بحاجة إلى الماء ، فأبديت له مخاوفى من أن الماء قد لا يصل إليه طالما ظل الطعام يتدفق على ابن الرشيد ، واستخدمت نفس اللهجة فى الحديث إلى غيره من الشيوخ .

عندما كنا نتجول عبر السوق ، رأينا غزالاً صغيرًا يجلس ساكنًا بأحد المحلات ، فأمر الحاج عطيه بأن يقدم الغزال إلينا ، وقد نصحنا أيضًا بأن نأخذ الترام الذى يجره زوج من الخيل عبر الصحراء ، عارضًا أن يخصصه لنا وحدنا ، ويترك جانبًا للمسافرين فى الاتجاهين من أجل راحتنا ، وعندما غرزت عجلات سيارتنا فى الرمال ونحن فى الطريق إلى الكوفة ، ندمنا على رفض هذا العرض الكريم ، ولكن الطريق تحسنت حالها ، واستطعنا أن نقطع الأميال السبعة إلى الكوفة فى أقل من ساعة واحدة .

وفى الكوفة ، مشينا إلى بيت الشيخ علوان - شيخ قبيلة بنى حسن - الذى يحكم البدو ، وكذلك الطريق بين النجف ومصيعب (وهو ما يحتل الأهمية الكبرى عندنا) . وهناك جلسنا على ما يشبه المصطبة مطلين على الفرات ، وفيما بين الحادية عشرة والربع والثانية عشرة والربع خطبت فى علوان وجماعته ، وواجهتنى صعوبة فى فهم لهجتهم ، وأخيراً قلت لهم إنهم ما لم يظهروا تفهما لكلامى ، أو عدم تفهم له بدلا من ردهم على بكلمتى « نعم » و« بلى » ، فلدى تحذيرات وتساؤلات يجب أن يرد عليها ، عندئذ بدأوا يتحدثون بقدر من المنطق والرصانة ، وأخيراً ، طلبت منهم أن يتحركوا للاستيلاء على عشرة آلاف الجمال التى يمتلكها ابن الرشيد ، فأقسموا أنهم سيفعلون ، وعندما اقترحت هذا المشروع البسيط خشيت أن أكون بعيداً عن الوضوح حتى وجدت أن جاربت و« النواب » لم يأخذا الأمر بجدية ، وحين اقترحت ذلك عليهم ظن جاربت أن علينا أن ندفع مالا للشيخ نظير ذلك العمل ، وكأنهم فى حاجة إلى رشوة للقيام بعملية تدر عليهم ربحًا لا يقل عن خمسين ألفًا من الجنيهات الإسترلينية .

تناولنا غداءً جيداً ، حولنا معظمه إلى السائقين (فأكل كل منهم دجاجة كاملة) ، واكتفيت بالطماطم المحشوة لأننى لست مستكشفًا جيدًا للطعام ، كثير الشك ، أعزف عن تناول ما لا أعرفه من الطعام ،.ولم أتقبل أبدا الطهو الشرقى .

تركنا الكوفة التى تزيد قليلاً على القرية ، وتوقفنا فى الطريق لالتقاط الصور للمشهد ذى القبة الزرقاء الذى يقع به مكان استشهاد الإمام على بن أبى طالب . وقد قرأت فى موضع ما - منذ زمن - أن هذا المشهد يحتوى فى بنائه على عامود أثرى قديم من الجرانيت الأحمر ، يستخدم لإثبات صحة شهادة الأشخاص ، فيطلب من الشخص احتضان العمود ، فإذا استطاع ذلك كان على حق ، وإذا لم يستطع كان كاذبًا . وسألت الحضور عن مدى صحة ذلك ، فأجاب السيد عباس وصحبه بحماس أن ذلك صحيح ، ولكننا لم نستطع رؤيته لعدم إمكانية دخول المشهد .

عدنا إلى النجف قبل الثالثة بعد الظهر بقليل ، وعند عودتنا وجدنا الغزال يتجول فى المنزل ، وقمت بإطعامه بعض البرسيم ، واسترحت قليلا فى جو السرداب الرطب ،

وبعد الخامسة ذهبت مع جاربت لزيارة الشيخ محمد كاظم اليازدى الذى تسمع كلمته من العراق إلى أصفهان ، وكانت مشاعره نحونا غير مؤكدة ، وقد رفض قبول مائتى جنيه إسترلينى قدمناها له على سبيل الهدية ، وقد طُلب من جاربت – الآن – أن يقدم له ألفًا من الجنيهات ، ورجانى أن أتولى ذلك بدلاً منه ، برغم علمه بما قد يسببه لى من حرج ، فقبلت أن أقوم بالمهمة مع التحفظ . ووضعت كراسة الملاحظات فى جيبى وذهبت مع جاربت للقاء السيد فى بيته .

انتظرت خمس دقائق بباب حجرة الشيخ محمد كاظم اليازدى ، بينما نادى عليه شيخ أخر وقور ليخرج إلينا ، فخرج إلينا ، وهو رجل طاعن فى السن ، يرتدى قفطانًا أبيض وعمامة ، وقدصبغت لحيته وأظافره بالحناء الحمراء . ألقى الشيخ التحية علينا من بعد ، ودعانا للجلوس على الحصير إلى جانبه خارج غرفته ، إننى أعرف جيدا ما له من نفوذ وسمعة ، فملامحه بالغة القوة ، وهو حجة فى علمه ، مقنع فى حديثه بقدر لم ألمسه عند غيره من علماء الإسلام ، وبعد أن قدمت له التحيات ، سألته عما إذا كنا نستطيع أن نفعل شيئًا من أجله . فأجاب : « العتبات الشريفة ، العتبات الشريفة » ، وفهمت من ذلك أنه يقصد المحافظة على تلك الأماكن المقدسة وعلى المجتهدين أنفسهم ، وسارع بطلب عدم تعيين غير الشيعة فى الوظائف بالمدن الشيعية ، كما طلب منا – لأسباب سياسية – أن نطلق سراح الدكتور مظفر بك وجمال بابا ، وهما من الشيعة المسجونين ببغداد ، وأن يعين ميرزا محمد قائمًا للنجف ، وبعد ذلك خصنى ببعض عبارات المجاملة ، ممتدحًا معرفتى بالفارسية ، وقال لى بالفارسية : « لقد تعلمت أخيرًا كيف أصبح عالما » ، وإن الترك لو أدركوا ذلك لما فقدوا ولاء العرب . فأجبت بأننى سوف أنقل هذه النصيحة الغالية إلى السير بيرسى كوكس . واقتربت من مهمتى قليلاً ، طالبًا أن أختلى به لمدة ثلاث دقائق ، وعندما تحدثت معه فى موضوع الهدية النقدية ، قلت له إننا نعلم أن هناك أعدادًا هائلة من فقراء الشيعة الذين يحتاجون إلى المساعدة ويلجأون إليه ، ولما لم يكن بمقدورنا الوصول إليهم ، فإننا نرجوه أن ينوب عنا فى ذلك . غير أنه دفع الكيس فى يدى بلطف وحزم وإصرار قائلاً : إن الوقت لم يحن بعد لذلك ، وإنه يطلب إعفاءه من هذه المهمة . فاعتبرت أن الإلحاح عليه

لا يعد عملاً كريماً ، وانتقلت إلى الحديث عن الشريف حسين الذى يعد الشيخ اليازدى من معجبيه ومؤيديه .

مكثنا عند السيد محمد كاظم اليازدى أقل قليلا من الساعة وقبل أن نودعه ، حاولت إعطاءه المبلغ مرة أخرى ، فرفضه بلطف شديد . وأنا على ثقة أن النقود لا تعنى له شيئًا ، ولكنه يمتاز بعزة النفس ولا يمكن شراء ذلك بالمال ، وهو يرفض بترفع عندما يرى الضغوط تتزايد عليه ، إن هذه الظاهرة بعيدة تمامًا عما نجده فى مصر والحجاز .

عدت إلى المنزل ، وقمت بتصوير جميع الأطفال والغزال الذى وجدته يتجول على سطح البيت . ودعوت السيد عباس أن يشاركنا طعام العشاء كلفتة إنسانية وسياسية، وقام مضيفنا بالمساعدة فى خدمة السائقين عند تناول العشاء على نفس المائدة .

قضينا ليلة خانقة ساكنة الرياح ، تعذر فيها النوم ، وأتاح لى ذلك ملاحظة أن الكلاب تكف عن النباح فى النجف فيما بين الثانية والرابعة وقبيل الفجر .

٢١ مايو ١٩١٧ – استيقظت بعد الخامسة بقليل ، لأفاجأ بتأخير تام وشامل فى الخطط التى وضعناها ليلة الأمس ، وهو أن تستعد السيارات للتحرك بنا فى السادسة إلا الربع صباحًا . وبعد أن دفعنا ١٥٠ روبية بقشيشًا للخدم ، غادرنا البيت فى السادسة والربع لنجد أن السيارات لم تشحن بالأمتعة ولم تستعد بعد . وكانت الأعذار التى قدمها السائقون أن ليس معهم ساعة ، وأنهم انتظروا وقتًا طويلاً حتى قدم لهم الشاى ، والغزال قابع مع الأمتعة فى إحدى سيارات النقل . وأخذ جاربت يصب اللعنات عليهم ، ولكنى منعته من ذلك ، وقلت لهم إننا – طوال الرحلة – حاولنا أن نبذل أقصى الجهد بفضل مساعدتهم لنا ، وأسفت لأن معاملتنا الطيبة لهم انتهت بنا إلى هذه الحال . أعرتهم ساعة سعيد ، وبعد وداع حار ، كنا خارج النجف فى حوالى الثامنة صباحا فى الطريق إلى كربلاء ، وواجهتنا فى الطريق ريح شمال عاتية قذفت التراب فى وجوهنا باستمرار حتى الظهر ، وأخيراً فى الحادية عشرة إلا الربع شاهدنا قبة ضريح الحسين الذهبية ودخلنا كربلاء باقترابنا من بساتين النخيل والبحيرات ، ووصلنا إلى حديقة محمد على كمونة فى الحادية عشرة وثلث . وهنا وجدنا أن فهد بك

قـد وصــل ؛ لذلك قـررنا ألا نتابع السير إلى الحلة فى أثناء الليل ، مكتفين بالوصول إلى مصيعب .

وبعد أن تنـاولنا طعـام الغداء أحضروا لنا فـهد بك ، وقدمه جاربت لى لأتفاهم معه ، وهو شيخ قصير نحيل أسمر الوجه ، ضعيف البصر ، رفيع السلوك ، طاعن فى السن ، وبعد التحيات ، سلمتـه رسالة كوكس ، وتمنيت عليه الحضور إلى بغداد ، وسكت انتظاراً لسماع رده ، ولكنه قال : « أكمل ما عليك قوله لى ، وبعدها سوف أقول لك ما أريد قوله » . فحدثته عن عشرة آلاف الجمال التى ستنقل من النجف ، وطلبت منه الموافقة على ذلك . وأخيراً ، إننا علمنا أن ما قيل عن قيام رجاله بأعمال السلب على طريق كربلاء - مصيعب مجرد شائعة زائفة . فرد فهد بقوله إنه كان ينوى فعلاً الذهاب إلى كوكس ، وأعد له خطاباً بالفعل ، وإنه يحتاج إلى سيارة من مصيعب ، وإن علوان وأصدقاءه موضع ترحيب إذا ما جاءوا بالجمال إلى النجف ، ولكن من الأفضل لهم أن يمعنوا النظر فى هذا الموضوع . وأخيراً فإن شائعات السلب مجرد أكاذيب . وأبدى مشاعره الطيبة وتقديره لجرترود بل . وانصرف بصحبة ولده .

قابلت كليدار النجف وبعض الأشخاص الآخرين ، وتمشيت قليلاً فى الحديقة ، وفى الساعة الرابعة بعد الظهر وصلنا عند قبـة عـون ، ووصلنا مصيعـب السابعـة إلا الربع ، واقترح جاربت أن نبحر شمالاً فى الفرات إلى الحلة فى رحلة تستغرق ثلاث ساعات بينما تقطعها السيارات فى أربع ساعات ، فوافقت على ذلك . وبينما كنت أصعد إلى سريرى بالسفينة وقعت من السلم وكسرت المصباح .

٢٢ مايو ١٩١٧ - تأخرنا فى الوصول نصف ساعة ، ونزلنا إلى البر السابعـة إلا الربع صبـاحـًا ، وقـررت بينى وبين نفـسى أن أنفـرد بوضع خطط التحـرك فى رحلاتى التالية ، وعند قناطر الهندية وجدنا باب الهويس مغلقـاً ، وكان علينا أن نسير على الأقدام لإحضار المفتاح ، وكان الأتراك قد دمروا البيوت ونهبها البدو ، ولكن عندما قرر الترك تحطيم الجسور والسدود وإغراق البلاد رفض العرب ذلك تمامًا . وضفاف الفرات متنوعة المناظر وتتميز بالجمال مثل الأنهار الإنجليزية ، فهناك النخيل، وأشجار الفواكه والحشيش يكسو الضفتين . ومضى الوقت ، فلم نصل الحلة إلا فى

الثانية والنصف ، وبذلك استغرقت الرحلة أكثر من سبع ساعات . والمدينة جميلة ، وسوف تزداد حسنًا بعد تخلصها من آثار الترك ، حيث تم إعدام نحو ١٧٠ من سكان المدينة وأعيانها . واعتدى على الكثير من النساء ، واختطف بعضهن .

جولد شميث الآن فى بيت مناحم الأنيق . شغلنا بالعمل حتى الثالثة ، واقترحت أن نقوم بزيارة بابل . وقد اختلف الجميع فى تقدير المسافة ما بين ساعتين وأربع ساعات . ولما كانت الطريق غير آمنة ، فإن علينا انتظار موعد دورية شرطة السوارى .

٢٣ مايو ١٩١٧ – استيقظت فى الخامسة ، وذهبت بالسيارة إلى آبار نمرود – برج بابل . وبعد عودتى من هناك إلى الحلة ، استقبلت محمد القزوينى – أحد الأعيان – ولعله الوحيد الذى لم يعدمه الترك ، وقد قمت برد الزيارة له – فيما بعد – فى جو شديد الحرارة عند الظهيرة ، بعد ذلك شاهدت فى سوق المدينة المقام ذا الواجهة الخزفية حيث شوهد الإمام الأخير لآخر مرة قبل اختفائه ، وهناك مقام آخر مماثل فى سامراء ، وسلم الدرج بمبنى البلدية مبنى بالكامل بالطوب البابلى الذى يحمل نقوشًا ، وقد اقترحت على جاربت أن يزال هذا الدرج ، ويعكف الأثريون على دراسة النقوش المحفورة عليه ، ومعظم مبانى المدينة قامت على مواقع تاريخية ، واستخدم فى بنائها طوب من بعض الآكام الأثرية ، وإن كان الكثير منها لا يحمل نقوشًا .

غادرنا الحلة قرب الساعة الواحدة بعد الظهر ، ووصلنا إلى بغداد فى السادسة والربع مساء ، ووصلنا منازلنا بعد عبور النهر بالقوارب وملابسنا وأجسادنا تعج بالرمال . تحدثت حديثًا طويلاً مع كوكس وجرترود بل .

٢٤ مايو ١٩١٧ – استيقظت فى السابعة سعيدًا بما حصلت عليه من الراحة ، وأعددت قائمة بالاحتياجات الأساسية لرحلة الجزيرة العربية ، التى أضافت إليها جرترود بل الكثير ، وجرترود بل مشغولة الآن بخطة اقترحها الأب أنستاسى ، بأن يُكوِّن الشيعة وفدًا يذهب لمقابلة الشريف حسين ، فإذا كان الوفد كبيرًا ، يضم شخصيات كبيرة ومراجع دينية ، فإن ذلك كفيل بوضع حد لما يتردد فى بعض الدوائر المصرية من أن الشريف صنيعة بريطانيا ، وقد قابلت الأب أنستاسى الذى لم يكن قد فكر فى أحد من كبار العلماء أو المجتهدين للانضمام إلى الوفد المقترح ، وهو يعتقد أن

عبد الحسين الطبطبائى قد يقبل الاشتراك ، ولكنه قد يطلب مساواته بمن تبنى الفكرة من قبل ، وهو الشاهستانى الذى دعا إلى الجهاد ضدنا فى بداية الحرب . أما الستة الآخرون فيقترح أن يكونوا من رجال القلم والأدباء ، وتمنيت أن يكونوا ممن لم نسمع أسماءهم من قبل . وقد يحتاج كل منهم إلى تذكرة سفر بالدرجة الأولى ذهابًا وإيابًا إلى مكة عبر جدة ، ويحتاج كل من الستة إلى مائة جنيه يتركها لأسرته فترة غيابه ، أما الشيخان فيحتاج كل منهما إلى ١٥٠ جنيهًا لنفس الغرض ، وهى تكلفة بسيطة إذا كان أعضاء الوفد من الدرجة الأولى فعلاً . وكان أنستاسى بقيصرية حتى يوليو الماضى (١٩١٦) ، وحدثنى عن الفظائع التى ارتكبها الترك ضد الأرمن الأبرياء . وقد قام بكتابة سجل بالأسماء والأعداد ، ولكن أخاه دمر - لسوء الحظ - ذلك السجل المكون من ٣٠٠ صفحة خشية أن تضبط لدى أخيه (أنستاسى) فيدفع حياته ثمنًا لهذا العمل .

تناولت العشاء مع جرترود بل والكولونيل ديكسون ، وكان جلوسى على المائدة بين الجنرال ماكمون - الذى سيأخذنى إلى البصرة يوم الاثنين - والكولونيل ولكوكس رئيس الأطباء الاستشاريين بالجيش الذى زودنى ببعض النصائح لمقاومة الشمس التى تثير مخاوفى دائمًا .

٢٥ مايو ١٩١٧ -استيقظت فى السابعة ، قضيت معظم النهار فى قراءة فهرس داوتى ، ومحاولة تحديد الطريق التى سأسلكها بعد بريدة بمعاونة جرترود بل ، واقترحت أن يتم استدعاء طبيب العيون الشهير ماك كلان من مصر ليقدم استشاراته فى هذا المجال .

فى الصباح ، قرأ علىّ كوكس البرقية التى أرسلها إلى وزارة الهند ، ويقترح فيها أن يقبل منصب المندوب السامى ، وإلا سيتم الاستغناء عنه باعتباره عاجزًا عن تنفيذ سياسة حكومة صاحب الجلالة ، وهى رسالة جيدة تحركت بعد رقاد طويل ، وقد تناولت العشاء معه . ولاحظت أن الشفرة التى أعطيت لى لاستخدامها خلال الرحلة تم حلها فى فارس قبل عامين (ترى هل يعرفون ذلك ؟) . وقد استمررت فى إعداد موجز عن نجد من فهرس داوتى حتى منتصف الليل .

٢٦ مايو ١٩١٧ – أكملت إعداد موجز نجد الخاص بى الذى يحتوى على بعض الدلالات وأسماء الأمراض . وبمساعدة جرترود بل حددنا مسار داوتى من جنوب عنيزة إلى الطائف ، وما زال المسار غامضًا ، وأشك فى صحة الخريطة ، ولست متأكدًا أن يجد الشريف حسين الوقت الكافى للقائى .

أجريت مقابلة مع الشيخ الشاهستانى صاحب فكرة الوفد الشيعى ، وقلت له صراحة إنه ما لم يقبل أصحاب الأسماء السبعة الأخرى الاشتراك ، فلا أظن أنه سيكون من مصلحة الشريف أو مصلحتنا نحن أن يذهب الوفد للقاء الشريف .

فى الساعة الثامنة أخذنى بيتش معه لتناول العشاء مع الجنرال كوب ، وهو نموذج جيد للعسكرى العملى . عند قيادته لقوة سامراء تعطل أحد محركى الناقلة ، فكان كل ما فعله هو ترشيد العمل لمدة يومين . وقد علمت من بيتش أن الأتراك كانوا أفضل تخطيطًا منا بفضل وجود الجنرال الألمانى شولتز الذى أسقط وحده أربعة من طيارينا ، وقام بدفنهم ، والصلاة الجنائزية لهم .

لم أسمع شيئًا عن بريدى حتى الآن .

٢٧ مايو ١٩١٧ – استيقظت فى وقت متأخر ، وأسفت لما دار بفكرى بالأمس ، مع كل ما قدمه كوكس لى وكذلك جرترود بل ، لقد ذكرانى بما كنت أحس به أيام العمل مع اللورد كيتشنر . وذهبت إلى الكولونيل بيرى بمصلحة المساحة لأعرف منه كيف ترسم الخريطة بمقياس رسم معين ، فلست بارعًا فى ذلك ، وسوف أبذل جهدى لتلافى هذا القصور . وبدأ سعيد فى حزم أمتعتى .

راجعت مع جرترود بل مشروع المفوضية السورية – العربية – العراقية ، وهى تحمل فى رأسها عقلاً من الدرجة الأولى ، ويسعدنى دائمًا العمل معها ، وفى الخامسة قامت معى باصطحاب كوكس بالسيارة – غالبًا بالقوة – لأنه يعمل من السادسة صباحًا حتى منتصف الليل طوال الأسبوع بلا راحة . وأخذناه فى جولة بالمدينة للترويح بعض الشىء عنه ، ويبدو أنه شعر بالارتياح ، وأعتقد أن جرترود بل ستستمر فى التصرف معه على هذا النحو .

وعلى العشاء تحدثت جرترود بل عن الكتب والمؤلفين بمستوى راق من المعرفة والتحليل ، ورجوت كوكس أن يزودنى ببعض التوجيهات فيما يتعلق بالتعامل مع ابن سعود ، ووعدنى بأن يعد لى مذكرة تتضمن ذلك كله .

٢٨ مايو ١٩١٧ – استيقظت فى وقت متأخر لأستقبل يومًا شديد القيظ . قرأ علىَّ كوكس الخطاب الذى كتبه ليقدمنى به لابن سعود ، وهو خطاب واضح معقول كالعادة ، ذهبت بالسيارة لتوديع النقيب الذى كان ودودًا معبرًا عن مشاعر الصداقة ، تحدثت إلى جرترود بل حديث الوداع ، وآمل أن يستطيع بدنها الضعيف تحمل لهيب الصيف . كما ناقشت المذكرة التى أعدها كوكس من أجلى ، وتسلمت من الترزى قفطانًا داخليا لأنه الأنسب فى رحلة الصحراء .

فى الثالثة والنصف بعد الظهر صعدنا إلى متن الباخرة التى أبحرت فى الرابعة . وبهذه السفينة مقصورات كثيرة وحمامان طويلان ، فكانت هذه هى المرة الأولى التى أحظى فيها بحمام جيد منذ تركت كراتشى فى رحلة القدوم إلى العراق . ونزلنا إلى البر فى طيسفون (*) ؛ حيث توقفت السفينة لقضاء الليل ، وأمضيت نحو الساعة مع ماكمون بين الأطلال الأثرية ، وبرغم أن العقد إنجاز معمارى ، فمن الملاحظ أن قوسه مدبب بصورة لا تريح النظر ، ولكن المفاجأة الحقيقية تتمثل فى الواجهة البعيدة عن النهر التى تنقلك خطوطها فجأة إلى العصور الوسطى . وعدنا لتناول عشاء باردا نسبيا ، ويبدو أن الجميع يعرفون عن رحلتى ، أشعر بذلك أينما ذهبت ، وعند تلقى كل تحية .

٢٩ مايو ١٩١٧ – مضينا اليوم كله وسط ريح عاتية غمرتنا بالأتربة والرمال . راجعت يومياتى السابقة ، وقمت بلصق بعض الصور . ألقينا المرسى وسط مجرى النهر أمام شمران حيث البداية الحقيقية لخط الكوت – بغداد الحديدى الذى سيتم إنجازه فى أغسطس . أويت إلى الفراش فى الساعة العاشرة والنصف ، وقد أحسست بالضيق عند معرفة ما يجب على أن أحمله على جسدى عندئذ من ملابس وأغراض أخرى .

(*) مدينة فارسية قديمة ، أطلق عليها العرب اسم « المدائن » . (المعرِّب)

٣٠ مايو ١٩١٧ – استيقظت فى الساعة الخامسة والنصف ، ونزلت إلى بر الكوت مع ماكمون حيث تجولنا فى الشوارع مع ويلسون . وعلمنا أن الترك قاموا بإعدام ٣٠ شيعيا عند استعادتهم المدينة مجاملة للسنة الذين غادروا المدينة عند انسحاب الترك منها ، كما أخرج الترك معهم بعض اليهود ، وكل ما أمكن نقله من الأخشاب ، والمبنى الوحيد الذى لم يمس هو الحمام البديع فى طرازه المعمارى . وقد تم إصلاح الطرق المدمرة بقدر الإمكان ، ويعود السكان الآن إلى مدينتهم من الأماكن التى فروا إليها من قبل . وتقع جبانة المدينة وسط النخيل ، ولكن على الضفة الأخرى يوجد كم هائل من الهياكل العظمية لأولئك الذين قتلوا دون أن يجدوا من يهتم بمواراتهم التراب . والآن لا تستطيع أى إصلاحات أو انتصار أن يمحو آثار مأساة الكوت ، التى ستظل تحمل ذكريات الكارثة التى حلت بها .

هبت طوال اليوم رياح حارقة ، وبلغت درجة الحرارة فى الظل ١١٠ فهرنهيت (٤٣,٣ مئوية) ، وبلغ الضيق ذروته عندما توقفنا فى مواجهة الريح عند مخزن السكك الحديدية ، وصعد إلى الباخرة كابتن شاب حليق الذقن نظيف الثياب ظنا منه أن ركوب الباخرة يقيه التعرض للتراب الذى يعانى منه فى موقعه ، وما لبث أن وجد الحال أشد سوءاً ، ففقد شهيته للطعام ، وعانى التهاب الحنجرة ، وهو – برغم ذلك – يبدو قانعاً على خلاف أحد زملائى بالقاهرة الذى أنب القواس ؛ لأنه وضع السكين الخاص بفتح الخطابات على مكتبه دون أن يراعى اتجاه الحد إلى اليسار ! نمت فى العاشرة والنصف ، ودرجة الحرارة داخل المقصورة ١٠٧ فهرنهيت (٤١,٦ مئوية) .

٣١ مايو ١٩١٧ – مازالت رياح السموم الشرسة تهب عند وصولنا إلى العمارة فى العاشرة صباحًا . وزعت وقتى بين القراءة والاسترخاء حتى الأخشاب داخل المقصورة كانت ساخنة ، وفى الخامسة بعد الظهر عبرت جسر القوارب لألتقى ماكنزى (الوكيل السياسى هناك) ، فوجدته غائبًا ، ويقوم بعمله تايلور الذى أخذنى إلى النادى ثم أعادنى بالقارب الخاص بالوكالة إلى الباخرة ، وفى العاشرة عبرت الجسر إلى قطار العمارة – القرنة ؛ حيث قمت وماكراى بإعداد فراشى للنوم فى عربة بضائع مكشوفة يغص طرفها الآخر بالهنود ، ونمت نومًا عميقًا فى ضوء القمر برغم اهتزاز القطار والجلبة الصادرة عن حركته على القضبان .

أول يونيو ١٩١٧ – أشرقت الشمس قبل السادسة بكثير ، ووصلنا القرنة فى الساعة السادسة والنصف ، حيث حلقت ذقنى وتناولت طعام الإفطار مع ماكى – مساعد الضباط السياسى الجديد – وأبحرنا فى الثامنة والنصف بالقارب الخاص به ، فوصلنا إلى البصرة بعد خمس ساعات . وكان القيظ الشديد رفيقنا طوال الرحلة ، ذهبنا مباشرة إلى بيت ماكمون ، حيث بعض مظاهر الحياة الباريسية التى طالما افتقدتها ، فلم يربطنى اتصال واحد بأوروبا أو القاهرة ، وهى معاملة قاسية .

أخذنى ويلسون – صاحب الكفاءة والهمة العالية – بسيارته ، وراجع قائمة احتياجاتى للرحلة ، ثم تجولنا فى المدينة لاستكمالها ، وأحيانًا تجعلنى الحرارة الشديدة والعطش أحس بأن رحلتى عبر الصحراء كابوس مؤرق ، وأحيانًا أخرى أشعر بالطمأنينة والسكينة . وقد حدثنى ويلسون عن فرقة عمل الأمازون التى عادت للعمل ، وذكر أنهم أدق عملاً من العرب ، وأنهم أضربوا أخيرًا عن العمل احتجاجًا على نقل ضابطهم البريطانى ، وبسبب سوء الأحوال بالسجن ، حيث يتعرض السجناء للقتل . تناولت عشائى مع ويلسون ، ثم ذهبت إلى السينما حيث تميزت الصالة من الداخل بالزخرفة على نقيض صالات السينما بالقاهرة ، وجلست فى السينما إلى جوار القنصل الفارسى الذى يتقــاضى راتبه من الحكومة البريطانية ، وبعد تناول الشراب بمله تــركى قديم (سراى) ، توجهت مباشرة إلى البيت للنوم .

٢ يونيو ١٩١٧ – ذهبت مع ويلسون لزيارة الليدى كوكس التى قدمت لنا شرابًا باردًا ، وحاكت الشرائط للغطاء الذى يقى ظهرى الشمس . ودعانى الدكتور بورى لتناول الشاى ، وأهدتنى زوجته صندوقًا من الشاى أستعين به على وعثاء السفر ، وقدم لى الدكتور بورى بعض الأدوية ومن بينها زيت الخروع . تلقيت برقية من الكوت تفيد أن بريدى احتجز هناك ، وقد جعلنى ذلك أشعر بالارتياح ، وسوف أنتظر بالكويت حتى أتلقى هذا البريد الذى تأخر ثلاثة أشهر لأقرأ أعداد التايمز القديمة (عن تلك الأشهر) فى أثناء وجودى فى نجد .

عدت إلى ماكمون لتناول العشاء ، وجلست إلى جوار ممرضة أسترالية أخبرتنى بأن عائلتها هى الفرع الآخر الوحيد لعائلة إيل ماكلسفيلد .

٣ يونيو ١٩١٧ – فى السابعة قام قسيس شامى من الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية بمباركتى من أجل رحلتى . وذهبت إلى ويلسون الذى لم يدخر وسعًا فى تلبية كل احتياجاتى دون أن يؤثر ذلك على عمله ، كما أكمل الدكتور بورى صيدليتى ، ثم إلى هاويل – الذى يكبرنى بخمس سنوات تقريبًا – رفيقى فى الرحلة إلى الكويت .

غادرنا البصرة بعد تناول الغداء الساعة الثالثة والثلث بعد الظهر ، ووصلنا إلى قصر الشيخ خزعل بالمحمرة قبل الخامسة بقليل . وحملنا قارب فخم إلى عتبات القصر ، حيث كان الشيخ نفسه يقف فى انتظارنا وبجواره حارسه الشخصى الفارسى . فألقى علىَّ الشيخ التحية ، وأصر على أن أتقدمه على الدرج الذى يصل إلى السلاملك ، وصحبنى عبر حجرات الاستقبال العديدة ذات الأثاث الخشبى المزينة حوائطها بالسجاد الفاخر ، ويبدو أنه كان على علم بالغرض من رحلتى ، وأعد لى خطابات توصية لشيخ الكويت ولابن سعود ، واقترح أن يرسل نوعًا من السفارة إلى الشريف حسين إذا حصل على موافقة كوكس ، ولكنى أشك فى موافقة كوكس على ذلك الاقتراح .

والشيخ خزعل هادئ الملامح والصوت والطباع ، يميل إلى تأكيد وجهة نظره بمرادفات كثيرة حتى يطمئن إلى استيعابى لها . ووزيره الفارسى (وصانعه) قام برحلات كثيرة إلى أوروبا ، ويقول من احتكوا به إنه رجل ظريف . وقد استأذنا فى الانصراف حوالى الساعة السادسة ، وهبطنا الدرج لنجد فرقة الموسيقى فى وداعنا تعزف السلام الوطنى ، فقمنا بالتحية الواجبة ، وأهدانى الشيخ خزعل صورة له بالحجم الطبيعى ، وبعد أن رتبت مع قائد قارب المدفعية أمر الانتقال مباشرة من الفاو إلى الكويت لنصل إلى هناك فى الثامنة ، أعددت فراشى للنوم .

٤ يونيو ١٩١٧ – استيقظت حوالى السادسة صباحًا والقارب يمضى على صفحة الماء والحر شديد . واكتشفت أن قائد القارب أوقفه فى الفاو من الساعة ١,٣٠ حتى الساعة ٤,٣٠ صباحًا ، مما عرضنا لحرارة الطقس ، وأخر وصولنا إلى الكويت حتى الساعة ٣,٢٠ بعد الظهر ، ليلقى القارب مراسيه أمام مقر القنصل البريطانى هاملتون (المقر الصيفى) ، الذى ما لبث أن جاء إلينا بقارب شراعى ليصحبنا معه

إلى الشاطئ . وشعرت بخيبة أمل شديدة عندما علمت أنه لن يذهب معى إلى بريدة ، وهو أقل إقداماً من ويلسون ، ولكنه لا يقل عنه رغبة فى العمل ، ويقع بيته على بعد ميلين غرب مدينة الكويت ، وهو بيت نظيف مريح ، جيد الأثاث .

وبعد الخامسة بقليل ، دعا الشيخ سالم إلى حفل استقبال على شرف عيد ميلاد جلالة الملك . والكويت تختلف تماماً عن المحمرة ، فالشيخ سالم يتميز بالدهاء ، ولكن مع الميل للمحافظة على مظهر الحاكم المسلم الورع ، وقد هيأ له أخوه سبيل الوصول إلى الحكم عندما مات بسبب إفراطه الشديد فى الطعام . ويرى هاملتون أن الشيخ سالم بارع فى أمور التجارة ، ولكنه متعصب – ولا يعنى ذلك كراهيته لنا – ويرفض إدخال التعليم الذى يتطلع إليه شعبه ، وقد أعجبت به ووعدت بزيارته فى اليوم التالى . ومن مساوئه عدم موافقته على إدخال الكهرباء إلى المدينة ، ولكنه لم يتقاعس عن المساهمة فى مصنع الثلج الذى أقيم بالمدينة ، وبعد انصراف الشيخ قمنا بالسباحة فى الخليج قرب الشاطئ على شمس الأصيل حتى نتجنب أسماك القرش التى قيل إنها توجد بالمجرى الملاحى الذى لا نعرف حدوده .

وفى العشاء ، تناولت زجاجة صغيرة من نبيذ شيراز المعتق الذى يشبه الشيرى الجيد ، وجلسنا بعد ذلك فوق الرمال فى ضوء القمر ، وخلدت للنوم فى العاشرة والنصف ، ولكنى تذكرت أننى تركت قلمى على الرمال ، فنهضت للبحث عنه فى الحادية عشرة مساء ، وفى أثناء نزولى الدرج ، هب هاملتون مستيقظاً يصيح « من هناك » وذكرت اسمى عدة مرات ، ولكن يبدو أنه لم يكن قد أفاق تماماً ، حتى استطاع أن يسمعنى جيداً وحرصت على ألا أسرع بالتحرك ، فربما كان يحمل فى يده مسدساً وتأكد لى ذلك بالفعل ، وهكذا نجوت من الموت بأعجوبة ، وحلمت طوال الليل أننى جاسوس يحاول جاهداً أن ينجو بحياته من مطاردة الأعداء .

٥ يونيو ١٩١٧ – أرسل الشيخ سالم – حاكم الكويت – سيارته المنيرڤا ، وسارت بنا وسط الطرق الضيقة والسوق المسقوفة حتى بلغنا القصر ، وهو مبنى جيد ، وقد التقطت صورة له وسط حراسه ، ووعدت بزيارته مرة أخرى قبل مغادرة الكويت .

وتدريجياً جمعت كل ما يلزمني ، وتدربت بعد الظهر على ركوب الجمال وما ارتبط بها من معدات ، وأجريت مناقشات مهمة حول الوقت والطرق المناسبة ، وبرغم أنني أجد في كل مكان أذهب إليه من يلتصق بي عارضاً مساعدته بصورة تدعو - أحياناً - للضيق ، إلا أنني أعجبت بالفتى عبد العزيز وقبلت به ليكون « الكرڤان باشي » (قائد القافلة) . والجمل الخاص بي يعتبر أقل شأناً من جمال حرس الحدود في مصر ، على ما أذكر ، ولما كنت لم أركب جمالاً منذ مايو ١٩١٤ ، فسوف أعاني بعض الشيء في بداية الأمر .

والكويت مدينة نظيفة ، أحسن طقساً من البصرة ، ويتم بناء القوارب والسفن الصغيرة هنا التي تخرج للصيد أو السفر ، بمهارة تامة وبأعداد كبيرة ، والأسواق جيدة ، ولكنها أغلى من أسواق العراق .

عدنا إلى البيت بالسيارة ، وذهبنا بها مرة أخرى لتناول الشاي مع ميلريا - المبشر الأمريكي - وزوجته ، وقد أعجبت بهما لمحافظتهما على أسلوب الحياة الأوروبي الجيد في هذه المنطقة التي تفتقر إلى الحضارة . وقد قضت الزوجة ثلاثة فصول صيف متعاقبة في الكويت ، وتراها أرحم من البحرين . قمنا بالاستحمام مرة أخرى على الشاطئ وقت انحسار المد .

٦ يونيو ١٩١٧ - ركبنا الخيل في طريقنا إلى القنصلية ، وهي رحلة أتعبتني لأن السرج لم يكن مثبتاً جيداً ، فأصبت ببعض التسلخات مما يبعث على القلق ، وأنا مازلت في بداية الرحلة البرية الطويلة .

دخلت مع وكيل ابن سعود في الكويت (النفيسي) في جدل حول الفتى عبد العزيز قائد القافلة . قمت بإعداد خطة الرحلة ، ويخشى علينا الجميع (مثل ابن حسين) أن نتعرض لغارات البدو ، ونصحوني بالذهاب مع إحدى القوافل التجارية المزمع تحركها ، فقبلت الذهاب مع تلك القافلة التي يسمونها « الحضرة » حتى الونان ، وهناك لابد أن أسير منفصلاً مع جماعتي في الطريق إلى بريدة .

عدت حوالي الخامسة ، وطهرت التسلخات بالويسكي ، وقد نصحني ميلريا (وهو طبيب) أن أنتظر حتى تلتئم تلك التسلخات قبل السفر ، ولكن إذا وصلت الجمال من الزبير في الوقت المحدد ، فسوف أتحرك على الفور .

٧ يونيو ١٩١٧ – قابلت « أمير » القافلة ، واتفقت معه أن ألتقى بالقافلة عند صبيحة صباح السبت التاسع من يونيو ، كلما مرت الأيام ازدادت حرارة الجو ارتفاعًا ، وازداد رمضان قربًا . ودعت الشيخ سالم الذى يبدو أنه لا يعلق أملاً على ابن سعود .

وقد ذكر لى هاملتون أن ابن سعود يكره – من أعماق قلبه – الشريف حسين ، ولكنه على علاقة ممتازة معه . وعلى كل ، لا يبدو أنه يريد أن يقاتل أحدًا ، ثم انتقلنا للحديث عن خزعل شيخ المحمرة ، الذى تبعنى باليخت الثانى الخاص به ، فقال هاملتون إنه لا يستطيع أن يحضر إلى الكويت باليخت الأول ؛ لأنه مُهدى إليه من والد الشيخ سالم ، وينازعه سالم ملكية اليخت ويطالبه بتقديم شاهد واحد على صحة الإهداء ، والمسألة ذات حساسية بالغة .

وبعد الغداء عدنا بسيارة الشيخ التى كانت مسرعة ، لدرجة أنها اصطدمت بحجر وسط أحد الشوارع الضيقة ، فكسرت العجلة الخلفية ، وكان علينا أن نسير على الأقدام عبر السوق (التى تغلق من العاشرة حتى الرابعة بعد الظهر) حتى جاءتنا عربة أخرى . علمت فى أثناء ذلك من رقيب وجندى عربيين من الفارين من الجيش التركى أن فخرى باشا وحيدر كانا فى المدينة ، حيث يوجد ٣٢ ألف جندى وإمدادات غذائية وفيرة ولا يوجد أجانب ، وقد زودت خادمى سعيد بمسدس وعشر طلقات ، وطلبت منه ألا يعبئها بالمسدس إلا عندما يستدعى الأمر ذلك ، وقد أصبح الآن مطمئنًا إلى أنه لن يصحو من نومه فجأة ليجد رجله أو رأسه فى فم « دب » أو « نمر » !

سبحت عند الشاطئ وحدى ، متمنيًا أن أكون فى أبى قير حيث لا يوجد سمك القرش ، وأخذنى هاملتون بعد ذلك ليرينى قرب الماء وغيرها من المعدات التى سأحملها معى ، وما كنت لأهتم بها لولا علمى أن حياتى معلقة على جودتها ، وبعد ذلك قص علىَّ هاملتون قصة حياته ، فعلمت أنه خريج تمبل جروف ، وأن له ابنًا يتعلم هناك ، وبعد تشعب الحديث إلى الجمال والقوافل والرمال ، أويت إلى الفراش آسفًا على الوقت الذى يضيع هباء .

٨ يونيو ١٩١٧ – يوم بائس ، لا أثر للجمال ، ولا خبر عنها منذ الصباح ، ولذلك طلبنا من الشيخ – الذى يؤكد أن كل شىء على ما يرام – أن يرسل من يبحث عنهم ؛ إذ نخشى أن يكونوا قد سرقوا فى الطريق .

وتجولت بعد ذلك على غير هدى دون أن أستطيع أن أقرر شيئًا ، وأعتبر نفسى مقصراً فى عدم استطاعتى ضبط المواعيد .

بعد الخامسة سرت فوق الرمال الساخنة إلى إرسالية ميلريا طالبًا نصيحته ، فوجدته يتحدث مع زوجته بالعربية الفصحى البليغة ، كما أن لديهما معرفة واسعة بأحوال الأسر الكويتية ونظام الحياة المنزلية ، عقوبة السرقة الضرب ، ولكنه – عادة – ضرب مميت . أرملة الشيخ مبارك الجركسية تزوجت من الشيخ خزعل ، ولكنها تعيش فى الكويت . وأن هناك كويتيات كثيرات يحضرن الصلوات بالإرسالية ، ويبلغ عدد المترددين عليها نحو ٢٠٠ شهريًا ، ولكن البلدة متعصبة بصفة عامة .

مقعدتى مازالت تؤلمنى ، ولم تلتئم جروحها بعد ، واستخدام الويسكى يسبب الألم دون فائدة ترجى ، وعاد هاميلتون ببعض الأخبار ، فلا شىء يعرف عن الجمال ، والشيخ سالم يقول إنها لن تصل حتى الغد ، وإن رسولين وصلا من عند ابن سعود فى ستة أيام ، ويقولان إنه فى الزلفى وليس فى بريدة ، وإنه يريد أن يبرم صلحًا مع ابن الرشيد ، معنى ذلك ليلة أخرى ويوم آخر هنا حتى تصل أخبار جمال الزبير ، وقد غادرت القافلة التى تضم ٦٠٠ جمل و٣٠٠ رجل مسلح الكويت صباح الأمس ، وفى العاشرة مساء وصل جملان من مجموعة جمال الزبير ، وقيل إن الباقى سيصل عند الفجر ، وعلمت أنهم ساروا بموازاة الساحل لتفادى التعرض للنهب .

٩ يونيو ١٩١٧ – استيقظت فى الخامسة والنصف ، وبدأت على الفور استقبال شيخ المحمرة الذى جاء يرد زيارتى له ، ووصل قبل أن أتهيأ لاستقباله ، وظل حتى التاسعة ، وكان هاميلتون فى الدور الثانى يتولى تحميض الأفلام حتى يترك لى ساعة من الوقت أخلو فيها إلى نفسى ، وبعد ذلك أطلعنى على خطاب خاص من ابن سعود مفاده أن ابن الرشيد يريد الصلح ، ولكنه لا يقبل بقطع علاقته بالترك والتوصل إلى تفاهم مع الشريف حسين ، وأن ابن سعود يرى أن خمسة آلاف الجنيهات التى يحصل

عليها شهرياً لا تكفى للمحافظة على نجد وتغطية نفقات إدارتها . ولم أحاول أن أسأل عما كان يفعله ابن سعود قبل أن يحصل منا على العون المادى . واقترحت على هاميلتون أن يرد عليه بالقول بأنه قد أبلغ حكومة صاحب الجلالة بذلك . ولم تقم المحمرة - التى وصل الخطاب عن طريقها - بإبلاغ فحواه لشيخ الكويت ، الذى كان يخشى استفحال أمره . وقد أرسلنا برقية شفرية إلى كوكس .

تسلم هاميلتون بريده الخاص الوارد من إنجلترا ، أما عن قافلتنا الصغيرة ، فقد سبقتنا الأمتعة بساعتين حوالى الخامسة متجهة جنوباً إلى الصبحية ، حيث سأغادر بصحبة هاميلتون . هنا علمت بما لو علمت به من قبل لما فكرت فى القيام بهذه الرحلة ، فالجمال النجدية تسير الهوينى مثل الجمال التى تحمل الطمى إلى الجيزة عبر جسر قصر النيل بالقاهرة ، كنت على استعداد لمواجهة الحر والعطش ، وطول السفر ، ولكن هذه المعلومة أضافت الكثير إلى آلام التسلخات التى أعانيها ، وكان وقعها على شديداً . وخلال ساعة جاءنى الجمال (مرشد) بالناقة « الخاتون » التى ركبتها ، وصممت على المضى قدماً حتى لو عجزت أقدامها عن متابعة السير .

لبست عباءة سوداء ، فهى وإن كانت غير ضرورية قبل الوصول إلى بريدة ، ولكنها أساسية عندما نصل إلى الحجاز . وقبل السابعة مساء توقفنا لصلاة المغرب ، ولم نتابع السير قبل الثامنة . وحددنا خط سيرنا بالاهتداء بكوكب الجدى، وبعد ذلك ترجلت ، وسرت على الأقدام لمدة ثلاث ساعات ، ثم تركنا الحملة تدبر الأمر ، ونمنا فوق الرمال الدافئة من الساعة ١١,٣٠ مساء حتى الثالثة من صباح اليوم التالى ، وبعد عشر دقائق من التوقف لصلاة الفجر ، مضينا فى الطريق مسرعين ، فالشمس تشرق قبل الخامسة ، وقد وصلنا إلى آبار الصبحية ، وآبار قوافل بريدة قبل السادسة . إننى أحاول جاهداً ضبط الوقت .

١٠ يونيو ١٩١٧ - استلقيت وهاميلتون وسط رياح السموم ، وكنا نشرب الماء بصورة مستمرة ، والماء بنى غامق ، وقد سد المرشح الذى أستخدمه بكمية من مادة لزجة مائلة للخضرة ، ولذلك لم يكن ثمة مفر من غلى الماء ، فاذا تعذر ذلك أضفت إليه مطهر « البرمانجانات » . وقدأثرت الحرارة على حواسى ، فلم أعد قادراً

على التذوق والشم وتحديد اللون أو درجة الحرارة (اللمس) ، ولم يعد الصابون يستجيب للماء .

وحوالى الساعة التاسعة سجل الترمومتر داخل الخيمة درجة حرارة ١٢٣ فهرنهيت (٥٠ مئوية) ولم نحاول أن نعرف كم بلغت درجة الحرارة فى الشمس . فالأمل هو حماية الرأس وشرب الماء ، والتفكير فى المرحلة التالية ، فهناك بئر كل ثمانية أيام ، ويجب علينا الحفاظ على الماء ، فالقرب الممتلئة تعنى الحياة ، والفارغة تعنى الموت . لقد كان النوم مستحيلا فى الخيام ساعة الهجير ، خاصة أن السير كان يتم ليلا ، وقدقدم هاميلتون طعام الغداء لأمراء القافلة ، وقال إن ذلك سوف يدعم مركزى عندهم .

كان هاميلتون والشيخ سالم لا يزالان يخشيان تعرض القافلة لغارة البدو ، وطلبا منى الالتزام بنصائحهما ، وأن علىَّ أن أقلد ما يفعله هاميلتون الذى يجلس بين البدو يبادلهم الحديث ، ويمزق اللحم بيده مثلهم ، وهى أمور لم أتعود عليها ، وكانت موضع اشمئزازى ، ولكن لا مفر منها .

فى الحادية عشرة مساء ، ودعنى هاميلتون عائدا إلى الكويت . عندئذ علمت أن الناقة لا تصلح لهذا السفر ، وأن علىَّ أن اختار جملاً من بين الجمال الثلاثة والعشرين « الدلول » لكى أركبه أو بعبارة أخرى كان علىَّ أن أختار أقلها بطئًا . ولم نتحرك قبل منتصف الليل ، وسرنا دون توقف حتى أوقفنا قيظ التاسعة صباحًا . وفى المساء تأخر تحركنا انتظاراً لضوء القمر .

١١ يونيو ١٩١٧ – عانى خادمى سعيد كثيرًا دون أن يشكو ، وكم كنت أتمنى أن أجد من يساعده . تحركت القافلة فجأة حسب قرار « الأمير » ، وبلغ الجميع من الإرهاق درجة جعلت السير مستمراً ، فقد فقدنا الإحساس بالتعب ، وما لبث أن طرحنى الإعياء أرضًا وشغل مرشد وسعيد بأمرى ، حتى أفقت ، وكانت القافلة قد تركتنا ظنا منهم أننا توقفنا لقضاء الحاجة . وغابوا وراء خط الأفق ، فانزعج مرشد وأخذ يستحثنا على متابعة السير . فتحاملت على نفسى وبدأنا السير فى الحادية عشرة ، وقد غابت عنا القافلة ليوم كامل .

١٢ يونيو ١٩١٧ – سرنا حتى الساعة الثالثة والنصف صباحًا ، ثم نمت لمدة ساعة واحدة ، وتابعنا السير حتى الثامنة إلا الثلث فى الطريق إلى الصبيحة عائدين إلى الكويت لقرب نفاد الماء ، ونجحنا فى العودة والوصول إلى بيت هاملتون فى الثامنة والنصف فى غاية الإنهاك والتعب حيث اغتسلنا ونمنا عدة ساعات .

استيقظت لأجد هاميلتون يقدم لى الفاكهة المثلجة ، وعلمت منه أن ابن سعود قد ذهب إلى الرياض ، مما كان سيشكل انحرافًا كبيرًا فى خط سيرى إلى الحجاز ، والذى كنت أتمنى أن أبلغه قبل رمضان ، وإلا أصبحت مناقشة أى أمر مستحيلة . وعلمت أن بريدى الخاص وصل بغداد يوم ٣١ مايو ، وأرسل إلى الكويت فوصل بعد تحرك القافلة ، وأن هاميلتون أرسله مع اثنين من البدو ليلحق بى فى قلب الجزيرة العربية . ولا أدرى متى أستطيع الحصول عليه ، أبرق هاميلتون إلى كوكس يقترح أن أتابع السير بالباخرة بالينتانا التابعة للهند البريطانية ، وأرسلت له برقية شفرية طالبًا تزويدى بالتعليمات .

هبت ريح شمالية عاتية ، قد تؤخر وصول الباخرة يومين أو ثلاثة ولكننى لم أعد أكترث لشىء بسبب ما أعانيه من إرهاق شديد ، أخبار سيئة من رويتر : روسيا ، والغارات الجوية على لندن ، والفشل فى عقد القرض الأمريكى ، نمت طوال اليوم ، وفى المساء تلقيت رسالتى مجاملة ومواساة من شيخى الكويت والمحمرة .

١٤ يونيو ١٩١٧ – ليلة طويلة مريحة ، ولكنى مازلت أشعر بالضعف . ركبت السيارة مع هاميلتون لتقديم الشكر إلى خزعل وسالم على مجاملتهما ، وقد أبدى خزعل ضيقه وغضبه من تصرف أمير القافلة الذى تركنى ومضى ، وقال إن ذلك السلوك سمة غالبة على بنى قاسم (شمال غرب نجد) ، وفى القنصلية وجدت برقيات من كوكس تتضمن تعليمات واضحة يمكن تنفيذها . استعاد هاميلتون أمتعتى ، ولاحظ أننى لم أحمل معى سوى الملابس العربية لاستخدامها حتى الوصول إلى القاهرة . ريح الشمال عاتية ، كتبت تقريرًا لكوكس ثم نمت متعبًا .

١٥ يونيو ١٩١٧ – زادت قوة رياح الشمال حتى إن البحر أصبح مجال الرؤية فيه لا يتجاوز ٢٠٠ متر ، ومن الجنوب بدت الصحراء وكأنها تزحف لتغطية المدينة

ببيوتها . وأعاقت العاصفة الملاحة ، ولما كانت الباخرة بالنتانا تحمل ١٢ ألفًا من الطرود التى يجب تفريغها هناك ، يبدو أن ثمة احتمالاً أن تنتظر أيامًا ؛ لذلك أبرقت إلى البصرة سائلاً عما إذا كان باستطاعة الباخرة شارل تلبيه المتجهة إلى عدن والسويس أن تتوقف هنا لتأخذنى فى طريقها . أعانى - كعادتى - من الضيق والقلق كلما لم يكن هناك ما أفعله ، وكلما غاب الاهتمام بى ، عندئذ أصبح محطمًا .

وعلى مائدة العشاء نصحنى هاميلتون بضرورة أن أكون « متواضعًا » ، وأن أقبل السفر على سفينة من الدرجة الثانية . أظنه على حق ، ولكن ذلك بالنسبة لى مثل شرب كوب من الشاى الردىء مع وضع ثلاثة قوالب من السكر فيه . قدمت له قائمة ليقرأها ، وأعطانى بدوره اثنتين أو ثلاثًا ، معنوياتى سيئة ومازلت أعانى ضعفًا لن أتخلص منه إلا إذا جاءت ريح الشمال باردة نظيفة . خلدت إلى النوم فى التاسعة والنصف .

١٦ يونيو ١٩١٧ - جاءتنا الأخبار أن بالنتانا لن تستطيع الإبحار قبل الأحد وربما الاثنين ، ، الجو معتم مكفهر محمل بالرمال . سرت مع هاميلتون إلى رصيف إمداد الفحم الخاص بالبحرية الملكية للتمشية وتبادل أطراف الحديث ، وهو يرى أن نهاية الحرب ستشهد ركودًا فى العمل والاستثمار ، ولكنى أرى أن الأمور ستصبح عكس ذلك تمامًا ، وتجولت فى السوق ، فلم أجد ما يزيد من حيث الجودة عما رأيته فى النجف ، ويلاحظ كثرة العملة الذهبية الإنجليزية التى لابد أن تكون قد تم شراؤها .

١٧ يونيو ١٩١٧ - وضعت أمتعتى فى القارب وأبحرت من الشويخ فى اتجاه بالنتانا ، وقبل أن نصل إليها زاد هبوب الرياح فاضطررنا للعودة إلى الميناء ، واعتبرنا أنفسنا محظوظين لنجاتنا من الغرق ، وهكذا قضيت يومًا آخر بالقنصلية ، نمت معظمه، وعند الغروب « تمشينا » باتجاه الشمال ، نتعجب لوفرة الموارد فى هذا الركن القفر من العالم ، حيث يعود الكثيرون كل عام من البحرين وفى جعبتهم ٤٠ ألف روبية .

ووفقا لما يذكره هاميلتون ، فإن حياة الشيخ سالم من ناحية تأمين ثروته ، ليست جيدة ، وأن بخله الشديد وتقتيره ، وحرصه الزائد على تحرى الدقة فى التعامل المادى سوف يقضى عليه يومًا ما .

وصلت إلى ظهر الباخرة بالنتانا فى التاسعة ، وعلمت أن الدكتور ميلريا وزوجته يسافران على نفس الباخرة فى طريقهما إلى كشمير . وودعت هاميلتون شاكراً له فضله . وعمر الباخرة ٣٣ عاماً ، ولكن أوناشها التى تعمل بضغط الماء تجعل النوم ممكنًا ، لذلك نمت فى الباخرة فى العاشرة والربع .

١٨ يونيو ١٩١٧ – يوم شديد التوتر ، استيقظت فى السادسة لأعلم من الربان أن تفريغ البضائع التى تحملها السفينة بدأ ليلاً ، وأنه إذا أسعدنا الحظ فسنبحر عند الظهر ، ولم يكن لدى أحد اقتراح يتقدم به ، لذلك أرسلت خطاباً بالعربية للشيخ سالم طالبًا منه بذل ما يستطيع من جهد ، وخلال ساعة جاءت ثمانية قوارب بخارية لتفريغ البضائع ، وبذلك لن نتأخر عن الإقلاع مرة أخرى . وإذا كانوا قد أبلغونى بذلك مساء الأمس لكنا قد أبحرنا عند الفجر ، ولكن وكيل شركة الهند البريطانية بالكويت رجل ضعيف الشخصية يخاف من هاميلتون والشيخ سالم معًا . وبرغم ذلك لم نبحر إلا الساعة ٤,٤٠ بعد الظهر ، وقد شكرنى الربان بعد ذلك ؛ لأنه لولا تدخلى لتأخر الإبحار ليوم كامل . وجاء سفرى بعد أسبوع كامل من ضربة الشمس التى أصابتنى فى الصحراء ، ولكنى مازلت ضعيف البدن منهك القوى ، مستاء لعدم نجاح المغامرة التى تمنيت القيام بها ، وكان على الباخرة بالنتانا أن تتوقف فى ميناء جوادار ويسنى فى طريقها إلى كراتشى حيث تتوقف هناك أربعة أيام . فقررت أن أذهب إلى كويتا لرؤية أخى برنارد (ضابط بالمدفعية) وأتجه برا إلى بومباى لألحق بباخرة أخرى هناك . لابد أن يكون بريدى عن الأشهر الثلاثة الماضية قد وصل إلى وسط الجزيرة العربية .

١٩ يونيو ١٩١٧ – علمت أن بالنتانا تستطيع الإبحار بسرعة ١٢ عقدة فى الساعة عندما تكون بحالة جيدة ، وأنها الآن تسير بسرعة تتراوح بين ١٠ – ١١ عقدة فى الساعة ، قرأت بعض الكتب ، ونمت قليلاً فى جو أفضل نسبيا ، وعلمت من ميلريا أن أى عربى لا يستطيع المغامرة بعبور الجزيرة العربية فى هذا الوقت من السنة إلا إذا حصل على أجر خيالى ، ولا يستطيع عربى أن يغادر بيته فى الكويت فيما بين الحادية عشرة صباحا والثالثة بعد الظهر .

٢٠ يونيو ١٩١٧ – قبل الغروب ، بدا تل رأس مسندم الصخرى المرتفع شديد الانحـــدار ، وكأنـه قد خرج من وسط بحيرة يغلى ماؤها ، وعبرنا بعد ذلك مضيق هرمز ، وعند تناول العشاء أعلن الربان أننا سنصل إلى كراتشى بعد ظهر الأحد بدلاً من صباح السبت ، فكان هذا الإعلان بمثابة ضربة قوية لى . فقد تحالف سوء الحظ مع سوء التدبير ليحولا بينى وبين رؤية كويتا وأجرا ودلهى ، ناهيك عن عدم استطاعتى تسلم بريدى المتأخر . سعيد يشكو دائمًا من ارتفاع درجة الحرارة ، وأويت إلى الفراش فى العاشرة والربع ، وإن كان صفير الرياح يجعل النوم صعبًا .

٢١ يونيو ١٩١٧ – أطـــول أيام السنة بكل المقاييس . المزيد من الضيق والنصَب مع اقتـــراب الرياح الموسمية . وقد ذكر لنا الربان أن هذا أسوأ يوم واجهه منذ ١٨ شهرا ، ولكننى أستطيع عامة تحمل الحر، ولكنى لا أستطيع تحمل التعرض للشمس مرة أخرى .

٢٢ يونيو ١٩١٧ – وصلنا جوادار التابعة لمسقط على ساحل بلوشستان الساعة العاشرة والنصف تقريبًا ، ونقوم بتقديم الساعة ١٥ دقيقة كل يوم . مجرى الإبحار هادئ محمى بالصخور العالية . وتمنينا أن تنتهى مهمة شحن البضائع من هذا الميناء عند الواحدة بعد الظهر ، حتى نصل إلى بسنى فى الثامنة مساء . ولذلك انتظرنا وسط جو خانق شديد الرطـوبة ، شغـلت خلاله بقـراءة بعـض الكتـب . ميلريا أرسـل إلى الشـاطئ مـن يبحـث عـن دواء لمعالجـة الضـابط الثالث للباخرة ، وكم كنت سعيداً بأن أعطيه تلك الأدوية مما أحمـله معى ، وقـد قضـينا ليـلة ليلاء منذ أبحرنا فى التاسعة مساء .

٢٣ يونيو ١٩١٧ – كان الجو خانقًا حارا طوال اليوم ، صعب التحمل حتى إنى لم أفكر فى عمل شىء فى هذا اليوم . وبدأت ضجة ورائحة عمليات الشحن والتفريغ من الثامنة صباحًا حتى الواحدة والنصف بعد الظهر ، وقد لاحظت مدى التوتر الذى يعانيه الضباط ، بل أحيانًا كنت أستحث العمال بنفسى على سرعة إنجاز العمل . ازداد حال الرياح الموسمية سوءًا ، ولذلك لم أغامر بتناول العشاء تفاديا لقىء محقق ، وأويت إلى الفراش فى التاسعة والربع .

٢٤ يونيو ١٩١٧ – مازلت متماسكًا برغم الرجفة التى تعترينى ، وصلنا كراتشى فى العاشرة صباحًا ، ولكن احتاج الرسو فى الميناء إلى ساعتين ، فلم أستطع الوصول إلى مقر الحكومة حتى الواحدة والنصف ، حيث تلقيت فور وصولى برقية من كبير ضباط البحرية فى بومباى طالبًا منى الوجود فى بومباى مساء الثلاثاء ، وهو أمر مستحيل التحقيق ، ولكنى أظن أن السفينة الموعودة لنقلى من بومباى إلى السويس ربما تكون « نانكن » الفظيعة ، وذهبت إلى بيت لورانس ، وقد علمت منه أننا لن نكتفى بإدارة بلوشستان ، بل سنقوم بضمها إلى الإمبراطورية إلى جانب جنوب فارس ، متخذين من شاهبار ميناء وعاصمة للمستعمرة الجديدة ، وهو يرى الاعتماد على صغار الموظفين الهنود للخدمة فى العراق .

ذهبت إلى بيت تيدهور لتناول العشاء ، وكانت هناك امرأة موسيقية تقيم فى البيت ، وهى براهمية باتشية ، أعادت إلى ذاكرتى الحضارات الجميلة القديمة المسالمة ، نمت عند منتصف الليل . سقط ثعبان من سقف الحجرة على رأس سعيد ، ولكنه استطاع أن يقتله ، على حساب أعصابه طبعًا .

٢٥ يونيو ١٩١٧ – غادرت محطة كراتشى بالقطار حوالى الساعة الحادية عشرة ، وهو قطار مريح نسبيًا ولكن الجو شديد الحرارة ، وبعد عبور السند من المفروض أن نعبر الصحراء ، ولكن أثار دهشتى وجود الأحراش بها ، مع القليل من الكثبان الرملية ، وهى مرصعة بالبساتين والأشجار والقرى . وأسوأ ما فى هذا الخط الضوضاء الشديدة التى تجعل المسافرين يعجزون عن سماع أصوات بعضهم البعض . نمت قليلاً بصعوبة بالغة ، والمناظر الطبيعية : التلال البعيدة ، والأشجار ، والأرض السوداء ، والماء ، والحشائش تقدم – برغم بساطتها – لمسات أكثر إنسانية من دلتا النيل المكتظة التى تنتج الكثير من المحاصيل والأموال . وقد تابعت مجموعات من الطواويس قطارنا وهى تنظر إليه بفضول .

٢٦ يونيو ١٩١٧ – عندما وصلنا إلى تقاطع ماروار عند الظهر ، علمنا أن قطار بريد أحمد أباد – بومباى قد غادر بالفعل بسبب تأخر قطارنا فى الوصول ساعة ونصف ساعة ، ولم يكن مسموحًا لناظر المحطة بتأخير قطار البريد أكثر من ١٥ دقيقة ،

ومعنى ذلك أننا نصل إلى بومباى متأخرين يومًا كاملاً ، ومن ثم لا نلحق بالباخرة المتجهة إلى السويس ، ومع ذلك أبرقت إلى البحرية طالبًا تأخير إقلاع الباخرة ، وأن يردوا مباشرة فى حالة تعذر ذلك حتى أذهب - فى هذه الحالة - إلى دلهى وأجرا .

ولما لم أتلق أى برقيات من بومباى ، غادرت ماروار - مترددًا - فى الخامسة مساء ، وأيقظنى منتصف الليل ضابط شاب ليعلمنى أننا قد وصلنا إلى جبل أبو ، حيث كان قد أمر بإعداد العشاء لنا هناك ، ولم تكن لدى رغبة فى تناول الطعام فى هذا الوقت المتأخر ، ولكنى تركت مقصورتى ، وأخذت أقطع رصيف المحطة جيئةً وذهابًا ، ولكن لم يكن هناك عشاء فعدنا إلى قواعدنا ، نتندر بالموقف الذى قطع نومنا وسط الحر الشديد .

٢٧ يونيو ١٩١٧ - مررنا طوال اليوم بريف مماثل تمامًا للريف الإنجليزى ، ووصلنا أحمد أباد الساعة الحادية عشرة والنصف لنقضى ساعتَىْ انتظار ، فأخذت رفاقى فى عربة للتجول فى المدينة ، وهى مدينة متعددة الألوان ، ولكنها أقذر من أى قرية مصرية . وعندما ترى هؤلاء الناس وسط الزحام تستطيع أن تقارنهم بالمصريين ، وإن كانت الحالة البدنية للفلاح المصرى أحسن بكثير ، ولكن ملامح الفلاح المصرى لا تقترب من ملامح الهندى التى تتسم بقدر من الوسامة تعود إلى أصلهم العرقي الآرى. ومررنا بمسجد المدينة الذى بدت عقوده أوربية الطراز ، كما زرنا مسجدًا صغيرًا آخر ، وكلاهما له قبة مكسوة . وقد استقبلنا الناس بالترحاب ، وبرغم عدم معرفتهم للعربية كانوا يصححون بعض الأخطاء التى وردت فى الآيات القرآنية التى استشهدت بها فى حديثى معهم . كانت القرود الكبيرة تمرح فوق سقف المحطة عندما تحرك القطار ، وساعدنى امتداد الخضرة على طول الطريق على متابعة النظر عبر النافذة دون استخدام نظارة واقية للضوء . وقضينا اليوم بالقطار ثم توقفنا فى باروده لتناول الشاى فى السادسة مساء ، وتناولنا العشاء فى العاشرة عند سورات ، وأوينا إلى الفراش لليلة الثالثة بالقطار .

٢٨ يونيو ١٩١٧ – كان مـن المقـرر وصولنا إلى بومباى فى السادسة ، ولكن لم أدهش عندما علمت فى السابعة أن محور عجل عربة القطار قد كسر ، وأننا سنصل متأخرين ساعتين ونصف ساعة . وتم ركن القطار على قضيب التخزين تمهيداً للإصـلاح ، فجلسنا فى تلك الضاحية القفر نرقب القطارات ، التى أتت بعدنا ، تمر بنا ، بما فى ذلك قطار البريد الذى كنا قد تركناه فى ماروار . وفى الثامنة نفد صبرى ، فقفزت فى أحد تلك القطارات بملابس النوم ، فوصلت إلى محطة تشيرش جيت فى الثامنة والنصف ، وأرسل جوكس رجلاً لمقابلتى ، فأخذنى بالسيارة إلى مقر الوزارة تحت مطر كأفواه القرب ، حيث استقبلنى كوندرسلى (وكيل المقيم العام البريطانى) فى جناحه المريح المتسع الحجرات ، واكتشفت أننى لم أستطع اللحاق بالبريد .

وبعد الإفطار مباشرة ، ركبت سفينة نقل هندية صغيرة تدعى « بورينا » ، وفى طريق العودة اشتريت بعض الملابس والكتب ، وشوارع وسقوف ومنازل بومباى دليل على ما باستطاعتنا عمله إذا لم تغل أيدينا الامتيازات الأجنبية . وزرت نادى الشطرنج حيث رحب بى الأعضاء ، وأويت إلى الفراش مبكراً ، ولكنى لم أستطع النوم من شدة الإنهاك والضعف ، فتناولت حبة أفيون ، ونمت قرب منتصف الليل.

٢٩ يونيو ١٩١٧ – تجولت فى المدينة بصحبة خادمى المصرى سعيد الذى يعتقد أن المحلات الكبرى هنا ليست سوى فروع لمحلات القاهرة . تناولت الغداء مع جوكس وزوجتـه الجميلة بنادى اليخت الفخم الذى لا نملك نظيراً له فى القاهرة . يرى كوندرسلى أن البارسى مثل القبطى ، والهندوسى مثل المسلم فى مصر ، فالبارسيون يتسمون بالنشاط والقدرة على الاستيعاب والثراء ، بينما الهندوس يتسمون بالخمول وأكثر تعبيراً عن الأرستقراطية ، ولا هم لهم – كالمصريين – سوى التوظف فى الحكومة ، وهم لا يلقون بالاً للمسائل المهمة الأساسية مثل قانون هيئة ميناء كراتشى فى محاولة منهم لإقحام الجـوانب السياسية التى لا علاقة لها بالمسألة ، فالسلوك عندهم يرتبط نسبيا بالمطالب . ولكنى أظن أننا لا نختلط بما فيه الكفاية بالفئات الأكثر اقتناعا بأعمالنا بشكل أفضل مما نفعل بمصر .

حملنى كوندرسلى بسيارته فى جولة بالمدينة : تل الملبار ، وأبراج السكون ، والفيلات الفخمة الرهيبة ، والبساتين الغنية الرائعة . استرحنا قليلاً فى فندق « تاج » القبيح الشكل ، ثم عدنا إلى نادى اليخت حيث تحدثنا إلى وليامسون أستاذ الرياضيات بكلية إلفنستون الذى يعرف أخى فرانسس ، وسبق له مرافقته فى إحدى الرحلات ، فقال لنا إن معدل معرفة الهنود بالرياضيات مرتفع جداً ، وأدهشنى قوله إن الهندوس يفوقون البارسيين فى هذا المجال ، وأظن أن ذلك يعود إلى توافر العزم والإصرار على النجاح .

٣٠ يونيو ١٩١٧ – ركبت فى العاشرة العبارة الصغيرة القذرة « برونيا » التى تحمل القوات الهندية مباشرة إلى السويس ؛ لذلك لن أتسلم البريد قبل وصولى إلى هناك ، وبذلك لم أتلق أى خطاب من إنجلترا منذ غادرت القاهرة فى هذه الرحلة الطويلة .

٨ يوليو ١٩١٧ – قضينا ثمانية أيام بلياليها وسط الرياح الموسمية دون أن تلوح عدن فى الأفق ، وكانت « بورنيا » التى تقل حمولتها عن ألفى طن ، تحمل على متنها أكثر من ٨٠٠ فرد من الباتان للعمل بفرنسا . وقد أبحرنا تحت أمطار كأفواه القرب ، وسرنا فى طريق متعرجة حتى نتفادى الألغام البحرية التى أغرقت إحدى السفن الأسبوع الماضى . وكانت العبارة البائسة ألعوبة فى يد الأمواج حتى إننى طرت ذات مرة لأصطدم بسقف المقصورة ثم تقاذفت حوائطها جسدى فيما بينها ، وكان من حسن ظنى أن عظامى خرجت من هذه المعمعة سالمة دون كسور ، ولكنى لزمت الفراش سبعة أيام متصلة ، عانيت آلاماً حادة فى العمود الفقرى والمقعدة ، ولم آسف لعدم استطاعتى الوقوف لمشاهدة الأمواج تدفعها الرياح الموسمية كاندفاع الجيش الألمانى لغزو بروكسل . ولم أتناول سوى الشاى خلال ذلك الأسبوع ، وبلغ بى التعب درجة فقدان الرغبة فى استعادة العافية ، وتحسنت حالتى تدريجيا ، وبدأت أتناول القليل من الطعام ، وأمارس القراءة ، ولكن بصعوبة بالغة بسبب ما أعانيه من إنهاك شديد . وكم أتمنى أن أحصل على إجازة لمدة أسبوعين أقضيهما فى إنجلترا .

١٢ يوليو ١٩١٧ - صدر بالأمس أمر إلى الباتان بضرورة الاستحمام إجبارياً على أن يتولى كل منهم تنظيف جسد الآخر بالصابون وقد نفذ هؤلاء الأمر على مضض ، وتم تطعيمهم جميعاً ، أصيب سعيد بالحمى ، وهو - كغيره من المصريين - يظن أنه قد أصبح على وشك الموت . وقد وردت برقية تفيد انضمام اليونان إلينا فى الحرب ، وبذلك ستتسع دائرة المطالب وتزداد الأطماع فى تحقيق المكاسب .

١٤ يوليو ١٩١٧ - وصلنا إلى السويس فى الرابعة صباحًا ، وغادرت « برونيا » بقارب كبير ضباط البحرية الساعة السادسة والربع ، وبذلك لم أستطع اللحاق بقطار القاهرة الذى يغادر السويس الساعة ٦,٤٥ صباحًا . فذهبت إلى مكتب البريد البريطانى لأعلم أن بريدى لم يصل بعد . وتمشيت حتى الثامنة والنصف ، وأرسلت برقية إلى عدن أطالب بإرسال البريد . وغادرت السويس فى العاشرة فوصلت إلى الإسماعيلية فى الواحدة بعد الظهر ، واتصلت هاتفيا بويميس الذى أرسل إلىّ سيارته الرولز رويس لتناول الغداء معه . واتصلت هاتفيا بجيمى واطسون (السكرتير العسكرى للمندوب السامى) فعلمت أن الجميع بخير فيما عدا إصابة تشيتهام بالحمى وانتظاره الشفاء حتى يغادر مصر لقضاء إجازته . وسمعت عن استدعاء مورای ووصول أللنبى .

وصلت القاهرة الساعة الخامسة تقريبًا ، ولم أجد إسماعيل (خادمى الآخر) فقضيت الليلة فى الترف كلوب . ورأيت كلايتون وتناولت العشاء معه ، فعلمت منه أنه رفض تولى منصب وكيل المندوب السامى فى العراق شارحًا أسباب الرفض ، أظن أنه فعل ذلك انتظارًا لوظيفة مستشار الداخلية ، وحذرنى من إمكانية أن يعرض علىّ منصب فى العراق .

١٥ يوليو ١٩١٧ - أبلغنى إسماعيل بأن جميع الصحف أعلنت خبر انتقالى نهائيا للعمل فى بغداد ، وأن نشر الخبر « بالمقطم » أكد صحته . ولم يكن أحد يتوقع عودتى إلى القاهرة . التقيت فارس نمر (رئيس تحرير المقطم) من الثانية والنصف إلى الثالثة والنصف ، وأبدى سعادته لعودتى ، وعبر عن أمله فى أن أظل بمصر .

غادرت القاهرة بالقطار إلى الإسكندرية فى الرابعة والربع بعد الظهر ، فوصلت إلى محطة سيدى جابر فى الثامنة . قابلنى واطسون على المحطة وأخذنى إلى دار المندوب السامى حيث تناولت العشاء مع وينجت (المندوب السامى) وزوجته ، ولم يكن هناك أحد غيرى ، وحدثتهما عن رحلتى . ضاحية الرمل هادئة وجوها منعش .

١٦ يوليو ١٩١٧ – جعلونى أتناول طعام الإفطار بالدور العلوى ، وفى التاسعة طلبت من ونجت أن يوافق على قيامى بالإجازة ، عندما أبلغنى العرض المقدم من وزارة الخارجية بتعيينى سكرتيراً شرقياً فى بغداد براتب سنوى ألف جنيه إسترلينى ، وعندما لاحظ عدم تحمسى للعرض ، سألنى عن انطباعى عن هذا الاقتراح ، فتحدثت بطريقة سلبية ، وقلت إننى أفضل مناقشة هذا العرض مع وزارة الخارجية فى لندن فى أثناء وجودى هناك ؛ فوافق على ذلك وأرسل للخارجية برقية بهذا المعنى .

الفصل الحادى عشر

بين مصر وإنجلترا

(صيف وخريف ١٩١٧)

مضت الحياة فى القاهرة والإسكندرية قدمًا إلى الأمام فى هدوء تام ، أناس يكونون الثروات ويسرفون فى الإنفاق ، تجولت كثيرًا بالأسواق ، فلاحظت هبوط مستوى السلع المعروضة وقلة كمياتها ، ولكن يبدو أن بعض المشترين المتسرعين أو الذين لا يملكون قدرة التمييز بين الغث والسمين قد اجتذبهم السجاد الشرقى فراحوا يقبلون على الشراء دون تمييز (على طريقة : ومن يضمن فرصة أخرى للشراء ؟!) .

وتحولت الثورة (العربية) فى الصحراء إلى نموذج عملى وليس مجرد فكرة نظرية . وقد هنأنى التجار الذين يتعاملون مع العرب مثل عبد الله كحال ، وأخذوا يتساءلون عن الفرصة التى يستطيعون فيها الفوز بشرف تناول القهوة اليمنية أو الشاى الفارسى معى .

وفيما أعلم ، لم يقم لورانس بزيارة الأسواق مرة أخرى ، ولكن هناك تغييرًا فى الروح المعنوية للجيش ، فقد طوى الضباط الذين قابلتهم صفحة جاليبولى ، وتعلقوا بالأمل من جديد الذى يرتبط عندهم بقدوم القائد الجديد الذى ترك فرنسا ، وهو عندهم مناسب تمامًا ، وبدا هذا القائد وكأنه مقنوف نارى ، ولكن عندما يستقر على الأرض لا يلحق الضرر بأحد .

وممرضات المستشفى اللاتى كن يعملن ١٨ ساعة يوميًا ، منحن الآن بعض الراحة ، أتاحت لهن المشاركة فى حفلات الرقص ، وأبدت الليدى أللنبى تعاطفًا كبيرًا معهن .

بدأ الناس يقولون إن الأتراك سوف يندمون يومًا ما على قيامهم بالحملة العسكرية عبر سيناء .

إن مصر من البلاد التى يساعدك مناخها على العيش بصحة جيدة ، ولكن إذا ساءت صحتك ، يصعب عليك استعادة عافيتك مرة أخرى ، لم أتخلص من آثار شمس الجزيرة العربية ، ونصحنى الطبيب أن أستنشق بعمق هواء أوروبا النقى بعد ثلاث سنوات من الغياب عن الوطن .

لذلك غادرت بورسعيد على ظهر السفينة « مولتون » في الطريق إلى الوطن أقرأ من بريدي الذي ملأ كيسين يزنان مائتي رطل ، تراكم على مدى أربعة أشهر . ولما كنا نبحر في وقت ازداد فيه نشاط غواصات العدو ، فقد كانت برفقة باخرتنا والباخرة « لوتس » طرادتان يابانيتان تحملان الطوربيدات ، ولذلك كان علينا أن نوفق سرعتنا مع سرعة لوتس البطيئة ، وكان ذلك ضرورياً ليتاح للطرادتين فرصة الالتفاف حولنا لتأمين مسارنا من غواصات الأعداء .

لاحظت عند تناولي الغداء والعشاء أن جاري يشرب مع كل وجبة زجاجة كاملة من الشمبانيا ، وليلة غادرنا مالطة أحرجني بقوله إنه لاحظ مراقبتي له ، ونظري إليه ، وإن ذلك قد يرجع إلى ما يتناوله من شراب . ورغم أنني لم أعتد ذلك ، إلا أنني اعترفت له أن إفراطه في الشراب كان سبب فضولي ، فقال : « لا بأس إذن ، إنني أسرف في شرب الشمبانيا على متن الباخرة ؛ لأنني لا أستطيع شراءها على البر .. كما أن هذه الباخرة سوف تغرقها الطوربيدات وستغرق معها فاتورة الحساب ، ومعنى ذلك أنني لن أدفع شيئًا » . وفي السابعة والنصف مساء اليوم التالي - ٢٦ يوليو - كنا على بعد ميل من جنوب صقلية ، وإلى جانب كل منا أحزمة الأمان عندما انطلقت صفارات الإنذار على ظهر الباخرة ، فهب الجميع وقوفًا إلا صاحبنا هذا الذي انتظر حتى أفرغ آخر كأس في جوفه ، وقال هامساً : « ألم أقل لك ؟! » .

لم يكن عندنا شعور بالفزع أو حتى بالعجلة ، فقد حملنا أحزمة الأمان وصعدنا إلى السطح ، وذهبت إلى المقدمة ورأيت ضابطين وثلاثة من البحارة يحملقون في فقاعة كبيرة بيضاء كانت تتقدم نحو الباخرة ، وتمت إدارة الدفة بشدة وزيدت سرعة الباخرة للابتعاد عن تلك الأشياء الصغيرة التي تعترض مسارها . ولكن السرعة لم تكن بالقدر الكافي ؛ فبمجرد تجاوز ذلك الشيء للسفينة شعرنا بهزة شديدة ، وسرعان ما أبطأت الباخرة السير حتى توقفت المحركات تماماً .

ورغم أن الطقس كان بديعًا إذا ما قورن بفظائع خليج فارس وبحر إيجه ، نادراً ما واجهتنا المتاعب ورغم أن ذكرى تلك الأمسية بما فيها من سخرية وما انتهت إليه من شعور بالنجاة من الخطر ، إلا أنها كانت كابوساً مزعجًا بالنسبة إليَّ . ونظرت إلى

مقصورة القيادة فرأيت ربان السفينة يخلع حلته الرسمية الصيفية ويرتدى بدلة من التويد (الصوف الثقيل) ، وصاح أحد ضباط البحرية الملكية بأعلى صوته « تخلصوا من كل أكياس البريد الرسمى فوراً » ، وإذا كان باستطاعتى أن أحتفظ بالكيسين الخاصين بى ، إلا أننى كنت أحمل كيساً ثقيلاً من بريد دار المندوب السامى إلى الخارجية البريطانية . واكتشفت أن بعض من لم يسمعوا النداء احتفظوا بما معهم من بريد (وكذلك فعلت) .

كانت الباخرة لوتس قد هرعت تبحر بعيداً عنا ، بينما أخذت إحدى الطرادتين تحوم حولنا ، وتلقى بالقذائف على الغواصة ، وقد لفت الباخرة بسحابة من الدخان ، ورغم ظننا أن باخرتنا « مولتون » لم تصب ، اضطررنا لإخلائها فى قوارب النجاة إلى سطح إحدى الطرادتين مستخدمين سلالم من الحبال هبوطاً من باخرتنا وصعوداً إلى الطرادة التى كانت مستمرة فى إطلاق النار فى أثناء ذلك دون توقف . ولحق بنا فى آخر قاربى نجاة ربان مولتون وضباطه ومهندسوه تاركين السفينة فى الساعة الثامنة والربع . والتقطت صورتين لمولتون وهى تغوص قليلاً إلى الأمام ، ورغم مرور ساعة كاملة قبل أن تختفى عن أنظارنا كانت لا تبدو فى طريقها إلى الغرق ، ترى ، لماذا لم نشرب جميعاً الشامبانيا ؟!

قسمت الطرادتان ركاب ميلتون فيما بينهما ، وهرعتا لحماية « لوتس » . وقدم لنا البحارة الشاى مع الخبز والمربى ، وقد استلقينا متجاورين على سطح المركب المعدنى. وفى ظهر اليوم التالى نزل ربان الطرادة من غرفة القيادة ، وألقى كلمة بلغة إنجليزية سليمة حاول فيها أن يبعث الطمأنينة فى نفوسنا ، وقال إننا نمر بالجزء الذى يعد نشاط الغواصات فيه الأكثر كثافة فى البحر ، وإننا فى أمان مادمنا لا نقترب من المدافع حتى يمكن استخدامها بسرعة عند الحاجة . وقبيل الغروب علمنا أن قارباً بخاريا يتبع الشركة المالكة لمولتون سيقوم بنقلنا إلى فندق فى مرسيليا .

ودخلنا الميناء بعد حلول الظلام ، وسعدنا بالانتقال إلى القارب البخارى بعد تأخر قليل ، ووصلنا إلى فندق جراند أوتيل الفخم نسبيا .

ولا حدود للكرم والمعاملة الحسنة التى لقيناها بما فى ذلك نقلنا مجانا بقطار خاص إلى لندن ، وتزويد من فقدوا مالهم بالنقود . وأبرقت إلى السفارة البريطانية فى باريس بكلمة « منحوس » (التى تمنيت استخدامها لسنوات) وفى باريس - التى كانت عندئذ مدينة أشباح - كوفئت بحجرة فى فندق ريتز بأجر عشرة فرنكات فى الليلة الواحدة .

وجدت نفسى بعد ثلاث سنوات فى المنفى أصل إلى إنجلترا أخرى تختلف عن تلك التى عرفتها : رمادية ، كئيبة ، موحشة مع غياب خالى هارى كوست ، وبدت لندن أكثر تأثرًا بمتاعب الحرب ، والطابع العام لها يمكن أن يقارن بمصر أو الهند ، تبدو كمدينة محاصرة ، بها الكثير من القيود لمواجهة ندرة الحاجات الأساسية والمصاعب المقبلة التى تعانى منها ألمانيا ذاتها .

أقمت فى رئاسة الكاتدرائية ، ومع مارك سايكس وعائلته فى سليدمير حتى استعدت قواى ، وعملت لبعض الوقت فى سكرتارية مجلس وزراء الحرب بتكليف منه ، فقمت بإعداد المذكرات عن الشرق الأدنى والأوسط ، وأعددت مسودات قرارات « منح الأوسمة الرفيعة من الإمبراطورية البريطانية » بعين ناقدة فاحصة .

كان الصهيونيون هناك فى المكاتب وفى الممرات داخل سكرتارية مجلس وزراء الحرب ، كما كانت شائعات الصهيونية تملأ المكان ، وكان مارك سايكس يندفع إلى غرفتى سعيدًا أو مهمومًا حسب طبيعة مسودة المراسلة أو محضر المقابلة التى صاغها أو أدارها بلفور (وزير الخارجية) [١] .

كانت هناك غارات جوية فى لندن ، كما كان يمكن رؤية وميض القذائف من بعيد تتساقط فتنير ظلام الليل .

(١) « عندما وجد الصهيونيون الحماس عند هذا الرجل الإنجليزى ، كسبوا حليفًا لا يقل قيمة عن بلفور نفسه فى مرحلة كفاحهم من أجل الحصول على وعود بتأييدهم من أفراد ، ما لبثت أن تحولت إلى سياسة رسمية للحكومة البريطانية كلها » .

BLANCHE DUGDELE, ARTHER JAMES BALFOUR (HUTCHINSON 1936) P. 215 .

فى سبتمبر ١٩١٧ أعد اللورد إدوارد سيسل (المستشار المالى للحكومة المصرية) تقريراً يوجه فيه الأنظار إلى أخطاء معينة تتعلق بتناول الخارجية البريطانية للشئون المصرية . وقد لقيت مذكرته اهتمام سكرتارية مجلس وزراء الحرب فعرضته على المجلس الذى قرر أن تقوم اللجنة التى يرأسها بلفور ويساعده فيها كل من اللورد كيرزون واللورد ملنر بدراسة الموضوع ، ولم أسمع شيئًا عنها - رغم أننى على علم بآراء اللورد إدوارد سيسل - إلا عندما دعيت لتولى سكرتارية اللجنة ، ووجدتنى أجلس على مائدة مستديرة مع هؤلاء الرجال الكبار الثلاثة ، ولم أكن مدربًا على الكتابة المختزلة أو كتابة محاضر الاجتماعات ، ولكنى أكثر معرفة بالموضوع من الوزراء أنفسهم وبدرجة لا تقل دقة عن شهود العيان ، وقد قرأ اللورد ملنر مسودات محاضر الاجتماع بدقة وأعادها فى وقت مناسب مع اقتراح بعض التعديلات ، أما لورد كيرزون فقد أعاد المسودات لى على الفور مملوءة بالشطب ، وأعاد كتابتها تقريبًا ، أما رئيس اللجنة فلم أتلق منه شيئًا رغم مطاردتى لسكرتاريته بالهاتف ، وفى الاجتماع التالى لم يبد أسفه لعدم استطاعته إلقاء نظرة على المحاضر السابقة ، ولكنه يبدى ما يدل على استيعابه للنقاط الرئيسية بصورة لا تقل عن زميليه ، مما يجعلنى فى حيرة من أمرى ، لماذا يحتاج - إذن - إلى قراءة الوثائق ؟ لعله لا يفعل ذلك أبداً ، فالأسماء والألقاب والمناصب ليست لها أهمية عنده ، حتى الموظف العام الذى يدخل فى مسئوليته متابعة عمله . وقد يسأل أحد الشهود قائلاً : « حسنًا ، ولكن ما هو دور الحاكم العام هنا ؟ » فأقول هامسًا « المندوب السامى يا سيدى .. المندوب السامى » ، فيستطرد قائلاً : « لا شك أن مسألة كهذه لابد أن يحسمها نائب الملك » ؛ فأهمس مرة أخرى « المندوب السامى - ياسيدى - المندوب السامى » ، أو يقول : « على كل ، ليست لدينا أى شكوى فى الوقت الراهن من السفير الحالى ... » . لقد كان من الصعب على وزير ليست لديه خبرة بأعمال الأقسام المعينة (التى لها رأى قوى فى الموضوع) أن يصوغ استنتاجات غير مخالفة لوجهات نظر الإدارات المعنية ، التى نادراً ما يتم القبول بها .

١٣ أكتوبر ١٩١٧ - أقدم مسودة التقرير للأعضاء الثلاثة اليوم ، وسوف ينظرونها الأسبوع القادم .. وسأقوم أنا وملنر بتقديم بعض التعديلات والتصويبات ،

وسوف يقوم كيرزون بإعادة كتابة التقرير كله ، ولن يهتم بلفور بقراءته مطلقًا ، وطريقة تعامل اللورد كيرزون مع مسودات المحاضر التى أقدمها له تذكرنى بالتعليمات القديمة التى كان ينفذها مدير السكك الحديدية فى تعامله مع المصريين : « القسوة دائمًا ... والعدالة عندما يكون ذلك ممكنًا » .

٢٣ أكتوبر ١٩١٧ - كما قلت من قبل ، يعيب علىَّ كيرزون أنى كنت فى المذكرة شديدالاقتضاب ، ميال إلى تفريع الموضوع ، وقدم لى ملنر آراءه الحكيمة بلطف ، بأننى لم أتعمق بالقدر الكافى ، وبلفور لن يعلق على المذكرة إلا بعد أن يسمع رأيهما . وبعبارة أخرى ، فإن اللورد ملنر يمتزج فيه التسامح والرفق معًا .

مذكرة اللورد ملنر

« قرأت مسودة تقرير هذه اللجنة ، وملاحظات اللورد كيرزون عليه ، وأوافق اللورد كيرزون فيما ذهب إليه من أن النتائج التى خرج بها التقرير أكثر تحديداً من أى شىء وافقت عليه اللجنة ، ولكن حقيقة الأمر أن اللجنة استمعت - حتى الآن - إلى شهود العيان وحدهم . ولم يدر نقاش رسمى حولها أو بين أعضاء اللجنة أنفسهم ، وقد ترك سكرتير اللجنة ليفعل ما يستطيع عمله باستخدام شهادات الشهود دون تعليمات محددة منا ، وقد أحسن عملاً - فى رأيى - ويركز التقرير الموضوع كله بطريقة تعبر عن انطباعاته وحدها ، مما يجعل مهمة اللجنة فى التوصل إلى نتائج محددة أكثر سهولة مما إذا ناقشت الموضوع دون الأعمال التمهيدية له . ولا أظن أنه كان باستطاعتنا إقرار الصورة النهائية للتقرير دون عقد اجتماع آخر ، ولكن مع اتخاذ مسودة التقرير أساسًا للمناقشة سوف يصبح الأمر ميسوراً » .

والموضوع باختصار كالتالى : إن استبدال الحماية بالاحتلال زاد من درجة إدارتنا المباشرة لمصر ؛ فهل كانت وزارة الخارجية بتكوينها الإدارى قادرة على مواكبة هذا التحكم المتزايد فى الإدارة المصرية ؟ فإذا لم تكن قادرة على ذلك ، فهل يمكن نقل تبعية مصر من الخارجية إلى وزارة أخرى متخصصة فى ذلك ،

مثل وزارة المستعمرات ، أو يجب دعم الخارجيـــة البريطانية ، بإنشاء قسم مصرى متخصص ؟

ولم يكن عندى أى شك فى التأخير والتوترات التى يسببها نظام المقيم (المعتمد البريطانى) ، ورغم ذلك كنت أعتقد أن الانتقال إلى التبعية لوزارة المستعمَرات قد يؤدى إلى كارثة ، وذلك بسبب تأثيرها على الرأى العام المصرى حيث قد يتم تفسيرها على أنها ضم مقنع ، وأن إضافة خبير أو اثنين إلى وزارة الخارجية ممن لهم خبرة بالشئون المصرية مع تبادلهما مع دار المندوب السامى فى مصر لفترات تكفى لمتابعتهم المستجدات فى الشئون المصرية سوف تكون له فوائد جمة فى هذا الصدد ، وقد أسس القسم المصرى بالخارجية البريطانية ومازال مستمرا للآن [٢] ، وإن كان على نطاق أضيق مما كان متوقعا ، لولا أن منح مصر الاستقلال خفف عن كاهل حكومة صاحب الجلالة كل المسئوليات المتصلة بإدارة مصر .

ولكن كان علىَّ أن أترك سكرتارية اللجنة قبل أن يُتخذ قرار إنشاء قسم مصر بالخارجية البريطانية . ولم تهمل الحكومة المشروع من حيث المبدأ، مشروع التوفيق بين المطالب المتصارعة فى الجزيرة العربية بين الحجاز ونجد عن طريق مبعوث خاص له صلة حميمة بالشريف حسين (وهو المشروع الذى حملنى فى منتصف الصيف إلى الجزيرة العربية) .

وفى أوائل نوفمبر ، اقتُرِح أن أذهب إلى هناك مرة أخرى ، على أن يكون ذلك عن طريق البحر الأحمر هذه المرة ، وليس عن طريق الخليج الفارسى ، فقد أخذت العلاقات بين ابن سعود والشريف حسين فى التوتر المتصاعد ، ولكن الشريف حسين كان لا يريد أن يفقد التفوق الذى حققه ، ومن ثم لم يبد تحمسًا فى دفع مشروع التوفيق بين الطرفين قدمًا إلى الأمام ، وحتى نتبين مدى إمكانية نجاح هذا المشروع ، وما إذا كانت هناك عقبات فى طريقه ، أصبحت عودتى إلى القاهرة ضرورية ، وكنت

(٢) يقصد المؤلف بذلك عام ١٩٣٧ (سنة صدور الكتاب) ، وقد أصبحت الشئون المصرية منذ عام ١٩٤٣ تتبع القسم الأفريقى بالخارجية البريطانية . (المعرِّب)

على استعداد تام لذلك رغم الشكوك التي ساورتني على ضوء معرفتي براعة الشريف حسين في التسويف .

رتب مارك سايكس أمر انضمامي إلى زميله الفرنسي المسيو چورچ بيكو في روما ، والسفر معه تحت الرعاية الفرنسية إلى اليونان ومصر . وقام هارولد نيكلسون مسئول الخارجية (الذي كان والده هو الذي أعادني إلى مصر في بداية الحرب) قد بتزويدي بالجنيهات الذهبية اللازمة لهذه المهمة . وفي الليلة السابقة لرحيلي ذهبت لزيارة السيدة التي كانت تمارس قراءة الطالع كهواية ثم دفعتها الخسائر المالية التي لحقت بها إلى احتراف المهنة . وطلبت قراءة كفي ، ثم أدركت على الفور أنني أعاني الاكتئاب . ولابد أن يكون فقدان الأمل في استمراري في العمل بالقاهرة قد انعكس على وجهي ، فقلت لها إنها يجب أن تكون أكثر مهارة من ذلك ، ودون اكتراث لكلامي ، استطردت تقول إنه رغم إحساسي بالشجن ، فسوف أرقى خلال ثمانية أسابيع إلى منصب يجعلني معروفًا في العالم كله .

وهذه مقتطفات من يومياتي التي أُنقذت من الضياع تروي قصة عودتي للقاهرة :

٧ نوفمبر ١٩١٧ – غادرت لندن بالقطار (محطة تشارنج كروس) الساعة ١,٢٠ صباحًا ، وودعني أبي وأخي فرانسس ، وتركت فولكستون في الرابعة ، واستمر القطار يسير في طريقه المتعرج والهواء بارد كريه الرائحة ، ووصلنا إلى باريس الساعة ٨,٣٠ صباحًا ، وركبت سيارة أجرة بسهولة . ولاحظت وجود عدد كبير من السيارات الخاصة ، ذهبت إلى بوغوص باشا نوبار وأخذته معي بالسيارة إلى المحطة ؛ حيث تناولنا العشاء في جو صاخب ، دار فيه الحديث حول المسألة الأرمينية .

نام رفيقي في السفر بكامل ملابسه ، تاركًا المصباح مضاء .

٩ نوفمبر ١٩١٧ – وصلنا موداني في العاشرة صباحًا لنجدها مغطاة بالجليد ، وهو مشهد لم أره منذ شتاء ١٩٠٢ / ١٩٠٤ ، مجموعات من الجنود الإيطاليين ، وبعض الجنود الإنجليز ، ورغم أن الخط أكثر راحة منه في بولونيا ، فإن الإيطاليين جعلوا منه مصدرًا للربح ، وقد عبر لويد چورچ موداني في اليوم السابق . وكان تنظيم

القطار سيئًا ، فأى خبير سكك حديد إنجليزى أو أمريكى قد ينصح بتخفيض عربات القطار إلى نصف هذا العدد . وكان موظفو القطار يتضايقون من أى شكوى ويدهشهم غناء الجنود بالتقدم إلى الأمام وهم يحملون عشرة آلاف من صناديق الذخيرة . وغادرنا الساعة ١٢,٣٠ لنجد الشمس مشرقة على الجانب الآخر من الجبل ، ووصلنا تورينو الخامسة صباحًا . تجولت فى شوارعها حتى وجدت مكاتب جريدة ستامبا التى لم يعد صديقى بقيونى رئيسًا لتحريرها منذ سنوات ، بعدما أصبح رئيسًا لتحرير ديبوتاتو وانتقل إلى روما . تناولت العشاء فى مقصف المحطة ، وتحرك القطار فى الثامنة مساء ، وركب معنا ضابط بحرى فرنسى يقود مدمرة حمولتها ٤٠٠ طن فى برنديزى . عبر عن ضيقه بعمله ، فهو لا يقوم بدوريات فى الأدرياتيك ، ولكن عليه البقاء فى عرض البحر ، وأنه خلال ١٨ شهرًا لم يطلق سوى طوربيدين استخدم أحدهما فى إغراق مدمرة نمساوية ، وهو لا يحب الإيطاليين رغم اعترافه بأن لديهم أحسن المهندسين البحريين ، وأحسن المعماريين فى العالم . وقد رفعت المدافع القليلة التى كانت تحرس أنكونا لتجنيب المدينة خطر الهجوم ، وذكر أن الطائرات البحرية مهمة لعمله ، ولكن أحدًا لم يستجب لطلبه رغم توافر الكثير منها ، وقد صادف مرة عددًا من الغواصات الألمانية ، ولكنها غاصت الواحدة تلو الأخرى قبل أن يصل إليها . وهذا الضابط يتحدث الإنجليزية جيدا ، وزار إنجلترا عدة مرات .

١٠ نوفمبر ١٩١٧ – وصلنا إلى روما عند الظهر تقريبًا ، ووجدت موظفًا من السفارة فى انتظارى حاملاً خطابًا من إيدى كيلنج ، يخبرنى فيه أن هناك صعوبات تعترض طريق مهمتى .. ذهبت بالسيارة إلى السفارة لمقابلته ، فوجدته لم يتغير تمامًا ، وقد أطلعنى على برقية من ونجت يقول فيها إن الشريف حسين كان يعلق آمالاً كبيرة على تصرفى فى الرحلة عبر الجزيرة العربية ، ويشير إلى أنه من الأفضل لى أن أذهب من الخليج أو البصرة ، وأننى يجب أن أتأكد من جدوى حضورى إلى القاهرة . فقررت طبعًا أن أفعل ذلك ، فالذهاب بحرًا أفضل من الذهاب من البصرة مرة أخرى .

جاءت لتناول الغداء معى إحدى الكونتيسات من معارفى ، وحدثتنى عن رؤيتها للجنود الهاربين من الشمال وقد اقتيدوا تشيعهم الشتائم واللعنات . وقدمت تقريرًا جيدًا عن الشعور العام فى ميلانو ، وفلورنسا غير موالية للحلفاء شأنها فى ذلك شأن

روما ؛ حيث يقول بعض الأمراء علنا إنهم لا يعنيهم أمر الوطنية أو الحاكم ، والمسئولون يتركون الدعاية الألمانية تنشط تحت بسمعهم وبصرهم مقابل ما يجنون من أرباح ، وإنه مـن المعـروف أن مظاهـرات وإضرابات تورينو قد مولت من برلين ، وأن العمال الذين لا يجدون قوت يومهم ، وجد في جيوب من أضربوا منهم ٣٠٠ ليرة لكل عامل .

أخذني إيدى كيلنج بسيارته فى الرابعة ، وذهبنا إلى السفارة الفرنسية ، ولكننا لم نعثر لچورچ بيكو على أثر .

١١ نوفمبر ١٩١٧ – نمت متأخراً ، وتناولت الإفطار في غرفتي بناء على طلب إدارة الفندق ، ونظراً لعدم وجود ما يكفى من الفحم لم أستطع أن أستحم جيداً . وشغلت بالقراءة والكتابة حتى جاء بيكو ليخبرنى بأن علينا أن نغادر الليلة إلى تارنتو وليلة ١٢ نوفمبر إلى باتراس وأثينا ثم مصر .

بعد الغداء تمشيت مع إيدى وسط مطر خفيف عبر حديقة فيلا بورجيزى ومنها إلى المدرسة البريطانية للآثار ، وهى تضم غرفًا لا تستحق النظر ، ولكن واجهة المبنى جيدة ، وقد تكلفت ٣٠ ألف جنيه إسترلينى ، أما الأرض فقد قدمتها الحكومة الإيطالية مجانا للمساهمة فى تعمير المنطقة ، وعدت مع إيدى لتناول الشاى مع تايرويت (لورد برنرز الآن) فى شقته الجميلة الصغيرة ، وقد عزف لنا بعض مقطوعات موسيقية من تأليفه تأثر فيها بأسلوب أستاذه ومعلمه سترافنسكى . أويت إلى فراشى فى الحادية عشرة .

١٢ نوفمبر ١٩١٧ – ركبت سيارة فى العاشرة إلا الربع مع الليدى رود، وأخذنا معنا فى الطريق المسز سترونج ، وعبرنا الجسر الشهير لمشاهدة متحف الفاتيكان للفنون حيث أمضينا ساعتين كاملتين ، والمسز سترونج سيدة متنورة ، علمت نفسها بنفسها ، ولها قدرة متميزة على تنوق الفنون ، وفى رأيى إن مقتنيات هذا المتحف تأتى بعد المتحف البريطانى ومتحف أثينا والأكروبوليس ، وقد رأينا كنيسة سيستين ، ولكن الضوء كان ضعيفًا لا يمكننا من رؤية شىء . ورأيت خلال هذه الجولة السريعة كيف أن أعمال بوتيشيللى تنأى بنفسها عن الأعمال الأخرى المعروضة بالمتحف .

وردت برقية من القاهرة تقول إن الشريف حسين يضمن سلامة مهمتى ، أخذنى چيوفرى سكوت (أحد رجال سفارتنا بروما) فى جولة حول النافورات والكنائس انتهت عند بيترو ماجيورى ليقنعنى بروعة فن الباروك الذى ألف عنه كتاباً عبر فيه عن إعجابه به .

تناولت العشاء وحيدا فى السابعة والربع مساء ، ثم جاء إيدى ليوصلنى إلى محطة القطار لألحق بقطار الثامنة والنصف ، وكانت مقصورتى بديعة ليس بها سواى ، فاسترخيت على الفراش وأنا أفكر فى السبب الذى يجعل الناس يتشاءمون من الرقم ١٣ ، وإذا بالمحصل يقرع باب المقصورة ، ويعلمنى أن هناك حادثاً قتل فيه سبعة أشخاص ، وأن علينا أن نغادر القطار خلال نصف الساعة ، انتظاراً لقطار آخر ربما لا تكون به عربات للنوم ، كان الهواء قويا ورذاذ المطر يتساقط ، ثم حشرنا بعد ذلك فى قطار من عربتين ، حصلنا فيه بالكاد على مقعدين فى مقصورة بها ممرضتان وضابط صربى يعرف القليل من الإنجليزية ، واضطر بيكو إلى أن يترك متاعه الثقيل ليلحق به فيما بعد . وصلنا إلى كاسرتا حيث انضمت إلى القطار عربات أخرى ، ولم نحظ بمقاعد نجلس عليها إلا فى الساعة الخامسة والنصف .

١٣ نوفمبر ١٩١٧ – لما كان بيكو قد قرر ألا يستأنف الرحلة دون وصول متاعه الذى يتضمن حقيبة البريد ، فقد كان من غير المجدى أن نبرق طالبين تأخير إقلاع السفينة التى ستحملنا ، خاصة أننى لا أريد الذهاب بدونه ، ووصلتنا أنباء جيدة عن تقدم قواتنا فى فلسطين ، وتمنينا أن يتم الاستيلاء على القدس قبل وصولنا إلى مصر . حاولت النوم بقدر الإمكان . وصلنا فوچيا الساعة الحادية عشرة ، وإلى بارى بعد الواحدة بقليل ؛ حيث دفع كل منا ثلاث ليرات ثمنا لكيس يحتوى على وجبة جيدة . بلغنا تارنتو فى الرابعة والنصف ، وكانت السفينة التى كنا سنركبها قد غادرتها بالطبع .

ركبنا سيارة عسكرية فى طريقنا إلى مقابلة مساعد الضابط المسئول عن النقل ويدعى ويلاند . وتركت أغراضى بفندق بولونا وسرت إلى مقر نائب القنصل البريطانى لأستطلع الأخبار وأدعوه لتناول العشاء . وأخذنى واطسون (نائب القنصل) إلى خيمة

جمعية الشبان المسيحيين ؛ حيث رأيت تمبل يرتدى مريلة زرقاء ويقدم الشاى والخبز لجموع جنود البحرية . ووعد بأن يصحبنى فى جولة بالمدينة اليوم التالى لمشاهدة المدينة القديمة والكاتدرائية .

١٤ نوفمبر ١٩١٧ - تبين لنا أنه لن تكون هناك فرصة للسفر على ظهر قارب طوربيد قبل الخميس ١٥ . وفى العاشرة سرت مع تمبل خلال المدينة الحديثة الكئيبة النظيفة ، وعبر الجسر الحديدى الهزاز إلى المدينة القديمة الجذابة ، ورأيت الكاتدرائية بمبناها الرائع وسقفها الخشبى المحفور وأعمدتها القديمة البديعة . وكان السكون مخيمًا ، غير أن الركن الذى يضم كنيسة من الطراز الباروكى فضية اللون ، وبها تمثال لقديس أيرلندى من الفضة بالحجم الطبيعى ، فيه تناسق تام مع الصفاء فيما عدا الطريقة التى نحت بها التمثال .

أخبرنى تمبل أن الأسعار تتصاعد باطراد حتى بلغ ثمن الفيلا المتواضعة ٣٠٠٠ جنيه إسترلينى ، والإيجار الشهرى للشقة ٢٤ جنيهًا . وعدت للفندق حيث تناولت الغداء وحيداً ، وقرأت بعض الكتب ، ثم عدت لجولة أخرى فى المدينة القديمة ، ووقفت فى مواجهة القلعة أرقب السفن القادمة والغادية ، وكانت تقف بجوارى فتاة ذهبية الشعر زرقاء العينين تنتظر مثلى عبور الجسر . كانت يتيمة فى التاسعة عشرة من عمرها ، من مدينة نابولى ، ارتحلت كثيراً ، وعملت مغنية ، واسمها الحقيقى إلينا . وتركتها بعد أن شيعتها بتمنياتى الطيبة .

عدت للفندق لأستغرق فى القراءة حتى حان موعد العشاء الذى تناولته بصحبة ويلاند . وأويت إلى الفراش فى الحادية عشرة .

١٥ نوفمبر ١٩١٧ - زرت المتحف حيث توجد مجموعة من التحف يجب أن يعرفها العالم كله ، وصعدت بعدذلك على ظهر العبارة « كوين » التى حملت إلىَّ من مصر ستة أكياس ضخمة من البريد .

وعد بيكو بمقابلتى فى الثانية بعد الظهر ، ولكنه لم يف بالوعد ، وسرت وحيداً تحت المطر الغزير إلى قارب الطوربيد « كارابين » الذى يقوده الضابط موتيت ، فوجدته ضابطًا قديراً ظريفًا ، يكره الإيطاليين واليونانيين ، يتذوق الأدب . وقد منحنى

مقصـورته ؛ فأويت إلى الفـراش فى التاسـعة كارها الرحلة كلها ؛ لأن المقصـورة بلا نافذة ، فأحسست وكأنى محبوس فى قمقم .

١٦ نوفمبر ١٩١٧ – عبرنا مرتفعات سابفو وأيتاكا حوالى الساعة السادسة والنصف ، وبلغنا بتراس (التى تبدو أصغرمن أن تستوعب سكانها البالغ عددهم ٤٠ ألف نسمة) .

وكان للقنـصل الفرنسى شرف إبلاغنا بأنه ليس هناك قطار إلى أثينا قبل ثلاثة أيـام ، ولـذلك انتـقـلنا إلى فنـدق جراندأوتـيل ، وتـركـت حقائب البريد على القارب « كارابين » ضمانا للأمن .

كانت ترتيبات اللقاء بينى وبين بيكو لا تتحقق بطريقة ما ؛ لذلك تجولت وحدى فى مدينة بتراس التى بدت قفراً كئيبة بسبب توقف النشـاط الاقتصادى ، توقف الترام ، واختفت الكهرباء بسبب عدم وجود الفحم ، والناس يتضورون جوعًا .

عدت لتناول الشاى مع وود (القنصل البريطانى) ، وهو يقيم فى بيت كبير على الطراز الچورچى به أثاث ضخم من الماهوجنى ، وقد علمت منه وزوجته أنهما لم يتذوقا طعم الزبد منذ شـهـور ، وأنهـمـا ظلا لمدة ٢٢ يومًـا دون خـبـز ، وأن البطاطس التى زرعوها تعرضت للسرقة ليلاً ، ولا يعرفان كيف سيستطيع الناس العيش فى فصل الشتـاء . ويعتقد سكان بتراس أن أثينا تضن عليهم بالطعام ، وتمنع وصوله إليهم . والقطارات تسـتخدم الخشب بدلاً من الفحم فى توليد البخار . تناولت العشاء مع بيكو ونمنا مبكراً .

١٧ نوفمبر ١٩١٧ – استدعينا قبيل الخامسة لركوب القطار الذى يغادر بتراس إلى أثينا فى السادسة صباحًا ، وانتقلنا إلى المحطة فى سيارة حملت معنا صندوقين كبيرين يخصـــان بيكو ، وثلاث حقائب صغيرة تخصنى إضافة إلى أكياس البريد الستـة الثـقيلة ، وشـعـرنا بالارتيـاح عندمـا أخـذنا مـقـاعـدنا بالقطار الذى غـادر فى السادسة والنصف على قضبـان كثير الاهتزاز والارتجاج والصخب ، وشغلت الوقت بالقراءة والحـديث إلى بيكو الذى أثرت فـيـه كثيراً سنوات عمله مستشاراً بالسفارة

الفرنسية ببكين ، وهو متحمس تماماً للصينيين مغرم بسلوك الخدم منهم وإخلاصهم لسادتهم ، واستطاعت الصين التحول التام من المرح إلى القتال .

وصلنا إلى كورنث فى الثالثة بعد الظهر ، وتمت إضافة عرباتنا إلى قطار لنقل البضائع . وبلغنا أثينا فى الثامنة مساء . وتوجهنا إلى فندق جراند بريتان حيث إن أجر أصغر غرفة يبلغ جنيهاً إسترلينياً فى الليلة الواحدة .

تناولت العشاء مع بيكو ، وذهبنا معا للبحث عن صديق يونانى سكندرى عرفته فى مصر ، يدعى تانتى رودوكاناكى ؛ حيث دلنا البعض على بيته فى شارع بلوتارك ، ولكننا لم نجده بمنزله ، ولكن أرملة تعيش فى الشقة المقابلة نصحتنى بأن ألقى ببطاقتى من تحت عقب الباب ، ففعلت لأفاجأ بالباب يفتح ويخرج إلينا ريجى بردجمان (السكرتير بالمفوضية البريطانية بأثينا) وهو يتميز بالذكاء والجاذبية ، نمنا نحو منتصف الليل .

١٨ نوفمبر ١٩١٧ – استيقظت متأخراً ، وعلمت من بيكو أن قارب الطوربيد الذى سيحملنا يغادر بيريه الساعة الرابعة والنصف بعدالظهر ، وذهبت إلى المتحف للاستمتاع بالمعروضات البديعة ، ثم ذهبت إلى المفوضية البريطانية بناء على موعد سابق ، وهى تقع فى مبنى قبيح متهالك ، واستقبلنى (الوزير المفوض) جرانفيل استقبالاً حسناً ، واستمع إلى قصتى ، ودعانى لتناول الغداء حيث حدثنى عن الأحوال فى القاهرة وعن شح المواد الغذائية فى اليونان ، وتفضل بإعارتى سيارته لتنقلنى وأمتعتى إلى ميناء بيريه ، على حين نقلت سيارة أخرى بيكو وحمولته من الأمتعة ، وعند الوصول إلى الميناء حملنا قارب بخارى إلى العبارة الفرنسية « ديمقراطى » ؛ حيث علمنا من ربانها أننا سوف نسافر على متن السفينة اليونانية « خيوس » فى حراسة قارب الطوربيد اليونانى « نافكراتوسا » الذى سيرافق أيضاً الباخرة الإيطالية « سومطرة » (وسرعتها القصوى ٨ عقدات فى الساعة) حتى رودس ، ثم يستمر معنا للإسكندرية التى نصلها بعد ثلاثة أيام ، وقد شجعنا ما أعلنه لويد چورچ من إغراق خمس غواصات ألمانية فى يوم واحد ، وسعدنا برفقة نائب القنصل اليونانى بطنطا ، فانتقلنا إلى « خيوس » وهى سفينة ركاب يونانية عادية حمولتها ٩٥٠ طناً .

تناولنا العشاء فى الخامسة والنصف على ضوء شمعة واحدة ، أطفئت على الفور بعد تناول الطعام ، وكان علينا أن نلتمس طريقنا إلى مقصورات النوم وسط الظلام . وأبحرنا فى مياه هادئة ، حتى أحسسنا بتوقف محركات السفينة فى العاشرة مساء ، فصعدت إلى غرفة القيادة لأعلم من الربان أنه لا يعرف ما يفعله قارب الطوربيد «نافكراتوسا» ففضل أن يضع السفينة فى وضع السكون التام .

١٩ نوفمبر ١٩١٧ – نوم متقطع استيقظت بعده فى السابعة لأكتشف أننا نعود إلى ميناء بيريه ، فقد تركنا قارب الطوربيد ، كما ترك الباخرة « سومطرة » فكان من الحكمة أن نعود إلى بيريه مرة أخرى ، ونظراً لعدم وجود اتصال لاسلكى ، لم نعرف أين ذهب الآخرون . أيقظت بيكو الذى كان يظن أننا نمضى قدماً عبر البحر ، فاستاء وغضب كثيراً . وعند وصولنا إلى الميناء ذهب إلى « ديمقراطى » ، ولكنه عاد بخفى حنين وقد تركت حقائب البريد فى خزانتهم الآمنة وعدت إلى فندق جراند بريتانى مرة أخرى ، حيث تناولت الغداء مع تانتى (صديقى اليونانى السكندرى) الذى حدثنى عن أحواله وأحوال بلاده خلال الحرب ، وذهبت معه فى جولة تفقدت فيها المدينة وتناولت الشاى معه ، ثم ذهبت إلى السينما .

٢٠ نوفمبر ١٩١٧ – جاءنى تانتى فى التاسعة والصف ، وأخذنى فى جولة بالسوق القديمة (البازار) وهو مُسلٍ رغم أنه لا يشبه أسواق القاهرة وإستانبول ، وعلمت منه أن أصحاب السفن حققوا أرباحاً ضخمة خلال الحرب بسبب ارتفاع أجور النقل والسفر ارتفاعاً باهظاً .

فى الحادية عشرة والنصف ذهبت لمقابلة الكونت بوسدارى (الوزير المفوض الإيطالى بأثينا) بناء على موعد سابق ، ملامحه جامدة ويصمم على الحديث بالإنجليزية ، وأحسست أنه قادر على التعبير عن نفسه أكثر من مقدرة المفوضية نفسها . قال « لقد ارتكبنا حتى الآن كل الأخطاء البشرية الممكنة ، وانتظر آخر الحماقات عندما نعطى اليونانيين السلاح والذخيرة لتستخدم فى طردنا ، لقد فقد ڤينيزيلوس شعبيته وآن الأوان ليبحث لنفسه عن منفى فى لندن أو باريس . وأنَّ تينو يشكل خطراً بوجوده فى سويسرا أكثر من خطورته إذا عاد إلى أثينا » . وبوسدارى مكيافيلى من المدرسة

القديمة ، ممتلئ بالمرارة لأنه لم يعين فى لندن ، وقد استمرت المقابلة نحو الساعة ، وطلب منى بوسدارى أن أتناول الغداء معه فى اليوم التالى رغم خشيتى من مغادرة أثينا فجأة .

ذهبت بعد ذلك لمقابلة بوليتيس الموظف بالخارجية اليونانية وهو خريج السوربون ، صريح ، ومهذب ، وذكى ، وقد سألنى رأيى عن شخص معين بمصر ، فأكدت أننى أعبر عن رأيى الشخصى ، ولما كنت قد غبت عن مصر ثمانية أشهر ، فإن ذلك يعطينى الحق فى التحدث بصراحة ، وبدا الانزعاج عن بوليتيس لأن ذلك الشخص كان يظهر تحمسه للقضية ويتحامل على الدبلوماسيين ، وعلق على غباء الحلفاء الذين يتركون وزيراً بلغاريا يعد مركزاً للتجسس ، مقيماً فى واشنطن .

بعد ذلك عدت إلى الفندق وتناولت الغداء مع آدم (من المفوضية البريطانية) . قرر بيكو ركوب السفينة « خيوس » مرة أخرى طالما تقاعست السلطات البحرية الفرنسية فى مساعدته ، وقرأ علىّ البرقية الغاضبة التى أرسلها إلى الخارجية الفرنسية وإلى قيادة البحرية فى كورفو بصوت متهدج . وأدى ذلك إلى تحرك رجال البحرية الفرنسية فجأة ، فجاءوا إلى الفندق ونقلونا إلى « ديمقراطى » ، وتعهد القائدالفرنسى البحرى المحلى أن نبحر غداً لعدم وجود قارب طوربيد لمرافقتنا ، وعدنا إلى الفندق مرة أخرى ، حيث علمت من بيكو أن علينا الانتظار إلى الليلة التالية .

٢١ نوفمبر ١٩١٧ – قمت بزيارة لمسرح ديونيسوس ، وجلست فى مقعد كبير الكهنة أستنشق عبق التاريخ ، وما لبث أن توافد زوار آخرون أفسدوا سكون المكان ، ثم صعدت إلى الأكروبوليس مرة أخرى لأستمتع بالمشهد فى ضوء الشمس ولكن لمدة ٢٠ دقيقة فقط ؛ لأن بوابات بروبلايا تغلق عند الظهر .

توجهت بعد ذلك إلى المفوضية الإيطالية تلبية لدعوة الوزير لتناول الغداء ، وكان يجلس إلى المائدة – أيضاً – فيتال ونانى موتشينيجو ، ودار الحديث بالإنجليزية مع بعض عبارات بالإيطالية .

غادرنا الفندق لثالث مرة ، لنركب الباخرة « خيوس » التى يرافقها الآن زورق الطوربيد « نيكى » الذى يقوده « الكومودور ديمستيكا » وغادرنا فى الخامسة ، ولكن

استوقفتنا سلطات الميناء ؛ لأن ربان السفينة لم يعدل التاريخ فى الإذن الخاص بالإبحار ، وبعد تأخير لمدة ساعة ونصف ساعة، سمح للباخرة بالسفر . أويت للفراش فى الثامنة والنصف .

٢٢ نوفمبر ١٩١٧ – وصلنا إلى ميناء ميلوس العظيم صباح اليوم التالى ، وأخذنا معنا من هناك الباخرة « سومطرة » ، غادرنا فى الحادية عشرة . استغرقت فى القراءة حتى نمت فى العاشرة .

٢٣ نوفمبر ١٩١٧ – الساعة الرابعة تقريباً مررنا بجوار سطح غواصة ألمانية ، وأطلقت « نيكى » ثلاث طلقات من مدافعها ، كما ألقت بقذائف الأعماق على أمل النجاح فى متابعة الرحلة ، وكان بيكو مستغرقاً فى النوم ، فلم يدر بما حدث ، وقررنا أن نعتبر أنفسنا مدينين بالشكر لطاقم الباخرة إذا استطاع الوصول بنا قبل الواحدة من بعد ظهر السبت ٢٤ نوفمبر .

٢٤ نوفمبر ١٩١٧ – شاهدنا الإسكندرية حوالى الساعة الثانية ، وبعد أن اجتزنا رياحاً قوية ، ألقت السفينة مراسيها فى الخامسة ، وأعطينا البحارة كل ما معنا من دراخمات .

تناولت العشاء مع الدكتور جرانفيل وشقيقته . ولما كان القطار الذى يحملنى إلى القاهرة سيغادر الإسكندرية فى الحادية عشرة والنصف مساء ، فقد صحبانى معهما إلى حفل خيرى ؛ حيث وجدت نفسى وسط أصدقاء أعزاء ينتمون إلى عدة جنسيات ، ويعتنقون مختلف الأديان ، أستمع إلى أغنية تنتقد بوضوح الميزانيات وعدم انضباط مواعيد القطارات ، وحملة الأسهم :

« الذين يحصلون مقابل نقودهم على كل الوثائق »

بينما يجد زوج مشتاق عند عودته من رحلة طويلة أن أثناء غيابه

« زوجته أنجبت له ١٤ طفلاً بكل الوثائق »

وصلت إلى القاهرة فى السابعة والنصف مساء وتوجهت إلى دار المندوب السامى فى الثامنة .

لم يعد لى بيت فى القاهرة ، فقد تنـــازلت عن الشقة لحسن الهلباوى ، لعدم يقينى من تقلب الأوضاع فى زمن الحرب ، فليس من المعقول أن تترك عملك فى أوائل أبريل ، وتعود فى آخر نوفمبر لتجده حيث تركته ، أصبح هناك اسمان لامعان فى القاهرة ، أللنبى الذى انقض كالعملاق على الأراضى المقدسة ، ولورانس الذى لم يعد نجيمًا يدور فى فلك ، بل أصبح كوكبًا ثابتًا .

الفصل الثانى عشر

ضابط سياسى فى مهمة بالقدس

(٧ - ٢٨ ديسمبر ١٩١٧)

رغم إعارتى للعمل كضابط سياسى مع مارك سايكس ، كنت لا أزال أشغل وظيفة السكرتير الشرقى لدار المندوب السامى فى مصر ، لقد غادرت لندن لتحقيق هدف معين ، وهو الذهاب إلى جزيرة العرب ، ومحاولة التوفيق بين ابن سعود حاكم نجد والشريف حسين ملك الحجاز .

وفى السابع من ديسمبر ، بينما كنت جالسًا بديوان دار المندوب السامى [(١)] الذى أصبح العمل فيه مقصورًا علىَّ وعلى سايمز Symes ، فتحت برقية تبلغ المندوب السامى أن القدس قد استسلمت ، وأن الجنرال أللنبى سيدخلها رسميًا فى التاسع من ديسمبر ، وكنت أتمنى أن أدفع حياتى ثمنًا لحضور تلك المناسبة ، ولكن لم يكن هناك أمل أو سبب يتيح لى تحقيق تلك الأمنية ، وفى الخامس عشر من ديسمبر قام كلايتون – الذى كان كبير الضباط السياسيين لحملة فلسطين ويحمل رتبة بريجادير جنرال – بتقديم طلب رسمى لكى أرافقه فى مهمته بعدما أصبح مثقلاً بالعمل .

لم يكن باستطاعتى أن أشهد دخول القدس ، ولكننى سأذهب مع كلايتون لأقضى أسبوعًا أو أسبوعين ، أساعده فى العمل على تهدئة الطوائف العديدة المتصارعة هناك .. ولما كان البرد هناك شديداً ، فقد أخذت معى معطفى القديم المبطن بالفراء .

وأبلغت مارك سايكس بذلك ، آملا أن أستطيع تزويده بمعلومات مهمة من هناك . وأخبرنى لورانس – الذى كان هناك حتى النهاية – بأنه لا أحد معنا سوى المسيحيين الكاثوليك ، أما اليهود فيضمرون لنا العداء سرًا [(٢)] . بينما يعلن المسلمون عداءهم لنا فيما يتعلق بالقاهرة ، فلم تكن قد أفاقت بعد من ابتهاجها لما أصاب الإيطاليين من

(١) كانت قاعة الرقص بدار المندوب السامى قد تحولت إلى مقر للديوان يضم مكاتب جميع العاملين فيه وكذلك المحفوظات السرية .

(٢) لم يصدق حدس لورانس ، ولكن عندما وصل القائد الألمانى إلى القدس فى ديسمبر ١٩١٤ حياه اليهود بإقامة قوس نصر يحمل عبارة كتبت بالعبرية والعربية هى « بورك الذين جاءوا باسم الرب » ، وقد أقيم قوس النصر عند باب يافا .

كوارث ، وبذلك لم تبد إلا القليل من الاهتمـــام . لقد رأيت الكثير من الصهيونيين هنا ، وسوف أبذل أقصى جهدى لإتاحة الفرصة لهم لتبادل الآراء مع العرب من خلال جريدة « القبلة » وغيرها من الصحف .

ولما كنا قد صرفنا النظر عن المهمة المزمع قيامى بها بالجزيرة العربية بسبب موقف الشريف حسين ، فقد تلقينا عدة برقيات من كوكس تحث على ضرورة القيام بمهمة التوفيق بين ابن سعود والشريف حسين ، وكانت آخر تلك البرقيات بتاريخ ١٢ ديسمبر ، ونصها كالتالى : « جاءتنا عدة برقيات مشفرة طويلة من بعثتنا فى نجد عن طريق البحرين ، وفيها يلح فيلبى على ضرورة مضى ستورس قدماً فى مهمته ، ويتعهد ابن سعود بضمان سلامته الشخصية عند مغادرته أراضى الشريف ، وبعد موافقة المندوب السامى أعددت خطاباً شخصياً إلى عبد الله بن الحسين راجياً منه أن يحصل على موافقة والده على مقابلتى فى أى مكان فى الأراضى الخاضعة لحكمه ، وتوقعت أن أتلقى جوابه على خطـــابى بعد عودتى من القدس ، وأنه فى حالة موافقة الشريف سوف أهـــرع لمقـــابلة ابن سعود لأجعله يتفق مع الشريف حسين ، ويعملان معاً ضد ابن الرشيد [٣] . وأعود على الفور إلى القاهرة .

وقبل سفرى إلى فلسطين كتبت إلى مارك سايكس مرة أخرى : « منذ كتابى الأخير لك ، فاتحت برانكر فى مدى إمكانية قيامى برحلة من ينبع إلى وادى عيس – حيث معسكر عبد الله – بالطائرة لأتشاور هناك مع عبدالله ثم أستأنف الطيران إلى بريـــدة . وقد أسعدنى أن برانكر لم يقبل بالفكرة من حيث المبدأ فحسب ، بل رحب بها ، وأرسل فى طلب أحد الطيارين المهرة ليناقش معه أفضل السبل والوسائل للقيام بالرحلة ، كذلك أيد كلايتون الفكرة ، وبعد موافقة المندوب السامى ، أضفت إلى الخطاب الذى أعددته لعبدالله إشارة إلى أننى قد أصل بالطائرة . ولابد أن أوفر مقعداً على الطائرة لروحى [٤] الذى لا يمكن الاستغناء عنه فى هذه المهة . ولعل من أهم فوائد القيام بهذه المهمة بالطائرة الاقتصاد فى الوقت ؛ لأننى أستطيع إنجاز المهمة

(٣) حاكم حائل الذى ما لبث أن هزم وطرد على يد ابن سعود .

(٤) عميلى الفارسى حسين روحى الذى سبقت الإشارة إليه .

والعودة لأكون رهن إشارتك قبل شهرين من الزمن الذى تستغرقه هذه الرحلة بالوسائل الأخرى . وعلى ذلك سوف أسافر غداً إلى القدس مع كلايتون ، وأعمل معه هناك لمدة أسبوع أو عشرة أيام ، وبمجرد أن يصل رد عبدالله (الذى أتمنى أن يكون إيجابيًا) سوف أعد الترتيبات اللازمة التى تتضمن إخطار ابن سعود بانتظارى فى بريدة فى تاريخ محدد ، واتجه إلى هناك بأسرع وقت ممكن » .

وعلى ضوء ما تبين لنا فيما بعد ، لا أظن أن تلك المهمة كانت ستضع أساسًا راسخًا لعلاقة دائمة بين الشريف حسين وابن سعود ، حتى لو حققت النجاح في ذلك الوقت .

وقد سجلت في يومياتي تفاصيل رحلتى مع كلايتون التى أنقل عنها هنا ما يلى :

١٨ ديسمبر ١٩١٧ – غادرت القاهرة فى السادسة والربع مساء وبرفقتى خادمى سعيد وبصحبتى كلايتون وإدوارد كادوجان (السكرتير الشخصى لرئيس مجلس العموم) الذى كان يعمل مساعداً له ، وتناولنا العشاء بالقطار مع أحد قادة المدمرات التى اشتركت فى معركة جتلاند التى اشتركت فيها ثلاث طرادات بريطانية نجحت فى إعاقة تقدم الأسطول الألمانى كله لمدة ١١ ساعة ، وجعلتها تدور خلالها فى الميناء حول نفسها حتى أصابت بعضها البعض ، وعند تقدم أسطولنا أنقذهم الضباب .

وصلنا إلى القنطرة غرب الساعة ١٠,١٠ مساءً فلم نجد السيارة التى كان من المقرر أن تنقلنا عبر الجسر إلى القنطرة شرق فى انتظارنا ، فأجبرنا إحدى السيارات على نقلنا إلى هناك ، وركبنا القطار الساعة ١٠,٣٠ حيث حجزت لنا مقصورات للنوم فى عربة الجنرال ، وأبلغنى مسئول محطة السكة الحديد بأن سعيداً لا يمكنه السفر إلا إذا حمل ختمًا رصاصيا يبقى معلقًا فى رقبته ، وكنت قد علمت بذلك فى القنطرة غرب ، وحتى أجنب نفسى وكلايتون ضياع الوقت فى مكالمة تليفونية مع دار المندوب السامى تركنا سعيداً ليذهب مع ضابط المحطة بإحدى السيارات إلى جهة غير معلومة ، واستطاع أن يلحق بنا قبل تحرك القطار فى منتصف الليل بثلاث دقائق فقط ، وقد نسى أن يحضر لى معه كيس النوم والوسادة ، لذلك سأعانى البرد طوال الرحلة ،

وظل كلايتون يقرأ على ضوء المصباح الغازى الخافت ، كما كان يفعل فى الطريق من القاهرة إلى القنطرة .

١٩ ديسمبر ١٩١٧ – استيقظت عند رفح ، ووصلنا إلى غزة فى تمام التاسعة صباحًا . وسرت نحو « المعسكر السياسى » حيث نصبت بعض الخيام قمعية الشكل بها أوان مربعة كبيرة للطعام ، وعلمت من سعيد أن الطباخ الذى كان يحصل بالكاد على جنيهين شهريا بالقاهرة يعمل فى المعسكر بأجر قدره سبعة جنيهات شهريًا ، ويحصل مساعده (المرمطون) على أربعة جنيهات ، وقد دهش عندما سمع الطباخ يسب مساعده بالإنجليزية ، وقدتبين لنا أن چورچ بيكو لم يعد من يافا بعد ومعه سيارتا البعثة ، فأجبرنا على فقد يوم انتظرناه فى غزة . وذهبت مع كلايتون بسيارة فورد – وصلت لتوها إلى غزة – إلى مقر القيادة العامة على بعد ١٥ ميلاً .

غزة مدينة خربة ، وكانت كذلك قبل أن تقع فى أيدينا بوقت طويل ، فقد اقتلع الأتراك سقوف المنازل لتغطية الخنادق التى حفروها ، وهناك بعض المساجد المتواضعة ذات المآذن المربعة والقباب الأسمنتية المنخفضة ، وكانت الرمال تغطيها بعض النباتات القليلة الخضراء ، وتنتج شعيرًا جيدًا يمكن تصديره إلى بريطانيا ليستخدم فى صناعة الويسكى ، والأحراش ومختلف أنواع الصبار أفضل كثيرًا مما رأيته فى بادية الفرات ، وهى مغطاة لأميال بشباك من السلك تجعل سطحها قارى الشكل ، والشعور العام يجعلنا نخرج من أفريقيا إلى ما يشبه منطقة أوروبية ، والبحر فى خلفيتها يعطيها طابعًا يشبه تلاً فلمنكيًا أو ساكس السفلى .

كلايتون يمتاز بالبراعة فى استيعاب تفاصيل المعارك التى يصعب علىَّ فهمها حتى مع مراجعة الخرائط على ميدان الواقع ، وهناك الكثير مما يثير الاهتمام ويجلب المتعة . وصلنا إلى مقر القيادة العامة بعد ساعة واحدة وهو معسكر كبير به كل مستلزمات القيادة العامة بما فى ذلك الإنارة الكهربية . ولم أجد فيليب جريفز فى المخابرات فقد كان فى رفح يستجوب الأسرى الأتراك ، ووجدت مساعده الشاب الملازم أبليت الذى عرفته بالقاهرة راقصًا فى إحدى الحفلات فى ربيع عام ١٩١٤ .

الإجراءات الصحية فى كل مكان حازمة ودقيقة ، حيث يتم تعفير المطهرات هنا وهناك بكفاءة تامة . وقد تمشيت بعد الغداء لمدة ساعتين مع كلايتون ، واكتشفت أنه شخصية غنية بالمعرفة إضافة إلى تفوقه فى عمله وتميزه فيه ، لديه آمال عريضة فى أن يكون مستشاراً لوزارة الداخلية فى مصر ، ولكنه غير واثق من مستقبله بعد الحرب [٥] ، وهو يخشى دسائس الآخرين فى ميدان العمل . وقد مررنا بقذائف فارغة معظمها من مدافع عيار ٨ بوصات فى جميع الجوانب ، ونحن نصعد تلا يشرف على المنطقة كلها ويتحكم فيها ، حيث يقع البحر فى الجنوب الغربى ، وفى الجانب الآخر المدقات التى تحدد معالم الطريق إلى جنوب بئر السبع وشرق الخليل . والتل نفسه كادت تمحوه قذائف المدفعية ، ولابد أنه كان منيعًا حتى اقتضى احتلالنا له جهداً كبيراً ، فحجم العمليات المرتبطة بذلك كبير ، وسوف تحتل مكانًا بارزًا فى التاريخ العسكرى . وهناك جانب إنسانى فى الاستيلاء على هذه البلاد ، فعندما قضيت أسبوعًا فى زيارة للقدس قبل تسعة أعوام ، تمنيت أن أكون مندوبًا بريطانيا فى فلسطين . تناولت العشاء ، وأويت إلى الفراش فى العاشرة ، وظل المطر يهطل طوال الليل .

٢٠ ديسمبر ١٩١٧ – وصلت سيارتا فورد خصيصًا لحملنا ، وبدأنا التحرك فى العاشرة والنصف صباحًا بعد أمطار غزيرة ، وركب سعيد فوق الأمتعة بسيارة النقل ، كما فعل من قبل فى صحراء بغداد ، وكانت الطرق فى أغلبها مكسوة بالطين بعمق ١٨ بوصة ، مما أعاق السير ، فكنا نضطر إلى الترجل مرة كل ميلين تقريبا عندما تغرز العجلات فى الطين . وكادت السيارة النقل تسقط فى بحيرة انحدرت إليها بطريق الخطأ ، ولكننا استطعنا إنقاذها باستخدام ثمانية بغال حصلنا عليها من قافلة تصادف مرورها على الطريق ، وقد أخذنا طريق بيت حنين ، دير سنيد ، بيت جرجس – عجو . وبلغت الطريق عند دير سنيد حدا كبيراً من السوء حتى اعتقدنا أننا لن نستطيع اجتيازها ، وتحسنت الطريق فى جوليس بعد المطار ، واستمرت كذلك إلى

(٥) لو كان قد عين مستشاراً للداخلية لتجنبنا ما حدث عام ١٩٢٤ .

المفرق [٦] . كان عدد سيارات النقل وسيارات الصليب الأحمر كبيراً ، وكان عمال فرقة العمل المصرية يقومون بإصلاح الطريق ، وعندما وصلنا إلى المفرق فى الثالثة والنصف لم نجد وراءنا أثراً لسيارة النقل التى حملت أمتعتنا ، وفى محاولة للوصول إلى القيادة العامة صعدنا التل المنحدر لنجد أنفسنا على مقربة من معسكر ضباط الطيران ، فأشاروا إلى معسكر يبدو بعيداً عن خط الأفق ، وقالوا إنه قد يكون القيادة العامة ، ولكننا عدلنا عن المحاولة مرة أخرى وهبطنا التل فى مواجهة قافلة من الأسرى الأتراك قطعت رحلة طولها ١٦ ميلاً سيراً على الأقدام ، وقد وقع أحد الأسرى من الإعياء فضربه الحارس بكعب مسدسه على أم رأسه ظنا منه أنه يتمارض ، بينما زميل له يناديه قائلاً « استخدم معه الجانب الآخر من المسدس يا چورچ » ، وقد تحدث إلىَّ الأسير بالتركية قائلاً : « دعهم يذبحوننى فأنا لا أستطيع التحرك » ، فجعلتهم يحملونه مسافة الميلين التى بقيت من الطريق ، ولبثنا أكثر من ساعة ننتظر سيارة النقل التى تحمل أمتعتنا ، فلم تصل إلا فى الخامسة إلا الثلث مساء وسط الظلام والسحب الكثيفة التى حجبت ضوء القمر ، ولكن الطريق كانت أحسن حالاً بكثير .

وكان آخر معلم صليبى قائم هو المخفر الأبيض ، وهو حصن أبيض يقع إلى يمين الجبهة ، وفى أحد الممرات دخلنا فى حزام من السحاب ، وغلى الماء فى محركات السيارات بسبب طول السير على السرعة الأولى . ودخلنا القدس التى كانت ساكنة مظلمة وتبدو مهجورة ، فى الساعة السابعة مساء تقريباً ، وتوقفنا للبحث عن فندق عند ناصية الطريق ، وسألت عن الموقع الذى نحن فيه ، ولكنى ما لبثت أن تبينت أننا نقف عند باب « الجمعية البريطانية للكتاب المقدس » التى زرتها مع خالى هارى كست عام ١٩١٠ نزولاً على إرادته للحصول على نسخة من الإنجيل مطبوعة بالقدس . وكان الباب مغلقًا ، سرنا نحو الفندق الذى ظل محتفظًا بالمولد الكهربائى الخاص به ؛ لأنه كان فندقًا ألمانيا فسمح له الأتراك بالاحتفاظ به ، ويديره الآن الشوام الذين يتقاضون ٤٥ قرشاً فى الليلة من النزيل (من الضباط) ولا أظن أنهم يحققون ربحًا

(٦) المفرق بين المنطقة الفرنسية بالقدس – يافا ، والخطوط العسكرية التركية فى بئر السبع .

من وراء هذا الأجر الزهيد . ومازالت اللوحات والتعليمات والخرائط المكتوبة بالألمانية موجودة ظاهرة للعيان بالفندق .

وكان أول من التقينا بيل بورتون ، وهو الآن جنرال وحاكم القدس ، وكان يرتدى لباس النوم عائدًا من حمام المساء ، وقال لى إن الأماكن الملائمة فى القدس هى الحمام والفراش ، وتناولنا العشاء مع عضو البرلمان الكولونيل لويلين الذى خدم بالبحرية من قبل مع ويميس وتشالز كست ، وبرغم ضخامة بدنه فإنه يحتفظ بأناقته ، وانضم إلينا بيل بورتون فيما بعد ، فقد كان انشغاله بأعباء العمل لا يمنحه وقتًا للفراغ والراحة .

والمشكلة العاجلة فى المدينة المقدسة هى الطعام ، فقد قضت المدينة ثلاثة أعوام تعيش على نظام ترشيد استهلاك الطعام تفاديًا للمجاعة ، وأصبحت الآن محرومة – كما كانت خلال سنوات الحرب – من الموارد التى تصل إلى الأماكن المقدسة ومن القمح الذى كان يصلها من أوديسا ، كما حرمت – منذ غادرها الترك – من قمح الصلت والكرك فيما وراء الأردن ، كذلك لم يتم حل التعقيدات الناجمة عن انقسام المدينة إلى قسمين (رغم أنه يقع خارج أسوار المدينة) ، وهو إجراء يتناقض مع قرار سابق ، ولكن فرضته الأمطار الغزيرة والبرد الشديد .

بيكو [٧] يثير ضجة حول نفسه ، ولكنى أعتقد أنه يمكن تهدئته بإجراء مشاورات من حين لآخر مع الفرنسيين حول الشئون الدينية ، والمالية ، والتعليمية ، والدعائية ، وما يتصل بالآثار . والتبرع الذى قدمه بمبلغ مائة جنيه إسترلينى نقدًا لم يحظ بترحيب كاف .

مع انخفاض قيمة العملة الورقية التركية ذات المائة قرش لتصبح قيمتها تتراوح بين ١٢ و ١٧ قرشًا ، وهى آخذة فى الانخفاض ، أصاب الخراب المالى سكان البلاد ، مما يتطلب أن تتحمل الحكومة جانبًا من الخسارة ، وتقوم بتثبيت سعر الصرف عند

(٧) فى خطاب كتبته لمارك سايكس فى ١٥ ديسمبر ، قلت : « فهمت من بيكو أنه غير راض عن وضعه الشخصى والوضع العام فى فلسطين ، وخلال رحلتنا كانت السلطات الفرنسية والإيطالية واليونانية والبحرية البريطانية تخاطبه باعتباره (المندوب السامى الفرنسى) » .

حد معقول بالنسبة للجنيه التركى والبشلك . وكالعادة احتكر اليهود عملية الصرف [8] التى يتقاضون مقابلها عمولة تتراوح بين ٥ ٪ و٦ ٪ ، مما يعطى الصهيونيين فرصة لوضع حد لقذارات اليهود .

المدينة صحية ، خالية من الأوبئة ، أويت إلى الفراش فى العاشرة ، الجو بارد .

٢١ ديسمبر ١٩١٧ – أخذت حماماً ساخناً ، والماء الساخن يأتى من غلاية بالممر تستخدم وقوداً من الخشب . ولاحظت وجود قصف مستمر بالمدفعية الثقيلة (بعضها كان قريباً ، وعلمت فيما بعد أنها فى جبل الزيتون) يبدو أنه لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً ، لويلاين أعطانى قطعة ونصف القطعة من الزبد للإفطار (وهى مادة عزيزة المنال) ، ولكن يبدو أن الخبز متوفر ، على الأقل فى الفندق .

ثم قمنا بجولة إلى مكتب بورتون حيث يعمل جبرائيل بك حداد سكرتيراً خاصا له ، وكذلك ألبينا الذى كان يعمل مترجماً لمارك سايكس . كان بورتون يناقش مع كلايتون مسألة المحاكم الاستثنائية التى علىَّ أن أدفع بها إلى خبير إنجليزى لدراستها ، وإلى خبير فرنسىٍّ لإعداد مشروع قانونها . واقترحت أن أقابل رئيس البلديـــة والمفتى ، وكلاهما كان غائباً ، وقضيت فترة الصباح فى انتظار وصولهما .

كان المطر قد بلغ ثلاث بوصات ، وسرت مع سعيد (الذى يظن حتى هذه اللحظة أننا فى يافا) إلى باب يافا ، واتجهت يساراً إلى فندق مرقص جراند أوتيل ، فوجدته لم يتغير منذ زيارتنا السابقة للمدينة (١٩١٠) ، وطلبت الاطلاع على سجل الزوار القديم ، فوجدت أسماءنا مسجلة يوم ٥ أبريل ١٩١٠ ، وقد حول الأمريكان فندق مرقص إلى مستشفى ، وقمت بزيارة المرضى ، وتحدثت إلى ضابط تركى جريح ، أصيب بتهتك بالكتف ، وظل فندق مرقص محتفظاً بمولده الكهربائى ، و٣٠ سريراً ،

(٨) جمع اليهود العملات الفضية من السوق ، خاصة أن العملة الورقية كانت لا تحظى بالقبول فى التعامل ، ومن ثم تحكموا فى سعر الصرف .

كما استعاد مبلغ ١٦ ألف ليرة تركية كان الأتراك قد صادروها ، وتعرض للتخريب ، ولكنه سيستعيد تألقه - دون شك - عند تحقيق السلام .

وتوجهت بعد ذلك إلى محلين من محلات بيع التحف ، بدا عليهما البؤس ، وكان بينهما محل طرازى الذى يملك أخوه محل التحف المقابل لفندق شبرد بالقاهرة .

والتناقض واضح بين بغداد التى يصعب عليك أن تجد فيها حجراً فى موضعه ، والقدس التى تبدو متماسكة ، فالمقارنة دائمًا تأتى لصالح القدس .

بعد الغداء ذهبت إلى حارة ودير الأرمن الذى سبق لى زيارته عام ١٩١٠ ، وهو مبنى يثير الاهتمام والحيرة معًا . وكان الأتراك قد أبعدوا البطريرك والمجمع الكنسى إلى دمشق مع تعليمات مشددة بأن يحملوا معهم كل المقتنيات الأثرية الثمينة « من أجل الحفاظ عليها » ، وهى تعليمات نفذت شكلاً وأهملت موضوعًا . وقد قدر نائب البطريرك عدد أتباعه بما يتراوح بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ فرد ، إضافة إلى ٣٠٠ من المهاجرين الأرمن . ويقيم بضع مئات منهم فى الصلت وراء الأردن « فى حالة يرثى لها » ، وكانت الحاجة ماسة إلى الطعام وليس إلى المال . وتزين قاعة الاجتماعات بالدير صورة للملكة فيكتوريا والملك إدوارد السابع (عندما كان أميرا لويلز) . وكنيسة القديس جيمس التابعة لهم ذات سحر يفوق الوصف ، فهى على الطراز البيزنطى ، مربعة ذات إيوانين والأعمدة التى تحمل القبة فى وسطها مغطاة بخزف كوتاهية الأزرق اللون ، وقد صحبونى لزيارة مقبرة القديس جيمس حامى الكنيسة .

وفى طريق العودة ، اتجهت إلى مبنى البلدية - مرة أخرى - حيث وجدت رئيسها حسين أفندى الحسينى يرأس اجتماعًا ، فترك الاجتماع وصحبنى إلى حجرة الاستقبال لنتحدث معا . وهو رجل متوسط العمر ، مهذب ، يتحدث بعض الإنجليزية ، فقد زار إنجلترا وأمريكا من قبل ، وقد أعطانى انطباعًا بأنه رجل أمين متواضع ، هدده الأتراك بترحيله خارج البلاد ، فظل محتفظًا بحقائبه معبأة بمتاعه جاهزة للتحرك . ولم يكن يعرف شيئًا عن المدينة (المنورة) التى كان عرب لورانس يفرضون عليها حصاراً منيعًا ، وقدأطلعته بصراحة تامة على واقع الحال هناك .

ويبلغ تعداد المسلمين بالقدس ١١٠٠٠ نسمة من السنَّة معظمهم من الشوافع والأحناف ، وقد ترك بعض الموظفين الأتراك عائلاتهم بالمدينة لثقتهم فى حسن معاملة الإنجليز ، ورتبت زيارة للمفتى فى مقره التاسعة والنصف من صباح اليوم التالى .

ثم قطعت بعد ذلك مسافة طويلة سيراً على الأقدام إلى الأرمن الكاثوليك ؛ حيث التقيت المونسيور يوسف كالبجيان نائب البطريرك فى حجرته التى تجمع بين النوم والاستقبال ، على ضوء مصباح تتراقص شعلته ، وكان هذا كل ما لديه على مدى السنوات الثلاث السابقة . وتحمل كنيسته اسم كنيسة المحطة الرابعة أو التشنج ، ومن المفترض أنها أقيمت فى الموضع الذى التقت فيه السيدة مريم بالمسيح حاملاً الصليب ، وأصابها الإغماء . وعندما عين نائبًا للبطريرك عام ١٩١٥ وجد أن الدير مدين بمبلغ ١٥٠٠٠ فرنك ، ولم تكن لديه أى موارد ولا تتوافر به وسائل الراحة . وقبل الحرب كان به خمسون فرداً زاد عددهم إلى ١٣٠ فرداً نتيجة ترحيل الأرمن من الشمال ، كما إن هناك ما يزيد على ٤٠٠ فرد من النساء والأطفال فيما وراء الأردن يرتحلون من مكان لآخر فى حالة بؤس شديد .

وقد وعدت ببذل أقصى الجهد لمساعدة هذا الرجل النبيل الشجاع . وعدت أدراجى إلى الفندق عبر الأسواق التى لا يضيئها سوى ضوء القمر فى صورة رومانسية رائعة .

وبعد العشاء ذهبت لزيارة بيكو فى دير فرنسى ضخم ، ووجدته يشكو بمرارة بالغة من أن ألّنبى لم يقدم له أعيان المدينة عند دخوله لها ، كما لم يقدمهم للممثلين العسكريين الفرنسيين والإيطاليين ، وأنه لم يتم وضع حراس فرنسيين عندالقبر المقدس والكازانوفا (بيت الضيافة الفرنسسكانى الضخم) . وأنه لم يحدث أى تقدم فى الاتجاه نحو « إقامة إدارة مدنية إنجلو – فرنسية » ، وأن ذلك « يثير حساسية بالغة عند الرأى العام الفرنسى » . وأنه ما كان ليقبل بالحضور إذا كان على علم بمعاملة الفرنسيين على هذا النحو ، وقال إننا لا نعلم مدى ما لقيه سقوط القدس من ابتهاج عندالفرنسيين . فقلت له : « لك أن تتصور أثر ذلك عندنا ، خاصة أننا قمنا بالاستيلاء على المدينة المقدسة » . وإننا فى إنجلترا نعيش فى عزلة ، ونتمسك بتقاليد قديمة ،

وعندما رأينا الفرنسيين من أصحاب المذاهب الدينية يردون من فرنسا ويستقرون فى بلادنا ، وأحكام الصلب تصدرها المحاكم الفرنسية حيث اختلط اسم الرب بالطقوس الماسونية ؛ تعجبنا - جهلاً منا - من السبب الذى يدعو حلفاءنا الكبار إلى أن يزعجوا أنفسهم (ويزعجونا) بوضع سياسة مشتركة خاصة بالأراضى المقدسة . فـــرد قــائلا : « إن ذلك يحقق المصـــلحة المشتركة ويقوى موقف الحلفاء فى نفس الوقت » ويجب أن نلتزم به .

أطـــلعت بورتون وكـلايتـون على مـوقف بيكو ، وحـذرتـهـمـا منه ، نمت فـى تمام الحادية عشرة .

٢٢ ديسمبر ١٩١٧ - شمس ساطعة ، وجو دافئ ، بسرت مع سعيد وشرطى عربى فى الطريق لزيارة المفتى الذى يقع مكتبه فى مبنى يطل على الحرم الشريف . وقد استقبلنى فى حجرة مربعة ذات طراز ينتمى إلى العصور الوسطى . والمفتى هو كامل أفندى ابن عم حسين أفندى الحسينى ، ويتولى منصبه بحكم النسب ، ويبلغ من العمر ٤٥ عامًا ، ملامحه وسيمة ، وملابسه أنيقة ، لم يقرأ « المقطم » أو غيرها من صحف الحلفاء منذ ثلاث سنوات ، وسعد عندما وعدته بأن أبعث له بأعداد شهر كامل منها ، ومن وقت لآخر كان يأتى أصحاب الحاجات بطلباتهم فيوقع عليها ، وينسحبون فى سكون دون أن يؤثر ذلك على حديثنا معًا . وقد مكثت معه أكثر من ساعة ، واستنتجت من الحديث - ضمن أمور أخرى - أن خزانة الأوقاف وملاجئ الأيتام تضم ٤٠٠٠ ليرة تركية من أوراق النقد التركية المتهاوية القيمة ، والتى يدفع منها مرتبات نحو سبعين موظفًا عند نهاية كل شهر . وعرض على زيارة الحرم بصحبة أحد أبناء عمومته ، وقد تم ذلك بالفعل ، ولكن عندما كنا على وشك دخول قبة الصخرة منعنا الجنود الهنود من ذلك (تمامًا كما حدث فى ضريح الجيلانى ببغداد) ، وأبلغونى بأن لديهم أوامر بمنع الضباط وغيرهم من الدخول ، وكنت قد شاهدت قبة الصخرة مرتين فى زيارتى السابقة قبل سبع سنوات ، وأتذكرها جيداً لدرجة إصرارى على مشاهدتها مرة أخرى قبل مغادرتى القدس ، واكتفيت بتوزيع بعض الصدقات على الأطفال وغادرت المكان شاكرًا لمرافقى ، باعثًا بتحياتى وتقديرى إلى المفتى .

مررت عبر الحى اليهودى حيث كان الكثير منهم يستمتعون بقضاء عطلة السبت جالسين تحت الشمس فوق أسطح منازلهم . وقمت بزيارة بطريرك الروم الأرثوذكس حيث كان فى استقبالى ثمانية من الأساقفة وعدد آخر من رجال الكهنوت ، وقادونى إلى المجمع الكنسى ، وقد تم ترحيل بطريركهم وبطانته إلى دمشق أيضا وهم فى غاية الحزن لقضاء أول عيد للميلاد منذ مئات السنين دون وجودالبطريرك بينهم فى القدس ، وقدتبادلت الحديث معهم بالإنجليزية والفرنسية كما تبادلت الأنخاب معهم ، وهى من نوع غريب من النبيذ . واتضح أن الترك قد سلبوا منهم الكثير ، ولكنهم احتفظوا بمكتبتهم سليمة وكذلك الآثار الدينية القديمة ، ودعونى لزيارة القبر المقدس ، ثم قاموا بتوديعى بنفس الحفاوة التى استقبلت بها .

سرت بعد ذلك إلى منزل ألبينا فى الحى اليهودى بجوار مدرسة الفنون والصنائع اليهودية ، لتناول الغداء بدعوة منه . وأمه سيدة طيبة ظلت هنا طوال سنوات الحرب ، ذكرت لى أن الأتراك قطعوا أكثر من عشرة آلاف من أشجار الزيتون لاستخدامها كوقود للقطارات ، مما أدى إلى تعرية التربة بطريقة بربرية .

عدت إلى الفندق ، وصحبت سعيد والشرطى العربى فى جولة بالمدينة ، والتقيت ضابطين (بريطانيين) ساعدتهما على شراء بعض التحف بسعر معقول ، ثم عدت إلى خارج الأسوار لزيارة المبنى الضخم الذى أقيم خارج باب دمشق لسكنى الحجاج الألمان حيث قابلت كاهنا ألمانيا وتبادلت الحديث معه . ومررت بجبل الزيتون مرجئًا زيارته إلى فرصة أخرى .

ولا شك أن المدينة تمر بسرعة فى كل عصر عبر ذكرى مأساوية ، ولعلها تكون قد عبرت عصر عطائها رغم أنه لا يدخل فى اهتمامها أو يجذب انتباهها ، فليس لها بهاء فينيسيا ولا عظمة طيبة المندرسة ولا وفرة فيرارا ، لكنها شىء من الماضى يفتقر إلى التماسك والاندماج بين القديم والحديث ، ولا تحاجى التاريخ المكتوب .

عاد كلايتون من القيادة العليا ، وأبلغنى بانتصار قواتنا فى العوجة ويافا ، وقتل وأسر الكثير من الأتراك ، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث حتى الحادية عشرة مساء ، عندما خفت - تدريجيا - النور الكهربى .

٢٣ ديسمبر ١٩١٧ - ريح قوية زادت من صعوبة الاستيقاظ ، ومياه الاستحمام جعلتنى أعيد النظر فى نظام حياتى كله . سـرت فى الطـريق بصحبة سـعيد وسليم (الشرطى العربى) وأحد يهود بخارى الذى وعدنى بمشاهدة كل أنواع المعجزات .

وفى الحادية عشرة ذهبت لزيارة جمعية اليهود الأشكنازيم بناء على موعد سابق . وقد استقبلنى نحو العشرين منهم بحفاوة بالغة فى قاعة الاجتماعات ، وهى حجرة طويلة واسعة بالدور الأول ، يصل إليها درج جانبى ، ولكنها لا تتلاءم مع مظهر الحاخامات ذوى العباءات والقبعات المصنوعة من الفراء الذين جلسوا أمامى على جانبى الطاولة . واللغة الوحيدة التى يفهمونها هى اليدش ذات الصلة بالألمانية ، رغم أن بعض الأفراد يتحدثون العربية والفرنسية ، وتحدث الشخص الذى كان يجلس إلى يمينى بلغة إنجليزية مقبولة ، وسألتهم عما إذا كانوا قد لاحظوا أن تاريخ دخول أللنبى القدس قد وافق عيد هانوكاح المكابى ، فتلقيت رداً تمثل فى صيحة استحسان ، وقالوا إن أنباء الحرب العظمى وصلت إلى القدس فى اليوم التاسع من آب «أغسطس» يوم الذكرى السنوية لتحطيمها على يد الإمبراطور تيتوس ، وهناك ٢٨ ألف يهودى بالمدينة ، منهم ١٦ ألفًا « هم الأكثر أهمية كمًّا ونوعًا » من الأشكنازيم (وهو ما يدعو إلى العجب) ، و١٤ ألفًا من السفارديم وعدد غير معروف جيداً من يهود اليمن وبخارى [٩] . وقد عانوا جميعًا معاناة شديدة على يد الترك ، وخاصة بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية التى حرمتهم من الحماية التى كفلتها لهم جنسياتهم الأجنبية فتعرضوا للقبض عليهم دون مبرر ، والضرب المبرح عند الاستجواب ، وقد أساء الترك تفسير تصريح بلفور ، ولكنه أثار حماس اليهود . ووعدت بأن أطلعهم على النص الأصلى للتصريح ، وقد واجهتهم باحتكار تجارة العملة ، فووجهت بمزيج من الدفاع والإنكار . مدعين أنهم « لم يحتكروا العملة ، ولكن إذا كان تجار القمح والسمسم المسلمون يرفضون حتى العملة المصرية (التى هبطت قيمتها الآن بنسبة ٦ ٪) ويرفضون أوراق النقد ، ويصرون

(٩) هذه الأرقام كما وردت بالأصل ، ولكن العدد غير دقيق : إذ يعنى ذلك أن سكان المدينة من اليهود كانوا يتجاوزون الثلاثين ألفًا . (المعرِّب)

على البيع بالعملة المعدنية ، فلا يلام اليهود إذن عند احتكارهم لتلك العملة » . وعند ذلك الحد من النقاش ، جيء بالمربى وبراندى صهيون والسكر والبندق من أجل إنعاشنا [١٠] . وأجبرت أن أرد على اقتراحهم شرب نخب جيش التحرير أن أقترح شرب نخب سعادة ورفاهية الطائفة اليهودية بالقدس ، وعندما سألتهم عما إذا كان بينهم شعراء أو فنانون أو موسيقيون كما هو الحال بين اليهود فى أوروبا ، رد أحدهم ببرود إن اهتمامهم كله مركز على الدين ، فعلقت على ذلك بأن والد سليمان نظر إلى الحياة من زاوية أكثر اتساعا من رؤيتهم لها وهمهموا بالموافقة (ولكنهم متعصبون) . وأشاروا إلى عائلات زانجويل وقطاوى وسوارس وموصيرى بمصر ، وهورنشتين بكييف . وقد أحسست بثقل هذا المجمع الدينى بعد ساعة من الزمن ، وأردت أن أتنفس فى جو أكثر سهولة من ذلك الجو .

وقد صحبنا المرافق إلى أبعد نقطة فى المستعمرة العبرية ، والتقينا البخاريين من الذكور والإناث يرتدون رداء الباليه الروسى ، حتى وصلنا إلى البيت الأخير حيث تجلس أم وابنتها وحفيدها على سرير واحد ، بينما قام رجل البيت بالحفر تحت السرير ليخرج لنا قلادة قبيحة الشكل ، فأدركنا السبب الذى جعله يقودنا عدة أميال إلى هذا المكان ، وفى البيت التالى أخرجت أخرى من تحت سريرها صديريًا بخاريًا سيئ النوع والشكل ولا يستحق الشراء . وقال سعيد « هذا الرجل ضحك علينا ويجب عقابه على ذلك » ، ولكن أملى فى مستقبل أفضل جعلنى أتركه لحال سبيله .

إذا لم يستمر بورتون فى عمله ، أعترف أن أمامى فرصة كبيرة للحلول محله ، وأعتقد مخلصًا أن بإمكانى أن أفعل شيئًا بهذا المنصب مستخدمًا ما لديه من

(١٠) لم يكن الاحتكار هو الشكل الوحيد للاستغلال الذى يمارسه اليهود ، فقد اكتشفت الرقابة على البريد خلال الحرب تأخيراً متعمداً فى النقل لصالح القائمين على تلك الخدمة . وكانت هناك المئات من الخطابات التى أرسلها شخص واحد إلى جهات متعددة فى مختلف أنحاء العالم طالبا المعونة المادية ، وعند استجوابه اتضح أن لديه فى بيته آلاف النسخ المطبوعة من ذلك الخطاب ، وقد تم إتلاف كل الرسائل ومصادرة ما لديه منها ، وطلب منه أن يحذف العبارة العبرية المقدسة التى يضعها على رأس الخطاب ، فاستغرقت عملية قص تلك العبارة منه عشرة أيام . ولم يكن هذا الرجل فقيراً (بل كان محتالاً) وتم إنذاره بأنه سيعاقب أشد العقاب إذا أرسل شيئًا منها بالبريد .

مساعدين يعدون من أشباه الخبراء . ويتطلب ذلك تحمسًا ، وطاقة ، وفكرًا أكثر مما يتطلب خبرة إدارية روتينية ، ولكن ليست أمامى فرصة لتحقيق هذا الأمل .

قبل أن أخرج ، ذهبت إلى حجرة الاستقبال حيث التقيت ضابطًا برتبة كابتن يرتدى سروالاً قصيرًا وسيجارة تطل من شفتيه يلعب على البيانو أصعب مؤلفات شوبان وليس بدرجة عالية من الحرفية والمهارة .

بعد الغداء ، ركبت السيارة مع كلايتون وضابط مخابراته الذكى وودز (نجل الأميرال) ، لنرى ما إذا كانت هناك مناطق معرضة للخطر بالقرب من خط النار لايزال بعض الألمان يقيمون بها ، وذهبنا أولاً إلى ديرهم الضخم بجبل الزيتون الذى افتتحه الأمير إيتل فريتز عام ١٩١٠ ، وقد بنى الدير على طراز عمارة الراين فى العصور الوسطى ، ومازال بالدير بعض الراهبات الألمانيات ، ولكنهن لم يمكثن هناك طويلاً فى حجراتهن التى تقع على بعد تسعة كيلومترات من موقع المدافع ، وصعدنا البرج الكبير الذى يطل على القدس من موقع بالغ الأهمية ، ووجدنا فى قمته أنوارنا الكاشفة وتلسكوبًا وجندى الاتصالات يجلس أمام جهاز الهاتف . والمنظر بديع أسفل البرج حيث الجرس الذى يحمل عبارة « الخلود والمجد للمسيح » . وعند نزولنا سمعنا الأورج يعزف ترنيمة إنجيلية ، وفتحنا بابًا لنجد أنفسنا فى الكنيسة البيزنطية ، وهى جميلة ما عدا الرسوم الموجودة بالسقف التى تمثل القيصر وزوجته .

ثم ذهبنا بعد ذلك إلى الدير الروسى ، فوجدناه فارغًا مهجورًا ، ولكن يسهل على من جبلوا على الشر استخدامه لإرسال الإشارات حتى على فرض أننا مازلنا نعتبر الروس من حلفائنا .

ودرنا بعد ذلك حول المدينة عبر الطرق المغلقة والمحظورة إلى بيت لحم التى أذكرها جيدًا كموقع يستحق تقديرًا لا حدود له . ومنعنا مخفر بريطانى من الاقتراب من كنيسة المهد التى لا يزيد مدخلها على ياردة مربعة ، حيث سيعمل بيكو على تأكيد حماية فرنسا للمسيحية الكاثوليكية من خلال حضوره قداس عيد الميلاد الذى سيتولى حراسته عشرون من الفرسان ، وسوف يرسل أللنبى الجنرال بولفن وبعض ضباط الأركان ليثبت وجودنا ، وقد قررت (سرا) أن أكون من الحضور . سرنا حول الكنيسة

إلى الشارع الذى يقع خلفها إلى المحل الذى اشتريت منه أنا وخالى هنرى كست بعض التحف عام ١٩١٠ . والتففنا حول الكنيسة إلى الدير حيث المغارة ؛ فالتقينا ملازمًا ثانيًا يتحدث بلكنة كندية يعاونه جندى ، يتصرف ببرود وبكفاءة باعتباره الحاكم العسكرى للمنطقة .

عدنا فى الساعة السادسة والنصف مساء ، وتناولت العشاء مع رجلين لعل أهمهما يعد أستاذًا فى فن الثرثرة . كتبت يومياتى وأويت إلى الفراش فى الحادية عشرة .

٢٤ ديسمبر ١٩١٧ – اتفقت مع كادوجان وفرانسس رود أن أصحبهما فى جولة حول المدينة . لم يكن بورتون متأكدًا مما إذا كان باستطاعته حضور قداس عيد الميلاد بكنيسة المهد ، واتجهت إلى المكتب لأقنعه بحسم الأمر ، ولكنه رفض . وبينما كنت فى طريقى لقبول دعوة بيكو توصيلى بالسيارة ، استدعانى بورتون ، ولكن عندما دخلت حجرته ، كان هناك بياباب الفرنسى الذى أصبح أجو ستينو الإيطالى ، جاء ليعلن سخطه على ما يسببه الفرنسيون من توتر فى بيت لحم ، ولم يكن متأكدًا مما إذا كان هو وغيره من الإيطاليين سوف يحضرون القداس ، فماذا كان باستطاعة بورتون أن يفعل ؟ فقلت إنهم إذا عوملوا على قدم المساواة مع الجنرال البريطانى قائد الجيش الغازى ، فلا أرى مبررًا للشكوى ، وإن مهمة الحاكم أن يجعل كلا منهم يدرك ذلك ، سواء ذهبوا إلى الكنيسة أو لم يذهبوا . فوافق بورتون على أن يجيب على هذا النحو الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، وطلب منى – فى الوقت نفسه – أن أذهب معه لحضور القداس ، وأن يسبق ذلك استشارة الحاكم المحلى حول المداخل والأماكن ، وغيرها .

تجولت مع كادوجان وفرانسس فى السوق دون أن نجد أى شىء يستحق الشراء ، سوى طبق أرمينى منقوش ثمنه شلن واحد .

رد المفتى ورئيس البلدية وبطريرك الروم الأرثوذكس زيارتى ، وأهدانى الأخير سلة كبيرة من العنب الكبير الحجم الذى لا يؤكل .

فى الساعة الرابعة بعد الظهر ذهبت مع بورتون بالسيارة إلى بيت لحم تحت المطر الغزير ، ليعبر عن رضانا عن رؤية المندوب الفرنسى وهو يدخل ويخرج من كنيسة المهد ، بينما لم يسمح لنا أى مخفر بريطانى بالدخول ، وهو أمر لا تجده إلا حيث يوجد الحكم البريطانى ، ويرجع ذلك إلى حدوث اضطراب فى إصدار الأوامر ، أراه سيئًا . عدنا إلى المغارة حيث بدا أننا قد تلقينا كل أنواع التعليمات المتناقضة ، ثم عدنا إلى القدس .

وهناك التقينا بالبريجادير جنرال فيتزجيرالد ، وجاى دوناى ، وديدز ، وچورچ لويد . وتناولنا العشاء على مائدة كبيرة معًا ، وقد أعجبنى دوناى لتميزه ومقدرته وشبابه (يبدو فى الثلاثين من عمره) .

وفى العاشرة والنصف مساء ذهبت مرة أخرى بالسيارة مع بورتون إلى بيت لحم فوصلناها حوالى الحادية عشرة مارين بالكنيسة اللاتينية (الكاثوليكية) ثم وراءها إلى الكنيستين الأرثوذكسية والأرمنية . والمبنى مجرد مكان عام عبارة عن كنيسة ذات عقود تنتمى إلى القرن الثامن عشر ، والحوائط زرقاء باهتة ، والأورج فى مكان النافذة الشرقية ، والمذبح مزين بفازات معدنية ، وفى الواجهة اليمنى للإيوان يوجد عرش مذهب ، وفى الممر النساء المتزوجات فى زى مطرز ينتمى إلى العصور الوسطى (قيل إنه يرجع إلى أيام الحروب الصليبية) . وفى الصف الأول من الجانب الآخر ، وضعت مقاعد كبيرة لبولفن وضباط أركان الحرب ، ولبورتون ولى ، وكان القداس مستمرًا منذ ساعات قبل أن نأخذ أماكننا ، وبقيت ٤٥ دقيقة حتى يحين منتصف الليل . عندئذ قرعت جميع الأجراس وذهب وفد من الشمامسة داخل الكنيسة ، وعاد وبصحبته بيكو - رئيس الحفل - ومعه رجاله ، وكذلك بولفن واثنان من مساعديه ، أما الإيطاليون فامتنعوا عن الحضور .

وبدأ القداس عندئذ باثنين من الرهبان الفرنسسكان تحيةً وتقديرًا لبيكو الذى انحنى تمامًا لرد التحية ، ولم تكن هناك أى إشارة لتحية بولفن أو الحاكم ، أما الأسقف فكان رجلاً عملاقًا شجاعًا لا يعرف إلا القليل عن دوره ، جهورى الصوت فى صلاته ويردد الترانيم فريق من الشمامسة المدربين جيدًا . ويبدو أن الجهد الذى بذله ثمانية من الشمامسة الشوام كان وراء حسن أداء القداس ، وكانت

الترانيم شجية ممتازة رغم عدم جودة الأورج ، وكان يجلس خلفنا نحو الأربعين من الضباط البريطانيين .

وفى الساعة الواحدة والنصف جيء بشمعة عظيمة سمكها بوصتان أضيئت وقدمت لبيكو ، على حين قدمت شمعة سمكها بوصة واحدة لبولفن وشموع صغيرة لكل منا ، ودرنا حول الكنيسة حيث سار موكب رجال الكهنوت يتبعهم بورتون وأنا وبقية الحضور عبر كنيسة الروم الأرثوذكس من خلال باب ضيق هبطنا الدرج إلى المغارة التى كسيت حوائطها بالستان . وبعد أداء عدة صلوات جيء بدمية على شكل طفل كانت محمولة على سرير صغير مذهب ومحمولة طوال طقوس الصلاة والموكب ، ووضعت الدمية فى إيوان المزود ، وعاد الموكب الجليل بروعته وجماله وأزيائه من حيث أتى . واستمر القداس حتى الساعة الثانية والنصف صباحًا ، عندما غادرنا المكان رسميا ولحقنا ببيكو بالطابق الأعلى حيث كانت هناك مائدة عشاء من الديوك الرومية التى جلبها خصيصاً من القاهرة بسان كونيتا (الملحق العسكرى بالقنصلية الفرنسية بالقاهرة) . وعدنا أدراجنا فى الثالثة صباحًا لنجد المطر مستمراً والشوارع قد تحولت إلى أنهار .

ولكن المسكين بورتون كان يعانى الأرق ، ويشعر بآلام حادة خلف الرأس ، وحاولت أن أسرى عنه ببعض القصص ، ويبدو أننى قد حققت قدراً من النجاح . وأويت إلى الفراش فى الرابعة صباحًا ، وكانت عيناى متعبتين من الضوء .

٢٥ ديسمبر ١٩١٧ – استيقظت حوالى السابعة والنصف أعانى ألمًا شديداً فى عينى ، وظللت فى الفراش حتى التاسعة أستمع إلى صوت سقوط المطر ، وذهبت بعد ذلك فى جولة بدير الأرمن ، وهو أكثر الأماكن إثارة عندى ، وتفحصت جيداً كنيستهم ومجموعتها النادرة من السجاد الجيد ، وإن لم يكن من الدرجة الأولى . وغطاء المذبح الغنى بالتطريز البيزنطى وغيرها من التحف البديعة ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى المكتبة التى تضم ثلاثة آلاف من المخطوطات المفهرسة ، وبينها العديد من المخطوطات ذات القيمة الفنية العالية ، وهى من أحسن المكتبات التى رأيتها .

أخبرنى كلايتون قبل الغداء أن بورتون قدم استقالته ، وأن أللنبى قد قبلها . وأطلعنى على تقرير رسمى كتبه كاثكارت جارنر (كبير أطباء الإدارة العسكرية) جاء فيه أن الأعراض التى يعانى منها بورتون تشير إلى انهيار عصبى يجعله لا يصلح للاستمرار فى العمل .

خرجت مع كلايتون وفيتزجيرالد ، وچورچ لويد ، وكادوجان لزيارة كنيسة القبر المقدس الذى لا يفتح إلا فى الرابعة ، لذلك سرنا نحو الحرم الشريف وما يقرب من موقع المعبد ، وكانت الحوائط والأعمدة تتألق بعدما غسلتها الأمطار ، وعدنا أدراجنا ودخلنا كنيسة القبر المقدس بعد الرابعة بقليل . وقبلت أنا وكلايتون الغطاء المرمرى للقبر وشرحت كل ما يتعلق بالمكان للجنود الأربعة الذين كانوا معنا لخدمتنا مستعيداً ما أحسست به عند زيارتى للمكان مع خالى قبل سبع سنوات .

تحسن الطقس عند عودتنا للفندق ، ولكننى وچورچ لويد وكادوجان صممنا على الاستفادة من تحسن الطقس ، فسرنا نحو باب دمشق ، بينما كان لويد يطرح أمامى البدائل التى تشغل باله عندئذ بقدر كبير من الموضوعية ، فقد أبرق إليه أوستن تشمبرلن عارضاً عليه سكرتارية اللجنة المالية للحلفاء . دوناى أبدى ملاحظته عن تدنى الوسائل المتاحة هنا ، فلورانس والحجاز يدعوان للتوجه جنوباً ، ولكن فرقته التى يمتدحها فيتزجيرالد تعمل فى الغرب ، وقد تبادلت الحديث مع ثلاثتهم .

لم أتلق خطابات أو أخباراً منذ غادرت القاهرة .

٢٦ ديسمبر ١٩١٧ - لا أخبار فيما عدا ما قاله چورچ لويد من أن البابا سوف يمنح بركاته لكل من يستطيع الاستيلاء على القدس . شغلت بالكتابة والعمل فترة الصباح ، بعد الغداء سرت مع وودز فى اتجاه باب العامود إلى جبل الزيتون ؛ حيث وقفنا إلى جوار بطاريات المدفعية التى تقصف أريحا .

تناولت العشاء فيما بعد بالكازانوفا مع بعض الفرنسسكان والإيطاليين من الضباط ، فقضيت وقتاً طيباً معهم ومع فرانسس الذى عدت بصحبته إلى الفندق على ضوء القمر .

٢٧ ديسمبر ١٩١٧ – شغلت بالكتابة صباحًا ، وبعد الغداء صحبت بورتون فى جولة إلى الأسوار وعدنا بطريق الحرم ، وكانت شمس الأصيل تنعكس على المبانى الكبيرة والجبال فتزداد تألقًا .

٢٨ ديسمبر ١٩١٧ – استيقظت مبكرًا لتوديع بورتون ، وانتظرت معه فى البرد لمدة ربع ساعة حتى ظهرت سيارته فودعته فى الثامنة والنصف . وكنت أرتجف على مائدة الإفطار قبل سفرى بدورى إلى القاهرة ، عندما لمح إلى ريس موج تلميحًا غامضًا ؛ إذ قال إننى بحاجة إلى بزة رسمية قبل كل شىء ، ثم أطلعنى على برقية من القيادة العامة تفيد تعيينى مؤقتًا برتبة لفتنانت كولونيل حاكمًا عسكريا للقدس .

الفصل الثالث عشر

حاكم عسكرى للقدس

(١٩١٧ - ١٩٢٠)

لم تكن هذه البرقية تقدم عرضًا ، ولكنها كانت أمرًا بالتعيين واجب التنفيذ على الفور ، وقام سعيد بتفريغ أمتعتى من السيارة الفورد ، ونقلها إلى الجناح المتميز الوحيد فى فندق فاست . وسرت تحت المطر الغزير إلى مقر الحاكم الذى كان يمثل صفًا من المكاتب غير المريحة بالطابق الأرضى من فندق هيوجز ، فى مقابل حدائق البلدية على طريق يافا . ولم تكن لدى كفاءة عسكرية أعتد بها ، وليس لدى سوى خبرة إدارية محدودة ، ولكن كانت عندى معرفة دقيقة وعميقة (بالنماذج الإيجابية والسلبية) لعملية الحكم ذاتها ، وتفاعلات المجتمعات الشرقية معها ، واقترن ذلك كله بتحمسى الشديد للقيام بهذه المهمة (وهو الحماس الذى ظل ملازما لى) ، والتشبث بالفرصة التى أتيحت لى وأصبحت بين يدى .

وفوق ذلك كله ، هناك « فرق شاسع بين الفعل ، وبين النصح والاقتراح والتوصية الذى كان طابعًا لعملى طوال تلك السنين » . وقد أقمت علاقة ودية مع فريق الموظفين العاملين معى : الكولونيل ريس موج الذى كان يعانى مرضًا شديدًا ، ومعاونه الكفء الكابتن برستاو ، والكولونيل جارنر وهو رجل أيرلندى حازم معار من مصلحة الصحة المصرية ، والماجور بورك صاحب القدرات العملية ، وجددت صداقتى مع جبرائيل حداد بك ، وهو مسيحى شامى جيء به من الإسكندرية ليعمل مستشارًا محليا لبورتون ، وهو رجل كفء مخلص وجذاب ، كانت خدماته فى الأيام الأولى التى يسود فيها الجهل التام والشك تفوق كل تقدير .

وقفت على ما أمكننى الوقوف عليه من معلومات ، ثم عدت إلى فندق فاست لتناول الغداء ، وسمعت فى بهو الفندق ضابطا برتبة ماجور جنرال ، يسأل عن أحسن الغرف بالفندق ، واعتذر له المستر فاست لأن الحاكم العسكرى للمدينة يشغل تلك الغرف ، فرد الجنرال واطسون قائلاً : « أنا الحاكم العسكرى » ، وكان فى أثناء تسرعه فى القدوم من جنوب فلسطين لم يستطع تسلم البرقية التى تفيد العدول عن تعيينه حاكمًا عسكريا للقدس . وقد أعطيته جناحى الخاص لليلة واحدة ، وصحبته فى جولة

بالمدينة ، وبعد ثمانية عشر شهراً عاد إلى القدس مرة أخرى ، ليشغل هذه المرة وظيفة الحاكم العام .

القوات البريطانية التى حاربت ببسالة خلال البرد الشديد والضباب شبراً شبراً على القمم الحجرية لجبال يهوذا متحملة الآلام والتضحيات ، وجدت فى استيلائها على القدس إحساساً بالغبطة والمجد ، وهو إحساس قلما نجده فى الحرب العظمى ، ولكنهم لم ينالوا شيئاً غير ذلك . لقد لقوا ترحيباً كبيراً من السكان بما يشبه الأمل (فى عهد جديد) والسعادة (لتخلصهم من الترك) ؛ لأن تلك كانت الأيام التى يبدو فيها الفزع الشديد فى أعين الرجال ، وطعم عدم الارتياح ما زال فى حلوقهم . عندما قام الترك بنفى عائلات كاملة من المسيحيين بسبب صداقتهم للحلفاء ، سواء كان ذلك حقيقة أو ادعاء . وكان لا يعطى للمنفيين أكثر من ساعة واحدة لمغادرة وطنهم إلى داخل الأناضول . وقد شنق قاض مسلم على باب يافا ، وعذبت فتاة يهودية حتى دفعها التعذيب إلى الانتحار . ولكن الأتراك عندما انسحبوا من المواقع التى جثموا فوقها لأربعة قرون ، حملوا معهم الأموال ، والدفاتر ، والسجلات ، والأدوية ، والآلات الجراحية ، ومعظم الأثاث ، وجميع كميات الطعام ، وعلى وجه العموم ، كل شىء له نفع ولو كان محدوداً قد تستفيد به المدينة أو القوات المحررة لها .

كان الجليد يتساقط فى مختلف أنحاء يهوذا ، ولما كنت قد وصلت قبل أسبوعين فقط، وكانت الحلة التى تشبه البزة العسكرية ، والتى أعددتها لأرتديها عند سقوط إستانبول ، قد أبلاها حر العراق ؛ لذلك عانيت البرد ، وطلبت الحصول على يومين إجازة أسافر فيهما إلى القاهرة لأشترى بزة عسكرية حقيقية تحمل علامات الرتب التى حصلت عليها ، ولكن الطلب رفض . وقد قضيت الشهر الأول فى عملى الجديد مرتدياً معطفاً ، واضعاً مدفأة برافين بين قدمى .

وخلال أيامى الأولى كحاكم عسكرى للقدس ، كان الكابوس الرئيسى الذى أعانى منه هو ندرة الطعام لدرجة تكاد تبلغ حد المجاعة . وحدث فى صباح أحد الأيام فى أوائل يناير أن تجمع الجوعى تحت نوافذ مكتبى يبكون ويصرخون . ونظرت من النافذة لأرى عدداً من النساء العربيات المحجبات ، ملابس بعضهن ممزقة ، تكشف عن عظام

يكسوها الجلد . وكان مشهد الأطفال الذين يعانون الهزال فى المستشفى كئيبًا ، وبدا الأمر وكأننا دخلنا القدس ليموت سكانها جوعًا . وفيما يلى مقتطفات من مذكرة مطولة ، رفعتها إلى القيادة العامة شارحًا خطورة ذلك .

إمدادات الطعام فى منطقة القدس

« لقد ضمن الجيش البريطانى تأمين المدينة ضد أى هجوم معاد ، ولكن مسألة توفير إمدادات الطعام تحتل المرتبة الأولى فى الوقت الراهن ، وأرى أن السلطات والمؤسسات الخيرية المعنية يجب أن تعرف حقيقة الأمر ، وموقفنا منه .

كانت القدس تحصل على ما تحتاجه من مواد غذائية - حتى قيام الحرب - من مصادر خارجية بقدر أكبر مما تحصل عليه من البلاد المحيطة بها مباشرة . فاعتمدت على مناطق الصلت والكرك وغيرهما من مناطق شرق الأردن فى الحصول على ما تحتاجه من الغلال ، كما تعتمد على يافا فى الحصول على واردات الدقيق التى ترد بحرًا . ومنذ دخل الترك الحرب ، قُطعت طريق البحر ، وبقيت طريق البر مفتوحة . ومع وجود مناطق شرق الأردن الآن فى يد الترك ، عزلت القدس عن موارد الإمدادات بالغلال . ومن الصعب أن نحدد كمية القمح المتاحة الآن فى المدينة أو المناطق المحيطة بها . ولكن يجب أن نتذكر أولاً أن سكان المدينة ينقسمون إلى عدد من الطوائف التى تضمر العداء لبعضها البعض ، وتعانى الإفقار المنظم منذ قرون ، ولذلك تجدهم يعانون العوز وقلة الحيلة . ويجب أن نتذكر ثانيًا ، أن الأتراك لا يُعرف عنهم أنهم عندما ينسحبون من مكان يخلفون وراءهم ما يمكن أكله أو حمله . ومن الممكن أن تكون هناك كميات من المواد الغذائية فى المدينة أو الريف من حولها ، ولكن الفكرة السائدة أن التجار ليس لديهم ما يمكن أن يُباع منها .

ومنذ احتلال الجيش البريطانى للمدينة ، عاشت المدينة على ما كان باقيًا لديها من كميات مخزونة ، وما تم الحصول عليه خلال الشهر الماضى لا يكفى الاستهلاك المحلى سوى لأربعة أو خمسة أيام ، وبالنسبة للقرى يُخفى الفلاحون ما لديهم من

مخزون لاستهلاك عائلاتهم ، ولا يبيعون منه شيئًا إلا مقابل العملات الذهبية . وأى محاولة تبذلها الحكومة للشراء من السوق المحلية سوف تؤدى إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعًا جنونيا ، وتدهور قيمة الجنيه المصرى (من أوراق البنكنوت) .

ولمواجهة هذه المسألة وضعت تسعيرة رسمية حددت السعر الأقصى لكل سلعة من السلع الضرورية ، وألزمت التجار بالإعلان عما لديهم من كميات ، وقد سرى هذا القرار منذ الخامس من يناير ، ولكن النتائج حتى الآن ليست مشجعة بالقدر الكافى فقد أغلقت المخابز أبوابها ، ولا يوجد بالأسواق إلا القليل جدًا من الخبز .

وعلى وجه العموم ، لا يمكن أن نعتبر القدس قادرة فى الوقت الراهن على تدبير ما يلزمها من طعام بنفسها ، ولذلك يجب العمل على سد النقص فى الغلال ، على الأقل لإتاحة الفرصة للفقراء - الذين يشكلون غالبية سكان المدينة - للحصول على حاجتهم منها بأسعار رخيصة . ويحتاج الأمر إلى استيراد مائتى طن من مصر كحد أدنى شهريا ، ويجب أن تتخذ على الفور الإجراءات اللازمة لذلك » .

* * * * *

كنت أجلس إلى مكتبى بعد الظهر بعدما أرسلت هذه المذكرة ، عندما دخل علىَّ ضابط أركان برتبة كابتن معلنًا أن القائد العام يصعدالدرج . كانت المرة الأولى التى ألتقى فيها الجنرال أللنبى الذى جاء ليشجعنى - بطريقته المتميـزة - قائلاً إنه جاء « ليشكرنى على قبولى القيام بهذه المهمة » . وعندما سألنى عن الأحوال ، وعما إذا كنت أريد شيئًا معينًا ، أجبت : « الطعام » ، واعتبارًا من اليوم التالى أخذت شاحنات النقل المحملة بالقمح ترد بانتظام ، فتنفست الصعداء .

ولم تعد الشاحنات فارغة ، فقد طلب العديد من الأفراد الذين ينتمون إلى مختلف الطوائف أن يؤذن لهم بالعودة إلى يافا حيث مقر إقامتهم . وكان ذلك مستحبًا طالما كان لا يتعارض مع اللوائح العسكرية ؛ لأنه يؤدى إلى عودة الأمور إلى طبيعتها ، ولكن لم تكن هناك وسيلة نقل متاحة لإعادة هؤلاء إلى موطنهم ، ولذلك رتبت عودتهم بسيارات النقل الفارغة طالما كانوا قادرين على إثبات سلامتهم الصحية ، وقدرتهم على

تدبير نفقات معيشتهم . وكان سائقو شاحنات قيادة الأركان أقل تميزاً وأكثر تقديراً واعتباراً ، فلم يلاحظ مساعداى وجود امرأة سافرة أو امرأة عجوز بصندوق أى من الشاحنات .

قمت بثلاث جولات الأسبوع الماضى على المخابز وبصحبتى شرطيان ، وأجبرت باعة الخبز على الالتزام بالتسعيرة ، وأن يتم البيع للنساء أولاً ، ثم الأطفال ، فالرجال ، حتى لا يخرج النساء والأطفال صفر اليدين . ولم يكن هناك عدد كاف – فى ذلك الوقت – للقيام بالجولات ، وزاد من صعوبة الأمر اختفاء (الفكة) العملات الصغيرة (التى احتكرها اليهود) ، ولعدم الثقة فى العملة الورقية المصرية (حيث أصبح الجنيه يصرف بسعر ٦٥ قرشاً) ؛ ولذلك أقوم بزيادة كميات العملات من النيكل (وكان اليهود يجمعون العملات الفضية من السوق) وسوف أحاول أن أصدر عملة ورقية من فئة الشلن والشلنين [١] ، ولو وقع فى يدى أحد ممن يكنزون الفضة فسوف يلقى جزاءه .

ولكن أحداً من أولئك لم يقع فى أيدينا ، وقبل أن نتمكن من تحقيق استقرار العملة عن طريق إحلال العملة المصرية محل العملة التركية ، شهدت القدس تجمعاً غريباً ممن لديهم نقود عثمانية لم يستطيعوا إنفاقها ، فاتجهوا نحو البنك العثمانى لتحويلها إلى عملات معدنية صغيرة ، ولكن شرطة السوارى منعتهم من الوصول إلى البنك . وخلال بضعة أيام تم وضع نظام لتوزيع الدقيق والسكر والكيروسين بما يتطلبه ذلك من موظفين ومخازن وشُئون ، وقد بلغ حجم الصفقات آلاف الجنيهات ، وفى ذروة تحمسى لحل مشاكل المدينة ، بدأت فى إعداد قائمة بالعاطلين عن العمل للبحث عن حل لمشكلتهم ، ولكنى صرفت النظر عنها عندما تبين لى أنها قد تضم ٩٠ ٪ من السكان .

وكان المركز الرئيسى الدولى فى القدس يحتله القنصل الإسبانى الكونت باللوبار ، وهو دبلوماسى شاب كان يمثل بالإضافة لبلاده ، البلاد المحايدة ، ثم

(١) وهو ما لم أستطع عمله بالفعل .

الحلفاء، ثم دول الوسط ، أى كل الدول المعروفة فى العالم المتحضر . وكان مسئولاً عن محفوظات وثائقهم ، وعن المبالغ التى كان عليهم سدادها أو تلك التى تسدد إليهم (وكانت بالغة الندرة) ، كما كان عليه أن يبحث مختلف المسائل ، ويجيب على عدد لا حصر له من التساؤلات . وكان واقعيا ، ملتزمًا تجاه غالبية رعايا الدول التى تقع تحت حمايته ، متعاونًا إلى أقصى حد منذ البداية .

لقد تناولت العشاء مع القنصل الإسبانى الذى كان هنا طوال الحرب ، ويحتفظ بيوميات مفصلة لكل ما شهدته المدينة من أحداث يوما بيوم ، ويتطلع الآن إلى تناول المحار والإستاكوزا بفندق شبرد (بالقاهرة) ، وقد أخبرنى أن الأتراك لم يهتموا بمصير المدينة ، وظلوا يشربون ويمرحون حتى الليلة السابقة على الانسحاب منها ، وأن جمال باشا كان عنيدًا ، ولكنه « ولد طيب » ، أما أنور باشا فكان يعشق الشراب ، أما ڤانكهاين وكريس (القائدان الألمانيان) فكانا على درجة عالية من الحماس ، ووفقًا لما آثرنى بالاطلاع عليه من يومياته ، لا أظنه يستطيع نشرها كاملة فى أثناء حياته .

عندما زرت القدس عام ١٩١٠ ، كانت المنشآت الروسية تتألق خارج أسوار المدينة ، وتشمل حيًا مساحته عدة أفدنة ، وكاتدرائية وأماكن لإعاشة حجاج الفصح ، ورغم أن ألمانيا ما لبثت أن تفوقت على روسيا بإقامة المبانى البروتستانتية الضخمة - مؤسسة القيصرة أوجستا فيكتوريا زوجة القيصر - التى تطل على المدينة من فوق جبل الزيتون ، فهناك كنيسة المخلِّص اللوثرية ذات البرج الكبير وسط المدينة ، والتى تطل على باب دمشق وأجزاء من الطريق إلى دمشق وشرق الأردن ، وكذلك كنيسة القديس بولس الكاثوليكية ، أما الأديرة الفرنسية والإيطالية التى أقيمت منذ زمن بعيد ، فإنها رغم ضخامتها واتساعها عن تلك المنشآت الأحدث عهدًا ، إلا أنها كانت أقل منها بهاءً . وفيما عدا الحجاج الروم الكاثوليك ، كان النشاط الأرثوذكسى أكثر وضوحًا وانتشارًا من النشاط الكاثوليكى (اللاتينى) .

وفى عام ١٩١٧ أصبحت المنشآت الروسية مهجورة وشبه مهدمة ، واستخدمت كمعسكرات للقوات العسكرية وما اتصل بها من خدمات .

وجدت فندق هيوجز صغيراً غير مناسب ، فانتقلت إلى بيت ضيافة القديس بولس Paulus Hospiz ، ودفعت منذ اليوم الأول إيجاراً قدره ألف جنيه إسترلينى ، فقد تم إعلان جميع الممتلكات الألمانية الرومانية ملكًا للأراضى المقدسة ، بينما كان على ممتلكات مؤسسة القيصرة (البروتستانتية) أن تنتظر البت فى أمرها عند تسوية الادعاءات الألمانية فى فلسطين فى نهاية الحرب ، وقد لاحظت من هذه المسألة ومن التجارب التالية التى مررت بها أنه رغم أن السلطات كانت حريصة عند إقدامها على المصادرات ونزع الملكية التى تمليها الضرورة ، إلا أن البروتستانت واليونان والأرمن الذين لا يتمتعون بالحماية لم تكن ممتلكاتهم موضعًا للمساومة ، فقد احتفظت السلطات العسكرية والحكومات المدنية بمكانة « الأولى بالرعاية » لدولتين عالميتين هما روما (الكنيسة الكاثوليكية) وصهيون (اليهودية) . كما أن جهود الإغاثة على مختلف أنواعها كانت تقف فى انتظار المؤسسات المسيحية واليهودية ، وليس الإسلامية . وما لبثت أن أقمت مستوصفات مجانية ومطاعم لتوزيع الحساء مجانًا على المحتاجين من المسلمين بفضل المبالغ الكبيرة التى نجحت فى جمعها من المحسنين المصريين .

لقد اختفى الكهنة والرهبان الروس تمامًا ، ولكنى رأيت فى اليوم الثالث لعملى مجموعة من حوالى أربعين امرأة بيضاء من مختلف الأعمار يجلسن فى الطريق تحت المطر الغزير ، ويقمن بتكسير الأحجار لقاء بضعة قروش ، وهن يرتدين عباءات ديرية سوداء ، لقد كن من الراهبات الروسيات ، وهن سيدات انحدرن من أسر عريقة ، وجئن لخدمة الرب فى الدير الذى يقع على جبل الزيتون ، وقد أصبحن الآن بلا مأوى ، فتم نقلهن إلى مكان تابع لصندوق الإغاثة السورية ، وتم تزويدهن بالأقمشة الصوفية والخيوط والأدوات اللازمة لحياكة الملابس الصوفية التى يزداد الطلب عليها .

مستشفى القديس يوحنا لأمراض العيون بالقدس بناء زخرفى طويل يقع إلى الشرق من طريق بيت لحم ، على منحدرات وادى هنوم ، ولذلك يسميه العرب « أبو سلالم » ، وقد قدم المستشفى خدماته الجليلة للمرضى من مختلف الطوائف من سيناء إلى حلب ، دون ضجة أو دعاية ، طوال السنوات السابقة على الحرب . وقد وجدت هذا المستشفى فى حال يرثى له ، فقد اتخذه الأتراك مخزنًا لذخائرهم ، ثم قاموا بنسفه

عند انسحابهم ، وقد قمنا بتنظيف المبنى من آثار التفجير وإزالة القذائف التى لم يتم تفجيرها فى أسبوع تقريبًا ، واستعنت بخبرة ونصائح ماك كلان من القاهرة ، وسوف يستغرق بناء ما تهدم عدة شهور قبل أن يصبح المستشفى قادرًا على استئناف نشاطه فى خدمة المرضى ، ويبدو أن ذلك لن يتحقق بالسرعة التى كنت أريدها .

مازالت القيادة العامة لقوات الحملة المصرية بالقاهرة ، ولكن مركز قيادة الجنرال أللنبى ، القيادة العامة المتقدمة ، تقع فى بير سالم (المعروف ببير سلام) فى معسكر كبير على الرمال بين أشجار الزيتون فى مدينة الرملة الصغيرة التى أقامها الصليبيون . وقد دعيت على الفور إلى هناك ، لأجد نفسى فى حيرة من أمرى : فأى نوع من الجنرالات هذا الرجل الذى حقق نصرًا عبقريا حاسمًا ، ولكنه يعرف كل شىء عن الطيور والوحوش والأسماك ، وقرأ كل شىء ، وتذكر تمامًا - على العشاء - إحدى السونيتات غير المشهورة للموسيقار روبير بروك ؟ وركبت معه فى جولة ببساتين البرتقال حيث امتطيت حصانه الضخم هندنبرج ، وأشعر الآن بالخجل من الهلع الذى أصابنى عندما وقع حافر الحصان فى بركة ماء ، فاندفع الماء ليغطى الجنرال أللنبى من رأسه إلى قدميه . وفى الأسبوع التالى ، عندما كان يسير على أسوار القدس طلب أللنبى تحديد الآية والفصل من الإنجيل الذى جاء فيه « العشب الذى ينمو على الحائط » ، وكان يعرف كل طيور فلسطين رغم أنها قابعة على جبل الزيتون لا يلحظها أحد من عامة الناس ، وكان من الصعب أن نوفر له ما يطلبه من الكتب بالسرعة الكافية ، حتى خلال حملة عام ١٩١٨ .

وخلال الحرب تحول عدد من الأشخاص إلى شخصيات بارزة ، ولكن لم يكن لديهم جميعًا المقومات الشخصية التى تؤهلهم لذلك ، ولكن أللنبى كانت شخصيته بارزة حتى ولو لم يكن قد خاض هذه الحرب وحقق فيها ما حققه من نصر . لقد استطاع أللنبى أن يقطع العقدة الجوردية (*) من الرقى والنزاهة ، بسيف ذى حدين : العزيمة ، والأمانة ، وعندما يقع أى خطأ - عادة - يتم توزيع اللوم على الصعيدين

(*) عقدة أحكم شدها جورديوس ملك فريجيا ، وزعموا أن من يحلها يصبح سيد أسيا المقبل ، فجاء الإسكندر وقطعها بسيفه . (المعرِّب)

المحلى والدولى ، غير أن ذلك لم يحدث أبدًا من أللنبى . إن كل من عملوا فى فلسطين مع هذا الرئيس الوطنى ذى القلب الكبير سوف يذكر دائمًا أنه لم يتدخل فى عمل أحد إلا لدعمه ، وسوف يقدم تحية العرفان والتقدير إلى آخر البلادن (الأمراء العظام) .

كان الفيلق العشرون من الجيش البريطانى يعسكر فى مبانى مؤسسة (زوجة القيصر) على جبل الزيتون ، ويتخذه مقرا لقيادته ، على حين كانت قيادة الفرقة ٦٠ فى المدينة ويتولاها السير فيليب شوودو چون شيا . وقد فعل هذان الجنرالان كل ما فى وسعهما لتيسير السبل العسكرية أمام المدنى الذى أصبح ضابطًا برتبة كولونيل ، وعرفانى بفضلهما لا حدود له .

كانت الفرقة ٦٠ قد وفرت خلال ثلاثة أسابيع من احتلالنا للمدينة مجموعة متنوعة من وسائل الترويح ، وسمح لى أن أوجه الدعوة لبعض الأعيان المسلمين والمسيحيين واليهود لحضور العروض الموسيقية التى كانت تقام فى هذا الإطار ، وكنا نقدم لهم ملخصًا مكتوبًا يشرح مكونات العرض . ولما كان الكثير منهم لا يعرف الإنجليزية ، فقد كانوا يسألون كثيرًا وسمح لهم بذلك ، كما رغب بعضهم فى الحضور مرة أخرى ، وقد وجدت القائمين على ذلك البرنامج لا يقلون عزيمة عن الجنرالات أنفسهم .

والإدارة العسكرية التى خدمت بها كانت تسمى « إدارة أراضى العدو المحتلة (جنوب) » . وتعرف بالحروف المختصرة .O.E.T.A وبعد غزو سوريا ، أصبحت هناك « إدارة أراضى العدو المحتلة (شرق) » ، وتمتد من حدود فلسطين حتى حدود حلب وتضم شرق الأردن . وكان كلايتون هو رئيس الإدارة (جنوب) ، وتحت قيادته الحكيمة ، ونتيجة لحماسه وإخلاصه ، لم تكن هناك مشكلة لا تعرف الحل . وبحكم موقعه كضابط سياسى كبير للقوة ، كان مشغولاً لدرجة لا تمكنه من الغوص فى التفاصيل (حتى لو أراد ذلك) . وكان دائمًا يتوقع أن تقدم له المقترحات ، ولكنه لم يقم أبدًا بإملائها ، ولم يعترض أبدًا طريق أحد ، ولكنه لم يغفل عن مراقبة الطريق ، وكانت الحدود الشمالية لإدارة (جنوب) تمتد من يافا إلى أريحا عبر الرملة ، وكان الترك لايزالون يسيطرون على السامرة . وكانت سلطة حاكم القدس لا تتجاوز حدود قضاء القدس العثمانى بما فى ذلك مناطق بيت لحم وأريحا والجزء المحتل من الرملة .

كان الحكم العسكرى فى مجمله شكليا متقلبًا أكثر من كونه عنيفًا متشددًا . كانت الأوراق فى المكاتب تحمل عبارة « لإحاطتكم علمًا » ، ولم تكن تعامل معاملة الأمور العسكرية إلا ما اتصل منها باحتياطات الأمن العسكرى ، واضطررت بسبب الشائعات التى أثيرت عند رأس السنة أن أصدر أمرًا عسكريا بالإنجليزية والفرنسية والعربية والعبرية (طبع فى مطبعة الفرنسسكان) جاء فيه : « إن كل من يضبط متلبسًا بالسرقة أو حمل السلاح أو يرتدى ملابس عسكرية أو أغطية للرأس خاصة بأى جنسية ... أو يخفى أو يحاول إخفاء أى ضابط أو جندى تركى ، سوف يتعرض لأحكام القانون العرفى » . وكان حظر التجول يبدأ فى الثامنة مساء ، وهى خسارة محدودة فى هذا الطقس البارد ، لم تترتب عليها أى مشاعر عدائية .

وتولى الجيش صيانة جميع الطرق التى تستخدم للأغراض العسكرية (ولم يتبق شىء من الطرق الأخرى) وجعلها مقصورة على النقل العسكرى . (وقد بلغت تكلفة الكيلومتر الواحد مائة جنيه إسترلينى فى الشهر فيما بين دخول القدس والزحف الكبير لأللنبى) . ومرت على تلك الطرق شاحنات تحمل عبارة « يستخدم لنقل الخيول والبغال والحمير والمدنيين » [1] ، وكان القائد العام وقائدا الفرقتين يستخدمون سيارات رولزرويس ويستخدم البريجادير جنرال الفوكسهول ، ويستخدم الضباط من رتبة الكولونيل السنبيم ، أما بقية الضباط فيستخدمون الفورد ، وكان لدى مكتب الحاكم العسكرى للقدس ١٤ سيارة فورد (نصف نقل) للتموين والإغاثة ، وعندما توليت منصبى فى القدس ، لم تكن هناك أى سيارات أو هواتف خاصة .

كان السفر إلى فلسطين تكتنفه صعاب كثيرة بدت تعسفية فى نظر طلاب السفر إلى هناك ، ولكن « إدارة أراضى العدو المحتلة » كان عليها أن تميز بين رعايا العدو ورعايا الدول المحايدة ، حتى فيما اتصل بالطوائف الدينية ، إضافة إلى النقص فى الطعام وأماكن الإقامة ، ويستغرق ذلك أسابيع وربما شهورًا حتى يتم تدبير مكان لطالب الزيارة . وقد تحدث – عندئذ – معوقات أخرى لا شأن لنا بها ، ولكنها غالبًا ما تنسب إلينا ؛ إذ كان على كل مدنى يريد دخول فلسطين أو الخروج منها ، أن يحصل

(١) كانت الدواب تستخدم فى الأغراض العسكرية .

على ترخيص بذلك من السلطات فى القاهرة . وبغض النظر عن إجراءات الجوازات فيما يتعلق بكل دولة ، كان على طالب السفر أن يأتى بالقطار من القاهرة ، ولا تصرف له تذاكر السفر إلا بعد التأكد من حصوله على ترخيص من السلطات العسكرية البريطانية بزيارة فلسطين .

وكان الحصول على ترخيص بالتنقل ضرورة لازمة للمسافرين داخل فلسطين ، حتى لو كان المسافر يقطع الرحلة على الأقدام إلى القدس أو غيرها من المدن والقرى ، وقد قمت بإلغاء تصاريح التنقل الداخلى عندما اكتشفت أنها ليست - فى الغالب - موضع الاعتبار . وتطبيقًا لقوانين الاعتقال ، قمت باتباع ما هو معمول به فى مصر من حيث استثناء بعض الفرنسسكان الألمان والنمساويين ، والممثل الألمانى الرئيسى للجالية الأمريكية ، ولم يحدث عن ذلك الاستثناء ما يجعلنى أشعر بالندم .

وهناك من استطاعوا التسلل إلى فلسطين رغم الرقابة الصارمة التى فرضناها هناك ، فخلال إحدى مرات تغيبى « أدخل الإيطاليون ستة من الرهبان وأحد الشمامسة متخفين فى زى الجنود الذين خلعوا ملابسهم عند الوصول وارتدوا لباس الكهنوت» [٢] .

وكانت الأمور المالية غير محددة بالضرورة « فقد كان كل ما باستطاعة المستشار المالى أن يخبرنى به هو أن الميزانية بلا موارد ، وأن معدل إنفاقنا ليس معروفًا بعد » . لقد تجاوزت التزامات القدس ما لديها من أصول بدرجة كبيرة ، وكما يحدث عادة عند إسقاط الحكومات ، كانت الطبقات المتميزة ذات السلطة تعانى معاناة حادة ، بعدما كانت تحظى بالكثير من الامتيازات ؛ إذ أصبحت هناك أعداد كبيرة من الموظفين والضباط الذين خدموا السلطان لسنوات طوال بغير موارد مالية . ولم تقبل دعاواهم إلا بعد التحقق من صحتها ، وهو أمر يتطلب جهدًا كبيرًا ووقتًا طويلاً (وقد فضل البعض الاستقالة من وظائفهم حفاظًا على كرامتهم ، ولم يقدموا لنا أى طلبات) ، وبمجرد التحقق من صحة الطلب كان يتم إنصاف صاحبه ، وقد فاق كرم

(٢) من خطاب عن التفتيش رفعه إلىّ مساعد الحاكم العسكرى .

الحكومة البريطانية فى تقديم التعويضات غيرها من الحكومات ، فيما عدا الولايات المتحدة الأمريكية (التى لا أعلم شيئًا عن موقفها بهذا الصدد) . وربما كان واحد أو أكثر من ملاك الأراضى لا ترضيهم التسوية التى تمت معهم ، ولكن الخطأ كان دائمًا يقع على عاتق الطرف الآخر ، فقد حصل موظف عربى بالإدارة على تعويض لفقده أحد ذراعيه بسبب الحرب ، ولكن الإدارة المختصة علمت أن الإصابة تمت نتيجة سقوطه من فوق حمار وليس بسبب الحرب ، وعندما شكا إلىّ ، عبرت عن موقفى بالحكمة الأرمنية القائلة : « عار على من يركب جحشا ، فإذا سقط من فوقه تضاعف ذلك العار » (٣) .

كان الأتراك قد أخذوا معهم عند رحيلهم من القدس - فيما أخذوه من أشياء أخرى - رؤساء الطوائف الدينية ، مثل دميانوس بطريرك الأرثوذكس ، وأورمانيان بطريرك الأرمن ، وبعض الشخصيات البارزة الأخرى ، كما أخذوا معهم القاضى بهدف تعطيل عمل المحكمة الشرعية وإحراج الإدارة المسيحية بفرض من تتولى تعيينه من جانبها . وقد قمت بتعيين المفتى قاضيًا بالنيابة ، ولم يحدث انقطاع فى ممارسة مهام القضاء الشرعى . وقد مات عمدة القدس الممتاز حسينى الحسينى فى أوائل ١٩١٨ ، فقمت بتعيين عمدة جديد ومجلس للمدينة .

ونتيجة للحالة السيئة التى ترك الأتراك القدس عليها ، كنا نواجه خطر انتشار وباء التيفود ، كما كانت الحمى الشوكية والالتهاب السحائى ينتشران بسرعة . وقد جعل المطر الغزير الطرق صعبة الاجتياز ، خاصة أن الترك اقتلعوا الخط

(٣) خلال الحرب كان هناك عدد كبير من الأسرى البريطانيين من مختلف الرتب فى معسكر اعتقال داخل تركيا فى بلد يسمى « أفيون قرة حصار » ، وكانوا يعانون نقصًا فى المال ، ولكن كان هناك تاجر يونانى يمدهم بما يحتاجون من ضرورات الحياة مقابل كمبيالات ، وذات يوم بعد نهاية الحرب ، جاء ذلك التاجر إلى وزارة الحرب حاملاً كيسًا ضخمًا مليئًا بالكمبيالات ، فسدد الأحياء من المدينين ما عليهم ، وقامت الوزارة بالسداد عمن توفوا منهم . وعاد الرجل إلى الشرق يحمل ثروة لم يكن يحلم بها ، ولم تعد له قصة تروى . ولا تحرص كل الدول على أن تلتزم بسداد ما يدعيه أصحاب المطالبات مع ما هو معروف من احترافهم الغش . وما زالت مدن وقرى الأناضول تتذكر ذلك (من محاضرة ألقيتها بدعوة من مؤسسة كست عام ١٩٣٢) .

الحديدى للشركة الفرنسية الذى كان يربط يافا بالقدس ، فأصبح الحصول على الأدوية من الصعوبة بمكان ، بما فى ذلك العقاقير الواقية من الوباء ، وما اتصل بذلك من معدات طبية ضرورية ، وإذا توقف المطر ، كان معنى ذلك معاناة الجفاف فى فصل الصيف .

وقد يدخل الكولونيل جارنر إلى مكتبى سائلاً عن الطريقة التى يمكنه أن ينظف بها المدينة دون مكانس ، فقد اختفت المكانس من المدينة ، ولم يعد لها وجود فى المحلات . ولم تكن الشوارع مضاءة فيما عدا بعض المصابيح هنا وهناك على أبواب بعض البيوت ؛ لأن الكثيرين كانوا لا يقدرون على تحمل نفقات مثل هذه المصابيح ، ولذلك كانت المدينة تنام عند الغروب ، ولم يكن هناك ضوء يمكن رؤيته من فوق جبل الزيتون سوى ضوء المواقع العسكرية البريطانية . وكنا لا نزال نتابع من فوق الجبل جميع مراحل القتال حول أريحا ، وأدى الخوف من انتشار الأوبئة إلى ضرورة إصدار أمر عسكرى فى ١٥ مارس لتحريم بيع الملابس والمفروشات القديمة قبل القيام بتطهيرها .

وكان الفلاحون يرتعدون من البرد فى أسمالهم البالية ، وأخذ عدد الشحاذين فى التضخم ، نراهم ونسمعهم ونشم روائحهم فى كل مكان ، وبمساعدة الجيش ، تم تدبير سبع فرق صحية تجولت فى شوارع المدينة طوال النهار ، ووقع على عاتق إحداها أن تبقى المنطقة التى تضم الأماكن المقدسة خالية من الاعتداءات .

وكانت رائحة السجن الكريهة ومنظر السجناء (الذين لا نعرف لماذا سجنوا) ، وما هم عليه من بؤس يقطع نياط القلوب . ونظراً لغياب الوثائق التى تشير إلى التهم المنسوبة إليهم ، أو وجود شهود ، فقد تم إطلاق سراحهم ، واستطعنا - بمساعدة الكولونيل وتنجهام (من مصلحة السجون المصرية) أن نقيم سجنًا جديداً فى الحى الروسى منظمًا تنظيمًا جيداً ، له رائحة خاصة ، وزى للمساجين ، ومخصصات للطعام .

وكانت الطريقة التى تصرف بها الأتراك إزاء إعادة توزيع المقاعد والطاولات والأسرة أقل حدة ، ولكنها كانت مثاراً للضيق والمتاعب ؛ فقد صادر الأتراك ذلك

الأثاث من أصحابه بحجة الحاجة إليه لكلية الدعوة الإسلامية ، فيباع لطرف ثالث لتوفير الأموال اللازمة للإنفاق المزعوم على الكلية ، وعندما خرج الأتراك من المدينة ، هاجم أصحاب الأثاث المصادر البيوت التى قام أصحابها بشرائه لاسترداده عنوة ، ويمكن تصور صعوبة البت فى نزاع من هذا النوع بين الأطراف المختلفة . فمثلاً عندما يأتى إلينا ممثل للفرير مطالبًا باسترداد عشرة أسرةٍ ودستة من الدواليب وعدد كبير من أدوات الطعام (الأطباق والشوك والسكاكين) أصبحت موزعة فى المدينة كلها ، ولا تحمل علامات خاصة ، ترى من يملك القدرة على تحديد مكانها أو هوية أصحابها.

وكأن هذه المتاعب وحدها لا تكفى ، فقد أضيف إليها الصعاب الناجمة عن وجود آلاف اللاجئين ؛ إذ كان هناك ما يزيد على الألفين من الأرمن اليائسين يحيطون بموقع البطريركية الأرمنية . وعندما عبرت القوات البريطانية نهر الأردن لأول مرة ، قوبلت بالترحيب والمساعدة من جانب الأرمن وغيرهم من اللاجئين المسيحيين بالصلت . وعندما انسحبت القوات تبعوها إلى فلسطين خشية التعرض لانتقام الترك إن بقوا هناك ، وكان على « إدارة أراضى العدو المحتلة » مواجهة مشكلة إطعام وإسكان هؤلاء المهاجرين ، وفجأة وجدت نحو سبعة آلاف لاجئ من الشوام الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت والمسلمين على وشك الضياع من يدى ، فقد انتشر وباء التيفود بينهم ، لكن الملاريا لن تدهمهم إلا فى الخريف . ومهمة إطعامهم ورعايتهم ليست سهلة ، ولذلك جعلت ثلاثة من المساعدين لى يتفرغون لهذه المهمة .

ولكننا لن نستطيع القيام بهذه المهمة ما لم نتلق المساعدة التى تلقيناها من صندوق إغاثة سوريا وفلسطين الذى أنشأه الدكتور ماك أنيس أسقف القدس الراحل ، واستطعنا إقناع الطائفة الكاثوليكية بأننا لا نميز فى أعمال الإغاثة بين الطوائف ، ولا نخص بها أحدًا دون الآخر ، ولا نقوم بها على سبيل الدعاية لأحد على حساب أحد ، ولذلك قبلوا فتح دار ضيافة الكاثوليك لإيواء المهاجرين من النساء والأطفال (من الصلت) بصفة مؤقتة ، وكان نائب الأسقف الكاثوليكى قد شكا إلىَّ من أن صندوق إغاثة سوريا وفلسطين يدعو لأشكال معينة من الصلوات البروتستانتية بين اللاجئين . ولما كان ذلك يتناقض مع سياستنا ، قمت بزيارة مفاجئة لدار الضيافة عند حلول وقت الصلاة ، وأكدت لنيافة نائب الأسقف أن الترانيم كانت مقصورة على ما يؤديه اللاجئون

بلغتهم العربية ، وأود أن أعرب عن تقديرى للتعاون المخلص الذى لقيته « إدارة أراضى العدو المحتلة » من جانب كنيسة الروم الكاثوليك وغبطة الكاردينال كاماسى بطريرك اللاتين ، والأخ المبجل فرديناندو ديوتاليفى رئيس الفرنسسكان (وهو رجل متحمس للخير) والعالم المتميز الأب باسكال روبنسون (كبير أساقفة تيانا والمندوب البابوى فى أيرلندا) الذى أدين له بالشكر على ما قدمه من عون .

وقد حظيت « إدارة أراضى العدو المحتلة » بمساعدة المنظمة الصهيونية الأمريكية » على نطاق واسع ، وكذلك الصليب الأحمر الأمريكى الذى أقام مركزًا طبيا فى بيت كبير (أصبح فيما بعد مقر القنصلية الفرنسية) ، وكان الكولونيل چون فينيلى يرأس الصليب الأحمر الأمريكى (وهو الآن رئيس تحرير نيويورك تايمز) عالمًا وخطيبًا مفوهًا ، كان يتجول على قدميه من يافا إلى القدس إلى أريحا لتقديم العون لكل محتاج .

كانت « إدارة أراضى العدو المحتلة » بالطبع ، ذات طبيعة مؤقتة ، وكان الإعلان الأول للجنرال ألنبى - الذى صاغه مارك سايكس وتمت ترجمته إلى الفرنسية والإيطالية والعربية والعبرية - قد نص على وضع القدس تحت الأحكام العرفية ، وأن يظل الأمر كذلك طالما دعت الضرورة العسكرية لذلك ، وطبقًا للقانون العسكرى ، لابد أن تتوافق الأحكام العرفية توافقًا كاملاً وتاما مع متطلبات الحرب . ولم يكن أحد يعرف - عندئذ - المصير النهائى لفلسطين ، رغم أن تصريح بلفور جعل انضمام فلسطين إلى سوريا الفرنسية بعيد الاحتمال ، حتى إذا تم تدويل القدس ستصبح السياسة اليهودية فى وضع الأقلية وسط أغلبية عربية .

وكانت الاتفاقية الثلاثية (سايكس - بيكو) التى نصت على تدويل كل فلسطين فيما عدا منطقة بريطانية فى حيفا وعكا ، وأخرى فرنسية فى الجليل الأعلى قد بطلت بانسحاب روسيا [٤] ، فقد تصورنا أنه مهما يكن شكل الحكومة الجديدة التى ستتولى الحكم عند نهاية الحرب ، فسوف تحسم الأمر ، وكنا نتنبأ بأن يكون ذلك فى الصيف

(٤) نشرت حليفتنا (روسيا) كل الوثائق المتصلة بهذه الاتفاقيات بهدف إحراج الحلفاء .

القادم . ولكن الإدارة العسكرية - بكل مكوناتها من معسكرات ووسائل نقل ، استمرت إلى ما بعد الهدنة في ١٩١٨ ، كما استمرت بعد توقيع معاهدة الصلح عام ١٩١٩ (ولكن تغيرت التبعية إلى وزارة الخارجية) وذلك حتى أول يوليو ١٩٢٠ ، وحتى عندئذ كان بعضنا لا يزال يرتدى البزات العسكرية حتى سمح لنا بارتداء الملابس المدنية .

كما تضمن الإعلان النص التالى :

« لما كانت مدينتكم (القدس) ملتقى قلوب أتباع الديانات الثلاث الكبرى للإنسانية ، وكانت أرضها موقعًا لصلوات المؤمنين ومقصد حجهم لقرون عديدة ؛ لذلك أعلن لكم أن أى مبنى ، أو أثر مقدس ، وكل بقعة مقدسة ، أو ضريح ، أو موقع تقليدى ، وكل وقف خيرى مخصص لرعاية أماكن الصلوات تابع بأى صورة من الصور لأحد الأديان الثلاثة الكبرى ، بسوف تتم المحافظة عليه وحمايته وفقًا للعادات المرعية ومعتقدات من تعد تلك الأماكن مقدسة عندهم » .

وشكلت المحافظة على « الوضع الراهن » حجر الزاوية فى سياسة الجنرال أللنبى (كما يجب أن تكون بالنسبة لأى احتلال نزيه) فى الأمور العلمانية والدينية على السواء . وقد برهنت سياسة المحافظة على الوضع الراهن أنها كانت القلعة الحصينة التى تصدت للهجوم الذى انصب على « إدارة أراضى العدو المحتلة » من مختلف الجهات بصفة مستمرة .

لقد كانت كنيسة القبر المقدسة خاضعة لحراسة نقاط عسكرية بريطانية وفرنسية وإيطالية ، ولكن لم يسمح بدخولها لأى من الجنود الذين قاتلوا من أجل تخليصها من نير الحكم العثمانى ، ولم يكن ذلك الحكم مستبداً - هنا على الأقل - ولكن يمثله راع مسلم يتولى منصبه بحق الإرث ، وهو شخصية وقورة ، معمم يرتدى القفطان ، عين أسلافه فى هذا المنصب منذ عهد عمر بن الخطاب فاتح فلسطين فى القرن السابع الميلادى ، وقد تلقيت اقتراحات قوية من مختلف ممثلى الطوائف المسيحية ، مفادها أن إشراف الراعى المسلم على الأماكن هو نوع من التعدى يجب ألا يقبل به أى حاكم مسيحى ، وكان القليل من أولئك قد زار القبر المقدس ، هذا إذا كان يهتم أصلاً بدخول

الكنائس الأخرى (وهو ما أشك فيه) ، وانتظر الجميع لمراقبة الطريقة التى سيتصرف بها الحاكم المسيحى لاختيار من يشغل المنصب ، ولم يكن الأرثوذكس ليقبلوا بإسناد المنصب لكاثوليكى ، ولم يكن الكاثوليك ليتقبلوا بأرثوذكسى أو بروتستانتى ، حتى لو كان للكنيسة الإنجيلية حقوق فى كنيسة القبر المقدس أو تطلع لمثل تلك الحقوق ، فالشيخ يقوم بعمله على خير وجه ، محافظًا على الأوضاع الراهنة والنظام العام بقدر الإمكان ، ويلجأ أحيانًا إلى الشرطة . ولكنى سأذهب إلى ما هو أبعد من ذلك لأقول إنه الشخص الوحيد الذى لم يشك منه أحد طوال السنوات التسع التى قضيتها فى فلسطين من العسكريين أو المدنيين أو رجال الدين ، من المندوب السامى إلى أصغر موظف بالبلدية . ولكن ذلك لم يكن ليشفع له أمام إلحاح العناصر المسيحية التى كان ردى على مطالبها دائمًا بالعبارة التى لا تقبل المناقشة : « الحفاظ على الوضع الراهن » .

كانت فرنسا تعتبر - منذ عهد فرانسوا الأول - حامية حمى المسيحية اللاتينية (الكاثوليكية) فى الإمبراطورية العثمانية (٥) . وتمتزج هذه الحماية بالمشاعر التقليدية التى تمتد من جودفروا دى بوييو إلى شعار « فلنتجه إلى سوريا » ، والتى لا تزال تعنى الكثير عند الفرنسيين . ورغم استمرارها فى ظل حكومة مسيحية متحالفة ، فإنها تمثل إهانة لا تغتفر (وكل فلسطينى يتوقع أن نقوم بتصفية هذه الأوضاع) . ورغم أن الرجال والسلاح الذين حرروا القدس باسم الحلفاء كانوا من البريطانيين (فقد كان وجودالتمثيل العسكرى الفرنسى والإيطالى شكليا) كانت ممارسات المسيو چورچ بيكو ومعاونيه على النحو الذى سبقت الإشارة إليه من قبل ، موضع مراقبتنا الصارمة .

ولم تكن تلك هى المجادلات الوحيدة الموجهة ضد تمسكنا الشديد بالوضع الراهن ، فقد كان الفرنسسكان هم أكبر وأقدم جماعة من الروم الكاثوليك بالأراضى المقدسة ، وكان منصب كبيرهم - يعود إلى سبعمائة عام - أعطاه نفوذًا يتجاوز نفوذ

(٥) قال لى قنصل فرنسى ذات مرة : « إن منصبى يستحق أن يرى من خلال رؤية الكنيسة له فى فرنسا ، وليس من خلال رؤيتها له فى فلسطين » .

البطريرك اللاتينى الذى يعد رئيسًا له (بحكم تمثيله للكنيسة الكاثوليكية) ، وهى صحوة القرن التاسع عشر (ويرى البعض أنها من صنع ذلك القرن) . وكان من حق رئيس الفرنسسكان أن يرفع على سفينته علم الصليب ، وهو علم الصليبيين أو راية جودفروا دى بوبيو الذى يحمل خمسة صلبان تشير إلى الجراح الخمسة التى أصابت السيد المسيح ، وكان هناك ثلاثة بطاركة : أرثونكسى ، وأرمنى ، ولاتينى (كاثوليكى) . ولكن رئيس الفرنسسكان كان يلقب « الأب الأعظم » . ورغم أن البطريركية ورئاسة الفرنسسكان اختلفتا فى معظم الأمور ، فإنهما كانتا أمام الجميع عالميتين فى المجال الدينى ، ولكنهما إيطاليِّتا الهوى من الناحية السياسية . قد تسند إدارة بيت ضيافة أقيم بتبرعات نمساوية إلى مونسيور نمساوى ، وقد يرأس دومينيكان فرنسى المدرسة العامة للقديس إيتان ، بينما على نقيض ذلك بالنسبة للانتداب البريطانى قد يصبح أيرلنديا (بعد سبع سنوات من الاحتلال) أسقفًا بطريركيا ، ولكن تعيين بطريرك فرنسى أو بريطانى أو تعيين رئيس للفرنسسكان من رعايا إحدى الدولتين يعد خرقًا للتقاليد، أبعد مدى من الإقدام على التدخل فى تعيين الحاخام الأكبر لليهود . وحتى الآن استطاع الرئيس الإيطالى للفرنسسكان أن يثير غضب الحماية الفرنسية . أذكر أننى تلقيت بعد يوم واحد من تعيينى حاكمًا عسكريًا ، برقية من روما جاء فيها : « بانتهاء السيادة التركية ... تنتهى كذلك الحماية الفرنسية ... » . وكان ردى على ذلك أننا تطبيقًا لمبدأ الحفاظ على الوضع الراهن ، جئنا إلى القدس للحفاظ على الأوضاع وليس لتغييرها .

وتم استخدام الضغط العلمانى والعسكرى أيضا ، فقد كان ينتظرنى الكولونيل دا أجوستينو (قائد المفرزة الإيطالية) الذى كان يمثل بلاده فى القيادة العسكرية ، وكان رجلا مشغولاً بالرعايا الإيطاليين المحليين ، وقد خصص لنفسه ركنًا به بعض ما تركه الترك والألمان من السجاد ، كان ينتظرنى ليكرر على مسامعى الإنذار الذى وجهه من قبل إلى بورتون بأنه ورجاله لن يحضروا أى قداس يمنح شرف رئاسته لفرنسا . ويبدو أنه اندهش لعدم اهتمامى بالموضوع وعدم اكتراثى بالرد عليه ، فدعانى على الفور إلى عشاء فخم فى كازانوفا .

وكان مما يبعث الطمأنينة فى نفسى تجاه تصرفى حيال هذه المناورات ، ما تلقيته من الخارجية البريطانية من أن « المستر بلفور (وزير الخارجية) يعبر عن أسمى آيات التقدير للحاكم العسكرى للقدس ... » ، فقد منحتنى تلك الرسالة الثقة فيما أقدمت على فعله بعد ذلك .

واستمرت الحماية الفرنسية حتى مؤتمر سان ريمو المنعقد فى أبريل ١٩٢٠ ، عندما أعلن أنها انتهت لصالح الانتداب ، وحتى بعدئذ استمر البطريرك اللاتينى يخاطب حكومة فلسطين من خلال القنصل العام الفرنسى ، الذى يعود له شرف رعاية الطقوس الكاثوليكية التى تعد مظهرا للحماية ، حتى أوقف ذلك بقرار من الفاتيكان عام ١٩٢١ . وقد خاضت الحكومتان نضالاً مريراً للإبقاء على حراس كنيسة القبر المقدس التابعين لها ، ولم يتم سحبهم فعلاً إلا عام ١٩٢٢ .

كانت هناك محاولات عديدة من جانب الطوائف الضعيفة للاستفادة من الحرب وتحويل سياسة « الوضع الراهن » لمصلحتها ، وذلك فى مجال شرف رعاية الطقوس الدينية الكنسية ، وفى غيرها من الأمور ، ولكن تم إقناعهم بالمنطق والحسنى ، فلاذوا بالصبر .

وساعدتنا الطبيعة العسكرية لإدارة أراضى العدو المحتلة على تأجيل كل الأمور الخطيرة أو التى تثير القلق إلى ما بعد الحرب ، مثل مشاكل الجنسية ، والعلم ، والسلام الوطنى ؛ فقد حل الجنرال أللنبى هذه المشكلة التى قد يترتب عليها إراقة الدماء ، باتخاذ قرار بعدم رفع أى أعلام على أراضى العدو المحتلة ما عدا علم الحلفاء الذى يرفع فقط على مقر القائد العام . ومن ثم أصبحت الأوامر الصادرة منذ البداية تقليدا متبعا ، وكان من الممكن تجنب نصف قرن من المتاعب لو كان الجنرال ولسلى قد فعل نفس الشيء فى قبرص عندما دخلها عام ١٨٧٨ باعتباره المندوب السامى الأول وقائد القوات البريطانية فى قبرص .

وقد قمت بخرق مبدأ « الوضع الراهن » مرتين ، كانت إحداهما ضد رغبتى وموضع أسفى ، وفى المرة الثانية كنت عامداً متعمداً مرتاحاً لما فعلت ، فقد قامت

« إدارة أراضى العدو المحتلة » بخرقها فى إحدى المرات بإصرار وبشكل خطير ، ولكن كانت الظروف تبرر ذلك .

لقد خرقت الإدارة العسكرية مبدأ « الوضع الراهن » فى المسألة الصهيونية . كانت فلسطين ولاية تابعة للدولة العثمانية المسلمة (وكان نصفها حتى ١٩١٨ مازال تابعا للدولة العثمانية) ، وكانت غالبية سكانها من العرب . وفى ظل سياسة « الوضع الراهن » كان علينا ، (بل كنا نتلقى تعليمات) أن نقول للراغبين فى إدخال تغييرات سريعة إننا مجرد « إدارة عسكرية » ولسنا منظمين مدنيين ، وكان علينا أن ندير البلاد كما نفعل فى مصر أو غيرها من البلاد ذات الأقليات المهمة ، مستخدمين الإنجليزية كلغة رسمية وتقديم ترجمة عربية ، مع معاملة المقيمين اليهود والأوروبيين والأرمن وغيرهم على النحو الذى نعاملهم به فى مصر .

كان موقف « إدارة أراضى العدو المحتلة » مختلفا تماما عن هذا المفهوم ، فقد طبع الإعلان الأول للجنرال أللنبى بالإنجليزية والعبرية والعربية ، وكذلك الأوامر الصادرة منى ، واستخدمت العبرية فى لافتات الإدارة الحكومية ، وما لبثت أن أضيفت على عجل على إيصالات البلدية والإيصالات الرسمية الأخرى ، وقمنا بتعيين موظفين ومترجمين يهود فى مكاتبنا . وقد واجهت « إدارة أراضى العدو المحتلة » نقداً شديداً على هذا الخرق للوضع الراهن داخل وخارج فلسطين ، ولا شك أنه كان لذلك ما يبرره بإعلان بريطانيا العظمى لتصريح بلفور فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ الذى كان بمثابة تفويض يعطى لأى دولة محتلة لفلسطين ، رغم أن عصبة الأمم لم تكن قد أنشئت ، ولم يكن نظام الانتداب قد أقيم ، حتى يكون هدف الحكومة متطابقاً مع هدف الصهيونية .

ونظراً لما للحاكم العسكرى من حرية غير مقننة ، يحرص - كأى حاكم آخر - على عدم المساس بها . فقد أحسست بعد قليل أننى بحاجة إلى مشورة قانونية جيدة حتى لا تقع قراراتى تحت طائلة أى قانون للتعويضات قد يصدر فيما بعد ، ولذلك احتجت إلى خدمات الماجور أورم كلارك ، الذى أصبح نتيجة لذلك المؤسس للتشريع الحديث فى فلسطين ، وكان يساعده نورمان بنتويك (الذى خلفه فيما بعد) ، وكانت صداقتى الحميمة له مثار انتقاد العرب وأحياناً اليهود ، وكانت انتقادات اليهود من

حين لآخر تقوى مركزى . وفى ذلك الوقت تم استبدال الماجور لورد وليم برسى بالكولونيل ريس موج ، ويعد برسى منظمًا قديرًا دانت له إدارة الحاكم العسكرى بالكثير من الفضل .

وكان أول تحديد لتبعيتى المالية لعدة أسابيع ، مذكرة تلقيتها بعد تعيينى حاكمًا عسكريا مفادها أن الخارجية البريطانية لم تعد مسئولة عن صرف مرتبى ، وكنت مدينا للبنك بمبلغ أربعمائة جنيه سحبتها على المكشوف بعد أن مكثت لأكثر من خمسة أشهر دون أن أقبض مليمًا واحدًا . وما كدت أصرف راتبى المتأخر حتى دعوت زملائى لتناول العشاء احتفالاً بمرور ستة أشهر فى وظيفتى الجديدة دون الحصول على راتبى . وكان هذا التأخر فى صرف راتبى يضعنى فى الحرج ؛ لأننى لم أقم باستضافة أى من الزملاء والشخصيات التى مرت بالقدس (خلال تلك الأشهر) . وكان من بين الامتيازات العسكرية ، إضافة إلى البريد المجانى (يغطى العالم كله لمدة شهرين ، ولمدة أخرى لجميع مناطق فلسطين ومصر) ، الحصول مجانًا على الفحم الذى بلغ سعر الطن منه ١٤ جنيهًا إسترلينيًا (عندما يكون متاحًا) وكنا نحصل على خشب الزيتون كوقود بديل ، وكان ذلك النوع من الخشب قليلاً ؛ لأن السلطات العسكرية البريطانية أرادت أن تصلح ما أفسده الترك ، فمنعت قطع أشجار الزيتون إلا إذا كانت جافة لا حياة فيها . وارتفعت أسعار السلع المستوردة ارتفاعًا كبيرًا نسبيا طوال سنوات الحرب . وكانت الأرباح ضخمة ، ولكن التجارة البريطانية لم تستفد منها بأكثر مما فعلت فى مصر عند بداية الحرب ، حتى إن آلاف الجنود الذين يمرون بالقدس ، ويتطلعون بشغف إلى الحصول على الصحف والروايات لم يجدوا ضالتهم المنشودة ، فلم يهتم تجار الكتب فى لندن أو القاهرة بسد حاجة أولئك الجنود إلى القراءة . وقد حرضت ممثل توماس كوك على لعب هذا الدور ، ولكن رئاسته رفضت تجاوز حدود تقاليد عمل الشركة .

ولما كان طاقم العمل قد اكتمل ، فقد شعرت أن هناك ما يبرر ذهابى إلى القاهرة لاستبدال بدلتى الكاكى التى أعددتها لإستانبول واستخدمتها فى بغداد ، ببزة عسكرية جديدة لائقة . وقدمت مصر من ترفها التقليدى الجم الشىء الكثير لخادمى سعيد أكثر مما قدمته لى ، وذلك بعد قضاء ١٩١٨ بالقدس ، فسعيد كان يرى أن « القدس

بلد شريف صحيح ، لكن ينقصه التمدن » ، وكان يقصد بالتمدن الترام والسينما ووسائل الترفيه الرخيصة بالقاهرة . وما كدنا نعبر قناة السويس ونتجاوز الزقازيق إلى بنها ، حتى عبر سعيد عن إحساسه « بالذوق والإنسانية » بمجرد الاقتراب من القاهرة على بعد خمسين كيلومتراً منها ، حيث رغد العيش ، والمتاجر الكبرى والشوارع المضاءة ، ووسائل النقل التى تنقل المرء إلى بيئة أخرى مختلفة - بلا شك - عن شظف صهيون .

كان هذا التجديد - من حين لآخر - لصلات بمصر دامت أربعة عشر عامًا بالغ القيمة عندى ، حيث أعبر خلال أيام قلائل من البرد إلى الدفء ، ومن اللون الرمادى إلى اللون الأزرق ، ضابط بلا مهام رسمية ، وسائح لديه معرفة المقيم ، لا يجد ما يثيره فى التغيير الكامل فى البيئة المحيطة به . لقد احتفظت باللهجة العربية المصرية بعد اللهجة الشامية ذات الإيقاع المختلف . وفوق ذلك كله ، كان يسعدنى ألا يكون هناك ما يشغلنى (بمصر) سوى مشاركة الإحساس بالقلق والمرارة فى مطلع العشرينيات ، حتى نظار محطات السكة الحديد على طول الخط (وكان معظمهم من القبط) كانوا من قدامى الأصدقاء . وحدث ذات مرة - فيما بعد - أن كان على الانتظار ساعتين ليلاً بمحطة بنها ، وكانت حجرة استراحة الدرجة الأولى مزدحمة بالمسافرين ، فأخذنى مرقص أفندى (ناظر المحطة) إلى حجرة استراحة السيدات . ولما أكدت له أن كل ما أحتاج إليه مقعد على أريكة فوق الرصيف ،أصر أن الحجرة خالية فى هذا الوقت المتأخر ولا ضرر من استخدامى لها ، عندما سمعت صوت سيدة مسلمة محجبة طويلة تسأل بالعربية عما إذا كانت التقاليد تسمح بإدخال الرجال حجرة السيدات ، فاعتذرت لها وانسحبت يتقدمنى مرقص أفندى . وفى اليوم التالى ، كنت أركب باخرة لويد تريستينو ، عندما وجدت نفسى جالسًا فى مواجهة سيدة غربية تقول : « لقد كنت لطيفًا معى ليلة الأمس .. » وكانت المتحدثة روسبيتا فوربس ، وهى نفس السيدة التى كانت بمحطة بنها .

عند عودتى من مصر ، انتقلت من فندق فاست إلى مقر القنصلية الألمانية المصادر ، وبقيت هناك مع بيرسى حتى الخريف ، مستمتعًا بصحبة هارى هتسبور بذكائه اللماح ، وعندما انضم إلينا - فيما بعد - خلال العام أرنست ريتشموند ،

تحولت مائدة الطعام إلى محكمة مصغرة ، فقد كان ريتشموند لا يطيق كبلنج الذى يعتبره بيرسى متميزًا عن سكوت (الكاتب المفضل عند ريتشموند) ، وكلاهما كان يجزع لأننى أفضل ويلز ، وكان ريتشموند عنيفًا فى تعبيره عن ذلك ، ولكن بيرسى كان ينحى فى ذلك نحوًا قانونيا ، فيعبر عن عدم تقبله لويلز بحجج وعلل مرتبة تمامًا كما يرتب الشاهد أقواله على منصة الشهود بالمحكمة ، وكانت هذه المجادلات - عندى - نوعًا من التدريب على ما أقوم به من مجادلات مع المفتى والبطاركة وزعماء الصهيونية . وقد ارتحت كثيرًا عندما علمت أن عدم قبول بيرسى بالحلول الوسطى لا يقتصر فقط على التعامل معى أو على تناول الموضوعات المتعلقة بالأدب ، فقد كان عالمًا بالطيور (أورنيثولوجى) يحظى بسمعة علمية طيبة ؛ لذلك طلبت منه أن يرافق القائد العام عند زيارته للمتحف الطبيعى عندما جاء إلى القدس لأول مرة بعد تعيينى حاكمًا عسكريًا ، وكان الألمان قد أقاموا هذا فى المتحف فى بدروم المبنى (الخاص بقنصليتهم) . سمعت الفيلد مارشال يصف - أثناء هبوطه الدرج - طائرًا رآه فى الطريق إلى القدس وسأل بيرسى عن اسم ذلك الطائر ، فقال بيرسى : « لا يوجد طائر بهذا الشكل » ، فصاح القائد العام : « لماذا ؟ ها هو ذا الطائر الذى حدثتك عنه » فرد بيرسى قائلاً : « إننى لم أفهم من وصفك ما يشير إلى هذا الطائر بالذات » !

أسبوع الفصح ، ذروة السنة المسيحية ، يعتبر فى جميع أنحاء العالم الموسم الذى يكون فيه موت الصراع انتصارًا للسلام . وكان الفصح فى الأراضى المقدسة ، وفى القدس خاصة يعنى شحذ السلاح وتدعيم الحصون وذلك منذ عدة أجيال ، ومنذ قرون خلت قبل الفصح ، كان عيد الفصح اليهودى طقسًا رومانسيًا جميلاً ، لا يفوقه فى ذلك إلا احتفالنا بالعشاء الأخير ، وكانت كل عائلة يهودية تحرص على الاحتفال به وقد أثار ارتباط العيدين الكبيرين (الفصح اليهودى ، والفصح المسيحى) اهتمام صلاح الدين الأيوبى الذى ابتدع حوالى عام ١٢٠٠ عيدًا إسلاميًّا هو « عيد النبى موسى » فى نفس الشهر ، وبنى « مقامًا » للنبى موسى على الجانب الفلسطينى من نهر الأردن بالقرب من أريحا ، ويتم الاحتفال بهذه الأعياد الثلاثة للديانات الثلاث الكبرى بالقدس ، حيث يختلط بالطقوس الدينية تجمع الحشود ذات الدوافع السياسية والإجرامية لتشكل أزمة اضطرابات ربيع الفصح .

وللأسف لم تكن الطوائف المحلية المسيحية فى حاجة إلى تحريض خارجى للصدام الدامى مع بعضها البعض ، فخلال الأسبوعين الأولين لشغلى منصب الحاكم العسكرى للقدس ، قام الروم والأرمن الأرثوذكس - الذين يقع عيد الغطاس وعيدالميلاد عندهم فى نفس اليوم - بالهجوم على مغارة المهد فى بيت لحم ، وقام رجال الحرس الذين وضعتهم هناك بإجلائهم .

وكان احتفال الأرثوذكس المعروف باسم « سبت النور »(*) يمثل ذروة التوتر الذى قد يؤدى إلى كارثة ، وهو طقس غريب نصف سياسى - نصف وثنى ، يصاحبه أحياناً الإفراط الشديد فى شرب الخمر والقتل . والذى سجل كيرزون ذروة القتل فيه فى كتابه « أديرة الليڤانت » ، ولم يكن الروم الأرثوذكس ولا الأرمن الأرثوذكس بعيدين عن بلوغ نقطة الخطر الرئيسية ، وكان من الممكن تلافى ذلك عن طريق بطاركتهم المبعدين، ومن بقى من رئاساتهم الدينية الذين كانوا يظهرون الميل إلى الاعتدال .

لقد وقع أمر الفصح على عاتقنا ، ولا يمكن أن نترك الأمور تفلت من أيدينا ، فكتبت مذكرة إلى القيادة العامة للقوات البريطانية ، ذكرت فيها ما يلى :

« عيد الفصح عند الروم الأرثوذكس يوافق ٥ مايو هذا العام (١٩١٨) ، وخلال الأسبوعين السابقين كان هناك عدد من الاحتفالات التى تبلغ ذروتها باحتفال « سبت النور » ليلة عيد الفصح (٤ مايو) . وخلال أسبوع الفصح كان الهوس الدينى عند طائفة الروم الأرثوذكس قد بلغ ذروته ، ويحتاج الأمر دائماً إلى مواجهة حازمة ، ولذلك أرفق مع هذا أعداد الجنود الأتراك الذين كان الأمر يتطلب استخدامهم فى حراسة كنيسة القبر المقدس ، ويتضح من ذلك أن الحد الأدنى للجنود اللازمين للقيام بهذه المهمة هو خمسون رجلاً ، ولكن عند الاحتفال بسبت النور كان يتم استخدام ٦٠٠ جندى . ومما يزيد الأمور تعقيداً هذا العام غياب بطريرك الروم الأرثوذكس وعدم وجود شخصية كهنوتية من نفس المستوى تستطيع القيام بواجباته ، ومن ثم يجب

(*) يتم ذلك الاحتفال عشية السبت الذى يليه الأحد يوم القيامة عند الأرثوذكس ، والفصح عند الكنائس الأخرى ، وباحتفال « سبت النور » يختتم أسبوع الآلام . (المعرِّب)

ألا نترك الحبل على الغارب ، فإذا لم يتم منع الاحتفال هذا العام ، وترك الأمر على عواهنه ، فسوف يؤدى ذلك إلى حدوث اضطرابات دامية .

وأرى أن اتخاذ قرار بشأن طقوس من هذا النوع لا يدخل فى اختصاص الإدارة العسكرية ، وأنه طبقًا لتعليمات القائد العام للقوات البريطانية ، نلتزم بعدم التدخل حفاظًا على « الوضع الراهن » ، كما أن منع الاحتفال سيثير خواطر الطوائف المسيحية ، عمومًا ، لذلك يجب أن يقام الاحتفال بصورة رمزية ، بما يتفق مع الانتقال إلى عهد جديد ، ويكتفى بالسماح لهم بتنظيم موكب معتدل للاحتفال يسير فى الشوارع محاطًا بالجنود ، وفى هذه الحالة يصعب ضمان التزام المحتفلين جانب الاعتدال، وقد يضطر جنودنا إلى استخدام الأساليب التى كان يتخذها الترك من قبل ، خاصة عندما يصل الموكب إلى كنيسة القبر المقدس ، ولذلك نقترح إرسال قوة عسكرية مناسبة إلى القدس قبل عيد الفصح بأسبوع تتولى حراسة الدير الأرثوذكسى ، وموكب الاحتفال ، وكنيسة القبر المقدس ، وأتمنى أن يتم الاحتفال بهدوء وحكمة يتناسبان مع جلال المناسبة الدينية ، ويستحسن أن يكلف بطريرك الروم الأرثوذكس بالإسكندرية بإرسال أحد المطارنة لرئاسة الاحتفال بالقدس ، أو يتولى ذلك الأسقف بورفيريوس الثانى رئيس دير جبل سيناء (سانت كاترين) وحبذا لو قبل بطريرك الإسكندرية نفسه القيام بهذه المهمة . غير أن أسقف دير جبل سيناء يعد تابعًا لبطريرك القدس المبعد ، ومن ثم يعتبر – فى هذه الحالة – مفوضًا مناسبًا عند هيئة كهنوت الروم الأرثوذكس بالقدس للقيام برئاسة احتفالات عيد الفصح .

فإذا تمت الموافقة على ذلك أرجو إبلاغى حتى أعد الترتيبات اللازمة لتوجيه الدعوة رسميا إليه بالإجراءات المعتادة ، على أن يكون حضوره للقدس قبل يوم ١٥ أبريل ، ويظل بالمدينة حتى الأحد ٢٩ أبريل مع تدبير وسيلة النقل المناسبة له ذهابًا وإيابًا » .

القدس ١٧ مارس ١٩١٨

رونالد ستورس

الحاكم العسكرى

وقـد قبل القائد العام باقـتراحى ، وتم توجيه الدعـوة إلى غبطـة الأسقف بور فيريوس الثانى أسقف دير جبل سيناء ليقود الاحتفالات الدينية نيابة عن البطريرك الغائب . وكان متوترًا طوال الاحتفالات ؛ لأن كل أسقف طلب أن يسند إليه جانب من الاحتـفـال ، ولكن الأسـقف بورفـيريوس الثـانى تعلل بأن ذلك قـد يؤدى إلى وقـوع اضطرابات فى احـتفال « سبت النور » تسىء إلى السلطات المسيحية (العسكرية) التى يتم الاحتفـال - لأول مرة - فى عهدها . وقد جهز حداد بك رجال الشرطة العرب ، ووقفت مع بعض الضباط الإنجليز أمام كنيسة القبر المقدس لتأمين الطريق أمام غبطة الأسقف . وقد حضرت احتفال سبت النور سبع مرات ، وكم كان يسعدنى الاستمرار فى القيام بهذا الجانب من واجبى لسنوات أخرى ؛ لأن فى ذلك الاحتفال طقوس ديونيسيوس ، تضاعف منها ذكريات ما حدث فى الماضى البعيد .

وفى أول احتفال يتم فى ظل الإدارة العسكرية كان لتجربتنا ما يبررها . واستمر الاحتفال فى القدس بسبت النور يتم فى هدوء جعل البعض - حتى فى المدينة المقدسة - يتعجب لتلك الأهمية التى نوليها لهذا الاحتفال . وقد هنأنى القائد العام ، وشكرنى عـلى ما تم تحقيقه من انضباط ، مشيدًا « بحسن تصرفى وإدارتى لموقف بالغ الحساسية » ، كما أبرق إلىَّ اللورد بلفور للمرة الثانية قائلاً « يسعدنى أن أعبر لكم عن رضاى التام على الطريقة الناجحة التى أدرتم بها الاحتفال » .

وكانت إمدادات المياه تمثل مشكلة ملحة بالقدس حتى فى فصل الأمطار ، فالقوات العسكرية وحدها تحتاج إلى كميات كبيرة منها ، خاصة الحاجة المتزايدة إلى ماء الاستحمام ، وأقرب الأنهار أو البحيرات تقع على مستوى منخفض عن مستوى القدس بنحو الألف قدم ، وعلى مسافة مئات الأميال من المدينة . وكانت القدس منذ تأسيسها تعتمد على تجميع مياه الأمطار فى خزانات كانت محاجر من قبل ، قطعت أحجارها لبناء المنازل ، وكان أكبر الخزانات هو ذلك الذى أقيم فى عهد الملك سليمان تحت المعبد وكان يسع ١١ مليون جالون من الماء ، وكان تتم تغذيته بالأمطار ومن ثلاثة خزانات محفورة فى الصخر عرفت باسم « برك سليمان » . وسعيًا لترميم تلك الخزانات القديمة ، شكلت « إدارة المهندسين الملكية » فريق عمل لتطهير وإعادة بناء خزانات بركة عروب التى تقع على بعد ٢٢ ميلاً على طريق الخليل ، وقد نجحوا فى ضخ

المياه عبر هذه المسافة مما أدى إلى تخفيف أزمة المياه على الفور ، ولكن لم تستمر طويلاً ، فقد كان المشروع مبنيا على الإحصاءات الفريدة المتاحة عندئذ ، والتى أعدها مهندس فرنسى كان يعمل لحساب الحكومة العثمانية .

كان تدفق المياه من عروب أقل كثيرا مما كنا نأمل ، وحتى مع استخدام مياه برك سليمان ، كانت السنة الأولى الخالية من المطر تدفع بالقدس إلى كارثة الجفاف ، واتجهت الإدارة إلى عين فرح ، وحتى إقامة نظام نقل المياه – وأحيانًا بعد إقامته – اضطرت البلدية إلى استخدام قطارات لنقل الماء ، ثلاثة أو أربعة أو خمسة فى اليوم الواحد تجر الصهاريج الثقيلة عبر منحدر يهوذا من اللد . وأقيمت أنابيب على نواصى الشوارع اصطفت أمامها طوابير طويلة معظمهم من الأطفال ينتظرون تحت الشمس ومع كل منهم صفيحة سعتها أربعة جالونات يتكلف ملؤها بالماء قرشًا واحداً . وأنا أكتب هذا الكلام الآن ، أرى أن المشروع الشامل الذى أقيم لمد القدس بالماء بتكلفة كبيرة يبرره الآن تراكم الثروة بفلسطين التى تحققت بمجرد اكتماله .

وخلال الأسابيع الأولى لوجودى بفلسطين لم يلفت نظرى شىء أكثر من تنوع انطباعات الناس الآخرين ، وبغض النظر عن المثقفين الذين يعتبرون أن القدس قد قدمت رسالتها للإنسانية والرحالة الذين زاروا المدينة من قبل ، اكتشفت عدة درجات من الجهالة الدينية والجغرافية ، فقد كان بعض من أرسلهم لم يسمعوا « عن مكان كهذا من قبل » . بينما كان بعضهم الآخر يظن « أنها منطقة لا توجد إلا فى الإنجيل » . وكنت أُسأل من حين لآخر عما إذا كانت كنيسة القبر المقدس تنتمى إلى ما قبل الميلاد أو مابعده .. معظم زوار القدس ينتمون إلى إحدى مجموعتين : الذين يهتمون بتمعن بكل موقع من المواقع وما ارتبط به من حوادث ، والشكاكون الذين يشرحون النصوص التى قبل بها تيبربوس أو شكسبير ، والذين يبدون وكأنهم يتوقعون أن يروا معبد سليمان وقد أصبح من الحديد المموج . وأصيب الكثير بخيبة الأمل عند زيارتهم للقدس « لأنها تختلف عن توقعاتهم » . فالشوارع كانت أسوأ من الفنادق ، وشهدوا فى موقع « المدينة المقدسة » مكانًا تفوح منه الروائح الكريهة .

وما لبثت أن لاحظت أن رصيدى الاجتماعى والجماهيرى قد زاد زيادة كبيرة ، فقد تلقيت التهانى من إنجلترا ومصر ، كما حظيت بالتمجيد من أشخاص لم أعرفهم إلا لبضعة أسابيع نظروا إلىَّ بتقدير كامل ، وادعى البعض معرفتهم بى ، وجدد الأصدقاء القدامى صداقتهم لى ، بل زعمت آنسة تدعى بيولا ستورس من سولت ليك بولاية أوتا بالولايات المتحدة أنها تحظى بشرف قرابتها لى . وطلب منى الكثيرون الحصول على توقيعى ، وعلى بعض الرايات التركية ، خاصة العلم الأصلى للهدنة عند استسلام القدس . وكذلك طوابع البريد ، وكثير من تلك الطوابع لم يكن مستخدما ، طلبه « والد أو والدة لحسناء زرقة السماء فى عينيها » من أوسكانسن أو أوكلاهوما بالولايات المتحدة الأمريكية .

ولم تكن الالتماسات المحلية أقل غباء ، فلم تمض ثلاثة أيام على تعيينى حتى تلقيت طلباً من عربى أرثوذكسى يمزج فيه بين الاعتراف بالاتفاقات البريطانية والتملق الشخصى قائلاً : « أرجو من سعادتكم أن تقبلوا وصيتى باسم سيدنا المسيح الذى تشبهونه تماماً » .

الفصل الرابع عشر

أعمال الإدارة العسكرية في القدس

(١٩١٧ - ١٩٢٠)

ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان فى القدس دون غيرها من بقاع الأرض ، فلم يكد يمضى على وجودى هناك بضعة أسابيع حتى علمت أن هناك اتجاهاً لهدم العمائر البديعة الجميلة ، وبناء غيرها من المبانى الرخيصة القبيحة التى تفتقر إلى التميز من حيث التخطيط ومواد البناء ، فالسنوات الخمسون السابقة التى سادها استغلال دينى غير منظم حجبت خلفها أو تجاوزت حدود معظم الأسوار الشمالية والغربية للمدينة .

وكان باستطاعة « إدارة أراضى العدو المحتلة » أن توفر الحماية للقدس – على الأقل ، الحماية الجمالية – فى إطار محافظتها على الأوضاع الدينية والسياسية الراهنة ، وقد أسعدنى أن أرد على طلب إقامة خط ترام يربط القدس ببيت لحم وجبل الزيتون ، بأن وضع القضبان الأولى لهذا الخط لن يتم إلا على جثة الحاكم العسكرى للقدس . (وقد تعرض هذا القرار لهجوم شديد من جانب المهاجرين (اليهود) لعدة سنوات باعتباره قراراً رجعيا ، ناسين أن النقل بالحافلات قد فاق النقل بالترام فى معظم الأماكن التى (لا يتم الحفاظ عليها بإنفاق المزيد من الأموال) .

وتعود أصول ضبط البناء وتخطيط المدينة إلى البلاغ العام رقم ٣٤ الصادر فى الثامن من أبريل ١٩١٨ الذى نص على أنه : « لا يجوز لأى شخص أن يهدم أى بناء كان فى مدينة القدس أو جوارها ضمن دائرة مساحتها ٢٥٠٠ متر ، ابتداء من باب العامود ، أو أن يبنى بناءً جديداً ، أو يغير هيئة البناء القديم أو يصلحها ، قبل أن يحصل على رخصة خطية من سعادة الحاكم العسكرى . وكل شخص يخالف هذه الأوامر ، أو أى شرط من الشروط المحررة فى الرخصة التى تعطى له طبقًا لهذا الإعلان ، يعرض نفسه – بعد محاكمته وإثبات الجرم عليه – إلى جزاء لا يتجاوز المائتى جنيه » .

وتبع ذلك صدور أمر آخر يحظر استخدام الجص والصاج المضلع فى المدينة القديمة ، وهما مادتان لا يمكن التهاون معهما ، فعلى مدى ثلاثة آلاف سنة ، كان الحجر الأبيض يقطع من هذه الصخرة ناعمًا ، ولكن شديدالجفاف ، ويتخذ مع

مـرور الزمن اللون الذى يجمـع بين الزرقـة واللون الرمـانى ، أو بين الصـفـرة واللون الكهرمانى ، الذى بقيت الأسوار المنيعة الصلدة والعقود البرميلية وغيرها من المنشآت التى أقيمت منه ، شاهدة عبر القرون على تقليد خالد .

وصـدر أمـر ثالث حظر تثـبـيت الإعـلانات إلا فى مكانـين مـحـددين فى المناطق التجارية التى لا يمكن رؤيتها من أسوار القدس .

ورغم أن هذه الأوامر الثـلاثة لم تحظ بالشـعـبية على نطاق واسع ، وكـانت مثـاراً للمـتـاعب من حين لآخـر ، إلا إنـهـا جنبت الإدارة العـسكرية الاتهـام بأنـهـا شـجـعت العشـوائيـة المعمـارية أو تغاضت عنها ، ولكن سكان القدس ليسوا مـجرد مـعـروضـات توضع داخل إطار مـحكم إرضـاء لفضول السـائح الذى يريد الاسـتمتـاع بالتـراث . فلم يكن الحظر - فى حد ذاته - هو مقصدنا طبعًا ، فلا يكفى منع الناس من القيام بعمل سيئ ، ولكن يجب مسـاعدتهم على التوجه إلى القيام بعمل جيد ، وكـان علينا أن نقنع رؤسـاء وممثلى الطوائف المختلفة بأهمية ذلك ، والتشـاور معهم ، كما كان يجب توفير الاعـتمـادات المالية اللازمة لجعل تطلعـاتنا تتـحـول إلى أفـعـال مـحـددة ، إذا أردنا لهـذه الإجـراءات أن تكتـسب طابعًا إيجـابيـا . فـأنشـأت « جـمـعـيـة أنصـار القـدس » التى أصبحت بمثابة الهيئة الاستشارية الجمالية والمعمارية للحاكم العسكرى ، وضمت عمدة القدس ، ومـدير الآثار الإنجليزى ، والمفتى ، والحـاخـام الأكبر ، ورؤسـاء الفرنسسكان الإيطاليين ، والدومنيكان الفـرنسـيين ، وبطـاركة الأرثوذكس والأرمن واللاتين ، ورؤسـاء الطائفة اليـهودية ، ورئيس اللجنة الصـهيونيـة ، والأسقف الإنجيلى ، وغيرهـم من ممثلى الأديان والطوائف الدينيـة ، إلى جانب الشـخـصـيـات البـارزة من البـريطانيين والعـرب واليـهود والأمـريكان . وكـانت الفرنسـية هـى اللـغـة الرسـمية التى اتفق عليـهـا الجـمـيـع ، وكتبت بها مـحاضـر الجمعية ، ولكن كانت هناك خلاصات لها - وأحيانًا نصوص كاملة - تكتب بالعربية والتركية ، والعبرية ، وحتى بالأرمنية . هذه العناصر المتباينة والمتصارعة مـع بعضـهـا البعض فى مواقف أخرى ، ربطـهـا الحب للمدينة المقدسـة ، وجعلهـا تعمل على دعم الجمعية بإخـلاص ، ومهما تكن خلافاتهم السياسية ، فقد أحجموا عن إقحـام الأمـور الخـلافيـة فى هذا العمل ؛ مما يجعلنى أشـعـر بالامتنان العميق لكل مـا قدمـوه للقدس ، كما شرفت برئاستهم طوال السنوات الثمانى لوجودى هناك .

وعندما أدرك الكثير من كبار التجار أن مستقبل ورخاء القدس يعتمد على الاحتفاظ بطابعها التقليدى (ولا تتحول إلى مسخ لكييف أو مانشستر أو بالتيمور) ، تبرعوا طواعية لدعم صندوق هذه المؤسسة ، كما تبرع المسلمون والمسيحيون من مصر وإنجلترا وأمريكا لدعم المدينة التى تحتل مكانة رفيعة عند أتباع الديانات الثلاث .

وقد أدركت ما يمثله اسم القدس من قوة ، وتحققت من ذلك بصورة أكبر عندما كنا نتبنى بلادًا أخرى أو قضايا أخرى .

لقد تحولت إلى شنورر [1] مقنع ناجح ، ويسعدنى أن أكون كذلك . وتضمنت قائمة شيكات التبرعات بمبالغ تراوحت مابين ٣ و ٥٠٠ جنيه من القاهرة أسماء بسموحة وبطاش من الجالية السورية ، ورئيس تحرير « المقطم » ، ومن القدس : البنك الإنجليزى - المصرى ، والسير عباس أفندى عبد البهاء ، والمفتى ، وبعض الشركات اليهودية والبنك العثمانى الإمبراطورى ، وبنك الكريدى ليونيه ، والبنك الإنجلو - فلسطينى ، وبنك دى روما ، والكتيبة ٥١ للسيخ ، واللجنة الصهيونية ، والبلدية ، والإدارة العسكرية . ومن أوروبا وأمريكا : اللورد ملنر ، والسير باسل زاخاروف ، واللورد نورثكليف ، والسير ألفرد موند ، والمسز هوللان هانت ، والمسز كارنيجى ، وشركتا بييرمونت مورجان ، وكيون لوب . وقد تبين لى أن المؤسسات أكثر كرمًا من الأفراد والرجال أكثر كرمًا من النساء (خاصة فى أمريكا) .

ولما كانت الجمعية مستقلة ماليا ، فقد ظلت مستقلة كذلك إداريا .

وفى مارس استعنت بخدمات و. هـ. ماكلين - مخطط المدن بالإسكندرية والخرطوم - لا ليخطط من جديد ، ولكن ليضع القواعد التى من شأنها الحفاظ على الطابع التقليدى الفريد للقدس . وقد تم تطوير هذه الخطة - فيما بعد - على يد الأستاذ باتريك جيديس ، الذى ركز على محاولة (لم يقدر لها النجاح) لعزل المدينة القديمة وسط حديقة ، وفى النهاية تم وضع مخطط نهائى للمدينة لتتولى تبنيه وتطويره « لائحة تخطيط المدن الحكومية » بعد ذلك بسنوات .

(١) وتعنى الشحاذ المحترف فى لغة اليدش .

وفى سعيى للبحث عن مساعدة فنية خارج إطار العمارة وتخطيط المدن ، أذكر أن المحاضرة « المسلية » الوحيدة هى التى سمعتها فى تشارترهاوس ، وألقاها أشبى الذى كان تلميذاً لوليم مورس ، وأشبى الآن فى مصر ، زار فلسطين ، وأعد لى تقريراً ممتعاً عن الإمكانات المدنية للقدس ، وعين مستشاراً مدنيا وسكرتيراً لجمعية أنصار القدس . وحددنا هدفنا بالعمل على : « الحفاظ على مصالح القدس ، ومنطقتها ، وسكانها ، والعمل على تقدمهم » ، وبصفة خاصة « حماية وتوسيع منشآت القدس ، وصيانة الحدائق والمساحات المفتوحة ، وحماية الآثار والحفاظ عليها بموافقة الحكومة ، وتشجيع الفنون والحرف اليدوية والصناعات فى إطار الأهداف العامة للمجتمع » ، إضافة إلى بعض الأنشطة الثقافية الأخرى ، وكانت إدارة أعمال الجمعية تتطلب قدراً كبيراً من الدقة حتى لا تمس مصالح البلدية وإدارتى الآثار والأشغال العمومية ، وأظن أن تلك المؤسسات الثلاث تحملت - ونحن معها - الكثير والكثير ، وعندما أمعن النظر فى علاقاتنا المشتركة أشعر بالغبطة والامتنان .

ويبدو أن مزامير داود ، وطيف شهود لا يمكن رؤيتهم قد ألهمت عملنا : « قم ببناء أسوار أورشليم » ؛ فقد قمنا بترميم الأسوار ، وقمنا بتطهيرها من التعديات التى لحقت أو أحاطت بها ، بحيث أصبح من الممكن « التجول فى صهيون ، وتبين الأبراج هناك ، وتحديد متاريسها ومواقعها » . ولم أشعر أبداً بالقلق تجاه أهمية وتنوع هذه الأميال الثلاثة المقدسة ، فقمنا بإصلاح وإزالة مئات الأطنان من أنقاض مبانى المعسكرات الحديثة التى أقامها الترك وكذلك القلعة التى كانت تعرف بقلعة داود التى كانت تعلو الممرات السفلى التى ذكرها يوسيفوس . وقد تلافينا الكثير من المساس بقدسية الأماكن ، ولكن جاء ذلك - أحيانًا - بعد فوات الأوان ، واكتفينا عندئذ بالمقاضاة . وتم إنقاذ الدرج الرومانى عند سيلوم ، ولكن أحد مقاولى البناء كان قد سرق بالفعل نحو العشرين طنًا من الأحجار الرومانية التى نقلت ليلاً على ظهور الحمير ، فعوقب بغرامة خمسين جنيهًا وأرغم على إعادة الأحجار ، غير أنه كان من الصعب إعادتها إلى مواقعها الأصلية بدقة .

وقد ترك شتاء ١٩١٧ – ١٩١٨ القاسي أثرًا مدمرًا على الواجهة الشمالية الغربية لقبة الصخرة ذات الألوان الجميلة والزخارف الهندسية البديعة .. ونتيجة لذلك أخذت قطع بلاط الخزف البديعة تتساقط من الحوائط ، ويعثر عليها من حين لآخر معروضة للبيع فى المدينة ، وكان من حسن الحظ أن نجحت فى تكليف أرنست ريتشموند (المهندس المعمارى بمصلحة الأوقاف المصرية) بإعداد تقرير فنى عن الحوائط الداخلية والخارجية للمسجد، ومارست بذلك التقرير ضغطًا على « لجنة مأسى الحرب » ، ومن أجل تنفيذ توصياته وجه المفتى نداء إلى المسلمين ذكر فيه ما جاء بتقرير ريتشموند بشىء من التفصيل ، وأشاد باهتمام الحاكم العسكرى للقدس والإدارة البريطانية بإصلاح المسجد على يد خبير معمارى متخصص ، وأشار إلى التكلفة التقديرية التى حددها ريتشموند ثمنًا للمواد وأجور العمال وهى ٨٠ ألف جنيه إسترلينى ، ودعا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى التبرع لتعمير المسجد الأقصى والتبرع بتكلفة الإصلاح ، سائلاً الله أن يجزيهم خير الجزاء .

وخلال الفحص الذى قام به ريتشموند اكتشف فى « إسطبل الملك سليمان » بمنطقة المعبد ، الأفران التى تم حرق الخزف الذى استخدم فى تزيين المسجد بها . وقد تذكرت الأرمنى دافيد أوهانسيان الذى أقام حمامًا فارسيا فى سلدمير ، وهو من معارف مارك سايكس ، فقمت باستدعائه من دمشق مع خبير آخر من كوتاهية ليقوما بإعداد تقرير عن إمكانية تصميم ورسم وتزجيج وحرق قطع بلاط خزف جديدة باستخدام الأفران القديمة بدلاً من الخزف الذى صنع فى مصانع أوروبية ، واستخدم فى ترميم القبة فى السنوات الخمسين الأخيرة .

وقد وجدت الإدارة العسكرية وسيلة لإرسال أوهانسيان إلى إستانبول حيث عاد وبصحبته عمال من كوتاهية ، وتعاقدت الأوقاف معه على هذه المهمة ، وقدمت « جمعية أنصار القدس » دعمًا ماليًا لتشغيل « فاخورة قبة الصخرة » ، وإضافة إلى قطع الخزف الخاصة بالمسجد ، أنتجت الفاخورة المزهريات والسلطانيات والأباريق والأقداح والأطباق التى تباع الآن منذ سنوات بالقاهرة ولندن (وبعض مدن إنجلترا الأخرى) وأدنبره ، وكيب تاون ، ونيويورك . ويحمل أحد الأطباق نسخة طبق الأصل من اسم « عيسى » منقوشة بالكتابة الآرامية عثر عليها فى القدس ، (ولا شك

أنه قد تم إنتاج العديد من نسخ ذلك النقش) . وقد أوصيت بإنتاج بلاطات خزفية تحمل أسماء بعض أعضاء أسرتي ، ليتم تثبيتها داخل كنيسة سانت جون بكاتدرائية سانت جورج تخليداً لذكرى أولئك الأقارب ، وكانت تلك البلاطات ذات لون أزرق داكن فرغ بها موضع الصليب المثمن الخاص برهبان القديس يوحنا بالقدس .

وتأييداً لرغبة المفتى بعدم السماح بوجود محلات تجارية فى المنطقة المحيطة بالحرم (رغم أن باحته كانت المكان المفضل للعب عند أطفال القدس) ، نقلت الفاخورة إلى موقع القلعة التى حمل إليها الجنود الرومان القديس بولس .

لقد كان باستطاعة أى فاتح للقدس فى منتصف القرن التاسع عشر أن يبنى المتاجر والفنادق والمعابد الجديدة بعيداً عن المدينة القديمة ، وأن يجعل المدينة القديمة محاطة بالحشائش الخضراء وأشجار الزيتون والسرو . وبحلول عام ١٩١٨ ، كان قد ولى الزمن الذى يمكن أن نرى فيه القدس مزدانة كالعروس ، ولكن لم يزل باستطاعتنا - حفاظاً على روح المدينة - أن نضع لافتات من الخزف الأزرق أو الأخضر ، تحمل أسماء الشوارع بالإنجليزية والعربية والعبرية ، تتألق فوق حوائطها القديمة .

وقد تم بعد ذلك تشكيل لجنة من ممثلى الأديان الثلاثة لتسمية الشوارع الجديدة أو تلك التى لم تكن مسماة من قبل ، وكذلك مراجعة كتابة الأسماء باللغات المختلفة الثلاث مثل : حارة العطارة ، وحارة الشرف ، وطريق باب الست مريم ، وباب المغاربة ، وطريق مار فرنسيس بالمدينة القديمة ، فكانت اللجنة تحدد ما يكتب إلى جانب العربية بكل من الإنجليزية والعبرية . أما بالنسبة للمدينة الجديدة خارج الأسوار ، فقد استخدمنا أسماء : طريق القديس بولس ، وشارع جودفرى دى بوبيو ، وطريق نحميا ، وحارة تانسرد ، وميدان أللنبى ، وطريق سليمان ، وشارع قلب الأسد ، وطريق صلاح الدين ، وشارع المكانيين ، وطريق الملكة مليسانده ، وشارع الرسل .

وكنت أرى بأسواق القاهرة بعض نماذج من المشغولات الزجاجية الحمراء أو الزرقاء أو الخضراء المصنوعة فى الخليل . وعندما شاهدت أفران زجاج الخليل ، رأيت ألا تترك هذه الصناعة للاندثار ؛ بالاستمرار فى نفخ هذه المزهريات بالطريقة نفسها

فى المكان نفسه ، وعلى يد أناس من عنصر معين ، كما كانت الحال أيام سيدنا إبراهيم . وقد أوجدنا لنافخى الزجاج سوقا لتصريف إنتاجهم ، وقدمنا لهم النصائح فيما يتعلق بالوقود وطريق النقل .

واتجهت همة أشبى أيضًا إلى النسيج ، فقد اشترينا الأنوال التى أقامها الصليب الأحمر الأمريكى ضمن جهود إغاثة الأرمن من نساجي سوريا ، وقمنا بتركيب تلك الأنوال فى سوق القطانين ، وكانت هذه السوق البديعة التى تعود إلى العصور الوسطى قد وصل بها الإهمال إلى أن أصبحت مرحاضًا عامًا ، فكانت الدكاكين تفوح منها الروائح الكريهة ، وتكونت الأنقاض بارتفاع خمس أقدام ، وقام الأتراك بتحطيم الأبواب ذات النقوش المحفورة ليتخذوا من خشبها وقودا .. وقمنا بترميم العقود والسقوف والحوائط بهذه السوق ، وركبنا فيها الأنوال . وبعد مرور عام كان يعمل بالسوق أكثر من سبعين نساجًا لحسابهم الخاص ، وكان الصبية يدربون على العمل وفق نظام طوائف الحرف ، فجرت العادة على أن يتولى الصبى نسج قماش لعمل ثوب له على سبيل التدريب . ورغم أن المنافسة الأجنبية قتلت صناعة النسيج بالقدس ، إلا أنها وفرت عملاً مفيداً فى وقت الشدة ، إضافة إلى ترميم إحدى الأسواق التاريخية بالمدينة .

كذلك قامت « جمعية أنصار القدس » بإقامة صالون سنوى ، أو أكاديمية للفنون ، ومعارض لتخطيط المدن ، وللفنون الإسلامية القديمة ، والحرف الفلسطينية الحديثة ، أقيمت فى القاعات الكبرى ببرج داود .

وفى أوقات الشدة والحد من النشاط يعد الاهتمام بالمعلومات ضرورة حيوية للمشتغلين بالفكر ؛ ولذلك قمنا – فى أوائل ١٩١٨ – بإقامة قاعة للقراءة فى بيت صغير قائم بالحدائق البلدية ، زودناها بالصحف الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والعربية واليونانية والأرمينية ، أضيفت إليها من حين لآخر نشرة عن الحرب والأخبار العامة .

وقمت بتأسيس « نادى الشطرنج » برئاستى وسكرتارية كاثوليكى وتولى أمانة الصندوق يهودى ، وضم أعضاء من المسلمين ، وقد قمنا بتنظيم دورة فى الشطرنج

فاز بالجوائز الأربع الأولى فيها لاعبون من اليهود ، وفاز الحاكم العسكرى بالمركز الخامس .

وفى محاولة للتمهيد لإقامة مدرسة للموسيقى لقيت أول حفلة موسيقية مشتركة قمت بتنظيمها نتائج محبطة ، فقد حضرها ٣٠ من كبار العسكريين والمدنيين من الرجال والنساء ، وتم إحضار اثنين من عازفى البيانو من يافا بالسيارة لهذا الغرض ، وعزفت مقطوعات من الموسيقى الكلاسيكية بنجاح ، وحظى « البوفيه » بإقبال كبير من الحضور .

وقد دعوت اللجنة الاستشارية للانعقاد للنظر فى إقامة « مدرسة الموسيقى بالقدس » ، وشرحت الغرض من وراء المشروع ، وهو اكتشاف المواهب ، وضرورة التفاوض حول الحصول على بيت تقام به المدرسة ، وعقد صفقة لشراء الآلات الموسيقية (وكان هناك نقص شديد فى البيانو بكل من مصر وفلسطين) ، والنظر فى استعارة عازف الكمان تشايكوف من الجبهة ليقوم بالتدريس ، وليجمع للمدرسة ما يلزمها من مال عن طريق تنظيم الحفلات فى مصر بكل من القاهرة والإسكندرية (يمكن وضع ترتيب لها مع الاهتمام بالإعلان عنها) .

وفى البداية كانت ثلاثة أرباع المدرسين و ٩٠ ٪ على الأقل من طلبة مدرسة الموسيقى من اليهود ، فدعوت أعضاء اللجنة من المسلمين والمسيحيين ، وأكدت لهم حرصى على أن تكون المدرسة كغيرها مما قمت بتأسيسه ذات طبيعة دولية وليست « سياسية » ، فإذا لم تتوازن نسبة وجودهم بالمدرسة خلال ستة أشهر ، فسوف أقوم بتسليم المدرسة للطائفة اليهودية . وبعد مرور ستة أشهر دون نتيجة ، قمت بتسليم المدرسة لليهود ، واشترطت أن يظل اسمها « مدرسة الموسيقى بالقدس » ، وأن التعليم بها سيكون متاحًا للجميع دون تمييز على أساس عرقى أو دينى ، وأن يعامل فريق المدرسين الحالى معاملة كريمة .

وقمت أيضًا خلال السنة الأولى لتولى مهام منصب الحاكم العسكرى بتأسيس « غرفة تجارة القدس » (ولا تزال موجودة ويتولى أمانتها العامة الشرفية الشخص نفسه) . وحظرت إنشاء الحانات فى يهوذا (رغم أن شرب الخمر لم يتوقف فى

الأماكن الخاصة) . وقمت بطباعة ديوان « قصائد متفرقة » لهنرى كست فى سان سلفاتورى بمساعدة الفرنسسكان .

كان حكم برتى كلايتون أجود من أن يستمر ، فقد تدخلت « إدارة أراضى العدو المحتلة » فى واجباته باعتباره كبير الضباط السياسيين ، فاستبدل به الماجور جنرال سير آرثر مونى « حاكمًا عاما لأراضى العدو المحتلة » ، فكان أول من تولى هذه الوظيفة بين ثلاثة تقلبوا على هذا المنصب . وقد ظل الجنرال مونى ومساعدوه فى بير سالم بعض الوقت . وقد استخدموا لتبرير معارضتهم الانتقال مقولة صعوبة وجود اثنين من الحكام العسكريين فى مدينة واحدة ، وضرورة البحث عن عاصمة لأراضى العدو المحتلة فى مكان آخر ، ولكن - بالنسبة للأراضى المقدسة - كانت القدس لا تقارن بغيرها .

وقد انتقلت « الإدارة » إلى القدس ، واحتلت مقر مستشفى « إرسالية لندن لليهود » بعد إنفاق مبلغ كبير من المال على إعداد المقر وترميمه حتى يصلح لسكنى الإدارة ، وقد انتقل إليها الجنرال وفريق العمل معه لمدة أربعة أشهر ، قبل أن يتجه شمالاً على رأس الفيلق العشرين ، ثم تم تجهيز مبنى المؤسسة الألمانية على جبل الزيتون .

ومازلت أحتفظ بذكريات طيبة عن علاقتى الشخصية والرسمية بالجنرال مونى ، فقد عاملنى خلال العام الذى خدمت فيه تحت قيادته ، بقدر كبير من الاعتبار . ولكن نظرًا لحرصه - ومن تولوا المنصب بعده - على عدم التفريط فى وضعه كحاكم، فسوف أنكر دائمًا الأشهر الأولى التى شغلت فيها منصبى بالقدس بقدر كبير من التقدير ، وأقر تحمسى للمكان وللناس وللعمل ، فإن أى منصب فى العالم لا يقنعنى مثلما قنعت بمنصب الحاكم العسكرى للقدس .

وطالما كنت متمتعًا بتفهم ومودة كلايتون ، وثقة القائد العام للقوات البريطانية ، كانت كلمتى تعد قانونًا ، ونظرًا لعدم وجود محامين أو قضاة أو محاكم ، كانت تعد القانون الوحيد . وكان من حسن طالع فلسطين - عندئذ - أنه لم تكن هناك صحف ، وبذلك كنا من الناحيتين القانونية والإعلامية نعيش حالة من البراءة التامة . وكان على

المرء أن يتحلى بصفات المستبد الخير (كما حددها أرسطو) حتى يستطيع بكلمة منطوقة أو مكتوبة أن يرفع ظلمًا ، أو يصحح خطأ ، أو يمنع جورًا ، أو يزيد من القدرات والنيات الحسنة . وعلى سبيل المثال ، عندما أراد اليهود تسمية فندق فاست « فندق الملك سليمان » ، وأراد العرب تسميته « فندق السلطان سليمان » ، وكل منهما يمثل نصف القدس ، سارعت بتسميته « فندق ألنبى » .

وربما تم ارتكاب بعض الأخطاء القانونية ، ولكن القدرة على تنفيذ الإصلاحات الضرورية بجرة قلم كانت عظيمة ، على أساس أن بالإمكان تعديلها أو حتى إلغاءها فيما بعد . وجعلتنى هذه الخبرة أتساءل عما إذا كانت القوانين فى أماكن أخرى فى حاجة إلى أن تفسح الطريق لتجربة قوانين جديدة بصفة مؤقتة أو دائمة ، وربما فشلت فى استخدام السلطة التى وضعت بين يدى لأقصى درجة ممكنة ، ولكنى أعلم تماما أننى لم أُسئ استخدامها على الإطلاق ، فقد كان العمل يستغرق اليوم كله وبعضًا من ساعات الليل ، وكانت حالتى الصحية جيدة ، ولكن ذلك كان لفترة قصيرة قبل إقامة « إدارة أراضى العدو المحتلة » فى القدس ، فمثلت مرحلة منقطعة بشكل يتزايد عن بقية مراحل حياتى العملية ، ترسم صورة للمتعة مركزة ومتشعبة .

* * * * *

لا أود أن أتناول بالتفصيل تطور إدارة فلسطين تحت حكم الجنرال مونى ، واستمرارها تحت حكم خلفائه الجنرال واطسون والجنرال بولس ، أو اتخاذها - بصفة نهائية - طابع الحكومة المدنية تحت حكم السير هربرت صاموبل ، مفترضًا - على نحو ما فعلت فى الفصول السابقة - أن أعمال الإدارة الروتينية لا تستحق الوقوف أمامها إلا عند الإشارة إلى الصعوبات أو الظروف غير العادية التى تواجهها ، مما يستحق الذكر ، ويمكن الاطلاع على كتابات جيدة تتناول تاريخ فلسطين الحديث فى السنوات السبع والنصف الأولى من ذلك التاريخ غير الرسمى لفلسطين ، مثل كتاب جريفز « فلسطين ، بلد الأديان الثلاثة » ، وفيما كتبه نورمان بنيتويتش فى مادة « فلسطين » بدائرة المعارف البريطانية (الطبعة الرابعة عشرة) ، ونجد عرضًا شبه رسمى فى كتاب **Handbook of Palestine** ، ونجد الموقف الرسمى فى التقارير

السنوية وربع السنوية التى أعدها السير هربرت صاموبل ، ولكن يكفى أن نذكر الرأى العام أن السير أرثر مونى هو الذى وضع أسس مستقبل حكومة فلسطين .

وبينما كانت « إدارة أراضى العدو المحتلة » مشغولة تمامًا فى معالجة مشكلات الإدارة السلمية ، دارت على بعد أميال قليلة إلى الجنوب منا معركة تحقق فيها أكبر انتصار حاسم فى الحرب حققه أىٌّ من الأطراف المتحاربة على جبهة القتال ، فلم يتم إغفال أى مصدر إستراتيجى من إخفاء حركة القوات وتغيير مواقعها سرًا ، إلى الأوامر المضللة التى تركت لتقع فى يد الأعداء لتشير إلى أن الهجوم سيقع على القطاع الشرقى وليس عن طريق البحر . وتلقيت فى مايو تعليمات سرية تبلغ إلى « مدير فندق أللنبى » أن جميع غرف الفندق مطلوبة خلال بضعة أسابيع ، وكان هذا كافيًا . وكما كان متوقعًا ، تسربت الأنباء خلال الخطوط إلى المخابرات الألمانية – التركية أن قيادة القوات البريطانية سوف تتجه نحو الشرق ، ومن ثم قاموا بتغيير خطط دفاعهم لمواكبة ذلك ، وفى لمح البصر هجم أللنبى على القطاع الغربى واستولى على دمشق ، وطرد الأتراك من سوريا ، فظنوا أنه سيتابع تقدمه نحو إستانبول .

وكتب السير فيليب تشستوود من نابلس قائلاً :

٢٢ نوفمبر ١٩١٨ – لقد كان ذلك عرضًا على درجة كبيرة من العجب ، فقد تحطم الجيش التركى غرب الأردن فى ٣٦ ساعة . وفى أحد المدقات المتجهة من نابلس وجدنا ٨٧ مدفعًا و٥٦ شاحنة ، و٤ سيارات و٤٠٠ عربة نقل ، فالبلاد كلها مملوءة بمعدات القتال المتروكة .. ولن يقل عدد الأسرى عن ٣٠ ألف أسير ، عندما يتم حصرهم بالكامل .. وخسائرنا لا تتجاوز ثلاثة أو أربعة آلاف بين قتيل وجريح !! » .

وكتب إلى أحد العاملين معى من القدس (وكنت عندئذ فى حيفا) يقول :

« تدفق الأسرى ومعدات الحرب وغيرها من الغنائم على القدس لم ينقطع طوال اليوم سوى بالأمس فقط ، وشاهدت نحو عشرين شاحنة ألمانية يقودها سائقون ألمان متجهة إلى المدينة فى حراسة بست سيارات بريطانية .

لقد كان ذلك أول انتصار كبير أشهده ، وقد احتفلت به بعد عودتى من العمل ليلاً بعزف بعض المقطوعات الموسيقية الخاصة بالنصر والفرح وغيرها من الألحان المبهجة » .

كان قد تم وضع ترتيبات الإدارة والحكم العسكرى منذ وقت طويل ، وكان الجنرال مونى يسعى للقيام بجولة تفتيشية سريعة .

حيفا – آخر الأخبار أننى قمت يوم الجمعة الماضى من القدس مع الجنرال مونى ، فغادرناها الساعة ٧,٤٠ لنصل إلى نابلس الساعة ١١ ، وجنين الساعة ٢ ، وحيفا الساعة ٦,٣٠ مساء .. وكانت سيارته تحت التصليح ، فاستخدمنا سيارتى المتواضعة السنبيم الجاهزة للخدمة دائمًا ، والطريق بعد جنين يبدو ممتعًا جميلاً . وفى حيفا ، قضينا الليلة فى فندق الكرمل ، فهرعت إلى السباحة فى البحر قبل أن نغادر المدينة فى الثامنة من صباح اليوم التالى . وفى طريق العودة التقينا القائد العام بسيارته الرولز رويس التى علمنا فيما بعد أنها تحطمت نتيجة حادث اصطدام بعد أن فارقناه بعشرة أميال ، ومنظر الساحل والسهل فى غاية الجمال . وصلنا إلى تل كرمان الساعة ١٢,٣٠ واللد الساعة ٤ ، حيث علمنا من القيادة العامة أن القائد العام قد أصدر أمراً بندبى فوراً من القدس لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع لإقامة الإدارة بالمنطقة الشمالية . لقد كنت مشغولاً ببعض الأعمال العاجلة بالقدس فرجوته أن يمهلنى يوماً أو يومين حتى أفرغ منها ، ولكنه أصر على أن أذهب إلى هناك على الفور ، ولم أستطع أن أطلب منه شيئًا سوى سيارة ؛ لأن ماص الصدمات فى سيارتى كسر ، ولم يكن باستطاعتى الذهاب دون سيارة ، وهو ما حدث بالفعل ، فقطعت رحلة مريحة على مدى ست ساعات بسيارة فوكسهول .

الضغط شديد ما فى ذلك شك ، ولم يظهر أحد من العاملين معى بعد ، ومعظم من وجدتهم هناك كانوا يرقدون فى فراش المرض ، ومكثت عند الجنرال بلفن قائد الفيلق ٢١ على قمة جبل الكرمل ، وكان كريمًا لدرجة أنه ترك لى حجرته الخاصة بالدير الذى يقيم فيه لأتخذ منها غرفة لنومى ، والمشهد من فوق الجبل

الذى يشرف على خليج عكا والجزيرة بديع ، ولكن ليس لدى متسع من الوقت للتمتع به ؛ لأن ساعات عملى تمتد من الثامنة صباحًا إلى الثامنة مساءً مع ساعة واحدة لتناول الغداء .

عاد الجنرال مونى إلى القدس ، وقدأخلت « إدارة أراضى العدو المحتلة » مبنى مستشفى إرسالية لندن اليهودية ، وانتقلت إلى مبنى المؤسسة الألمانية بعد أن جلت عنه رقم ٢٠ . ويقوم بيرسى بعمل الحاكم العسكرى بالقدس بالوكالة فترة غيابى .

انتهيت من وضع الترتيبات اللازمة للقيادة العامة والإدارة العسكرية كل فى موقعه المناسب ، وأنتظر وصول من يخلفنى فى إدارة الإقليم . أتخذ من مقر القنصلية النمساوية عند سفح جبل الكرمل مقرًا لسكنى ، وهو بيت صغير يطل عبر خليج عكا على جبل لبنان وجبل الشيخ ، وأقيم هناك مع أرنست ريتشموند وجيمس دى روتشيلد نجل البارون إدمون مؤسس الكثير من المستعمرات اليهودية فى فلسطين ، وهو لاعب شطرنج ممتاز . واستيقظت أنا وأرنست فى السادسة ، ونذهب فى السابعة إلا الربع بالسيارة إلى الخليج حيث نسبح لمدة نصف ساعة ، ثم نتجه إلى العمل الذى نقضى فيه بقية اليوم .

وعندى ذكريات طيبة لهؤلاء الزملاء الذين كان عونهم لى كبيرًا (حيث عالجوا المسائل العويصة دون إرهاقى بطلب التعليمات) ، كما كانت صحبتهم لى ممتعة ، ومع تعدد الصعوبات التى واجهتنا فى إقامة إدارة لمنطقة حيفا ، فإنها كانت أسهل مما واجهناه فى القدس ، بسبب غياب النزاعات الدينية . ومن بين الحوادث غير المتوقعة ، عثور أحد مساعدى على فروخ من طوابع البريد العثمانية لم تستعمل ، نقلت من مكتب البريد بمعرفة القوات البريطانية ، ثم نسيت حيث وجدها مساعدى فى درج مكتبه . وفى اليوم التالى تلقينا خطابًا من قيادة القوات تطلب منا إرسالها فى طرد إليهم ، ففضلت أن يتم ذلك دون محررات رسمية حتى لا أسبب الحرج لهم ، وقبيل نهاية اليوم الثانى لعملى بحيفا جاء إلى مكتبى رجل عربى وقدم لى خائفًا مترددًا المذكرة التالية :

« الحاكم العسكرى

حيفا

وجدت هذا الرجل يحتطب فى جبل الكرمل دون ترخيص ، وكصديق للأشجار مدى الحياة ، وإدراكا منى لما يسببه هذا الرجل من تخريب ، قمت بجلده جلداً مبرحاً فى الموقع ، وأرسلته إليكم للنظر فى أمره» . « الملازم هـ . سميث »

لم تكن هناك لوائح قد صدرت لحظر قطع الأشجار سوى ما اتصل بأشجار الزيتون ، وحتى لو كان هناك مثل تلك اللوائح فإن التفسير المتسامح لتطبيق مثل هذه اللوائح زمن الحرب يأتى لمصلحة سكان الأراضى المحتلة ؛ لأن الشدة والقسوة لا تجعل من السهل على المحتل حكم البلاد .

جددت فى حيفا صداقتى القديمة لعباس أفندى عبدالبهاء وأتباعه من البهائيين ، الذى رأيته مسجوناً فى عكا فى آخر زيارة لى عام ١٩٠٩ . رأيته يجلس مرتدياً الملابس البيضاء الناصعة ، يبدو عليه الوقار مثل أنبياء مايكل أنجلو . وقد وضع فى خدمتى قدرات ومواهب طائفته ، فقمت بتعيين أحدهم أو اثنين منهم فى وظائف تتطلب الثقة التى ظلوا أهلاً لها .

وقبل مغادرتى لحيفا مررت بتجربة لا تنسى : فقد مر القائد العام بالمنطقة فى طريقه إلى بيروت ودمشق ، وركبت السيارة معه فى جولة حول خليج عكا ، وكان مشهداً غريباً أن نرى الجنود الإنجليز الإنجيليين يخرجون من معسكراتهم وينظرون إليه نظرة اعتزاز دون أن يصدر عنهم أى هتاف « وربما قام الجنود المقدونيون فى نفس المكان بالنظر إلى الإسكندر الأكبر على نفس النحو » ؛ فقال الرجل : « أظنهم اهتموا بذلك لأنهم إنجليز إنجيليون ، فقد جرت العادة ألا يهتم بى أحد » .

كنت أشعر بالحنين المتزايد للقدس ، وعدت إلى هناك مسروراً . وقد تلقيت خطاباً من عمدة المدينة باللغة العربية (يتضمن مبالغات شرقية طريفة) ، ذكر فيه أن غيابى عن القدس جعله يشعر بالوحدة ، وطلب منى أن أبلغ تحياته « للجنرال .. ذلك الأسد

الهصور » ، وبعد استطراد ملحوظ ، ختم رسالته بالحكمة القائلة « خير الكلام ما قل ودل » ، ودعا الله أن يحفظنى من كل سوء .

تركت مقر القنصلية الألمانية بالقدس حيث كنت أقيم ، وانتقلت إلى القسم الذى أخلاه الجنرال مونى من بيت الراعى البروتستانتى الألمانى (الذى أصبح بيتًا لى لمدة سبع سنوات) . وكان معى أرنست ريتشموند والأب واجت كاولى - الذى كان عندئذ ضابطًا سياسيا - ولا غنى عن العلاقات المتميزة التى كان يقيمها مع البطاركة على اختلاف مذاهبهم .

وحوالى الساعة الثالثة بعد الظهر ، يوم ١١ نوفمبر ، دق جرس الهاتف فى مكتبى وكان المتحدث هو دالمنى (السكرتير العسكرى للجنرال أللنبى) يتصل من مقر القيادة العامة ، ليبلغنى أن الألمان قد وقعوا الهدنة فى السادسة من صباح اليوم نفسه ، وبعد أن قمت بإخطار جميع الوحدات العسكرية هاتفيا ، نقلت الخبر إلى كل جندى قابلنى فى الطريق إلى البطريركيات ورئاسة الفرنسسكان والدومنيكان ، والجالية الأمريكية ، والمفتى . وبينما كنت فى الطريق إلى بيت المفتى قامت بعض وحدات المدفعية الملكية بإنارة الأنوار الكاشفة . وقد أشاد المفتى - عند تلقيه الخبر - بالذين « ضحوا بحياتهم لتحقيق هذا المجد » . وعلمت بعد ذلك أن رجال « إدارة أراضى العدو المحتلة » المقيمين فى المؤسسة الألمانية ، هرعوا إلى الكنيسة وغنوا ثلاثة أبيات من نشيد « حفظ الله الملك » ، وشربوا كميات كبيرة من الشمبانيا ، ثم أخذوا يقرعون الأجراس التى لا ترتاح آذان سكان المدينة لسماعها ، وكان جميع المدنيين يشعرون بالارتياح ، ولا يساورهم الشك فى تحقيق السلام النهائى ، وكذلك كان شعور معظم الجنود « الذين تساءلوا عما سيفعلون الآن » ، ولكن أحدهم فضل ألا يتمادى فى الانبهار فقد أبلغنى خبرًا مقابل الخبر الذى أبلغته إياه ، أن « ترشيد استخدام الجبن يبدأ اليوم » .

كانت الهدنة تعنى عند كل العائلات فى مختلف أرجاء العالم نهاية الخوف ، ففى روتشستر ظلت أجراس الكاتدرائية تدق ، وصلَّت أمى شكرًا للرب على سلامة أولادها الأربعة خلال الحرب ، ولكن اتصل بها أميرال أسطول الشمال ليبلغها أن ولدها الثانى فرانسس قد مات فى الليلة السابقة على إعلان الهدنة ، وتلقيت هذا النبأ المفجع

فى اليوم التالى . كان فرانسس أقرب أخوتى سنًا إلىَّ ، طموحًا ، مقبلاً على الدنيا ، وتذكرت ملاعب طفولتنا ، وأيام الدراسة والشباب ، ومهاراته المتنوعة فى الرياضة والشعــر والدراما ، وإتقـانه للمزامير ، وقلبه الطيب، ولا أظنه قد ارتكب إثمًا فى حياته ، وفى اليوم التالى تفضل الفرنسسكان بإقامة قداس بكنيسة القبر المقدس من أجل سلامة روح أخى الراحل .

١٨ ديسمبر – سيترك الجنرال مونى موقعه ، وقد عينت قائمًا بأعمال الحاكم العام ، ورقيت إلى رتبة البريجادير جنرال . وكان ذلك يبعث السعادة فى نفسى إذا كان فرانسس حيًا ، وجاء ينظر إلى ويتبادل معى النكات ، كما كنا نفعل من قبل عندما يلعب الحظ دوره مع أحدنا .

انتقلت إلى مبنى « المؤسسة » التى تصفر الرياح من حوله ، ويبدو كسجن يردد أصداء الرياح ، واستمتعت بأول وأطول فترة (حوالى أربعة أشهر) كحاكم فعلى لفلسطين . وأعترف أن العمل المتصل المتشعب للحاكم يجعلنى أشعر بمتعة بالغة ، ولكن إذا لم تتح لى فى نهاية اليوم بضع دقائق أمارس فيها شيئًا عاما آخر لا صلة له بعملى ، أشعر وكأننى لم أحلق قبل الإفطار ولم أغسل أسنانى بعده .

هنـاك الكثـيـر مما يجب عمله ، كله ممتع وبالغ الأهمـيـة ، وبعـضـه لا يحظى بالشعبية ، فمنصب الحاكم العام العسكرى يتضمن واجبات عسكرية ، إضافة إلى الإدارة المدنية ، ويفترض أن الحاكم الأجنبى الجديد يجب أن يكون له حضور واضح منـذ البدايـة ، وهو عمـل تقتضيـه الضـرورة ، باهظ التكلفة ، يتزايد مع مرور الزمن « متعدد الدرجات من حيث الجودة ، ولكنه قد يفتقر كثيرًا إلى الجمال » فبعد قيامى بجولة فى كل منطقة ، قمت بإدماجها فى بعضها البعض لينقص بذلك عدد الحكام العسكريين من ١٢ حاكما إلى ستة حكام (٢) .

(٢) عند تنفيذ نظـام الانتداب ثم إنقاص عدد المناطق الإدارية إلى ثلاث مناطق . وفى عام ١٩٢٢ قسمت فلسطين إلى مديريتين : الجنوب ، وتشمل القدس وأريحا وبيت لحم والرملة ، ويافا ، والخليل ، وغزة ، وبئر السبع ، والشمال وتشمل حيفا والسامرة والجليل ، وعند رحيلى عام ١٩٢٦ قسم الجنوب إلى القدس وما حولها ، وقسم الباقى إلى أربعة أقسام إدارية .

أصبحت المشروعات الأولى حقائق قائمة ، ففى فبراير ١٩١٩ ، قام الجنرال اللنبى بافتتاح مستشفى أمراض العيون الخاصة برهبان القديس يوحنا بالقدس ، بعد أن تم إصلاحها وتجهيزها ، وذلك بحضور جميع ممثلى الطوائف والدول بالمدينة .

قام مارك سايكس بزيارة فلسطين فى طريقه شمالاً إلى سوريا والأناضول ، ليتفقد أحوال الأرمن (ووجود مارك معى يسبب لى - كما هو الحال دائمًا - متاعب كبرى وسعادة بالغة) ، وهو يشعر أن الأمور هناك (فى سوريا) وفى فلسطين أكثر تعقيداً مما كان يتوقع ، ولم أره متشككًا فى الحقائق العملية المتصلة بالثوابت العزيزة عنده ، مثلما رأيته هذه المرة [٣] . وكنا فى حيفا عندما غادر فلسطين ، بعد أن «تمشينا» معًا لمسافة طويلة ، استمتعت خلالها بتقليده للطريقة التى ينطق بها القسيس الفرنسى اللاتينية ، أو طريقة الأسقف الأرثوذكسي فى الصلاة ، أو طريقة هجاء حكومة الهند لأسماء المسلمين ، ركب قاربًا نقله إلى عبَّارة فرنسية ، وظل يكمل حديثه معى حتى اختفى صوته وسط ضجيج التجديف وصفير الهواء . كان يجمع بين الطيبة والذكاء ، والموهبة والواجب ، معرفته الدينية عميقة مع تحليل دقيق لآراء المعارضين ، تحمس شديد لمختلف الملل والنحل ، وهى جميعًا كانت مكونات ثمينة لكفاءة خدمت الإمبراطورية فى الشرقين الأدنى والأوسط [٤] .

وقد جرت عادتى على القيام بزيارة القرى وبعض مراكز الشرطة (أحيانًا) فى الرابعة بعد الظهر ، كما أشاهد ثلاث أو أربع مباريات لكرة القدم حسبما

(٣) أضنى نفسه فى شرح تطلعات العرب والصهيونية لكل طرف منهم ولساسة الغرب (بلانش دجديل : أرثر جيمس بالفور ، ص ٢٢٩) .

(٤) أورد شين لزلى اقتباسًا من خطابى إلى ليدى سايكس فى كتابه « حياة مارك سايكس » جاء فيه : ماذا أقول منذ التقيته أول مرة فى ربيع ١٩١١ ، أصبح مارك يحتل مركز الاهتمام والتقدير عندى ، تفوق معرفته الواسعة ، وتنوع مواهبه ، وروح الفروسية عنده ، ولطفه وكرمه ، حدودَ الوصف . ويشاركنا الحزن عليه العرب والصهيونيون والأرمن ، فكل حق يحصلون عليه إنما يرجع الفضل فيه إليه ، ولابد أنهم يشاركوننى الشعور بفقد صديق من نوع فريد ، وكيف لا أنسى أننى استيقظت فى الرابعة لأظل معه حتى الحادية عشرة مستمتعًا بصحبته فى حيفا ، وأننى كنت آخر من رآه فى القارب الذى حمله إلى العبارة « كسماو » . حتى عندئذ رأيته نحيلاً واهنًا ، وسعدت لقضائه خمسة أيام فى راحة إجبارية . لقد كان يضايقه تصاعد النزاع العربى - اليهودى ، وقد ناضل من أجل تفادى الصراع بينهما ، وتحقيق الوئام .

أستطيع أو تستطيع « جمعية الشبان المسيحيين » ترتيبها ؛ لأننى أعتقد أن الشباب العربى قد يتجه إلى الاهتمام بالسياسة إذا لم يجد ما يشغل به وقت الفراغ ، ويصرف فيه طاقته .

مُنحت إجازة فى صيف ١٩١٩ ، وسافرت من الإسكندرية إلى مارسيليا على متن ناقلة جنود ، وكان ثمة خوف من انتشار وباء الجدرى ، فتم تحصين جميع ركاب السفينة ، فيما عدا جندى واحد رفض التطعيم (بحجة أنه شاهد رجلاً يموت بسبب ذلك) ، ولذلك تم عزله عن بقية الركاب طوال الرحلة حتى مالطا ، وكان لا يزال هناك ضابط للسكك الحديدية فى مارسيليا ، وكان الضباط العائدون من الميدان يحصلون على تذكرة بالدرجة الأولى ومكان بعربات النوم ، وكانت لندن تتألق بأنوار النصر ، وكان من حسن حظى أن أشهد موكب السلام هناك مرتين . وظل خادمى سعيد منبهراً بالسلالم المتحركة فى محطات قطار الأنفاق يقضى معظم الوقت فى الصعود والهبوط ، ويبدى دهشته لأنها « ببلاش » .

كانت السفن المتجهة للشرق قليلة ، وتلقيت تحذيراً من أننى قد أضطر إلى الانتظار طويلاً فى باريس ، وقد انتظرت هناك أسبوعًا بالفعل ، قضيته فى جمع ألف جنيه إسترلينى تبرعات « لأنصار القدس » ، وأمضيت المساء فى حضور تدريبات ملبا الموسيقية .

١٤ سبتمبر ١٩١٩ – تناولت الإفطار الساعة ٩,١٥ مع لويد جورج فى شارع نيتو بحضور بادريفسكى ، وبونارلو ، وموريس هانكى ، وانضم إلينا بعد ذلك ونستون تشرشل ، وسيلى ، وبالطبع اعترض بادريفسكى على أى حديث عن القدس وفلسطين بحجة أن الوضع البولندى – البلشفى أصبح أكثر إلحاحًا ، وقد حاول لويد جورج أن يخوض فى موضوع فلسطين خلال الحديث من وقت لآخر ، ولكنه كان أقل واقعية من عازف البيانو (بادريفسكى) السلافى الذى يجلس على يمينه . وكان من رأى الأخير أن يقوم الحلفاء بتسليح البولنديين الذين لديهم استعداد فعلى لمقاومة البولشفيك بدلاً من تسليح شعوب البلطيق الأقل استعداداً . وعارضه الجميع فى هذا الرأى ، غير أن دفاعه عن وجهة نظره لمدة ساعتين جعلنا نقتنع بأهمية تجربة ذلك

الاقتراح ، واتفق الجميع على أن البولشفيك – خاصة لينين – سوف يستمرون فى الحكم ، ولكنهم يغيرون من أسلوب عملهم . يُعتقد أن لينين عقائدى مخلص ، وأن تروتسكى أقل منه قدراً ، ولكنه أكثر قوة . واتفق الجميع على أن إنجلترا وفرنسا وإيطاليا لن تتفق مليماً واحداً فى محاربة البولشفية .. وانفض الاجتماع فى الساعة ١١,٣٠ ، وقد أخذونى معهم بإحدى سياراتهم الرولز رويس إلى حيث كانت سيارة أخرى فى انتظارى . دعيت إلى حفل غداء عند زاخاروف وهو مليونير ، وما لبث عندما سمع عن مشروعاتى الخاصة بالقدس أن استدعى سكرتيره وحرر لى شيكاً بمبلغ خمسمائة جنيه إسترلينى .

عندما عجزت عن العثور على سفينة تبحر من مارسيليا شرقاً ، ذهبت بالقطار إلى روما على أمل العثور على بغيتى فى تارنتو .

السفارة البريطانية بروما ، يوم ٢٠ سبتمبر ١٩١٩ – غادرت باريس بالقطار السريع يوم الثلاثاء ، وكان علىَّ أن أحجز مكاناً فى عربات النوم لسعيد (على نفقتى الخاصة) ، ووصلت روما متعباً بعد منتصف ليل الأربعاء ، وكانت السيدة برتسون مسافرة معنا وبصحبتها أحد ملوك الشيكولاتة الأمريكيين الذى استطعت أن أحصل منه – عند بيزا – على شيك بمبلغ ٢٠٠ جنيه لجمعية أنصار القدس .

التقيت سفورزا – وكيل وزارة الخارجية الإيطالية – وهو رجل لطيف ، كما قابلت المونسنيور شيربتى (وكيل خارجية الفاتيكان) الذى يقال إنه سيصبح البابا يوماً ما ، كما قضيت نحو الساعة مع الكاردينال جاسبارى (وزير الخارجية) ، وقد وجدت بيت ضيافة دولة الفاتيكان ملائماً ، فهناك مصعد من أخطر المصاعد فى العالم يعمل ببركة ميكانيكى فاقد الوعى ، أبوابه لا تغلق ، وليس هناك ما يمنع ركابه من السقوط ، ويحرص العامل الذى يقوم بتشغيله على إيقاف آلته بعد الظهر حتى يتمتع رجال الكهنوت بنوم القيلولة دون إزعاج ، ومن ثم يصبح الصعود إلى الدور الرابع أمراً مستحيلاً .

ذهبت قبل الموعد المحدد لمقابلة البابا بخمس دقائق ، وقدمنى كاهن التشريفات إلى قداسته الذى عبر عن سروره بمقابلتى ، وأشاد بلغتى الإيطالية . ففى الساعة

الحادية عشرة والنصف تماماً دق الجرس ، ومررت عبر خمس حجرات رخامية ، لأصل إلى حجرة كبيرة بديعة ، واستقبلنى البابا عند الباب تقريباً ، وقادنى عبر صفين من الكراسى المذهبة المكسوة بالحرير كل منها يواجه العرش الذى يجلس عليه ، وأشار إلىَّ للجلوس على مقعد يقع على يمينه ، وهو رجل قصير القامة ، ميال إلى السمرة ، يبدو فى سن الشباب ، يضع نظارة على عينيه، ويعانى بعض الصعوبة فى السمع ، دقيق فى التعبير عما يريد قوله ، ولماح فى التقاط لب موضوع الحديث . وأكدت له أن الإدارة العسكرية فى فلسطين لم تحاول أن تستفيد من وضعها ببث الدعاية للكنيسة الإنجيلية ، فوافقنى على ذلك ، ولكنه قال إن لديه ما يؤكد أن أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى حاولوا استغلال الوضع للدعاية لأنفسهم . وقد أعجبت خلال المقابلة بصراحته ومودته والبساطة التامة التى يتحدث بها قداسته ، وخرجت بانطباع مؤداه أن الثقة تامة فى الفاتيكان فى الرسالة التى نؤديها فى الأراضى المقدسة .

وقد أبقانى البابا فى حضرته حتى الساعة الثانية عشرة ، بما يزيد على الزمن المحدد للمقابلة بعشر دقائق ، وأعطانى إشارة الانصراف عندما قال إن الكاردينال وزير الخارجية يود رؤيتى قبل مغادرة روما ، وقد انحنيت على يده عند مصافحته ، وفعلت نفس الشىء عند الباب وغادرت الحجرة . وقضيت نصف ساعة مع الكاردينال جاسبارى الذى حرص على معرفة تفاصيل الحديث الذى دار بينى وبين البابا ، وقرأ علىَّ رسالة موجهة إلى راعى الفرنسسكان بالقدس ثم لصق مغلفها بنفسه ، وحملنى إياها مؤكداً ضرورة التأكيد على أننى لم أطلع على فحواها .

تناولت العشاء مع عائلة ماركونى ، وذُكر لى أن شركته تلقت خلال الحرب كل البرقيـــــات المعادية والمحـــايدة والصديقة من خلال صندوق حديدى موجـــــود فى بيتـــه ، (وهكذا كنا - فى مصر - نضيع وقتنا بالبحث عن معدات التجسس التى ربما يقيمها الأعداء فوق أسطح المنازل) ، وعرفونى على كتابات ماتيكوا دى سيراو . وقد علمت أن الشركة جيدة ، وإن كانت معادية للإنجليز . كانت الزوجة تريد لابنتها الصغرى زوجاً إنجليزياً وسيماً ، بينما كانت ابنتها الكبرى متزوجة من إيطالى .

ومنحت شرف مقابلة ملك إيطاليا ، وكان قد تلقى - أثناء زيارته لبيت لحم - نبأ اغتيال والده ، وتوليته العرش بعده ، ومعلوماته العامة عن فلسطين تتسم بالدقة .

شعرت قبل مغادرتى ، وبعد عودتى للقدس ، أن مقعد الحاكم ، وإن كان متعبًا ، إلا أنه مرغوب فيه ، ونصحت بألا يترك المقعد شاغرًا لوقت طويل .

وصلت هذا الخريف إلى القدس مجموعة صغيرة من الأمريكيين نعرفها باسم « الأسمنتيين » تعمل على تشجيع الصداقة الطيبة وتحقيق الترابط بين الناس . وقد قامت السيدة أوليسيس جرانت ماككوين ، ووليم ماككراكين معًا ، وكذلك صحيفتها « جيروسالم نيوز » (وشعارها أخبار القدس أخبار طيبة) بالترويح عنا لبضعة أشهر ، وقد تم تقويم عمل « الأسمنتيين » بقدر أقل من التسامح ، وأكبر من المزاح ، الذى طال بعثة فورد للسلام وعصبة الأمم ، ربما لعدم تحقيقهم النجاح التام .

* * *

كانت بداية ربيع عام ١٩٢٠ تمثل عندى ذروة السعادة ، فقد ودعت الأسى والقلق . أنهيت الصيف فى التحرى والثقة ، واستمتعت فى فبراير بأول إجازة لى بفلسطين بصحبة شقيقتى مونيكا وأحد الأصدقاء ، لاعبًا دور السائح بين سكان الشمال الذين أصبحت مسئولاً عن مشاكلهم منذ عام . وقد علمنا الحاكم العسكرى لحيفا لعب البوكر الذى اهتمت به شقيقتى وأتقنته بنجاح ، رغم أنها كغيرها من عائلتى ستورس وكست لا تبدى اهتمامًا غريزيا بلعب الورق (ولا تقل فى ذلك عن شقيقها) .

وقدأقمنا فى طبرية ، ثم اتجهنا جنوبًا ، فوجدت جاك هيوبارد قد عين حاكمًا عسكريا لنابلس ، وكنت أعرفه من قبل ، وعندما دخلنا نابلس كانت فلسطين تتعرض لعاصفة ثلجية عرفتها فى العديد من السنوات ، وانقطعت اتصالات الهاتف والبرق ، ولم يكن هناك اتصال لاسلكى ، وكنت أريد الوصول إلى القدس على وجه السرعة ، ولكن السيارة لا تستطيع السير فوق الثلوج ، فاتفق هيوبارد مع مسلم نابلسى ليتولى نقلنا إلى القدس بعربة مغطاة يجرها زوج من الخيول . وما كدنا نقطع مسافة ميلين

أو ثلاثة أميال حتى توقف الحصانان عن السير تمامًا ، وعلمت (بشيء من الدهشة والضيق) أن صاحبهما قد نسى إطعامهما ، واضطررنا للعودة حيث قام هيوبارد بزج الحوذى فى السجن ، ولكن أفرج عنه (بعد الظهر فقط) ؛ لأنه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يدلنا على بيت كبير كهنة السامرة .

تلفت حولى فى أثناء مقابلتى لذلك الرجل الذى يمثل البقية الباقية من إسرائيل القديمة ، لاحظت أن مرشدنا السجين قد عومل كمرافق رسمى يجلس على مقعد إلى جانبنا ويشرب القهوة مثلنا ، وهى قهوة جيدة لعله لم يشرب مثلها من قبل .

بدأنا التحرك – مرة أخرى – فى اليوم التالى ، وتركنا العربة عند سنجل (وتبعد ٢٥ ميلاً عن القدس) لنستخدم خيول الشرطة التى ركبناها فى رحلة من أكثر الرحلات جمالاً ، حتى بلغنا القدس ، وكان الريف ساكنًا مهجورًا معتمًا فيما عدا بصيص من النور يرى من داخل بعض البيوت ، وكدنا نضل الطريق بالقرب من القدس ، وهبط بى جوادى داخل حفرة كبيرة تعلو حافتها مستوى رأسى ، وشعرت وكأن الأرض ابتلعتنى .

وفى القدس اكتشفت أن المجلس البلدى والموظفين قد عالجوا الموقف بالنوم فى فراشهم ، وأن الإدارة العسكرية جلبت بعض فصائل الجنود لتطهير الطرق من الثلوج ، وفتحها للمرور ، ولجأ الجنود الهنود المساكين الذين كانوا يتجمدون فى خيامهم إلى أحد الأجنحة الخالية بأحد الأديرة ، فتعالت الأصوات بالشكوى التى تضمنت مبالغة فى الحديث عن « الفضائح » ، وانتهى الأمر بطرد أولئك الجنود التعساء إلى العراء وسط الثلوج ، دون إمهالهم بعض الوقت لتدبير مأوى آخر لهم .

وفى ذلك الوقت ، قام السير هربرت صامويل بزيارة للقدس ، وما أذكره عن هذه الزيارة أنه قد شرف « جمعية أنصار القدس » بحضور أحد اجتماعاتها ، وأنه أملى فى هذا الاجتماع مذكرة تجاوزت ثلاث صفحات دون الحاجة إلى تصحيح أى من علامات الترقيم بها .

وفى مارس سعدت باستقبال والدى ووالدتى فى بيتى ، ولاحظت كيف كسبا على الفور ود جميع الطوائف ، وقد أبديا اهتمامًا كبيرًا بالتعرف على حقيقة الأوضاع

من المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء . وكنت فى حاجة إلى وجودهما معى فى وقت كانت الأوضاع السياسية بالقدس تزداد صعوبة ومشقة .

فقد تعالت أصوات العرب الرافضة لتصريح بالفور، وازدادت عمقًا ، وكان النجاح الكبير الذى أحرزه العنف فى مصر ، مشجعًا للمتطرفين للتحرك تعبيرًا عن السخط ، وقد واجه العرب واليهود إدارة عسكرية تعمل بروح الأسرة المتحابة بما لا يقل عما كانت عليه الحال بالنسبة « لإدارة أراضى العدو المحتلة » .

وبعد ١٨ شهرًا من إبرام السلام ، بدأت العناصر العسكرية والمدنية – التى لم تتلق تعليمات محددة من إنجلترا – تتصرف بصورة مختلفة ولا تعمل بجد لاستئصال الاحتجاجات التى كانت تواجهها . كان السياسيون اليهود والعرب يحظون بتأييد فى كل من مصر وإنجلترا ، ويتوقعون بحث شكاواهم على الفور . وعلى الجانب الآخر ، كانت هناك مدرسة فكرية تدين وتصب اللعنات على كل الأعمال السياسية ، ويعنى ذلك (حسب فهمنا) التعامل مع الناس كبشر . وهكذا بدأ الزمن يقترب من موعد عيد الفصح اليهودى ، وعيد القيامة للعام ١٩٢٠ .

كتبت بعد بضعة أسابيع من تعيينى حاكمًا عسكريا بالقدس : « المسلمون هنا أكثر تدينا منهم فى مصر ، وكذلك كل فرد منهم ، فهم يستحقون الخير » . كان المفتى والعمدة هما الشخصيتان اللتان ترأسان أى احتفال رسمى مثل عيد « النبى موسى » الذى يركبان فيه فى موكب وحولهما أعيان المسلمين حتى خيمة الهلال التى تنصب على التل الأخير فى الطريق إلى أريحا ، وكان انتقال الإشراف على الاحتفال من العثمانيين إلى الإنجليز يمثل مسألة حساسة بالنسبة للمفتى والعمدة ولنا ، ما لم تكن الإدارة مستعدة للقبول بمبدأ الأخذ والعطاء عند التعامل مع تقاليد دينية استقرت على مدى ١٣ قرنًا من الزمان . وكان من واجب « المتصرف » العثمانى استقبال الرايات الصوفية فى مقر المتصرفية ، وحضور الصلاة فى الحرم حيث يعلن الإمام بداية العيد ، وكانت الحكومة التركية تطلق المدافع فى عيد النبى موسى ، وفى رمضان عند الغروب ووقت الإمساك ، كما كانت الفرقة الموسيقية للحامية التركية تشارك فى مراسم الاحتفال .

قمت بممارسة كل صلاحيات « المتصرف » ، ودخل الجيش طرفًا فى هذه المسألة ، فقام بإطلاق المدافع فى المناسبات التى تتطلب ذلك (وبعضها فى أوقات شاقة) ، كما كان الجنود يسيرون مصحوبين بفرقة الموسيقى العسكرية فى المواكب تحت القيظ الشديد ، وفى مسيرة تتسم بعدم الانضباط . وكان ثمة اعتراض شديد على استخدام موسيقى الجيش البريطانى فى مثل تلك المواكب ، ولكن كان لها ما يبررها لبعث الإحساس بالرضا فى نفوس السكان فى تلك السنوات الباكرة من الاحتلال البريطانى ، فقد اقتنع المسيحيون والمسلمون على السواء أن الحكومة البريطانية تبدى اهتمامًا بتقاليدهم ، وتبذل وسعها لأداء الأمور على خير وجه . وأعتقد أن هذا الدعم الذى قدمته السلطات العسكرية لنا قد ساعد على تهدئة خواطر العرب التى كانت توشك على الاشتعال غضبًا ، ولولاها لانفجر السخط العربى فى وقت مبكر عن ذلك الذى حدث فيه فعلاً .

وفى عام ١٩٢٠ ، عندما كان العداء للصهيونية يتصاعد ، رفض الجيش تقديم الفرقة الموسيقية فجأة قبيل احتفال عيد النبى موسى رغم الوعد بتقديمها من قبل (ولم تكن هناك فرقة غيرها فى فلسطين) ، ولكن عندما ألححت فى طلبها على وجه السرعة ، سمح للفرقة بالمشاركة ، وحضرت الأذان . وتحلقت الشرطة – كالعادة – حول الموكب . ورغم الاشتباكات التى كانت تحدث من حين لآخر بين أهالى نابلس والخليل من الزوار كان احتفال « النبى موسى » لا غبار عليه ، فلم يقع حادث واحد يمكن أن يعول عليه حتى الآن ، ولكن عام ١٩٢٠ كان الجو معبأ بشائعات مثيرة للأعصاب ، ساعد على انتشارها مناخ القدس ، وقد قمت باتخاذ كل الاحتياطات الواجبة ، ولكنى كنت أرى أنه ليس من العدل بالنسبة للقدس أن يتولى رئاسة قوة الشرطة فيها ضابط شاب برتبة ملازم ، كما أن ذلك لم يكن مناسبًا له ولى .

لم يكن من المتوقع وصول الحجاج إلى باب يافا قبل منتصف النهار ، فذهبت مع أبى وأمى لأداء صلاة صباح الفصح بكاتدرائية سانت چورچ ، ونبهت على أحد

مساعدىَّ أن يراقب الموقف ويبلغنى عند اقتراب الموكب من المدينة قبل نصف ساعة من دخوله إليها ، ولكنه نسى تماماً . وبعد انتهاء الصلاة كنت أسير مع والدى على بعد ثلاثمائة متر من مقر الحاكم العسكرى ، قال لى تابعى خليل هامساً باللغة العربية : « حدث صدام على باب يافا ، ومات رجل متأثراً بجراحه » ؛ فأحسست وكأنه أغمد سيفاً فى قلبى ، وحتى الآن تذكر تلك الكلمات يصيبنى بالصدمة والرعب . وقد وصف الأيام التالية لذلك الكثيرون ممن يهمهم أمر الشعور بالمرارة الذى لا أريد أن أزيد منه ، كما لا أحب أن أجدد الأشجان التى لا يجوز الحديث عنها ، ويكفى أن أقول إن العلاقة القائمة على التفاهم المشترك التى أقمناها بعناية بين البريطانيين والعرب واليهود قد تبخرت بنار الخوف والكراهية .

ربما كان من الممكن جعل الاحتياطات التى اتخذناها أحسن مما كانت عليه (رغم أن السلطات العليا أقرتها) ، ولكن لا أظن أن أولئك الذين انتقدونا فى أوروبا وأمريكا يعرفون شيئًا عن حوارى القدس القديمة الضيقة المنحدرة الملتوية ، والدرج المتعدد صعوداً وهبوطًا الذى يصعب على الخيل استخدامه ، كما تعجز السيارات - بداهة - عن المرور عبره ، والزوايا المظلمة المتعددة فى الحوارى التى يمكن أن تقتل عندها عائلة كاملة دون أن ترى أو تسمع الشرطة عنها شيئًا رغم أنها لا تبعد عن المكان مسافة تزيد على المائة ياردة .

ترى ما الذى يعرفونه عن أعصاب القدس ، وما يصيبها عندما يسود التوتر ، فيثير وقوع صفيحة فارغة فوق الحجر الذعر ؟ ولم تكن الشرطة مدربة تدريباً جيداً ، وتفتقر إلى استيعاب تقاليد المهنة ، وكان لدينا شرطة بريطانية ليس بها أمين شرطة واحد . لقد كتبت فى العام التالى ، بعد عام عندما كانت الاضطرابات بمنأى عنا : « الأمور مثيرة للقلق هناك ؛ ففى يوم الجمعة الماضى رمح حصان خارج الأسوار ، وخلال خمس دقائق كانت المتاجر قد أغلقت أبوابها ، وأخذت السيارات المسلحة تحرس الطريق » .

وليس من قبيل إبراء ذمة إدارة الحاكم أو الشرطة أن ما أعقب ذلك من تولى « إدارة أراضى العدو المحتلة » زمام الأمور كان أقل تقديراً ، ولم يكن باعثًا على

السرور ، ودعا الجنرال بولس [٥] إلى إجراء تحقيق ، وشكلت لهذا الغرض لجنة برئاسة جنرال وعضوية كولونيل ومحام من العاملين بالحكومة المصرية لتحديد المسئولية عن الحوادث .

وقامت اللجنة بتوسيع مجال مرجعيتها لتشمل كل ما يدور بخلد « الكائن الأعظم » من نيات تجاه هذه البلاد التعسة بأكثر مما عنَّ لموسى أو جاء بمخيلة ربنا ! . ويحاول البعض أن يلقى بالمسئولية على كاهل الإدارة المحلية ، ولكن « هذا الحيوان الوديع يهب للدفاع عن نفسه عندما يواجه بالهجوم » . وهكذا بقينا جميعا فى حالة هدوء يشوبه القلق ، حتى يأتى بعد عام ونصف عام من يستطيع اتخاذ قرار .

نزلت اللجنة فى ضيافة الحاكم العام حتى لفتت انتباهه سيدة إنجليزية إلى أن أى لجنة ذات طبيعة قضائية ما ، يجب ألا تحل ضيفة على أحد الأطراف ، فانتقلت اللجنة إلى فندق أللنبى ، واتخذت اللجنة من المحكمة مقرا لها ، وتولت التحقيق مع رؤساء الطوائف وحدهم الذين كان يتطلعون إلى هذه الفرصة لتبادل الاتهامات أمام جمع من الحضور الذين يروق لهم ذلك ، ولكن كان هناك أيضا كبار الضباط الإنجليز العاملين بالإدارة ، بمن فى ذلك الحاكم العام ، وعندما لم يتم اتخاذ إجراء بالنسبة للتقرير الذى قدمه أولئك الخبراء الذين جاءت بهم المصادفة حول « الأمن العام بالقدس » ، ولما كان ذلك التقرير لم يعرف طريقه للنشر ، كانت النتيجة الوحيدة للتحقيق إهانة وإحراج عدد من الموظفين الذين كانوا يحتاجون عندئذ إلى كل عون وتأييد ممكن .

ولكن كان هناك ما يبعث على الحزن بقدر أكبر ، كان الشخص الذى أثار ثائرة العرب يُدعى الحاج أمين الحسينى ، الأخ الأصغر لكامل أفندى الحسينى المفتى [٦] ، وشأنه شأن غيره من مثيرى الشغب ، دفع الناس إلى ارتكاب أعمال العنف فى

(٥) ثالث وآخر حاكم عام ، وتولى بعد مونى وواطسون .

(٦) وخليفته فى منصب المفتى فيما بعد .

الشوارع ، ثم أفلت من العقاب ، وسعت الشرطة للقبض عليه ، فزارت بيت أخيه بحثًا عنه . ولو استشارونى لمنعتهم من القيام بهذه الزيارة ، وأرسلت بدلاً من ذلك أحد رجالى للتحقق من وجوده بالبيت ، غير أن الشرطة مارست واجبها فى حدود صلاحياتها ، ولو كان الأتراك هنا لفعلوا نفس الشىء .

توجه المفتى على الفور إلى « إدارة أراضى العدو المحتلة » محتجًا على ما لحق به من إهانة ماسة بالشرف ، وأعاد الوسام الذى كان قد حصل عليه أخيرًا (مادام لم يعد بمنجاة من الاعتداء) . . وقد قوبلت هذه الوقاحة الغريبة بقدر كبير من التسامح ، وبدلاً من إعادة المفتى إلى طريق الالتزام بالنظام ، عُززت مكانته ، وقُدم له نوع من الاعتذار ، وهكذا سقطت « هيبة » الإدارة العسكرية .

وعندما تسير الأمور فى القدس فى طريق الخطأ السياسى ، ترفع كل القضايا النائمة ذات العلاقة رءوسها ، فقد شددت السلطات الإسلامية من إجراءاتها ، فازدادت زيارة الأضرحة الخاصة بالبطاركة فى الخليل صعوبة ، وفحصت بدقة مسألة ملكية قبر رحيل على طريق بيت لحم ، وبعد اضطرابات الفصح ، كان حادث حائط المبكى هو أول الحوادث التى عرضت كلاً من العرب واليهود إلى الإضرار بقضية كل منهما ، وقد علمت بهذه المسألة – لأول مرة – من الخطاب التالى الذى تلقيته من اللجنة اليهودية :

« علمنا أن المفتى يجرى إصلاحات على حائط المبكى بموافقة منكم ، وأعلن احتجاج الشعب اليهودى فى فلسطين ضد هذا العمل ، إن حائط المبكى هو الحائط الغربى لمعبدنا ، وهو قائم منذ تحطيم المعبد ، وهذا الحائط يعد ملكية مقدسة عند خمسة عشر مليونًا من اليهود فى العالم ، ولم ينسه أحدهم لحظة واحدة منذ الشتات . فأمام حائط المبكى يخرج اليهود مكنون صدورهم للرب ، وبعد احتلال الجيوش البريطانية للقدس وعدنا القائد العام للقوات البريطانية – باسم الحكومة البريطانية – بحماية الأماكن المقدسة دون تدخل خارجى ، والآن يتم إصلاح حائط المبكى – أقدس مقدسات اليهود – بالكامل دون الرجوع إلى الطائفة اليهودية المحلية . لقد حدث تدنيس للمكان من الناحيتين الدينية والتاريخية . فإذا كان هناك خطر حقيقى يهدد

بسقوط الأطراف العلوية للحائط ، فيجب إخطار الطائفة اليهودية بذلك ، عندما تؤخذ الخطوات الضرورية لإصلاح الحائط . ونحن نشك فى صحة وجود مثل هذا الخطر . لماذا يظهر هذا الخطر فجأة عندما شغلت أذهان سكان القدس بالأحداث السياسية ؟ وهل تدعو الحاجة للقيام بهذه الإصلاحات يوم السبت ، عندما يصلى مئات اليهود أمام الحائط ؟ ألم يعد هناك اعتبار للمشاعر الدينية عند اليهود ؟

إننى أصر إصراراً شديداً على إصدار أمر بإيقاف تلك الإصلاحات . وإذا أثبت الفحص المعمارى وجود خطر مباشر ، وأن هناك ضرورة لإجراء إصلاح للحائط عند أطرافه العليا ، دع أعمال الإصلاح للطائفة اليهودية بالقدس لتقوم بها » .

والحقيقة الوحيدة التى برزت من خلال هذه الرسالة (على افتراض صحتها) أن إدارة الأوقاف كدأبها فى ممارسة حقوق لم يتم التأكد من صحتها ، متهمة بنوع من سوء التصرف . ولذلك أوفدت على الفور مستشارى المدنى (وهو زميل بالمعهد الملكى البريطانى للعمارة) لبحث مدى الحاجة إلى الإصلاحات ، فإذا كانت تلك الإصلاحات ضرورية ، فعليه أن يقترح ما يمكن عمله بهذا الصدد . وجاء رده كالتالى :

« قمت بزيارة (حائط المبكى) فى الحادية عشرة من صباح اليوم ، ورأيت هناك السادة : ميوحاس وشلوخ وبن يهودا . وصعدت على سقف مبانى الأوقاف ، والحائط الذى يقع أسفلها . ولا أرى ضرورة لاستمرار العمل فى الإصلاح خلال ساعات الصلاة ؛ لأن بعض القطع الصغيرة من مواد البناء قد تسقط على رءوس المصلين» .

– لا أجد دليلاً على المساس بالبناء القديم ، فالعمال يزيلون الحشائش ، ويضعون الأسمنت بين الأحجار لحمايتها من الماء فى المستقبل ، وهى أقل ضرورة فى الحجارة السفلى الكبيرة منها فى الأطراف العليا للحائط ، ولذلك أمر المستر شيبر (بتفويض منكم) بما يلى :

(أ) عدم القيام بأى عمل فى ساعات الصلاة .

(ب) لا يتم تنظيف الأحجار وترميمها على مسافة ثلاثة أمتار من قمة السقف ، مادامت العملية تتم بقدر كبير من العناية .

وأخيراً تقرر أن تتولى إدارة الآثار أعمال الترميم والإصلاح كلما كانت هناك ضرورة لذلك بالنسبة للمنطقة السفلى من الحائط ، على أن تتولى إدارة الأوقاف إصلاح الجزء العلوى منه مع مراعاة سلامة وراحة المصلين اليهود أمام الحائط ، ويتوقف العمل تماماً يومى الجمعة والسبت .

وقد أثار هذا القرار بإسناد إصلاح الجزء العلوى من الحائط إلى المسلمين احتجاجاً شديداً من جانب المفتى .

وتم إنهاء الفصل الأول من المأساة الخاصة بحائط المبكى - التى تكاد تكون دينية - بسلام ، ووفقاً للتقاليد المرعية .. ولكن الدماء جرت بسبب هذه القضية بعد ذلك بسنوات ، وجاءت لجنة دولية عام ١٩٣٠ بقرار من عصبة الأمم لبحث المسألة قبل إسدال الستار على المأساة .

وقد أدت اضطرابات الفصح إلى إثارة مسألة منصب عمدة القدس . فقد أصبح موسى باشا كاظم الحسينى أخيراً زعيماً لعائلات أعيان العرب المعارضة للانتداب والمتحدث باسمهم ، رغم كونه - كعمدة للمدينة - يعد ممثلاً للطوائف الدينية الثلاث بنفس الدرجة . وقد قابلته بعد ظهر أحد الأيام يسير فى مظاهرة أمام مكاتب اللجنة الصهيونية ، ورجوته أن يعود هو والمتظاهرون أدراجهم قبل وقوع اضطرابات ، وأنذرته مساء اليوم نفسه أن يختار بين العمل بالسياسة ومنصب العمدة ، وخلال حوادث الشغب أصبح مثيراً للمشاكل خارجاً عن حدودالانضباط . وقد أخطرت «إدارة أراضى العدو المحتلة » بذلك ، واقترحت طرده من منصب العمدة ، وتعيين غيره محله ، ففوجئت بالرد الذى تضمن تعيين بريطانى عمدة للمدينة ، وبذلك يفقد الفلسطينيون المنصب المتبقى لهم .

كان رفض هذا الاقتراح أسهل من مهمة العثور على شخصية على درجة عالية من الكفاءة والمقدرة والاستعداد للقيام بأعباء المنصب فى ظل تلك الظروف ، واستعدت فى ذاكرتى الجهود التى بذلها كيتشنر فى مصر بحثا عن رئيس للوزراء . فاستدعيت راغب بك النشاشيبى (العضو السابق بالبرلمان العثمانى) والمعروف بكفاءته ، وعرضت عليه منصب العمدة ، ورجوته أن يقدم لى موافقة خطية على الفور ، وسعدت

بالحصول على موافقته ، وبعد عشرين دقيقة أبلغت موسى باشا أن الوقت يقتضى أن يتولى غيره المنصب (وكنت آسفًا لذلك ، فقد أثبت قدرته ونجاحه فى عمله فى أكثر من مناسبة ، كما كان مثالا للرجل العربى دمث الخلق) . فكان رد موسى باشا « إن لسعادتكم مطلق التصرف ، ولكنى أنصحك بعدم التعجل فى اتخاذ القرار ؛ لأنه – حسب علمى – لن يجرؤ عربى على الحلول محلى » . فقمت بإطلاعه على خطاب راغب بك . وعندما قرأه ، هب واقفًا ، وشكرنى على دعمى له خلال توليه المنصب ، مؤكدًا استمرار صداقته لى ، وصافحنى ثم خرج معتدل القامة يسير ببطء [٧] .

حمل انتهاء « إدارة أراضى العدو المحتلة » مسحة كوميدية ، فلم يكن هناك شك فى أن نظام الحكم الذى أقمناه فى فلسطين لن يستمر إلى الأبد ، وكمقدمة لحدوث انتقال ، تم إطلاعى فى أواخر مايو عام ١٩٢٠ فى مقر الإدارة على مشروع لإقامة إدارة عسكرية دائمة موسعة بقدر محسوب ، تتضمن منصب رئيس الأركان ومجموعة من الضباط برتبتى الكولونيل والماجور يتولون أمور الإدارات العسكرية . وكان البناء الأساسى للإدارة المقترحة الجديدة يوشك أن يتم ، عندما تم إهماله تمامًا بوصول برقية تعلن تعيين السير هربرت صامويل أول مندوب سامى بريطانى لحكومة فلسطين المدنية ، ولم يلق ذلك الخبر ترحيبًا واسعًا خاصة من جانب أولئك الذين لا مكان لهم فى الحكومة الجديدة ، وهناك تنبؤات متشائمة باحتمال وقوع معارك طاحنة يقتل فيها الكثير من الناس .

ولم يكن باستطاعتنا سوى الانتظار والترقب للنتائج التى لا مفر منها المترتبة على جنون لويد چورچ . غير أن « إدارة أراضى العدو المحتلة » استطاعت أن تقدم للصهيونية أخر خدماتها غير المستحبة باستنكار ورفض تفسيرات بعض صحفهم اللندنية لنظام الانتداب .

(٧) كان المجلس البلدى من ستة أعضاء : مسلمان أحدهما العمدة ومسيحيان (أرثوذكسى وكاثوليكى) ويهوديان . وقد ابتدعت منصبى نائب العمدة المسيحى ونائب العمدة اليهودى ، على أن يحلا بالتناوب محل العمدة عند غيابه .

وفى الوقت نفسه ، تلقيت برقية من السير هربرت صاموبل يعرض فيها علىّ الاستمرار فى خدمة الإدارة المدنية كحاكم للقدس ، وأن أقوم بعمل السكرتير العام لحين وصول الكولونيل وينرام ديدس ، وبصفتى أكبر الضباط المتبقين رتبة ، ذهبت إلى يافا لاستقبال المندوب السامى . والمقتطفات التالية من يومياتى تعطى صورة لتلك الأيام المثيرة التى كان يعوزها الطمأنينة :

وأبدأ بالقول : إنه رغم الحجج القوية التى أثرتها ، أصر اثنان من الجنرالات على أن يكون قدوم المندوب السامى من يافا بالسيارة ، رغم أن وصوله بالقطار يعطى تأثيراً أكبر ، فضلاً عن أنه أفضل من الناحية الأمنية . وقد حصلت - بصعوبة - على إذن بأن أبرق للمندوب السامى قبل وصوله بعشرة أيام لسؤاله عن وسيلة الانتقال التى يفضلها . وقبل وصوله بيوم واحد تلقيت رداً من روما فضل بموجبه الانتقال بالقطار ، ورغم ذلك تمسك الجنرالان برأيهما .

تركت المنزل بصحبة الشرطى الخاص بى (خليل) بسيارة الجنرال بولس الفوكسهول الساعة ٥,٣٠ مساء ٢٩ يونيو ، وكانت أمى متوترة من الشائعات التى انتشرت ، ومفادها أننا معرضون للخطر . وكنت قد تلقيت تحذيراً من سيدة مسلمة بألا أسافر بصحبة المندوب السامى فى سيارته . وبعد تناول الغداء فى يوم السفر نفسه عرضت على المستر كورى (عضو لجنة مشروعات النيل) - وهو أمريكى - أن يسافر برفقتى بالسيارة إلى يافا ، فقبل ، ولكنه قال إنه ربما رفض هذا العرض لو قدمته له فى اليوم التالى . كان مساءً بديعاً ومضت الرحلة دون مشاكل ، ولكن عند هبوط التل فى الطريق كسر ترس المقود فاندفعت السيارة حتى وقعت مقدمتها فى حفرة وتوقفت ، وعندما نزلنا منها تبين لنا أن (الشاسيه) قد كسر إلى قطعتين نتيجة وجود شرخ كبير به (قيل إنه ربما يكون قد تم بفعل فاعل) . وكنا لم نبعد عن القدس بأكثر من عشرين ميلاً ، فتركت السائق والسيارة وفضلت العودة إلى القدس مشياً على الأقدام . كان الجو حاراً ، وبعد مضى عشرين دقيقة بدأت أيأس من إمكانية العثور على وسيلة نقل عندما رأيت سيارة فورد استوقفتها فإذا بها تقل تشايكوف (ناظر مدرسة الموسيقى) وسيل (مدرس البيانو) وبصحبتهما سيدتان فى

طريقهم إلى يافا لتقديم حفل موسيقى ، ولم يكن لديهم مكان لى ، ورغم ذلك أبدوا استعدادهم لتوصيلى ، حتى رأوا حقيبتى فتعذر عليهم ذلك . واستوقفت سيارة فورد أخرى كان بها صديقى القديم الحاخام أمينوف (رئيس طائفة يهود بخارى) فشرحت له الوضع ، وقبل أن يوصلنى . وعند أحد المنعطفات تجاوزتنا سيارة فورد أخرى بها أماكن خالية وأكثر سرعة ، قبلت أن تأخذنى بقية الرحلة . وكان السائق ضابطًا سوريا فى الجيش البريطانى برتبة كابتن كنت قد أجريت له اختبارًا شخصيا للتعيين فى « إدارة أراضى العدو المحتلة » . وكانت زوجته سيدة ممتعة الحديث ، سعدت عندما علمت أننى أعرف زحلة مسقط رأسها ، وترددت فى الإجابة عندما سألتها عما إذا كانا من الموارنة ، ثم ردت بالإيجاب ، ولكنهما من البروتستانت .

وصلنا إلى بير سالم حوالى الساعة الثامنة مساء ، وتناولنا العشاء الساعة الثامنة والنصف ، والطقس حار رطب ، عندما وصل أحد الجنرالين صاحبى فكرة انتقال المندوب السامى بالسيارة ، انتحى بى جانبًا محاولاً إقناعى برأيه ، ولكنى بينت له أن المندوب السامى قد طلب استخدام القطار ، وإذا أرغم على ركوب السيارة وحدث له سوء لأصبح الجيش فى موقف لا يحسد عليه . فاقترح علىَّ أن أسأل السير هربرت صامويل فى الصباح عن وسيلة السفر التى يفضلها ثم أنفذ له رغبته ، وكوسيلة للتمويه ، كان هناك قطار يقف فى اللد على أهبة الاستعداد للتحرك .

وفى صباح اليوم التالى ذهبت إلى يافا بسيارة رولز رويس ، فبلغت مقر حاكم يافا الساعة التاسعة والربع ، حيث وجدت براملى (رئيس شرطة فلسطين) وبوستلتويت حاكم يافا العسكرى مشغولين بإصدار التصاريح للراغبين فى استقبال المندوب السامى. وقمت بإعداد بعض الترتيبات ، وظهرت السفينة فى العاشرة إلا الربع ، وكانت تسير بسرعة كبيرة ، ودخلت الميناء فى موعد وصولها تمامًا حيث قابلت ضابط الميناء راجيًا أن أركب على الفور قاربًا لاستقبال السفينة قبل رسوها ، وقد قمت بذلك تحت لقطات عدسات آلات التصوير وآلات السينما . كانت منصة الاستقبال مزينة جيدًا ، وهناك قدر من الاستبشار بقدوم المندوب السامى يلوح فى الأفق . صعدت إلى

ظهر السفينة ، وسعدت لرؤية السير هربرت صاموبل مرتدياً بزة دبلوماسية بيضاء اللون يزدان صدره بالأوسمة والنياشين . وكان ودوداً قدم لى الشكر على الحضور ، ورجوته أن يمر على منصة الاستقبال التى زينت من أجله ، ولكن وجدته مضطراً لذلك بسبب رسو السفينة أمامها ، وتلقى التحية بإطلاق ١٧ طلقة مدفع .

إن المشاركة فى أكثر من ميدان من ميادين الحرب يضر بالقيم التاريخية للكثيرين . وربما أكون قد بالغت فى الاهتمام بالحملة العربية وتقدير قيمتها ، ولكنى لم أنفرد بذلك ، هنا وأنا أسير على الشاطئ بجوار الرجل الذى اختير لتنفيذ قرار بالغ الخطورة ، أقدم له الشخصيات التى ذهبت السعادة بوعيها ، يسيرون وكأن المجد قد تحقق لهم ، وأحلامهم أصبحت حقيقة . كنت فى حقيقة الأمر أشعر بأننى أسير فى مشهد أغرب من التاريخ بعث فيه الماضى من مرقده ، وعاد إلى الحياة من جديد .

فى الجدل حول السيارة والقطار ، اتفقنا أن المعول عليه هو الوصول إلى القدس وليس الانتقال من يافا ، فتقرر أن ينتقل المندوب السامى بالسيارة إلى اللد ، حيث يستقل القطار من هناك إلى القدس . وكان الحارس الجالس بجوار سائق السيارة مسلحًا تسليحًا تاما ، كما كنت أقبض بيدى اليسرى على مسدس براوننج جاهز للاستخدام . وأذكر أن السير هربرت صامويل قد أدهشه أن يرى رجال « إدارة أراضى العدو المحتلة » يرتدون الملابس العسكرية ، وطلب أن يرتدى الجميع عند الوصول للقدس الملابس المدنية ورغم أن البعض تخلف عن استقبال المندوب السامى بالقدس إلا أن الاستقبال كان لا يقل أبهة عنه فى يافا ، ولم يحدث خلال الرحلة أو الاستقبال أى مساس بالأمن والنظام .

وقد سجل دخول السير هربرت صامويل مقر الحكومة فى آخر الأوامر الصادرة عن « إدارة أراضى العدو المحتلة » على النحو التالى :

وصول المندوب السامى لصاحب الجلالة

فى فلسطين مقر الحكومة

بين الساعة ١٣٠٠ و ١٤٠٠

٣٠ يونيو ١٩٢٠

عندما تدخل السيارة بوابة مقر الحكومة ، تطلق المدفعية ١٧ طلقة من أرض منزل السير چون جراى هل [٨] . وعند تفقد حرس الشرف الذى يصطف فى الساحة أمام دار الضيافة .

بعد ذلك يتجه سعادته سيراً على الأقدام إلى المدخل حيث يكون فى استقباله عمدة القدس (يقدمه القائم بأعمال الحاكم العسكرى) وأعضاء المجلس البلدى .

وسوف يقرأ العمدة خطاب ترحيب يقدمه لسعادته بعد ذلك داخل علبة . ويرد بسعادته على الخطاب ، ويستقبله بعد ذلك الحاكم العام على السلم .

ويكون مديرو المصالح حضوراً فى بهو المدخل ، ويتم تقديمهم للمندوب السامى ، ثم يلتقى الجميع على الغداء ، ويغادر حرس الشرف المكان .

(٨) يدخل الآن فى حرم الجامعة العبرية .

الفصل الخامس عشر

أضواء على الصهيونية

بين الإدارة العسكرية لفلسطين وحكومة الانتداب

أظن أن أكثر من نصف القراء يتوقعون منى الحديث عن « صهيون » ، ذلك الشىء الغامض المخيف ذو الرنين المعدنى [1] ، ولكنى أنبه أولئك الذين لا يهمهم الأمر أن يكونوا على حذر ، ورغم أن الأراضى المرتبطة بالقضية لا تثير الاهتمام بدرجة كبيرة ، وأن سكانها لم يقدموا ما يهم الإنسانية ، إلا إن مشكلة تسوية المسألة المتعلقة بحقوقهم ، والإحن الناجمة عن الوعود التى قطعت لتحقيق الآمال المرجوة لإقامة « إسرائيل » ، التى عنت ولا تزال تعنى الكثير بالنسبة للعالم ، وينظر إليها على أنها نوع من الاستيلاء على الأرض نادرًا ما يواكبه اعتدال وتعقل وعدالة ؛ لذلك آليت على نفسى أن أكتب بلا تردد عن الصهيونية فى ظل الإدارة العسكرية بعهودها الثلاثة ، وفى ظل الإدارة المدنية (الانتداب) ، وربما أضيف بعض التعليقات فيما بعد ، موقنًا أننى قد أخسر – نتيجة لذلك – تسامح اليهود ، وثقة الرب ، واحترام المسيحيين من أصدقائى بين هؤلاء وأولئك .

وتتم رؤية الصهيونية من خلال أربعة اتجاهات مختلفة؛ (١) فالمؤيدون المتحمسون يهونون من شأن الصعوبات ، ويتعجلون تحقيق الهدف ، وهؤلاء يمثلون قطاعًا كبيرًا من يهود العالم وبعض المؤيدين لهم خارج فلسطين . (٢) وأصحاب الاعتراضات المعلنة ويمثلون جميع الفلسطينيين من غير اليهود ، ومن الروم الكاثوليك فى العالم (الذين لا يهمهم العهد القديم) ، ومن البريطانيين المؤيدين لوجهات نظر المسلمين والعرب الذين

(١) كتبت المسودة الأصلية لهذا الفصل قبل اضطرابات عام ١٩٣٦ فى فلسطين ، ومنذئذ صدرت دراسات عديدة عن الموضوع منها اثنتان موضوعيتان وواحدة مهمة . وأشير بذلك إلى تقرير اللجنة الملكية (الذى لم أتسلمه إلا فى أثناء مراجعة تجارب هذا الكتاب) ، والدراسة الأخرى لهانكوك « علاج أمراض السياسة » المنشور فى : عرض شئون الكومنولث البريطانى ، والثالث كتاب دوجديل « أرثر جيمس بالفور » : فقد ساعدتنى دراساتهم على دعم مصادرى وتأكيد وجهة نظرى ، كما قرأت كتاب اللورد ملشت « الجار » ، والكتاب الصريح لإرنست مين « فلسطين ، الصهيونية فى مفرق الطرق » ومجلة « فلسطين » الأسبوعية التى تحررها « لجنة فلسطين » البريطانية ، وتتضمن مقالات « صاغها قلم ليبرالى استعمارى بريطانى ، ولكن محتواها صهيونى خالص » .

لا يضعون فى اعتبارهم متغيرات السياسة الدولية . (٣) وأولئك الذين لا يهمهم الأمر أصلا ، ولا يستطيعون تحديد موقفهم من القضية (وأظن هؤلاء يمثلون ألف مليون من البشر) ، (٤) والموظفون الرسميون فى فلسطين الذين يدعمون الانتداب الذى قبلت بلادهم تحمل تبعته ، ولكنهم يريدون تبرير أعمالهم أمام ضمائرهم ، وأمام الذين يرتبطون بالحكومة البريطانية وقوانينها ، وأمام « عصبة الأمم » ، وكذلك أمام الصحافة . وأنا هنا أوجه حديثى إلى كل من أصحاب الاتجاهات الأربعة على التوالى .

ترى .. ما الذى يعرفه الصبى البريطانى العادى عن اليهود ؟ إنهم لا يعرفون شيئًا عن اليهود . وعندما كنت صبيا يتراوح عمرى بين السابعة والعاشرة ، التقيت فى فريثرن هاوس واحداً من عائلة لاندنبرج ، وآخر دمث الخلق من عائلة روتشيلد كان يبدو على معرفة بكل شىء حتى إنك لا تجد شيئًا جديداً تقوله له ، وقد أثار إعجابى الشديد مما جعلنى أشعر بالحاجة إلى بعض المراجعات العقلية (وقد التقيت يهوداً آخرين بعد ذلك) ولم يكن يداوم بالمدرسة يوم السبت (وكنت أحسده على ذلك) ، ولم يكن مسموحًا للمدرسين بجلده (وقد ضايقنى هذا التميز) . وليس لدىَّ أى ذكريات يهودية عن أيامى فى تمبل جروف .

وفى تشارتر هاوس كان هناك شقيقان من عائلة أوروبية (أكثر منى مهارة) ، يحضران معنا الكنيسة فى السابعة والنصف صباحًا ، وكان رالف شتراوس واحداً من أعز أصدقائى فى كامبريدج . ولابد أنه كان هناك يهود آخرون ، ولكنى ورفاقى لم نعرفهم كيهود . ولم أسمع والدى يذكر اليهود إلا فيما اتصل بالعهد القديم ، ولم ير أحدا منهم خارج هذا الإطار إلا لقاءً عرضيًا بأحد الحاخامات . وكانت أمى تتحدث باعتزاز عن تأجير بيتنا فى وستجيت – أون – سى لعائلة يهودية معروفة ، كانت شديدة التدين ، فأزاحت كل الأيقونات واللوحات الدينية التى كانت تزين حوائط البيت ، وقامت بتخزينها فى القبو ، بما فى ذلك لوحة مهمة ليسوع الطفل من أعمال ڤان دايك .

وفى مصر ، التقيت زعماء الطائفة اليهودية ، وربطتنى بهم صداقة وطيدة ، وكانت هناك جالية كبيرة من السفارديم الذين وفدوا إلى مصر من إيطاليا ودمشق وسالونيك . وقد دعيت لحضور حفلات الزفاف وغيرها من الحفلات التى أقامتها عائلات سوارس ، ورولو ، وقطاوى، ومنياس ، وموصيرى ، وهرارى . وكان حاخامات اليهود يستشيروننى باعتبارى السكرتير الشرقى بصفة مستمرة بقدر لا يقل عما حدث بعد تعيينى بالقدس .

وكان اليهود يدينون بالولاء للبلد الذى يحتضنهم مثلما فعل جدهم يوسف ، ومثلما فعل السير سلومون دى مدينه الذى جعله الملك وليم الثالث فارسًا فى هامبتون كورت عام ١٧٠٠ . وقد تمتع اليهود فى مصر بسمعة طيبة فى قطاع المصارف وفى الوظائف الحكومية عن جدارة واستحقاق .

وكما حدث مع كل اليهود ، كانت هناك دائمًا بعض الأزمات فى التنظيم الداخلى للطائفة ، تستطيع أن تسمع صيغًا مختلفة منها بالأسواق وبقصر الدوبارة . وكان زعماء الطائفة يُستشارون دائمًا من جانب أمراء الأسرة الخديوية ، ومن جانب ممثلى حكومة صاحب الجلالة البريطانية على السواء .

كان هذا أساس معرفتى باليهود ، ناهيك عن العهد القديم (الذى يحتل موقعًا فى قلبى) وكتاب رينان « تاريخ شعب إسرائيل » (٢) الذى قدم لى كل ما عرفته عن اليهودية حتى عام ١٩١٧ . ولم تر زوجتى يهودًا فى حياتها إلا فى القدس ، بعد زواجنا عام ١٩٢٣ . لقد تعلمت الكثير ، ومازال أمامى الكثير الذى أحتاج إلى تعلمه ، غير أن حبى للغة العربية وللهجة المصرية التى تتسم بالدقة ، واللهجة الفلسطينية التى تمثل لأهلها قلعة الهوية التى يلونون بها ، ونظرًا للدور الصغير الذى لعبته فى الحركة العربية ، ودراستى وإعجابى باليهود ، وعوملت معاملة طيبة من الكثيرين منهم (وتعرضت للهجوم العنيف من صحافتهم ، كما تعرض لذلك آخرون من

(٢) قرأته مرة أخرى فى القدس ، ورغم قدم المعلومات الواردة فيه إلا أنه بالغ الإثارة ، ولا يحظى هذا الكتاب بالقبول عند اليهود ، ويبدو رينان مجلا للآباء والرسل ، ولكنه يكره ما بينهم .

غير اليهود) ، وفوق كل ذلك ، وجودى على رأس إدارة حاكم القدس البريطانية لمدة تسع سنوات ، أعمل جاهدًا - حسب ما لدى من صلاحيات - لحماية مصالح جميع الطوائف ، كل ذلك يجعلنى أشعر بالجبن إذا أسقطت تجاربى المتصلة بنشاط الصهيونية المبكر ، وممارساتها اللاحقة . ولما كنت بريطانيًا ، ولست يهوديًا أو عربيًا ، لم أنحز لطرف على حساب الآخر ، ولكن تعاملت مع الطرفين معًا ، وتكفى ساعتان من الشعب العربى لتدفعنى نحو المعبداليهودى، بينما تكاد الدعاية الصهيونية المكثفة تصورنى وكأننى مستعد لاعتناق الإسلام .

* * *

عرفت أوروبا المعنى الكامل « للتحررية الوحدوية » قبل وخلال وعند نهاية الحرب (ذلك الاتجاه الذى ابتدعه الإيطاليون ونقلوه لغيرهم) وكانت الصهيونية العملية (أو التحررية الوحدوية) جديدة بالنسبة للكثيرين ، تقف وحيدة دون نصير . وقد عرفت شيئًا عنها خلال الأسابيع القليلة التى قضيتها فى سكرتارية مجلس وزراء الحرب . ولكن كان تصريح بالفور عند ٩٥ ٪ من أصدقائى فى مصر وفلسطين (كما فى إنجلترا) لا يثير الانتباه ، رغم كونه النصر الوحيد الذى حققه أحد الشعوب على الجبهة الدولية . على حين ظنت القلة التى انتبهت إليه أن مدى ذلك التصريح وطريقة تطبيقه سيتم تحديدهما عندما يتحدد المصير النهائى لفلسطين ، وأولئك الذين سمعوا باتفاقات سايكس - بيكو عام (١٩١٦) علقوا آمالاً غامضة على بريطانيا التى حصلت على حيفا ضمن الممتلكات البريطانية . ولم يكن الانتداب معروفًا ، رغم أن مبادئ الرئيس ويلسون الأربعة عشر تعنى أن الفلسطينيين (الذين يشار إليهم باعتبارهم سكان جنوب سوريا) ، يسمح بأن يكون لهم صوت مسموع عند تحديد مصيرهم السياسى ، وفى مطلع ربيع ١٩١٨ كانت « إدارة أراضى العدو المحتلة » تواجه بالفعل مشاكل جديدة وغريبة ، يواصل رجالها النهار بالليل بحثًا عن حل لها .

ولذلك عندما أطلعنى كلايتون فى أوائل مارس على برقية تخطرنا بوصول « لجنة صهيونية » تتشكل من شخصيات يهودية بارزة ، لتمثل اليهود فى التعامل مع الإدارة العسكرية ، ويوكل إليها أمر الطائفة اليهودية ، لم نصدق ما تراه أعيننا بسهولة ،

وتساءلنا عما إذا كان من الممكن تأخير وصول اللجنة حتى يتم تحـــديد وضع الإدارة العسكرية بشكل أكثر وضوحًا ؟ ! ولكن الأوامر واجبة الطاعة ؛ لذلك بدأت الإدارة تتأهب لاستقبال اللجنة ، وعندما أجرينا اســتطلاعات سـرية ، تبين لنا أن العـرب لا يدركون ما فى ذلك من تهديد عملى لهم .

كانت الصهيونية موضع نقاش فى سـوريا من وقت لآخر ، وقد تعرضت للهجوم قبل الحرب بوقت طويل على صفحات جريدة « الكرمل » العربية ، كما رفضها السلطان عبدالحميد رسميًا استجابة لاستنكار قوى من جانب المسلمين [٣] . وقد كان هناك افتراض أن يكون المحتل المسيحى حساسًا تجاه المسألة بنفس الدرجة ؛ لأن الإمبراطورية تضم الكثير من الشعوب الإسلامية ، وكان رجال الدين والمتدينون اليهود فى القدس والخليل وكذلك السفارديم يعارضون الصهيونية السياسية معارضة شديدة ، مرددين أن الرب قادر على إعادة إسرائيل إلى جبل صهيون عندما يشاء ذلك ، ووفق إرادته وحده ، وأن فرض الأمر على غير مشيئته خرق لأصول التدين .

جاءت « اللجنة الصهيونية » بالقطار من القاهرة ، وبعد أن لقوا الإهمال عند وصولهم إلى محطة اللد ، استقلوا السيارة من هناك إلى القدس ، واستقبلت فى مكتب الحاكم العسكرى الماجور أورمسبى - جور ، والماجور جيمس دى روتشلد ، والملازم أدوين صامويل (المرافق) ، وليون سيمون ، والدكتور إدر ، وجوزيف كاون ، وإسرائيل سييف ، والدكتور حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، وكان المسيو سيلفان ليفى [٤] (المعادى للصهيونية) قد ضم للجنة ممثلاً للحكومة الفرنسية . ولما كانت اللجنة تتمتع بالاعتراف الرسمى من جانب الحكومة البريطانية ، فقد دعوت إلى مكتبى عمدة القدس ورؤساءالطوائف للالتقاء باللجنة للمرة الأولى فى جو رسمى يتسم بروح الصداقة ، ولكن ملامح وجوه ممثلى القدس لم تكن تدعو للاطمئنان ، وقد

(٣) فى عام ١٩١١ حذرت دار المعتمد البريطانى بالقاهرة السادة نوسنج ، وفرامكن ، وكنيسيفتش من شراء أراض بين رفح والعريش ؛ لأن الاتجاه إلى جلب اليهود إلى هناك كان موضع معارضة الصحافة المصرية .

(٤) وقد انسحب من اللجنة والمنظمة خلال انعقاد مؤتمر الصلح فى فرساى (١٩١٩) .

عثرت فى أوراقى على مخطط حفل الغداء الذى رتبته بعد الاجتماع الأول كما أعددته لأرسله إلى أمى مبينًا به أسماء أعضاء اللجنة وأعيان القدس وممثلى طوائفها الدينية حسب موقع الجلوس إلى المائدة .

وبعد أن شربنا نخب « الملك » قلت لهم إننى أنتهز فرصة وجود ممثلى الطوائف بالقدس فى هذا الاجتماع لأوضح بعض سوء الفهم الذى ترتب على زيارة « اللجنة الصهيونية » للقدس . عندئذ قدم الدكتور حاييم وايزمان عرضاً مستفيضاً لمعتقدات الصهيونية ، فقال إن اليهود لم يتنازلوا أبدا عن حقوقهم فى فلسطين ، وإنهم إخوانهم فى السامية ، وإن البعض « سيأتون » أو « يعودون » إلى البلاد ، وإن هناك متسعًا للطرفين للعمل معًا جنبًا إلى جنب . جاعلاً مستمعيه يحذرون التلميحات الشريرة التى تشير إلى أن الصهيونية تسعى للسلطة السياسية ، ولكن لتكن الفرصة متاحة للطرفين لتحقيق التقدم المشترك ، حتى يبلغا مرحلة الاستعداد للحكم الذاتى المشترك أيضاً . وختم كلمته بالقول : « إن يد الرب ثقيلة الآن على شعوب أوروبا ، دعونا نصلى معًا من أجل تخفيف وقعها عليهم » . ورد المفتى على ترجمتى العربية لهذه الكلمة ، شاكراً الدكتور وايزمان لتوضيح الأمور التى ما كانت لتتضح لولا ما قدمه من عرض ، وتضرع إلى الله داعيًا لوحدة الهدف التى تستطيع وحدها أن تحقق الرخاء لفلسطين ، وأشار إلى الحديث الشريف « لكم ما لنا وعليكم ما علينا » .

وقد أحسست أننى وكلايتون سوف نندم على ذلك الوصول السريع للجنة الصهيونية ، ولا يعود ذلك – بكل تأكيد – إلى موقف مضاد للصهيونية ، أو من منطلق المعاداة للسامية ، فقد اعتقدنا (ومازلت أعتقد) أنه لا توجد تطلعات فى العالم أنبل من تطلع اليهود للعودة إلى الأرض التى لم تختف منها روح إسرائيل . فلا توجد أمة لم تلحق الأذى باليهود ، ولم تستفد من عبقريتهم . ومن غير إنجلترا تستطيع أن تساعدهم على ذلك ؟ فالعودة لم تكن تستند إلى تقليد موروث بل كانت تستند إلى ما هو أكثر من ذلك ، إلى مثل أعلى أو أمل . إنه أمل إسرائيل الذى لم يفارق اليهود حتى فى أحلك لحظات حياتهم . وعند انتصار السلام يجب أن يتم تصحيح جميع أخطاء العالم ، ولماذا لا يصحح أيضا خطأ العالم القديم ؟

لقدبرزت الصهيونية فى مرحلة الشتات ، وعلى مر العصور استغرقت فى النوم ، ولكنها لم تمت . فسوف يعود الباقون ، يعودون فرحين «إلى أورشليم فى العام القادم»، وفى روسيا حيث طالت معاناة اليهود وزاد إحساسهم بالمرارة ، ظهرت فى القرن الماضى جماعة « أحباء صهيون » ، الذين يهيمون حبًا بصهيون ويتمنون رؤيته قبل موتهم ، وكان دزرائيلى الاستعمارى الأول يصنع الإمبراطورية البريطانية ، ويحفظ فى صدره أهازيج الحنين إلى صهيون [٥] . وقبل أن ينقضى القرن الذى عاش فيه ظهر عملاق فى إسرائيل بهى الطلعة ، فقد أقنعت فضيحة دريفوس تيودور هرتزل أنه لا استقرار لروح اليهودى إلا فى أرض إسرائيل . وأثارت مشاعر يهود العالم المفاهيم التى أرستها الحركة القومية اليونانية الحديثة من حيث التمسك بأرض الأجداد ، وأصبح باستطاعة هذا اليهودى النمساوى (هرتزل) أن يقف أمام السلطان العثمانى عارضًا شراء أرض فلسطين ليسكنها اليهود ، ولكن السلطان الذى كان يحمل لقب خليفة المسلمين ، قابل عرضه بالرفض ، وكاد الأمل فى إحياء إسرائيل يموت .

كانت هناك مشروعات - بالفعل - لاستعمار أمريكا الجنوبية ، عندما فكر جوزيف تشمبرلين - وزير خارجية أكبر إمبراطورية استعمارية - فى منح اليهود أراضى صحية خصبة جميلة فى شرق أفريقيا ، وكاد العرض ينال القبول عند الكثيرين ومن بينهم هرتزل نفسه ، فيما عدا مجموعة صغيرة يرأسها روسى كان له وجه وعزيمة لينين ، جرت الصهيونية فى بدنه مجرى الدم فى العروق ، هو حاييم وايزمان . وأذكر أنه سألنى ذات مرة عما إذا كانت مجموعة من الإنجليز قد ذاقت مرارة النفى عدة سنوات ، تقبل « العودة » إلى كاليه ؟ ففهمت أنه يقصد بذلك فكرة إقامة « صهيون» فى أوغندا . وعمل وايزمان مدرسًا للكيمياء فى جامعة مانشستر ، ثم مستشارًا لآرثر جيمس بالفور . وفى أثناء الحرب أصبحت الحاجة ماسة إلى مواد متفجرة ، واتضح أن الأسيتون المكون اللازم لصناعة مادة T.N.T لا يتوافر خارج ألمانيا ، وأدى نقصانه إلى إحساس البحرية البريطانية باليأس . ولكن

(٥) ليس هناك ما يمنع من الاعتقاد بأن ضمه لقبرص كان عنده الخطوة الأولى فى طريق ضم فلسطين وسوريا للإمبراطورية .

الكيميائى اليهودى استطاع حل المشكلة وتم توفير الأسيتون ، وسجل وايزمان اختراعه ، ولكنه لم يطالب بأى حقوق مقابل ذلك ، تاركًا تقدير ذلك للحكومة البريطانية ، وجاءت المكافأة فى الحصول على تأييد آرثر بالفور وهربرت صامويل ومارك سايكس للصهيونية ، وتقديم مطالبها إلى المجلس الأعلى للدول والحلفاء .

وفى الثانى من نوفمبر ١٩١٧ ، قبل سقوط القدس المتوقع بأسبوع واحد ، أعلن على العالم تصريح بالفور الأحادى والمصيرى ، رغم معارضة بعض اليهود الإنجليز وبعض كبار المسئولين فى الخارجية ووزارة الهند ، فأبلغ اللورد روتشيلد أن « حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وستبذل كل جهودها لتحقيق هذا الغرض ، ومن المفهوم أن ذلك سيتم دون المساس بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية فى فلسطين ، أو الحقوق والأوضاع السياسية التى لليهود بالبلاد الأخرى » . وكان اعتماد مجلس الوزراء البريطانى لما جاء بالتصريح لا قيمة له دون الحصول على تأييد الحلفاء . ووفق وايزمان فى حث زميله الدكتور ناحوم سوكولوف على الحصول على موافقة الحكومتين الفرنسية والإيطالية ، وكذلك موافقة الفاتيكان فى خطابات وجهتها هذه الحكومات إليه شخصيا ، ومن ثم أكدت موافقتها فى مؤتمر الصلح فى فرساى . وكان سوكولوف - باعتباره رئيس الوفد الصهيونى بالمؤتمر - هو الذى ضغط من أجل انتداب بريطانيا على فلسطين .

وحظى تصريح بالفور بتغطية صحفية جيدة ، إلى جانب تأييد الآلاف من رجال الدين الإنجيليين والبروتستانت ، وغيرهم من المتدينين فى نصف الكرة الغربى ، ولم تتقاعس عن تأييد تلك الوثيقة سوى دول الوسط وكنيسة روما ، مما كان يعنى تحفظهم عليه ، بينما انهالت على المنظمة الصهيونية برقيات التأييد من مختلف الهيئات والشخصيات السياسية البريطانية .

وكان وراء تبنى مثل هذه الفكرة الجديدة من جانب مجلس وزراء مسطح التفكير ، بناء على اقتراح يهودى روسى ، اعتبارات أخرى غير مجرد الرغبة فى تحقيق نبوءة العهد القديم .

فقد كان احتضان أمل إسرائيل يخدم مصالحنا من عدة نواح ؛ فهو يؤكد النجاح فى إبرام قرض الحلفاء فى أمريكا ، ونقل رسالة إلى ثوار روسيا الذين تحركهم عقول يهودية مفادها انحياز بريطانيا لليهود ، ولجذب ولاء اليهود - الذين يعمل الآلاف منهم وراء خطوط العدو - لقضية الحلفاء . ويمكن أن نسجل بارتياح أنه حتى لو كان تصريح بالفور بما ترتب عليه من نتائج بريئًا من تلك المنافع ، فقد سار القرض الأمريكى أكثر مما كان متوقعًا ، ولم يبد السوفيت حماسًا لموقف بريطانيا (وما لبثت روسيا أن أدانت الصهيونية باعتبارها أداة للرأسمالية) ، كما أن ولاء يهود ألمانيا لم يتغير .

ورغم عدم تعاطف اليهود غير الصهاينة ، واليهود المعادين للصهيونية ، أصبحت إقامة الوطن القومى على مرمى البصر بالنسبة ليهود العالم ، ولا يمكن أن تزحف أقلية عريقة فى القدم لا يتجاوز عددها فى العالم كله ١٦ مليونا ، دفعة واحدة على فلسطين لمجرد عدم الرغبة فى الموت فى أرض غريبة .

ولكن اليهود لم يعودوا شعبًا بلا وطن يعيش فى الشتات ، لقد اعترفت الحضارة بالخطأ الكبير الذى وقع ، وحققت كلمة الخلاص ، وأصبح على اليهود أن يؤكدوا ذاتهم من خلال أعمال تجعلهم أهلاً للثقة ، وأن يمارسوا « حقهم التاريخى » عمليا وماديا ، فالأرض التى أفلحها آباؤهم أهملت لعصور طويلة خلت ، والآن بفضل المعرفة التى تتوافر للعقول اليهودية ورءوس الأموال اليهودية والمنظمين اليهود ، ستتحول الأراضى الجرداء إلى مزارع يانعة ، حتى لو لم يكن باستطاعتها استيعاب ١٦ مليونًا ولا حتى ثمانية ملايين ، يمكن أن « يعود » العدد الكافى لإقامة الدولة اليهودية (التى يطالب المتطرفون بإقامتها) ، ولكن - على الأقل - لإقامة البرهان على أن المشروع استحق ما بذل فيه من عناء لإقامة « جزيرة يهودية موالية لبريطانيا » وسط بحر من العروبة التى تشكل عدوًا محتملاً لبريطانيا .

كان المحور الأساسى للفكرة الصهيونية إقامة أمة عبرية ، تتحدث العبرية على أرض العبرانيين القديمة ، كهدف أساسى عاجل للجنة الصهيونية ، ولكنه هدف غير

معلن . وإن تخلّق أمراً واقعاً يتخذ صورة إيجاد البيئة الملائمة للمشروع (وحشد الدعم المالى لذلك من المتبرعين) أمام مؤتمر الصلح . وفى أوائل ١٩١٨ ، وضعت أحجار الأساس الاثنا عشر - بواقع حجر لكل قبيلة - للجامعة العبرية رسميا بحضور أعيان المدينة وعلى رأسهم القائدالعام للقوات البريطانية ، ثم قامت اللجنة بعد ذلك بتنظيم الطائفة اليهودية بقدر من النجاح أثار إعجابنا وتحمسنا . ففرض على اليهود الاقتصار على استخدام العبرية بقدر من التشدد أثار ضيق الآخرين أحيانًا ، كما اتخذ طابعًا هزلًا أحيانًا أخرى ، ولكن كان له - فى رأيى - ما يبرره من حيث الفكرة والنتائج . وفُرضت غرامات مثلاً على رب أسرة يهودى ضبط يتحدث بالعربية مع جار مسلم ، وأُلزم الجميع بعدم سداد الإيصالات التى لا تكتب بالعبرية إلى جانب العربية .

ولكن الصهيونية كانت تطبق فى مثل تلك الأمور المثل التركى القائل : « لا تقدم اللبن للطفل الذى لايبكى » ، وبذلك سارعت من عملية الإدارة العسكرية ، كما إن المهاجر اليهودى من وسط أوروبا أو أمريكا كان يعانى من زجره دائمًا عندما يتحدث بغير العبرية . وقد عانيت الحيرة فى أثناء تفتيشى على عيادة أسنان صهيونية ، فقد سألت رجلاً تأكدت من ملامحه أننى أعرفه من قبل عما أصابه ، ولدهشتى أجابنى بالعبرية إنه لا يفهم ما أقول - واستدعيت سكرتير العيادة من غرفته ، فإذا بالرجل يهمس لى قائلا بالإنجليزية : « أعانى ألمًا فى أسنانى ، ولكنى إذا تحدثت بغير العبرية لن ألقى العلاج المناسب » . وزادت المسألة حدة عندما رفض الحاخامات المتشددون الحديث بغير اليديش ، وأن تبقى العبرية لغة العبادة . وبالنسبة لغير اليهود ولزوار المدينة كانت جهود إحياء العبرية تسبب لهم المتاعب ، وتجعلهم يتساءلون : « إلى أى مدى ستذهب العبرية باليهود ؟ إنها لن تأخذهم حتى إلى بيروت » ، ولكنهم يقبلون بها مادامت ستؤدى إلى اختفاء استخدام الألمانية كلغة للحديث [٦] ، وتلاشى الثقافة الألمانية أيضًا ، ولكن ما هى اللغة الأخرى التى يستطيع الإحياء القومى اليهودى أن يقبل بها ؟

(٦) كان الصراع بين الألمانية والعبرية يعود إلى ما قبل الحرب ، وخسرته « الجمعية الألمانية لمساعدة يهود الأمة » التى كانت تدعو إلى استخدام الألمانية لغة للتدريس فى المدارس .

وإضافة إلى ذلك ، وضـع الدكتور حاييم وايزمان مشـروعًا قد يؤدى نجاحه إلى تزيين قرون الصهيونية بالسرور والشرف أمام العالم كله ، وأعنى بذلك قضية حائط المبكى .

* * *

ويشكل حائط المبكى من حيث الموقع ، الحائط الغربى للحرم الشريف ، ومن الناحية المعمارية والأثرية ، يعد هذا الحائط - منطقيا - الحائط الغربى لمنطقة المعبد الذى وضع هيرود أساسه من تسع طبقات من الكتل الحجرية الضخمة ، وربما وضع بعضها زروبابل وسليمان . ووضع الرومان أو البيزنطيون الطبقات الأربع العليا من البناء ، وأكملها الترك إلى إحدى عشرة طبقة تعود إلى القرن التاسع عشر . ومن الناحية القانونية ، يعد الحائط جزءًا من مسطح الحرم ، وبذلك يكون حق ملكيته المطلق للمسلمين ، ولكنه من الناحية التاريخية يعد أشهر حائط فى العالم ، ويمثل من الناحية الروحية قلب إسرائيل .

وعند الزاوية الغربية للحائط هناك شريط من أرض مرصوفة بعمق ست ياردات ، إضافة إلى بعض الحجرات ذات الحجارة الرمادية والممرات فى مسافة أقل من المربع المذكور فى طول الحائط ، يمثل الجزء المقدس من وقف أبو مدين ، وهو رجل صالح عاش فى أيام السلطان نور الدين - سيد صلاح الدين الأيوبى - لإقامة حجاج المغاربة الذين أصبحوا الآن يشغلونها بصفة دائمة (٧) .

وكان حائط المبكى هو كل ما تبقى لليهود من ماضيهم الغابر ، وعادة الصلاة هناك تعود إلى العصور الوسطى ، خاصة ليلة السبت ، وليلة الاحتفال بعيدالفصح اليهودى ، ورأس السنة اليهودية ، وعيدالغفران ، والتاسع من آب (وهو التاريخ التقليدى لتدمير المعبدين الأول والثالث) .

(٧) يحتفظ شيخ المغاربة بالوثائق التى تثبت ملكية المغاربة لهذه الحجرات ، بحكم كونه ناظر الوقف ، ويقع ضريح أبو مدين بالقرب منها ، وتلك الوثائق مسجلة بسجلات المحكمة الشرعية للمسلمين .

ومع استمرارية التمسك بالتقاليد وحرص اليهود على الصلاة أمام الحائط يمكن القول إنه قد أصبح لهم حق معترف به لارتياد المكان طوال العام ليلاً أو نهاراً بغرض التعبد ، وأكد المسلمون هذا الحق أحياناً بالسماح لهم ببناء حائط يمنع المارة من مضايقتهم فى أثناء الصلاة ، وحافظت حكومة الانتداب على الوضع الراهن . ومن ناحية أخرى ، كان حق اليهود مقصوراً على المرور والوقوف للصلاة ، ولكن لا يعنى حق الملكية صراحة أو ضمناً لمسطح الحائط أو للرصيف القائم أمامه .

وصمم الدكتور وايزمان على امتلاك تلك البقعة الثمينة عند اليهود ، لا بطريق الشراء من الأوقاف (لأن أملاك الوقف غير قابلة للبيع) ولكن من خلال التصرف القانونى الذى يجيز استبدال الوقف بعقار فى مكان آخر . فقام بعرض ٧٥ ألفًا من الجنيهات الإسترلينية مقابل تدبير أماكن لسكنى المغاربة فى موقع آخر ، وكان مستعداً لزيادة القيمة عندالضرورة . وقد طلب منى فحص هذا الطلب وإعداد تقرير عنه .

لم أكن أؤمن بحرمة وقف أبومدين ، أو حرمة غيره من الأوقاف ، وكنت على استعداد أن أمنع بحزم شديد إقامة أى مبان هناك فى المستقبل ، وبدا من غير المنطقى أن يقدم اليهود على المساس بمسطح مكانهم المقدس ، كما إن رصيد المال الذى يعرضه اليهود قد ينفق لخدمة احتياجات التعليم عند المسلمين ، ولذلك أيدت المشروع عند كلايتون والجنرال مونى ، وكان حداد بك يرى أن فرصة القبول بالعرض تعد - على أية حال - محدودة ، وأن احتمال رفضه قائم إذا جاء مباشرة من الصهيونيين ، ولذلك قررت أن أتولى بنفسى التفاوض حول الموضوع . فتلقيت - نتيجة لذلك - عريضة احتجاج من مجلس يمثل أعيان العرب ، وقبيل نهاية سبتمبر ازدادت حساسية الوضع تدريجيا بسبب مفاوضات موازية قام بها اليهود دون علمى (أو علم الدكتور وايزمان) ، حتى إننى أعلنت - بناء على نصيحة حداد - أن المشروع قد صرف النظر عنه .

ولا شك أن حداداً كان على حق فيما ذهب إليه ، وحتى لو كان المفتى راغبًا فى الموافقة ، فإنه مضطر إلى أن يضع فى حسابه ما يسببه ذلك من حساسية عند عامة المسلمين (بغض النظر عن تصاعد مخاوفهم من الصهيونيين) الذين كانت تحركهم

أى شائعة بسيطة حتى لو كانت تتصل بالأرض التى تقع خارج حوائط الحرم الشريف [٨] . ولو كان القبول بالعرض المقدم من اليهود عمليا ، لأدى إلى سنوات من الامتهان الشديد ، بما فى ذلك تدنيس الحائط والرصيف المجاور له ، وتعرض اليهود لمضايقات العصابات العربية فى أثناء أدائهم الصلوات ، وهو ما بلغ ذروته فى اعتداءات عام ١٩٢٩ البشعة .

وإذا قلنا فجأة لأناس عانوا الاضطهاد ، وظلوا ينتظرون لما يقرب من الألفى عام ، إن باستطاعتهم « العودة إلى الوطن » فسوف يتدفقون وفى أذهانهم توقعات بتلبية كل ما يحتاجون إليه على الفور ، وكان ذلك مثار سخرية اليهود أنفسهم ؛ لأن الحكومة كانت عاجزة عن أن تمنحهم حق الوصول إلى حائط المبكى ، كما كانت عاجزة عن تقديم التسهيلات التى تكفى لإغراء يهود العالم بالقدوم إلى فلسطين .

وعرض الدكتور وايزمان جلب بضع مئات من المحاريث الميكانيكية حتى يستطيع - بحلول خريف ١٩١٨ - أن يوفر القمح والشعير لتغطية حاجة القوات البريطانية ، ولكن العرض لم يلق القبول .

ولما كان العلم الوطنى من أهم رموز القومية ، فقد رفعت الآلاف من الأعلام البيضاء والزرقاء ، فوق المنازل وفى مواكب النصر ، ولكنها ما لبثت أن منعت بسبب ما أثاره استخدامها من احتجاجات . وعندما كان يعزف النشيد الوطنى الصهيونى أمام جمهور مختلط ، كان يواجه بصيحات السخرية والاحتجاج مما يؤدى أحيانًا إلى وقوع حوادث شغب . كان هناك إحساس بالتوتر فى كل مكان ، فقد تبدد الأمل ، ولم تحترم الوعود .

وإذا كانت الفكرة لا تزال سلبية ، فإننا سوف نظل نحملها بحرص شديد ، ولكن خلال العقد الأول خضب دم اليهود أرضهم أربع مرات ، دون أن يضعهم الحكام فى

(٨) تسببت الحفائر الأثرية التى قام بها باركر عام ١٩١٠ - ١٩١١ داخل هذا الموقع فى انفجار الاحتجاجات فى الدولة العثمانية كلها .

حسابهم ، فأضافت إلى الأحزان على الموتى غضبًا عارمًا ، فإذا عجز حماتهم باسم القانون ، عن توفير الحماية لهم ضد ما يتعرضون له من هجمات دموية عنيفة ، فمن يلومهم إذا جمعوا السلاح سرا للدفاع عن أنفسهم ؟

وما لبثت المغامرة الصهيونية الكبرى أن جلبت على نفسها هجومًا وانتقاداً عنيفًا ، لم يكن مصدره - بالضرورة - أولئك الذين أقلقتهم تلك المغامرة ، ففى الوقت الذى كان فيه يهود العالم يصبون المال صبا فى فلسطين دون انتظار لعائد مادى ، أو امتلاكهم للبلاد ، كان عقلاؤهم يعرفون أن المال يجب أن يتوافر هناك وإلا عجز اليهود عن الذهاب إلى فلسطين . وكانت فكرة الجيش عند الصهيونى هى « الشخص الذى يبدى استعداده لدفع المال ليهودى آخر ، ليذهب إلى فلسطين » ، كانت تلك الفكرة مبنية على افتراض أن الحركة ممولة من جانب أصحاب الملايين من اليهود ، بينما كانت الحركة - فى حقيقة الأمر - تعتمد على تبرعات فقراء اليهود الذين لا حصر لهم ، ومن كان يفكر فى أولئك المستوطنين اليهود الذين يقومون فعلاً بالعمل فى فلاحة الأرض ؟ وكأن القوم الذين حرموا من الأرض لألفى عام يمكن أن يبرهنوا على حبهم للأرض ، دون أن تتاح لهم الفرصة لذلك ، وكأن وفاة آلاف الرواد من الملاريا فى المستنقعات لا تعنى شيئًا أكثر من أن شباب الخريجين الأوروبيين كانوا يحرثون سهل شارون أو يكسرون الأحجار على طرق الجليل [٩] . لقد ذهبت مع السير هربرت

(٩) إن فكرتنا عن اليهود الآن تماثل فكرتنا عنهم فى العصور الوسطى قبل عصر التحرر ، أناس لا يشتغلون بغير المال والربا ، لديهم استعداد ضئيل للعمل بالزراعة وحمل السلاح . إن إغلاق السبل أمامهم فى أوروبا دفعهم للاشتغال بالأعمال المالية ، وبذلك تدعمت لديهم تلك القدرات الخاصة التى جعلت الناس يظنونها لصيقة باليهود . ولكن فى العصور القديمة لم يشتهر اليهود بالأعمال المالية والربا . ولو رجعنا إلى الكتابات المعادية للسامية فى اليونانية واللاتينية لما وجدنا إشارة إلى مهاجمتهم باعتبارهم مرابين .

ولعل حياة البداوة القديمة التى عاشوها جعلتهم قومًا يميلون إلى الترحال ، من ذلك هجرتهم الكبيرة إلى شرق أوروبا فى منتصف القرن السادس عشر ، وهجرتهم إلى أمريكا فى القرن التاسع عشر . ولعل غريزة الترحال تلك جعلت اليهود لا يرتبطون بأرض معينة ، ومن ثم عجزوا عن إقامة دولة لهم ، على حد تعبير نيوملن فى كتابه « الروح الجوالة » .

صامويل عند مباركته الأولى للحصاد الجديد فى مستعمرة « ريشون صهيون » (الأول فى صهيون) ورأيت الزهو فى عيون المزارعين والدموع الوقورة تترقرق فى مآقى المسنين عندما قرأ المندوب السامى مقتطفًا من الشريعة اليهودية بالعبرية ، فمن يجرؤ على الشك فى قدراتهم البدنية وعبادتهم للأرض ؟

ولم يحظ التجنيد للفيالق العسكرية اليهودية إلا باستجابة محدودة من قبل الشباب اليهود فى منطقة إيست إند بلندن ، بينما كان الإقبال كبيرًا من جانب شباب المستوطنات اليهودية فى فلسطين ، وأكدت الكفاءة القتالية للفيالق اليهودية شعار « لا تقدم إلا بالأمن » . وقد أبلى الجنود اليهود فى القوات البريطانية بلاءً حسنًا عند الاستيلاء على القدس ، كذلك يجب ألا يشغلنا الاهتمام بالمعارضة العربية العنيفة أو بما بدر عن بعض الأفراد الصهاينة من سلوك ، عن الإقرار بما قدمته المنظمة الصهيونية العالمية من فكر وجهد ومال من أجل الأرض التى تهفو إليها قلوبهم .

وأخيرًا ، هل جاء الوقت الذى لا تبدى فيه الدول المنتدبة استعدادها لمد يد العون وتوفير الملجأ لضحايا الاضطهاد فى وسط أوروبا الذى أثار فزع واستنكار العالم المتحضر ؟

ولكن عندما ازداد الشعب المختار قوة ،

أصبحت قضيته بعد طول انتظار باطلة ،

وكلما تحمل أولئك القوم الخسارة ،

كلما ازدادوا تفكيرا فى أعداء الرب .

وهكذا ، مع ضعفهم وما هم عليه من الرضا ،

يجب أن يسلموا أمرهم لحكم داود .

(مقطع من قصيدة لجون درايدن)

كانت النظرية الصهيونية أسيرة الجهل بطبيعة وأحوال فلسطين ، التى تم تصورها على أنها تضم مجموعة من التلال البعيدة عن بعضها البعض ، كانت خضراء حتى قام تيتوس بتحطيم المعبد عام ٧٠م ، فتحولت بعد ذلك إلى صحراء قاحلة مهجورة ، رغم أنها لا تـزال خصـبة ، وافترضت أن سكان فلسطين الحاليين محدودو العدد و « متخلفون » ، لا أهمية لهم ، ولأنهم إخوان فى السامية ، سوف يرحبون باليهود الفقراء ، وكذلك الرأسماليون الذين ستنمو مصالحهم مع تدفق المتحمسين البسطاء من « بنى جلدتهم » ، وأن على سكان فلسطين أن يدركوا أن اليهود « يعودون » بإرادة « عصبة الأمم » . ولذلك كان لمعارضة الفلسطينيين للصهيونية وقع المفاجأة ، واعتبرت - أحيانًا - بمثابة اعتداء على العالم كله ، وأن ثمة عملاً كريمًا نبيلاً يتعرض للمقاومة والإحباط من جانب ردود أفعال أنانية متعصبة .

ولم تكن كل تلك المعارضة لا مبرر لها أو رجعية ، فقد عانى العرب من المسلمين والمسيحيين على السواء فى الشام وفلسطين (وهما بلد واحد قسم إلى ولايتين) (١٠) من عسف الحكم العثمانى لمدة أربعة قرون . وبعد ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ بدت قبضة الحكم العثمانى شبه مسترخية ، ولكن ما لبث العرب أن تبينوا أنه رغم اختلاف أشكال الحكم ، بقيت الحقائق ثابتة ، فقد حرموا من استخدام اللغة العربية الشريفة ، وتطلعت آمال جيل ما قبل الحرب إلى تحقيق الاستقلال . تطلعوا حولهم ، فوجدوا عبر بادية الشام التى تنحدر جنوبًا بغرب حيث تقع على بعد نحو المائة ميل عبر سيناء بلادًا قديمة أخرى استعادت رخاءها ، ونعمت بالحضارة الأوروبية بفضل بريطانيا العظمى وعبقرية الإنجليز .

ونظر السوريون إلى النير البريطانى على رقبة مصر باعتباره هينًا لا يعوق الحركة ، فهناك حاكم وطنى يجلس فى سدة الحكم ، يساعده مجلس من الوزراء المصريين ، فى مواجهة مجالس نيابية . ولم تبذل أى محاولة لفرض الإنجليزية كلغة

(١٠) نتيجة لوضع القدس الخاص كان « المتصرف » يتبع إستانبول مباشرة ولا يخضع لوالى الشام رغم أن الشام وفلسطين خضعتا لقيادة عسكرية واحدة .

رسمية بدلاً من العربية ، أو لفرض الثقافة الإنجليزية بدلاً من العربية ، أو توجيه اللوائح الجمركية لخدمة المصالح التجارية البريطانية [١١] .

وكان سكان الشام يأملون فى أن تقوم بريطانيا - بعد الحرب - بطرد الأتراك ، وأن تفعل فى الشام ما فعلته فى مصر . وكان الساسة الشوام المقيمون فى مصر ، يطلعون ممثل بريطانيا فى القاهرة على أحوال الشام وتطلعات أهله ، ولكن مراعاة لموقف فرنسا من الشام لم يتم استقبال أولئك الساسة بصفة رسمية أو غير رسمية . ولكن ذلك لم يمنع بعضهم من دخول حديقة قصر الدوبارة ، والجلوس على أحد المقاعد بعض الوقت ، ثم يخرج لرفاقه ، أو حتى للقنصل الفرنسى ، زاعماً أنه حظى بمقابلة مفيدة ومشجعة مع المعتمد البريطانى .

وعندما وقعت الحرب ، تلقى عرب الحجاز - فى وقت مبكر ودون طلب - المساعدات والسلاح ، وحصلوا على استقلال غير مقيد بشروط . ورغم أن الجيوش البريطانية التى عبرت سيناء ودخلت فلسطين لم تلق أى تعاون عسكرى فعال من جانب العرب (فقد كان لورانس يرى أن العرب ليسوا من فلسطين ، كما أن الأتراك شتتوا قواتهم العربية على مختلف الجبهات) ، وإن كانت المقاومة السلبية للترك من جانب السكان العرب لا تفيد كثيراً القوات البريطانية الزاحفة على فلسطين ، غير أن بعض الشوام دفعوا حياتهم ثمناً لتأييدهم للحلفاء عندما تم إعدام فريق منهم فى بيروت ، كما أعدم مفتى غزة وكذلك ولده ، وعلقت جثتاهما على باب يافا بالقدس .

وعندما قام البريطانيون بتحرير البلاد ، شعر العرب أن آمالهم قد أحبطت على عكس ما كانوا يتوقعون ، فعلى مر عصور التاريخ ، كان الغزاة يحتفظون بالأراضى التى يستولون عليها (إلا فى بعض الحالات النادرة التى أعيدت فيها الأرض إلى

(١١) كانت السلطات البريطانية تتوخى العدل فى إرساء العطاءات على صاحب أنسب العروض حتى لو كانت العروض المنافسة مقدمة من شركة إنجليزية ، ولم تحاول التدخل لإرساء عطاءات الحكومة المصرية على شركات بعينها ، وكان تدخلها فقط لتقديم المشورة الفنية عند طلبها ، وكان موقف السلطات البريطانية موضع تقدير الحكومة المصرية والمصالح المالية الأجنبية التى ربما تصرفت بلادها بصورة أخرى لو كان لها موقع بريطانيا فى مصر .

أصحابها) . وكان استيلاء بريطانيا على فلسطين ، واحتفاظها بها ، مفهوماً وموضع ترحيب ، ولكنها قررت أن تسلم البلاد لطرف ثالث دون استشارة سكانها ، وأى طرف ثالث ؟ إنه اليهودى أدنى الناس منزلة (فى أعين العرب) وآخر من يمكن التعامل معه من البشر ، لما عرف عنهم من براعة فى التطفل على الغير ، فإذا بهم ينعمون بالتأييد التام من جانب بريطانيا العظمى .

وإذا كان اليهود « عائدين ، وليسوا قادمين » إلى فلسطين – وقد بدا الفرق لفظيا – تنفيذاً لنبوءة كتاب كتب قبل ألفى عام ، وإذا لم يكن ثمة ضوابط قانونية ، وأصبح بالإمكان استرجاع صفحات التاريخ بلا توقف ؛ إذ « يعود » العرب إلى إسبانيا التى بقيت فى يدهم وقتًا طويلاً من الزمن ، وكان وجودهم هناك لا يقل فاعلية وتأثيراً عن الوجوداليهودى فى فلسطين ، ولأن « الكتاب » هو المحك ، فإن إسبانيا العربية لا تعنى شيئًا للعالم فيما عدا موقعين أو ثلاثة مواقع ، بينما فلسطين العبرانية تعنى تراث إسرائيل ، لا يمكن بسهولة توقع أن تقدم تبريراً للمسلمين والمسيحيين العرب من سكان فلسطين لإخضاعهم نهائيًا (لليهود) أو استئصالهم من البلاد (١٢) .

وقد أدى إرجاع عقارب الساعة السياسية إلى الوراء ، إلى إحياء التعصب فى الأذهان ، بعد أن كان قد مات تماماً ، أو كاد . ففى احتفالات سبت النور ، يغنى الشباب العرب :

سبت النور عيدنا

وزرنا قبر سيدنا

(١٢) لا يمكن إنكار أن العرب لم يحققوا « إنجازاً » فى فلسطين ، ترى ماذا يفعل العرب عندما ينازعهم اليهود حقهم فى ملكية الأرض ؟ إذ يذهب اليهود إلى أن العرب ليست لهم ادعاءات تاريخية تؤكد ملكيتهم لأرض فلسطين سوى أنهم عاشوا فى فلسطين لقرون خلت ، وهى مجرد ١٢ قرنًا من الاحتلال . وقد ذهب البعض إلى أن من حق الشعب الذى يجد نفسه مسيطراً على الأرض دون منازع ، له الحق الثابت فيها ، بغض النظر عن عجزه عن تحقيق « إنجاز » حضارى أو تعطيله للغير الذين يثيرون قضية إنسانية حضارية .

سيدنا عيسى المسيح

والمسيح أتانا

بدمه اشترانا

نحيا اليوم فرحًا

واليهود حزانى .

ورغم أن المسلمين فى كل مكان أكثر تسامحًا مع اليهود ، لا باعتبارهم « أهل كتاب » فحسب ، بل ولأنهم « موحدون » ، وهم أيضًا يؤمنون بعيسى « روح الله » . وقد يصيح العرب مسلمين ومسيحيين قائلين : ماذا ، أتسلمون بلادنا لأولئك « اللى صلبوا سيدنا عيسى » ؟!

كانت خيبة أمل العرب فيما يتصل بمسألة « الوطن القومى » أعمق مما يمكن عمله لتخفيف وقع الإعلان عنها . فتصريح بالفور - إضافة إلى الرسالة اليهودية التى يحملها - طمأن اليهود غير الفلسطينيين على هويتهم الوطنية ، ولم يضع فى اعتباره مشاعر ورغبات سكان فلسطين الفعليين . فقد لاحظ العرب أن نص التصريح يقدم الجانب الإيجابى « للشعب اليهودى » ، بينما لم يعن حتى بتسمية « غير اليهود من سكان فلسطين » ، باعتبارهم عربا مسلمين ومسيحيين ، بل جمعوا معًا فى تلك العبارة التى تحمل معنى سلبيا ومهينًا باعتبارهم « الطوائف غير اليهودية » التى نزلت بهم إلى منزلة التابعين المهمشين [(١٣)] ، وأحسوا أنهم قد أسقطوا عمدًا من الحسبان ، وعلى حين نص على حماية حقوقهم المدنية والدينية ، لم يرد ذكر لحقوقهم السياسية ، وفى واقع الأمر لم يكن لهم أى منها .

(١٣) جاء فى كتاب « عرض شئون الكومنولث » (١٩١٨ - ١٩٣٦) : « ما هى الطوائف الموجودة فى فلسطين ؟ قد نجيب من يتابع الصحف قائلاً إنهم العرب واليهود ، ولكن قرار الانتداب لم يورد ذكر طائفة عربية » . ويذكرنى ذلك بما درجت عليه وزارة المالية فى مصر عند ذكر مصالح الأشغال العمومية التى تختص بالمبانى والطرق وغيرها ، باعتبارها « خدمات غير الرى » .

هذه الشكوك والمخاوف أثيرت لأول مرة عند وصول « اللجنة الصهيونية » ، فقوبل شرح مهمتها وتبرير وجودها بالمزيد من التوجس والريبة . فقد رأى العرب فى هذه اللجنة نؤابة السيف وبداية تكوين حكومة داخل الحكومة .

ولم ينفردوا وحدهم بهذا التفسير ، فحتى أستطيع متابعة الشئون اليهودية عن قرب ، عينت أحد الشباب اليهود الأكفاء سكرتيراً لى ، وكان فى الوقت نفسه سكرتيراً للدكتور وايزمان ، وفى أثناء غيابى فى حيفا علمت من القائم بأعمال الحاكم أن ذلك الشاب تلقى تعليمات لتقديم تقرير عن عمله بمكتب الحاكم إلى « اللجنة الصهيونية » ، ولكن القائم بالأعمال طلب منه أن يقدم التقرير له ، فلاحظ أنه يتضمن اقتراحاً بإنشاء « مكتب يهودى » . هنا يتضح أن المسألة لا تتعلق بوجود أيد خفية مثل بروتوكولات حكماء صهيون السرية أو غيرها من الأعمال الإجرامية التى أبدعها خيال العداء للسامية ، ولكن ثمة سوء تفسير لدرجة التفويض التى يجب تحديدها بين إدارة رسمية ولجنة تحظى باعتراف رسمى .

ويبدو أن شكوك العرب قد تحولت إلى تأكيدات تم التثبت منها علنًا عام ١٩٢١ ، عندما قام الوفد الإسلامى - المسيحى بزيارة لندن للوقوف على أهداف سياسة حكومة صاحب الجلالة فى فلسطين ، وتلقى - أكثر من مرة - النصيحة من وزارة المستعمرات بالاتصال باللجنة الصهيونية للوقوف على أبعاد تلك السياسة .

كذلك كان مرتب الشرطى أو الكاتب الذى يكفى لتغطية حاجات المعيشة بالمستوى العربى ، غير كافٍ للشرطى أو الكاتب اليهودى الأوروبى ، فكان هؤلاء يحصلون على دعم إضافى من « اللجنة الصهيونية » ، وكذلك الحال بالنسبة لرجال السكك الحديدية والهاتف حتى فى عام ١٩٢١ كانت اللجنة تقدم دعما لليهود منهم . ولوحق العمدة بطلبات تعيين عمال يهود لإنشاء الطرق وإصلاحها . ولم تكن « اللجنة الصهيونية » تقدم دعمًا لعمال الطرق اليهود ؛ لأنهم لا يقومون بعمل له تأثير إدارى أو سياسى ، ولم يكن أمام العمدة سوى أن يطرد العمال العرب ليحل محلهم اليهود ، أو يستجيب للضغوط ، فيعين اليهود بأجر أكبر مما يحصل عليه العمال العرب ، مما يؤدى إلى ارتفاع تكلفة صيانة الطرق .

وكان زعماء اليهود فى إنجلترا يلقون آذانًا صاغية عند أكثر من وزير من الوزراء الإنجليز ، بينما لا يتمتع العرب بهذه الميزة ، ولم يكن أى من أعضاء « اللجنة الصهيونية » يستطيع الحديث بالعربية إلا نادرًا وبالكاد . ومن ناحية أخرى يتحدثون الإنجليزية ، وكذلك غيرهم من اليهود أفضل مما يفعل العرب ، وكانت الإنجليزية ضرورية للتعامل مع الإدارة .

وبذلك لم يكن لنفوذ اليهود حدود على حكومة فلسطين ، حتى إنهم أجلوا الاحتفال بعيد ميلاد جلالة الملك الإمبراطور (عام ١٩٢٢) يومين حتى لا يقع يوم السبت ، رغم أن المسلمين لم يعترضوا (عام ١٩٢١) على وقوع الاحتفال يوم الجمعة ، فهل كان من الممكن تغيير موعد ذلك الاحتفال مراعاة ليوم الجمعة عند المسلمين ؟ وإذا كان هناك إصرار من جانب المسلمين على تغيير موعد الاحتفال ولم يتم ذلك ، فغاب أعيان المسلمين عن المشاركة فيه ، لاعتبروا مقصرين فى التعبير عن احترامهم للملك الذى يجب عليهم التعبير عن الولاء له .

كان استخدام الجنرال أللنبى للعبرية فى إعلانه الأول ، والتوسع التدريجى فى استخدام العبرية فى الإدارات الحكومية والبلدية ، قد أدى إلى تزايد الحاجة إلى المترجمين والكتبة والطباعين وغيرهم من الموظفين الإداريين اليهود ، وخاصة أن دافعى الضرائب من اليهود رفضوا السداد ما لم تكن الإيصالات محررة بالعبرية .

وهكذا ، لسبب أو لآخر ، اتخذت كل الخطوات اللازمة لتنفيذ تصريح بالفور ، ومع كل واحدة منها كانت الإدارة تواجه بموجات الاحتجاج لتخلى الحكومة عن القواعد التى التزمت بها خلال الحرب . ونتيجة تفشى القلق ، وتفاقم الشكوك ، اتسع خرق العلاقات بين العرب واليهود ، واستعصى على الرتق . واقترح على الدكتور وايزمان أن يقوم بإهداء المفتى نسخة من القرآن الكريم على سبيل المجاملة ، فجئت له بنسخة ثمينة من القاهرة ، وفضل المفتى أن يتلقى الهدية فى لقاء شخصى بمكتبه بالمحكمة الشرعية ، وهو ما حدث بالفعل . وفى المساء كانت زيارة وايزمان له حديث القدس كلها ، وانتشرت شائعة مفادها أن الصندوق (الذى ضم نسخة المصحف) كان مليئًا بالأموال .

وتأثرت روح المعارضة بتأخر صدور صك الانتداب على فلسطين الذى أعطى لبريطانيا فى أبريل ١٩٢٠ ، ولكنه لم يوقع إلا فى يوليو ١٩٢٢ ، بسبب الصعوبات التى أثارتها كل من فرنسا وإيطاليا والفاتيكان . وارتبطت شكوك العرب بما أعلنه الرئيس ويلسون فى أوائل ١٩١٩ عندما اقترح على الحلفاء إرسال لجنة تحقيق مشتركة لبحث مسألة تقرير المصير فى الإمبراطورية العثمانية ، وقد قبلت دول الحلفاء الثلاث هذا الاقتراح من حيث المبدأ ، على أمل أن تتولى التطورات اللاحقة مهمة إعاقة تنفيذه .

ولكن بمجرد تقديم الاقتراح ، فكر الرئيس الأمريكى فى التحرك فى هذا الاتجاه ، فبدأ الأعضاء الأمريكان باللجنة العمل وحدهم ، وضم جناحها الغربى « لجنة كنج – كرين » سياسيان أمريكيان بارزان ، قاما بزيارة الشام وفلسطين واستطلعا آراء مختلف الطوائف فيما يتصل بتطلعاتهم السياسية . ويبدو مما جاء بالتقرير أن جميع سكان المنطقة فيما عدا اليهود (الذين يدعمون الصهيونية البريطانية) والروم الكاثوليك (الذين يريدون فرنسا) يطلبون وضع بلادهم تحت الانتداب الأمريكى ، فإذا تعذر ذلك ، فهم يقبلون بالانتداب البريطانى . وقد أوصت اللجنة بوضع بلاد الشام الموحدة بما فى ذلك فلسطين ولبنان تحت الانتداب البريطانى فى حالة تعذر قبول أمريكا الانتداب ، على أن يتم تنصيب الأمير فيصل بن الحسين ملكًا دستوريًا على الشام الموحد . وقد عبرت اللجنة عن اعتراضها على تقسيم الشام بقولها إن تقسيم المنطقة على أساس طائفى يلحق الضرر بها ؛ لأن التقدم يتحقق – تاريخيا – بتنوع السكان فى الإقليم الواحد . وكان رد قادة مؤتمر الصلح فى فرساى على توصيات اللجنة تقسيم سوريا إلى انتدابين وطرد فيصل . وخلال ثلاث سنوات ، قامت فرنسا بتقسيم القسم الشمالى من بلاد الشام إلى ثلاث دول لكل منها حكومتها الخاصة ، تحت إدارة المندوب السامى فى بيروت .

ولم يكن تلهف عرب الشام – شمالاً وجنوبًا – على إقامة دولة عربية واحدة فى الشام (التى أيدها فيصل بقوة فى مؤتمر الصلح بباريس) عملاً موجهًا ضد فرنسا أو ضد الصهيونية ، وحتى لو نجحوا فى الحصول على بغيتهم ، فإن العمل الذى كان متاحًا لأصحاب الموهبة فى الدولة العثمانية قد ينقص بمقدار الثلثين . فقد استطاع

كامـل باشـا – الذى كان فلاحًا قبرصيا – أن يتولى منصب الصدر الأعظم أربع مـرات ، وأبو الهدى (الصـيـادى) عربى من حلب ، بدأ عرافًا للسلطان ، ثم أصبح شيخًا للإسلام يحظى بنفوذ واسع لم يواكبه نفس القدر من الاحترام . وتولى محمود شوكت – من أبناء بغداد – منصب الصدر الأعظم عام ١٩٠٨ . والعربيان اللذان حملا رتبـة البـاشـا وجدتهـمـا بالقدس ، تولى كل منهمـا مناصب إدارية كـبرى فى الجـزيرة العربية والعراق .

وبعد تقسيم الشام ، شعر قادة الفلسطينيين العرب أن باستطاعتهم تولى بعض المناصب العليا بعد التخلص من سطوة الحكم العثمـانى ، ولكنهم وجدوا طمـوحـهم مـحـصـورًا فى وظائف أقل شـأنًا ، أو فى وظائف البلدية ، مع تفـضـيل عنصـرين من الأجانب عليهم (الإنجليز ، واليهود) ، فى بلد لا تزيد مساحته على مساحة ويلز . ولذلك لم يكن غريبًا أن يقوم الأعيان الذين ينتمون إلى عائلات قديمة – سواء من تولى منهم مناصب كبرى فى عهد الدولة العثمـانيـة أو من كـان من كبار ملاك الأراضى – بإثارة الجدل المعبر عن رفضهم للسياسة الرامية إلى إهمالهم والنيل من مكانتهم .

أليس التاريخ سجلاً لتردد الأرستقراطية والأوليجاركية فى التخلى عن أوضاعها أو إتاحة الفرصة لغيرها – حتى لو كانوا من أبناء جلدتها – لاقتسام السلطة معها ؟ فما بالنا لو كان عليهم اقتســـامها مع « الأجـــانب » ! فقد كان يهود وسط أوروبـا « أجـانب » فى نظر العرب الفلسطينيين – رغم مـا كـان يشـار إليـه دائمًا من الروابط السـاميـة بين الطرفين – أجانب فى كل الجوانب الحضـارية ، وغـربيون فى طبـاعـهم وسلوكهم ، وحتى عيوبهم ، والقول بالانتمـاء إلى أصل لغـوى واحـد يعـود بجـذوره إلى آلاف السنين ، مجرد حقيقة علمية. وقد يتحـالف الناطقون بلغــات ساميـــة معًا فى مـواجـهـة غزو مـغولى ، ولكن عندمـا يتسـاءل شيخ عـن الطريقة التى عـامل بـهـا الإنجليز أقاربهم من الهندو – جرمان خـلال نصف القرن الماضـى ، فكيف نستطيـع الرد عليه؟ لعـل من حســن الحظ أن سلبيـات الرابطة السـاميـة لم تبق على أى من التقاليد الكنعانية .

وتباينت طريقة فهم ما تضمنته المادة السادسة من صك الانتداب ، من النص على أن الإدارة « سوف تعمل - بالتعاون مع الوكالة اليهودية - على تشجيع توطين اليهود بالأراضى ، بما فى ذلك أراضى الدولة (الميرى) والأراضى البور التى تفيض عن حاجة الأعمال العامة » . فقد بدت للعالم الخارجى حلاً إنسانيًا مرضيًا يحقق الاستفادة بالأراضى المهملة الفائضة عن الحاجة . وكانت تعنى عند الصهيونية مجرد خطوة أولى تمثل الحد الأدنى المطلوب من الأرض لاستيعاب الأعداد الكبيرة من اليهود الذين يتدفقون على فلسطين ، وأن النص يمثل تقاعسًا من جانب حكومة الانتداب عن تقديم تنازل غير مشروط عن الأرض . ونظر مثقفو العرب إلى المادة السادسة نظرة الإنجليزى الذى ينتظر من المحتل الألمانى التعليمات الخاصة بتعمير وتنمية دوقية كورنوول من أراضى المشاع وملاعب الجولف ، لا عن طريق استقرار الألمان المحتلين بها ، ولكن ليستقر بها الإيطاليون « العائدون » كفيلق رومانى .

وفى مواجهة مثل هذه الخسارة للمستقبل القومى والسياسى ، كررت حكومة الانتداب تأكيدها على الالتزام الصارم بالحفاظ على الحقوق والمواقع الدينية باعتبارها تعويضًا كافيًا عن تلك الخسارة ، تمامًا كما يقدم المحتل الألمانى للإنجليز ضمانًا بعدم التعرض لكاتدرائية وستمنستر .

ولم يتم « تطبيق » المادة السادسة بسبب قلة مساحة أرض الدولة المتاحة ، ولكنها ستظل التزامًا للانتداب ، ولا تزال سببًا لتفاقم الضغوط الصهيونية . وكتب الدكتور وايزمان للمندوب السامى [١٤] : « إن الوكالة اليهودية سوف تنظر بعين التقدير إلى إتاحة الفرصة لها لفحص أراضى الدولة التى لم يتم تحديدها بعد ، حتى يتسنى لها إعداد أى أرض متاحة لتوطين اليهود » . وزادت كراهية أعيان العرب وسخطهم على حكومة الانتداب ؛ لأن تقارير الصهيونية وغيرها من الأدبيات وصفتهم بمصطلح « الأفندية » تمييزًا لهم عن الفلاحين الذين عرفوا بصلابتهم وخشونتهم وسذاجتهم ، وغيرها من السجايا الخلقية المرتبطة بأهل الفلاحة عند من يعرفونها على

(١٤) جاء الخطاب تعقيبًا على تقرير حكومة الانتداب المرفوع لعصبة الأمم عن عام ١٩٣٥ ، وتاريخ الخطاب ٣٠ أبريل ١٩٣٦ .

الأقل ، فهو يفتقر إلى النظام والانضباط . أما « الأفندى » فيعد طرى العود ، متسيب الخلق ، انتهازيا متسلقًا ، تدفعه أنانيته إلى إثارة « الأغلبية العربية » التى تتسم بالاعتدال « لو تركت لنفسها » دون تحريض من جانب « الأفندية » . وأولئك الأفندية يشكلون « عصبة من الإقطاعيين المستغلين » الذين لابد من تصفيتهم فى نهاية الأمر ، ولذلك لن يكون لهم مكان يلجأون إليه ، حتى لو تأثر بعض الموظفين الإنجليز « بالخنوع » الظاهرى باعتباره سلوكًا مقبولاً ، وتأثرت صورة « الأفندية » بالنظرة التى كانت ترى فى عرب شرق الأردن نموذجًا طيبًا يعبر عن الأصالة ، بينما أهالى غرب الأردن ليسوا عربًا ، ولكنهم جاءوا من أصول متباينة ويتحدثون العربية باللهجة الشامية (١٥) .

لقد حقق بعض العرب (وليس كلهم) منافع مادية كبيرة فى القدس والمدن الأخرى ، ولكن بأى ثمن ؟ وهل كان من الخسة بمكان أن يتنهد العربى تحسرًا على الحضارة العربية التقليدية الأقل تقدمًا ؟ فالفلاح قد يبدو غبيا إذا امتنع عن بيع محصول أرضه بأضعاف ثمنه عندما يعرض عليه ذلك ، كذلك لا يعد مالك الأرض « من البشر » إذا امتنع عن بيع أرضه مقابل عشرة أضعاف قيمتها الحقيقية . ولعل الاثنين يهمهمان بالمثل الفلسطينى القائل :

« أطعمنى اليوم ، واشنقنى بكرة » .

ورغم البريق الرسمى للنص الأصلى لتصريح بلفور ، أو نتيجة له ، تناقص فهم العرب لأبعاده ، هذا إذا كانوا قد فهموه أصلاً ، ويقال إنه رغم مطالب الدكتور وايزمان المعتدلة أمام مؤتمر الصلح ، فقد مثلت تلك المطالب الحد الأدنى عند الصهاينة الآخرين ، وفى الاحتفال بعيد ميلاد الملك عام ١٩٢١ ، ألقى السير هربرت صامويل خطابًا سياسيا بعث الطمأنينة فى نفوس العرب والعالم ، فقد فسر تصريح بالفور بأنه يعنى « إتاحة الفرصة أمام اليهود المشتتين فى العالم ، الذين تتجه قلوبهم

(١٥) هذه النظرية الخاطئة قوميا ، الصحيحة أنثولوجيًا ، تضمنها الكتاب الصادر عن الخارجية البريطانية (عام ١٩٢٠) عن سوريا وفلسطين .

إلى فلسطين وإلى أن يكون لهم بيت فيها ، وأن البعض من اليهود يسمح لهم بالقدوم إلى فلسطين ليساعدوا بأموالهم وجهودهم على تنمية البلاد بما يحقق المنفعة لجميع سكان فلسطين ، وذلك فى حدود أعداد ومصالح السكان الحاليين فى البلاد . وبعد شهرين تبخر الأثر الطيب الذى تركته تلك الخطبة فى نفوس الفلسطينيين ، عندما استنكر المؤتمر الصهيونى المنعقد بكارلسباد ما جاء بها بلهجة عنيفة .

كانت الحكومة البريطانية تسقط من اعتبارها دائمًا ما جاء بكتاب هرتزل « الدولة اليهودية » ، كما تبرأت منه الصهيونية الرسمية ، ولكن « المراجعين » بقيادة المهيج العنيف جابوتنسكى ، أعلنوا فى المؤتمر الصهيونى الأول المنعقد فى لاهاى ، أن اليهود لا يريدون فعلاً « وطنًا قوميا » ، ولكنهم يريدون « دولة يهودية » .

ترى ، من يصدق العرب (إذا كانوا قد صدقوا فعلاً) من بين هؤلاء الثلاثة ؟ فكل ما يعرفه العربى أن السياسة المتقدمة تجعل من متطرفى الجيل الأول ليبراليين عند الجيل الثانى ، محافظين فى الجيل الثالث [١٦] . وكيف ينسى العرب الرد الذى جاء على لسان الدكتور وايزمان ، عندما سئل أمام مؤتمر الصلح فى باريس عن معنى « الوطن القومى لليهود » ، فقال إنه يعنى عدم وجود شروط تحول دون أن تكون فلسطين – فى نهاية الأمر – يهودية تمامًا كأمريكا عند الأمريكيين ، وإنجلترا عند الإنجليز .

إن الصهيونية حركة عالمية ، أما الحركة العربية فلا وجود لها ، ورغم ما يقال من أن معرفة العربية تفيدك فيما بين الهند والأطلنطى ، فإن مزايا العرب وعيوبهم

(١٦) ترى ماذا يستنتج القارئ العربى من النص التالى : « إن أهم ملامح وخصائص الانتداب فى فلسطين أنه بينما يعد سكان البلاد – فى الحالات الأخرى – هم المنتفعون بالانتداب ، فإن الانتداب على فلسطين يجعل من (الشعب اليهودى كله) منتفعًا بالانتداب بالاشتراك مع السكان الحاليين . ولا يمثل التميز أهميته من حيث المبدأ أو من حيث الواقع . إنه يعنى أن حق العرب يقوم على سكناهم للبلاد . فإن حقوق اليهود تقوم على أسس أخرى ؛ لأن التفويض الذى نالته الحكومة البريطانية لإقامة الوطن القومى لليهود فى فلسطين يحقق مصالح الشعب اليهودى ، ولا يعتمد على السكان اليهود الموجودين فى فلسطين . وبموجب هذا التفويض ، يحق لأى يهودى مهما تكن صفته وموقع إقامته ، أن ينتفع بهذا التفويض . (وردت بكتاب ماكوفر الذى حمل عنوان « حكم فلسطين » ونشر عام ١٩٣٦) .

وحقوقهم ومتاعبهم محلية بطبيعتها ، حتى لو دعمها الفاتيكان ، أو زكتها أمجاد الجامعة الإسلامية ؛ لذلك يشعر العربى الفلسطينى بمركب نقص شديد الوطأة عندما يعرض قضيته على الضمير العالمى . وهو يدرك تماماً أنه يفتقر إلى الكفاءة والتنظيم ، فضلاً عن الموارد المالية أو تنظيم الدعاية المؤثرة على الرأى العام العالمى ، وهو يدرك تماماً أن أعيان المسلمين الذين طافوا بلاد الشرق طلبًا للعون ، لم ينجحوا فى التأثير على إخوانهم فى الدين فى مصر والهند والجزيرة العربية ، وأمام الصحافة التى تخضع للسيطرة العالمية التامة فى القارتين (أوروبا وآسيا) ، لم تكن هناك فرصة متاحة أمام الفلسطينيين العرب لشرح قضيتهم أفضل من فرصة الدراويش الذين واجهوا مدافع كيتشنر الآلية فى أم درمان .

ومن وقت لآخر ، كانت تلك القضية «تثار » عادة بقدر كبير من الشجاعة ، وقدر أقل من المهارة ، على يد بعض المؤيدين الإنجليز من الرحالة الهواة ، الذين كانوا كمن يدافعون عن الترك ضد الأرمن الذين ذبحوا على أيديهم ، وفى السياسة البريطانية كان المحافظون أول من يتوقع تأييدهم للعرب (مع بعض الاستثناءات فى مجلس اللوردات) ، بينما كان الأحرار والعمال يؤيدون الصهيونية ، ومن الناحية السياسية لم يكن باستطاعة العرب أن يضمنوا تقديم صوت بريطانى واحد فى صندوق الانتخاب ، بينما كان الوضع مختلفًا بالنسبة لليهود . وقد سألنى ذات مرة عضو بمجلس العموم بإحدى الحفلات ، عما إذا كانت حكومة الانتداب ماضية قدماً فى « إقامة الوطن القومى لليهود » ؛ لأن فى دائرته بضعة آلاف من الناخبين اليهود الذين يهمهم الوقوف على ما تم إنجازه ، وعند ذكر العرب قال : « ليس لدى ناخب عربى واحد » .

وما لبثت تلك المشاعر العربية العميقة بالمرارة أن اتخذت طابعًا غريزيًا أشعله وأساء توجيهه المحرضون ليتحول إلى صدام عنيف ، ولكن ، « ألم يتسلح اليهود منذ البداية ؟ ألم تقم حكومة الانتداب بالسماح لهم بذلك ، بل وتزويدهم بالبنادق ؟ ترى ماذا لديهم من السلاح أكثر من ذلك الذى نعرفه ؟ ومن لا يظن أن الصناديق المتلئة بالبنادق التى ضبطت بجمرك حيفا ليست سوى واحدة من مئات الشحنات

التى دخلت البلاد بنجاح من قبل ؟ »[١٧] ومع استمرار هذا التسليح يتساءل العرب عمن يكون المعتدى ؟

* * *

لقد حاولت أن أصف الأمانى الصهيونية كما عبر عنها تصريح بالفور الذى تبنته عصبة الأمم وفسرته « اللجنة الصهيونية » ، مع ما ترتب على ذلك من آثار على شعب فلسطين . وكانت الإدارة العسكرية البريطانية هى الطرف الثالث الموجه للسياسة التى نص عليها التصريح . وقد ووجهت الإدارة بمشكلة لا نظير لها فى التاريخ ، فسرها البعض على أنها مشكلة كيفية « استرداد » (أ) ملكية (ب) تعنى شيئًا . ولا يمكن إرجاع الأخطاء أو سوء الحظ الذى ارتبط بهذه التجربة إلى أى شخص أو اثنين أو ثلاثة من الشركاء الذين اجتمعوا فجأة على ما بينهم من تناقض ، كما لا يمكن فصلها عما يتخذه مجلس الوزراء فى داوننج ستريت ، ومجلس « عصبة الأمم » فى جنيف من قرارات .

وكانت كل المخاوف التى لم تتناقص على مر السنين تعبر عن « الهواجس غير المحددة لمخلوق يتحرك فى عالم لم يتحقق » .. فمنذ البداية ، عانت « إدارة أراضى العدو المحتلة » من انتقادات الصحافة الصهيونية ، وما لبث هذا الانتقاد أن تحول إلى عداء يهودى شامل . فكل من الحكام والمحكومين ، يريد تحقيق النفع على حساب الآخر . وإذا كانت « إدارة أراضى العدو المحتلة » لا تقصى من يتعرضون لنقد الصحافة الصهيونية عن مناصبهم ، فيجب عليها أن تمنعهم من الرد على الانتقادات

(١٧) فى أكتوبر ١٩٢٥ وصلت شحنة أسلحة إلى يافا ، وكانت الأسلحة مخبأة فى أكياس أسمنت ومرسلة إلى من يدعى إسحاق قطان فى تل أبيب . وعند فتح أكياس الأسمنت ، وجد رجال الجمارك ٣٠٠ بندقية ، و٥٠٠ سنجة ، و ٤٠٠ ألف مشط ذخيرة فى ٣٢٩ كيس أسمنت . وأدى الكشف عن هذه الشحنة إلى اندلاع المظاهرات وتنظيم حملة بالصحافة العربية ، وفى ٢٦ أكتوبر نظم إضراب فى يافا احتجاجًا على ذلك ، وفى ذلك اليوم حاول عرب يافا مهاجمة تل أبيب ، ولكن الحكومة استطاعت تفريقهم بالقوة .

وتبين بعد ذلك أن تلك الأسلحة لم تكن مرسلة لليهود ، ولكنها ضمن نشاط عصابات التهريب التى كانت تمد الحبشة بالسلاح عن طريق غير مباشر .

التى توجه إليهم علنًا ، ونتج عن ذلك أن الصعوبات التى واجهتهم من كل جانب لم تعد محل تقدير .

* * *

والحق أن بعض (وليس كل) الانتقادات الصهيونية ، كان لها ما يبررها إذا وجهت إلى إدارة مدنية منظمة ومدربة وراسخة القدم ، ولكن « إدارة أراضى العدو المحتلة » كانت تمثل بقية باقية من مجموعة صغيرة من الضباط اختيرت لهذا الغرض ، مع تأكيد تولى الضباط مقاليد الأمور عند تحرير أرض ، دون توقع لاستمرارية تلك الإدارة لوقت طويل ، فضلا عن توقع دوام هذا النوع من الإدارة .

ولكن من وقع عليهم الاختيار ليكونوا ضباطًا ، وماذا كانوا يعملون قبل الحرب ؟ كان هناك القليل من الضباط المحترفين ، وكانت الإدارة تستمد حاجتها من الخبرات الفنية والإدارية من العناصر العسكرية المتاحة فى الميدان ، وكان من بين هؤلاء من كان صرافًا فى بنك برانجون ، أو بائعًا للصور ، أو مدربًا للكرة ، أو سمسارًا للعقارات ، وغيرهم من أرباب المهن المتنوعة . وكان تواتر حوادث العنف بالقدس يدعو بعضهم إلى اعتبار الخدمة بالقدس « كابوسًا مزعجًا » . وكان الرؤساء الثلاثة للإدارة من الجنرالات يتم تغييرهم قبل أن يستطيع كل منهم أن يحقق شيئًا ، ولم تكن وزارتا الحرب والخارجية قد اتفقتا على تعليمات خاصة بسياسة محددة يقوم بها فريق عمل مدرب . وهنا كان يكمن ضعفنا ، فقد فقدنا الكثير من الوقت بسبب غياب الخبرة ، والتجانس ، ونقص المخصصات المالية . وتذكرنى مذكرتان حادتا اللهجة أرسلتهما إلى القيادة العامة بما كنا نعانيه من ضعف :

« جاءنى عدد من الشخصيات التى تهتم بتنظيم مؤتمر فلسطينى ، وتشكيل وفد فلسطينى يتجه إلى أوروبا ، وذلك عند نهاية الأسبوع الماضى ، وقالوا لى إنهم قد التقوا الحاكم العام الذى أوصاهم باختيار ممثليهم ووعد بتسهيل سفرهم ، ولما كانت التعليمات الموجودة لدى تقضى بعدم انعقاد المؤتمر الفلسطينى ، فقد أجبرت على اتخاذ موقف عدم الالتزام بشىء . وأود أن أوضح أن الصعوبات السياسية التى نواجهها بالقدس تزداد تفاقمًا بالنسبة للحاكم العسكرى ما لم يطلع باستمرار وبدقة

على المقابلات والمفاوضات التى تمس المصالح العامة ، والتى تتم مع أعيان القدس من قبل السلطات داخل المنطقة نفسها .. » .

وجـــاء بالمذكــرة الأخــرى :

« بعد ظهر الأمس بقليل ، تلقيت – هاتفيا – معلومات أكدها فيما بعد خطابكم مفادها أن ٣٠٠ عربى من أبى كبش قادمون إلى القدس بالقطار وعلى ظهور الخيل ، وتلقيت منكم تعليمات بإيقافهم عند المحطة وعلى الطريق عند كلونيا . وقد قطعت على الفور اجتماعًا طويلاً بالرملة ، واتصلت بالقوات العسكرية لتدبير ثلاثين جنديا بأسلحتهم وعتادهم وشاحناتهم تحركوا بالفعل إلى كلونيا ، ورتبت مع الشرطة أن يتوجه ممثل للإدارة مع مترجم إلى كل من المحطة وكلونيا ، وتمت مقابلة القطارين القادمين إلى اللد ، وظل الجنود بكلونيا طوال الليل ، وتم وضع نقطة عسكرية عند طريق نابلس لاعتراض من يأتون على ظهور الخيل عن طريق النبى صمويل . ولم يصل عربى واحد من أبى كبش بالقطار أو على ظهور الخيل . ولعل من المفيد أن نعرف السبب الذى يحول دون مواجهة أولئك العرب باللد والرملة إذا كانت الشائعة صحيحة ، فإذا كانت كاذبة ، ما هى الإجراءات التى تتخذ للتحقق من صحة مثل تلك الشائعات قبل إبلاغها للحاكم والشرطة المحلية والجيش بالقدس ، مما يعد إهدارًا لا لزوم له للوقت الثمين » .

وكانت التهمة الأساسية التى وجهت لإدارة أراضى العدو المحتلة أكثر خطورة ، وتنم عن تقصير متعمد ، وهى معاداة الصهيونية ، ولا يمكن إنكار أنه كان هناك ضابطان أو ثلاثة فى الإدارة لايوافقون على السياسة المعلنة لحكومة صاحب الجلالة ، وقد تم إبعادهم (وفضل أحدهم الاستقالة) وتحول واحد أو اثنان ممن استمروا فى العمل فى حكومة الانتداب إلى مستعربين متطرفين ، فتم إبعادهما بحجة الاقتصاد فى النفقات الإدارية .

ولكن استمرار اتهام « إدارة أراضى العدو المحتلة » بعدم الالتزام بسياسة الحكومة البريطانية ، كان مرده أننا لم نكن نجد مبررا لتدفق المزيد من القادمين من وسط أوروبا ، فاستخدم ذلك النموذج المعروف لإثارة أمور أخرى غير معروفة . فقد

كان اليهود لا يعرفون شيئًا عن الضباط البريطانيين ، ويظنونهم مثل الجنود البروسيين الذين يسهرون الليالى لاضطهاد اليهود ، على حين كان الكاهن الذى يقودهم إلى حتفهم من عملاء السلطة يتقاضى أجرًا نظير تسهيل مهمة القضاء على أتباع دينه . وقد ضايقهم أن ضباط الإدارة (وجاء معظمهم من مصر) كانوا يتكلمون العربية ولايعرفون شيئًا عن العبرية ، كما لا يعرفون الروسية أو الألمانية . وكثيرًا ما كانوا يرون الضباط البريطانيين يخاطبون العرب ، ونادرًا ما يتحدثون إلى اليهود . فبدا الأمر بالنسبة لهم أن أولئك الضباط يحرضون العرب على معارضة إقامة «الوطن القومى » بدلاً من أن يعملوا على تهدئتهم .

وبعد قليل ، أصبح بعضنا على القائمة السوداء للصهيونية ، وهو تصرف ظالم ، لا يسم عملنا بالتحيز ، ولكنه يتضمن إثارة توتر لا لزوم له ، مثلما وجدت نفسى متهمًا علنًا بالتسبب عمدًا فى إفشال مفاوضات حائط المبكى ؛ لتثبت بذلك صحة المثل المصرى القائل : « ما ينوب المخلّص إلا تقطيع هدومه » !

وفى أثناء إجازتى الأولى التى قضيتها بوطنى، كتبت إلى الجنرال مونى : « ذهبت إلى الخارجية ، حيث التقيت اللورد كيرزون الذى أبلغنى أن اللجنة الصهيونية هاجمتنى بشراسة فى الثانى من الشهر ، حيث قرروا صراحة أننى نظمت حملة ضد اليهود خلال الأشهر الثلاثة التى غبت فيها » .

وأيضًا ، فى أثناء عودتى إلى فلسطين تناولت الغداء مع أسرة برنسون (وأخذت منه عشرة جنيهات تبرعًا لأنصار القدس) ، وذهبت إلى بيريس مع سوكولوف لمقابلة أوسشكين الصهيونى الروسى الكبير ، وهو ذو رأس كبير ولكنه لا يتكلم الفرنسية ، قال إنه لم يسمع إلا تقارير محبطة من فلسطين ، وأن الإدارة بكاملها معادية للصهيونية ، فرجوتهم أن يزوروا فلسطين ليروا بأنفسهم ، وقلت لهم : «إن من يتحركون بتؤدة – مثلى– ليسوا أصدقاءهم الوحيدين فحسب ، بل هم أملهم الوحيد» .

إن الصهيونى القادم من وسط أوروبا الذى يجد نفسه محصورًا بين عداء عربى مرير ، وإدارة بريطانية تتصرف ببرود ، يذكرنى بوصف ثيوكريتوس لبطلميوس : « إنه يعرف صديقه ، ولكنه يعرف عدوه بصورة أفضل » ، ولكن مثل هذا الصهيونى يخلط

بين الاثنين . وقد يبتعد الأطباء اليهود عن « مصلحة الصحة العمومية » حتى عندما يبدى الجميع إعجابهم بمواهبهم ، وتبدو عليهم بسمات العجز عن تفهم وجهة نظر الآخر (سواء كان عربيا أو إنجليزيا) ويرونه متساوياً مع من كانوا يضطهدونهم « الشعب الألماني » .

لم يكتب أحد عن اليهود متحمساً لقضيتهم مثلما فعل الأخوان جاك وجيروم تارو اللذان ساعد كتابهما على توسيع دائرة الاهتمام بإسرائيل ، ولكن وصفهما لبلاكون لم يعجب اليهود فهددوا رئيس تحرير الصحيفة - التى نشرت عملهما منجماً - بحرمانه من الإعلانات اليهودية ما لم يحذف الفصلين الأخيرين من الكتاب .

وأحس الضابط البريطانى ، الذى يؤدى عمله كما ينبغى أن يؤدى ، أنه محاصر بجو من الانتقاد والاعتراض ، يتخذ طابع العداء من وقت لآخر ، وأحياناً يشعر بالتعرض للخطر . وبعد حوادث الشغب التى وقعت فى احتفالات عيد الفصح ١٩٢٠ وحوادث الشغب فى نوفمبر ١٩٢١ (قبل أن يتم تحديد مجال الاختصاص بين الإدارة والشرطة بشكل دقيق) واجهت حملة من الهجوم فى الصحافة اليهودية فى فلسطين والعالم ، لا أستطيع أن أفهم لماذا خرجت منها دون أن أصنف عدوا للسامية مدى الحياة . وقد توقفت الحملة بمجرد الإحساس بأن الحكومة البريطانية لن تتأثر بها ، وأظن أن اليهود توصلوا إلى استنتاج حولها من السنوات الخمس التالية التى لم يحدث فيها ما يكدر الصفو بالقدس .

وبعد حوادث الشغب التى شهدتها يافا فى مايو ١٩٢١ ، وكذلك بعد انفجار الموقف عام ١٩٢٩ ، أصبح الهجوم على الموظفين التنفيذيين أعلى صوتا ، وأعنف لهجة ، ولم ينج منه غير الفنيين الثلاثة : الجيولوجى ، والبكتريولوجى ، والطبيب البيطرى ، وتلقى الضابط البريطانى المسئول عن حائط المبكى ٤٠٠ خطاب مملوءة بالهجوم والسباب من اليهود بجميع أنحاء العالم . وفى جو ملىء بالغضب كهذا الجو ، من يستطيع ألا يتحمس ، ومن يتوقع سكوناً فلسفيا ؟

غير أننى عندما عدت إلى فلسطين زائراً عام ١٩٣١ ، وجدت أن الإدارة البريطانية مقتنعة تماماً أنه عند وقوع أى أزمة فى المستقبل ، فإن العرب قد

يضمرون لهم العداء، ولكن اليهود من المؤكد أن يعلنوا عداءهم لهم ، ولم أستطع سوى أن أتساءل عما تستطيع هذه المعاملة الوحشية المهينة عمله لدفع قضية الصهيونية قدمًا إلى الأمام ؟ ومهما يكن الأمر ، فاليهود مازالوا يمقتون الإدارة العسكرية البريطانية ، بينما العرب يشعرون بالأسف تجاهها ، وإن قاموا أحيانًا بمهاجمتها (أقرر ذلك ؛ لأن هذا الكتاب لا يهدف إلى الانتقاد ، بل تسجيل الوقائع كما حدثت ، والحديث عن أولئك الذين لا يستطيعون إسماع صوتهم للغير) .

وعندما زرت أمريكا بعد ذلك بسنوات ، أدهشني انتشار الكاريكاتير الذى يصور الضابط البريطانى بصورة بغيضة فى الصحف الأمريكية ، وقد عجب بعض اليهود الأمريكيين لأننى لم أكتب مثلهم . وفى عام ١٩٣٤ أخبرنى رجل أعمال يهودى يعد من كبار منتجى القمح فى شيكاجو أنه شعر بالاشمئزاز عندما علم من أحد زعماء الصهيونية أن التقدم الذى حدث فى فلسطين يعود إلى جهود الإدارة البريطانية . وعلمت هذا العام (١٩٣٧) أن إحدى السيدات اليهوديات هاجرت من مستعمرة بريطانية إلى فلسطين ، وأقامت فى تل أبيب ، أصابها الهلع من كم النكران والهجوم على كل ما هو بريطانى ، ومثل هذه التصرفات تعتبر عند العرب « كفر بالنعمة » يهدد بزوالها .

ومازلت فى انتظار أن أسمع أن أكثر تلك الانتقادات وقاحة يستطيع أن يطرح فكرة انتداب بديل للانتداب البريطانى ، ولكن هذه الهجمات لها فوائدها ، فقد علمتنى ضبط النفس . وأجدنى أعلق فى إنجلترا على الجو العام : « إننى لا أريد أن أنهى حياتى العملية ، كما تنتهى حياة الأضاحى » . وقد ساعد هذا الهجوم أيضًا على التقارب الشديد بين الضباط البريطانيين ، وعندما أقيم حفل عشاء احتفالاً بذكرى توقيع الهدنة عام ١٩٢١ ، سمعت بعد انتهاء الكلمات التى ألقيت ، هتافًا منظمًا باسمى يحمل تحية كل الضباط ، أحسست بأنه جاء تضامنًا معى ، متخذًا صورة احتجاج على الهجوم الذى تعرضت له فى الصحافة اليهودية . وقد تأثرت بذلك كثيرًا حتى عجزت عن رد هذه التحية الكريمة ، وأعتقد أن زميلى هارى ليوك قد لقى تحية مماثلة فى حفل عشاء سانت أندرو عام ١٩٢٩ ، ولكن هناك انتقادات بريطانية كثيرة توجه إلينا معا .

إن الذى جعل بعضنا يظن أننا قد لا نكون مخطئين تمامًا ، هو ذلك العجز النسبى عن تحقيق النجاح مع جانب كبير من يهود فلسطين الذى عانت منه « اللجنة الصهيونية » ؛ فالصهيونية الحديثة لها أصولها ومنابعها بين اليهود الروس وحدهم ، الذين قدمت لهم بريطانيا « الوطن القومى » ، ومولته الولايات المتحدة ، فإذا لم يكن هناك أحد غير هرتزل ، فقد كان وايزمان نبيًّا لهرتزل ، وقد انعكست الطبيعة الروسية انعكاسًا تاما على « اللجنة » ، وعلى نظرتها للإدارة واليهود الشرقيين السفارديم ، وكذلك على كل اليهود الأشكنازيم القادمين من شمال ووسط أوروبا .

وقد عرفنا فى إنجلترا اليهودى السفارديم (أو الإسبانى) « باليهودى النبيل » . أما فى فلسطين - أرض إسرائيل الجديدة - فكان ذلك اليهودى محتقرًا أو على الأقل متجاهلاً باعتباره شرقيا متخلفًا ، ولكن هذا الانتماء الشرقى جعل « اللجنة الصهيونية » تضطر إلى اللجوء إلى السفارديم ، لكونهم الأقدر والأفضل فى التفاوض مع العرب الذين كانوا يرتبطون بهم بعلاقات ودية منذ طردوا من إسبانيا (١٤٩٢) . وما لبثت أن علمت أن صداقاتى الحميمة لبعض العائلات اليهودية من السفارديم قد حسبت ضدى (من جانب الصهيونية) ، خاصة أن اليهود السفارديم فى مصر كانوا يبدون حماسًا فاترًا نحو الدعوة الصهيونية .

فى أوائل عام ١٩١٨ ، كتب إلىَّ السير فيكتور هرارى باشا - أحد الشخصيات اليهودية البارزة بالقاهرة - يقترح أن أضم ابنه الضابط بفرقة الجمال ، إلى العاملين معى ، و«بضربة معلم» وضع بالخطاب طابع بريد إيطالى صدر فى أثناء الحرب يحمل صورة دانتى . ولم أستطع أن أرد له طلبًا ، كما أن ولده - رالف هرارى كان ضابطًا ماليا ممتازًا ، كما كان ناجحًا تمامًا فى التعامل مع المسلمين والمسيحيين على السواء ، وكذلك مع الجميع فيما عدا إهماله المتعمد للجنة الصهيونية . وعندما زار الباشا نجله بالقدس ، دعوت أعيان المسلمين للقائه ، وأدهشنى ما يربطه بهم من علاقة ودية حميمة . كانوا ينتمون إلى نفس الثقافة ، ويتحدثون نفس اللغة . وعندما قابل الباشا أعضاء اللجنة كان اللقاء خاليًا من الحرارة والتواصل . وقد سألنى المفتى والعمدة بعد رحيل هرارى بأسابيع عن مدى إمكانية زيارته للقدس مرة أخرى . وأستطيع القول -

برؤية الخبير ، وليس من منطلق الحرص على توطيد الصداقة بين العرب واليهود - إن الصهاينة كان باستطاعتهم أن يحققوا الكثير من النجاح لو اعتمدوا على السفارديم .

وبعض قادة الصهيونية الروس بدوا وكأنهم قد فقدوا القدرة على معرفة الرجال ، فهم يطلقون العنان للخيال عند فهم مواقف معارضيهم ، التى رفعت دزرائيلى وريدنج فوق مستوى البشر ، وقد جاءوا إلى فلسطين كحق تاريخى ، فلم يكن لديهم استعداد للتقارب مع الضباط الذين دربوا بالسودان ويعاملونهم معاملة الوطنيين ، فقد كانوا يريدون أن تكون لهم « عين مارس ، يهددون ويأمرون معًا » ، وهم يريدون أن تكون سياسة الحكومة صهيونية خالصة بدرجة تكفى لتفجير الثورة بين العرب ، وفى الوقت نفسه ينظرون إلى ذلك كتحصيل حاصل . لقد اشتكوا مرارًا من أن الإنجليز لا يعرفون العبرية (ما عدا أفرادا قلائل منهم) ، فإذا كان ردى : « لماذا لا يعرف العربية إلا أفراد قلائل من اليهود » ، أجابوا : « سنفعل ، ولكن عندما يتعلمون لغتنا » .

وكان التعامل مع بعض أولئك الممثلين للصهيونية نوعًا من الرياضة الذهنية التى استمتعت بها أحيانًا ، وأحيانًا أخرى كنت أتأسى بقول درايدن :

أناس دللهم الرب ، وأفسدهم النعيم

لا يستطيع حكمهم ملك ، ولا يرضى عنهم إله

ولن أنسى أبدًا أننى اعتمدت فى مدرسة الموسيقى وحفلات الموسيقى والأوبرا والمعارض الفنية على اليهود ، وحتى فى حالة معرض النحت والتصوير هددنى المشاركون فيه بالانسحاب ؛ لأننى سمحت للجمهور بالدخول عبر باب جانبى صغير ، ولم أجعلهم يدخلون من الباب الكبير للقلعة .

كانت ثقافتهم روسية خالصة ، متعجرفة ، ولا تعنى اليونانية واللاتينية والآداب الأوروبية الحديثة عندهم شيئًا ؛ فهم لا يعرفون سوى الأدباء والكتاب والموسيقيين الروس ، وأحس أن إرث التنافس بين القيصرية وبريطانيا يقف سدا منيعًا أمام تقبلهم للإنجليز ، ولعل ذلك يفسر نفور أعضاء « اللجنة الصهيونية » من الإدارة البريطانية .

لقد كتب اللورد كرومر ذات مرة إن نوع العقل فى الرأس الذى تغطيه القبعة ، يختلف عنه فى الرأس الذى يغطيه الطربوش ، وفى القدس تختلف الأفكار المستمدة من المخلص ، عن تلك الصادرة عن فنجان القهوة ، أو الورق ، ليس من حيث القيمة ، ولكن من حيث النوعية . وهذا الانطباع ليس مبعثه كراهية اليهود ، أو التحامل ضد السلاف . ففى صيف ١٩١٨ ، انضم الكابتن ليفى بيانشينى - الضابط البحرى الإيطالى - إلى « اللجنة الصهيونية » ، وقد أفضى إلىَّ بأنه يلتقى فى بيته بتل أبيب زواراً فى أى وقت - دون استئذان - حتى الثالثة صباحاً ، يأتون للتداول معه فى أمور سياسية ، حتى اضطر إلى أن يضع حارساً أمام البيت ليمنع دخول الزوار بعد ساعة معينة ، فقوبل تصرفه هذا بالامتعاض الشديد . وقال لى سفاردى هولندى ذات مرة « إن ما تراه فيهم هو يهوديتهم ، أما ما عدا ذلك فلا يستحق النظر » .

كان دعاة العبرية يشكون من استخدام البديش ، والسلافيون يعانون من صعوبة نطق العبرية ، ويتطلعون إلى السفاردية ، ويمكننى القول إننا أخطأنا عندما ظننا أن تلك الجموع الهائلة من الروس يماثلون اليهود الذين عرفناهم فى أوروبا ، ولعلهم أدركوا أننا أيضاً مختلفون ، ولذلك احتاج الأمر إلى وقت طويل حتى نستطيع فهم بعضنا البعض ، غير أننا شعرنا بالأسف عندما أدركنا أن اليهود البريطانيين والهولنديين والألمان من أعضاء اللجنة ، كانوا أقل عدداً بكثير ، وأقل وزناً وتأثيراً من الأعضاء الروس . كما حدث توتر شديد فى اللجنة ، عندما انضم لعضويتها ضابط بريطانى متميز هو الكولونيل كيش ، فقد اعتبروه صهيونيا غير جيد ؛ لأنه يلعب الهوكى .

وكانت هناك مضايقات أخرى للموظفين الإنجليز الذين كان يعنيهم أمر « نزاهة » الإدارة ، فقد رأى بعضهم أن الأهداف السياسية اليهودية تشغل جانباً كبيراً من وقت وتفكير الإدارة ، حتى إن الإدارة الجيدة لشئون البلاد لم تعد هدفا أساسيا ، بل أصبح الهدف سياسيا محضاً ، وكان يجب أن يستقيل هؤلاء من وظائفهم ، ولكن بعضهم كانوا إداريين أكفاء . وكان ثمة قلق وانتقاد متبادل بين صفوفنا ، وضايقنا التسرب الدائم للمعلومات من خلال الهاتف ، واضطررنا أن نغير الشفرة التى نستخدمها فى برقياتنا من حين لآخر ، واستخدمنا كلمات تركية وفرنسية وبعض مصطلحات من الكريكيت .

إذا كانت إدارة فلسطين غير متقبلة عند الموظف غير اليهودى ، فربما كانت بالنسبة لزميله اليهودى البريطانى أفضل نوعا من التعرض الدائم للحرج .

عند انتهاء عمل الماجور أورم كلارك كمستشار قانونى، شغل الوظيفة مساعده نورمان بنتويك ، الذى أصبح بعد ذلك المحامى العام للحكومة المدنية ، وقد عرفته فى كامبريدج ومصر واحتفظت بصداقة حميمة معه ، وقدرت مواهبه ، ورأيته متسامحاً رغم يهوديته . ولكن للأسف ، لم يكن بنتويك ابنًا لأحد أعضاء جماعة « أحباء صهيون » فحسب، بل ألف كتاباً عن الصهيونية ، كتبه من قبل ، ولكن لم ينشر إلا بعد توليه المنصب . وكان من واجبه إعداد نصوص القوانين واقتراحها على حكومة فلسطين ، وأن يعد نصوص الأوامر التى تخص سكان فلسطين : العرب واليهود على السواء . ولكن العرب لم يقتنعوا أبداً بحسن نياته ، فكانوا يقولون : « إنه من المستحيل أن يكون صهيونيا جيداً ومحاميا عاما فى نفس الوقت » . وكان بعض زملائه يرون أن وضعه بالغ الحساسية ، بينما كان الصهيونيون يهاجمونه لمواقفه المعتدلة ، كان من الصعب أن تستفيد البلاد من خبرة الرجل الذى أصبحت مواقفه تتعارض مع طبيعة مهمته ، وقد رفض الترقية إلى وظيفة رئيس الإدارة القضائية بقبرص (ولو قبل بها لما وافقت على تعيينه) . وعندما ازداد ضغط الرأى العام اضطر إلى ترك خدمة حكومة فلسطين (ولكنه لم يترك أرض إسرائيل) للعمل بالجامعة العبرية أستاذاً لكرسى السلام الدولى .

وكان ألبرت هيامسون عالمًا يهوديا متديناً من شمال لندن ، له مؤلف أو اثنان عن اليهود ، ويحظى باحترام وتقدير زملائه ، وكذلك احترام يهود القدس المتدينين . وكان موظفاً بريطانيا فى مصلحة البريد ، والآن وجد نفسه على رأس إدارة الهجرة التى تتولى تنفيذ التعليمات الخاصة بقبول طلبات الهجرة التى تتولى أمرها حكومة الانتداب ، وكانت تلك التعليمات (شأنها فى ذلك شأن التعليمات الخاصة بالجمارك) عرضة للتلاعب . وقد قبل هيامسون الطلبات أو رفضها على ضوء التقاليد المتبعة فى الإدارة البريطانية . وما لبث أن أصبح من الشخصيات البغيضة عند الصهيونيين ، وتم تصويره على أنه شخص متعنت ، يرفض طلب اليهودى المضطهد لمجرد وجود خطأ مطبعى فى جواز سفره ، وهى صورة لم يستطع التخلص منها .

إن ملاحظاتى على بعض الصعوبات التى واجهتها الإدارة ، خاصة مع صهاينة شرق أوروبا ، كتبتها بنية خالصة ، كما فعلت فى بقية فصول الكتاب ، ولكنى أشعر أننى لم أضع فى اعتبارى ما عاناه اليهود من سوء المعاملة على مدى ألفى عام ، لقد ذكرت من قبل الاحتفال البديع الذى أقامه الفيلق ٦٠ بعد شهرين من الاستيلاء على القدس ، وحتى أتفادى الوقوع فى الخطأ ، راجعت برنامج الاحتفال بنفسى ، وفى الليلة الثانية سقط أحدالفنانين مريضًا وحل محله آخر قدم فقرة مفاجئة ، قدم فيها عرضًا هزليا ليهودى الميوزيك هول ، وكان ذلك ما لم أتمنَّ حدوثه خاصة عندما غادر نحو الثلاثة من اليهود الحفل على الفور . وظننت أنهم قد بالغوا فى إظهار حساسيتهم للأمر ، حتى كان خريف عام ١٩٣٥ عندما زرت باريس بضعة أيام بعد قضاء أسبوعين فى فينيسيا ، ودعيت إلى مسرح منوعات قدمت فيه فقرات مختلفة، منها فقرة هزلية تتهكم على بريطانيا ، ومع إحساسى الشديد بالغضب ، وعجزى عن الإقدام على تصرف محدد ، أدركت ما يشعر به اليهود عندما يتعرضون لمواقف مماثلة .

* * *

ورأيت ألا يكون الخطأ وقفًا على أى من الطوائف الثلاث فى فلسطين ، وبذلت أقصى جهدى فى مناسبة أو اثنتين كان يجب عندها توجيه النصح للإدارة البريطانية واللجنة الصهيونية .

فالذين يعدون أنفسهم شهداء ، ليسوا بالضرورة من القديسين ، وكان هناك بعض العرب الذين أربكتهم تلك التطورات ، فتحملوا مظالم ومعاناة الإدارة البريطانية واليهود على السواء ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت القومية العربية ، دون غيرها من الأسلحة ، مصدرًا للتعصب والمقاومة ، خاصة بعد وفاة المفتى كامل الحسينى ، فتعرضت الحكومة (كما يحدث فى الحياة الخاصة) لهجوم مرير من جانب أولئك الذين كان من المتوقع أن يعترفوا لها بالفضل ، وقد وقع فى يدى تقرير أعده كبير السكرتيرين عن مقابلة أجراها مع أحد المحرضين المشاغبين :

« من الجدير بالاهتمام أن نرى الخطوط المعتدلة التى اتخذتها خطبة الشيخ عندما تبين له عدم وجود ما تستند إليه الاتهامات التى يوجهها للحكومة . وجاءت كل عبارة تعبيراً عن انطباع أو اقتراح زائف ، ولا يجد كل قومى عربى فى فلسطين مضايقات بسبب اتجاهه القومى - من الجواسيس الذين عملوا فى فلسطين ، كما فى غيرها من البلاد الخاضعة للحكم البريطانى - فى مراقبة الأشخاص الذين قد تسبب أعمالهم اضطراب الأمن ، وقد تعاملت الحكومة بحرص خاص مع الشيخ نفسه ، وهو يعلم ذلك جيدا ، وحتى الآن لم يحاول العمل ضد المجلس الإسلامى الأعلى ، ورفض أن يستمع رسمياً للنقد الذى له ما يبرره والموجه إلى مجلس يفتقر إلى الخبرة ، ويستحق النقد ، قام بنفسه بدعمه وتأييده » .

لقد قدمت الإدارة البريطانية - العسكرية والمدنية على السواء - للمسلمين العرب تأييداً وتشجيعاً لم يروا نظيراً له من المسلمين الترك ، وقد تم إنقاذ الواجهة الشمالية من قبة الصخرة بمبادرة بريطانية ، وعلى يد مهندس معمارى بريطانى ، وليس بمبادرة عربية . وعندما دعت الحاجة إلى تدبير الأموال اللازمة لإصلاح المسجد الأقصى ، تلقى قادة المسلمين المحرضون التأييد والدعم من جانب المندوب السامى ليقوموا بجمع التبرعات من العالم الإسلامى كله . وتحت الحكم البريطانى أنفق كل قرش من أموال الأوقاف فى فلسطين فى غرض إسلامى بحت ، بدلاً من تحويل تلك الأموال إلى إستانبول (كما كان يحدث من قبل) ، فتم استنزاف بعض الأوقاف الغنية فى السنوات الثمانين السابقة . وليس هناك شك فى أن دخول الأوقاف تضاعفت بتأثير تجمع الأموال والمصادر المالية اليهودية .

وفى ظل الإدارة البريطانية ، كان من المفترض أن غرفة التجارة فى القدس لا تهتم إلا بالأمور المادية العلمانية ولا شأن لها بالأغراض الدينية ، ولكن إقامتها لقيت عقبة نتيجة إصرار العرب المسلمين والمسيحيين على أن يكون لهم تمثيل واسع فى الغرفة .

هذا الموقف المؤسف والحاد يمثل اتجاهاً ملحوظاً عند الشعوب (والأفراد) حديثى العهد بالتحرر من الطغيان والاستبداد . ولم يكن هناك ما يبعث على الارتياح

أكثر من التخلص من الحكم التركى ، على نحو ما رآه البريطانيون فى ثمانينيات القرن التاسع عشر فى مصر ، ولم يكن هناك فى الأسابيع الأولى (من الحكم البريطانى فى فلسطين) سوى الابتهاج والأمل والشعور بالامتنان . ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف ضحايا الاستبداد التركى القديم ، أن الحكم البريطانى أقل تحقيقًا للرخاء مما كانوا يظنون ، وأن دفع الضرائب أو اتباع الإجراءات الصحية الجديدة لا يمكن التهرب منه عن طريق الرشوة « يا الله ! لقد كانت الأحوال أفضل أيام الترك » (١٨) . واكتشفوا أيضًا أنه فى ظل الحكم البريطانى المعتدل المنزه عن الغرض ، لا يلحظ أحد أن الحيدة عن السلوك القويم (التى تتخذ طابعًا تخريبيًا) والتى تمر دون عقاب ، ما تلبث أن تتفاقم وتتخذ طابعًا شريرًا ما كان ليحدث فى ظل السادة السابقين (الأتراك) . وكما يقال فى المثل المصرى : « ناس تخاف ماتختشيش » ؛ إذ يزيدهم ذلك إغراءً لتسجيل المواقف أمام جماهيرهم ، دون الحاجة إلى التحلى بشجاعة التعرض للجلد أو الشنق ؛ لأنهم يعلمون أنهم لن يتعرضوا لشىء من هذا تحت الحكم البريطانى . لقد كان السير الدون جورست يقول دائمًا إن مكانته فى مصر سوف ترتفع بشكل كبير إذا ارتكب مرة واحدة فى السنة عملاً منافيًا للقانون ، وشاعت فى الأسواق مقولة مفادها « إذا احترم الحاكم القانون ، فكيف يسود ؟ » . وقد جربت الإدارة الفرنسية فى الشام من حين لآخر ألوان البطش المضاعف ، حتى صاح أهالى دمشق : « هاتوا لنا صهاينة العالم كلهم ، مادام الحكم بريطانيا » ، بينما كانت صيحة القدس : « هاتوا لنا الاستغلال الفرنسى ، مادام بلا صهيونية » .

وبعبارة أخرى ، فى مواجهة الولائم ، واحتفالات الذكرى السنوية ، والاجتماعات المندفعة ، والمؤتمرات ، والحملات الصحفية الشرسة ، والاحتجاج والمقاطعة ، والإضراب فى الأسواق ، والعدوان الشرس ، والعلاقات البغيضة ، قد يصيح بعضنا

(١٨) هذا التطرف فى النظرة إلى الحكم البريطانى يتضح فيما قاله المفتى للجنة الملكية : « فى ظل الدستور العثمانى ، تمتع العرب بجميع الحقوق والامتيازات السياسية وغيرها ، على قدم المساواة مع الترك » .

قائــــلاً : « ابتلاكم الله جميعًا بداء الطاعون » ، أو يتنفس الصعداء إذا عين لحكم فلسطين حاكم من طراز حكام المستعمرات «يدق رءوسهم فى بعضها البعض » و « يفعل بهم ما يجعلهم يبكون إلى الأبد » .

لدينا - إذًا - فريقان لكل منهما قضية قوية يثيرها ، ولما كان كل منهما المحامى الذى يترافع عن قضيته ، فإنه يظل دائمًا أحمق فى نظر موكليه ، فالوطنى العربى الذى يدعو مستمعيه ألا يفرطوا فى شبر واحد من الأرض التى فتحها أجدادهم ، وتركها تقع تحت وطأة الغزاة الأجانب ، قد يكون - هو نفسه - سمسار أراض يتطلع إلى بيع أرضه وأراضى أصدقائه لمشترى الأرض - أى أرض - بغض النظر عن جنسياتهم . وقد يسخر الصهاينة الكثير من الأقلام القديرة البليغة التى تتناول مثلا الاضطرابات التى يعانى منها الفرنسيون فى الشام ، لإقامة البرهان على أن ما تعانيه بريطانيا فى فلسطين ليس مرده إلى الصهيونية ، وأنه لابد من أن يصيبنا على أية حال من الأحوال (١٩) .

وجاء أول اعتراف تلقيته من أوروبا بحقيقة وضع الضباط الإنجليز فى فلسطين ، على لسان لويد چورچ . وقد التقيته لأول مرة فى مؤتمر الصلح ، وتفضل بدعوتى لتناول الأفطار معه على انفراد فى ١٠ داوننج ستريت ، وبعد أن حيانى قال لى إن الشكاوى ضدى تأتيه من اليهود والعرب على السواء . فقلت له إن ذلك أمر محتمل . مدركًا أنه ربما يقصد أن يحثنى على الاستقالة بطريقة حديثة ، فإذا به يقول :

(١٩) لقد توحدت الصهيونية على الأقل (لأول مرة فى التاريخ) فى مواجهة العرب المسلمين والمسيحيين الذين يعارضون الانتداب جبهة واحدة . وقد نشرت صحيفة « المعرض » الدمشقية هذا الحوار بمناسبة الاضطرابات بين المسلمين والمسحيين فى الشام :

المسيح : ماذا نفعل يا محمد لتوحيد شعبينا فى سوريا ولبنان ؟

محمد : اطلب من موسى أن يرسل لهم فريقًا من رجاله .

ولا مناص من القول إن فرنسا منذ تولت الانتداب على الشام عام ١٩٢٠ ، فشل ستة من المندوبين الساميين فى تحقيق السلام ، وفى منع قيام ١٣ ثورة فى البلاد .

« حسناً ، إذا توقف أحد الطرفين عن الشكوى، فسوف تطرد من منصبك » . وقد طبق هذا المبدأ على « جميع المناصب » فى فلسطين فى العقود التالية .

* * *

لقد كانت تلك هى المراحل التى مرت بها الأوضاع ، والمشاعر التى عبر عنها المهتمون بها ، خلال السنوات الثمانى التى وقعت بين ١٩١٨ - ١٩٢٥ .

وبعد الاحتفال بمرور خمس سنوات على تولى السير هربرت صامويل منصب المندوب السامى ، حدث شيء من التوقف فى أعمال الإنشاءات . ففى السنوات الثلاث الأولى ، نعمت فلسطين بسلام حقيقى رفع عن عاتق الإدارة أعباء الدفاع ، ولكن الإدارة المدنية التى حلت محل الإدارة العسكرية تحملت تكلفة عالية فى صيف ١٩٢٩ المريع . وكانت المرارة الناجمة عن هذه المأساة لا تزال ماثلة فى ١٩٣١ ، عندما لاحظت وجود تنافر اجتماعى تام بين الجالية الإنجليزية والطائفة اليهودية فى فلسطين . ومنذئذ زادت فلسطين ثروة وسكانا ، وأحسست أن لذلك ما يبرره - رغم ما جاء بخطابين تلقيتهما عام ١٩٣٦ من العرب واليهود - من قلق وتحسب : « لقد نجح المندوب السامى الحالى فى كسب ثقة اليهود بدرجة لم تتحقق لغيره من قبل ، وكان من حسن حظه أن استطاع مد مدة خدمته بفلسطين لخمس بسنوات أخرى . وكان تحت قيادته قوة قمع لم تكن متاحة لأى مندوب سام قبله ، ولذلك مهما تواجهه المشاكل ، فلن يتعرض للكابوس المقلق ، ألا وهو تدهور حالة الأمن العام .. » ، وكانت تلك النبوءة أسوأ الأخطاء البشرية .

وإذا كان هذا الفصل قد تضمن معالجة أوسع لغياب السياسة الإنجليزية تجاه فلسطين ، وصعوبات الصهيونية العملية ، بقدر أكبر من تناول أخطاء وجرائم العرب (وهى كلمة لا فكاك منها) ، فإن السبب يرجع - من ناحية - إلى أن الصهيونية وبريطانيا تتحملان مسئولية خلق تلك الأوضاع [٢٠] ، فباعتبارهما صناع كل مصادر

(٢٠) لقد أصررنا على أن يكون الانتداب على فلسطين من نصيبنا ، كما أملينا الشروط التى بموجبها صدق مجلس العصبة على أعمال دول الحلفاء الرئيسية وجعل من نفسه مشرفاً على إدارتنا للانتداب (الإيكونومست ، مارس ١٩٣٦) .

الحضـارة الحديثة ، كان جديراً بهما تحديد معالم الطريق الذى يقطعه مواطنو فلسطين . ولما كانت الدعوة نابعة من الإنجيل ومن التوراة ، ومن روائع إنسانية العالم القديم ، فكان عليهما اتباع نغمة تتوافق مع إيقاع بسطاء الناس تتشكل بيسر مع نقاط الاعتراض وتحتويها تماماً .

وكانت النتيجة البارزة للفشل فى لندن وفلسطين ، هو انفجار المشاعر فى فلسطين فجأة ، حتى إن الدول الكبرى بعد ما يقرب من عشرين عاماً من التجربة والخبرة ، احتاجت فى وقت السلم إلى جيش عسكرى واستخدام كل فنون الحرب ، للسيطرة على السكان المدنيين « المحررين » . وكان العرب قادرين على مواجهة ذلك بحرب العصابات التى استمرت لستة أشهر ، ولم يستسلموا لقوة السلاح البريطانى ، ولا للضرورة الاقتصادية التى تتطلب جمع محصول البرتقال ، ولكنهم استجابوا لنصيحة « رابطة الملوك العرب » ، وبذلك وضعوا سابقة ، وأقاموا مؤسسة ، لم تكن أقل استساغة عند بريطانيا منها عند الصهيونية .

أعتقد أن السبب فى ذلك هو رد الفعل المتبادل بين سرعة إيقاع الهجرة اليهودية ، وفترة الرخاء التى شهدت توسعًا فى البناء ، والتى بررت مقولة إنه إذا كان الرخاء يتحقق بنسبة مائة بالمائة مع هجرة ألف يهودى سنويا ، فإنه سيصل إلى ألف بالمائة مع هجرة عشرة آلاف يهودى ، وإلى عشرة آلاف بالمائة مع هجرة مائة ألف يهودى ، وأنه إذا كانت الظروف الاقتصادية تسمح بالقدرة الكبيرة على استيعاب الهجرة المتزايدة، فلا بد من الموافقة رسميا على الزيادة ، دون الاستماع لاعتراضات العرب ؛ لأن بضعة آلاف من المهاجرين زيادة على المسموح به ، لن تغير شيئًا .

وعلى الرغم من إنقاص الهجرة المصرح بها ، وكذلك إنقاص الهجرة غير الرسمية، فقد ازدادت بعد عام ١٩٣٢ زيادة مطردة فبلغت ، الهجرة الرسمية ٣١ ألف يهودى ، ارتفعت إلى ٤٢ ألفًا فى العامين التاليين حتى بلغت الرقم القياسى ٦١،٨٤٩ مهاجراً عام ١٩٣٥ ، هذا مع عدم الإشارة إلى عشرة آلاف من المهاجرين غير الرسميين .

وعند هذا الحد ، كان هناك شعور بالحاجة إلى سد الطرق أمام سكان فلسطين « غير اليهود » ، وإقامة مجلس تشريعى « كان قد وعد بإقامته فى الكتاب الأبيض عام ١٩٣٠ » على أساس نسبة التمثيل العددى التى يحددها المندوب السامى بعد موافقة وزير المستعمرات البريطانى . قام المندوب السامى بإعلانها فى ديسمبر ١٩٣٥ ، ونشرت على العالم ، وقد لقى القرار ترحيب العرب خاصة المثقفين الذين رأوا فى زيادة التحضر فائدة لهم ، رغم أن القليل ترددوا فى القبول بها خشية أن يعنى ذلك ضمنًا موافقتهم على الانتداب .

غير أن اليهود قاطعوا القرار على الفور ، وهرع الدكتور وايزمان إلى لندن ليحضر مناقشات مجلس العموم حول الموضوع ، وتحركت عجلة الصحافة والبرلمان ضد اقتراح إقامة المجلس التشريعى ، رغم أن ذلك متضمن فى صك الانتداب ، ووعد سكان فلسطين بإقامته ، وكذلك عصبة الأمم ، كما أنه جاء مقترحًا من جانب المندوب السامى الذى يتمتع بثقة اليهود . وكان هناك الكثير مما يقال عن عدم جدوى إقامة المجالس التشريعية فى بلاد البحر المتوسط ؛ لأن المندوبين الساميين والحكام البريطانيين لقبرص ومالطا وجدوها ذات تكلفة عالية . ولكن ذلك لم يكن موضع اهتمام اليهود ، وإنما جاء اعتراضهم على الاقتراح لأنه يعطى اليهود مقاعد تتفق مع نسبتهم العددية إلى السكان ، وطالبوا بعدم إقامة مثل هذا النظام إلا بعد أن يحقق اليهود الأغلبية السكانية فى فلسطين ، وبذلك يتم الحفاظ على النقطة المركزية فى الانتداب ، ألا وهى إقامة « الوطن القومى » ، وأن مسألة الهجرة سوف تكون موضع جدل فى المجلس ، غير أنه إذا كان هناك من يستحقون الاهتمام العام الرسمى فهم عرب فلسطين ، ولكن الحكومة الوطنية قاومت الاقتراح حفاظًا على سمعتها ، وكان كل جهدها منصرفًا إلى إقناع العرب (الذين كانوا يخشون التورط فى القبول ضمنًا بالانتداب) بأن رفض اليهود لمشروع المجلس التشريعى بهذه الحدة يعنى أن منافعه للعرب كبيرة .

(وجدير بالذكر أنه عندما اقترح إقامة مجلس تشريعى فى مارس ١٩٢٣ ، ورفض العرب الاقتراح ، هاجمت الصحافة اليهودية « ضعف » الحكومة ، وتساءلت عن

بسبب عدم معاقبة من عارضوا الأمر الصادر بإجراء الانتخابات ، وتعجبت من « عدم إقدام الحكومة على إيقاف هؤلاء المحرضين الخطرين عند حدهم » .

وفى أثناء المناقشات التى دارت حول مسألة المجلس التشريعى بمجلس العموم واللوردات ، تم تناول القضية العربية - دون مبالغة - بقدر كبير من المغالطة ، كان المستمع الصهيونى للخطبة تلو الأخرى فى بهو مجلس العموم يجد المتحدث على معرفة جيدة بوجهة نظر الصهيونية ، وتساءل تشرشل : « أليس هناك رأسماليون عرب ؟ » مشيراً إلى معاملة الألمان لليهود ، ملوحاً بقبضته فى الهواء ، واستنكر أن يكون عدد اليهود المهاجرين ٦١,٨٤٩ لأنه يمثل ١٦ ٪ فقط . ولم يجرؤ أحد على الاعتراض ، وهكذا ولد مشروع المجلس التشريعى ميتاً على هذا النحو .

وإعمالاً لمبدأ « غياب الأمل يعنى غياب الخوف » ، قام العرب اليائسون بتنظيم « إضراب سلمى » ، وما لبث أن تفاقم الوضع حتى أصبحت بريطانيا العظمى موضع سخرية الدول ، واضطر المعتدلون من قادة العرب - الذين لا يجدون سنداً من الحكومة ويخشون الاتهام بمساعدتها - إلى الوقوف فى صف المتطرفين . وبرر العنف العربى الذى أشعلته مناقشات مجلس العموم واللوردات ، بالتحيز للصهيونية من جانب الحكومة البريطانية ، وتدفق السلاح والمال إلى أيدى العرب من البلاد المجاورة ، وربما من دول تقع على مسافة بعيدة من المنطقة . ومن ثم كان من الممكن ادعاء أن الاضطرابات قد خطط لها فى الخارج ، رغم صعوبة إقامة الدليل على ذلك . ولم ينجح تعيين « لجنة ملكية » فى إيقاف ما أصبح يوصف بأنه « حرب صغيرة » ، وإن كانت قد نجحت فى تحذير الصهيونية ، التى خشيت أن تتجه توصيات اللجنة إلى اتجاه محدد ؛ ولذلك احتج الصهاينة وغيرهم من أهل الرأى على ما اعتبروه إذعاناً للعنف ، وهو تعبير خاص فى الشرق .

ويبدو أن البعض قد نسى أن هذا العنف العام قد جاء نتيجة فشل خمسة وفود أرسلت إلى لندن ، وست لجان تقرر إرسالها إلى فلسطين ولم يتم تنفيذ القرار . ولا يمكن القول إن العنف - فى هذه المرحلة - قد نجح فى إرسال « لجنة ملكية » ، وفى زيادة عدد واهتمام « لجنة العرب » بمجلس العموم . وقد اتفقت جميع الأطراف فى

لندن على ضرورة توقف العنف أو إيقافه قسراً ، قبل أن تتوجه اللجنة على الفور إلى فلسطين ، ومهما تكن النتائج التى سوف تتوصل إليها ، ودرجة تقبلها عند الحكومة والهيئة التشريعية ، هناك اعتبارات معينة تتعلق بطرفى القضية ، تبدو الآن متقبلة بصورة غير كاملة .

ويرتكز اعتراض العرب على شروط الانتداب فيما يلى :

(أ) أنه يتنافى مع حقوقهم الطبيعية فى بلادهم .

(ب) أنه يتعارض مع الوعود التى بذلتها بريطانيا للعرب .

(جـ) أنه ينتهك المبادئ العامة للانتداب كما نص عليها فى المادة ٢٢ من ميثاق العصبة .

(د) أنه متناقض مع نفسه .

(هـ) أنه يهدد ويعرض وجودهم للخطر فى الحاضر والمستقبل ، ويقف عقبة كأداء فى طريق تحقيق أمانيهم الوطنية وأهدافهم السياسية .

وقد نصح العرب بإسقاط (أ) ، (ب) ، والتركيز على النقاط الأخرى التى خولت « اللجنة الملكية » بحثها ، وفيما يتعلق بما جاء فى (ب) كانت فلسطين مستثناة من الوعود التى أعطيت للعرب قبل العمليات التى حررت قدراً كبيراً من الشعوب العربية . ولكن ظل الكثيرون يدعون خذلان بريطانيا للعرب وعدم وفائها بما قطعته على نفسها من عهود لهم ، وظل هذا الادعاء موضع اعتراض دائم من جانب بريطانيا . وبالنسبة للنقطة (أ) ليس هناك أفضل من الاستشهاد بما ذكره اللورد ملنر من أنه « إذا أصر العرب على اعتبار فلسطين واحدة من بلادهم مثلما يعتبر العراق والجزيرة العربية بلاداً عربية ، فهم عندئذ يحلقون أمام وجه الحقيقة التاريخية ، وفى وجه تقاليد التعاون بالغ الأهمية بين أكثر الهويات قداسة ، ففلسطين لا يمكن أن تكون عربية على قدم المساواة مع غيرها من البلاد العربية . فلا يمكن إغفال التاريخ والتقاليد فى هذه المسألة ، ولا يمكن إغفال حقيقة أن فلسطين كانت مهداً لدينين من أكبر أديان العالم ، إنها أرض مقدسة عند العرب ، وهى مقدسة أيضاً عند اليهود والمسيحيين » .

ويمجرد أن يسقط العرب من اعتبارهم فكرة الحق الطبيعى فى فلسطين ، وفكرة حنث بريطانيا بوعودها للعرب ، ويتم التركيز على المشاكل التى تحتاج إلى علاج ، سيحصل العرب على ما يرضيهم . ومهما يكن نوع الترضية التى يحصلون عليها ، فعليهم اللجوء إلى الكفاح السلمى والقانونى للحفاظ عليها أو تحسينها ، واضعين نصب أعينهم أن اللجوء للعنف سوف يفقدهم ذلك القدر من التعاطف الذى حصلوا عليه ، ويعرضهم للقمع بلا هوادة أو رحمة ، ويجب أن يعلموا - قبل ذلك كله - أنه لابد من أن يكون هناك نوع من التوازن عند الأفراد ، فيسلمون بوجود جانب يهودى أمام جانب عربى ، لا أن يلجأ البعض إلى « تقاليد الفروسية العربية »؛ فيقتلون عالمًا يهوديا وهو جالس إلى مكتبه ، أو يغتالون ممرضة يهودية على أعتاب المستشفى ، أو يلقون القنابل على دار لحضانة الأطفال . وينطبق المثل التركى القائل « تفسد السمكة من رأسها » على هذه الحالة ، ويبذل القادة العرب كل جهد لدعم ادعاءاتهم ، رغم أنهم لم يبذلوا أى جهد فى التهدئة أو إعلان إدانتهم لتلك الأعمال القذرة ، ويكتفون بالقول بأنهم لم يقوموا بتشجيعها . وسلوكهم هم وأتباعهم يزداد خسارة عندما يتناقض مع سلوك اليهود الذى جلب إليهم ضبط النفس أمام ظروف التعدى والعنف وتخريب الممتلكات ، فَعطفَ وإعجاب العالم المتحضر .

وإذا حقق العرب قدرًا معقولاً من النجاح فى إسقاط « الخطر الذى يهدد وجودهم فى الحاضر والمستقبل » من أذهانهم ، فقد يجدون أنفسهم فى وضع أقوى عند تقبلهم الانتـــداب ، ربما من خلال تعليمات جديدة محددة تصدق عليها الدولة المنتدبة والعصبة ، وتزكيها أى دولة من الدول التى تهتم اهتمامًا خاصًا بفلسطين ، وقبول العرب للانتداب سوف يمهد الطريق للتوسع فى الحكم الذاتى الإدارى والتشريعى الذى سأشير إليه لاحقًا ، والذى لا يمكن تحقيقه إذا ظلوا خارج إطاره . والسياسة التى دعوت إليها تتطلب مواجهة الحقائق التى قد تتضمن قدرًا من الاستنكار لا يمكن - فى رأيى - تفاديه ، ولكنها تعد مقبولة عند تحقيق منافع فورية ملموسة .

وتقدم الصهيونية حججًا موازية لما يقدمه العرب ، تتمثل فى النقطة (ب) فى « اتفاقية » ٣ يناير ١٩١٩ المبرمة بين الأمير فيصل والدكتور وايزمان ، والتى تتم الإشارة إليها من حين لآخر باعتبارها « قبول محدد لسياسة الوطن القومى » ، عندما

قام فيصل – بطل القضية العربية الذى يعترف به جميع العرب – بممارسة حقه فى أن يستبعد من مطالبه [٢١] قسماً من العالم العربى ، من أجل ما يرى فيه مصلحة بقية البلاد العربية ، ولكنه عندما فعل ذلك ، نفض يديه من تناول مسألة فلسطين بعد ذلك . كذلك تعد مذكرة فيصل – التى ترجمها لورانس للدكتور وايزمان ، وأعادت التايمز نشرها فى ١٠ يونيو ١٩٣٦ – دليلاً على وجود تعاون بين الشخصيتين البارزتين ، كما يوضح ذلك النص الذى كتبه لورانس بخط يده ، ولكن نظراً لأن فيصل ووايزمان لم يكونا مفوضين لتمثيل عرب فلسطين ، لم يكن ما جاء بهذه المذكرة ملزماً لهم بشىء.

ومازال الصهاينة على اختلاف مراتبهم فى الصحافة وفى ميدان العمل فى فلسطين يحسبون ألف حساب للمعارضة « المعوقة » المستمرة من جانب العرب ، وهم يشيرون إلى أن « معدل المواليد العرب فى ارتفاع ، بينما معدل وفيات الأطفال والوفيات عموماً بين العرب فى انخفاض ، وأن من بين ربع المليون صوت فى الصحة العامة يذهب تسعة أعشارها للعرب .. «إن مستوى معيشة العرب أخذ فى الارتفاع على غير ما كان متوقعاً .. إن العرب يكونون ثروات .. » ، وكذلك لا يمكن أن تكون المعارضة العربية ذات دوافع اقتصادية « إن دوافعها سياسية دون شك » .

ولم يكن الصهاينة على استعداد بعد للإقرار لأنفسهم ، وليس للعالم طبعاً ، أن عرب فلسطين – التى لا تزيد مساحتها على مساحة ويلز – عاشوا فيها مئات السنين ، ويعتبرونها وطنهم ، وأن الفلسطينى العربى لا يرى وجود مجال لإقامة وطن آخر مدخر « كحق » لستة عشر مليوناً من البشر . وتعد الصهيونية – من وجهة نظر اليهود – حركة مثالية ، وبالنسبة لسكان فلسطين ، تعتبر حركة مادية قومية استعمارية غير دينية . وكان الضغط دائماً على العرب « ليعملوا مع اليهود على تنمية وطنهم المشترك » يثير الاحتقان والتوتر دائماً ؛ لأن الرابطة التى جعلت من اليهود شركاء فى الوطن ، لا يعترف بها العرب أصلاً .

(٢١) « نظرا لطبيعتها الدولية ، سوف أترك أمر فلسطين جانبًا ليقرر وفق الاعتبارات المشتركة للأطراف المعنية ، وبهذا الاستثناء ، أطالب باستقلال المنطقة العربية المحددة بالمذكرة » .

إن الشعار الصهيونى القائل « لا هيمنة على أحد من جانبنا ، ولا نقبل هيمنة أحد علينا » الذى كان يبدو عند الإنجليز شعاراً معقولاً لم يكن يعنى إلا المساواة العددية ولا شىء غير ذلك ، وعندما كتب صحفى بريطانى (بريلزفورد فى صحيفة بالتيمور صن) مقالاً استشهد به كثيراً ، جاء فيه : « سياسيًا ، يبدو من الحكمة الإسراع فى إقامة الوطن القومى ، ولو تطلب الأمر اتباع أسلوب الصدمة ، فطالما يزيد عدد اليهود على مر السنين ، سيقاتل العرب دفاعًا عن مصيرهم ، ولكن عندما يصل تعداد اليهود إلى ٥٠ ٪ أو حتى ٤٠ ٪ بدلا من الـ ٢٨ ٪ الحالية ، سيحنى العرب رءوسهم أمام الحقائق . عندما يكون اليهود على درجة من القوة للدفاع عن أنفسهم ، فسوف تخرس الألسنة التى تطالب بقذفهم فى البحر . إن المشكلة الألمانية تدعم فكرة التعجيل بإقامة الوطن القومى . عندما يكتب مثل هذا الكلام ، ألا يشجع ذلك العرب على اتباع نفس النهج ؟

إن الحقيقة الخالصة ، التى يجب أن نواجهها بعد مرور عشرين عامًا على تصريح بالفور هى أن عرب فلسطين قد رفضوه منذ الوهلة الأولى ، ولن يقبلوا به الآن إلا إذا تم عمل شىء يطمئنهم على مصالحهم الاقتصادية وعلى أراضيهم ومستقبلهم الوطنى ، وهم فى ذلك أنفسهم من بين شعوب العالم الأكبر مساحة – بما فى ذلك شعوب الإمبراطورية البريطانية – التى لم تعد منذ وقت طويل تقبل بالهجرة الواسعة خاصة من شرق أوروبا . والاعتماد على المشاعر الدولية لن يجعل « للأفندية » ولا « للذهب الأجنبى » ضرورة ، رغم أنه من الطبيعى أن يتولى الزعماء العرب القيادة ، فليس معنى ذلك حصولهم على التأييد من أى قطاع . وباستبعاد شبح الأفندى المستغل اقتصاديا وسياسيا ، قديتولى تخفيف الدعاية الموظفون الإنجليز ، سواء بالحد من حماس المندوب السامى فى فلسطين ، أو الآراء الشريرة لخبراء وزارة المستعمرات التى يصبونها فى أذن الوزير [٢٢] . ومن يأتى إلى الساحة الفلسطينية لابد أن يتذكر

(٢٢) ظلت الأسطورة حية حتى فى عام ١٩٣٧ ، فقد ذكر الكولونيل ودجوود أمام اللجنة الملكية :
« اعتبر موظفو إدارة الانتداب الدائمون فلسطين عدوة لهم ، وأقاموا فى فلسطين إدارة من الموظفين الفاشيين المتعفنين الذين استبدلوا بمعارضتهم للبرلمان معارضتهم لليهود ، ولن يكون هناك تغيير إلا إذا تم إصلاح الإدارة إصلاحًا جذريًا » .

اللافتة التى توضع دائمًا فى المطعم اليابانى «على الضيوف مراعاة آداب السلوك ». وليس خفيًا أن الموظفين القائمين بالعمل ، يعانون على مر السنين متاعب التوفيق بين طرفى الانتداب ، قد يهتمون قليلاً بتقدم قضيتهم ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الأفراد فى الجانب الآخر من العالم [٢٣] .

من الممكن ألا يكون إلغاء الانتداب ، أو وقف الهجرة أو استمرارها على النحو الواسع الحالى ، أمرًا ممكنًا ، فاللجنة الملكية مسئولة عن تحديد الأساس الذى يرتكز عليه مجال الهجرة ، ولكنها قد تأخذ بالمبدأ القائل بارتباط الهجرة ١٠٠ ٪ بقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب عند الترخيص بالهجرة ، والاستيعاب لا يعنى الهضم . وهناك أسباب أخرى غير سياسية لتخفيض الهجرة ، ففى ربيع العام الماضى طرح المشتغلون بزراعة الحمضيات مطلب إعانة زراع البرتقال الذين يجدون صعوبة فى تسويق ٩,٥ مليون صندوق من البرتقال ، وترتعد فرائصهم عند التفكير فى زيادة الإنتاج إلى ما يتراوح بين ٢٠ – ٢٥ مليونًا من الصناديق خلال عشر سنوات .

وبصفة عامة ، رغم عظم فترة البناء ، فإن ما بعدها يشكل أزمة لصناعة البناء والمهن المرتبطة بها ، وسوف يعجز الحكم المحايد عن استيعاب تقدير الدكتور وايزمان أن باستطاعة فلسطين فى خمسين عامًا أن توفر أسباب العيش لما يتراوح بين ٥٠ و٦٠ ألف أسرة يهودية إضافية ، مع زيادة تعداد المزارعين العرب بنحو ١٠٠ ألف نسمة ، اعتمادًا على مصادر المياه المتاحة حاليًا ، وأن تلك الأعداد قابلة للزيادة الكبيرة إذا تم تحسين وزيادة موارد المياه .

ويبدو أن بالإمكان إقامة مجلس تشريعى على الأسس نفسها التى تم تجميدها عام ١٩٣٦ ، وألا يكرر الصهاينة والمساندون لهم خطأهم بمعارضة إقامة المجلس مرة أخرى . وكما كتب المستر إيمرى : « إن المضى قدمًا فى رفض الحكومة النيابية ما دام اليهود يمثلون الأقلية ، يعد سياسة مستحيلة الاستمرار » .

(٢٣) سجل فيليب جريفز – مراسل التايمز – فى ١٩٢٢ اتجاه الصهاينة إلى إرجاع ما يواجههم من صعاب إلى « عداء العرب » و « اعتراضات الكاثوليك » وفوق ذلك كله « عدم تحمس » أو عداء » الموظفين الإنجليز .

إن المعارضين المنطقيين والمتطرفين للصهيونية (أو المؤيدين للعرب ، إذ لا يمكن التمييز بينهما ، رغم أن البعض يرونهم كذلك) يدعون إلى ما يسمونه « الكنس النظيف » ، ويقصدون بذلك إلغاء الانتداب ، مع استمرار فلسطين تحت الحكم البريطانى ، ولا يقترحون حلا آخر . ويمكن أن تنال آراؤهم قدراً أكبر من الاحترام ، إذا استطاعوا تنظيم أنفسهم فى إطار تنظيمى معين ، وأبدوا استعدادهم لتخصيص بعض وقتهم لذلك ، يقدمون الرأى والدعم المادى لقضية فلسطين عربية كما هى يهودية . وإذا فعلوا ذلك كان باستطاعتهم أن يحركوا الدولة المنتدبة (بريطانيا العظمى) التى يتطلع الكثير من الدول إلى احتلال موقعها . فالانتداب لا يمكن زعزعته - فى رأيى - لأنه جاء بقرار من ٥٢ أمة جمعتها « عصبة الامم » ، التى - رغم عيوبها - تعد أقرب مدخل إلى الضمير العالمى المعنى بالاعتبارات الإنسانية . فسيظل الانتداب قائماً ، ولكن الحقائق التى أوردتها تشير إلى إمكانية تيسير تطبيقه ، دون اتخاذ إجراءات بطولية (وهو ما لم يستطع أحد حتى الآن اقتراحه) .

وتمت مناقشة اقتراح له مبرراته المنطقية ، كما أن له منافع تمت الاستفاضة فى شرحها ، هو تحويل فلسطين إلى كانتونات ، أو تقسيمها إلى قسمين : فيكون لليهود السهل الساحلى ، وللعرب التلال الداخلية ، ويكون لكل قسم منهما حكم ذاتى مع بعض التحفظات ، وتبقى سلطة المندوب السامى فى القدس ، وأن تتخذ طابع الحياد . ورغم أن الفكرة قد لا تبدو مقبولة إذا تم تناولها نقطة نقطة لتنافيها مع روح الانتداب ، ولأنها ستؤدى إلى قيام معسكرين يعادى كل منهما الآخر فى مساحة ضيقة من الأرض (ولعله كان الاعتراض الأقوى) ، كما أن التقسيم يتعارض مع المشاعر والتطلعات السياسية لكل من الطرفين ، فإن التقسيم يلمع وسط ضباب النقد المتبادل والمشاحنات ، وهو محاولة للتناول البناء لمشكلة بالغة الصعوبة ، كما أن التقسيم الاقتصادى - بغض النظر عن التقسيم السياسى والإدارى - فى حاجة إلى أن يوضع موضع الاعتبار . ويمكن أن أتظاهر بعدم الحاجة إلى ذلك العلاج الناجع ، كما إن بعض الملاحظات التالية قد تعد غير مهمة أو غير ضرورية. فإذا كان الأمر كذلك ، أود أن أوجه عناية أولئك الناقدين إلى أنهم يفرطون فى استخدام مصطلح « المستحيل » .

وعلى سبيل المثال ، اقترح أحدهم أن تتاح للشباب اليهودى من الجنسين فرصة التعرف المكثف على اللغة العربية حتى يتعاملوا مع جيرانهم العرب كأصدقاء ، ويستطيعوا قراءة الصحف العربية فى فلسطين والبلاد المحيطة بها ، ولكن عليهم أن يساهموا فى دراسة فلسطين فى العصور الوسطى والحديثة (وهى العصور التاريخية التى تعنى العرب) ، أو أن يهتموا بالدراسات السامية المقارنة . وأذكر أننى حضرت ذات مرة محاضرة ألقاها مستشرق يهودى كبير متخصص فى الأدب العربى ، وكانت القاعة مملوءة بالعرب المتطرفين الذين جاءوا تعبيراً عن إعجابهم بالمحاضر ، وعلى مدى ساعة لم يكن هناك سوى ثلاثة من اليهود غير الصهاينة ، وهو أقل عدد ممكن فى القدس .

كما أعتقد أن ثمة فرصة هبطت من السماء ممثلة فى وصية كادورى قد تم تفويتها ، كان كادورى يهوديا غنيا من شنغهاى ، ترك عند موته وصية بتخصيص ١٠٠٠٠٠ جنيه إسترلينى لخدمة التعليم فى فلسطين . واقترحت الحكومة إقامة كلية تتبعها منظومة من المدارس العامة لتعليم العرب واليهود ، مع مراعاة أن تكون هناك مناهج خاصة بالديانة واللغة لكل فريق على حدة ، ولم يبد العرب اعتراضاً ، ولكن اليهود أصروا على إقامة مدارس مستقلة لهم تستخدم العبرية لغة للتدريس . ولم يعترض العرب أيضاً على ذلك . وكانت حجة اليهود أنهم لم ينتظروا ألفى عام من أجل أن يكونوا شركاء فى مدارس عامة ، فتم تعديل نظام الكلية وفقا لذلك ، وبذلك ضاعت فرصة تنمية الصداقة بين جيل جديد من العرب واليهود يضمهما نظام تعليمى واحد .

وكان يمكن أداء خدمة عامة لفلسطين ، لو قامت عائلة أو عائلتان من اليهود البريطانيين البارزين ببناء بيوت حول القدس يقيمون فيها بضعة أشهر كل عام . ولو تم ذلك لاستطاع هؤلاء أن يصلوا ما بين إدارة الانتداب ومجتمع المدينة . لقد فعلت كل ما أستطيع من أجل تحقيق ذلك ، ولكن النتائج تكون أفضل دائمًا لو تم التواصل دون تدخل من الإدارة ، ودون دوافع سياسية .

لقد أعلن الصهاينة أكثر من مرة أنهم لا يريدون إقامة وطن قومى على حساب عرب فلسطين ، ولذلك كان من سوء الحظ أن ينظر العرب إلى كل خطوة تتخذها

حكومة صاحب الجلالة لطمأنتهم نظرة الشك والرفض . وقد عينت عصبة الأمم خبيراً في فض منازعات الأراضى عام ١٩٢٩ ليتولى تحديد المساحة الصالحة للزراعة والهجرة فى فلسطين ، وقدم تقريره عام ١٩٣١، فلم يقبل به اليهود ، ورغم أن الحكومة التزمت بتنفيذ توصياته ، فقد عجزت عن ذلك . وقد تم تضمين الخطوط العريضة لسياسة الحكومة فى « الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٠ » الذى جاء لتبديد المخاوف العربية ، وتم شجبه فى العالم اليهودى ، وربما كانت صياغته غير موفقة . وعلى كل ، أهملت الحكومة البريطانية الجهة المختصة ، وأخذت بتفسير رئيس الوزراء ، فكان ذلك انتصاراً للدكتور وايزمان ، غير أن نتيجته كانت تأكيداً أسوأ مما كان يدور فى أذهان العرب من مخاوف .

ورغم أن العرب كانوا عاجزين من عدة نواح ، فقد أتيح لهم قدر لا ينكر من التعويض ، أثار ضيق اليهود ، فقد كانت بأيديهم مساحات واسعة من الأرض لو أحسنوا استغلالها لوفرت سبل العيش للزيادة المتوقعة فى أعدادهم . ويجب أن يتذكروا أن مساحة الأرض التى كانت لهم عام ١٩٣٦ على حد تعبيرهم «أخر الزمن» ؛ فقد انتهى عهد الاستغلال الإقطاعى ، وإذا لم يكن باستطاعتهم استغلال أرضهم استغلالاً جيداً ، فإن باستطاعة غيرهم أن يفعل ذلك . وكان باستطاعة المجلس التشريعى مساعدتهم فى ضمان إنفاق كل قرش من إيرادات الأوقاف على إقامة تعليم مهنى يحظى بقدر ملحوظ من التوجيه الفنى الجيد ، وكان عليهم أن ينصرفوا عن الاهتمام بالصراع الدائر بين عائلتى الحسينى والنشاشيبى الذى يذكرنا بصراعات نبلاء العصور الوسطى .

سألنى منذ عدة سنوات أحد المندوبين الساميين الجدد إذا كانت لدىً اقتراحات إدارية معينة ، فاقترحت تعيين عرب ويهود فى المجلس التنفيذى . وقد نجح تطبيق ذلك فى قبرص ، حيث تم تعيين يونانيين اثنين وتركى واحد ، قدموا للإدارة آراء مهمة مفيدة ، وكانوا أهلاً للثقة التى منحت لهم .

إن أية نتائج تتوصل إليها « اللجنة الملكية » يجب أن تتضمن تخلصاً مزدوجاً من الوهم ؛ لأن الاستمرار فى الإبقاء على الانتداب يقضى على أى أمل وطنى عند

الفلسطينيين العـــرب ، بينما اليهود قد يشعرون بالتعرض للخطر لو تم الحد من الهجرة ، وكذلك الحرمان من تأثير إقامة أى مجلس تشريعى . إن أهم ما يتصل بمستقبل فلسطين هو أن تتبنى الحكومة البريطانية توصيات اللجنة ، وتوافق عليها عصبة الأمم ، وتعتمد تنفيذها على الفور . إن العرب واليهود لم يحرروا فلسطين من الحكم التركى ، ولكن البريطانيين هم الذين فعلوا ذلك ، كما يمكن تبين ذلك من الزيارة المأساوية للعديد من الجبانات العسكرية هناك ؛ لذلك يجب أن تستمر القوات البريطانية فى حماية فلسطين من كل الأخطار الخارجية ، والحاجة إلى الحكم المباشر التى طُلبت من السلطات الفلسطينية بإلحاح ، توجد فى كل مكان على الجبهة الفلسطينية .

فى يونيو ١٩٢١ قلت فى يومياتى :

« مر الاحتفال بعيد ميلاد الملك دون وقوع حوادث ، فيما عدا ما سببه تصريح المندوب السامى من توتر فى المعسكر الصهيونى ، ولأنه افتقر إلى التحديد الدقيق ، قوبل ببرود تام من جانب العرب ، الذين تلقوا الكثير من التطمينات ، ولكن الحاجة ماسة إلى بضاعة من نوع خاص » .

ترى .. كم تصريحًا صدر منذئذ ؟ وماذا حققت تلك التصريحات من المكاسب ؟ هذه الموضوعات ، وغيرها من الموضوعات المثيرة للجدل ، من الطبيعى أن تعالجها « التقارير السنوية » مثل تلك التى كان يعدها اللورد كرومر فى مصر (التى كان نشرها يمثل حدثًا مهما فى بريطانيا وأوروبا ومصر) ، وليس مثل تقارير مستعمرات التاج البالغة الحيدة ، حتى تتوافق مع التساؤلات التى تدور فى « عصبة الأمم » بجنيف . ولا ريب أن الانتداب سيظل محتفظًا بالثقة الثابتة دون خوف أو تردد إذا ثبت على شكل واحد من أشكال الممارسة ، بدلاً من تقديم الشروح ، والشـــروح المضادة ، والتأكيدات وإعادة التأكيد مرة أخرى ، (فكلمة «سياسة » تطيح بها أحيانًا الوعود وأنصاف الوعود والوعد المزدوج بالوطن القومى) .

ويجب على الصهاينة أن يمتنعوا عن إعطاء انطباع بأنهم يؤيدون المندوب السامى طالما كان يستجيب دائمًا لمطالبهم . ومن ناحية أخرى ، هناك اتجاه ظالم فى إدارة فلسطين وفى بريطانيا لتوجيه اللوم إلى اليهود باعتبارهم المسئولين عن عرقلة تقدم الانتداب فى فلسطين . ورغم أن بعض الأفراد الصهاينة قد بدوا أكثر تعرضًا للعرب من كونهم مقدرين لجهود بريطانيا ، يرون أن من حق الصهيونية أن تبنى على الانتداب ما تراه ضروريًا لها ، وأن البريطانيين أنفسهم يتحملون المسئولية التامة عن أى سلبيات تتضمنها سياستهم فى فلسطين ، والذين قدموا شكرهم أكثر من مرة لنتائج الخضوع للمنظمة الصهيونية .

وعندما تحرص حكومة صاحب الجلالة على ألا يكون هناك طرف خاسر ، واضعة نصب عينها الاعتبارات جميعًا ، وعلى سبيل المثال ، عندما وضع تصميم طوابع البريد الفلسطينية الأولى ، تعرضت الإدارة لضغوط من جانب الصهيونية ليستبدل بكلمة « فلسطين » بالعبرية كلمة « أرض إسرائيل » – وهو الاسم التقليدى القديم لتلك البلاد – وحرص اليهود على عدم استخدام مصطلح « فلسطين » فى أى مناسبة باعتباره مصطلحًا رومانيًا وليس عبرانيًا . وربما تحمس لذلك بعض الموظفين ، ولكن الإدارة كانت حريصة على عدم التورط فيما يمس مصالح الأغلبية السكانية من الفلسطينيين ، وانتهى الأمر بحل لا يضر بالفريقين ، ولكنه لا يرضى أحدًا ، وهو إضافة الحرفين الأولين من كلمة « أرض إسرائيل » بالعبرية إلى جانب كلمة « فلسطين » بالعبرية .

إننا لا نستطيع أن ننظر إلى ما هو أبعد من مسافة معينة ؛ لأن « أحدًا لا يستطيع أن يضمن شيئًا ضمانًا مطلقًا » . وقد يستطيع العرب أن يحققوا درجة بارزة من التقدم الحضارى ، ونوعًا من المركز المتميز بفضل ارتكانهم إلى أسلوب الخصومة الشريفة ، وذلك بدون الصهيونية . فقد تمت إقامة « الوطن القومى » لليهود على أسس ثابتة دون شك ، وأصبحت أعداد اليهود تزيد على تعداد الشعب القبرصى ، فإذا فارق الدين الحياة (كما يعتقد البعض) ، أو إذا قامت جماعة من أبناء الشمال بتحويل الأماكن المقدسة إلى آثار قديمة ، عندئذ تصبح فلسطين بلدا يمكن حكمه بسهولة تامة ، فهناك ثلاثة أديان كبرى ، وفرق عديدة متفرعة منها ، تنظر بفخر واعتزاز إلى

المعارك التى خاضتها ، حفاظًا على ما لها من مكان مقدس فى فلسطين . وإذا كان لذلك الزمان أن يأتى ، فلابد من أن يكون ذلك بعد عدة أجيال ، وحتى إذا اختفت مكة والمدينة ، فستظل القدس تحمل قدراً من التسامح المعقول فى زيارة الأماكن المقدسة : قبة الصخرة ، وكنيسة القبر المقدس ، وحائط المبكى . وسوف يستمر ذلك التسامح مستمداً من الفهم المتعاطف الذى لم يعد قادراً على ذلك مع الخوف من أن تؤدى التنازلات إلى عدوان فريق على حقوق غيره .

وتعد الصهيونية خارجة عن إطار عملية الاستعمار التقليدى باعتبارها حركة ذات طابع دينى ؛ لدرجة أن « النزاهة » تعد عند الصهاينة معادية للصهيونية ، فمن ليس معنا عدو لنا ، ومن يقف على الحياد ، يغد ذا وجهين . وقد يبرر موقفهم بكونه من المنطقى « ألا تصنع العجة دون كسرالبيض » ومقولة : « حتى تقوم بعمل صحيح يجب أن تقع فى قليل من الخطأ » . فإذا ذهب البعض إلى تأكيد أن العرب لهم الحق فى تحقيق ما يصبون إليه من أمل ، فماذا يتبقى للصهيونية من نصيب فى فلسطين ؟ [٢٤] وما لا يسهل تبريره افتراض أن أى نقد للوسائل الصهيونية - حتى لو كان بسيطًا - يعد معاديًا للصهيونية ، بل يعد معاديًا للسامية أيضاً [٢٥] ، لمثل هذه الانتقادات يجب أن نتذكر أن هناك الكثير من الأصدقاء الطيبين للصهيونية ، كما أن هناك الكثير من اليهود الذين يرون أن تصريح بالفور لا يمكن أن تقوم بريطانيا أو غيرها من الدول المنتدبة بتطبيقه ؛ لأن مكوناته هدامة ومتنافرة ، وأن أية رغبة فى عدم الاعتراف بذلك ، ستولد مشاكل أخرى لاضرورة لها . وباختصار ، ما لم يكن هناك استعداد لرؤية تاريخ العودة الأولى يتكرر (عندما كان الطرد خارج البلاد مصير كل مجموعة من السكان) لما كان باستطاعتنا تأييد الصهيونية . ولكنى لا أوافق على هذا

(٢٤) كان المفتى يقف على أرض صلبة ، عندما ذكر أمام « اللجنة الملكية » : « ليس لنا أى نصيب من السلطة ، وليس لنا دور فى إدارة شئون البلاد . كما أننا لسنا ممثلين فى الحكومة » .

(٢٥) جاء فى خطاب لبالفور فى اجتماع يهودى بقاعة ألبرت فى يوليو ١٩٢٠ : « لا ضرر فى تباين الآراء حول الصهيونية ، ولكن إذا بلغت تلك الخلافات حد الإصرار على عدم تحقيق هدفها تصبح بالغة الخطورة ، ولكن يجب أن يتم تحقيقها بالطريقة المناسبة لها . انتبهوا للخطر ، ولست على يقين من أن أشد المخاطر سوف تواجهكم فى المستقبل » .

الرأى ؛ لأن حقيقة تأييدنا للصهيونية قائمة ، ويجب أن نستمر فى دعمها بإصرار ، ولكن باعتدال ، ومراعاة للعدل .

لم يكن أى من الأعمال الكبرى سهلا ، ولم يتم تنفيذه دون الغوص فى أعماق النفس . ورغم أننى تعرضت - ربما أقل مما تعرض له غيرى - لبعض الفظاظة من جانب الصهاينة ، لم أفهم لماذا عجزت عقول أوروبا عن أن تفهم أن الصهيونية من المفاهيم الأصلية المتميزة فى التاريخ ، رغم ما يكتنفها من صعاب ، وما تقع فيه من أخطاء .

لقد ختمت كلمة ألقيتها فى لندن فى ربيع ١٩٢١ - بعد الحملة الأولى وقبل الحملة الثانية التى تعرضت لها من جانب الصحافة اليهودية العالمية - أعلنت فيها عن يقينى الذى لا أرى ما يمنع من تكراره هنا بعد مرور ١٥ عامًا من بينها ما شهده عاما ١٩٢٩ و١٩٣٦ :

« لقد ذكرت بعض متاعب الحياة فى فلسطين ، ولكن يجب ألا تظنوا أو تجهلوا أننا نشعر بالاعتزاز والشرف لأننا نخدم هناك ، ففى القدس تلتقى منذ قرون عديدة المصالح العليا للأديان الثلاثة الكبرى فى العالم ، ومن القدس صدح وسط المحن ولحظات التحول صوت الأورج الذى يحمل هبة الرب ، وأخذ بمجامع قلوب البشر . ولا أبالغ إذا قلت إن الشرق هو الجامعة التى لا يستطيع فيها الدارس أن ينال درجته العلمية ويمضى فى طريق الحياة ، ولكنى يمكن أن أقول إن ما حدث من قبل ، يمكن أن يحدث مرة أخرى ، وأننا إذا نجحنا فى تحقيق الهدف - الموكل إلينا بإرادة شعوب العالم - بالعدل ، وإذا نجحنا فى تحقيق التضامن بين زعماء وأتباع الديانات الثلاث ، فسوف يتردد مرة أخرى صوت صهيون تعبيراً عن التئام جراح الشعوب . وإذا لم يتحقق ذلك الإنجاز على يد بريطانيا وحدها ، فلتكن شريكة فى تحقيقه » .

* * *

حاشية (٧ أغسطس ١٩٣٧)

بدأت كتابة هذا الفصل (الخامس عشر) قبل وقوع اضطرابات ١٩٣٦ ، وفرغت من كتابته قبل توجه « اللجنة الملكية » إلى فلسطين ، مع بعض الهوامش التى أضيفت عام ١٩٣٧ ، وقد فضلت أن أتركه كما هو . وأنا على يقين أن الحقائق والأفكار والاقتراحات الواردة به ، ربما كانت غير بعيدة عن الرأى العام ، فمادام « تقرير اللجنة » ليس متاحا . والفارق الوحيد فى المجال الذى يتصل بمدى اتسام الانتداب بالطابع العملى فيما بين ١٩٣١ - عندما غادرت فلسطين - و ١٩٣٧ لا يرجع إلى الاضطرابات (التى كان يمكن حدوثها قبل ذلك) ، ولا لتعيين اللجنة وما قدمته من تحليل تاريخى ، بقدر ما يرجع إلى توصياتها المروعة بدرجة كبيرة . ورغم أن توقعات الحكومة والرأى العام كانت محدودة ، فقد قاما بتلقى تلك التوصيات بقدر كبير من « الخفة » ، وبدا الطرفان (العرب واليهود) مستعصيين تماماً على إمكانية التوصل إلى وفاق بينهما ، والقائمون بالعمل فى فلسطين أصبحوا عاجزين ، وانفرد المتخصصون الذين تمت استشارتهم بالذكاء والفطنة .

ولكن يستطيع المراقب الخارجى الذى شاهد مناقشات ١٩٣٦ أن يجد ثمة تغييراً فى النبرة فى ١٩٣٧ ، فالصعوبات التى قام عليها البرهان لمنع وقوع أعمال عنف وامتهان مرة أخرى ، قد بينت أخيراً أن هناك « قضية عربية » ، وأصبح هناك فاصل بين مواقع الطرفين (ممثلاً فى اللجنة الإسبانية لمنع التدخل) . وفيما يتعلق بكيفية وطريقة تنفيذ « المشروع » الذى قبلته الحكومة بذلك القرار ، والذى ترعاه العصبة . فقد احتفظ الثلاثة لأنفسهم بالحد الأقصى : « البحث عن الأبوة محرم » (أى عدم القبول بانفراد طرف واحد بالأمر) .

هناك يهود وعرب وبريطانيون عملوا لسنوات فى فلسطين قبل أن تقضى فيها اللجنة شهوراً ، ليس على صعيد العلاقة الرسمية مع الأطراف المتشددة فى أوقات التوتر فحسب ، بل على صعيد الاتصال اليومى بالفلسطينيين بلغاتهم ، يتساءلون عما إذا كان الانتداب مستحيل التطبيق ؟ وكيف تبرر المقدمات اقتراح إعادة النظر فى الانتداب؟ ألا يتطلب الاحتفاظ بالانتداب على فلسطين تضافر القوى والإمكانات المادية ؟

لقد ذاق اليهود مرارة التخلص السريع من الأوهام : حلم « الدولة اليهودية » ، و« الوطن القومى » الذى حصر نطاقه بعد استئصال شرق الأردن ، والآن تحصر مساحته فى كانتون محدود . ورغم هذا الانكماش ، فلا صهيونية بغير صهيون « العام القادم فى القدس » ! وتدفق الذهب على أناس تضاعفت ثرواتهم عشرة أضعاف ، اندفعوا إلى ما بقى من « أرض إسرائيل » مثل مواقع التكنات العسكرية والجمارك والحجر الصحى لإتاحة الهجرة أمام يهود العالم ، وازدحمت المناطق الصناعية بالسكان الذين عاشوا فى مناطق عشوائية . وقد يرد العرب على ذلك بأنه مهما تكن المساحة التى يحشر فيها ملايين اليهود المضطهدين محدودة ، فهى قطعة من بلادنا ، فلماذا علينا أن نفقدها ؟

إنه من الواجب ، بل من غير المطلوب إغراق فلسطين بالهجرة التى تحقق أغلبية يهودية ، فقد يشعر الفلسطينيون العرب من الأجيال الشابة ، وربما الجيل الأكبر من الأذكياء أن من مصلحتهم الارتباط بإمبراطورية كبرى تعد من أهم القوى الباقية على الساحة الدولية . وقد يتضح لقادة اليهود أنه ليس من مصلحتهم وضع العقبات فى طريق تلك التأكيدات ، ويقبلون بالتطور البطىء لفلسطين تجاه الحكم الذاتى ، وربما استطاعوا أن يحققوا الأغلبية ، ولكن فى جيوب إدارية .

غير أن من يحب الأراضى المقدسة لذاتها ، والذى يقلقه تمزقها بين الموروث الثقافى والثورة العارمة ، يجب أن يتأكد أنه قبل فرض أى « حل » لابد من بذل جهود مضنية للتوصل إلى تسوية من خلال التفاوض الحر . ورغم أن العرب واليهود قد أسكرتهم خمر « الاستقلال التام » ، فإنهم بعد كل تلك التطورات والتجارب قد تلقنوا درسًا مفاده غباء اتباع خطة « الصدمات » ، سواء عن طريق الهجرة أو المقاومة . ويذهب البعض إلى أن شبح التقسيم يجعل كل طرف منهما يحكم العقل فى تصرفاته . ولكن مادام العرب يصرون على الوقف الكامل للهجرة ، ومادام اليهود يسعون لتحقيق أغلبية سكانية فى فلسطين ، ويرفضون أن يخطوا الخطوة الأولى تجاه الاتفاق على تسوية ، فلا أمل فى جمع الطرفين معًا فى كيان ترعاه أمريكا أو العصبة . ولا يبقى على الطرفين سوى مواجهة التقسيم ، وهو كره لهما .

الفصل السادس عشر

حكومة الانتداب فى فلسطين

(أول يوليو ١٩٢٠)

قام الحاكم العام بتسليم الإدارة رسميا إلى المندوب السامى بعدالظهر ، وأعد إيصالاً مكتوبًا على الآلة الكاتبة ليوقعه المندوب السامى على سبيل المزاح ، جاء فيه : « تسلمت عدد واحد فلسطين بحالة جيدة » قام السير هربرت صامويل بتوقيعه ، واصطف رجال الإدارة لتحية الحاكم العام عند رحيله مُودعين له ، حيث اتجهت سيارته عبر البوابة هابطة التل لآخر مرة ، وانتهت بذلك « إدارة أراضى العدو المحتلة » ، رغم بقاء كل رجالها فى العمل فى الإدارة المدنية الجديدة ، وإن كانوا مازالوا يرتدون الزى العسكرى ، ويمارسون نفس الأعمال ويجلسون إلى نفس المكاتب ، وهكذا بدأت منذ الأول من يوليو « الحكومة المدنية » التى كان لى شرف المساعدة فى إقامتها على أمل استمرارها فى إدارة فلسطين .

ولم أعمل بجد ومثابرة واستمتاع تام مثلما عملت قائمًا بأعمال السكرتير العام للحكومة خلال يوليو وأغسطس وسبتمبر ، ولكن باعتبارنا حكومة مدنية ، كان ينقصنا (بين الكثير من الأشياء الأخرى) أمران ضروريان ، فلم يكن هناك اعتماد لتعيين موظفين مدنيين ، كما لم يكن هناك نظام قانونى يحل محل السلطة العسكرية ، وكانت الميزانية التى تغطى السنة المالية التى بدأت فى أول أبريل ، لا تزال محل بحث فى وزارة المستعمرات منذ شهور . ولم يعد باستطاعة الموظفين سداد إيجار مساكنهم وما اتصل بنفقات إقامتهم ، ورغم أننا كنا نميل إلى تشجيع القطاع الخاص ، كان من الصعب إلغاء المقاصف العسكرية فورًا ، وإلا نعرض العائلات التى حددت نفقات معيشتها وفق أسعار البيع بالمقاصف لشراء ما يحتاجون إليه من سلع من السوق بالأسعار العالية .

ولم يتصد السير هربرت صامويل لهذه المشاكل وحدها ، بل ولمئات غيرها بسهولة وسرعة اجتذبت إعجابنا ، رغم أنه كان جديدًا على الشرق ، وكانت كل خبرته بالعمل بالوزارة بلندن ، وكان صبره وحكمته من بين خصائله الفريدة ، ولا أذكر أننى سمعت طوال السنوات الخمس التى قضاها فى فلسطين بحدوث حالة واحدة احتد فيها على أحد أو خانه فيها التوفيق فى تقدير الأمور ، رغم وجود ما يبرر ذلك . ويعود هذا

الهدوء الرزين الذى اتسم به إلى قدرته على إخفاء مشاعره حلوها ومرها على السواء ، ومن عرفوه جيداً يدركون تمتعه بهذه القدرة الفلسفية .

وبحكم موقعى كحاكم عسكرى للقدس ، استمر فى الخدمة مع رابع حاكم عام لفلسطين ، كنت معروفا عند الناس بطريقة تسبب لى الحرج أحيانا ، وكنت أدرك تماماً حساسية هذا المركز . ولكن السير هربرت صامويل لم يشعرنى أبداً أننى قد جاوزت قدرى . ولم يتوان عن مساندتى فى السراء والضراء فى المواقف التى تعد أرقى شأنًا من مستوى منصبى . ولم أعمل يومًا مع رئيس له مثل هذا الإقبال على العمل منذ عملت مع السير الدون جورست (بمصر) ، وأحيانًا كنت أحس بما يعانيه من القيود الروتينية التى تعوق قدراته البناءة .

وكنت أتمنى دائمًا أن أكون مفيداً له ، كما أستفيد من خبرته ، ولكن من الصعب أن يتابع المرء ما يقدمه الرجل من إنجازات من إبداعه ، ويمارس الإدارة فى الوقت نفسه، فكان كمن يصنع دراجة ويركبها فى الوقت نفسه ، وكان العمل معه متعة جعلتنى لا أندم على فقدانى الاستقلال بأمور وظيفتى .

وفى أول خطاب تلقيته من السير هربرت صامويل كتب يقول : « إنك تعرف سياستى المتعلقة بالسكان غير اليهود ، فيجب ألا يعاملوا بالعدل التام والاعتبار الكامل لمصالحهم فيما يتعلق بإقامة الوطن القومى لليهود فحسب ، بل يجب العمل بكل السبل للنهوض بمستوى معيشتهم » .

ولا أذكر أنه قد تغاضى مرة واحدة عن تنفيذ هذا المبدأ ، حتى غلاة العرب الذين نظروا إلى ديانة المندوب السامى وليس إلى شخصيته ، ما لبثوا أن وصفوه بأنه « شريف النفس » . وفى رأيى أن تعيينه مندوبًا ساميًا كان « ضربة معلم » من جانب لويد چورچ ، أكدته النتائج التى ترتبت على هذا التعيين ، ولكن الطاقة الكبيرة التى تمتع بها ، والإخلاص فى العمل المقترن بالخبرة ، والقدرة على قراءة واستيعاب المذكرات المرفوعة إليه من مختلف الإدارات كل ذلك قد يثير إعجاب الناس ، ولكنه يسبب الضيق للإدارة . إضافة إلى ذلك ، لا أظن أن مندوبًا ساميًا ممن جاءوا بعده كانت له قدرته على تحمل هجوم الرأى العام اليهودى ضده لخمس سنوات متصلة .

وكان من مزايا تعيين وزير فى وظيفة المندوب السامى - كان عضواً بمجلس الوزراء لسبع سنوات وبالحكومة لأحد عشر عاماً - ما كان له من تأثير إيجابى واضح . وقد أبرق السير هربرت صامويل إلى وزارة المالية طالبًا الموافقة على الميزانية التى طال بحثها عندهم حتى يتسنى لحكومة فلسطين تعيين ما تحتاج إليه من الموظفين . وعندما لم يتلق ردًا ، أصدر أمرًا بالعمل بالميزانية ، وكانت تلك صفعة للمالية لا يستطيع أقوى حكام المستعمرات أن يقدم عليها ، وكانت هذه الخطوة ضرورية لأن حكومة فلسطين كانت تتلقى من القيادة العامة للجيش برقيات تطالبها بتسريح الضباط العاملين لديها الذين لا يحتاج العمل إلى استبقائهم . وزادت حالة القلق بين الضباط العاملين فى الإدارة الذين كانوا لا يعرفون مصيرهم .

وكان وضعى أكثر حساسية وأقل صعوبة ، فلم أكن قد استشرت عند إعداد الميزانية ، أو فى توزيع الوحدات الإدارية ، كما لم تتم استشارة أحد بالقيادة العامة منذ شتاء ١٩١٨ - ١٩١٩ ، وأُجبرت فجأة على مواجهة تلك المشاكل ، ولم يكن باستطاعتى التوصية باستبقاء ضباط فى الخدمة لا أعرف عنهم شيئًا عند رئيس يعتمد تمامًا على خبرتى ومعرفتى بالأمور ، كما كان على ألا أحتفظ بالعاملين معى جميعًا رغم حسن أدائهم لعملهم حتى لا تتجاوز نسبتهم نسبة غيرهم ممن يستمرون فى العمل بالإدارات الأخرى . وأرى أننى كنت عادلاً وناجحًا فى نفس الوقت ، وفى كل الأحوال لم يرفض المندوب السامى أيا من اقتراحاتى ، وكان من بين هؤلاء اثنان هما : هارى تشارلز ليوك (الذى أصبح - بعد ذلك - مساعداً لحاكم مالطا) ، وچورچ ستيوارت سايمس (الذى أصبح حاكمًا عاما للسودان) ، وكانت هناك استقالة واحدة لم يوافق عليها الرئيس الصهيونى قبل وصول السير هربرت صامويل فتم سحبها ، وقد اقترحت على السير صامويل قبولها .

كان من الصعب العثور على وظائف بعد الحرب ، وكان هناك تنافس شديد من أجل التوظف . وقد جاءنى ضابط شاب تزوج حديثا يبكى راجيًا ألا يكون موقفى منه فى إحدى المناسبات موضع الاعتبار عند تحديد مصيره . وبدا لى هذا الموقف غريبًا؛ لأن الرجل كان قادرًا على أداء ما يسند إليه من عمل ، مجداً فى عمله ، وما كنت

لأتذكر موقفًا كذلك الذى أزعجه ، فقمت بطمأنته ، وتم تثبيته فى موقعه فى الأمسية نفسها.

ولم يكن السير هربرت صامويل ، وكذلك أنا ، بحاجة إلى أن نشعر بالخجل من ممارساتنا للمحسوبية ، فذات مساء سألنى عما إذا كان لدى اعتراض على تعيين ابنه إدوين ، وكان قد ترك عمله مع اللجنة الصهيونية انطباعًا طيبًا ، فأبديت على الفور استعدادى لتعيينه فى إدارة حاكم القدس . وعندما صدر قرار التعيين ، قلت للسير هربرت صامويل : « سيدى إن لى ابن خال هو آرتشركست » ، وكان قد أظهر كفاءة مثل إدوين ، فوافق السير هربرت صامويل على تعيينه سكرتيراً خاصا له . وفى الحقيقة كان ذلك التعيين مجاملة لكل منا ، وكانت الوظيفة الدائمة تعنى الكثير عندى ، فبعد ١٦ عاما قضيتها فى الخدمة لم تكن لى أى حقوق ، ولكن فى أول يوليو ١٩٢٠ وقد بلغت الأربعين ، أصبحت مؤهلاً للحصول على معاش .

لقد ذكرت أكثر من مرة أن هذا الكتاب ليس تاريخًا رسميا ، رغم أنه يشرح أو يقدم أحيانًا تاريخًا رسميا ، ولذلك يجب أن أوجه عناية أولئك المهتمين بالتقرير المبدئى الذى أصدره المندوب السامى عن عامه الأول فى فلسطين إلى الفصل الذى يتضمن ما تم إنجازه فى الأشهر الثلاثة الأولى ، وقد تحمس السير هربرت صامويل للأمور التى كانت تعنى الكثير عندى ، والتى حاربت كثيرًا من أجل تحقيقها قبل وصوله .

وجاء صدور لائحته الأولى (التى نسميها فى النظام الديمقراطى بالقانون) ليؤكد سلطتى القانونية التى امتدت لتوسع مجال صلاحياتى التوفيقية على جميع أنحاء المنطقة الخاضعة لإدارتى ، ووضع القواعد التى يجب أن يتم تخطيط المدن على أساسها ، وقرار حماية الآثار ووضع ضوابط للتعامل معها . وقد وجد اقتراحى بشأن فرض ضريبة قدرها جنيه واحد على كل سائح تخصص لحماية الآثار اقتراحًا غير عملى لاعتراض شركات الملاحة عليه ، الذين قالوا إن هذا المبلغ قد يمثل الفرق فى التكلفة الذى يجعل الحاج يفكر فى العدول عن السفر . ولكن السير هربرت صامويل الذى كان حريصًا على الحفاظ على الجمال التاريخى للقدس ، وكان من مشجعى « جمعية أنصار القدس » اتخذ قرار « جنيه مقابل جنيه » الذى يعطى الجمعية منحة تعادل مثل ما تجمعه من تبرعات سنويا بحد أقصى ألف جنيه يبلغ ألفين من الجنيهات .

ونظم السير صامويل دخول المهاجرين إلى فلسطين ،.ومنع استخدام الأعلام فى المسيرات الطائفية ، وقام بتحديث قانون الملكية العثمانى وقوانين الرهن العقارى ، ووضع التصرفات فى الأراضى تحت رقابة الحكومة . وحظر تجارة المخدرات ، ونظم الشرطة (ولكن تنظيم الشرطة مسألة ترتبط دائمًا بالرجال أكثر من ارتباطها بالإجراءات) . وأصدر عفوًا عن الألمان ، وعين مجلسًا استشاريًا مختلطًا ، ونشر مواعيد انعقاده ، وأنشأ الجمعيات التعاونية ، ولجان الموازين والمكاييل ، والبنوك العقارية ، وقام بإلغاء الرقابة على الصحافة العربية والعبرية .

وبصفتى حاكمًا عسكريًا للقدس وقائمًا بأعمال الحاكم العام لفلسطين ، قمت - منذ البداية - بحظر إنشاء الحانات فى القدس ، رغم أن بيع الخمور كان مباحًا للاستهلاك الشخصى ، أو فى المطاعم والفنادق حسب الرغبة ، وقام السير هربرت صامويل بمد قرار حظر إنشاء الحانات ليشمل فلسطين كلها . كذلك منعت خلال سنواتى التسع كحاكم للقدس مراقص الفنادق والملاهى (الكباريهات) داخل أسوار المدينة القديمة (كان أكبر فندقين يقعان على مسافة مائة متر من كنيسة القبر المقدس) ، وذكرت أصحاب الفنادق المحتجين بأنهم معفون من الضرائب لكونهم من سكان القدس القديمة ، وقد استمر هذا المنع قائما بعد تركى للمنصب حفاظًا على جلال الأماكن المقدسة .

وحوالى نهاية سبتمبر ، أقعدتنى الملاريا الخبيثة عن العمل ، وكادت تخرجنى من عداد الأحياء ، وعندما عدت للعمل ساعات قليلة يوميا ، مهما كلفنى ذلك من جهد ، حرصت على أن أبدو قادرًا على تصريف الأمور كعادتى ، وذهبت إلى إنجلترا لمتابعة العلاج حيث أقام أعيان المسلمين والمسيحيين حفل شاى لوداعى ، حضره العمدة السابق وبطريرك الروم الأرثوذكس ، وبطريرك الأرمن ، وممثلون للكنائس الأخرى ، وألقيت كلمات ودية عبر فيها أصحابها عن تمنياتهم لى بالشفاء . وأتمنى ألا يسبب ذلك الحفل موقفًا معينًا من اليهود تجاهى .

حظيت بنظام علاجى ، وأتيح لى قضاء أول عيد للميلاد بإنجلترا منذ عام ١٩٠٣ ، واستكملت علاجى حتى تم الشفاء ، وبعد ذلك بسنوات ، اكتشف أحد كتبة

وزارة المستعمرات أنه رغم صدور أمر لى بالسفر إلى إنجلترا للعلاج ، لا يوجد بملف خدمتى ورقة رسمية تشير إلى ذلك ، ولذلك رغم الإيضاحات والاحتجاجات التى أرسلتها حكومة فلسطين حرمت رسميا من حقى فى الإجازة المرضية ، وقال لى لويد چورچ : « لا تقلق عندما يحدث أمر كهذا ، فليست المسئولية تقع على عاتق الوزير ، ولكنه دائما تصرف موظف صغير فى قاع الأرشيف » .

* * *

الحكومة فى القدس
(١٩٢٠ - ١٩٢٦)

مـــاذا كـانت حـال القـدس التى تولى حكمـهـا ذلك الرجل المتـزن ، الموهوب ، اليهودى ، الوزير ، وهو فى الخمسين من عمره ، بدلا من مقعد وثير برئاسة الوزراء فى ١٠ داوننج ستريت بلندن ، حيث يكون أقصى ما يتعرض له احتجاجات الصهيونية الشهيرة ، والوفد العربى ، واحتجاجات التيمس ؛ لأنه لم يتم اتخاذ إجراء من جانب حكومة القدس ، وإنما حكم ذلك الرجل القدس من مقعده فى جبل الزيتون فى خضم جو من التوتر والاضطراب ؟

كانت المدينة ذات الجاذبية الخاصة ، قد تخلصت من الأحوال البدائية التى وجدناها عليها ، ولكن ليس بالسرعة الكافية ؛ لأن هناك سياحًا تقتصر حساسيتهم على أنوفهم وليس فى عيونهم أو قلوبهم أو عقولهم . ومن الناحية الرسمية ورثنا وضعًا غير ملائم لإقامة مؤسسات الإدارة التى أغفلها العثمانيون تمامًا ، فلم نجد شيئًا سوى الثكنات العسكرية فى القلعة ، مما اضطرنا إلى استخدام بيـوت الضيافــة الخاصـة « المؤسسات الدينية الخاصة بالروم الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس » مقارًّ للوحدات الإدارية . وقد سمحت لنا تلك المؤسسات بذلك بتكلفة عالية تمثلت فى القيمة الإيجارية المرتفعة لأماكن كانت ظروف الحرب تحول دون استخدامها . وسكن

الموظفون فى « المستعمرة الألمانية » ، وهى مجموعة من الفيلات المبنية جيدا تقع وراء محطة السكة الحديد وتخص الألمان الذين تم ترحيلهم .

وكانت إدارة الحكومة فى الأصل تشغل أيضا « ميس الضباط » وأماكن إعاشتهم ، وعندما تركتها استوعبت تدريجيا إدارات الحكومة المختلفة حتى خريف عام ١٩٢٥ ، عندما ترك اللورد بلامر المكتب الذى كان يشغله السير هربرت صامويل على جبل الزيتون ، واتخذ من الغرفة التى تقع فوق غرفة مكتبى مقرًا له .

وكان من بين الموظفين التابعين لى فلسطينيون من المسلمين والمسيحيين وكذلك يهود ، إلى جانب الموظفين الإنجليز ، وقد عملوا معنا بصورة ممتازة ، كما تعاونوا جميعًا معى بإخلاص ، وأذكرهم جميعًا بكل مشاعر الود والامتنان ، لقد بدأنا أيام الإدارة العسكرية بالقدس وبيت لحم والرملة وأريحا (متصرفية القدس فى العهد العثمانى) ، ثم امتدت حدودنا لتضم السامرة ، وبإضافة الخليل وغزة وبئر السبع وأخيرًا يافا وجدنا أنفسنا عام ١٩٢٢ مسئولين عن إدارة جنوب فلسطين ، كان العاملون معى لا يلتقون ببعضهم البعض إلا أربعة أيام فى الأسبوع ؛ لأن الجمعة والسبت والأحد كانت أيام الراحة الأسبوعية للمسلمين واليهود والمسيحيين على التوالى ، وكان هذا النظام ملائمًا لمصالح الجمهور ؛ لأن المكاتب كانت على هذا النحو مفتوحة طوال أيام الأسبوع .

وأتاح « توزيع الاختصاصات » الذى تم عام ١٩٢١ ، بعض المجالات التى لا تغيب عن بال حاكم المستعمرة ، فأصبح من واجب مساعد الحاكم – إضافة إلى متابعة عمل موظفى الإدارة ، والتنظيم والشئون السياسية – معالجة الشئون الدينية [١] والاجتماعات العامة ، والآثار ، بينما كان من واجب المفتشين إضافة إلى أعمالهم العادية ، محلات المواد الغذائية ، والقضاء العرفى البدوى ، والأحكام العسكرية ،

(١) كان تغيير الديانة يسبب المرارة ، ويلحق المتاعب بكل من يقدم عليه أكثر مما عليه الحال فى أوروبا . وقمنا بتطبيق القانون العثمانى الذى لا يسمح بتغيير ديانة من يقل عمره عن ٢٠ عاما دون موافقة والديه أو ولى أمره ، وفى حالة الخلاف حول سن المتقدم يتولى الحاكم العام البت فى الأمر ، وهى إجراءات تطلب إجراء مقابلات عديدة مضنية .

وتسجيل حالات الزواج والطلاق ، وإعانات اللاجئين ، والمحكمة الخاصة بالمنتفعين ، والمراســلات العبرية ، والتموين ، وتقدير الإيجارات ، وتخطيط المدن ، وتراخيص البناء . وقد شهدت فترة التعمير – وخاصة في يهوذا – زيادة كبيرة في حجم العمل ، فكنت أتنقل من اجتماع إلى اجتماع ، ومن لجنة إلى أخرى .

وكان الجهــاز الإدارى كله يعبأ لمواجهــة احتفالات عيـد الفصـح اليهـودى وعيد القيامة ، وعيد النبى موسى ، وكأننا فى مواجهة حملة أو حالة حصار . ولم يكن هناك بد من وجود ضابط أو اثنين فى نوبة الليل التى تمتد حتى الصباح ، ولا يصرح لأى موظف أو كاتب بمغادرة مكان العمل إلا بموافقة رئيس الكتبـة (الباشكاتب) ، ولا يستطيع الأخير مغادرة المكتب إلا بموافقة مساعد الحاكم أو الحاكم نفسه . ويظل سائقو سيارات الحكومة فى حالة استعداد دائم ، كما تظل بدالة الهاتف تعمل طوال الليل ، وكذلك الحال بالنسبة لمكتب البريد ، فقد كنا دائمًا فى حاجة إلى تركيز جهودنا لمواجهة أى طارئ حتى تمر الاحتفالات بسلام .

وكان عيدا الفصح والقيامة يأتيان أحيانًا مرتين فى العام الميلادى الواحد (وأحيانًا ثلاث مرات فى بعض مراحل التقويم الأرمنى) ، وكان حائط المبكى من أسباب قلقنا الدائم . وبعد عام ١٩١٩ ، كانت مهمة الإدارة العمل على عدم تعرض المكان للتدنيس ، والتمسك بقانون الأراضى القائم ، ولم يكن من السهل تحديد ما يراه ذلك القانون ، وخاصة فيما يتعلق بادعاء اليهود أن لهم الحق فى إحضار مقاعد وأرائك عند القيام بالصلاة هناك . وقد حصلت من السلطات الإسلامية على حكم بأنه لم يسمح لهم أبدًا بإحضار شيء من ذلك فى ظل الحكم العثمانى . غير أن اليهود كانوا يحضـرون مقاعد (قابلة للطى) بصفة شخصية وفردية ، وفق ترتيب خاص مع المغاربة الذين يقيمون فى البيوت المجاورة ، ولكن الحكومة العثمانية – فى حدود الأدلة المتوافرة لدينا – لم تتنازل مطلقا عن موقفها . ولذلك قمنا على الفور بإبلاغ الحاخامات والشرطة بمنع إحضار المقاعد وغيرها .

وكان وجه اعتراض المسلمين (الذى أراه لا يتسق مع المنطق أو حتى الإنسانية) أن وضع الأرائك على الرصيف المجاور للحائط سوف يعوق حركة المغاربة سكان

البيوت المجاورة ، ويمنعهم من دخولها إذا بقيت تلك الآرائك هناك بصفة دائمة ، وكان الموقف من هذه المسألة يتعلق بالمبدأ القائل بأن تغيير ما جرى العرف عليه بحجة « الحق » سوف يؤدى إلى تداعى « التقاليد » جميعها ، فقد كانوا يخشون أن تتحول المقاعد إلى أرائك خشبية ، ثم إلى أخرى حديدية ثم إلى أرائك حجرية ، مع وضع ما يقى من الشمس والمطر فوق الحائط (وهو مطلوب إنسانيا) ، ثم تفاجأ الأوقاف الإسلامية ذات يوم بالبيوت التابعة لها وقد سدت السبل إليها بالمنشآت التى يقيمها اليهود .

هذا الشك المبالغ فيه كان لقرون عديدة وراء الاضطرابات الدائمة التى وقعت بين المسيحيين فى كنيسة القبر المقدس ، حيث كان الخلاف ينشب دائماً بين أتباع الكنائس المختلفة الذين يجمعهم دين واحد . ولم تزد من تعقيداتهم الوعود التى قدمها تصريح بالفور ، كما هو الحال بالنسبة لليهود .

وتمت إثارة مسألة الأرائك مرة أخرى فى أبريل ١٩٢٢ ، فأثارت احتجاج مدير عام الأوقاف ، كما أثارت احتجاجاً قوياً من جانب « اللجنة الصهيونية » ومجلس يهود القدس . وفى الخامس من مايو قام القائم بأعمال حاكم القدس بإبلاغ مجلس يهود القدس أنه لن يسمح بوضع أرائك أمام حائط المبكى ما لم يتم التوصل إلى تسوية لهذا الموضوع ، وتم إصدار تعليمات بهذا المعنى إلى الشرطة . وقد اتبع مبدأ الإبقاء « على الوضع الراهن » بالنسبة لهذه المسألة ، كما هو الحال بالنسبة لغيرها من المسائل التى تهم مختلف الأطراف المعنية فى القدس .

وكانت آخر مناسبة أثيرت فيها هذه المسألة فى احتفال « عيد الغفران » عام ١٩٢٥ عندما أحضر اليهود المقاعد والأرائك بأعداد أثارت احتجاج المسلمين لدى الشرطة ، التى أحالت الأمر إلى التعليمات الصادرة من مكتب حاكم القدس التى يعرفها جيداً كل من « اللجنة الصهيونية » والحاخامات ومجلس يهود القدس . وعندما علمت بالأمر ، أرسلت ضابطاً إلى حائط المبكى ، وزودته بتعليمات مفادها أن يظل المصلون اليهود جالسين فى مواقعهم دون إزعاج ، ولكن لا يسمح بإحضار المزيد من المقاعد .

وفى اليوم التالى تلقيت احتجاجًا من المفتى ومن اللجنة الصهيونية ، ولم تكن هناك شكوى من الطريقة التى مارست بها الشرطة واجباتها ، ولكن كان هناك إصرار على ضرورة إنذار اليهود بأن القانون سوف يطبق قبل موعد الاحتفال حتى لا يتعرض المصلون للإزعاج وهم يمارسون طقوس عبادتهم .

وكان ردى على ذلك أنه لم تكن هناك شكوى فى العامين السابقين ، طالما كانت أعداد المقاعد التى يتم جلبها محدوداً ، وأن المساس بالأوضاع الراهنة فى كنيسة القبر المقدس ، كان يواجه دائمًا بالتدخل حتى فى أيام الاحتفالات الدينية حتى لا يؤدى السكوت عليها إلى إرساء نوع من السوابق ، وأن ذلك يتم منذ عهد بعيد ، تجنبًا لإثارة المشاعر ، ووقوع حوادث عنف عند المساس بما استقر العرف على اتباعه من قبل .

وفى تلك الأيام ، كان لا يزال هناك حلان ممكنان للمشكلة : أولهما وأفضلهما ، أن تصل السلطات الإسلامية واليهودية إلى تسوية مشتركة دون تدخل من جانب الحكومة أو اللجنة الصهيونية . وثانيهما ، أن يتولى المسلمون بأنفسهم إقامة أرائك من الحجر (على نفقة جماعة أنصار القدس) لتكون ملكا لهم ، يتولون صيانتها بأنفسهم ، وبذلك يلبون مطالب اليهود الطبيعية والمنطقية ، وفى الوقت نفسه يحافظون على حقوق الملكية الخاصة بهم . وقد قدر السير هربرت صامويل - ومن قبله اللورد اللنبى - الجهود التى بذلتها فى هذا الصدد .

ومع إزالة القيود المفروضة على أسعار المواد الغذائية والإيجارات منذ سنوات ، وإنقاص المساحة الخاضعة لحاكم القدس عام ١٩٢٧ لتعود إلى ما كانت عليه عام ١٩١٧ ، وتولى السكرتارية العامة للمندوب السامى الأمور ذات الطبيعة السياسية وغيرها مما كان يدخل فى اختصاص حاكم القدس ، تقلصت السلطة الأبوية لحاكم القدس على الأطراف المعنية إلى حد كبير ، ولكنها كانت لا تزال ملزمة .

قليل من زوار القدس - وليس من المقيمين فيها - يوقنون أن فلسطين عامة ، والقدس خاصة يجب أن تدرس من خلال الطوائف الدينية المختلفة ، كما تدرس من خلال الأفراد . وقد طبق نظام « الملة » منذ عهد الرومان فى الشرق الأدنى ، وأخذ به الأتراك

ليريحوا أنفسهم من عناء التدخل في أطر قانونية معقدة ، وليبقوا على ما يتصل بالنظام الطائفي من أسباب الفرقة . وللنظام فوائده بالنسبة للحكومة والرعايا على حد سواء ، ولكن رغم ذلك كانت تحدث عملية مزج إداري وصناعي واجتماعي ساعدت الصهيونية على تقويتها . وإذا كان الفرد يقدم لك في حفل عام بلندن باسمه ولا يذكر ديانته ، فإنه يقدم في القدس باسمه متبوعاً بالطائفة التي ينتمي إليها : أرثوذكسي ، كاثوليكي ، بروتستانتي ، ويلاحظ أن مسلمي وكاثوليك ويهود القدس أكثر طوائف العالم حساسية تجاه المظالم التي يتعرض لها ممثلوهم ، حتى إن القرار أو الإجراء الذي يبدو عادلاً بالنسبة للبروتستانت أو الأرمن إذا طبق على المسلمين والكاثوليك واليهود يلقى التعليق - وربما رد الفعل - في القاهرة وروما ولندن ونيويورك .

وفي أوائل ١٩١٨ ، كتبت إلى مارك سايكس : « أن قسوة مشاعر الحقد الموروث عن العصور الوسطى ، تتضاعف عشرات المرات في القدس مع كل يوم عمل ، ولكنني أعتقد أن كل هذه الملل والنحل والطوائف رغم أنها تتبادل الكراهية مع بعضها البعض تجمعهم في أمور الحياة العادية صداقة ومودة ومجاملات تستحق أن نوليها اهتمامنا . فتضامن الطائفة الظاهري لا يعكس بالطبع الاتساق الداخلي بين المنتمين إليها » .

كان المسلمون هم أكبر وأهم طائفة في فلسطين ، وهم - على نقيض الطائفتين الأخريين - لا ينقسمون إلى فصائل مذهبية ، ولكن يتنازع رئاستهم عائلتان هما : الحسيني والنشاشيبي . وكانت عائلة الخالدي التي تنتسب إلى خالد بن الوليد - وتعد الأقدم - أقل من من هاتين العائلتين قوة ، إلا إنها كانت قادرة على التأثير في الانتخابات البلدية . وكلما بعدنا عن القدس ، قل عدد العائلات الكبرى مثل عائلة عبد الهادي في السامرة ، وعائلة بيضون في عكا ، وهم رغم تميزهم في أقاليمهم يؤيدون هذا الطرف أو ذاك (من العائلتين المتنافستين في القدس) .

وفي مواجهة الصهيونية ، يمكن القول إن عائلة الحسيني كان تمثل المؤسسة الدينية والقومية العربية المتطرفة ، بينما كان آل النشاشيبي يمثلون السلطة ويحاولون الاستفادة من أخطاء الغير ، وكانت عائلة الحسيني مدينة للسلطات البريطانية أكثر من غيرها ، فقد أبقت السلطات البريطانية كامل الحسيني (المفتي المعين من قبل

الأتراك) فى منصبه ، وعينت موسى الحسينى عمدة للقدس (ومنحتهما الأوسمة) ، وتعد مسئولة مسئولية مباشرة عن تعيين الحاج أمين الحسينى خلفًا لكامل الحسينى ، فى عهد « إدارة أراضى العدو المحتلة » كنت على صلة وثيقة وحميمة بكامل أفندى ، حتى أثرت فيه السياسات التى تبدو جذابة رغم أنها تفتقر إلى المنطق ، ولا تقدم قدرًا كافيًا من العون ، غير أنه كان يتمسك بالأخلاق الإسلامية السمحة ، وبعد وفاته بستة عشر عامًا كتب إلىَّ اللورد وليم بيرس مذكرًا إياى بأنه « عند عودة الفرسان من الصلت ، هاجم بعض الرجال بيت المفتى وسرقوا منه أشياء معينة ، فاشتد غضب أللنبى ، وأصر على ضرورة قيام المفتى بتقديم عريضة ضد الفيلق . وقد تجاهل المفتى رجائى له أن يتقدم بالعريضة عدة مرات ، حتى اضطررت إلى أن أرسل له أمرًا كتابيا بهذا المعنى باسم القائد العام للقوات البريطانية . وجاء رده فى فقرة واحدة ، قال فيها : إن الخسارة التى حاقت بى لا تساوى شيئًا مقارنة بالعطف الذى حظيت به من سعادتكم ، وأعتبر ما فعله الجنود أمرًا وقع من أطفال فى بيت والدهم» . تحية لذكرى ذلك الرجل الكبير .

وكان العمدة موسى كاظم باشا الحسينى له وقار وهيبة ومقدرة الحاكم العثمانى التقليدى ، ولكن التوازن اختل عندما تولى المنصب راغب بك النشاشيبى ، ولمدة ١٢ عامًا ، رغم كونه - بلا ريب - أكفأ عرب فلسطين . وكانت لديه موهبة القدرة على التصور ، وسرعة الاستيعاب والعمل ، ولم يكن قدريا ، يؤمن بحرية الحركة بين أبناء دينه ، وكانت قدرته على التخطيط تفوق الوصف وتتجاوز قدرات جميع منافسيه ، وكان موقفه مع أعضاء المجلس البلدى كالعزف على آلة مفردة فى مواجهة فرقة موسيقية تعزف لحنًا متناغمًا . وبصفة عامة ، كان موقفه من تحديد إيجارات المساكن وضريبة الشرفية (إصلاح المساكن) موقف من تقمصته روح الشرق . وعندما أجريت أول انتخابات بلدية بعد رحيلى من فلسطين فاز راغب بك بالمنصب ، ولكنه عجز عن الاحتفاظ به فى الانتخابات التالية .

كان منافسه الرئيسى الحاج أمين الحسينى مفتى القدس ورئيس « المجلس الإسلامى الأعلى » (الذى أنشأه السير هربرت صامويل) رغم أنه يقل عنه شخصية وقدرة ، وكذلك يقل عنه رغبة فى التعاون مع الحكومة ، استطاع أن يترك انطباعًا جيدًا

عند الفلاحين والزوار المتعاطفين سياسيا مع المسلمين ، ولكن هذا الانطباع ما لبث أن تبخر .

إنني سعيد بحصولي على شرف التعاون الوثيق مع الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية في فلسطين لمدة تسع سنوات ، وهي تذكرني بالخدمات الجليلة التي قدمتها للدين والمعرفة ، وبالتنوع العجيب في جماعات الرهبنة التابعة لها ، كما تذكرني بسوء التفاهم البسيط الذي كان يقع بيني وبينهم من حين لآخر . وقد علمت أن الكنيسة الكاثوليكية قدمت شكوى ضدي ، لأنني لا أحضر قداس الأعياد عندهم على حين لا أتخلف عن قداس الأرثوذكس والأرمن ، وكان ردي أنني لا أتأخر عن حضور مناسبة أدعى إليها ، وقد حرص الأرثوذكس والأرمن على دعوتي ، ولكني لم أتلق دعوة من الكاثوليك ، وعندما وجه الفرنسسكان الدعوة ذات مرة ، لم أتوان عن تلبيتها .

وقد ربطتني الصداقة ببعض الأخوان الفرنسسكان ، وهم يحبون المسلمين باعتبارهم يتسمون بالنبل والشجاعة ، أما اليهود فهم – عندهم – ينتمون إلى كوكب آخر ، ولا يتوانى الفرنسسكان عن إطلاق نيرانهم على الكنيسة والبطريركية الأرثوذكسية التي تحتل معظم الأماكن المقدسة ، والتي يناصبونها العداء باستمرار .

أما الدومنيكان فكانوا يمثلون الأرستقراطية المثقفة للمسيحيين الفلسطينيين ؛ يتفوقون في الدراسات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) ، والدراسات الآشورية ، والاستشراق ، ويتسمون بالذكاء ورقة الحاشية ، كما يترفعون عن التورط في الصراعات الطائفية ، فكان أولئك الرجال الفرنسيون هم الملجأ الذي ألوذ به لأغترف من علمهم .

وكنت على صلة وثيقة بالأعمال الخيرية التي تقوم بها جماعات الرهبنة المختلفة ، وقدرت جهودهم التي تبعث على الإعجاب ، فقد تعلم المئات من الصبية الفقراء الحرف والزراعة على يد الساليين الطيبين ، كما تعلم المئات من البنات اليتامى ما يساعدهن على شق طريقهن في الحياة بفضل راهبات سانت فنسان دي بول .

وعلى عكس اللاتين الكاثوليك في فلسطين ، لم تحظ كنيسة الروم الأرثوذكس بحماية دولية أو تعاون من جانب بعض الدول ، ولكن الدعوة التي تبناها الروم

الأرثوذكس العـرب لإقامة كنيسة فلسطينية أرثوذكسية مستقلة عن الكنيسة اليونانية ، تستـخدم اللغـة العربيـة فى صلواتهـا ، جرت الكثـير من التـداخـلات من جـانب رجـال الكهنوت اليونانيين وسلطات الحكومة اليونانية ، وكثيراً ما تلقيت تلك الاحتجاجات من القنصل اليـونانى بالقـدس وكـبار رجـال الكهنوت ، وقـد ترتب على ذلك عـدم إقـبـال المسيحيين العرب على الكنيسة فـيما عدا التعميد والزواج والجنازات ، أما الخدمة الدينية العادية فلا يقبل عليها أحد ، وبدأ بعض الشباب العربى الأرثوذكسى يتجه إلى الكنائس البروتستانتية خاصة الكنيسة الإنجيلية .

كـانت كنيسـة الروم الأرثوذكس فى القـدس تحتـفظ بعـدد من المدارس وبكليـة أكليركية لتخريج رجال الكهنوت (كلية الصليب المقدس) حتى قيام الحرب العظمى . ولكن الحرب ألحقت الضرر بهذه الكنيسة لعدة سنوات ، فمنذ عام ١٩١٤ توقف الروس عن تقديم الدعم المادى لها (وكانت روسيا هى الدولة الوحيدة التى تساندها) ولم يكن هناك حـجاج ، وكان مستـأجرو العقارات التابعة لها يعـجزون عن سـداد الإيجارات . بينما قام الأرثوذكس الرومان بالانسلاخ عن بقية الأرثوذكس بفضل جهود دميانوس الرومانى الذى حصل من ملك رومانيا على دعم مالى كبير ، مكنه من الاستفادة من أزمـة الكنيسـة الأرثوذكسـية التى أوشكت على الإفـلاس ، حتى استطاع أن يصبح بطريرك الروم الأرثوذكس .

ورغم ترحيب الدير القبطى بى ، والفـرصـة التى أتيـحت لى للحـديث باللهـجة المصرية العربية ، لا أظن أن الرهبـان الأقبـاط كان لهـم أى اهتمـام بالسياسة ، ولا يستحقون اعتبارهم ممثلين للكنيسة القبطية . لقد كان البطريرك القبطى فى القاهرة الذى تجاوز المائة من عمـره مشـغولاً بمقـاومـة دعاة الإصـلاح ، ولم يكن لديه وقت للاهتمام بالقدس أو التفكير فى إرسال مطران أو مندوب بطريركى ليرعى شئون الدير ومصالح الأقباط بالقدس . وخاصة أن الفرنسسكان كانوا ينازعونه كنيسة صغيرة أقيمت فى القرن الخامس عشر داخل كنيسة القبر المقدس ، ويتخذون من الدير طريقًا للمرور إلى الكنيسة ، مما جعل القنصل المصرى فى القدس ، ورجال الدير الأقباط يقدمون الاحتجاجات إلى بصفتى الحاكم العسكرى للقدس ، وهى احتجاجات كتبت بلهجة خلت من الدبلوماسية . ومن ناحية أخرى كان الفرنسسكان يصرون على أن

يكون لهم حق المرور إلى كنيستهم الصغيرة دون أن يعترض طريقهم الأقباط ، واستمر الطرفان يتنازعان ودخل القنصل الفرنسي طرفًا في دعم دعاوى الفرنسسكان .

ومن قبيل التقسيم المعقد للحقوق والواجبات بين مختلف الكنائس المسيحية في الأماكن المقدسة ، كان هناك الكثير مما يجب عمله للتوفيق بين أولئك الذين لم يتخلصوا من ضعف النفس البشرية . وعلى سبيل المثال ، أدى الإسراف في تنظيف النجمة الفضية (التي تشير إلى موقع ولادة المسيح) في كنيسة المهد ببيت لحم ، إلى سقوط أحد المسامير التي تحمل النجمة ، وتلقيت طلبًا رسميا من القنصل الفرنسي (في ٨ مايو ١٩٢٠) - باعتباره المتحدث الرسمي باسم الكاثوليك - يطالب فيه بتسهيل مهمة الكاثوليك في تثبيت النجمة الفضية . وليس ثمة ما يثير الحزن ويتناقض مع روح المسيح مما جاء في التقرير الذي أعده المفتش العربي المساعد بعد حادث في كنيسة المهد ببيت لحم ، نصه كالتالي :

الموضوع : تنظيف كنيسة المهد

وقعت بعض الاحتجاجات البسيطة ، ولكن تم العدول عنها غير أنني أسجل ما حدث هنا على سبيل التقرير :

(١) يقوم الروم الأرثوذكس بفتح نوافذ الكنيسة المطلة على الجبهة القبلية في وقت التنظيف فقط .

(٢) يضع الروم الأرثوذكس سلمًا على أرضية الكنيسة الأرمنية بغرض تنظيف الجزء العلوي من هذه الكنيسة فوق الأفريز .

(٣) يحتفظ الأرمن بحق تنظيف الوجه الشمالي من العمود المثبت عليه محراب الروم الأرثوذكس ، وذلك حتى الأفريز فقط .

(٤) تم الاتفاق بين جميع الأطراف على ما يلي :

(أ) أن يقوم الروم الأرثوذكس بإسدال ستارتهم بإحكام إلى أسفل المسمار رقم ٢ عند قاعدة العمود الذى يقع جنوب شرق يسار الدرج المؤدى إلى المزود .

(ب) يسدل اللاتين الكاثوليك ستارتهم بشكل طبيعى أسفل نفس العمود مع ترك مسافة ١٦ سم بينها وبين ستارة الروم الأرثوذكس .

(جـ) يترك المسمار رقم (١) خاليًا فيجب ألا تستخدمه أى من الطوائف .

(هـ) عندما تريد الحكومة تنظيف الكنيسة فإن الحكومة هى التى تحدد طريقة عمل ذلك .

(د) هذه الترتيبات المذكورة أعلاه عرضة للتغيير فى حالة ظهور أيّة وثيقة رسمية قبل حلول موعد التنظيف فى العام القادم ، قد تعطى حقوقًا معينة لإحدى الطوائف دون غيرها .

ولم تكن الطائفة الإنجيلية « وثانقيا » تفوق غيرها من الطوائف إلا عند الاحتفال بعيد ميلاد الملك وعيد الهدنة ، فتتولى قيادة القداس فى المناسبتين ، وكان الكثيرون لا يفضلون الذهاب إلى الكنيسة لأن الكهنة لا يولونهم أهمية خاصة .

وبعد قضاء نحو الثلاثين عامًا فى الشرق الأدنى والأوسط ، أعتقد أن التعليم والتدريب وحدهما – وليس إهدار طاقة أفراد الطوائف فى صراعات حول أمور غير مجدية – هو السبيل الوحيد للنهوض بالكنائس الشرقية وتقويتها ، فلا شيء يؤثر على المشاعر الوطنية للعربى أو القبطى أو الأرمنى مثلما يحدث له عندما يتحول إلى البروتستانتية ، فهو يحرص دائمًا على ألا يفقد احترام طائفته أو يتمرد على المؤسسة الدينية التى انتمى إليها أجداده .

وحتى الإنجليز ، لم يكونوا – أحيانًا – أكثر ليبرالية وفهما من الطوائف التى نعتبرها أكثر ميلاً إلى التشدد . لقد ذكرت من قبل العمل الممتاز الذى قامت به « جمعية إغاثة سوريا وفلسطين » ، ولم أستطع إقناع الجمعية بأن تضم إلى لجنتها أعضاء من الكاثوليك والروم الأرثوذكس والمسلمين إلا بعد جهد جهيد ،

وعندما استجابوا لدعوتى ، فعلوا ذلك على مضض ، وكأنهم أرادوا إعطاء التسامح فرصة مؤقتة .

ومن المذاهب الصغرى التى كانت موجودة بالقدس إرسالية المورمون ، كما كانت هناك « المستعمرة الأمريكية » ، ولما كان معظم أعضاء الإرسالية من السويد والنرويج ، فإن اسم الإرسالية لم يكن موضع اهتمام القنصلية الأمريكية ، ولعل جنسية رئيسهم الألمانية قد ألقت عليها الكثير من الضوء عند وجود الألمان بفلسطين ، وذلك رغم أن الإنجليزية كانت اللغة الشائعة بين الأعضاء . وكانت المستعمرة عبارة عن نسخة بدائية من المسيحية بلا كنيسة خاصة ، وقيل إنهم جاءوا إلى فلسطين بهدف الانخراط فى الأعمال الخيرية ، ولكنهم نجحوا فى تحسين دخولهم ، وإن كانوا فى الحقيقة قد نجحوا فى الأمرين معًا ، وهم يديرون « محلات المستعمرة الأمريكية » التى تقدم أحسن مجموعة من الصور للقدس والأراضى المقدسة ، كما تقدم خدمة إعداد الوجبات وتيسير الإقامة للحجاج بصورة جعلتهم فى هذا العمل ينافسون اليهود والأرمن ، كذلك كانوا ينتجون ويبيعون المنتجات التذكارية لزوار الأراضى المقدسة ، واستثمروا الأرباح التى حققوها من وراء هذه الأعمال فى المشروعات الخيرية العديدة التى عادت بالنفع على السكان العرب من المسلمين والمسيحيين على السواء . ولست أدرى متى يتذكر الإنجليز النصائح القيمة التى تلقيتها منهم فى أيامنا الأولى بفلسطين التى لم نكن نعرف عنها شيئًا .

ولا يتسع الوقت والمكان أمامى لأقدم وصفًا لأهم الكنائس المعروفة بكنيسة القبر المقدس ، وكنيسة المهد ، ولكنى لا أريد أن أختتم الحديث عن القدس والمسيحية دون أن أشير إلى الكنائس الأقل شهرة مثل « سرب هاجوب » الكاتدرائية الأرمنية ، ودير سانت جيمس الممتد فوق جبل صهيون من القلعة حتى الطرف الجنوبى الغربى من أسوار المدينة ، وهو يحتل أهم موقع ، ويعد أهم الأديرة التى حظيت بالعناية التامة والرعاية بين أديرة القدس القديمة .

لقد نظرت إلى الطائفة الأرمنية بمزيج من التحمس والإعجاب . كان بطريركهم أورمانيان سربازان قد نفى على يد الترك الذين عقدوا العزم على نقل نفائس سانت

جيمس إلى دمشق « لتكون بمأمن من الوقوع فى يد الحلفاء » . ولم يستطع أحد الاعتراض على ذلك ، فتم شحن تلك النفائس فى صناديق ضخمة - حملها معه الجيش التركى عند انسحابه من القدس ، بما فى ذلك مخزون الفحم فى الدير ، وبذلك وقعت الطائفة فى شرك الإفلاس والاستدانة . وكان الأرمن أقل تطرفًا من غيرهم فى صراعاتهم الطائفية ، كما كانوا أكثر تسامحًا ؛ لأنهم لقوا من الاضطهاد ما يفوق ما لقيه اليهود .

ومنذ وقوع الثورة الروسية أصبح وضع الأرمن الكاثوليك فى الدولة السوفيتية بالغ الصعوبة ، وكان بطريرك القدس يعد أعلى رئيس دينى فى الكنيسة الأرمنية . وكان الأرمن فى فلسطين مجدين نشيطين فى الصناعة والتجارة ، ويمثلون عنصراً فعالاً بين السكان ، وكان مستوى النظافة فى الدير الخاص بهم يتفوق على غيرهم من الروم الكاثوليك ، وكذلك على المؤسسات الإنجيلية والبروتستانتية ، وفى كاتدرائية سانت جيمس انعكست عظمة وبؤس شعب قديم لتقدم نموذجًا أخاذًا من الجمال البديع ، وقد حرصت على أن أزور الكاتدرائية قبل السفر بالإجازة السنوية ، وأن تكون أول مكان أزوره بعد عودتى من الإجازة . وحرصت على أن أمكث بها ساعة كاملة مستمتعا بجمالها الأخاذ قبل رحيلى عن فلسطين بصفة نهائية .

الفصل السابع عشر

مجتمع القدس

(١٩١٧ - ١٩٢٦)

يعد يهود فلسطين نموذجًا مصغرًا من يهود العالم ، ولا ينقصهم إلا عنصر واحد : هو «المليونيرات » ، الذين كانوا ممثلين ، ولكن لا يقيمون بفلسطين إقامة فعلية ، وكان اليهود الذين بقوا بفلسطين عند نهاية عام ١٩١٧ هم المتدينون الطاعنون فى السن ، وكانوا عنصرًا شجيًا ، يشتهر الكثير منهم بالعلم والرقة ، وجميعهم يعيشون على حافة الجوع ، وتدين الطائفة اليهودية فى فلسطين ، وكذلك محرروهم (الإنجليز) ، بالفضل المنسى أبدًا ، لرجال البنوك الهولنديين الإشكنازيم الذين نجوا من نهب الترك لانتسابهم إلى دولة محايدة .

كان سيجفريد هوفيان طويل القامة ، أبيض البشرة ، تبدو على محياه سمات اللامبالاة ، ولكنه كان يتقن الإنجليزية ويتمتع بقدرات مالية وتنظيمية جيدة ، لعب لعدة أسابيع دور قائد الطائفة ومترجمها ، وكنت أراه يوميا تقريبا ، ويعود إليه الفضل فى وضع مواد الإغاثة اليهودية فى موضعها الصحيح ، كما ذكرنى لإرساله إلى مصر لإحضار « المازوث » الخبز غير المخمر [1] ، فى الوقت المناسب قبل حلول عيد الفصح اليهودى ، وقد حضرت تلك الوليمة الدرامية فى بيوت بعض الأصدقاء اليهود دون أن أحسب مغزى طقوس تلك الوليمة . وكان هوفيان صهيونيًا مخلصًا ، وقد ذكر لى على مائدة الفصح أن الصهيونية سوف تسود فلسطين إلى الأبد ، وإنه سيظل صهيونيًا حتى ولو لم يبق يهودى واحد فى فلسطين . ورغم هذا الحماس الشديد ، سمح له أن يتحول إلى مصرفى يهودى بارز ، بمجرد قدوم « اللجنة الصهيونية » ، وبذلك انسحب من الحياة العامة بصورة غامضة .

ولم يحتج أحد من اليهود إلى مساعدتنا مثلما كان الحال بالنسبة للحاخام أمينوف وأتباعه من يهود بخارى ، وكانوا أثرياء يرتدون قفاطين من الحرير البخارى ،

(١) لما كان يهود القدس ويافا (بما فى ذلك تل أبيب) يقدرون بنحو ٤٠ ألف نسمة ؛ فقد كانت هناك حاجة إلى ٦٠ ألف رطل من الخبز المازوث (أى نحو ١٨٠ طنًا) وإنتاجها يحتاج الى ٢٠٠ طن من القمح ، يوزع ٧٥٪ منها على الفقراء ، ويباع الباقى .

ولكنهم الآن فقدوا الصلة بممتلكاتهم وانقطعت عنهم أخبار الأهل (وقد استولى البلاشفة على الممتلكات والأقارب معًا) ، واستفادت محلات الأنتيكات من بيع قفاطينهم الحريرية ، وكان يهود بخارى من أكثر الطوائف عرفانًا بمساعدتنا لهم .

وكان الحاخامات المتدينون يعيشون فى عالمهم الخاص بعيداً عن الإدارة والسياسة ، ولكن المتطرفين دينيا مثل الحاخام سوننفيلد وأتباعه لم يلجأوا إلىّ ولا إلى الشرطة أبداً ، وهم من وجهة نظر الحاكم رعايا مثاليون ؛ لأن كل ما كانوا يطلبون هو أن يتركوا لشأنهم وممارسة عبادتهم . ولمدة طويلة ، لم يكونوا نافرين من الصهيونية بل معادين لها ، وأظن أن تأييدهم لى كان يدعمه ما أتعرض له من هجوم على يد الصهاينة . ولما كانت مواردهم المالية التى تأتيهم من أتباعهم فى روسيا وبولندا قد نضبت ، وقلت الموارد التى تأتيهم من مركزهم الرئيسى فى فرانكفورت ، فقد وجدوا فى تدينهم السلاح الوحيد الذى بقى لهم ، وهم يعلنون أن الكوشير (أو اللحم الحلال حسب الشريعة اليهودية) ليس كذلك على الإطلاق إذا قام به غير المتدينين ، وامتنعوا عن أكل اللحم من ذبائحهم ، ولما كان الإشراف على المذبح من اختصاص الإدارة ، فقد لجأ إلىّ الطرفان ، مما جعلنى أضطر إلى دراسة كل ما يتعلق بطقوس الذبح عند اليهود لأتعرف على دور كل من يشارك فى هذه المسألة ، حتى يتسنى لى اتخاذ قرار .

وكان الحاخامان الرئيسيان قد عينا من خلال التنظيم الاختيارى للطائفة اليهودية ، وقد جاءا يمثلان تمثيلاً تاما الإشكنازى والسفاردى ، فكان الحاخام كوك شخصية وقورة يرتدى قفطانًا ثمينًا من الحرير الأسود ، يتحدث دائمًا باستفاضة وثقة (لا يكاد ينافسه فيهما البطريرك الكاثوليكى اللاتينى) بأن كلماته يجب أن يؤخذ بها كحقيقة مسلمة ، وزميله الحاخام مائير يتحدث الفرنسية بطلاقة ، ويشعر بأنه رجل عالمى يجب ألا يزعج الحاكم ، ولكنه مضطر للاشتراك مع زميله فى هذا الاحتجاج .

وكان وصول « اللجنة الصهيونية » فى ربيع ١٩١٨ نقطة تحول فى تاريخ فلسطين لا يقل أهمية عن الاحتلال البريطانى ، وكان يحق للفلسطينيين عندئذ أن يقولوا مقالة الخديو إسماعيل : «إن بلادى لم تعد آسيوية ، بل أصبحت قطعة من أوروبا » ؛ لأن أى جامعة أو قنصلية أو جمعية تشريعية لن تستطيع أن تفوق شخصية الدكتور حاييم

وايزمان ثراء ، فقد كان يتحكم فى الصهيونية العالمية لمدة عشرين عامًا (سواء كان رئيسًا أو عضوًا عاديًا) . كان وسيما ، ملامحه تعطيك انطباعًا هجوميًا متحفزًا ، يتوجس دائما تجاه غير اليهود واليهود ، شديد الحماس قادر على التنبؤ بما يمكن أن يحققه طرف على الآخر من مكاسب من خلال التفاوض، مندفع لا يتسامح مع خصم ، ولكنه عاطفى ، حريص وعادل معا فى معاملاته . كان متحدثًا لبقًا لديه قدرة فائقة على دعم حجته ، وهو أيضًا متحدث مقنع حتى بالإنجليزية ، وعندما يتحدث بالروسية - أو حتى العبرية - يملك ناصية الحديث مستخدما كل وسائل الإقناع التى يخصصها السلاف للحب ويخصصها اليهود للصفقات التجارية . على درجة عالية من المهارة ، يركز كل جهوده على تحقيق هدف الصهيونية [٢] .

كان حاييم وايزمان دائمًا هو « الزعيم » فى فلسطين ، ولم تر الإدارة الدكتور ناحوم سوكولوف (حكيم الصهيونية) إلا نادرًا ، كان سوكولوف مستودعًا للحكمة ، موسوعى المعرفة ، لديه رصيد هائل من القصص اليهودى يثير به لب السامعين عندما يتحدث باللغات الإحدى عشرة التى يجيدها . أما وايزمان فكان مثل البطارية التى لا يمكن شحنها فى أى مكان ، على حين كان سوكولوف غارقًا فى الكلاسيكيات بصورة تفوق الوصف . ما أسعد الحركة التى استطاعت أن تجمع بين النقيضين !

وكانت « اللجنة الصهيونية » محظوظة عندما انضم إليها شخص بارز مثل جيمس دى روتشلد . ويحظى اسم والده البارون إدمون بالاحترام حتى من جانب المسلمين والمسيحيين ، وقد أدرك الصهاينة ذلك عندما جعلوا تصريح بالفور يوجه إلى اللورد روتشلد ، ولكنه وجميع أفراد أسرته بفرعيها البريطانى والأوروبى (بما فى ذلك البارون إدمون) لم يبدوا - منذئذ - اهتمامًا عمليا بفلسطين . ولو اهتم جيمس روتشلد بوضع اسمه على رأس اللجنة لكان من السهل عليه أن يجذب اهتمام الجميع ، ولا أظن أن زملاءه باللجنة قدروا ذلك . وهناك شخص آخر كان متواضعًا ولكنه

(٢) عندما حضرت خطابه الأخير بإحدى الجمعيات العلمية بلندن ، سمعت يهوديا فى الصف الذى يقع خلفى يقول لزميله : « ما كان ليجرؤ أن يقول هذا الكلام أمام مؤتمر صهيونى » . فعجبت لتلك المساحة المحدودة لرجل يعد رئيسًا للوزراء يدخل فى اختصاصه العالم اليهودى كله .

مصدر ضيق لنا ، كان - عندئذ - صهيونيا صغيراً من مانشستر ، ولكنه أصبح الآن قطباً في الأعمال المالية هو إسرائيل سييف ، الذى مازال صهيونيا .

ولم يكن هناك ضابط أكثر تميزاً وجاذبية وثقافة وحسن صحبة من فلاديمير جابوتنسكى ، ألم يترجم إلى الإنجليزية أشعار « أخاد هاعام » وإلى العبرية « الكوميديا الإلهية » ؟ هل كان هناك ضابط يفوقه قدرة فى تنظيم وحدات الجنود ؟ من ناحية أخرى لا أتصور أن رجلاً غيره - لو ترك له الحبل على الغارب - يستطيع أن يورط فلسطين وربما سوريا أيضاً فى معركة مميتة . إننى أربط بينه وبين بنحاس روتنبرج الذى ربما كان أبرز رومانى بينهم جميعاً ، فقد خيرتهما بين التخلى عن السلاح أو دخول السجن . وروتنبرج غليظ قوى البنية ، يلبس السواد دائماً ، رأسه فى صلابة الجرانيت ، لم يكن سياسيا ، يقول ما يريد دون اتساق ، فتسمع قعقعة الكلمات تخرج من فيه على سجيتها . كان مع كريسنكى فى الأيام السابقة على الثورة البلشفية ، وتلقى نصيحته بقتل قادة السوفيت على الفور ، ولو استمع لنصحه ربما كان هناك حكم آخر غير البلشفيك فى روسيا اليوم (وربما كانت الفوضى هى البديل) . وهو الآن يضع الأردن فى دائرة الضوء ، ويزيد من سخونة فلسطين . ومراكز السلطة عنده تبدو مثل مخطط شبيه بأبى الهول . ويقال إن روتنبرج ينوى تحويل القدس إلى ركام من الأحجار . إنه لا يفهم فى السياسة . إذا مرت إسرائيل بشدة فما عليه إلا أن يرفع يده ليتبعه كل يهود فلسطين ، ولما كان بعض العرب يعملون فى خدمته فقد يتبعونه أيضا ، إنه صديق مخلص ، ولكنه - فى الوقت نفسه - عدو لدود .

ويعد أدون مناحم أوسيشكن نموذجاً متفرداً ، ويقال إنه قدم خدمات جليلة للصهيونية فى روسيا ، ولذلك يطالب بأن يكون عضواً باللجنة الصهيونية فى فلسطين . وهو واضح وضوح النهار ، صريح فى آرائه ، خططه كلها علنية حتى إن قومه يسمونه « مناحم باشا » ، ولعله بالنسبة لنا « القيصر مناحم » . وعندما جاء يطلب مقابلتى ، عقدت العزم على أن أتحلى برباطة الجأش ، ودعوت الله أن يضبط رجالى أعصابهم .

ترى من يستطيع ألا يعبر عن إعجابه باليعازر بن يهودا ؟ رجل نحيف البنية قصير الطول ، حاد الملامح ، عبقرى . وقد غفر لى أخطائى فى أول احتفال بصدور تصريح بالفور عندما ألقيت خطابًا بالعبرية ، لقد أحببت بن يهودا ، وزرته كثيراً وتحدثت معه عن إنجازاته الخالدة ، فهو الرجل الذى أعاد العبرية إلى الحياة ، وجعلها تتنفس من جديد بعد ألفى عام من النوم العميق ، وبذلك أصبحت لغة الرسل هى لغة الحياة والسياسة والقلم والتدريس واللعب . ومات بن يهودا وهو يعد قاموسه العبرى ، ولكنه كان قد أكمله .

وفى يومياتى الأولى بالقدس ، أنكر يهوديا نبيلاً عالمًا آخر ، دعانى لرؤية مكتبته ومجموعة العملة التذكارية التى يحتفظ بها ، وفى اليوم التالى ، تلقيت منه هذا الخطاب :

٢٦ فبراير ١٩١٨

سيدى العزيز

إن اليوم عيد البوريم اليهودى ، وقد اعتدنا فيه أن نرسل هدايا للأصدقاء ، فأرجو أن تقبل منى قطعتين من العملة الصغيرة من مجموعتى : واحدة منها لبلاتوس الحاكم الرومانى للقدس ، والأخرى تحمل رسم نخلة صكها سيمون باركوخبا آخر حاكم يهودى للقدس .

أرجو أن تقبلهما تذكاراً لما حظيت به من متعة عند زيارتكم لى بالأمس .

المخلص : رافاييللى

وقد أعدتهما له برسالة عبرت فيها عن تقديرى ، معتذراً بأن الحاكم لا يمكن أن يقبل هدية من شخص على قيد الحياة . ومات رافاييللى بعد ثلاث أو أربع سنوات . وفى اليوم التالى لوفاته ، وضعت عائلته فى يدى مغلفين معنونين إلىَّ ، وقد كتب عليهما أن السبب الذى دعانى لرفض قبول الهدية لم يعد قائمًا .

وعنـدما دخلـت إلى مكتبى - فـى أوائـل عـام ١٩١٨ - سـيدة ليست بالطويلة أو النحيفة أو السمراء ، تجمع فى حديثها بين خفة الظل والرزانة ، أدركت أن كوكبًا جـديداً دخل مـجـال مـعـرفـتى ، كـانت الآنسـة أنى لانداو خـلال الحـرب منفـيـة فى الإسكندرية بعيـداً عن مـدرسـتـهـا المحبوبة « مـدرسـة إيفيلينا دى روتشلد للبنات » ، وطالبت بالعودة إليها على الفور ، ولكن للأسف كانت المدرسة قد تحولت إلى مستشفى عسكرى ، وقد عارضت بشدة هذا الإجراء ، ولكنى بعد برهة أجرت لها مبنى كبيراً مـهجوراً يعرف باسم « القصـر الحبشى » ، ومـا لبثت الآنسة لانداو أن أصبحت أكثر من مـجـرد ناظرة لأحسن مدرسـة بنات يـهودية بفلسطين . كـانت أكـثـر بريطانيـة من الإنجليز ، ترفع العلم البريطانى على المدرسة طالما كان ذلك مباحًا ، وكانت فى الوقت نفسه أكثـر يهـوديـة مـن الصـهـاينة ، فـلا ترد على المكالمات الهاتفية يوم السبت ، ولا تسمح حتى لخدمها بالرد عليها . وكانت تربطها علاقات صداقة بالترك والعرب قبل الحـرب ، ولذلك كـانت ضيـافـتـهـا الكريمة لعدة سنوات هى الأرض المحـايدة الوحيـدة تقريبا التى يلتقى عليها الموظفون البريطانيون ، وغلاة الصـهاينة ، وبكوات المسلمين ، وأفندية المسيحيين دون أى اعتراض .

وقد تعرضت المكانة الاجتماعية التى أحرزتها - ذات مرة - للتحدى من جانب طائفـتـهـا . وكان ذلك بمناسبة تنظيمى لحفل موسيقى بهدف جمع الأمـوال اللازمـة لتـأسيس « مدرسة الموسيقى بالقدس » . وأقنعت تشايكوف - عازف الكمان القدير - ناظر المدرسة بأنه طالما كان الحضور ليس مقصوراً على اليهـود ، فلا بأس من أن يختتم الحفل بنشيد « حفظ الله الملك » . وقد وعدنى بتنفيذ ذلك . وعندما تصدر المنصة رافـعًا عـصـا القـيـــادة قمنا وقـوفًا ، وإذا باللحن الذى يعزف هـو النشـيـد القـومى الصـهـيونى ، وبعد المقطع الأول نظر إلى تشـايكوف نظرة من يفـرض الأمـر الواقع ، وسـألنى الحاكم العام : « مـا هذا ؟ » قلت : « هاتكفـاح » ، قـال : « مـاذا ؟ » قلت : « النشـيد القـومى الصـهيونى » . فـجلس على الفور ، وتبعه فى ذلك جميع الضبـاط ، وكذلك فعلت الآنسـة لانداو معبرة عن شـجاعتها البريطانية (ولكن فى لحظة من أسوأ لحظات حياتها) ، فمنذ ذلك الوقت اعتبرها الصهاينة خـائنة للقضـية ، ولم تكن هناك وسيلة لعقابها على الفور .

وجـاءت المناسـبـة عندمـا نظمت الآنسـة آنى لانداو أول حـفل رقص بمدرسـتـهـا ، فأعلن الصهاينة أن أى يهودى يحترم نفسه يجب أن يمتنع عن الحضور ، وقد تعاطفت تماماً مع الآنسة لانداو كصديقة ومضيفة ، ومشتغلة بالخدمة العامة من الطراز الأول ، ولكنى عجـزت عن تخفيف شـعورهـا بالـيـأس لمقاطعتـهـا من جانـب أهـل الطائفـة التى تنتمى إليها ، ومسـاء حفـل الرقص انتظرنى ثلاثة من آباء الطالبات من اليهود فى مكـتـبى ليـسـألونى عـمـا إذا كنت أريدهـم أن يحـضـروا الحـفل ، وضـايقـهم إصرارى على عدم إعطائهم رأياً محدداً . لقـد كان الرجال الـثلاثة يعانون مـشكلة فـى بيوتهـم ، فقـد أحـضـرت زوجـاتهم وبناتهم مـلابس خـاصـة بالمناسـبـة ، ويردن ارتداءهـا . وبعـد أربـع سـاعـات رأيت صـفـا من « القـومـيين » اليـهـود يصـعـدون الدرج كارهـين أو حـانقـين حيـث كان بانتظارهم هناك بنات إسـرائيل اللاتى نجـحن فى فـرض إرادتهن على أولئك الآباء . وشـعـرت بالأسـى نحـو أولئك الآبـاء والأخـوة الذيـن لا يـدركـون أن هـنـاك مـجـالات فـى الحـيـاة لا صلة لها باليـهـودية أو غـيرهـا من الأديان .

وحرصـت على أن أحضـر كل عام « وليمة القربان » التى تقيمها الآنسة لانداو - عادة - فى فناء مستشفى « شـعار زدك » اليهودية المتدينة ، التى كان مديرها الدكتور والاش يـهـودى ألمانى طبيـب ، كـان أول من أرسل لى نصـيـبى من « المازوث » عـام ١٩١٨ ، وما زال من أحسن أصدقائى . وكانت كل أبواب المستشفى تغلق بما فى ذلك الأبواب المؤدية إلى الدرج ، وكان المدير يحمل جميع المفاتيح معه ، ويحرص على أن يفتح الأبواب ويغلقها بنفسه عندما يقوم بجولة مع أحد الزائرين ، ولم أفهم لماذا يصر على ذلك دائماً ، كما لم أعرف إذا كان ذلك التقليد ألمانيا أو يهوديا أو خاصا بالدكتور والاش نفسه .

وفى احتفال « القربان » قد تلتقى بالشخصية الآسرة للدكتور جاكوب إسرائيل دى هـان ، وهـو يهـودى هـولندى ، قصـير القـامة ، أبيض البشرة ، شديد التدين (وإلا لما كان من بين ضيوف الآنسة لانداو فى عيد القربان) ، وهو شاعر ، يكتب الشعر بالهولندية ، ويراسل صـحـيفـة « التلغراف » ، ترك عمله فى هولندا ليـخـدم قـضـيـة

الصهيونية فى فلسطين ، وقد أحس بمرارة شديدة عندما شعر بأن الصهيونية الرسمية لم تحاول الاستفادة بخدماته . لقد كنت أوقن أن « اللجنة الصهيونية » عجزت عن الاستفادة بمواهب اليهود السفارديم المحليين ، ولكن موضوع الدكتور دى هان كان صعب التحديد ، وقد قلت له ذات مرة إننى رغم استمتاعى بحديثه الشيق ، لا أجد مكانًا فى إدارة الحاكم العسكرى يمكن أن يفيد فيه ، وأنه إذا لم يعتدل فى لغته فسوف يلحق به الأذى من جانب إخوانه اليهود ، فقد أراه اليوم يهرع مسرعًا حاملاً حافظة أوراق سوداء (كالتى يحملها المحامون) ، وفى اليوم التالى قد أراه مرتديًا كوفية من الحرير الأبيض تتدلى منها نظارته الذهبية الإطار مرتديًا الملابس البدوية الكاملة فى الطريق إلى الأردن لمقابلة الأمير عبد الله ، وحديثه عن الكتب كان أخاذًا ممتعًا ، وعندما اشتدت حملة الهجوم الصهيونى ضدى ، واتسع نطاق سخط الرأى العام اليهودى علىَّ ، ترك الدكتور دى هان عند بابى مجموعة من الصحف الهولندية فى سلة تحمل بطاقة جاء فيها « فى الوقت الذى يصب فيه قومى اللعنات عليك أرسل لك هذه الصحف رمزًا لإيمانى بك وبما تريد أن تفعل » .

ولذلك حتى سفرى بإجازة صيف عام ١٩٢٤ ، كان هذا الرجل الذى ينفث عن نفسه الغضب الذى يعتمل فى صدره عند زيارته لبيتى ، ويمضى إلى حال سبيله ، أكثر ارتياحًا – على ما أظن – منه عندما جاء . وفى لندن تلقيت مكالمة من أحد الصحفيين أخبرنى فيها أن الدكتور جاكوب إسرائيل دى هان قد اغتيل فى أحد شوارع القدس بعيدا عن المنطقة العربية . وما زلت أشعر بالأسى تجاه هذا الرجل الذى تصدى وحده للتطرف المعقد .

إننى لا أحمل ضغينة ، بل تقديراً للصحافة العبرية ، التى لعبت – قبل وخلال العشرينيات – دور الآلات النحاسية الصاخبة الإيقاع فى أوركسترا الصحافة ، ولم تحاول أن تجرب دور الآلات الوترية الناعمة . كانت هناك صحيفتان يوميتان رئيسيتان هما : « دوارها يوم » (أخبار اليوم) ، و « ها أريتز » (الأرض) ، وعندما كانت الأمور تسير عكس ما هو متوقع (ومن ثم كانت هناك حاجة ماسة للاعتدال) تتصارع الجريدتان فى التعبير عن الكراهية والرضاء ، التى تثير المشاعر وتزيد من

الصعوبات التى يواجهها جميع من يعنيهم الأمر[٣] . وكان رئيس تحرير « دوارها يوم » وصاحبها هو إيتمار بن أفى ، وهو الابن الجذاب لبن يهودا . وكنت على علاقة طيبة به على الصعيد الشخصى ، وكان بعد كل هجوم عنيف تصبه الجريدة علىّ يحرص على الاتصال بى خارج مقر الإدارة ليقول لى إنه حاول أن يخفف من رجم القوم لى لأنهم يستشيطون غضبًا منى ! ولذلك عمل على استخدام نبرة أقل حدة فى مهاجمتى ! وعندما قلت له ذات يوم إن معدل الجريمة بين اليهود فى فلسطين منخفض ، احتج على ذلك قائلاً : « قد يكون ذلك المعدل منخفضًا فى القدس ، ولكنى أؤكد لك أنه شديد الارتفاع فى نيويورك » .

وكانت « ها أريتز » لبضع سنوات ، مواظبة على عدائها لى ، حتى جمعت زمام شجاعتى ذات يوم، وزرت مقرها فى تل أبيب ، وكنت مستعدا لمقابلة « مناحم باشا » آخر ، متحامل ضدى ، ولكن أدهشنى أن ألقى الترحيب الودى من جانب الدكتور جليكسون المثقف المتحفظ ، وهو الرجل الوحيد – بغض النظر عن روتنبرج ، ووايزمان ، وموريس بارنج – الذى جعلنى أندم على جهلى باللغة الروسية ، كانت الصحافة العبرية تشارك الصحافة العربية خطيئة التسرع فى نشر الأخبار دون التحقق من صحتها ، وكان من الممكن تفادى ذلك لو قام المحرر بالاتصال هاتفيا بالإدارة المعنية للتأكد من صحة الخبر . ولم أستطع أن أرتب مثل هذا الأسلوب مع «ها أريتز» إلا فى العام الأخير من خدمتى بفلسطين ، هذه « الشجاعة الانتهازية » للإثارة الصحفية فى أوقات الاضطرابات زادت من التهاب مشاعر العرب والبريطانيين

(٣) من العدل أن أشير إلى أن اليهود كانوا لا يقلون قسوة فى إبداء آرائهم ضد بعضهم البعض أكثر من فعل ذلك ضد الغير ، فقد ذكرت صحيفة « كل إسرائيل » التى تمثل التيار المتطرف بين المتدينين فى بيان وجهته للقراء :

« الإخوة أبناء إسرائيل وكل يشوب . . . افتحوا عيونكم وانظروا إلى الجو المفجع الدنس الذى صنعه أتباع ديسكن وزوننفيلد ، ودى هان وأجودات إسرائيل . دعونا نرفع أصواتنا عاليًا ونقول لهم : ارفعوا أقنعة التدين القديمة المزعومة عن وجوهكم ، ولا تعرضوا أورشليم للخراب والدمار . . . من فوضكم لغزو أرضنا وتدنيس أورشليم . . ؟ دعونا نتحد معًا ، شيبًا وشبابًا لنعلن احتجاجنا ضد أولئك الذين يدنسون أورشليم ويسيئون إلى كرامتها وكرامة علمائها » .

واليهود على السواء ، وكان البعض يلوحون لى بقبضات أيديهم فى أثناء مرورى بالسيارة فى الطريق ، وسنحت لى الفرصة ذات مرة عندما قمت - كضيف شرف - بافتتاح معرض فى تل أبيب ، فغادر شابان من غلاة المتعصبين المكان بمجرد وقوفى لإلقاء كلمتى ، وعادا بمجرد انتهائى من إلقائها وجلوسى على مقعدى (ليؤكدا لى أن انسحابهما كان مقصوداً) ، ولكنهما شعرا بالحرج ؛ لأن الحضور سعدوا بالخطاب الذى ألقيته بالعبرية ، وتابعوه كلمة كلمة .

واعتمدنا على صحيفة « بالستين بوليتى » كيومية إنجليزية ، وكانت تتكون من ثلاثة أقسام : الأخبار العالمية ، والأخبار المحلية ، والبيانات والأوامر الرسمية . وكانت فى البداية أكثر اعتدالاً ورقة من الصحافة العبرية ، ولكنها أصبحت أكثر حيدة من ذى قبل عندما تولى تحريرها صحفى أمريكى هو جرشون أجرونسكى الذى يتسم بالدقة والحزم . وكان بعض زملائى يستاءون لتناول الصحيفة بالتفصيل الدقيق وصف حفل شاى أو عشاء أقيم تكريماً لأحد العمال الصهاينة فى كراكاو أو بيتسبرج ، ولكنى كنت أجدها لا تقل إثارة للملل من وصف مباريات الجولف أو كرة القدم فى الصحافة البريطانية .

كتب فان جوخ فى إحدى رسائله : « أين نجد الرب ، إذا لم يكن بين الفنانين؟ »، ولكنى أعتقد أنه لا يوجد بين رسامى فلسطين ، فكلهم متحمسون ، من بين اثنين أو ثلاثة على درجة من الجودة ، يركز معظمهم على أن يكون له مظهر الفنان وليس مؤهلاته . غير أننى أشعر بالفرح عندما أجد واحداً من الفنانين بعد أن قضيت ١٤ عاماً فى مصر ، وكان أبرز فنانَيْنِ فى أثناء وجودى بفلسطين هما : روبين ، وبمبرج . وكانت لروبين رؤية حالمة ، أما بمبرج فكان كمن يسجل نجمة فضائية قوية . أضف إلى ذلك سولومون الذى أرسلته المنظمة الصهيونية إلى فلسطين عام ١٩٢٣ ليرسم بمساعدة سرجنت ومدير هيدبون لوحات الدعاية الصهيونية .

وبغض النظر عن غرابة أطوار بمبرج ، كانت هناك أسباب أخرى لما قد يتعرض له من صعاب ، فقد كانت زوجته صهيونية رغم أنها لم تكن يهودية ، وكان معادياً للصهيونية رغم كونه يهوديا . وعند وصول بمبرج إلى فلسطين (مزوداً بخطاب تزكية

من إدوارد مارش) أنتج بعض الرسومات للجمال والجبال والقرى العربية فى معالجة تكعيبية قوية . ولكن تلك الرسومات لم ترض المنظمة الصهيونية التى كانت تتوقع منه أن يركز على رسم الأماكن المقدسة اليهودية ، وما قام به اليهود من إنجازات ، ولذلك لم يقدروا قيمة عمله الذى اعتبره خير دعاية لجذب الهجرة إلى فلسطين ، ولكنهم رأوا فيه إهداراً لمالهم فى غير ما كانوا ينتظرونه منه ، فكفوا أيديهم عن تمويله . ولذلك اتجه إلى تصوير مناظر يهودا كما صور المناظر الطبيعية فى الأرون ، ورتبت له كل ما اتصل برحلته ، فكان إنتاجه مزيجاً من الطبوغرافيا والفن معاً .

وأذكر أن الدكتور وايزمان كان يشعر بالأسى ؛ لأن النحات البارع فى روسيا (وكان يهوديا) لم يجد ما يفعل سوى نحت تمثال لبطرس الأكبر ، ولكن فى فلسطين يجب أن يكون الأمر مختلفاً (من وجهة نظر وايزمان) . يهود يتعبدون أو كبار حاخامات أو منظر اللاجئين وهم يجوسون خلال الجليد طلبا للنجاة ، تلك يجب - عنده - أن تكون موضوعات النحت والرسم على السواء . و « الفن » يتمثل فى قطع السجاد التى تحمل صورة هرتزل أو صامويل ، والصوانى النحاسية التى تحمل شمعدان سليمان ذا الفروع السبعة . هذا الاتجاه والمعارض التى كانت تقام للإنتاج « الفنى » المتعلق به قد يكون تعبيراً « قوميا » مناسباً ، ولكنه كان - فى حقيقة الأمر - نفياً للفن ووأداً لحرفته .

وكانت الموسيقى أكثر نقاء من داء الدعاية السياسية من غيرها من الفنون ، فالنشيد القومى الصهيونى (ها تكفاح) أكثر تعبيراً عن الإحساس السلافى منه للإحساس العبرانى ، رغم كونه أجمل نشيد قومى بعد النشيدين البروسى والنمساوى ، ويعد مائير بير ومندلسون الموسيقيين الوحيدين من ذوى الأصول اليهودية ، وكانت أعمال مائير بير ميتة حتى تم إحياؤها فى كوفنت جاردن بلندن ، وكان تأثير مندلسون يسير فى خط مباشر مع الكلاسيكيات الكبرى . ونظراً لإحساس اليهود بالحاجة إلى أن تكون هناك موسيقى يهودية ، فقد اتجهوا بعبقريتهم الفطرية إلى مستوى رفيع مدهش فى مجال دراسة الموسيقى والأداء الموسيقى .

وكانت الحفلات الموسيقية التى نظمتها « جمعية الموسيقى » ضرباً من المتعة ، وحظيت بإقبال غير اليهود الذين استمتعوا بأداء العازفين اليهود ، وفى تلك الحفلات ، كانت القاعة تغص بمن يتزاحمون على جانبيها ممن لم يجدوا تذاكر متاحة لهم ، فأصروا على الدخول حتى لا يحرموا من الاستمتاع ببرنامج الحفل ، كذلك كان رئيس الجمعية يهتم بتوفير مجموعة من التذاكر المخفضة ، ويخصص بعض المقاعد المجانية للنقاد من محررى الصحف ، مما جعل المستر هرفتيز (سكرتير الجمعية) يخشى أن يؤثر ذلك على الوضع المالى للجمعية . وأعتقد أنه مع بعض التشجيع الرسمى ، والاهتمام الخاص ، سوف تصبح فلسطين مركزاً موسيقيا لا يقل أهمية عن باريس أو لندن ، أو حتى فيينا ، مع ميزة نادرة تنفرد بها فلسطين هى أن الجمهور المختلط الذى يحضر حفلاتها الموسيقية لا تشغله السياسة كثيراً .

وبحلول عام ١٩٢٢ ، بدأنا نفكر فى فن الأوبرا الكبرى (التى تعد معياراً للرقى الحضارى) ، وبعد محاولتين غير موفقتين من جانبنا ، نجح اليهود فى تكوين فرقة بقيادة القدير جولنكن ، وفى إقامة البرهان على صلاحية العبرية للغناء الأوبرالى ، وقد تفوقت الأصوات والأداء التمثيلى على الأوركسترا ، ولكن المكان الذى قدمت فيه العروض كان بدائيا ، فكان صوت الأحذية الثقيلة يسمع فى الممرات ، كما كان باعة الشيكولاته والفستق يتحركون بين الصفوف تلبية لطلب المشترين . كان العرض مماثلاً لما نجده فى دور الأوبرا الكبرى بأوروبا ، ولكنه يفتقر إلى التقاليد البورجوازية التى نجدها فى باريس أو لندن .

ولم يشفع التسامح الذى أبديته تجاه الموسيقى الحديثة للموسيقيين ، فقد تعرضت فرقة من المغنيين الروس للهجوم من جانب يهودالقدس بطريقة أعادت إلى أذهانهم ذكريات الاضطهاد . ووقع حادث آخر عندما كانت إحدى الأوبرات تتضمن مشهداً تظهر فيه بنت الكاردينال ، فاحتج بطريرك اللاتين الكاثوليك وطالب الحاكم العسكرى بمنع عرض الأوبرا فى يوم العرض نفسه ، وكانت جميع التذاكر قد بيعت . ولما كانت الإدارة العسكرية لا ترغب فى إغضاب البطريرك ، فقد أحيل الأمر إلى لجنة تحكيم أجازت العرض مع تسجيل اعتراض البطريرك رسميا ، ولكن أدهشنا أن نتلقى من البطريرك رسالة ، شكر فيها الإدارة على « حزمها الذى سيكون له أثره فى الدوائر

الرزينة » . وعندما تحققنا الأمر ، اتضح أن الفرقة رفضت أداء العرض لخلاف حول الأجور ، وبذلك قدموا خدمة جليلة لحكومة فلسطين لم تدر بخلدهم ، فنسب إليها الفضل فى عدم إتمام العرض .

كثيراً ما تحدثت إلى «أخاد هاعام » (واحد من العامة) ومحرر المقالات الروحية الصهيونية ، وهو رجل خجول وحريص ومتميز ، ولكنه عانى الهزال فى مرضه الأخير ، وقد أسفت كثيراً لأننى لم ألتق كثيراً بالرجل البسيط المتواضع حاييم نجامان بياليك ، شاعر النهضة العبرية ، وقد ترجمت قصيدته « ها خنسينى » (اقبلنى) ، ولكنها لم تترجم بدقة تفوق النسخة التى قدمها لى جابوتنسكى فى القدس ، ونصها كالتالى :

كونى أمى ، كونى أختى

غطى رأسى تحت جناحك

وصلواتى التى لم تجب

دعينى أحضرها إلى صدرك

وقت الغسق ، ساعة الغفو

أنصتى ، سأهمس لك بالحقيقة

يتحدث الناس عن الشباب – ما هو ؟

أين أجد شبابى ؟

لأن النار أحرقت روحى

من الداخل ، أو ما فوقه ،

الناس يتحدثون عن الحب – أين هو ؟

ماذا يعنى الحب ؟

النجوم متألقة ، ولكنها خدعتنى ،

تبدد الحلم الذى حلمته ،

الآن حياتى اتجهت للاشىء ،

ولا شىء يزيد .

كونى أمى ، كونى أختى

غطى رأسى تحت جناحك

وصلواتى التى لم تجب

دعينى أحضرها إلى صدرك

وفيما عدا أعمال هذين الكاتبين المبدعين ، فإن أهم كتاب يهودى يستحق التقدير كتب فى فلسطين أو عنها هو العمل المتميز للدكتور كلاوزنر بالعبرية عن « حياة المسيح » ، وهو دراسة علمية منصفة ، وأول ما كتب فى الموضوع بقلم يهودى متدين .

وهناك حادثان واضحان فى ذاكرتى يصوران المواقف غير المتوقعة التى تتسم بعدم الاتساق ، والتى يقدم عليها موظفون من مستعمرات أفريقيا أو الهند الغربية المستقرة ، فقد كنت أسير مع زوجتى فى شارع « ميوشيورم » (المائة باب) عندما رأينا تجمعًا متزاحمًا من الناس ، ومثل هذه التجمعات غير مستحبة فى القدس ، ولا يسمح بها ، واندفعت وسط الزحام لأجد سائق سيارة أجرة عربيا يطلب أجرة ، فقد ترك يافا بعد الظهر ومعه راكب يهودى ، وعند وصولهما إلى هذه النقطة عند نهاية الرحلة ، غربت الشمس ، وبدأ السبت الذى يحرم فيه البيع والشراء وغيرها من المعاملات ، ولم يكن الراكب يرفض السداد فكل ما يطلبه « أن يعود السائق صباح الأحد » ، (وبذلك يقطع ٤٠ ميلاً ذهابًا وإيابًا إلى يافا دون أجر) ، وكان الجمع يشجع السائق بالقدر الذى تسمح به قداسة اليوم ، فالعربى فى حيرة من أمره ،

واليهود يتعجبون لعدم تقديره للموقف ، وكان لا يعرف العبرية أو اليديش ، كما كانت معرفتهم بالعربية لا تسعفهم لفهم موقفه ، عندئذ قام أحد المتفرجين - ولم يكن عربيا أو يهوديا بدفع الأجرة للسائق ، وانصرف الجمع ، ولا أشك أنه قد استرد نقوده فى اليوم التالى (مع تقديم الشكر له) .

عند حضورى احتفال سبت النور لثالث أو رابع مرة ، لاحظت تجمهراً على بعد عشر ياردات من موقعى يدل على أن هناك عراكًا أو اقتتالاً ، وقام ضابط الشرطة العملاق قلب الأسد ، إبراهيم الإستانبولى بفتح الطريق لى إلى موقع العراك ، لاكتشف أن يهوديا استطاع أن يتسلل إلى كنيسة القبر المقدس ، وقد تم اكتشافه ، وأظن أنه كان سيفارق الحياة لو تأخرنا دقيقة فى الوصول إليه ، وقام عدد من جنود الشرطة بحمله بصعوبة بالغة إلى خارج الكنيسة حيث نجا بنفسه . وفى اليوم التالى جاء ذلك اليهودى إلى مقر الحاكم العسكرى ليقدم شكوى ضد الشرطة الذين اعتدوا على حريته ، وحرموه حقه فى الوقوف فى أى مكان شأنه فى ذلك شأن غيره بما فى ذلك الحاكم العسكرى !

للصهاينة الحق أن يفتخروا بأعمالهم ، ولكن دعايتهم كانت طاغية أحيانًا ، فالسائح حسن النية ، يدفع به دفعًا لزيارة المستوطنات ومزارع الأبقار الفرزيان ، ومذابح الكوشير ، ومستشفيات الولادة ، ومصنع لوتزيا للجوارب ، ومغازل دلفينر للحرير ، وأفران رعنان للشيكولاته ، ومصانع الطوب ، حتى يزدحم ذهنه بالإحصائيات والأرقام والرسوم البيانية .

وتثير « تل أبيب » (تل الربيع) مشاعر مختلفة باختلاف الأفراد ، وقد تثير مشاعر متباينة عند الفرد الواحد ، فليس هناك على الأرض إنجاز يعادل ذلك الإنجاز . ففى ١٩٠٩ ، قامت ستون - عائلة كانت تعيش بيافا - بعقد العزم على « بناء ما لا يبنى » . والآن تقف مدينة من ١٣٠ ألف نسمة فى موقع ذلك القفر ، مدينة يهودية خالصة ، واحدة من أبرز مدن العالم ، واللافتات التى تقابلك تحمل أسماء الشوارع والمحلات بالعبرية ذات المغزى الواضح تستوى فى ذلك تل أبيب والقدس ، فهناك لافتات تشير إلى « طبيب يعالج جميع الأمراض » و « مولدة قانونية » ، وقد لا يعنى

ذلك أن تلك القابلة تحمل شهادة معينة ، وتجد أيضًا « متخصصة فى ملابس الرقص والخروج » . وهناك مبان كثيرة فى تل أبيب بالنسبة لمساحة المدينة ، ومن الواضح أن الكثير من الزخرفة المعمارية أضيفت بعد الإنشاء . والبنوك والأطباء والمحامون والقابلات ، وكل ما يلزم لمجتمع المدينة يحتشد فى موقع محدد منها . وفى كل بيت من الأحياء السكنية قد تسمع البنات (العائدات إلى المنازل من الملعب) يدندن بمقطوعات من النصوص اليومية .

وإذا كنت ممن يكرهون اليهود – أو كنت لا تحبهم بقدر كاف – فابق بعيدًا عن تل أبيب . سيقولون لك إن اليهود ملح الأرض ، وستجد التركيز الجديد لليهودية جسدًا وعقلاً وروحًا هناك . وأجد الجرأة الكافية لأعترف هنا بأننى لا أحب تل أبيب ، وأننى لن استطيع الاقتراب من فلسطين دون أن يقابلنى ما يدل على حيويتها الفائقة ، وعندما كان عمدتها الدكتور ديزنجوف ، يرافقنى فى جولة بالمدينة التى صنعها ، خلتنى أسمع آخر إبداعات مدرسة هوبنكو الموسيقية . وعندما كنت فى ضيافة سيجفريد تولكوفسكى بفيلته الأنيقة تعرفت على المعنى التلمودى لزراعة الموالح ، وكدت أعترف بارتكابى إثم مصافحة هنرى فورد الذى يعتبر معاديًا للسامية . وعندما كنت فى قبرص ، بذلت أقصى جهدى لمساعدة تل أبيب فى سوق الليڤانت ، وسأظل أتمنى لأهلها التوفيق . وقد يتساءل رجال الاقتصاد عما تستطيع أن تقدمه هذه المدينة الداخلية للسوق . الإجابة أن وراء تل أبيب ١٦ مليونًا من يهود العالم .

وفيما يتعلق بالقنصليات الموجودة بالقدس ، استمرت علاقة الصداقة التى تربطنا بالدول . ففرنسا ، أهم حليف لنا بكل المعايير، كانت ممثلة لعدة سنوات وفق ما كان متبعًا قبل إبرام الاتفاق الودى ، ثم دعم وضعها ما تدعيه من حق للحفاظ على الأماكن الدينية التى تحظى بالحماية الفرنسية . وفى ظل تلك الروح الودية أصبحت الحوادث مجرد « وقائع » ، وتقلصت الوقائع لتصبح مسائل صغيرة ، ولكن حدث تغير ملحوظ فى العلاقات بعد تعيين جاستون موجراس الذى رحبت به الإدارة العسكرية على الفور كزميل وليس كأجنبى ، ومن خلاله أصبحت العلاقات الفرنسية – الإنجليزية تبادلا للمعلومات والثقة ، على خير ما كان يجب أن تكون .

وكان القناصل الإيطاليون يحرصون على إبداء مشاعر الصداقة منذ البداية ، وأصبحت علاقتنا بهم حميمة على عهد فيلارى وتريتونى ، وكانت الحكومة الإيطالية غير راضية عن اتساع ممتلكات ونفوذ الفرنسسكان ، وأبدت لعدة سنوات ميلاً شديداً فى امتلاك موقع العشاء الأخير (وهو مبنى من الطراز القوطى يعود إلى القرن الرابع عشر يقع - شأنه فى ذلك شأن قبر داود - ضمن ممتلكات المسلمين) . ولكن الانتداب كان يحمى الإدارة من التورط فى مثل تلك الأمور تطبيقًا لمبدأ المحافظة على « الوضع الراهن » .. والآن ينشر أستاذ من بالرمو بحثًا يتهم فيه حكومة الانتداب بمعاداة اللاتين (الكاثوليك) بالاتفاق مع الروم الأرثوذكس واليهود . ولكن مثل ذلك الاتهام لم يقدم رسميا من قبل .

أما القنصل الإسبانى فكان رجلاً انعزاليًا ، ولكنه كان لطيفًا مجاملاً ، له علاقات خاصة بالفرنسسكان الذين كانت لوائحهم تنص على أن يتولى الأمور المالية ورئاسة رهبان عين كريم إخوان من الإسبان ، ولم يكن هناك قنصل مصرى بالقدس حتى عام ١٩٢٥ ، ولم يكن هناك أيضًا قنصل ألمانى إلا قبل رحيلى عام ١٩٢٦ . وكان القنصل اليونانى يتولى مراقبة بطريركية الأرثوذكس ، أما بلجيكا فكان يمثلها تولكوفسكى من تل أبيب (حتى استقال من منصبه تمسكًا بانتمائه القومى اليهودى) ، ومثل المكسيك مسيحى عربى ، قام برفع العلم المكسيكى على أضخم سارية فى الشرق الأدنى .

رغم أن مرتبات موظفى الإدارة فى فلسطين تعد مرتفعة نسبيًا (مقارنة بمرتبات إدارة قبرص) ، فإن تكاليف الحياة كانت مرتفعة أيضًا ، وكذلك تكلفة الحفلات المتبادلة ، وكانت تصرف من حين لآخر أيام الإدارة العسكرية حصص مجانية ، وكذلك وقود السيارات ، ولكنها تناقصت مع زيادة عمر الإدارة وموظفيها وعائلاتهم ، وكانت لاتزال هناك دار أو داران للضيافة تتلقى تلك الحصص ، ولكنها كانت ككرة التنس عندما تقذف فى بداية الإرسال لا ترتد مرة أخرى . وكنت وزوجتى نستقبل فى منزلنا فيما بين الرابعة والسابعة من مساء الأحد ما لا يقل عن ثلاثين زائرًا من مختلف الطوائف والجاليات . وتم تأسيس ناد رياضى فى وقت مبكر ، وكانت عضويته متاحة

لجميع الطـوائف والأجناس . ويدأ نادى السيدات عمله لفترة قصيرة ثم توقف ، كما لم يتم تنفيذ مشروع إقامة ناد اجتماعي .

وكان لي شرف تأسيس « جمعية الدراما بالقدس » ، كما كنت أول رئيس لها . وقد قامت الجمعية بعرض عدد من المسرحيات الإنجليزية الشهيرة مثل : الليلة الثانية عشرة ، وماكبث ، والصبر ، وعزيزى بروتس ، وحلم ليلة في منتصف الصيف ، وذلك بفضل براعة وعبقرية أيلمرهاريس - موظف المالية - في التمثيل والإخراج ، ودعم ورعاية المندوب السامى . وكان الممثلون من مختلف الجنسيات ، كان منهم كنج دانكان (مساعد الحاكم) ، وسناج (موظف صغير) ، والعربى : توفيق نصر ، ومن بين الممثلات بعض اليهوديات مثل : سول بيراس ، وحنا يهودا ، وكارمن فيريدلابندر ، وحرصت على أن أستخلص من الممثلين أقصى قدرتهم على الأداء ، كما حرصت على ترجمة خلاصة المسرحية إلى العربية والعبرية ، ونشرها بالصحافة المحلية ، وكانت آخر حفلتين من حفلات العروض المسرحية النهارية (ماتينيه) تخصصان للمدارس ، وكانت زوجتى تحرص على حضورهما ، ونجحت في تشجيع السيدات المسلمات (لأول مرة في تاريخ فلسطين الحديث) على حضور تلك الحفلات ، حيث يجلسن في مقصورات مغطاة بقماش شفاف بنى اللون حتى يقيهن نظرات الفضوليين . وكنت أتولى أمر الدعاية لتلك العروض ، وكذلك الحفلات الموسيقية في دواوين الحكومة والفنادق والصحف قبل العرض بثلاثة أسابيع ، ثم قبل أسبوع واحد من العرض . فقبل يوم واحد ، كذلك كنا نرسل الإعلانات لجميع المساجد والكنائس والمعابد ، وعن طريق المنادى الذى يسير في الطرقات معلنًا عن العرض ، وفي السيارات التي تعمل على طريق يافا ، وكنت أتلقى بضع مكالمات من السيدات يعربن فيها عن إعجابهن بالعروض ، وذلك بفضل الدعاية التي تصل إلى الجمهور بمختلف الوسائل .

ومن بين وسائل الترويح الأخرى صيد الحجل والقطا بوادى الأردن ، وقد يسعدنا الحظ بصيد خنزير برى مما بقي بمنجاة من بنادق الأستراليين ، وفي اللد كانت هناك مجموعة من كلاب الصيد تقوم بصيد الثعالب في مزارع الزيتون ، وفي لقاء عيد الملاكمة (وكان حضوره شرفًا عظيمًا) استمتعنا برؤية نحو المائة من اللاعبين الأشداء .

وإلى جانب المهرجانات الخاصة بالأعياد الكبرى قد يجد الأجانب المقيمون فى فلسطين أنفسهم مدعوين لمتعة غير متوقعة ؛ ففى أوائل عام ١٩٢٢ جاء ممثلون لشركة فوكس للإنتاج السينمائى إلى القدس بغرض تصوير أسوار القرن السادس عشر ضمن فيلم عن استيلاء تيتوس على المدينة . وقد وجد أولئك الواقعيون أن الألوان فى فلسطين بالغة المحلية ، فاستعاروا كشافات كبيرة من الفرقة العسكرية البريطانية ، وما كانوا يبدأون العمل حتى حدث إنذار جاد (رغم تفاهته) جعلهم يحملون معداتهم ويغادرون المكان . فقد كان هناك مشهد يطارد فيه الجنود رجلاً على ظهر جمل ، فما أن اقترب الجنود بملابسهم التاريخية الغالية الثمن ، حتى شرد الجمل ومعه صاحبه خارج موضع التصوير .

ترى .. هل باستطاعتى أن أتذكر الزوار البارزين لفلسطين ؟

أنهم يشتركون فى ميزة واحدة هى : كلما ارتفع قدر الرجل ، كان أكثر تقديراً للقدس . وقد زار اللورد ملنر فلسطين مرتين : إحداهما أيام « إدارة أراضى العدو المحتلة » عندما أخذته جنوبًا إلى الخليل ليشاهد مسجد الخليل ، وعند تناولنا الشاى مع الحاكم العسكرى للخليل وجدنا ملعبًا للتنس ، ودعيت للعب ، وكان هناك عربى يناولنى الكرات ، وفى أثناء انحنائه ليلتقط المزيد من الكرات صدر منه صوت قعقعة ، وعندما نظرت إليه وزميله عن قرب وجدتهما سجينين مقيدين فى أرجلهما بالسلاسل منذ فترة طويلة ، أرسلهما ضابط الشرطة المحلى للقيام بهذا العمل ، ولم أتوقع أن يثير مثل هذا التصرف اهتمام عضو مجلس الوزراء ، ولكن اللورد ملنر كان قوى العزيمة .

وفى زيارته الثانية لفلسطين عام ١٩٢٢ بعد الجولة الأولى فى المفاوضات الفاشلة المصرية – البريطانية ، قال لى إنه لم يكن هناك ما يمنع من توقيع اتفاقية مع مصر أكثر ملاءمة لنا فى الصيف الماضى . كان عدلى يكن ذكيا متحمسًا وراغبًا فى التوصل إلى اتفاق ، عندئذ كان باستطاعة ملنر أن يحصل من عدلى على اتفاق مصرى مقابل الاتفاق البريطانى ، وكان المصريون على استعداد للقبول بأى شىء مادام يظل من حقهم التمثيل الدبلوماسى مع الدول الأخرى ، وكان باستطاعتهم أن يعترفوا

بقناة السويس قاعدة عسكرية لنا ، وأن يتغاضوا عن ذكر السودان ، ويسمحوا للمستشارين في الوزارات المصرية بالبقاء في مناصبهم ، ولكن كل شيء توقف بسبب المعارضة المبنية على دوافع شخصية .

بحلول يوليو ١٩٢٠ أصبح وضع فيصل في دمشق صعبًا ، وأعتقد أن اللورد أللنبي سوف يتدخل ضد حليفتنا فرنسا دفاعًا عنه ، وتم طرده عام ١٩٢٠ بعد مضي سنة على دخوله دمشق مكللاً بالنصر ، فكان ذلك حدثًا مأساويا ، هذا التدهور والسقوط تصورهما ترجمة آخر برقيتين تبادلهما مع المندوب السامي الفرنسي :

« السيدالجنرال جورو   ٢١ يوليو ١٩٢٠

لما كنت قد قبلت كل الشروط الواردة في المذكرة الصادرة منكم في ١٤ الجاري ، وأجد رغم ذلك القوات الفرنسية تتقدم صوب دمشق ، ورغبة في تفادي سفك الدماء دون داع ، أطالب بوقف التحركات العسكرية للجيش الفرنسي ، ليتسنى لنا مناقشة الأمور الواردة ببرقيتكم التي تلقيتها اليوم ، وسوف يقوم بمقابلتكم عضو من الحكومة مخولاً بمناقشة الأمور معكم نيابة عن الحكومة

فيصل

الجنرال جورو   ٢٣ يوليو ١٩٢٠

بيروت

إننا لا نريد الحرب ، ولكن قبول ما جاء بمذكرتكم الأخيرة سوف يؤدي إلى حرب أهلية ، وسوف يعرضني ذلك وكل عضو بالحكومة لخطر داهم ، لقد قبلنا على الفور إنذاركم المؤرخ ١٤ الجاري ، وقد نفذنا الشروط الأربعة الواردة به ، ونتعهد بالالتزام بتنفيذها إذا انسحب الجيش الفرنسي من المواقع التي قام باحتلالها .

فيصل

من الكولونيل طولا   رئيس البعثة الفرنسية

إلى صاحب السمو الملكى الأمير فيصل   ٢٧ يوليو ١٩٢٠

يشرفنى أن أبلغ سموكم قرار الحكومة الفرنسية بمغادرتكم دمشق فى أسرع وقت ممكن ومعكم عائلتكم وحاشيتكم بقطار سكك حديد الحجاز ، وسوف يخصص لكم قطار يغادر المحطة فى الخامسة من صباح الغد ٢٨ يوليو .

أرجو أن تقبلوا يا صاحب السمو عظيم تقديرى

طولا

وفى ٣١ يوليو أسقطت طائرة فرنسية منشورات على دمشق تعلن فيها خلع فيصل وتتوعد بضرب المدينة إذا لم نغادر الشام فوراً . وفى ٢ أغسطس تركزت الأضواء على حيفا التى قام حاكمها العسكرى باستقبال فيصل وزيد ، و١٤ مرافقاً ، وستة من الخدم وقام بتدبير إقامتهم ، وكان فيصل مصراً على التوجه إلى الإسكندرية للقاء اللورد أللنبى قبل سفره إلى لندن ، وكتب الحاكم العسكرى المسكين « إن فيصل وزيد وحاشيتهما لا يسببون المتاعب ، وإنما يسببها أولئك الأعيان الذين ملأوا المكان وتقاطروا عليه كخلية النحل ، ولا نستطيع أن نعرف كم وجبة يحتاجون للغداء والعشاء » .

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء وحدهم ، بل كتب الحاكم العسكرى :

« هؤلاء يريدون التوجه إلى السويس :

٧٢ تابعاً معهم ٢٥ امرأة ، و١٧ حارساً يحملون البنادق ، وخمس سيارات ، وعربة ، و٢٥ حصاناً .

إننا لا نستطيع إبقاءهم هنا إلى الأبد » .

لقد أسفنا جميعاً لما لحق بفيصل ، وكنا على يقين أنه لم يلق معاملة منصفة .. وقد ذهبت مع السير هربرت صامويل لتحيته وزيداً ، عندما مر القطار الذى حمله إلى

المنفى بمحطة اللد ، وقدم التحية له حرس الشرف ، فوقف يرد التحية شامخًا ورزينًا ، ولكن الدموع كانت تترقرق فى ماقيه ، لقد كان جرحه المعنوى عميقًا . ولم تعترف به « السلطنة المصرية » وتستقبله الاستقبال اللائق عند وصوله إلى القنطرة ، فجلس فوق أمتعته انتظارًا للقطار .

وفى ديسمبر ، كان فيصل فى لندن فى رعاية جبرائيل حداد (الذى أصبح باشا) وبذلت أقصى جهدى لتقديمه إلى الصحافة ورجال السياسة ليشرح لهم قضيته ، ونصحته أن يرتدى الملابس العربية عند إجراء تلك المقابلات ، وذلك لاتساع الفجوة بينه وبين مجتمع لندن فقد لا يترك لديهم انطباعًا إيجابيًا لو بدا فى بدلة السهرة الأوروبية ، ولا يبدو أن أولئك الرجال العظماء قد أيقنوا أن ما جاء ليناقشه معهم هو السياسة وليس الأدب أو علم الآثار . وبعد أن سأله روديارد كبلنج عدة أسئلة عن حجم وأصل وأعداد الجمال بالجزيرة العربية ، قال لى فيصل بالعربية « هل يظننى هذا الرجل تاجر إبل ؟ » .

وكانت زيارة ونستون تشرشل لفلسطين عام ١٩٢٢ قصيرة ، لكنها لا تنسى ، فقد خلق وحدة سياسية جديدة بقراره السريع بالقبول بالشريف عبد الله بن الحسين أميرًا على شرق الأردن . وقد أعجب بجمال منطقة المعبد فى القدس على ضوء القمر ، حتى إنه ندم لعدم وجود فرصة أمامه لرسم هذا المنظر البديع .

وفى ربيع عام ١٩٢٥ كانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق ليقوم اللورد بالفور بافتتاح الجامعة العبرية بالقدس . وأرسلت جامعات العالم وفودًا لحضور الافتتاح الرسمى بافتتاح الجامعة ، وكان لى شرف تقديم ممثل « جماعة الخطابة » بكامبريدج . كان حادثًا مبهجًا لليهود ، مثيرًا للشك عند العرب وللقلق عند الشرطة . ويبدو من غير المعقول أن يصبح رجلاً لطيفًا متميزًا مثل بالفور – عند العرب – عدوًا لدودًا ، ولم يكن يدرك حجم المخاطرة التى قد يتعرض لها ، وكذلك كان شأن من حوله ، ولا أدرى ما إذا كان قد عرف حقيقة مشاعر العرب نحوه من مئات البرقيات الموجهة إليه ، والتى تلقاها مكتب الحاكم ، أم أنها حجبت عنه ؟ وعلى نقيض ذلك لم يحظ أى زائر بما حظى به بالفور عند زيارته لتل أبيب ، حيث استقبل بحماس من

الآلاف الذين انتظروا تحقيق حلمهم منذ ألفى عام . وفى حفل افتتاح الجامعة العبرية على جبل المكبر أبهر سامعيه بشخصيته الجذابة وليس ببلاغته التى كان لا يبارى فيها السير هربرت صامويل .

كانت صحبة بالفور ممتعة ، ولكن زيارته للقدس أخرت إمكانية التوفيق بين العرب واليهود لمدة عام على الأقل ، وقد تناولنا الغداء معه ثلاث مرات ، وزار كل مكان فى المدينة ما عدا المسجد الأقصى الذى رأينا أن زيارته لن تكون موضع ترحيب أو حتى اعتبار .

وخلال تناول الغداء معه قبل أن نسير على الأقدام إلى كنيسة القبر المقدس ، طلبتنى الشرطة على الهاتف ، حيث أبلغونى أن الوضع بالغ السوء ، وأنه من الأفضل العدول عن الزيارة . وقد وافقت على حذف زيارة المسجد الأقصى مادام المفتى لا يوافق عليها ، ولكن دخول كنيسة القبر المقدس حق يجب ألا يحرم منه اللورد بالفور ، ولذلك قررت قبول المخاطرة ، وأسرعنا عبر الشوارع الضيقة المنحدرة التى كانت تغرق فى الصمت ، فلا تسمع إلا أصوات المزاليج ، وعندما رفعت يدى بالتحية للأفراد القلائل الذين قابلناهم وردوا تحيتى ، تمنيت أن يظن بالفور أنه المقصود بالتحية ، وقد علمت بعد ذلك أنه فهمها على هذا النحو ، وقرب باب الكنيسة كان الزحام شديداً حتى فكرنا فى أن نجد مخرجاً عبر دير الأقباط . وعندما أدرك الحشد ذلك هرعوا إلى هناك انتظارا لنا ، وبذلك أصبحت الطرق خالية ، فعدنا أدراجنا سالمين .

وقد عاد اللورد بالفور من زيارته لفلسطين دون أن يمسسه أذى ، وعزى الفضل فى ذلك للشرطة ، أما إذا كان هناك حادث فالأصابع تشير إلى الحاكم دائمًا . وقد شهد بالفور الجانب الآخر مما رآه فى تل أبيب عندما كان فى طريقه إلى دمشق بالقطار ، ولكن تغييره للقطار فى محطة غير متوقعة كاد يعرضه للموت ، ورجاه حاكم دمشق الفرنسى أن يرحل عن المدينة ، فاضطر للبقاء فى بيروت يومين على ظهر باخرة انتظارا لموعد إقلاعها ، تحيط به حراسة مشددة ، بينما كانت الجماهير على الشاطئ تتطلع للنيل منه ، وزوارق الطوربيد الفرنسية تمسح المنطقة جيئةً وذهابًا .

كانت العلاقات بين حكومة فلسطين وممثلى الكرسى الرسولى حتى عام ١٩٢١ تكاد تكون حميمة ، ويشوبها سوء التفاهم ، رغم سلامتها ، وقد نتلقى خطاباً من المونسنيور يتهم فيها إدارة البريد بأنها تسببت فى ضياع عدد من الصور الموقعة للبابا الراحل ، أرسلها إلى بعض أعيان مسيحيى القدس ، ويهدد بالكتابة إلى الصحف « محتجاً ضد الطريقة التى تعامل بها الإدارة البريطانية فى فلسطين الكنيسة الكاثوليكية » . وعندما قمنا بإجراء تحقيق ، تبين لنا أن الصور ضاعت فى إيطاليا .

وحوالى منتصف صيف ذلك العام ، اقترحت على السير هربرت صامويل ، أن أقوم بزيارة لروما على نفقتى (ولا تحسب من إجازاتى) لتجديد الصلات القديمة التى بدأتها عام ١٩١٩ ، وأن أشرح لمن أجدهم من الكرادلة حقيقة الأوضاع فى فلسطين .

وقد تأثرت كثيراً للترحيب الذى قوبلت به فى زيارتى غير الرسمية لروما ، فقد قابلت البابا (للمرة الثانية) مقابلة خاصة دامت نصف الساعة ، وعلمت أن قداسته كان يتلقى تقارير عن القلق الذى يثيره « اتساع نفوذ اليهود » ، والتحيز الذى تمارسه حكومة فلسطين . واستطعت أن أبين للبابا بالحقائق والأرقام أن هذه المعلومات لا أساس لها من الصحة . فالعروض السينمائية التى قيل إن البريطانيين أدخلوها إلى فلسطين . كانت موجودة من قبل ، وفى إحدى المرات نبهنى بطريرك اللاتين الكاثوليك إلى أحد الأفلام غير المناسبة ، فمنعت عرضه على الفور ، وكتب إلى البطريرك شاكراً . وأنه لم يعد مسموحاً إقامة حفلات الرقص – سواء كانت عامة أو خاصة – داخل أسوار القدس . وقد بدا البابا مقتنعا بأن « حسن النيات » توافر لدى حكومة فلسطين ، ولكنه أضاف أنه سمع أن حكومة فلسطين سمحت بدخول نساء سيئات السمعة إلى القدس دون اعتراض ، فشكرت قداسته لإتاحة الفرصة لى لأشرح له ما فعلناه مع هؤلاء ، فعند دخولنا القدس وجدنا نحو ٥٠٠ من هؤلاء النسوة يعشن فى حى خاص بهن ، فقمت بإعادة الكثيرات منهن إلى البلاد التى جئن منها على وجه السرعة ، وقمنا منذ أكثر من عامين بإلغاء هذا الحى تماماً ، وربما كان هناك بعض منهن ، ولكن نشاطهن لا يقاس بما كانت عليه الحال عند دخولنا المدينة ، وأكدت لقداسته أنه يتعذر أن نجد مدينة ما – مهما تبلغ درجة قداستها – خالية من هذا

النشاط ، هذا ما فعلته الإدارة البريطانية فى عامين أو ثلاثة أعوام ، ترى هل كانت المدينة المقدسة ، المدينة الخالدة خلال ١٨ قرناً ، خالية تماماً من كل شائبة ؟ فوافق قداسته أن مثل هذه الطهارة مثالٌ لا يسهل تحقيقه فى الوقت الحالى ، وفهمت من مقابلتى للبابا أنه كان يواجه ضغطاً شديداً نجح - بلا شك - فى إيغار صدره ضد الإدارة البريطانية . فقد قال - مثلاً - إنه « من العار على أية دولة منتدبة أن يترحم الناس على أيام الترك بعد سنوات قلائل من انتهاء حكمهم » .

وقد رغب إلىَّ البابا ألا أغادر إيطاليا دون مقابلة الكاردينال جاسبا رى (وزير الخارجية) ، فانتظرت بضعة أيام بروما حتى يعود من إجازته ، وأخيراً ذهبت لمقابلته فى بيته الريفى بصحبة سيسل دورمر (من رجال المفوضية البريطانية) . ودخلنا كنيسة القرية لنجد الكاردينال يصلى مع دستة من المؤمنين ، وبعد الصلاة صحبنا إلى بيته لتناول الإفطار . واستمع بانتباه إلى شرحى للأمور التى يشكو منها البطريرك أو نشرتها الصحف ، وشعرت من هذه المقابلات بأن رجال الكنيسة فى الفاتيكان يريدون الوقوف على الحقيقة ، وأنهم على استعداد للاقتناع ليس فقط بالحقائق ، ولكن أيضاً بالسياسات ، وقد ودعتهم بالاحترام والتقدير ، وأرسل البابا أحد الكرادلة لتوديعى عند السفر .

وخلال زيارتى (التى سبقت توقيع الكونكوردات بعشر سنوات) أبهرتنى العلاقات الحميمة بين الفاتيكان والحكومة الإيطالية ، والاحترام الذى يلقاه الكاردينال وزير الخارجية من رجال الحكومة الإيطالية . وعندما زرته فى قريته ، كان وزير الفنون الجميلة قد قطع رحلة طولها مائة ميل لرؤيته ، وعلمت أن إدارة الهاتف كانت لديها تعليمات بإعطاء الأولوية للمكالمات التى يقوم بها الفاتيكان مع الكاردينال فى تلك القرية الجبلية النائية .

تكرمت « الإدارة » بإقامة حفل استقبال على شرفى فى ديسمبر ١٩٢٢ احتفالاً بمرور خمس سنوات على تولى منصب « حاكم القدس » . وعندئذ كانت أرصدة « جمعية أنصار القدس » قد بدأت فى الهبوط ، ويرجع ذلك إلى قصور فى الاهتمام عند بعض الأعضاء الذين جعلوا مشاركتهم - منذ البداية - تتخذ صورة

التبرعات . وقد اتفقت مع المندوب السامى على أن أقضى إجازتى لعام ١٩٢٣ فى أمريكا سعيًا وراء حشد داعمين جدد للجمعية . ويبدو هذا المشروع الآن غافلاً عن الحقائق المالية لأواخر الثلاثينيات . ويرجع الفضل إلى المسز كورنيليوس فاندر بيلت فى تمكينى من معاملة الولايات المتحدة بنفس الطريقة التى نتهم أمريكا باتباعها فى التعامل مع بلاد أوروبا . وكانت الأسابيع الثلاثة التى قضيتها هناك تركيزًا لخبرة السنوات الخمس ، وإضافة إلى الحفلات التى أقيمت لى ، كنت أذهب يوميا تقريبًا إلى متحف المتروبوليتان ، كما شاهدت عروضًا مسرحية وموسيقية مختلفة ، وتحدثت إلى بعض الكنائس البروتستانتية ، وحظيت بمقابلة الرئيس هاردنج لمدة نصف ساعة قبل أن أسمعه يعلن فى الكابيتول قبوله بتسوية قرض بولدوين .

وزرت شيكاغو ضيفًا على الجنرال داوز ، وألقيت كلمة فى الاحتفال بعيد ميلاد لنكولن فى سبر نجفيلد بالالينوى ، وكذلك فى مناسبتين أخريين بديترويت ، وحظيت بحديث لمدة ساعة كاملة مع هنرى فورد ، تمت إذاعته ، وجمعت بضعة آلاف من الجنيهات لحساب « جمعية أنصار القدس » .

لقد تعلمت دروسًا كثيرة من تحمل مشقة السفر آلاف الأميال ومناشدة الناس التبرع بالمال لينفق على غرض لا صلة له بالأعمال الخيرية . فقد كان الرجال أكثر كرمًا من النساء ، ولا يحتاجون إلى وقت طويل لإقناعهم بالتبرع ، كما تبين لى أن العداء الاجتماعى للسامية فى أمريكا بلغ درجة لا نعرف لها نظيرًا فى إنجلترا .. فالصهاينة المتطرفون يبالغون فى تطرفهم ، ويكرههم اليهود من غير الصهاينة ، ورفض بعض اليهود التبرع لأنصار القدس إلا إذا أيقنوا أن الصهيونية تتقدم فى فلسطين بخطى واسعة . وقمت برفض بعض التبرعات المقدمة من اليهود غير الصهاينة ؛ لأنها اقترنت بشرط ألا يعود نفعها على اليهود ، (وخاصة أن « جمعية أنصار القدس » لم تكن تقبل بالتمييز على أساس دينى أو عرقى) .

وقد تكرم المحامى البارز بول كارافات بدعوة مجموعة من الأصدقاء المهتمين بفلسطين للقائى على مائدة العشاء . وقمت بتقديم عرض حول مهمة الجمعية وفى تقديرى أنه لا يوجد يهود بين الحضور . وعندما أنهيت حديثى ، قام أحد الحاضرين

وكان يحمل اسماً يشـــير إلى انتمائه إلى عائلة يهودية كبيرة وعريقة فى أمريكا ، وقال إنه مقتنع بكلامى ، ويطلب أن ألتقى ببعض اليهود الصهاينة على الغداء ، فى النادى . وعندما التقيت بهؤلاء شرحت الموضوع بنفس الطريقة ، وبينما كنت أرتدى معطفى فى الردهـة بسـمعت أحـد الحضـور يهمس لزميله قائلاً : « إذا كان ذلك كل ما فى الأمـر ، فسـوف نحصـل على ... » ، فـأحسسـت فـى تلك اللحظة وكأنى فى القدس .

وما كدت أعود من هذه الرحلة ، حتى دعيت لرؤية أمى عند احتضارها ، وأظنها أبشع لحظة حزن فى حياة المرء . وقمنا بتوديعها فى جنازة مهيبة حضرها جمع غفير ممن يعرفون فضلها . ولكن لحظات السعـادة عادت فى يوليو ، عندما احـتفل أبى بزواجى فى كنيسة سانت بيتر بميدان إيتونه فى حشد كبير من الأقارب والأصدقاء ورفاق الشباب الباكر ، وقد عبرت القدس عن نفسها بوقار ، فاستقبل ممثلو الطوائف المختلفة زوجتى بالترحاب على رصيف المحطة حاملين سعف النخيل وغصون الصنوبر ، كمـا تلقينـا تحيـات وتهـانى المسلمين والمسيحيين واليهود فى بلديات القدس وبيت لحـم والـرملة ويـافا وتل أبيب . وتشـعب نشـاط زوجتى وامتـد تأثيرها إلى إدارة الجمعية الموسيقية ، وأصرت على إنهاء تردد إدارة الصحة العامة فى إقامة عنبر للولادة بالقسم المخصص للحـريم بالمستشـفى الحكومى يكون هدفـه الأسـاسى تدريب القابلات المسلمات .

ومن بين المتع الكثيرة فى فلسطين ، أنه يمكن زيارة الأماكن التاريخية الشهيرة ، التى تتسم بالجمال اليوم ، خلال مدة الأسبوعين المخصصة للإجازة السنوية للموظفين ، لقد تنزهنا بالسيارة وسط بساتين برتقال النبق بحلب ، وتجولنا فى الأسواق ، وصعدنا إلى القلعة ، وزرنا أقدم معبد يهودى فى العالم ، ودخلنا كنيسة الغار الصغيرة فوق جبل الأقرع الذى يطل على أنطاكية ، حيث سمى الناس « مسيحيون » لأول مرة ، ونزلنا إلى أكاليل أبوللو لنشرب من النبع المسكون فى بستان دافنى على نهر العاصى ، كما تجولنا فى تدمر (بالميرا) وبعلبك وجرش . كمـا تجولنا فى سوريا بصحبة المندوب السامى الفرنسى هنرى دى جوفينيل ، وكنا نذهب أحيانا إلى مصر لنجدها فى كل مرة مع جمالها تقدم النقيض لفلسطين التى كانت بالنسبة لخادمى المصرى

سعيد تجربة صعبة فى أيامه الأولى هناك ، وقد نزلنا ضيوفًا على المارشال العظيم اللورد أللبنى ، أخر من أقام فى قصر الدوبارة من العسكريين ، والذى تجاوز تواضعه الجم شهرته الواسعة .

كذلك نزلنا عند اللورد لويد ، حيث لاحظنا إحكام قبضته على الموقف وما ترتب على ذلك من ردود الأفعال . وعندما وصل لويد إلى مصر كان هدفه تصفية نفوذ حسن نشأت باشا رجل القصر الذى يوجه مصير البلاد ، فاستيقظ نشأت ليجد نفسه فى طهران (وزيرًا مفوضًا) رغم الدموع التى زرفت فى عابدين ، وبعد عام واحد ، كان أولئك الذين يمتدحون أعماله ، يتهمونه بتجاوز وضعه كحكم بين أقطاب المسرح السياسى المصرى إلى التدخل المباشر كطرف فيما يدور من أحداث ، وعندما أطلقت النار على سيارته الرولز رويس بعد مرور الشرطى الذى كان فى موقع عمله ، جرت انتقادات لعدم استخدام حارسيه من راكبى الدراجات الآلية ، مع لوم الهنود على ذلك ، ولكنه غاب عن هؤلاء أن قائد القوات البريطانية هو الذى وضع احتياطات الأمن ، وفى ذهنه حادث اغتيال السردار ، عندما كان يركب سيارة دون حراسة ، ويبدو أن روح الانتقاد التى عرفتها القاهرة مازالت شائعة .

اعتذرت نحو منتصف العشرينيات عن عدم قبول منصب مساعد الحاكم العام ، كان كلايتون قد استقال من منصب السكرتير العام ، ولما كنت قد ضقت ذرعًا بإيقاع الروتين المكتبى نحو ثلاث أو أربع سنوات ، فقد أعربت للمندوب السامى عن عدم رغبتى فى المنصب ، فتمت ترقية صديقى سايمس مما جعلنى أشعر بالسعادة المزدوجة ؛ لأن سايمس هو الذى تولى المنصب، ولأننى نجوت منه .

والآن ، انتهت مدة عمل السير هربرت صامويل فى منصبه مندوبًا ساميًا فى فلسطين ، التى أشعر ومازلت - لعدة أسباب - بأنها ستظل ماثلة فى الأذهان مهما يطل الزمن . ولا أظن أن السنوات الخمس التى قضاها فى فلسطين قد شهدت نظيرًا لها فى تاريخ البلاد ، لقد تعرض حكم هذا الرجل المبدع العبقرى للنقد الشديد من جانب المسلمين والمسيحيين لأنه كان يهوديا ، كما انتقده غلاة الصهاينة لأنه لم يكن يهوديا بالقدر الكافى ، إننى رجل تأييد ولست رجل معارضة (كما يبدو من هذا الكتاب)

ولكن إذا وجدت ظهرى للحائط مهددا بالموت ما لم أعلن معارضتى ، فسوف أعلن أننى ضد الجحود وضد الغدر ، وذلك فيما يتعلق بتهوين اليهود من قيمة وأهمية ما أنجزه السير هربرت صامويل فى فلسطين . وأعتقد جازمًا أن أى شخص غير يهودى يستطيع أن يدلى برأيه فى الشئون اليهوديـــة (كما يمارس اليهود ذلك بالنسبة لشئوننا بحرية تامة) ، فإن الأربعة الكبار الذين سوف يذكرهم التاريخ كبناة للصهيونية هم : تيودور هرتزل ، صاحب الرؤيا ، وحاييم وايزمان الذى أمسك باللحظة التاريخية الملائمة ، وأرثر بالفور الذى جعل العالم يتذكر « الميعاد » بميثاق جديد ، وهربرت صامويل الذى طبق المبادئ ، وحول الكلمات إلى حقائق ، وسوف يسىء غلاة الصهاينة إلى اليهودية إذا جعلوا من المستحيل على الرجل أن يقيم البرهان على أنه « رجل إنجليزى » جيد ، ويهودى جيد فى الوقت نفسه .

مرة أخرى ، وقفت على ساحل يافا فى استقبال الفيلد مارشال الثالث ، لقد بدأ الأمر بداية طبيعية ، ولكنى أشارك أوكسفورد حب القضايا الخاسرة أو الغابرة ، ولذلك ضايقتنى كثيرا معزوفة المديح للمندوب السامى الجديد ، فكل ما يفعله الرجل يفسر على ضوء القصور عند سلفه ، خاصة من أولئك الذين كانوا منذ شهور يطالبون بمد مدة عمل صامويل .

وسواء كانت هناك نبوءات من جانبى أو جانب غيرى عن الشرق ، فلن يقدر لها النجاح . فبعد ثلاث سنوات من الهدوء ، بدا لى أن الصعوبات الكبرى التى ستواجهها فلسطين فى المستقبل هى صعوبات اقتصادية أكثر منها سياسية ؛ لأن حملة أسهم الدين العثمانى أصروا على حصول فلسطين على نصيبها من الفوائد ليس عن مدة الحكم المدنى وحدها بل عن مدة الاحتلال والحكم العسكرى أيضًا ، وبذلك يطالبوننا بسداد مبلغ إضافى فى السنين التالية قدره ٤٠٠ ألف جنيه إسترلينى ، وهو مبلغ يصيب حكومة فلسطين بالشلل ؛ لأن ميزانيتها لا تكاد تصل إلى مليونى جنيه سنويًا .

وخلال بضع سنوات ، تبين الزيف المزدوج لنبوءتى ، فقد أصبح الأمن العام يتطلب اهتماما أكبر من ذى قبل ، والخزانة ظلت مملوءة ، حتى إن المشكلة الأساسية – حتى وقوع اضطرابات ١٩٣٦ – كانت صعوبة استخدام فائض الميزانية فى دعم

الاحتياطى المالى . ومن بين المكاسب التى تم تحقيقها مشروع مياه الشرب بالقدس الذى تكلف كثيراً ، ولم يكن ذلك سوء التقدير الوحيد الذى وقعت فيه ، لقد تضمنت رسائلى التى كنت أبعث بها إلى لندن ثلاث حوادث رأيتها ذات أهمية بالغة بالنسبة لفلسطين ، فقد كانت الإدارة متوترة بالنسبة لأول تعداد للسكان قمنا بإجرائه ، وهو عمل غير مرغوب فيه تقليديا بالشرق ، وقد تم إنجازه عام ١٩٢٢ دون مشاكل ، وكذلك الانتصارات التى حققها مصطفى كمال (الزعيم التركى) على اليونان التى أكسبت مصطفى كمال شعبية كبيرة فى مصر وغيرها من البلاد العربية ، ثم سقوط لويد چورچ الذى حملته إلينا البرقيات بصورة درامية .

فى صيف عام ١٩٢٦ ، عرض على شغل منصب حاكم قبرص ، فقبلت العرض ، وفى أثناء رحلة العودة من الإجازة بإنجلترا ، رأينا موسولينى عن قرب ، فبدا فى قوة وصرامة الغازى المغولى ، وكان يلقى خطاباً فى الكولسيوم الذى ضاق بما احتشد فيه من الشباب الفاشى . وفى أثينا عبر بعض المسئولين ومحررى الصحف عن ارتياحهم لتعيين محب للثقافة اليونانية حاكما لقبرص ، وفى مصر تمنى لنا الملك فؤاد حظا سعيداً .

لقد كنت أتوقع دائماً اليوم الذى أغادر فيه القدس ، ولكن الحقيقة كانت أكثر حدة مما كنت أتمنى . وتحققت - بمزيد من الألم - أن علىَّ أن أطوى صفحة « أنصار القدس» ، فقد نجحنا فى ترميم أسوار المدينة واستحكاماتها والقلعة ، وأصلحنا باب دمشق وباب هيرود وباب صهيون ، وأزلنا برج الساعة التركى من فوق باب يافا (الذى كان بمثابة تعد عليه) ، وتم ذلك كله بفضل جهود كليفورد هوليداى الذى خلفه أشبى عام ١٩٢٢ . فى ظل لائحة تخطيط المدينة التى قننت موادها ما جاء بالأوامر الأولى التى قمت بإصدارها بهذا الصدد ، احتفظنا بالطابع المعمارى للمدينة القديمة ، بالإبقاء على السقوف المسطحة والعقود والقباب وأقواس الشوارع ، والأكتاف والدعامات ، ومنع استخدام ألواح الأسبستوس ، وقرميد مرسيليا ، والصاج المضلع . ووضعنا صناعة الخزف على أساس مالى سليم ، ونظمنا ستة معارض فنية ، وطبعنا محفظة تضم الرسوم المعمارية للمدينة (بالإنجليزية والعربية والعبرية) ، وكذلك أول خريطة حديثة عملية للقدس . وقمنا بإجراء مسح حضرى للمدينة وإقليمها ، ووضعنا

مشروعًا لتخطيط المدينة القديمة والحديثة معًا ، روعى فيه الحفاظ على المواقع الأثرية ، وشق طرق جديدة ، وتحديد مناطق للصناعات والمحلات والمنازل ، وإقامة حزام أخضر حول المدينة ، مع المحافظة على أودية هنوم وجبل الزيتون . وبفضل « أنصار القدس » تمت المحافظة على شاهد القبر الصليبى الوحيد المتبقى من ذلك العصر ، ويخص الإنجليزى فيليب دوبجنى ، أحد الموقعين على الماجنا كارتا ، وحاكم جزر القناة الإنجليزية ، ومربى الملك هنرى الثالث، وكان يقع أمام كنيسة القبر المقدس .

غير أن الإدارات الحكومية المختصة كانت آخذة فى النمو ، كما كان نطاق مسئولياتها ومستوى كفاءتها فى اتساع ، بينما كانت التبرعات لجمعية أنصار القدس تتدهور بانتظام ، وحصل هوليداى على وظيفة رسمية بالبلدية ، وكان يقدم - بصفة شخصية - المشورة الفنية المعمارية لبعض مؤسسات وسط أوروبا التى يتعاون معها بعض زملائه. لقد كانت « أنصار القدس » دائمًا جمعية خاصة ، ومع غياب الدعم الواضح لها ، أخذت تتداعى حتى تلاشت من الوجود .

لقد كانت هناك ثلاثة أسابيع حافلة بحفلات الوداع : استقبال وخطب ، وامتزجت بنبرة الأسى على الفراق فى الخطب والكلمات بمتاعب إعداد أمتعتنا التى سنحملها معنا ، وجاء منحنا العضوية الفخرية مدى الحياة لغرفة تجارة القدس والجمعية الموسيقية ، وغيرها من الجمعيات التى شاركنا فى تأسيسها وقمنا برعايتها ، جاء أثمن قيمة من العبارات التى عبر فيها أصحابها عن مشاعرهم نحونا ، وغيرها من المجاملات الفارغة ، وعشية رحيلنا ، صعدنا البرج الروسى ، وملأنا عيوننا بالمنظر البديع لآخر مرة ، كما زرنا غيره من المواقع الجميلة المهمة زيارة الوداع . وفى صباح اليوم التالى تحركنا إلى يافا ومعنا الصناديق التى تحمل كل ما أملكه من متاع الحياة ، منذ كنت فى الثانية والعشرين من عمرى ، وبلغناها ظهر ٢٩ نوفمبر ، ثم صعدنا على متن القارب البريطانى كورن فلاور الذى أبحر بنا إلى قبرص .

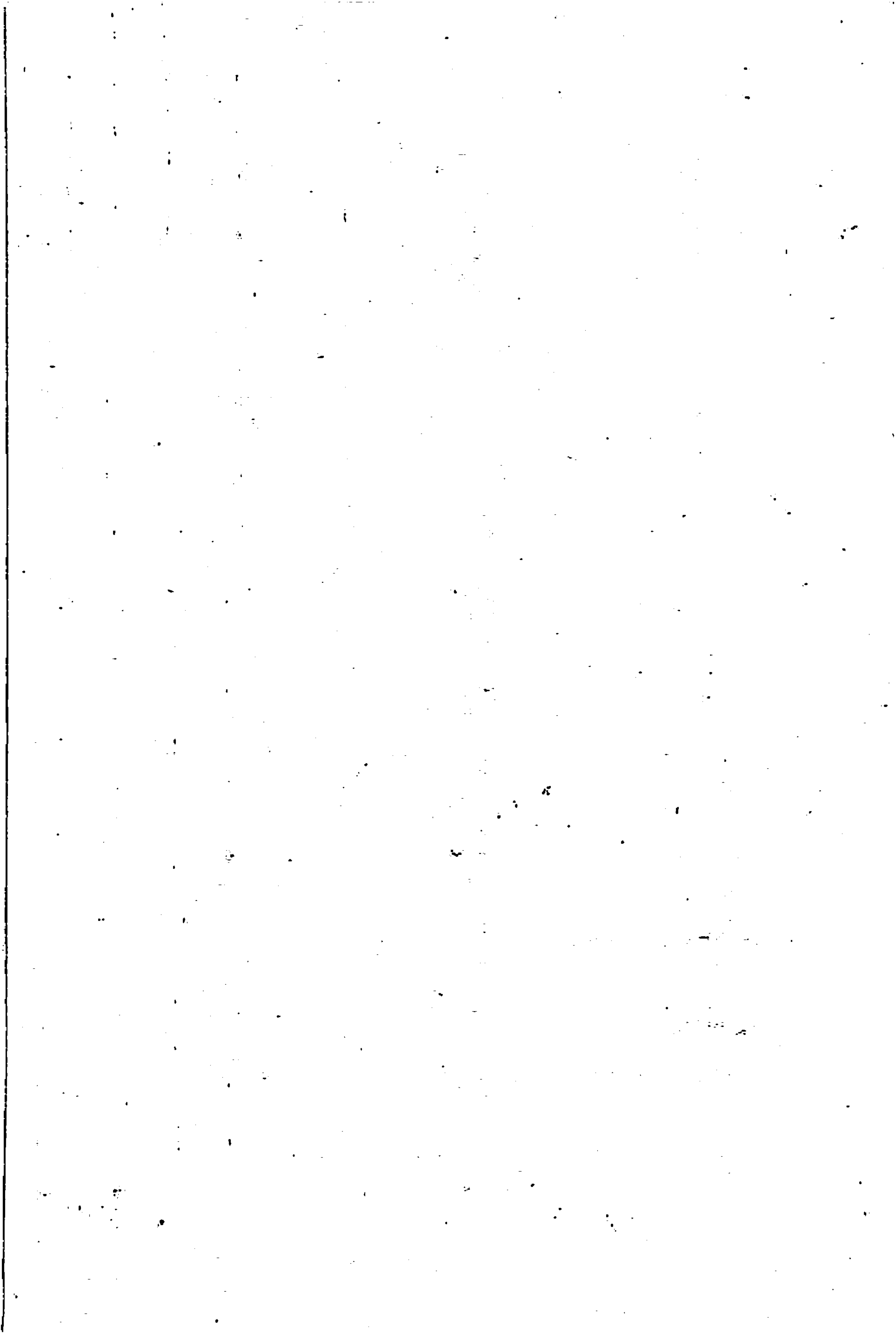
لا أستطيع أن أصف أو أفسر حبى للقدس ، إنه لا ينبع من الدين أو العاطفة ، أو حبى للآثار ، وإن كنت أتمنى أن يتضمن حبى للمدينة شيئًا من هذا وذاك . لعله يعود

إلى أننى عملت واستمتعت وقاسيت هناك منذ البداية ، أو لأنى عرفت الناس جيداً وأحببتهم كثيراً ، ولأن بعد كل سوء تفاهم كان هناك تفاهم ، ولأنى شاركت أمى وأبى سعادتهما عند زيارتهما للمدينة ، ولأنى بدأت هناك حياتى الزوجية السعيدة . إن الأشخاص الذين لهم خبرات أوسع ومشاعر أكثر مرونة يأتون إليها للصلاة ويعودون من حيث أتوا فيرتكبون الموبقات ، أما بالنسبة لى فالقدس تقف فريدة بين مدن العالم . إن هناك مناصب كبيرة داخل الإمبراطورية وخارجها ، ولكنى أستطيع أن أؤكد أنه ليس هناك منصب أرفع من « حاكم القدس » .

الفصل الثامن عشر

لورانس

(١٩١٧ - ١٩٣٥)



للأسف الشديد ، لا تتضمن يومياتى فى بغداد يوم ١٥ يوليو ١٩١٧ تفاصيل ، ولكنها تذكرنى بما يلى : « ذهبت مع لورانس وفيلدنج لتناول الغداء . إن أداء لورانس فى سوريا يشبه المعجزة ، واحتمالات دمشق غامضة » (١) .

وفى أثناء إجازتى بلندن لم أسمع عن لورانس شيئًا ، وعندما عدت إلى القاهرة فى نهاية عام ١٩١٧ ، كان فى مكان آخر ، وقد علمت من حسين روحى - الذى أوصيته برعاية لورانس فى البداية - أن لورانس جاء إليه فى جدة طالبًا معلومات تفصيلية عن عادات وتقاليد عرب الحجاز . وأعد له روحى ثبتًا بالمفردات والتعابير العربية ، وصحبه فى جولة على ساحل ينبع وقديمة وأم اللج والوجه ، وهناك اقترح عليه أن يخلع بزته الرسمية ، وأن يرتدى الملابس العربية ، وفى ذلك الوقت - على حد قول روحى - كان لورانس يتحدث العربية بلكنة مزعجة ، ورغم أن لهجته تحسنت كثيراً إلا أنها لم تخل من لكنة أعجمية ، وهو عيب أثر سلبيا على بلوغ أدائه الذروة (٢) . وتعلم طقوس الصلاة عند المسلمين ، وأطلق على نفسه ذات مرة اسم « الشريف حسن » ، وزعم أنه ولد لأم تركية من إستانبول .

وهناك روايات أخرى وردت فى « أعمدة الحكمة السبعة » فيتحدث عن نسف الجسور التركية على خط سكك حديد الحجاز ، لا يعطى أى منها انطباعًا عن أن صاحبها خبير بالديناميت ، كذلك هناك وصف آخر قدمه كارل راسوان (رحالة أمريكى من أصل ألمانى بارع بالتصوير) الذى كان مسافراً بالقطار التركى إلى دمشق : « اقتربنا من مجرى نهر جاف ، بالقرب من درعا بالأردن ، وتوقف القطار فنظرنا من نوافذ عربة القطار ، وفجأة سمعت صوت انفجار كبير تبعته أصوات انفجارات أصغر ، وكان هناك جسر على مسافة من ذلك الموقع قد نسف فى أثناء

(١) كان كل من لورانس وجبرائيل وحداد يفكر فى كحاكم عسكرى هناك .

(٢) ذكر ليدل هارت قول لورانس : « لم يكن من السهل على أن أتقمص شخصية البدوى ، ولكنى كنت أبدو كأى مواطن يتحدث العربية » .

مرور قطار آخر فوقه ، وكان يقع على مسافة من مواقعنا العسكرية ، وقد تأثرت عربات قطارنا بالقطع المتناثرة من القطار الآخر ، ولكني لا أذكر شيئًا بوضوح ، فقد تم نقلنا بعيدًا عن مكان الكارثة ، ومكثنا بضعة أيام بعمان حتى تم إصلاح «الجسر» .

وفي أوائل يناير ١٩١٨ ، كنت أجلس في القدس التي تتجه إليها عاصفة جليدية ، عندما أعلن عن قدوم رجل بدوي ، ودخل لورانس ليجلس بجواري ، ومكث عندي بقية اليوم ثم مضى إلى حال سبيله . وكلما زار القدس كان يحل ضيفًا عليَّ ، بصحبته المسلية وقدرته على الاستيعاب ، وكان يجيد حيلة تشيلي في القدرة على الظهور والاختفاء دون ضجة . وقد نكون جلوسًا على أريكة واحدة ، ولا أكاد ألتفت في اتجاه عكسي ثم أرد الطرف ، فلا أجد لورانس بجانبي ، بل لا أجده بالمنزل ، أو حتى بالقدس ، بل في قطار متجه إلى مصر .

وفي تلك الأيام ، وبعدها بسنوات ، لم تكن هناك إنارة كهربائية بالقدس ، وكانت أيدي خدمي العرب تكل من تنظيف مصابيح البرافين التي يصدر منها بركان خطير من الدخان الأسود الذي يستقر على الكتب والسجاد وكل ما في الغرفة من أثاث . وتولى لورانس مسئولية المصابيح ، فعندما يكون موجودًا يصبح كل شيء ساطعًا على جبهة علاء الدين . وقال إنه يحب بيتي لأن به كل ضرورات الحياة ويخلو من منغصاتها ، فكان هناك بعض القطع الرخامية اليونانية وبيانو ومجموعة كبيرة من الكتب ، ولكن مناشف الخيل لم تكن كافية ، ولا توجد مناشف كبيرة ، وما هو متاح من الدوارق وفوط السفرة كان قليلاً ، ولذلك لم يكن معظم ضيوفي يؤيدون رأي لورانس .

ولم يكن لورانس مضربًا عن الزواج (وكذلك كان شأن كيتشنر) رغم أنه كان يشعر بالارتياح إذا قيل له فجأة إنه لن يرى (امرأة) مرة أخرى ، وقد يبدو جذابًا لأناس مثل زوجتي وأختي اللتين اعتبرهما « تفعلان » شيئًا ، ولكنه كان ينظر أحيانًا إلى «أولئك الذين يلبسون ثيابهم ، ويعرفون الناس » نظرة محرجة ، وقد يعاملهم بالطريقة نفسها . وعندما تحدثت إليه إحدى السيدات في حفل عشاء عن نفسها ، وعن بعض المشاهير وأسمائهم التي يدللون بها ، كان عدم اكتراث لورانس واضحًا حتى إن

السيدة قالت له : « يبدو أن حديثي لا يروق كثيراً للكولونيل لورانس » ، فانحنى لورانس عند مقعدته (وكانت تلك هى العضلات الوحيدة التى حركها) وأجاب « إن حديثك لا يهمنى مطلقًا » .

كنت أقف معه ذات صباح بفندق كونتيننتال بالقاهرة ننتظر حسين روحى ، عندما اتجهت نحوه سيدة إنجليزية متقدمة فى السن ، لا تستطيع سماع حديثه ، ولكنها تود أن تتحدث إلى « ملك الجزيرة العربية غير المتوج » . كان الجو حارا ، والسيدة تروح عن نفسها بإحدى الصحف ، وقدمت نفسها للورانس : « حاول أن تتذكر يا كولونيل لورانس ، ٩٢ ، ٩٢ » فرد لورانس مبتسمًا : « عمر مديد - يا سيدتى - عمر مديد » .

وفى تلك الأيام كان يتحدث عن المطبعة التى سوف ينشئها فى إيبنج لطباعة الأعمال الكلاسيكية ، (على حد قوله) : « حيث أقدم لك ثيوكريتوس الذى تحلم به . إننى أتطلع إلى العودة لمطبعتى ، ولكن بعد أن أنتهى من صناعة الملكين » . وقد صنع الملكين : فيصل ملك العراق ، وعبد الله فى شرق الأردن ، ولكنه لم ينشئ المطبعة ، ولكن علاقاته مع صديقه وصديقى القديم الحسين بن على ، شريف مكة ، قدر لها أن تنتقل من سيئ إلى أسوأ . فقد تدهورت - للأسف - مكانة هذا الملك بين زمرة الملوك . كان يحظى بالتأييد التام من جانب بريطانيا العظمى ، ولكن استبداده بالرأى والسلطة كان خارجًا عن السيطرة ، فاستمر يعتبر كل اقتراح يتعلق بأى أمر لم يكن يرغب فى عمله على أنه ماس بكرامته ، فيه افتئات على حقوقه السيادية .

إن أى مؤرخ يتحلى بالمعرفة والصبر يقوم بفحص جميع أعداد جريدة « القبلة » لمدة ثمانى سنوات - وكانت لسان حال الحكومة الهاشمية فى مكة - يستطيع أن يقدم للقارئ صورة لأفكار وأعمال تنتمى إلى العصور الوسطى ، وليس إلى القرن العشرين . ففى جدة ، تتخذ إجراءات بناء مسجد صورة استدعاء القائمقام لبعض الأفراد الذين يرغب الملك فى مساهمتهم فى نفقات البناء، ويقدم لكل منهم إيصالاً كتب بمكة بالمبلغ الذى عليه أن يدفعه . وحتى عام ١٩٢٣ كان تقطع يد السارق فى مكة تطبيقًا للنص الشرعى . وعندما تعطل خط البرق من جدة وسواكن ، اقترح جلالته أن تسحب حكومة السودان طلبها التقليدى بسداد المبلغ اللازم للإصلاح . وعندما

لم تستجب حكومة السودان لطلبه ، أصدر أمراً حظر فيه على جميع السفن بميناء جدة استخدام اللاسلكى عقوبة لهم لقطع الاتصال مع الساحل ، ولم يستثن من ذلك أحداً حتى أولئك الذين يمارسون أعمالاً مهمة أو من يستخدمون الإيصال اللاسلكى لضبط الوقت ، وظلت محطة اللاسلكى بميناء جدة متيقظة طوال الوقت لاعتراض أية رسالة متبادلة حتى بين السفن وبعضها البعض ، وتتولى بث رسائل لا معنى لها للتشويش على إشارات ضبط الوقت القادمة من مصوع ، أو لتصحيح وجهة السفن المبحرة جنوب البحر الأحمر .

كان هذا سلوك الملك فى الداخل والخارج على السواء ، وهناك مسألة تدعو إلى الدهشة بقدر ما تدعو إلى الأسف ، فقد قطع المفاوضات الأخيرة مع لورانس (*) - الرجل الذى ساعده ورفع من قدره - فكثيراً ما كان الملك يتراجع عن اتفاقات تم التوصل إليها فى خلال ساعات من التفاوض فى اليوم السابق ، وهدد أكثر من مرة بالتخلى عن العرش (وكان لورانس يتمنى أن يكون جادا فى ذلك) . وأشك أن الملك حسين كان يكن حبا للورانس ، وفى بعض الأحيان كان يثير الشك فى نفوس أبنائه تجاهه موهماً إياهم أن لورانس يعمل ضد مصلحتهم ، ولمح كثيراً لبعض خلصائه أنه لن يسمح للورانس بأن يكثر من الاختلاط مع رجال القبائل . وقد تحدث فيصل معى عن لورانس بقدر من الصراحة الساخرة ، ولو فعل غير ذلك لدهشت ، لأن الملوك لا يحبون دائماً صناعهم .

قرب نهاية خدمتى بالقدس تلقيت رسالة تدعو الراغبين من الناس للاشتراك فى الطبعة الأصلية المحدودة لكتاب « أعمدة الحكمة السبعة » فأرسلت على الفور شيكًا بقيمة اشتراكى ، ليرتد إلىَّ بعد ذلك بالبريد ممزقاً إلى أربع قطع ، ومعه رسالة تتضمن أكثر الكلمات التى وجهها لورانس إلى حدة، معتبراً أن خطابى على هذا النحو كان إهانة له ، وأنه كان « بالطبع » سيعطينى نسخة من الكتاب « باعتبارى صاحب

(*) كانت نقطة الخلاف الرئيسية بين الشريف حسين والإنجليز - عندئذ - تدور حول سوريا وحدود الدولة العربية ، واتفاقيات سايكس - بيكو ، بينما كانت بريطانيا ترى أن الحسين أصبح عبئًا عليها بعد أن لعب الدور المطلوب منه . (المعرِّب)

نصيب فيه » . وكان – فيما بعد – لا يكترث بموهبته العظيمة ، فعندما أصبح يعرف باسم « كتاب العشرين ألف دولار » نصحنى مرتين أن أبيع نسختى بسرعة قبل أن تنهار قيمة الكتاب المادية ، وعندما حرقت نسختى مع بعض الأوراق الأخرى قام بجمع مجموعة كاملة من الصور الأصلية وأرسلها لى .

وقبيل تركى للقدس وتوجهى ، إلى قبرص كتبت له سائلاً عما ينتوى عمله ، واقترحت أن نلتقى ، فتلقيت منه الرد التالى :

أول يونيو ١٩٢٦

عزيزى رونالد ستورس

نعم ، إننى بعيد عن لندن وعن الشئون العامة التى يراها الناس الآن ، ولكنى أسمع منك من حين لآخر ، فإذا أردت رؤيتى ، عليك أن تقضى العطلة الأسبوعية فى بلتون ، إننا على بعد عشرة أميال منها .

فى أغسطس سأسافر إلى مكان ما (لا أدرى شيئًا عنه) . فى سبتمبر وأكتوبر سأكون بكرانويل ، وفى نوفمبر سأقضى إجازة ، وفى ديسمبر سأكون فوق ظهر ناقلة جنود ، ربما فى الطرق إلى الهند لخمس سنوات . وإلى جانب جاذبية سلاح الطيران الملكى ، هل تعتقد أن ذلك أسهل الطرق لرؤية العالم مجانًا ؟

اللوزتان : فى غاية السوء ، لقد فقدتهما مثلك تمامًا . الصفة المعقدة لرسومى الملونة أصابت مطبعة تشسويك بالتوقف ، لقد مضى عامان من محاولة العمل ، ولكنه يزداد صعوبة فى الطباعة ، وهم يأملون الانتهاء منها فى أغسطس ، وحتى يتم ذلك سيظل كتابى معطلاً أو غير مكتمل عندما أبدأ السفر للخارج ، وهكذا أعيش على أمل ، ولا يعلم إلا الله ما ستراه فيما يتصل بالشخصيات الواردة بالكتاب (أنت وغيرك) .

إلى اللقاء

ت. إ. لورانس

وفى الخريف تلقيت منه رسالة أخرى نصها :

٢ نوفمبر ١٩٢٦

عزيزى رونالد

سوف أحضر إلى بلتون يوم السبت ١١ منه ، متى ؟ لا أستطيع أن أحدد .

استمر فى برنامجك فى بلتون ، وسوف أحاول أن أجد لنفسى مكانًا فيه ، فإذا لم يكن يوم السبت مناسبًا لأمر ما (فأمور الحياة لا يمكن ضبطها) سوف أحضر يوم الأحد ، وسوف أظل بالجوار حتى أراك . وربما نلتقى وقت تناول الشاى يوم السبت أو بعد موعد العشاء يوم الأحد ، فلا يعلم موعد اللقاء إلا الله . استمر فى برنامجك وسوف ألحق بك إن عاجلاً أو آجلاً . لدى دراجة نارية ، ولذلك حركتى أصبحت سهلة .

أما عن كتابى، فربما يصدر فى نوفمبر ، وسوف تقوم وزارة المستعمرات بإرسال نسختك إليك ، وستوجه إلى مكتب حاكم قبرص ، لقد سعدت عندما قرأت الخبر ، لقد لقيت دار كننجستون صعوبة بالغة مع اللوحات المرسومة بالباستيل ، ولكنها مازالت فى مرحلة التجريب ، فهى تبدو فى الطباعة متقطعة أقرب الشبه بقطع اللحم فى المجزر ، كتل حمراء اللون . والناشر يبذل جهداً كبيراً مع طابع الألوان ، وأرجو ألا يذهب هذا الجهد هباء . وحوالى ١٥ سبتمبر ستتم طباعة اللوحات (وإن كان هذا التاريخ ليس ملزمًا) .

وسأطلعك على المزيد من التفاصيل عندما نلتقى .

ت . إ . لورانس

لقد نسى خالى أن ينبه كبير الخدم عندما جاء ليعلن أن ضابطًا بين ضباط الطيران بالباب ، كان يضع مخطوط كتابه «أعمدة الحكمة السبعة » تحت مقعد دراجته النارية ، وأرادنى أن أراجع فقرة أو فقرتين من الكتاب ، وعندما كنا نتجول فى الحديقة ، سألته صراحة عن سبب إقدامه على ما يفعله الآن ، فرد بأن هناك شخصاً واحداً فى العالم له حق الوجود ، إنه الفنان المبدع ، لقد حاول أن يكون كذلك ولكنه لم يوفق ، وقال : « أعلم أننى قد أكتب جملة جيدة أو فقرة جيدة ، أو حتى فصلاً جيداً ،

ولكنّى أقمت البرهان على عجزى عن كتابة كتاب جيد ، ولما لم أكن قد رأيت بعد « أعمدة الحكمة السبعة » ، فقد اقتبست مديح هوجارث (الذى كان موضع اعتزاز لورانس) وأرى أنه لا يساوى شيئًا إذا ما قورن بعظمة « هاملت » أو « الكوميديا الإلهية » ، وقد قبل لورانس رأى أناس من ذوى المستوى الرفيع الذى لا يمكن بلوغه مثل : الوزراء ، والأساقفة وقادة الأسطول وأساطين الصحافة . أهل الخير من أصحاب الملايين ، أيد بعضهم هذا الرأى من حيث المبدأ ، ولكنه رفض تطبيقه على كتابه . فطالما لم يكن باستطاعته أن يحقق ما يريد ، فلا يساوى شيئًا ، وإن الحد الأدنى لوجوده يتمثل فى العمل التلقائى ، وإنه عندما ترك القوات الجوية أصبح يبدو كحارس ليلى فى أحد مخازن المدينة .

وأعتقد أن لورانس - على ضوء نبذه للخبث ، وحبه للتناقض الغامض - قد عنى ما قال ، رغم أننى رأيت ضرورة اعتبار عنصر الفزع من المستوى الذى يتوقعه الناس ، وساورنى الشك حول مدى احتفاظه بهدوء أعصابه بعد المعاملة الفظة الخفية التى يواجهها فى درعا [٣] .

كذلك أعتقد أنه قد بالغ فى الإقلال من شأن « أعمدة الحكمة السبعة » رغم أنه لم يكن يعانى مركب نقص ، وقد تحمل مشقة المضى قدمًا كفنان شديد الإحساس بالكلمات .

١٣ نوفمبر ١٩٣٤

عزيزى رونالد ستورس

لقد كنت غائبًا عندما كانت بطاقتك البريدية قابعة بسلام تحت أشعة الشمس المشرقة عند حافة ساوث أمبتون ووتر ، إذا كانت كل السنوات على هذا النحو لما كنا بحاجة إلى السفر إلى الخارج .

(٣) ذكر أكثر من فرد من العاملين مع لورانس أنهم لمسوا أن شيئًا قد تغير فى لورانس بعد حادث اغتصابه فى درعا .

تجد رفق هذا مقالات التايمز عن كيتشنر التى أعيدها لك ؛ لأننى أعلم أن مثل هذه المقالات تصبح بالغة الندرة مع مرور الزمن ، وقد قرأت ثلاثًا أو أربعًا منها عند صدورها ، ولكنى لم أتابع قراءتها بعد ذلك ، وقد استخلصت منها فكرة مؤداها أن الطبعة الجديدة وسيلة غير مناسبة للكتابة ، فالشىء الذى قد يبدو مناسبًا عند طباعته فى كتاب يفقد حيويته عندما يطبع فى صحيفة ، فالكتابة الصحفية لا تعد رخيصة لحمًا ودمًا ، ولكن الآن التأكيد عليها غير طبيعى ، إنها مثل النحت المعمارى الذى يطغى على فنون التجميل داخل البناء .

ولذلك يمكننى القول إن مقالاتك تلك تبدو « انتقائية » موجهة للنشر الصحفى ، ولكنها قد تصبح أكثر جاذبية لو جاءت فى كتاب . إنك تكتب بمزاج خاص ولكن المزاج يحتاج إلى تحديد أكثر حتى يتألق ، ولكن هل تتألق الأمزجة حقا ؟ أظنها تزيد من الانتشاء . وعلى كل فهى من أحسن طرق الكتابة ، وأتمنى أن تحاول الكتابة فى شىء باق يرتبط بخيوط حياتك ، بدلا من تلك المقالات المبعثرة .

وكثيراً ما قلت لك إن أحسن ما قرأت من كتابات ، هو وصفك لتقارير مقابلة العملاء قبل الثورة العربية ، ولقاءاتك مع شريف مكة مساء فى قصره ، فإذا استطعت أن تعبر عن البيئة والشخصية على هذا النحو ، فإنك ستخرج كتاباً جيداً ، وهذه المقالات التى كتبتها عن كيتشنر قد تكون مضللة ؛ إذ يجب أن تستخدم الضمير «أنا» بدلاً من كلمة « السكرتير » (٤) . عليك أن تنسى مراسلات الخارجية ، وحاول انتقاد المندوب السامى .

المخلص

ت. إ. لورانس

لقد أحب لورانس مناقشة كتاباته ، وكان يتواضع إذا اقتنع بالنقد المتصل بالأسلوب أو المعلومات ، وعندما قلت له إنه بالغ فى كرمه معى فى مقدمة كتابه ، وإنه

(٤) كنت مضطراً لذلك ؛ لأن المقالات دون توقيع أو تحديد لاسم كاتبها .

لم يكن منصفًا فى حديثه عنى فى منتصف الكتاب ، فقد قصدت بذلك نصحه فى أمر كنت فيه أكثر خبرة منه .

التقيت وزوجتى معه عند عودته من الهند أوائل عام ١٩٢٩ على متن الباخرة راجيو مرة ثانية ، والتى قضى فيها وقت الرحلة مستلقيًا فى مقصورته ، مشغولاً بترجمة هوميروس ، لم يبتئس عندما قلت له إننى أعتقد أنه ضحى بالأوديسة كثيرًا حتى يبدو مختلفًا عمن سبقوه إلى ترجمتها ، ولكن ترجمته لافتة للنظر رغم عدم دقتها ، والعربية الفصحى قد تصبح عنده عربية عامية ، ولكن لترجمة الأوديسة التى قدمها لورانس ميزتين بارزتين : فهى تقدم هوميروس ولورانس معًا ، كما أنها غزلت من عبادة البطل خيطًا حريريا قادنا إلى آلاف النماذج لهوميروس التى لا تطابق صورة الأصل ، تمامًا كما يفعل رجل الشارع فى لندن عندما ينظر إلى « فازة » تاريخية من المتحف البريطانى معروضة للبيع فى صالة مزادات شهيرة فى حضور أمير ويلز (ولى العهد البريطانى) .

أرسل لورانس إلىَّ فى قبرص أصول كتابه The Mint الذى يرسم فيه صورة صريحة لأيامه الأولى فى سلاح الطيران ، ولم يكن القص يقل جودة عن الوصف ، ولكن التناقض بين النفوس واللغة التى يستخدمها أصحاب مختلف الرتب كانت مروعة دون شك ، ويبدو أنهم وجدوا متنفسًا لما يحيط بوجودهم من مخاطر فى التعبير عن مشاعرهم بأسلوب بالغ القبح ، وقد وضعت علامات بالقلم الأزرق على بعض العبارات فى عدد من الصفحات بلغ نحو الثلاثين حتى يخرج الكتاب إلى النور ، ولكن لورانس قال إن اللغة هى الحياة ، فإذا كان الأمر « يقتضى تزويرها ، فلا داعى لنشر الكتاب » (وقد نُشر بعض من هذا الكتاب مختصرًا فى عدد من المقالات الصحفية دون توقيع ، وحصل ناشر أمريكى على حق إعادة نشر عشرة من تلك المقالات ، ولكن الكتاب لن ينشر قبل عام ١٩٥٠ ، وهو التاريخ الذى حدده لورانس بنفسه) .

وكره لورانس أن يكون محط الأنظار إلا بالقدر الذى يسمح له بالوجود فى موقع حافل بالناس فلا تركز الأضواء عليه وحده ، ولكنه لم يكن مستاء إذا فشلت الاحتياطات التى يتخذها لتجنب التركيز عليه . دعانى وزوجتى ذات يوم لمرافقتنا فى زيارة للمتحف الحربى الإمبراطورى لنرى الصورة التى رسمها له جيمس ماكبى ،

وطلبت منه أن يقف أمام اللوحة لأقارن بين الأصل والطريقة التى رآه بها ماكبى ، وفى لحظات كان الجميع قد عرف أن لورانس موجود بالمتحف ، فأكملنا الجولة وحولنا حشد من الناس ، ولا يبدو أن لورانس قد تضايق ، وعندما أشرت فى نهاية الزيارة إلى عدد من أحاطوا بنا قال إنه لم يلاحظ ذلك ، لقد كان مركباً من التناقضات يجمع بين الخجل والانطواء ، غير أنه استمتع بالجلوس أمام المصور ، واستمع باهتمام إلى نقد نتيجة عمله ، وكان أبعد الناس عن مستوى المدرسة العامة ، فيمكن أن نرسم صورة له فى ملابس السهرة أو ملابس الصيد أو برباط عنق المدرسة القديم ، فشخصيته تجمع بين هذا وذاك . وكان يتصرف فى مختلف المواقف بقدر كبير من الذكاء ، غير أن قدراته الإدارية كانت معدومة ، فيه الكثير من روح الفريق مثل الإسكندر الأكبر أو لويد چورچ .

وقد التقينا فى إنجلترا (كما هو متوقع) مصادفة فى أغلب الأحوال ، وبموعد مسبق فى أقلها ، إما فى الطريق أو فى الحافلة أو على محطة القطار ، وكنت ذات مرة أشترى أسطوانة جراموفون عندما استقرت يده على كتفى . كنت قد عبرت لتوى إلى إنجلترا ، وظننت أن البائع يريد معاونتى فى اختيار الأسطوانة المناسبة ، ولكن عندما التفت وجدته لورانس ، جاء ليزيد من مجموعته الضخمة من الأسطوانات المكدسة على الرفوف فى الحجرة العليا من بيته . وذات مرة أخذنى معه لزيارة الناشر ، وفى أثناء تفقده للغرفة جمع نحو نصف دستة من الكتب غالية الثمن ، وتصرف وكأنه صاحب الشركة ، فأهدانى بعضها ، كان لورانس صديقاً مخلصاً ، عطوفاً ، حافظاً للود ، فهو يقطع مسافة طويلة بدراجته النارية (التى قادته إلى حتفه) ليعودنى فى بيت التمريض ، ويقود دراجته تلك مسافة ٢٠٠ ميل من غرب إنجلترا لكى يودعنى قبل السفر إلى قبرص .

وبعد عودتى من رحلة نقاهة كتب لى :

٥ مايو ١٩٢٩

عزيزى رونالد ستورس

أبلغنى موريس بارنج أنك قد عدت ، هل عادت عليك الرحلة بالفائدة ؟ هل استرددت صحتك أو شعرت بالتحسن ؟ إننى هنا فى موقع يحول بينى وبين الوصول

إلى لندن حتى فى العطلة الأسبوعية ، ولكن المكان جيد وكذلك الصحبة ، والأمور بالنسبة لى على ما يرام .

بلغ تحياتى لليدى ستورس ، وأرجو أن تكون راضية عن تحسن صحتك .

أعطانى موريس بارنج مجموعة ضخمة من « جيباك » تزيد ضخامة عما أعطاه لك ، ولم أكن أعلم أن بها أشعاراً جيدة ، وقصائد رصينة حولها . إن نصفها يعد جديداً علىَّ .

المخلص

ت. إ. لورانس

وعند مغادرتنا ساوثامبتون إلى كندا عام ١٩٣٤ كان فى وداعنا رجال وزارة المستعمرات و ت. إ. لورانس الذى كان يبدو بصحة أجود مما كان عليه من قبل ، وقد صعد إلى ظهر الباخرة ، وتحدث مليًا عن تقاعده فى مارس القادم فى منتجع صغير بمعاش حده الأقصى مائة جنيه سنويًا ، وأنه يستطيع أن يقدم لضيوفه الخبز والعسل والجبن ، ولكنه لا يستطيع أن يدعوهم لقضاء الليل عنده لعدم وجود مكان لذلك ، فلا يبقى أمام الضيف إلا النوم على الأرض داخل كيس . كان صديقًا حميمًا مرحًا كريمًا ، وكان ذلك آخر لقاء لى معه ، فقد مات دون أن أراه مرة أخرى .

لقد دمرت معظم خطاباته لى فى الحريق الذى أصاب منزلى ، ولم يبق منها إلا حوالى ستة خطابات ، وتبين تلك الخطابات قوة وتنوع جوانب شخصيته ، وقدرته على التهرب ، ففى لحظة ضعف طلبت منه أن يكتب مقدمة لكتاب عن حياة البدو أعده فنان قمت بافتتاح معرض له ، وكنت أعلم أنه أمل فى أن يستجيب لورانس للطلب ، وكتبت له مرة أخرى طالبًا منه أن يرد على خطابى حتى أجد ما أقوله لذلك الفنان ، فتلقيت الرد التالى :

برد لنجتون

٢٥ فبراير ١٩٣٥

لا : لن أفعل ، فمقدمات الكتب عفنة ، ولا أود التورط فى ذلك مرة أخرى . إن برترام توماس كالمرأة شديدة الإلحاح ، ولكن من السهل أن نقول « لا » ، للغرباء ويجب أن يعلم أن ليس له علىَّ حق ، كما أننى لم أعرف يوما ما يكتبه ، أو لماذا يكتب ، ومن يكون ؟ لا ، بكل تأكيد لا .

المخلص

ت . إ. لورانس

ملحوظة : سوف أغادر المكان صباح الغد ، وأترك معه خدمة سلاح الطيران الملكى ، هذا ما جناه أبى علىَّ وما جنيت على أحد .

لقد كره لورانس المجتمع ، ولكنه أحب الصحبة ، رفض تولى منصب مدير الآثار بقبرص ؛ لأنه لا يقبل الالتزامات الاجتماعية التى تحتمها الوظيفة . وكل من يعرفونه كانوا يتوقعون فشله النسبى فى « زمالة جميع النفوس » ؛ فهى جمعية تتوقع أن يخالط أعضاؤها بعضهم البعض ، فإذا لم يتسع وقت العضو لذلك ، فيجب أن يحضر المحاضرات التى تنظمها الجمعية . فالتخاطب - عند جيبون - يشحذ الأذهان ويثريها ، أما التوحد فيعد مدرسة فى العبقرية .

غير أن لورانس أحب - أحيانًا - أن يتحدث مع الأصدقاء فى أثناء المشى ، وكان أسلوب حياته شديد البساطة ، لم يكن مدخنًا ، كما لم يقرب الخمر ، ولكنه - للأسف - كان مدمنًا للقيادة بسرعة كبيرة ، وقد كلفه هذا الإدمان لقيادة دراجته النارية بسرعة فائقة حياته فى نهاية الأمر . فقد تسابق مع طائرة لمدة ربع ساعة ، حيث جرى بدراجته النارية على طريق مفتوح والطائرة تحلق فى السماء .

لقد عانى لورانس من الإفراط فى المبالغة فى كل شىء من جميع النواحى . وقد حاول البعض - فى حياته وبعد موته - أن ينالوا من سمعته ، وقيل لنا إن عملياته

العسكرية كانت محدودة النطاق ، وأن أى شخص آخر كان باستطاعته أن يفعل ما فعله هو ، طالما كان ألنبى يدعمه ، وذهب الخزانة البريطانية فى متناول يده . واتهم بإثارة الدعاية لنفسه التى قصد بها إحاطته بهالة من الغموض ، ولا ريب أن كبار الموظفين قد ضايقهم ما يحققه هذا الرجل الذى لا تسبق اسمه ألقاب ، ولا تتبعه حروف ترمز إلى ما يحمله من أوسمة ونياشين ، ولا يصل راتبه السنوى إلى مائة جنيه ، ولكن إنجازاته تحيطه بهالة من الضوء تلقى بظلالها على ما يفعلون . هناك نوعان من الموظف العام ، يقال عن النوع الأول : « ترى ماذا يفعل الآن ؟ » ويقال عن الآخر « من الوزير الذى يتبعه هذا الرجل ؟ » فالمجموعة الأولى من الموظفين تثير انتباه واهتمام العالم ، وإلى هذه المجموعة ينتمى لورانس ، وونستون تشرشل ، ولويد چورج . أما المجموعة الأخرى فذات نطاق واسع ، وتعرف باحتلالها لأهم المواقع .

كان لورانس – فى الشهور الأخيرة من حياته – يعيش تحت ضغط توقعات محزنة . تحدث فى آخر خطاباته بعد تركه خدمة سلاح الطيران الملكى عن « حائط غير مميز تماماً » يواجهه ، وأنهى آخر خطاباته بكلمات يائسة لرجل طرطوس :

فندق أوزون

بردنجتون

يورك

٣١ يناير ١٩٣٥

عزيزى ستورس

لا ، لشديد الأسف لن يعرفنى هيث أبداً ، بقى لى شهر فى خدمة القوات الجوية سأقضيه هنا ، مشرفاً على عمرة تجرى لعشرة من قوارب سلاح الطيران فى مرأب محلى .

اسم الفندق حقيقى ، ولذلك أتعجب من تلك الرائحة الكريهة أهى الأوزون أم سوق السمك ؟! إن الفندق فارغ ، بارد ، ولكنه جيد .

للأسف ، ليس لدى ما أقوله الآن ، فبعد تسريحى من سلاح الطيران الملكى ، سأحاول أن أجمع شتات نفسى للبدء فى حياة جديدة تشغلنى ، ولكنها تبدو أمامى حائطًا غير مميز تمامًا . أعتقد أن التقدم فى السن قادم لا محالة ، وأعترف بأننى أشعر بالخوف من ذلك ، وهو شعور جديد على ، وحتى الآن لم أستقر على أمر ما .

آه ، حسنًا ، سنرى ما يكون بعد مارس ، أتمنى أن نلتقى طبعًا ، ولكنى لا أعرف أين سأعيش ، أو ماذا سأفعل ، أو ماذا أطلق على نفسى ؟

تحياتى لليدى ستورس ، ورجاء أن تعود إلى طبيعتك المقاتلة ، ولعلك عدت فعلاً .

المخلص

ت. إ. لورانس

وها هو القسم الثانى مما يعد آخر خطاباته ، كتبه بمناسبة العيد الذهبى لإريك كننجتون :

« لعلك تتساءل عما أفعل ؟ حسنًا ، فى الحقيقة أنا نفسى أتساءل مثلك ، فالأيام تتوالى ، وكذلك الليالى ، ثم النوم ، ماذا أفعل ، وماذا أنوى أن أفعل ؟ أسئلة تحيرنى وتضايقنى ، ألم تر ورقة تسقط من شجرتك فى الخريف ؟ هل فكرت يومًا فى تلك الورقة الذابلة الساقطة ؟ إن ذلك هو ما أشعر به ، فالكوخ الذى أقيم فيه لا بأس به ، وهو مناسب لى ، ولكن كيف أستطيع استضافة من يفد إلىّ ، فليس هناك سرير إضافى ، ولا توجد أوان للطهى .. أليس مثل تلك الأشياء ضروريا لأمور الحياة ؟ أرجو السكينة للجميع » .

كانت أخبار لورانس ذات قيمة نقدية كبيرة ، وبعد تركه لخدمة سلاح الطيران وعودته لكوخه فى كلاودزهيل وجد حشدًا من الوجوه الغريبة التى تختفى وراء آلات التصوير تسد الطريق أمامه وتطارده بأضوائها ، ففر هاربًا ، وعندما عاد فى الليل متسللا إلى الكوخ ، ألقوا بالحجارة على سطح الكوخ حتى يضطروه للخروج . وعندما

خرج ووجد مصوراً في مواجهته ضربه وطرحه أرضاً ، وألقى به بعيداً ، ولكنه أحس بضيق شديد ؛ إذ كانت تلك هي المرة الأولى التي يضرب فيها أحداً منذ سنوات .

وخلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة من حياته ، كان هناك طائر يحط على شباكه وينقر على النافذة باستمرار ، فإذا انتقل لورانس إلى غرفة أخرى تبعه الطائر لينقر على نافذتها ، وكان هذا النقر يثير أعصابه ، حتى إن صديقًا له أطلق الرصاص على الطائر في أثناء وجود لورانس خارج البيت ، وفي نفس اللحظة كان لورنس يلوى مقود دراجته للمرة الأخيرة ليسقط على رأسه من ارتفاع ستين قدماً على الطريق المرصوفة بالجرانيت ، وتطوى صفحة حياته .

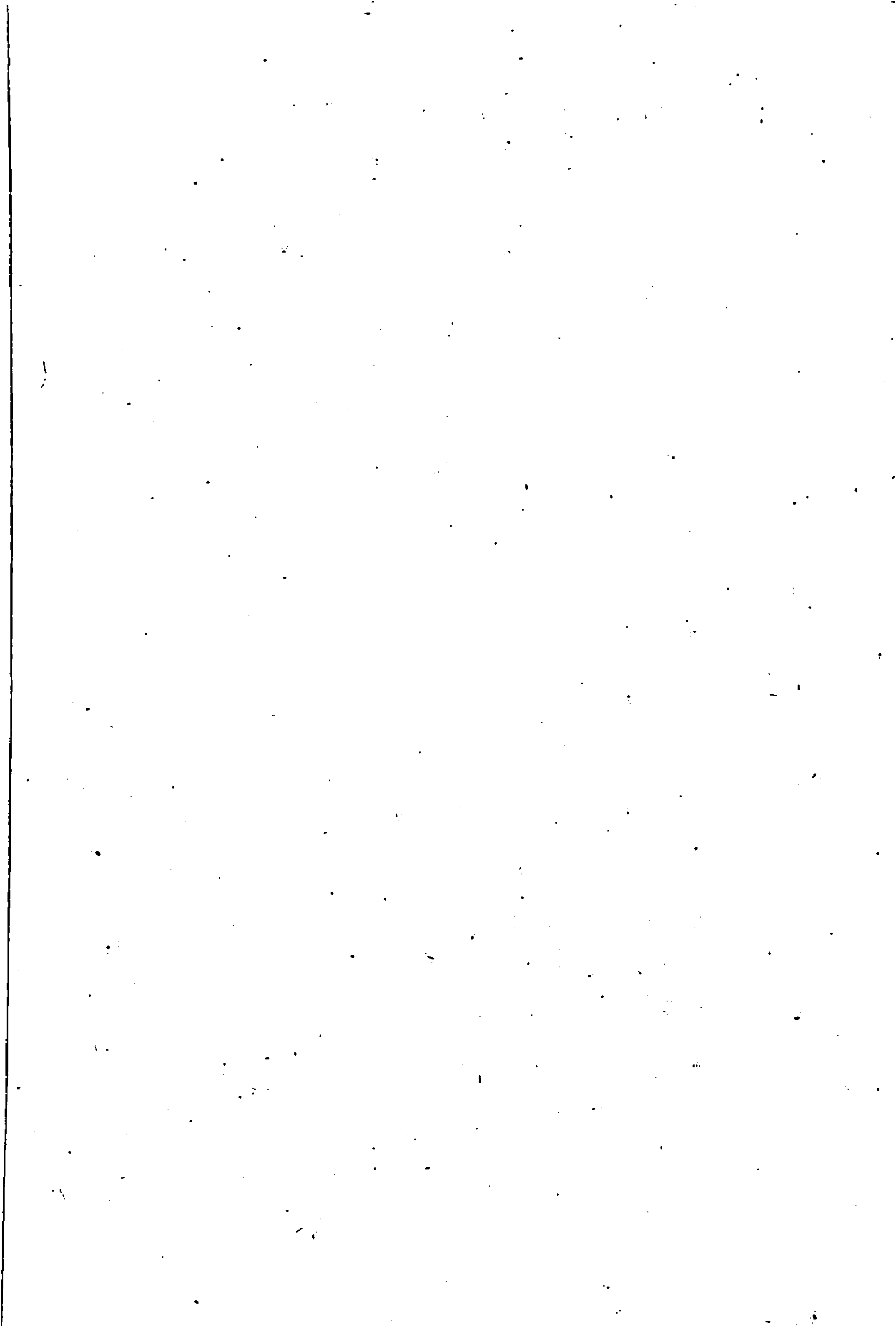
جلست إلى جانب جثمانه المسجى حتى تم تجميع النعش المصنوع من خشب البلوط ، ولم يكن هناك شيء في حجرة اللحاد سوى بعض الزهور البرية من الوادى وبعض الورود الحمراء ، لقد جئت مستعدا لرؤية ما يسبب لى الصدمة ، ولكن إصابته كانت في مؤخرة رأسه ، إضافة إلى كدمة شديدة عند عينه اليسرى ، ولكن ذلك لم يشوه ملامحه ، كان أنفه مستقيمًا قليل الانحناء ، وكان ذقنه مربعًا قليلاً ، وكانت الضمادة التي تلف رأسه شبيهة بكوفية شيخ العرب ، وعندما حملنا نعشه إلى الكنيسة الصغيرة ، تابعته آلات التصوير لتسجل آخر لقاء عام للورانس .

لقد عرف البعض جانبًا من شخصية لورانس ، وعرف غيرهم جانبًا آخر من شخصيته ، ولكنى لا أظن أن أيًّا منهم عرفه على حقيقته وألم بسمات شخصيته ، ترى هل كان سيمر بمرحلة الشيخوخة ؟ بل هل عاش يوماً شبابه ؟ اعتقد البعض أنه كان ينوى الاستمرار في خدمة بلاده ، بينما اعتقد البعض الآخر أنه كان باستطاعته أن يؤلف كتابًا مهما آخر . إن لورانس شأنه شأن صناع الإمبراطورية الذين لا تحد من حركتهم المخاوف ، ولا يأبهون للكسب الشخصى ، وإنما يهتمون بما يحققونه لبلادهم؛ ولذلك سيظل لورانس مثالاً فريداً بغض النظر عن كتابه ، لقد صنعت الحرب شخصيات مهمة لعل أبرزها الرومانسى الخجول العبقرى الذى سيخلد اسمه في التاريخ « لورانس جزيرة العرب » .

الفصل التاسع عشر

مستعمرة قبرص

(٣٠ نوفمبر ١٩٢٦ - ٩ يونيو ١٩٣٢)



أحيانًا تقوم الذاكرة بتسجيل أشياء تافهة بقدر كبير من التركيز والوضوح ، بينما كنت أقف مرتديًا البزة الرسمية على ظهر « كورن فلاور » وهى تبحر بحرص عبر خليج فاما جوستا ، تذكرت أن قبرص هى المكان الثانى الذى زرته سائحًا ، ثم عدت إليه حاكمًا ، وتساءلت عما إذا كان تغيير الحكم سوف يتبعه وجود ضباط وموظفين يكنون الولاء للحاكم السابق ، ومن ثم يعتبرهم زملاؤهم « الحرس القديم » ، تمامًا كما يحدث عند تغيير الحكم هنا وهناك ؟ وتمنيت أن يكون من خلفنى فى حكم القدس متسامحًا مع « حرس قديم » خلفته ورائى هناك بالفعل . كنت أعرف الكثير عن جمال وأهمية قبرص ، وسمعت الكثير عن أساقفة المدن وساستها .

وما كادت السفينة تلقى مراسيها ، حتى بدأ العمل السياسى ، فقد أبلغنى مندوب الإقليم – دون تردد – أن خطاب عمدة فاما جوستا الذى أعده ترحيبًا بى مطوى ومربوط بأشرطة بيضاء وزرقاء . مثل علم اليونان [١] ، وأن ذلك ما جرى عليه العرف منذ سنوات طوال ، وعلى كل فليس مطلوبًا من العمدة أن يلقى خطابًا . وقد يكون من المؤسف أن أبدأ حكمى بحادثة تسىء إلى أربعة أخماس السكان . وهكذا قبلت الخطبة الملفوفة التى أعدها العمدة لتحيتى ، وقرأها أمام جموع المستقبلين على رصيف الميناء ، وركبنا القطار الصغير ، وما كدنا نتجاوز برج عطيل ، وتبدو أمامنا الكاتدرائية الفرنسية ذات الطراز القوطى ، ونمر عبر تحصينات العصور الوسطى وسهل ميزاوريا الأوسط(بين الجبال) ، ما كدنا نفعل ذلك حتى استؤنف العمل السياسى ، فقد أبلغتنى وزارة المستعمرات أن المجلس التشريعى للجزيرة رفض إقرار الميزانية فى اليوم السابق ؛ لأنها تضمنت (كما جرت العادة من قبل) مبلغ ٩٢,٨٠٠ جنيه إسترلينى قيمة مساهمة قبرص فى الدين العثمانى ، وهو مبلغ معادل لما كان يعرف « بالجزية التركية » . وأقحمت السياسة نفسها للمرة الثالثة (قبل أن أصل إلى

(١) وهما لونا كامبروج تمامًا حيث ينقسم علمها إلى قسمين : أزرق – أبيض .

مكتبى) عندما كنت أقسم اليمين أمام المجلس التشريعى ، فغاب عن الحضور غبطة الأسقف الأرثوذكسى القبرصى كيرولس بحجة المرض ، وكان حضوره من بين المراسم التقليدية التى حافظت عليها الحكومة البريطانية ؛ حيث كان المفتى يحضر مثل هذه المناسبة عند تولية حاكم عثمانى ، فحل محله الأسقف الأرثوذكسى .

وقد سارت بنا السيارة ببطء بين جموع الجماهير المصطفة على الجانبين ، ورفرفت الأعلام اليونانية فى شرفات المنازل ، واستمر الموكب بين مزارع بدت – بعد فلسطين – كالمتنزهات البريطانية حتى بدا أمامنا منزل منخفض شبيه بالحظيرة ، وهنا قالت زوجتى : « على كل ، الإسطبل يبدو جيدًا » ، وكان ذلك المبنى هو مقر الحكومة .

لقد حاول المندوب السامى الأول لقبرص أن يجد مقرا مناسبًا للحكم منذ ٤٨ عاما . وفى الوقت نفسه أرسلت وزارة الحرب البريطانية كوخًا خشبيا لسكنى الضابط الذى يقود قواتنا فى سيلان ، وقبل وصول السفينة التى تحمل ذلك الكوخ إلى بورسعيد ، أبرقت القيادة العامة فى الهند بما يفيد العثور على مبنى مناسب لسكنى قائد القوات . ولما كان من الصعب . التفريط فى حمولة السفينة فقد وجهت إلى قبرص . وقد حملت أجزاء الكوخ على ظهور الجمال إلى نيقوسيا ، وتم تجميعه بمعرفة مقاول محلى يدعى ويليامسون ، عرفه العالم فيما بعد باسم باسيل زخاروف . وكان البيت شديد البرودة شتاء . وما كدنا نمضى ساعتين داخله حتى هطل المطر « لأول مرة » مصاحبًا لوصول الحاكم الجديد ، فتسرب الماء بغزارة عبر السقف لتفيض به قاعة الاستقبال والمكاتب الملحقة بها .

ولكن مقر الحكم ، بحوائطه وسقوفه المقامة من ألواح الخشب السميكة المطلية ، وأرضيته العفنة ، كان لايخلو من جاذبية ، وأصبحنا نحب ذلك المكان . كان من سبقنى من الحكام قد سدوا الشرفة المطلة على الحديقة بالحجارة الصفراء التقليدية الشائعة بقبرص ، وبذلك كونوا ممرًا ضيقًا يبلغ طوله ١٢٠ قدما ، وكانت حجرة الاستقبال وحجرة الطعام تتسمان بالتواضع وبالتقسيم الجيد ، وكان بالإمكان الاهتمام بالحديقة لو كانت الأرض أجود والماء أوفر . وعندما قام الخدم المبتسمون بفك غلاف بعض

الأيقونات البيزنطية الخاصة بى ، بسمعت أحدهم يصيح مندهشاً وهو يقبل كل واحدة منها « ولكن الحاكم مسيحى [٢] ! » .

ونظرة إلى كتاب الدليل الرسمى نعرف منه أن قبرص من مستعمرات التاج البريطانى ، وأنها جزيرة تقع فى شرق المتوسط على بعد نحو ٤٠ ميلاً من ساحل آسيا الصغرى شمالا ، وحوالى ٦٠ ميلاً من الساحل السورى شرقاً . واسم الجزيرة : قبرص ، لا علاقة له بشجرة السرو (Cypress) ، وهى ثالثة جزر المتوسط الكبيرة ، أصغر من صقلية أو سردينيا ، ولكنها أكبر من كورسيكا أو كريت ، وهى تقترب من نصف مساحة فلسطين (وويلز) . وشكلها كان يشبه فى العالم القديم بجلد غزال منشور ، يشير ذيله إلى آسيا شرقًا، وتعداد السكان نحو ٣٥٠ ألف نسمة ، أربعة أخماسهم من الروم الأرثوذكس ، والباقى من الأتراك الذين يتحدثون التركية ، أما غالبية السكان فيتحدثون اليونانية الحديثة .

وتتمتع قبرص بمزايا مناخية وطبيعة متنوعة (فيما عدا المياه) بقدر أكبر مما عليه التنوع الطبيعى فى فلسطين ، فالعاصمة نيقوسيا والسهل الأوسط الكبير قد يكونان أكثر حرارة من القاهرة فى شهر يوليو ، وتصل الحرارة فى أغسطس إلى نظيرتها فى الخرطوم ، بينما يحتاج المرء إلى الغطاء الثقيل والتدفئة فى الصيف على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم فوق جبل طرودوس .

وفى الشتاء لا يستطيع أحد البقاء فوق هذا الجبل نفسه ؛ لأنه يصبح مغطى بكميات كثيفة من الجليد ، يدفن تحتها كوخ الحكومة الموجود هناك ، على حين تكون المدينة والقرى فى الوادى وكذلك الشواطئ غارقة فى شمس ساطعة كالريفييرا الإيطالية .

وقد قام وليم مالوك برحلة إلى قبرص فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، واختار للكتاب الذى ضمنه وصفاً لرحلته عنوان « فى الجزيرة الساحرة » . وهى

(٢) تسمع مثل هذه العبارة كثيراً من الروم الأرثوذكس ، فيقولون مثلاً : « إنه ليس أرمنيًا ، إنه مسيحى» ، فهم لا يعترفون بالمسيحيين من أتباع الكنائس الأخرى .

ساحرة حقًا ، ولا يقل سحرها اليوم عما كانت عليه فى فجر التاريخ ، وهى لا تشبه مصر أو فلسطين أصلاً أو فرعًا . لقد كانت قبرص منذ أقدم العصور ملتقى الإمبراطوريات والديانات ، فهى أشبه ما تكون ببورصة حضارات البحر المتوسط ، هناك تماثيل بعل وزيوس ، وعشتار وأفريدوت ، وتموز ، وأدونيس تتشابه معًا ، ويشارك بعضها بعضًا ، وكان أول منجم نحاس عرف فى التاريخ فى قبرص ، ولا يزال ينتج حتى اليوم . ومن الاسم اليونانى للنحاس استمد اسم قبرص ، غزاها تحتمس الثالث فرعون مصر عام ١٥٠٠ ق.م ، كما غزاها سرجون ملك آشور بعد ذلك بسبعمائة عام . وخلال الحروب الفارسية حاربت مدن قبرص إلى جانب اليونان وحارب الفينيقيون إلى جانب الفرس ، ولكن بعد ذلك بسنوات أعلن الجميع ولاءهم للإسكندر ، وأرسلوا له أسطولاً من ١٢٠ مركبًا شراعيا ، وبعد وفاة الإسكندر أصبحت قبرص تابعة لمصر ، يحكمها ولاة من البطالمة لمدة ٢٥٠ عاما ، انتقلت بعدها إلى حكم الرومان ، وكان شيشرون ثالث حكامها الرومان ، وقد أهدى أنطونيو قبرص إلى كليوباترا (كما فعل بالنسبة لأريحا) ، ولكنها عادت إلى الحكم الرومانى بعد موقعة أكتيوم ، وظلت جزءًا من تلك الإمبراطورية شرقًا أو غربًا حتى عام ١١٩١ .

وفى عام ٤٦ م نزل إلى سلامس بولس وبارنابا (يهودى من قبرص) ومعهما يوحنا مرقص ، وعبروا الجزيرة إلى بافوس حيث نجحوا فى تحويل الحاكم الرومانى سرجيوس باولوس إلى المسيحية ، وبذلك أصبحت قبرص أول بلد يحكمه حاكم مسيحى ، وعاد بارنابا إلى سلامس (موطنه الأصلى) حيث استشهد ، أما الحدث التالى الجدير بالاعتبار فهو الإبادة (التى أظنها فريدة فى التاريخ) التى قام بها اليهود ضد اليونانيين ، فقتلوا ٢٠٠ ألف من اليونانيين فى مذبحة كبرى . وخلال القرنين الثانى والثالث للميلاد ادعت الكنيسة البيزنطية فى أنطاكية تبعية كنيسة قبرص لها ، وقد رفض هذا الادعاء فى مجمع إفسوس ، ولم يثر مرة أخرى إلا تحت حكم الإمبراطور زينوس . وكاد الهجوم على كنيسة قبرص يحقق النجاح لولا اكتشاف جثة القديس بارنابا مدفونة تحت شجرة خروب قرب سلامس ، وعلى صدره نسخة من الكتاب المقدس بخط يده وضعها يوحنا مرقص . وبذلك قطع الشك باليقين ، واعترف

الإمبراطور بحق أسقف كنيسة قبرص فى ارتداء عباءة البطريرك فى الاحتفالات الدينية والتوقيع بالحبر الأحمر .

وتحت الحكم البيزنطى ، شهدت قبرص العديد من الغزوات العربية ، قاد أحدها هارون الرشيد . وفى عام ١١٨٤ اغتصب إسحاق كومنينوس العرش ، وأعلن نفسه إمبراطوراً ، وكان طاغية فظا ، ولكن لم يقدر له أن يستمر فى طغيانه ، فقد وقع فى حماقة إهانة برنجاريا الناڤارية عروس قلب الأسد عندما كانت فى طريقها من صقلية إلى عكا ، فنزل ريتشارد قلب الأسد إلى ليماسول وتزوج من برنجاريا ، وطارد كومنينوس من نيقوسيا إلى فاما جوستا ، وأرسله مقيداً بأغلال من الفضة إلى قلعة مرجات قرب طرابلس الشام . وبذلك أصبحت قبرص إنجليزية للمرة الأولى فى تاريخها ، ولكنها لم تستمر تابعة لإنجلترا فترة طويلة ؛ لأن ريتشارد ، الذى كان يعانى ضائقة مالية لتمويل حروبه الصليبية ، باع قبرص لفرسان المعبد مقابل ١٠٠ ألف بيزانت ، دفع منها ٤٠ ألفاً مقدماً والباقى على أقساط ، وما لبث فرسان المعبد أن وجدوا قبرص تكلفهم الكثير من الجند للدفاع عنها مما يتجاوز قدراتهم المادية ، فطلبوا من ريتشارد أن يستردها . ولما كان ريتشارد لا يريد إعادة مقدم الثمن الذى تقاضاه منهم ، فقد حث جى دى لوسينان Gut de Lusignan أن ينال الجزيرة تعويضاً عن حقوقه الاسمية فى مملكة بيت المقدس ، وقد تمتعت قبرص بالاستقلال تحت حكم أسرة لوسينان لمدة ثلاثة قرون .

ومثلث قبرص تحت حكم أسرة لوسينان ذروة حضارة العصور الوسطى فى الرسم والأدب والفنون التشكيلية والموسيقى والعمارة . وقد أهدى بعض مشاهير الكتاب مثل توماس الكويناس ، وبوكاسشيو أعمالهم إلى ملوك قبرص . وكان تجار فاما جوستا الأثرياء يقدمون الدوطة لبناتهم من الجواهر الثمينة التى تفوق ما عند ملكة فرنسا ، ولكن ملوك أسرة لوسينان اتبعوا سنة ملوك الإقطاع فى الشرق ، فقد شجع البذخ على التدخل فى الحكم وتبعه التدهور للسلطة ، فاستعان المتصارعون على العرش بالقوى الكبرى المجاورة : سلاطين مصر ، أو أباطرة بيزنطة ، وزاد من تدخل هؤلاء فى شئون قبرص أهميتها الإستراتيجية كقاعدة بحرية مهمة فى شرق المتوسط .

وفى عـام ١٥٧٠ جـرد سليم الثـانى السلطان العـثـمـانى حـملة اسـتـولت على نيقوسيا ، وتبع ذلك الاستيلاء على فاماجوستا فى العام التالى بعد مقاومة ضارية دامت أربعة أشهر . وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر قامت عدة محاولات لاسترداد قبرص إلى الحكم المسيحى دون جدوى ، وبقيت الجزيرة عثمانية . وتحددت علاقة الحكام بالمحكومين وفق ما كان متبعًا بالإمبراطورية العثمانية حتى القرن التاسع عشر . وكان الحكم التركى أفضل من حالة الفوضى التى شهدتها البلاد فى الفترة السابقة على حكم الترك ، والتى سادتها الأعمال الاستبدادية . فالحكم الإسلامى لا يفرق بين مختلف الطوائف المسيحية ، ويعاملهم جميعا دون تمييز ، ولذلك استردت كنيسة قبرص الأرثوذكسية مكانتها بعد ثلاثة قرون من الإهمال . ومنذ وقت طويل نقل الباب العالى تبعية قبرص من الصدر الأعظم إلى القبطان باشا (وكان يتولى حكم جزر الأرخبيل ويقع مقره فى رودس) ، وترتب على ذلك أن أصبحت السلطة الفعلية فى قبرص فى يد الأسقف القبرصى ، ولكن الأسقف تمادى فى إساءة معاملة الناس حتى قامت ثورة شعبية ضده فى ١٨٠٤ . وفى عام ١٨٢١ حدثت اضطرابات أخرى تأثرا بثورة استقلال اليونان ، فاستفاق القبطان باشا من نومه وأعدم الأسقف شنقًا ، وقطع رءوس نحو مائتين من الأساقفة وأعيان الأرثوذكس .

* * *

عـاد دزرايلى من مـؤتمر برلين عـام ١٨٧٨ منتـصـرًا ، وقـد ذهب جـدى وأمى للمشاركة فى استقباله عند العودة ، ورأت أمى وسط الزحام رجلاً عجوزًا يرتدى معطف سفر ضيقًا نوعًا ما ، يبدو متعبًا ، وكانت عيناه متألقتين ، يقف فى نافذة داوننج ستريت [٣] ملوحًا بيديه ، قائلاً : « لقد جلبت لكم سلامًا مشرفًا » ، وكان ذلك السلام هو معاهدة برلين ، أما الشرف فكان قبرص. كان دزرايلى قد زار قبرص ليوم واحد عندما كان فى السادسة والعشرين من عمره ، فى رحلته الشرقية التى قادته إلى

(٣) علمت من مصدر موثوق به أنه عندما طلب من لويد چورچ بعد عودته من فرساى أن يخرج لتحية الجماهير على باب ١٠ داوننج ستريت ، فضل التمسك بالتقاليد ، وسأل عن « نافذة دزرايلى » .

القدس ، والتى أثرت فى حياته تأثيراً عميقًا . لقد دار جدل حول احتلال قبرص فى صحافة الأربعينيات من القرن التاسع عشر . وفى عام ١٨٧٨ ، كان الجيش الروسى يدق أبواب إستانبول ، ولم تكن هناك قوات برية تستطيع رد الروس على أعقابهم سوى قوات بريطانيا العظمى . وجاءت تلبية طلب السلطان مساعدة بريطانيا لتقدم لتانكرد فرصة ذهبية ، ففى ٤ يونيو تم توقيع ميثاق « التحالف الدفاعى » بين السلطان وحكومة صاحبة الجلالة البريطانية متضمنًا الشروط التالية :

« المادة الأولى – إذا احتفظت روسيا بباطوم ، أو أردخان أو قارص أو أى منها ، وإذا حاولت روسيا فيما بعد أن تستحوذ على أراض أخرى من ممتلكات السلطان فى آسيا ، فإنه طبقًا لمعاهدة دفاع السلام ، فإن بريطانيا سوف تنضم إلى صف السلطان فى الدفاع عن تلك الأراضى بالقوة .

وفى مقابل ذلك ، يعد جلالة السلطان بريطانيا بإدخال الإصلاحات الضرورية – التى يتم الاتفاق عليها بين الدولتين فيما بعد – سواء فى نظام الحكم أو توفير الحماية للمسيحيين وغيرهم من رعايا الباب العالى فى تلك الأراضى . وحتى ييسر جلالة السلطان لبريطانيا المتطلبات الضرورية للقيام بما التزمت به ، يوافق جلالته على أن تقوم بريطانيا باحتلال قبرص وإدارتها » .

وبعبارة أخرى ، دخلت بريطانيا فى اتفاق رسمى التزمت بموجبه بالحفاظ على سلامة ووحدة الممتلكات التركية فى آسيا فى مواجهة روسيا ، وضمنت مقابل ذلك الحصول على قبرص . وبدلا من الإصلاحات التركية الموعودة ، كانت هناك مذابح الأرمن التى أقامت الدليل عليها أشلاء الضحايا التى طفت على سطح الماء فى البحر وغطت ٤٠ ميلاً ، هى المسافة الفاصلة بين ساحل آسيا الصغرى وشمال قبرص .

ولكن بريطانيا العظمى التزمت بدورها فى الصفقة (حماية تركيا من الهجوم الروسى) ، واستمرت تحتل قبرص حتى عام ١٩١٤ عندما أعلنت تركيا الحرب ، فأصبحت قبرص – عندئذ – أرضًا تركية تحت الاحتلال البريطانى ، ولم يكن إعلان الحماية وارداً؛ لأنه يتطلب وجود دولة تحتاج إلى الحماية ولم تكن قبرص دولة ، ولذلك فوضعها مختلف عن مصر التى كانت دولة خاضعة للسيادة العثمانية ، ولكن قبرص

كانت قطعة صغيرة من تركيا تحت الاحتلال والإدارة البريطانية ، ولذلك قامت حكومة بريطانيا العظمى بضم قبرص إلى المستعمرات البريطانية فى ٥ نوفمبر ١٩١٤ فى الوقت نفسه الذى أعلنت فيه الحماية على مصر ، ولكن النهاية لم تأت بعد .

وفى أكتوبر ١٩١٥ ، نشأ وضع حرج فى البلقان ، فقد حرصت اليونان (فى عهد الملك قسطنطين) على التحرك لإنقاذ الصرب التى كان يهددها الغزو النمساوى ، وكان على بريطانيا العظمى أن تقوم بإرسال ٢٠ ألف جندى بالاشتراك مع روسيا وفرنسا ، لحماية ساحل اليونان شمال بحر إيجه ، وكذلك شرق وغرب تراقيا ، حيث نزلت تلك القوات فى سالونيك ، وهنا تقدم رونالد براوز – مدير كلية الملك المؤيد العتيد لليونان – باقتراح لحشد الرأى العام فى اليونان دعمًا لجهود الحلفاء . وبموجب هذا الاقتراح يقوم المندوب السامى فى قبرص بإبلاغ كبير الأساقفة والأعضاء اليونانيين بالمجلس التشريعى أن بريطانياعلى استعداد لتسليم قبرص لليونان على الفور على شرط أن تدخل اليونان الحرب فورًا إلى جانبنا ، عندئذ يرسل كبير الأساقفة وبعض أعيان القبارصة إلى أثينا مباشرة على ظهر مدمرة بريطانية ، ويتولى ذلك الوفد إعلان نبأ العرض البريطانى فور وصوله إلى أثينا ، ويتوجه بعد ذلك – مخاطًا بموجة من الحماس الشعبى – إلى البرلمان لشحذ المشاعر بدرجة تكفى لدفع الحكومة إلى القبول بالفكرة أو الإطاحة بها ، وإسناد رئاسة الحكومة إلى فيزيلوس صديق براوز (صاحب الاقتراح) .

وقد تبنت الخارجية البريطانية المسألة ، ولكن دون ذلك الإخراج المسرحى المقترح ، فصدرت تعليمات إلى السير فرانسس إليوت – الوزيرالمفوض البريطانى فى أثينا – ليقوم بتقديم عرض رسمى إلى الحكومة اليونانية ، فلقى الرفض من جانب زايميس رئيس الحكومة الذى كان لا يحيد عن الاعتقاد بوعود أو تهديدات القيصر ، وبذلك تم صرف النظر عن العرض ، ولم يتم تقديمه مرة أخرى . وفى عام ١٩٢٤ ، عندما كان المستر رامزى ماكدونالد – رئيس الوزراء – يجيب على سؤال بمجلس العموم ، قال : « إن حكومة صاحب الجلالة لا تفكر فى إدخال أى تغيير على الوضع السياسى لقبرص » . وما تم كان على عكس ذلك تمامًا ، فقد تم فى العام التالى

الاعتراف بقبرص مستعمرة بريطانية رسميا ، وتغير لقب المندوب السامى ليصبح « الحاكم » .

لقد رأينا كيف احتلت بريطانيا قبرص لأسباب إستراتيجية واستعمارية (رغم أن الكثيرين لا يذكرون ذلك) ، وليس لإنقاذ أو التظاهر بإنقاذ القبارصة المسيحيين من الحكم التركى المستبد ، كما أن الرأى القائل بأن تقدم الجزيرة كان أبطأ مما كان متوقعًا تحت الحكم البريطانى ، رأى صحيح - للأسف - رغم أن التقدم كان أسرع إيقاعًا مما كانت عليه الحال تحت الحكم التركى ، ومما قد تكون عليه تحت الحكم اليونانى نفسه .

ويرجع ذلك التباطؤ فى إيقاع التقدم إلى ثلاثة أسباب رئيسية : عدم التأكد من استمرار الوجود البريطانى فى قبرص ، والجزية التركية ، والقومية اليونانية ، وثانى تلك الأسباب - على الأقل - كان مثار إحساس دفين بالمرارة والحزن . والسبب الأول واضح ، ويمكن شرحه باختصار ، فقبرص قد « صرح باحتلالها » ، ولكن لم يتم التنازل عنها ، ولذلك ظلت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية حتى تم ضمها عام ١٩١٤ . ولولا النفوذ الألمانى فى أثينا ، لأصبحت عام ١٩١٥ تابعة لملكة اليونان .

أضف إلى ذلك أن احتلال مصر عام ١٨٨٢ بعد أربع سنوات فقط من احتلال قبرص ، جعل منها قاعدة عسكرية وبحرية تتحكم فى قناة السويس ، وبذلك لم تعد لقبرص الأهمية المتوقعة نفسها ، ومن ثم أهمل شأنها ، والحكومات - كالأفراد - قد يتم التماس العذر لها إذا لم تستثمر رأس مالها فى صفقات لا تعد حيوية بالنسبة لمصالحها ، والتى قد تخرج من نطاق سيطرتها دون أن تحقق مردودًا لما تم استثماره فيها . وقد تم الاحتفاظ بالنمو الاقتصادى فى قبرص على ما كان عليه حتى ما بعد الحرب بسنوات طويلة ، وبعد أكثر من أربعين عامًا من الحكم البريطانى . ولم يتم دفع عجلة التنمية إلا بقدر محدود يشكل ما يترتب على الإنفاق الحكومى الضرورى من تحرك يمثل الحد الأدنى .

إن أحد الفوارق الرئيسية بين الإمبراطورية البريطانية وغيرها من الإمبراطوريات الأخرى ، أن الأخيرة تعتبر ممتلكاتها مصدرًا للدخل المباشر للحكومة المركزية ، ورغم

أن قبرص كانت تحظى بإدارة عثمانية جيدة مقارنة بغيرها من البلاد التابعة للدولة العثمانية ، إلا إنها لم تكن مستثناة من هذه القاعدة ، ولذلك تضمنت اتفاقية ١٨٧٨ حصول الباب العالى على أى فائض فى الموارد يزيد على المصروفات ، وأن يتم حساب ذلك على أساس متوسط السنوات الخمس الأخيرة السابقة على ١٨٧٨ . فإذا كان السلطان يتخلى عن جزء من إرثه ، فمن حقه ألا يتأثر ماديا نتيجة ذلك . وحتى ينجز دزرايلى الصفقة ، لم يشأ أن يعطى أهمية لمسألة بدت تافهة . وما لم يكن مبرراً تماماً هو أن ذلك المبلغ الذى قدر بنحو ٩٣ ألفًا من الجنيهات الإسترلينية تحول إلى عبء سنوى على موارد قبرص ، ولم يكن أساس حساب هذه الجزية هو المشكلة ؛ لأن الباب العالى تعود على جباية أكبر قدر من الضرائب مقابل تقديم أقل قدر من الخدمات .

كان إجمالى إنفاق الإدارة العثمانية فى قبرص على القضاء ٢٥٠ جنيهاً سنويا ، وكان راتب القاضى نحو ١٤ شلنًا فى الشهر ، ولم يتم إنفاق أى مبلغ على الطرق أو الموانئ أو الزراعة والغابات أو التعليم ، كما لم يكن هناك مستشفى واحد بالجزيرة ، وقد بين أول تقدير بريطانى لموارد الجزيرة أنها تصل إلى ١٧٢ ألفًا من الجنيهات ، وأن إجمالى النفقات (المصروفات) يصل إلى ٥٢,٨٠٠ جنيه ، والفائض يعد أساساً للجزية ، ولا يترك لقبرص إلا ما يكفى بالكاد لدفع رواتب الشرطة وجباة الضرائب . ومع ذلك ، اتضح أن هذا التقدير قد تضمن مبالغة فى تقدير الموارد ، وسوء تقدير عند حساب المصروفات ، ومن ثم أصبح لزامًا على برلمان الإمبراطورية أن يقرر صرف إعانة سنوية لسد العجز عند دفع الجزية . ولم يصل أى قرش من تلك الجزية إلى إستانبول ؛ لأنها خصصت منذ البداية لحملة سندات الدين العثمانى الخاص بعام ١٨٥٥ الذى ضمنته إنجلترا وفرنسا ، ولهذا السبب استمر السداد بعد ضم بريطانيا العظمى للجزيرة عام ١٩١٤ .

وفى عام ١٩٠٧ تم تثبيت الإعانة السنوية التى يقرها البرلمان عند ٥٠ ألفًا من الجنيهات ، وبلغ المبلغ الصافى الذى تحصل عليه قبرص ٤٢,٨٠٠ جنيه ، وقد رفض المجلس التشريعى التصديق على الميزانية قبل وصولى ، مطالبًا بالفرق بين الإعانة والصافى الذى تحصل عليه الجزيرة . ولم يؤد الغبن الناجم عن جباية الجزية إلى توحيد اليونانيين والأتراك من سكان الجزيرة فحسب ، بل جعلت كل المندوبين

السامين والحكام الذين تعاقبوا على حكم الجزيرة ، وكذلك الإدارة ، يتعاطفون تماما مع الشعب القبرصى .

تلك المشاكل السلبية والإيجابية ، وغياب المصلحة فى التنمية ، ومتاعب تحمل غرامة سنوية ثقيلة ، أدت إلى اغتراب مجتمع يتصل بالإنجليز بروابط الدم والتقاليد والتطلعات لم يكن لقبرص أى منها(*) ، ويقال إنه عند وصول السير جارنت ولسلى إلى لارناكا عام ١٨٧٨ استقبله وفد على رأسه كبير الأساقفة الذى ألقى كلمة جاء فيها : « إننا نقبل تغيير الحكومة إذا كانت بريطانيا ستساعد قبرص على الانضمام لليونان (الوطن الأم) ، كما ساعدت الجزر الأيونية على ذلك » ، وقد ظل اليونانيون من سكان الجزيرة على تمسكهم بهذا المبدأ ، فلم يحيدوا عنه أبداً ، وقد قوبل هذا التطلع السياسى بالتشجيع من جانب بعض الساسة الإنجليز ، وبالتسامح غير المحسوب من جانب الحكام الذين تعاقبوا على حكم قبرص .

كتب المستر جلادستون إلى دوق وستمنستر عام ١٨٩٧ يقول : « سوف أشعر بالرضا قبل أن تنتهى حياتى ، إذا رأيت شعب هذه الجزيرة الهللينية ، وقد اتحد مع إخوانه فى مملكة اليونان من خلال ترتيب ودى » . وبعد ذلك بعشر سنوات عندما كان المستر ونستون تشرشل وكيلاً لوزارة المستعمرات يجتذب قلوب أعضاء المجلس التشريعى بقبرص بقوله : « أظن أنه من الطبيعى أن يلتحق القبارصة الذين هم من أصل يونانى مع ما يمكن أن نسميه وطنهم الأم ، باعتبار ذلك عملاً مثاليا مخلصاً ، إن مثل هذا الشعور يعد مثلا للوطنية التى تتميز بها الأمة اليونانية » . وبعد ١٢ عاما من هذا التصريح ، وأمام المؤتمر الاشتراكى المنعقد فى برن ، طرح المستر رامزى ماكدونالد المبدأ الذى يكاد يذكر الآن فى عالم السياسة عندما أعلن أن « حزب العمال البريطانى يطبق مبدأ حق تقرير المصير على قبرص » ، وأيد هذا الاتجاه أيضاً الأساقفة الإنجليز ذوو الثقافة الكلاسيكية ، ورجال الإعلام ، وأعضاء البرلمان ، من وقت لآخر .

(*) يقصد المؤلف المستعمرات البريطانية فى أمريكا التى ثارت واستقلت عن بريطانيا ، مكونة « الولايات المتحدة الأمريكية » . (المعرِّب)

وجدت العلم اليونانى مرفوعًا على كل مكان فى قبرص ، خاصة فى الإجازات والأعياد ، وفى أى مدينة أو قرية يزورها الحاكم البريطانى فى مثل تلك المناسبات ، ولكن إلى جانب كل راية بريطانية هناك العديد من الرايات اليونانية . ولا يعنى ذلك أن زيارة الحاكم للمدينة أو القرية تستقبل بالعداء أو عدم الاهتمام أو الفتور ، بل على نقيض ذلك تمامًا على نحو ما علمت ممن أثق بهم ، فالزيارة تقابل بالترحاب ، فى كل مكان ، ومشاعر الصداقة والود ؛ إذ تزين الشوارع بالأكاليل وتغطى سيارتنا بالورود ، ويخرج تلاميذ المدرسة فى موكب للترحيب بنا ، وعند زيارة المدرسة يلقى الناظر وأحد التلاميذ كلمة فيها الكثير من المبالغة فيما يترتب على الزيارة « الكريمة » من خير للمدينة أو القرية ، وينهى الحفل بالدعوة إلى الهتاف ثلاثًا بحياة جلالة الملك چورچ الخامس ، وحياة الأمة الإنجليزية الحرة ، وحياة الحاكم ، وأخيرًا الهتاف بالاتحاد مع اليونان وتحقيق الأمانى الوطنية ، وبعد شهرين من الخبرة بتلك الطريقة فى الترحيب بالزيارات ، نجحت فى أن أقف بعد الهتافات الثلاثة الأولى بحياة الملك ، وأصافح المتحدث حتى أقطع عليه طريق استكمال الهتافات ، أو أجعلها تغوص فى حلوق الحاضرين .

كان علىَّ ألا أتردد فى احتواء الأمور التى تبدو فى تلك التظاهرات التى تستدعى كل قدرات التعجب التى بقيت عندى بعد ٢٤ عامًا من الخدمة فى مصر وفلسطين ، ولكن حرصى على إقامة علاقات حميمة مع كل قطاع من سكان قبرص على الصعيد الشخصى ، وخاصة فى الريف ، طغت على تلك الاعتراضات ، وتبين لى أننى بهذه الطريقة كنت أسير على خطى من سبقونى فى حكم قبرص ، أو على الأقل ما تعودوا عمله ، مثل تجاهل الأعلام اليونانية ، وعدم تناول ما يشير إلى علاقة قبرص باليونان بالحديث تصريحًا أو تلميحًا . وفى غيبة تشريع خاص بذلك ، كان من الصعب تجربة الوسائل الكفيلة بمنع تلك التصرفات ، بل إن الإفراط فى ذلك يؤدى إلى التوتر والقلق وسوء التعبير عنهما .

كان العلم البريطانى مرفوعًا دائمًا على مقر الحكومة عندما يكون الحاكم موجودًا بمقر إقامته ، وكذلك على المحكمة والمكاتب الحكومية فى مختلف الأحياء . وفيما عدا ذلك ، من النادر أن يشاهد علم بريطانى فيما عدا المقاهى والمطاعم التى تقع على

الساحل خلال زيارات الأسطول البريطانى . كان الوضع استفزازيًا ، ولكن أى محاولة لتغييره قد تعقد الأمور ، إلا إذا كان هناك تشريع ، ولم تكن التشريعات المستوردة من المستعمرات الأخرى تناسب قبرص .

كانت هناك ثلاث مناسبات يمكن خلالها اتخاذ قرار بإزالة تلك الأعلام التى ترفرف فى سماء قبرص ، كان يمكن عمل ذلك عند احتلال الجزيرة عام ١٨٧٨ ، أو عند ضمها عام ١٩١٤ ، أو عند الاعتراف الرسمى بها كواحدة من مستعمرات التاج البريطانى عام ١٩٢٥ . ولا شك أن من سبقونى فى هذا المنصب قد وضعوا فى اعتبارهم المشاكل التى قد تنجم عن الإقدام على مثل هذه الخطوة ، بنفس القدر الذى أشعر به اليوم ، خاصة أن مرور الوقت دعم هذا الاتجاه ، فلم يعد باستطاعة المندوب السامى ، أو الحاكم ، مواجهة هذه التظاهرات الشعبية بأوامر تغير الوضع تمامًا .

كذلك تبين لى أنه قبل وصولى ببضعة أشهر ، نظم السنودس المقدس حملة لجمع التبرعات لدعم السلاح الجوى اليونانى ، وتم شراء طائرة بالفعل أهديت إلى ذلك السلاح باسم أبناء الكنيسة القبرصية ، ونصح سلفى بأنه لا داعى للتدخل طالما أن الأموال التى جمعت جاءت لتحقيق غرض مشروع ، ولاحظت أنه على الرغم من تسامح الحكومة ، كانت الشرطة تتوجس من تلك التبرعات ، مما جعلها موضع انتقاد شديد من جانب الصحافة ساعد فى الإقبال على التبرع ، وكان ذلك فى الوقت الذى لم يكف فيه الساسة المحليون عن الحديث عن بؤس الشعب ، وثقل العبء الضريبى الذى يتعرض له فى قبرص .

والتظاهرات الأخرى للتعبير عن روح التوجه القومى اليونانى التى رفع فيها علم اليونان كانت فى المدارس ، ونظام الكشافة السائد فى الجزيرة . ولم تكن هناك مقررات دراسية معادية للإنجليز ، ولكن كانت هناك عملية نشيطة لنسج التعليم على المنوال اليونانى . واستخدمت جميع المدارس الابتدائية « البرنامج التحليلى » المطبوع فى اليونان بناء على قرار اتخذه مجلس التعليم القبرصى . ولم يكن يسمح بتداول أى من تلك الكتب إلا بعد موافقة « لجنة النقد » فى أثينا عليها . وكان الجمنازيوم ، وكلية إعداد المعلم ، معترفًا بهما من وزارة التعليم اليونانية ، وتعملان وفق المناهج اليونانية ،

وكانت صور الملك قسطنطين والملكة صوفيا وفينتزيلوس وغيرهم من الشخصيات العامة اليونانية موجودة فى كل مكان بقبرص ، ولا توجد إلى جانبها صور لملك بريطانيا أو الحكام الإنجليز ، كانت توضع خرائط اليونان إلى جانب تلك الصور على حوائط فصول المدارس ، ولا تكاد تجد خريطة لقبرص ، وإذا وجدت فهى بالغة القدم وصغيرة الحجم ، وقد جربت توجيه أسئلة للتلاميذ عند زيارتى للمدارس بالمدن والقرى ، فاكتشفت وجود فرق كبير بين مستوى الطلاب الإنجليز وطلاب قبرص ، حتى المتميزين بينهم ، فكانت معلوماتهم عن بلدهم (قبرص) تكاد تكون معدومة .

عند تعيينى حاكمًا لقبرص ، تلقيت دعوة من الجنرال بادن باول ، لأصبح رئيس كشافة الجزيرة ، وقبلت الدعوة بعدما راجعت تجربتى فى فلسطين ، عندما رفض الكشافة اليهود أن يقسموا يمين الولاء للملك ، ولكنى ما لبثت أن تبينت أنه – باستثناء الفرق الأرمينية الذين ربطتنى بهم صداقة متينة – لم يكن هناك مجال لتوسيع نطاق النشاط البريطانى ، حقًا كانت هناك فرق كشفية متنوعة شكلت أو ازدهرت بفضل جهود ناظر المدرسة الذى كان يتولى الإشراف عليها ، ولكن فرقة كشافة بافوس كانت الفرقة الوحيدة – فى رأيى – التى مارست عملاً كشفيا حقيقيا ، أما الفرق الأخرى فكانت لا تنشط إلا فى العروض وفى المناسبات الخاصة ، أو عند الطواف بأرجاء البلاد لجمع التبرعات للصليب الأحمر اليونانى .

ووفقا لما جاء بنشرة رسمية تحمل عنوان « تنظيم الكشافة اليونانية » كانت جميع فرق الكشافة القبرصية اليونانية تتبع « الدستور الكشفى اليونانى » ، (ويحصل منه قادة الفرق على التفويض ويتلقون منه التعليمات) ، تقدم تقاريرها السنوية لوزارة التعليم اليونانية . ونصت المادة الثانية من قانون الكشافة الخاص بهم على أن يكون الكشاف « مواليًا للوطن ولقوانين الدولة » ، وكان علمهم هو علم القديس چورچ اليونانى ، وهو صليب كبير أبيض على أرضية زرقاء تتوسطه زهرة الكشافة ، وكان كل قسم كشفى (أو سنة كشفية) يتلقى تعليمات التخرج فى الوطنية بدءًا من احترام علم اليونان ، و « معرفة تاريخ العلم اليونانى منذ أقدم العصور » ، و « الولاء لدستور الأمة اليونانية » ، والعمل على « توسيع المعرفة بالمنظمات السياسية والعسكرية للدولة

والواجبات التى تقع على عاتق المواطن » ، كما يجب حفظ النشيد الوطنى اليونانى عن ظهر قلب .

لقد قيل لى إنه فى حالة إجراء استفتاء نزيه فى قبرص ، فإن ٩٠ ٪ من القبارصة سوف يختارون الانضمام إلى بريطانيا ، ولكنى لا أعتقد أن الشباب الذين تمت تنشئتهم على القومية الهللينية سوف يصوتون إيجابيا فى مثل هذا الاستفتاء ، وعلى كل ، لم يكن باستطاعة الأفراد والجماعات التى تتبنى الآراء البريطانية الجهر بذلك علنا حتى لا يوصمون بالخيانة من جانب الأغلبية .

إن الإيمان بالوحدة مع اليونان لم يكن يحرمه قانون الجزيرة ، فلم يرد به نص بهذا المعنى ، ولذلك لا يمكن تجريم الأفعال التى تعبر عنه أو اعتبارها منافية للقانون ، ولكن نظرًا لكون القبارصة رعايا بريطانيين وليسوا رعايا يونانيين (قانونًا) ، فيمكن أن تكون التهمة « عدم الولاء » . واستند معارضو الوحدة اليونانية إلى أن سكان الجزيرة هم آسيويون أصلاً ، معظمهم من أصول فينيقية ، وأقلهم من المستوطنين اليونانيين ، وأن قبرص لم تكن يومًا ما ضمن المملكة اليونانية القديمة ، وأن كل ما بقى من ذلك الماضى البعيد اختلط بدماء أسرة لوسينان وبالبنادقة . وأن اللغة التى يتحدثها أهل الجزيرة ليست يونانية خالصة ، ولكنها لهجة تختلط بها مؤثرات مكتسبة من ماضى الجزيرة وحدها ؛ أى أن القبارصة ليسوا يونانيين ، ومن ثم لا يحق لهم أن يعتبروا أنفسهم كذلك .

لقد رأينا أسماء من ساهموا فى صنع الثقافة اليونانية مثل هوميروس وأخيليوس وسوفوكليس تتردد على ألسنة الخطباء فى قبرص ، ولكن ما كان يشار إليه هو أسماؤهم وليس أشعارهم ، فى مجال إقامة البرهان على أن ثمة « ثقافة قبرصية » فى الوقت الذى كان فيه أسلاف مستعمريهم (الإنجليز) يتخذون من جلود الذئاب ونبات الوسمة ما يسترون به عوراتهم ، والدارس الوحيد للثقافة اليونانية الذى رأيته فى قبرص هو كبير الأساقفة ، ولكن أى تلميذ فى الصف السادس يستطيع التفوق على غبطته فى هذا المجال ، ولم يكن المدرسون والتلاميذ يدعون القدرة على قراءة النصوص الكلاسيكية الأصلية ، ولكنهم درسوها من خلال الكتابات الحديثة التى تناولتها ومن

خلال النشيد الوطنى ، لقد أهديت ذات مرة نسخة من كتاب إقليدس فى نصه اليونانى إلى الكلية المركزية لتدريب البنين ، فرأيت مجموعة من الكتب اليونانية القديمة أهداها أحد المتبرعين لمكتبة الكلية ، فاستأذنت فى إلقاء نظرة عليها ، فظلوا يبحثون عن مفتاح الدولاب وقتًا طويلاً حتى عثروا عليه ، وبعدما فتح ، اكتشفت أن أوراق ملازم المجلدات مازالت بكرا ، لم يحاول أحد قطعها ، مما يعنى أنها لم تقرأ .

ولكن رغم أن ما يوجه إلى فكرة انتماء قبرص إلى الجـــامعة الهللينية من نقــد لا يخلو من صحة ، وما خرجت به من نتائج التجربة العملية ، فإن ذلك لا يمثل الحقيقة الخالصة ؛ لأن المستوطنين الإغريق أضفوا الطابع الهللينى على قبرص منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ولم يصل الفينيقيون إلى الجزيرة إلا فى القرن الحادى عشر واحتلوا عندئذ موقعين ساحليين هما : كيتيون ولابيتوس ؛ حيث كانت كل منهما محطة تجارية تتعامل مع سكان الجزيرة فى ذلك الإطار ، ولا شك أن الوجود الإغريقى الذى يعود إلى ٣٣ قرنًا من الزمان يعطى لليونان حقًا فى ادعاءاتها يفوق ما لليهود من ادعاءات فى فلسطين .

وحتى لو كان من الصعب إثبات الأصل اليونانى بعد ثلاثة آلاف سنة ، وكان من اللازم إرجاؤه إلى التاريخ الأحدث نسبيًا : تاريخ قدوم الإسكندر أو حتى تاريخ الإمبراطوريـــة البيزنطـية ، فإن الانتماء اليونانى لقبرص – فى رأيى – لا يحتمل الشك . فالإنسان ينتمى إلى العنصر الذى يحس فطريًا بالانتماء إليه ، ولا يستطيع أحد لديه قدر من الإحساس أن ينكر أن القبارصة يتحدثون اليونانية ، ويفكر ويشعر بأنهم يونانيون ، مثلما نجد الفرنسى – الكندى ، يتحدث الفرنسية ويفكر ويشعر بفرنسيته وبانتمائه لفرنسا ، وكلاهما شديد الحساسية بالنسبة لمسألة الانتماء .

كان من بين الواجبات التى على القيام بها فور تولى منصب الحاكم هو دراسة أحوال متحف نيقوسيا ، ووجدت فى دليل المتحف بعض الآثار الفينيقية التى تحمل نقوشا ، ولما كنت أظن أن تلك الآثار تهم الجامعة العبرية فقد طلبت رؤيتها بنفسى، ولكن لم يستطيعوا العثور على أى منها ، وكان هناك الكثير من الآثار الفينيقية على

الجزيرة ، ولكنها محيت من الجزيرة لتأكيد انتمائها اليونانى . ولا ريب أن العنصرية عند القبارصة أقل كثيراً منها عند اليهود .

وهكذا كان الوحدويون (أنصار الوحدة اليونانية) من السياسيين القبرصيين يتهمـــون من حين لآخر بعدم الولاء ، وهو تعبير مرادف لكلمة « معاد » أو مثير للقلق. والولاء يتطلب وجود علاقة قائمة على القبول أو الاعتراف المختلط أحياناً بقدر من العرفان ، وأى خروج على مثل تلك العلاقة يعد « خيانة » أو « عدم ولاء » ، ولكن أحداً لم يستشر القبارصة عندما نقلوا – فى إطار صفقة – من التبعية لحاكم أجنبى إلى غيره من الأجانب . فهم لا يختلفون فى ذلك عن عرب فلسطين الذى وضعوا تحت «الانتداب الصهيونى » .

لقد برهن القبارصة الأتراك فى أكثر من مناسبة على ولائهم للدولة التى حمت حقوقهم كأقلية . وكانوا يكرهون التجنيد الإجبارى سواء فى عهد عبد الحميد الثانى أو فى عهد مصطفى كمال ، ولكنهم كانوا يمقتون فكرة الاتحاد مع اليونان . وقد يعترف الساسة اليونان بأنهم حققوا مكسباً من وراء استبدال بريطانيا بتركيا ، ولكن نظراً لأن الحكومة البريطانيـــة تقــف حجر عثرة فى طريــق تحقــيق أمانيهم ، فهم لا يدينون لها بالولاء ، وإن حققوا أقصى الفوائد من تسامحها معهم. ومن ثم لا تجد غالبية اليونانيين الذين انتخبوا للمجلس التشريعى غضاضة فى الحنث بيمين الولاء الذى أقسموه عند دخولهم المجلس ، وهو يمين الولاء للتاج البريطانى . وعلى كل ، بمجرد تعيين القبرصى اليونانى موظفا بالحكومة ، كان الولاء لبريطانيا عنده مسألة شرف ، ولا أذكر أن أحداً منهم خرج عن هذا الإطار . وقد يذهب البعض فى تفسير النزعة القومية عند القبارصة بالرغبة فى التخلص من الموظفين الإنجليز واحتلال أماكنهم ، والتمتع برواتبهم ، لم لا ؟ ومَن مِن أهالى المستعمرات يريد أن يتولى أموره موظفون أجانب ؟

وقد يتذكر المعارضون كريت التى ذهب ٤٠ ٪ من مواردها إلى أثينا . ويتساءلون عن عدد الوظائف التى سيشغلها قبارصة يونانيون بدلا من الإنجليز (فقد يخص اليونانيون أنفسهم بتلك الوظائف دون القبارصة) ، ولكننى أرى أن المتاعب الناجمة

عن الرغبة فى الاتحاد مع دولة أخرى أهون شأنًا من المتاعب النابعة عن الرغبة فى الاستقلال . وقد أخفق المراقبون الخارجيون المهتمون بمتابعة أحوال قبرص فى فهم حقيقة الموقف ، فالقبارصة يريدون العلم اليونانى وليس العلم البريطانى ، ولا يفكرون بأن يكون للجزيرة علم خاص بها ، على نحو ما اعتقد أولئك المراقبون .

ومن ناحية أخرى ، لم تكن مشاعر الأسى التى يحس بها القبارصة اليونانيون لها نفس حدة ما أحس به الفلسطينيون العرب ؛ لأن الموظفين الإنجليز والمقيمين الإنجليز فى قبرص لم يكن لهم ذلك التأثير السكانى الذى كان لليهود فى فلسطين . وهل يمكن بعد ذلك كله أن يعد الالتحاق بأعظم إمبراطوريات التاريخ (بريطانيا) أمرًا لا يجلب الشرف ، ويفضل عليه الدم ، والانتماء إلى اليونان ؟

وكأن معوقات التنمية ، ممثلة فى الجزية التركية والقومية اليونانية ، لم تكن كافية وحدها لإثارة هموم سكان قبرص الفقراء محدودى العدد ؛ فقد قررت حكومة الأحرار (البريطانية) عام ١٨٨٢ وضع دستور للجزيرة على أساس طائفى ، يشارك من خلاله القبارصة فى إدارة أمور بلادهم .

وقد استقبلت الأغلبية المسيحية اليونانية هذه الأنباء بالترحاب ، وأرسل كبير الأساقفة برقية إلى وزارة المستعمرات يعرب فيها عن شكر القبارصة اليونانيين لهذه النزعة الإصلاحية التى اتجهت إليها حكومة بريطانيا .

واستقبل القبارصة الأتراك هذا الإعلان بالفتور ، على نحو ما فعل الصهاينة فى فلسطين عند طرح فكرة المجلس التشريعى عام ١٩٣٦ ، فأرسلوا برقيات احتجاج إلى وزارة المستعمرات يعلنون فيها أنهم لن يقبلوا الاشتراك فى عضوية المجلس الذى سيقيمه هذ الدستور ، وعبروا عن استيائهم الشديد لأن القبارصة اليونانيين الذين يعلنون ليل نهار سعيهم للانضمام إلى اليونان يكافأون من جانب بريطانيا على عدم ولائهم ، على حساب القبارصة الأتراك الذين اخلصوا فى ولائهم لبريطانيا .

كانت نظرة القبارصة الأتراك أبعد من نظرة الحكومة البريطانية ، التى مضت فى إعداد لائحة المجلس التشريعى الذى روعى أن يكون نصفه من الموظفين الإنجليز والأقلية التركية والنصف الآخر من اليونانيين ، وزيد عدد المجلس على الأسس نفسها

عام ١٩٢٥ مع جعـل صـوت الحاكم ترجيحيا فى حالة اتحاد نصف المجلس (من القبارصة اليونانيين) فى الاعتراض على قرار مـا . وكان من الطبيعى أن يصوت الأتراك دائمًا إلى جانب الحكومة ، ولم ينضموا إلى المعارضة إلا عند مناقشة الجزية التركية ، وهو الأمر الذى يمس مصالح سكان قبرص جميعًا .

وبدا المجلس التشريعى بمثابة العقل المفكر عند وزارة المستعمرات فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، ليصبح - فيما بعد - أداة سياسية ، ولكن المجلس كان بالنسبة للمتصلين بعمله فى قبرص (الحاكم وموظفوه واليونانيون من الأعضاء والأتراك من الأعضاء وسكان الجزيرة) مصدرًا للتعبير عن السخط والإزعاج ، وكان الحاكم يتولى رئاسة المجلس (كما هو الحال فى المستعمرات جميعًا) ، وكان عليه أن يجمع بين ترفع ممثل الملك ، وحيدة رئيس المجلس ، ويلعب دور رئيس الوزراء الذى يحاول تمرير قانون فى المجلس ولو بأغلبية ضئيلة . وكان يعتمد فى عمله على ضمان ولاء الأعضاء الأتراك الثلاثة بالمجلس ، وعند مناقشة الميزانية كانت عيونه تتجه صوب المقعد الثالث الخالى من مقاعد الأعضاء الأتراك ؛ لأن شاغله كان لا يستطيع المشاركة فى عمل بعد موعد العشاء . وقد يتعامل مختلف الحكام مع الأعضاء اليونانيين الاثنى عشر باعتبارات مختلفة ، ولكن فى وقت الحسم لابد من تدقيق الأمور ، وإلا أفلت الزمام من يد الحكومة . وهنا يأتى دور ممثلى الحكومة التسعة والأعضاء الأتراك الثلاثة ليحسم الأمر ويصدر القرار المطلوب . وكان المندوبون الأتراك يشعرون بأن ذلك أفضل من الإغراق فى نقاش طويل ، ولكن الساسة اليونانيين الذين يجدون أنفسهم بمنأى عن السلطة ، يلجأون إلى إثارة الجماهير وتتحول بذلك الجزيرة - خاصة عند إجراء الانتخابات لعضوية المجلس - إلى فيض زاخر من العداء غير المسئول الموجه ضد الإنجليز .

ويحس الترك بأن موقفهم الداعم للحكومة موضع احتقار الجماهير ، فهم يساعدون الحكومة خدمة لمصالحهم ، دون اعتراف حقيقى بالفضل للحكومة ، فبمجرد أن يقوم زعيمهم بتسديد نظرة معينة لهم ، يلتقون خارج غرفة المجلس ثم يعودون للتصويت على عكس ما التزموا به .

وقبرص بلد زراعى ، يعمل ثلثا سكانه بالفلاحة ، ومعظمهم أميون ونحو ٧٠ ٪ منهم مدينون للمرابين والتجار ، الذين يوفرون العمل للعديد من المحامين لمتابعة قضايا استرداد الديون المرفوعة أمام المحكمة ضد الفلاحين المتعثرين فى السداد (نحو نصف عدد القضايا) .

ووجد بين أعضاء المجلس ثمانية من المحامين ، كان ثلاثة منهم من المرابين ، وكان هناك مالك كبير يشتغل أيضًا بإقراض الأموال للفلاحين ، وأسقف من الروم الأرثوذكس ، إضافة إلى تاجر آخر وفلاح . وهكذا ، رغم أن المصالح الحقيقية لسكان الجزيرة هى مصالح الفلاحين المنتجين ، كانت المصالح الممثلة فى المجلس هى مصالح طبقة محدودة جداً من العناصر المتسلقة على تلك الأغلبية من الفلاحين ، ويعيشون فى رفاهية من وراء استغلالهم . وفيما بين جزية الأتراك ، والدستور ، وجدت قبرص - التى عينت لحكمها - تعانى من الناحيتين المالية والسياسية .

وكان ذلك كافيًا لتوجيه طاقتى للعمل على معالجة ذلك ، ولكن كانت هناك هموم أخرى إضافية ، كانت الكنيسة الوطنية للروم الأرثوذكس فى قبرص ، متطرفة فى وطنيتها ، غنية بالتفسيرات التى يلتزم بها الجميع . ومنذ عام ١١٩٢ تحت حكم أسرة لوسينان والحكام البنادقة على السواء ، جارت المسيحية اللاتينية (الكاثوليكية) على حقوق الكنيسة الأرثوذكسية وسكان الجزيرة من رعاتها ، فتحول الأساقفة الأرثوذكس إلى أتباع للأساقفة الكاثوليك ، وأجبروا على أن يقسموا يمين الولاء لهم وللبابا ، وعندما استولى الأتراك على الجزيرة ، عبروا عن كراهيتهم للبابوية بتشجيع الكنيسة المحلية الأرثوذكسية ، وبذلك بدا حكم « الكفار » للجزيرة أكثر عدلاً وتسامحًا من الحكم المسيحى ، ولكن ظلت النظرة إلى هذا الحكم على أنه « كافر » ؛ مما جعل الكنيسة الأرثوذكسية القبرصية تدفع الثمن عام ١٨٢١ .

فخلال ستة قرون تقريبًا كانت الكنيسة الأرثوذكسية القبرصية هى التى حفظت التقاليد الهللينية والبيزنطية ، ودان القبارصة بالخضوع لكبير الأساقفة ، واعترف به الأتراك ، ممثلا للمسيحيين بالجزيرة (وفقًا لنظام « الملة » الذى يعطى للرئاسات الدينية حق إدارة شئون طوائفهم) . وبعد عام ١٨٧٨ ، مع وجود حكم دولة مسيحية

(بريطانيا) لا تهتم كثيراً بالهيمنة على الشئون الدينية مثلما تفعل فرنسا مع الكاثوليك ، استمر كبير الأساقفة الأرثوذكس فى ممارسة صلاحياته . وقد قال كبير الأساقفة كلمته عند وصول الإنجليز ، ولم يتدخل أى حاكم فى شئون الكنيسة الأرثوذكسية ، أو اللغة اليونانية أو حرية القول ، أو الصحافة التى أدخلها الإنجليز إلى قبرص . وقد يكون الوضع القومى للجزيرة موضوعًا للتباحث بين أثينا ولندن ، ولكنه لا يدخل فى صلاحيات الحاكم أو كبير الأساقفة .

وكنت معجبًا بغبطة الأسقف كيرولس الثالث ، فقد كان رجل الدين الأرثوذكسى الوحيد الذى يتمتع بالروحانية طوال السنوات التسع التى قضيتها حاكمًا لقبرص ، فكنا نتبادل الزيارات ، كما تبادلنا الكتب ، وكان يحضر قداس الاحتفال بعيد ميلاد الملك چورچ بالكنيسة الإنجيلية ، كما كنت أحضر الاحتفال بعيد رسامته فى الكاتدرائية الأرثوذكسية ، وكان يعد دور الكنيسة مجرداً ، ولكن ما دام شعب الجزيرة مصراً على الوحدة اليونانية ، فمن الطبيعى أن تقوده الكنيسة ، والحق أنه كان رجلاً سمحًا رغم ما يتعرض له من ضغوط الساسة ، وظل معنيا بالأمور الدينية وحدها . وهناك شائعات عن قيام المتطرفين بقتل الأساقفة الذين لا يستجيبون لمطالبهم بالسم .

لهذه الأسباب ، كانت الكنيسة الأرثوذكسية القبرصية مؤسسة سياسية أكثر منها دينية – من كبير الأساقفة حتى قس القرية – وتكن شعوراً عدائيا تجاه الإنجليز على عكس الكنائس الأرثوذكسية التى عرفتها فى أماكن أخرى ، وإن كان ذلك الشعور العدائى لا ينعكس على العلاقات الشخصية ؛ لأن الجيل القديم من القبارصة كان متمسكا بآداب السلوك فى التعامل مع الآخرين ، ولذلك لم أجد منهم سوى المجاملة والصداقة .

كان نفوذ الكنيسة واسعًا ، ولكنه كان يعتمد على مصالحهم ، ولا يعتمد على الصلة الروحية أو الخدمية التى قد يقضى عليها انتشار التعليم . ولم تكن الحكومة البريطانية فى قبرص – كما فى غيرها من البلاد – تعترف بأى سلطة دينية ليس لها سند قانونى أو دستورى . وكان موقف الكنيسة من الحكومة موضع انتقاد المراقبين الذين يتهمون الكنيسة بعدم القيام بواجبها ، وهم بذلك لا يدركون حقيقة الأمور فى قبرص .

كانت رواتب الإدارة فى قبرص من أقل الرواتب فى المستعمرات البريطانية ، ويرجع ذلك - جزئيا - إلى فقر الجزيرة ، وإلى انخفاض معدل تكاليف المعيشة فيها (التى كانت تزداد مع كل تحسن يتم إدخاله) ، كما يعود إلى معارضة الأعضاء المنتخبين بالمجلس التشريعى لأى اقتراح بتحسين الرواتب ، وكانت الصعوبة التى واجهتها الإدارة فى فلسطين هى مشكلة الإيجارات المحلية ، أما الرواتب فكانت قد قدرت وفق معدلات تكاليف الحياة المرتفعة زمن الحرب ، وفيما عدا نفقات السفر إلى أوربا لقضاء الإجازات ، كان كل شىء يقل تكلفة عن نظيره فى القدس . وكانت الحياة بالنسبة للموظف فى قبرص أسهل مما فى غيرها طالما ظل هناك ، ولكن المشكلة كانت فى تكلفة الإجازات ، وكذلك فى التعليم الذى يسبب لأولئك الموظفين قدراً كبيراً من القلق .

ونتج عن سياسة تقدير الرواتب قصيرة النظر أن وقعت بعض إدارات الحكومة فى أيدى غير الأكفاء الذين ظلوا فى مواقعهم لمدة عشرين أو خمسة وعشرين عامًا ، بينما كان المؤهلون الأكفاء ينقلون بعد فترة قصيرة إلى أماكن أخرى . وكان بعض أولئك الموظفين من المتقاعدين من الخدمة فى المستعمرات الأفريقية لعدم الصلاحية للعمل ، واستمرت قبرص تعامل معاملة « التكية » الإدارية حتى بعد تعيينى حاكمًا بسنوات . وكانت الوظائف الفنية والعلمية تظل شاغرة لما يزيد على العامين ؛ لأن الرواتب المربوطة لها فى قبرص تقل عن معدلات الرواتب للوظائف المناظرة فى سوق العمل .

غير أنه رغم صغر رواتب كبار الموظفين الإنجليز فى قبرص ، فإنها كانت أكبر من معدلات دخل القبارصة ، فيما عدا واسعى الثراء منهم ، وأكبر من رواتب الوزراء فى اليونان وبلاد البلقان ، بينما كان راتب الحاكم العام فى قبرص معادلاً لراتب رئيس جمهورية اليونان ، أضف إلى ذلك أن المنافع العائدة من وراء اتساع أنشطة الحكومة تحتاج إلى وقت حتى يتم التحقق منها . بينما التبعات المترتبة على تعيين إنجليز تكلف إعدادهم الكثير ، تظهر على الفور .

لقد قام مدير الزراعة الحريص على أداء واجبه بمطالبة الحاكم بتعيين متخصص في الفطريات لدعم البحوث الضرورية التي يقوم بها المتخصص في الحشرات ، حول أمراض النبات في الجزيرة ، وطرق الوقاية منها لضمان وفرة المحصول . وفي بلد زراعي كقبرص ، يبدو من المنطقي تلبية طلب مدير الزراعة ، وتم انتزاع قرار الموافقة على هذا التعيين من المجلس التشريعي بفضل تأييد الأعضاء الثلاثة الأتراك ، وعند وصول المتخصص الشاب ، سوف يختفي في معمل قد يقضي فيه سنتين أو خمس سنوات أو عشراً قبل أن يتوصل إلى نتائج تعود بالفائدة على الزراعة ، ولكن الراتب الذي يبدأ به – وهو أقل من الراتب المخصص لنظيره في إنجلترا – والمعاش الذي يستحقه عند نهاية الخدمة وتلتزم المستعمرة بسداده ، يزيد على رواتب ومعاشات ثلاثة أو أربعة من كبار الموظفين القبارصة .

ولم يكن ثمة سبيل لأن نبرر أو نشرح للفلاحين الذين يحتاجون إلى شق الطرق ، وتوفير مياه الشرب ، وتنظيم زيارات دورية يقوم بها الأطباء لقراهم ، مدى الحاجة إلى الاشتراك في مطبوعات لا مناص من الاشتراك فيها ، تصدرها هيئات علمية تحتاج قبرص إلى الاستفادة بنتائج البحوث المنشورة فيها مثل المعهد الإمبراطوري ، والمعهد لعلم الحشرات ، والمعهد الإمبراطوري لعلم الفطريات ، ومدرسة لندن لطب المناطق الحارة ، والمعهد القومي للنباتات الزراعية ، وصندوق الخدمة الزراعية الاستعمارية .

ورغم أن رواتب أولئك الموظفين لا تمثل شيئًا ذا بال بالنسبة لموارد الجزيرة ، فإن الأعضاء المنتخبين بالمجلس التشريعي تحدثوا عن « الأهداف الخفية » من وراء طلب تعيين متخصص الفطريات هو « زيادة المخصصات » ، مما يتركه ذلك من انطباع لدى الناخب الجاهل لا يخلو من الصحة ، فإضافة إلى الراتب هناك السكن والسيارة وتكاليف السفر لقضاء الإجازة ، وكلها أمور لا يمكن إخفاؤها عند عرض مشروع الميزانية على المجلس للنظر في إقراره . وهو وإن كان يظهر في المشروع رقمًا إجماليا ، إلا أنه يسهل على من يعنيه الأمر من القبارصة استخراج متوسط ما تتحمله الميزانية بالنسبة للموظف الواحد في السنة . ولهذه الأسباب وغيرها أطلق القبارصة على طبقة الموظفين البريطانيين المتميزة اسم « أصحاب الدم الأزرق » .

وأعتقد مخلصًا أن مصر قد شهدت قرب نهاية الاحتلال البريطاني (أى قبيل إعلان الحماية عام ١٩١٤) قدرًا أقل من الكراهية المعلنة ضد الموظفين الإنجليز ، وذلك الشعور المحسوس عند سكان البلاد . فقد كانت لقبرص بسمات تختلف عن غيرها من ممتلكات التاج البريطاني ، فالمواصفات التي يجب توافرها في موظف بريطاني للعمل في شرق أفريقيا ، قد تكون مماثلة لتلك المطلوبة فيمن يعمل في غرب أفريقيا ، أو الملايو ، أو فيجي ، ولكن العمل في قبرص كان يتطلب مواصفات مختلفة .

فالموظفون « بمن فيهم الحاكم » لا يمكن النظر إليهم على أنهم قطع قابلة للتغيير في سيارة ، فبعض من جاءوا من مواقع الخدمة في المستعمرات الأفريقية عجزوا عن إقامة علاقات صداقة مع المثقفين القبارصة دون أن يشعروا بالتنازل عن تميزهم بحكم انتمائهم إلى « الجنس الحاكم » . ذكرت لي زوجة أحد الموظفين الأكفاء في حفل وداعه عند انتقاله إلى بلد آخر ، أنها تفخر أن أحدًا من « القبارصة » لم يدخل بيتهم طوال السنوات الأربع عشرة التي قضوها في قبرص ، واضطررت لتذكيرها بأنها تدين للقبارصة بالطعام الذي أكلته طوال تلك السنوات ، وبالثياب التي ترتديها .

وكاد يصعق أحد كبار رجال القضاء الإنجليز المستنيرين ، وكان يعمل في شرق أفريقيا ، عندما علم أن عليه أن يصافح بعض « الوطنيين » قائلاً : « إنني لا أضع يدي إلا في يد رجل أبيض من ذوي الاعتبار ، ولا أدع أسود مهما يعلُ قدره أن يلمس يدي ، أما هؤلاء الذين ليسوا بيضًا أو سودًا فلا أفهمهم ولا أريد أن أفعل » . وكان أولئك الرجال (الذين دعوتهم في حفل استقبال الضيف المتغرطس) فقهاء في القانون ، ويتحدثون ثلاث لغات ، ويجيدون وزوجاتهم لعب التنس والبريدج ، ويرسلون أولادهم على نفقتهم الخاصة للدراسة في إنجلترا ، غير أن النقاش القانوني المتميز جعل الضيف المتغرطس يقترب من زملائه القبارصة ، وكانت العلاقات في إدارته مع الزملاء من القبارصة أحسن مما في غيرها من الإدارات الأخرى .

إن بيت الإنجليزي قلعته ، ولكن بيت الإنجليزي في قبرص كان حصنه الاجتماعي ، ففي نادي نيقوسيا البديع انتخب واحد أو اثنان من القبارصة في الأيام السعيدة الباكرة ، ولكن الأمور تغيرت بعد ذلك ، فقد تجد الشاب القبرصي العائد من

الدراسة بإنجلترا والمتحمس لكل ما هو إنجليزى ، قد يجد نفسه منعزلاً عن بقية أعضاء النادى وعن الإنجليز ، ومن ثم يتجه إلى المجال السياسى الوطنى المفعم بالشك وسوء الفهم ، وأسهم الإنجليز المقيمون فى قبرص إلى جانب الموظفين فى توسيع الفجوة بين الجالية الإنجليزية والقبارصة .

ومن ناحية أخرى ، لابد أن أسجل هنا أن هؤلاء الموظفين أنفسهم عاملوا مرءوسيهم القبارصة بالحسنى واللطف ، وأن أولئك المرءوسين أحبوا رؤساءهم الإنجليز وأن عدم إقبال الزوجات الإنجليزيات على استضافة المنتخبين من أعضاء المجلس التشريعى فى بيوت أزواجهن يرجع إلى ما كن يسمعنه من متاعب يسببها أولئك النواب لأزواجهن ، ورفضهم العلنى التبعية للإمبراطورية البريطانية .

لقد شاع الافتراض أن الأفراد ذوى الكفاءات العالية يحظون بالاهتمام فى البلاد الخاضعة للإمبراطورية البريطانية ، وتتاح لهم فرصة أفضل للانتفاع بهم ، ولكن بعض البلاد خسرت ما كسبت بسبب تلك الظاهرة . وقد سبق أن أوضحت كيف إن « الوظائف المتاحة للموهوبين » قد قلت فى فلسطين تحت الانتداب بالانفصال عن الدولة العثمانية . وفى قبرص كان للاحتلال البريطانى جوانبه السلبية ، فلم يعد بالإمكان أن يصعد ابن فلاح قبرصى إلى منصب الصدر الأعظم ، وبالنسبة لذوى الكفاءة الذين لا تتجاوز مطامحهم مناصب القضاء بمختلف مراتبها ، قد يتلقون بارتياح نبأ توافر وظائف لهم على بعد ستة آلاف ميل خارج قبرص ، حيث تتوافر ظروف لا نظير لها فى قبرص للعيش والإقامة .

إن الحديث عن الانتماء للإمبراطورية لا يساوى شيئًا إذا لم يقترن بوجود فرص متاحة للانتفاع من الإمبراطورية ، وأستطيع أن أذكر اثنين أو ثلاثة من القبارصة المشتغلين بالقضاء شهد كبار القضاة الإنجليز المتعاقبين بأهليتهم لاحتلال مناصب القضاء بأى مكان فى الإمبراطورية البريطانية . ولا شك أن تشجيع هؤلاء وترشيحهم لتولى مناصب القضاء فى مستعمرة أخرى أمر مفيد . وقد تستفيد مستعمرة أخرى من موضوعيتهم وسعة أفقهم ونظرتهم السديدة للأمور . هذا بالإضافة إلى ما يترتب

عـــلى ذلك من تشـــجيع الإقبـال على تعلم اللـغة الإنجليزية والدراسة فى بريطـانيا .
ترى .. هل يجب أن تظل مستعمرات التاج موسومة بالمحلية إلى الأبد ؟

ليس من الســهل تحــمل الحــكم الأجنبى إلا إذا كــان المحكومــون عطلاً من الحضـارة . ولا يمكن قـبـول الحكم الأجنبى إذا لم يصـحبه تفـاعل وتلاقٍ إنسـانىٍّ ، وتحقيق للطموحات المشروعة عند المحكومين .

الفصل العشرون

حاكم قبرص

رغم ما يقال من أن فن الحكم يتمثل بالدرجة الأولى فى قدرة الحاكم على التملص من القضايا ، فإن المشاكل والأوضاع التى أوضحتها فيما سبق تجعل تحملها من جانب الحاكم أصعب منه من جانب المحكومين ، ولكن لم تكن لدى نية اقتراح إدخال أى تعديلات على وزارة المستعمرات دون دراسة دقيقة ، واستشارة من لديهم خبرة طويلة بالجزيرة . ورأيت أنه يجب أن يعرف المتطرفون أن الحاكم لم يعين فى موقعه ليفرط فى مستعمرة من ممتلكات التاج ، مهما يكن ميالاً إلى الثقافة الهللينية ، وأننى أقبل تعاونهم معى من أجل صالح بلادهم بغض النظر عن مصيرها فى المستقبل .

ولكن كانت هناك شكوى أخرى فى حاجة إلى دراسة . فقبل مغادرتى إنجلترا نصحت وزارة المستعمرات وكذلك الخزانة أن تقوما بإلغاء « الجزية التركية » لما تمثله من ظلم فادح ، وعندما وجدت أنه لا تزال هناك صعوبات تحول دون ذلك ، اقترحت أن تقوم حكومة صاحب الجلالة بإسقاط الضريبة السنوية التى تتحملها المستعمرة مساهمة فى نفقات الدفاع ، وقدرها عشرة آلاف جنيه ، كان رفض الميزانية من جانب المجلس التشريعى تحديا يتعلق بإيقاف الإمداد ، مما دعانى أن أبدأ عهدى بإصدار أمر بإقرار الميزانية ، وهو إجراء مثير للقلق فى قبرص .

ومع ذلك ، استمرت محاولاتى لبذل أقصى الجهد لمساعدة سكان قبرص ، موقنا بعدالة قضيتهم ، ولكن وزير المستعمرات سدالطريق أمام اقتراحى فى مجلس الوزراء ، وبعد عشرة شهور من الانتظار القلق ، كان باستطاعتى أن أخبر المجلس التشريعى بقرار إلغاء « الجزية التركية » . واستقبل الإعلان الذى أصدرته قبل زيارتى لرودس بفرح غامر ، وعند عودتى استقبلنى أعضاء المجلس على رصيف ميناء ليماسول ، ووسط حماس الجميع ، قدموا لى الوثيقة التالية :

٥ سبتمبر ١٩٢٧

لعل هذا يبعث السرور فى نفس سعادتكم

نحن الأعضاء المنتخبين بالمجلس التشريعى لقبرص استمعنا بغاية الارتياح والسرور إلى الخطاب الذى ألقيتموه سعادتكم - بمنتهى الغبطة - علينا يوم ٣١ من أغسطس .

إننا ندين بالفضل لسعادتكم لعنايتكم الفائقة ، وحرصكم الشديد ، الذى أدى إلى الإسراع بالاستجابة لالتماسكم تخليص قبرص من ذلك العبء الثقيل ممثلاً فى « الجزية التركية » ، والاستجابة السارة لحكومة الإمبراطورية لتحقيق مطالب شعب قبرص برفع هذا العبء عن كواهلهم ، مما جعل الربيع يعود مرة أخرى هذه السنة ، على نحو ما جاء بخطاب سعادتكم .

ونرغب إلى سعادتكم مخلصين ، إبلاغ شكرنا وولائنا لحكومة صاحب الجلالة ، ووزير المستعمرات الموقر ، لتقديرهم دقة الموقف وللقرار العظيم الذى تم اتخاذه .

ونؤكد نيتنا الالتزام بالشروط التى وردت برسالة سعادة وزير المستعمرات ، وإننا على استعداد للتعاون التام من أجل إصدار التشريع اللازم للتصديق على القرار .

وختامًا ، اسمحوا لنا يا صاحب السعادة أن نؤكد لكم استعدادنا الدائم للتعاون معكم فيما يعود على المستعمرة بالخير والرفاهية .

ولنا الشرف يا سيدى أن نكون خدمكم المخلصين

(توقيعات)

(١٥ عضوًا منتخبًا من القبارصة اليونانيين)

وعندما زرت مصر فى عيد الميلاد التالى ، أدهشنى أن أجد فى استقبالى على رصيف محطة القاهرة حشد من حوالى ثمانمائة أو تسعمائة من القبارصة اليونانيين المقيمين بمصر ، استقبلونى بالهتاف الحماسى ، ونشرت الصحيفة اليونانية الأسبوعية التى تطبع فى هليوبولس (مصر الجديدة) قصيدة مطلعها :

ستورس البريطانى عاشق اليونان

إن هذه الذكريات كانت موضع تأملى فى السنوات الأخيرة ، فقد كانت مالية قبرص بالغة الضيق حتى إن هذا التوفير لمبلغ ٣٢ ألفًا من الجنيهات سنويًا مكننى – خلال عامين – من إعادة تنظيم إدارتى الزراعة والصحة .

وفور عودتى إلى قبرص ، أصدرت منشورًا لكل الإدارات يحظر استخدام كلمة « رعية محلية » والاقتصار على كلمة « قبرصى » وزيادة ساعات العمل الأسبوعية بإدارات الحكومة من ٣٠ إلى ٣٥ ساعة ، وكان الجزء الثانى من المنشور أسهل قبولاً منه تطبيقا . فقد أثارت إضافة خمس ساعات عمل أسبوعيا مناقشات تافهة متنوعة ؛ فالتبكير بالعمل ساعة صباحًا لا يلائم قبرص – على حد قولهم – لأن النساء القبرصيات يحتجن إلى شراء حاجات بيوتهن فى الصباح الباكر ، وكذلك الأزواج . وزيادة ساعة العمل عند الظهيرة لا تتلاءم مع مناخ قبرص الحار ، وإضافة ساعة العمل فى بداية فترة ما بعد الظهيرة يجور على الوقت المخصص للغداء ، أما إضافتها فى نهاية فترة ما بعد الظهيرة فتحرم الموظف من مشاركة عائلته تناول الشاى حيث يفيض حنانًا على أولاده !! ، كما أن ذلك يعنى انتهاء ساعات العمل وقت الغروب ، ولا يصح أن تعود الموظفة راكبة دراجتها إلى بيتها فى الظلام . وإزاء هذه الاعتراضات أعلنت أنه لا يهمنى تحديد مواعيدالعمل ، ولكن لابد من أن يعمل الجميع ٣٥ ساعة أسبوعيًا . وتم ذلك فعلاً .

كذلك رأيت أنه طالما كان هناك قبرصى كفء ومخلص يصلح للعمل فى خدمة بلاده ، فيجب أن تتاح له الفرصة للعمل بالحكومة . وقبل نهاية السنة الأولى من مدة حكمى تم تعيين اثنين من مساعدى القضاة القبارصة أحدهما يونانى والآخر تركى ، وكذلك محام عام قبرصى ، ومستشار قانونى ، ومساعد لمراجع الحسابات . وكان هناك مرشحون من الإنجليز لوظائف القضاء ، غير أن وزير المستعمرات اقتنع بوجهة نظرى ، فتم تعيين القبارصة ، ولكن ذلك أثار الكثير من الانتقادات ، وسيأتى اليوم الذى يشعر فيه أصحاب الانتقادات بالارتياح لرؤية أولئك القبارصة يعملون مع الحكومة وليس ضدها ، ولكن حال دون التوسع فى ذلك الاتجاه ، غياب التدريب الفنى المتاح للقبارصة الذين ركزوا جهودهم على دراسة الطب والقانون طالما كانت مناصب الإدارة العليا ليست فى متناول أيديهم ، ولكن ما لبثت المنح الدراسية أن وفرت

للقبارصة لدراسة الهندسة والعمارة والغابات والمحاسبة ، وغيرها من التخصصات المختلفة ، ولم تتح لى الفرصة للبقاء فى منصب الحاكم حتى أجنى ثمارها .

فى عام ١٩٢٧ ، زار قبرص قائد عام القوات البريطانية فى مصر ، وصحبته لزيارة ليماسول – مقر الحامية البريطانية – وتقع على بعد ساعتين ونصف ساعة من مقر الحكومة ومن أقرب محطة سكك حديدية ، ولم تكن بها اتصالات هاتفية ، ولذلك كان يجب نقلها إلى نيقوسيا لأسباب عسكرية وسياسية . وقد أيد الجنرال الزائر وجهة نظرى ، ولكن حكومة قبرص والحكومة البريطانية لم يكن باستطاعتهما تحمل تكلفة إقامة ثكنات جديدة فى نيقوسيا . وظلت الحامية فى ليماسول شتاء ، وتنتقل إلى جبل يرودوس صيفًا عندما يصبح موقعهم فى ليماسول من مايو إلى منتصف سبتمبر مرتعًا للملاريا ، تصعب الإقامة فيه .

ولم يكن هناك مجال لوصف نظام جورست أو كيتشنر أو أللنبى أو صامويل بالضعف ، ما خلا سياسة الحكومة البريطانية ، ولكننى كنت حريصًا على التأكد من تفهم وقبول وزير المستعمرات للتسامح بعيد المدى إزاء الدعاية الأجنبية ورفع علم أجنبى فى مستعمرة بريطانية (قبرص) ، فقمت بإعداد مذكرة له حول هذا الوضع ، والوسائل المختلفة للتعامل معه ، على نحو ما حدث على بعد ٣٠٠ ميل من قبرص . فقد احتلت إيطاليا جزر الدويكانيز العثمانية (وعددها ١٣ جزيرة ، عاصمتها رودس) خلال الحرب التى ضمت قبلها طرابلس (١٩١١) ، كما احتفظت بتلك الجزر تحت حكمها بعد الحرب أيضا ، ثم تنازلت عنها لليونان فى ١٩١٩ ، وكانت الاتفاقية معدة للتوقيع بين الدولتين ، عندما غير السنيور تيتونى رأيه ، وظلت الدوديكانيز إيطالية . وتحت الحكم الفاشى تم القضاء على الهللينية ، ولما كان اسم « الدوديكانيز » يونانيا فقد ألغى استخدامه ، وحل محله « جزر بحر إيجه » .

لقد تحول الانتماء القومى إلى انتماء دينى ، فلا تتكلم عن « اليونانى » ولكن عن « الأرثوذكسى » ، ولا تتكلم عن « التركى » بل عن « المسلم » ، ولم يسمح برفع العلم اليونانى فى الدوديكانيز ، والصحيفة الوحيدة التى سمح بها كانت صفحة مترجمة مطبوعة على الصفحة الأخيرة من جريدة إيطالية ، ورفعت جميع المنازل

صـــورة الدوتشى (مـوسـولينى) والعلم الإيطالى . وأجـبـر السكان على تحـيـة العلم الإيطـالى عنـد إنزالـه ساعة الغروب ، ولو اضطروا إلى النزول من سياراتهم لأداء هذا « الواجب » . ولم يكن للمؤسسات الحرة أى وجود بتلك الجزر .

ولم أقترح اتباع هذه السياسة فى قبرص ، رغم أن بعضها فرض علىَّ فرضًا بعد ذلك ، ولعـل الأمور كانت أسهل لو حلت مشكلة العلم اليونانى فى بداية احتلال الجزيرة ، من ناحية أخرى تستحق الحيوية التى أبداها الإيطاليون فى تنمية الجزر الاهتمام ، خاصة ما فعله السيناتور مايولاجو – حاكم جزر بحر إيجه – من إنجازات جديرة بالتقدير . فقد تحسنت أحوال الجزر . وأصبحت رودس فائقة النظافة . وعقد المهـتمـون بالمظهر الخـارجى مـقـارنة بين تلك السـيـاسـة الإيطـاليـة ، وأسلوب الحكم البريطـانى فى قبرص . فالمســتعمرات تسير كل منهــا على طريقــتها الخــاصـة ، وإلا اختفت واختفت معها الحكومة المركزية ، واتسـاع نطاق المكانة التى تتمتع بها الحكومة المركزية لا يجعل هناك ضرورة للإنفاق الكبير عـلى الدعاية ، الذى يستحسن توجيهه للإنتاج .

لقد كان الحكم الإيطالى فى الدوديكانيز حكمًا طاغيًا ، ولا شك أن مقارنة أسلوب الحكم الإيطالى بأسلوب الحكم البـريطانى فى قـبـرص يجـعل سَكان الدوديكانيـز اليونانيين والقبارصة اليونانيين يميزون بين النظامين ، أيهما أفضل ، ولا أستطيع أن أحـدد مـدى الانتـفـاع النهـائى من النظامين بعـد عـقـدين من الزمـان ، ولكن وزارة المستعمرات بعد التشاور مع وزارة الخارجية اعتبرت السياسة القائمة الآن فى قبرص سياسة « مثالية » ، وأنها أنسب السياسات التى يمكن اتباعها ، وطلبوا منى أن أبحث فى أمر النظام التعليمى على ضوء الدعاية السياسية الأجنبية .

ولم أشـعر يومًـا ما بالارتياح مـثلمـا شعـرت وأنا أرفع هذا الموضـوع من قائمة الموضـوعات التى يجب علىَّ اتخـاذ قرار بشـأنها خـلال مدة عملى حـاكمـا للجـزيرة ، وأعتذر عن تناولى لها هنا بالتفصيل ، فقد كانت شغلى الشاغل طوال خمس سنوات .

لقد قـوت تلك التـعليمـات من عـزيمتى ، فطفت البـلاد لزيارة أكبـر عـدد ممكن من القرى لأتعرف بنفسى على الحـاجات الحـقـيـقيـة للبـلاد . تحتـاج قبرص إلى الكثير ،

ولكنها تحتاج إلى ثلاثة أشياء بصورة ملحة : رأس المال النابه ، والمواصلات ، وفوق ذلك كله : المياه . وقد تم تدبير المال من مصدرين : طرح قرض قبرصى قيمته ٦٠٠ ألف جنيه ، والمصدر الثانى « صندوق تنمية المستعمرات » الذى أنشأه المستر أمرى - وزير المستعمرات - الذى يتسم ببعد النظر . وكان الصندوق يضمن منح أو إعارة مليون من الجنيهات لتغطية نفقات الخدمات ، أو تمويل المشروعات بين مستعمرات التاج البريطانى بعضها البعض . وقد تم إنفاق ٢٠٠ ألف من الجنيهات على توسيع ميناء فاما جوستا إلى ضعف ما كان عليه ، بعدما كان مدخله ضيقًا وأرصفته صغيرة ، وكانت السفن تصطف أيامًا فى انتظار دورها فى الشحن أو التفريغ . وتم إنفاق نحو ٣٠٠ ألف من الجنيهات الإسترلينية على تعبيد الطرق ، فبعد أن كانت الطرق المرصوفة لا تزيد على ٢٠ ميلاً ، أصبحت هناك بضع مئات من الأميال من الطرق المرصوفة ، مما أدى إلى خفض الخسائر الناجمة عن تأخير النقل ، وزيادة الأرباح ومن ثم الموارد المالية ، كما أدى ذلك أيضًا إلى انتظام البريد واختصار الزمن الذى تستغرقه الرسائل الداخلية أو الخارجية فى الوصول إلى أصحابها ، كما تم إنفاق بعض المال لتحسين خدمة البرق .

ولم يكن هناك اتصال لاسلكى فى قبرص ؛ فقد تم نقل معدات اللاسلكى العسكرية من الجزيرة بعدالحرب ، وعندما تعطل كابل الإسكندرية فى أثناء مد كابل من لارناكا إلى حيفا انقطع اتصال قبرص بالعالم الخارجى مدة يومين ، كان يمكن خلالها لأى قوة معادية احتلال الجزيرة دون أن يستطيع أحد أن يفعل شيئًا ، ولم تكن هناك خدمة اتصال هاتفى عامة ، ما خلا عددًا محدودًا من الخطوط الحكومية فى نيقوسيا ، وخدمة محدودة فى ليماسول (١٠٠ مشترك) وخط متصل بالغابات للإخطار عن الحرائق عند نشوبها . وكانت الخطوط الحكومية فى نيقوسيا تربط بينهما وبين فاماجوستا ولارناكا للأغراض الرسمية وحدها ، وكانت شركة التلغرافات الشرقية تقدم خدمتها خلال ساعات العمل اليومية وعلى أساس تجارى ، ولم يكن باستطاعة الحكومة رقابة عملها ، وكان الاتصال منقطعًا تمامًا فى مكاتب الحكومة - بما فى ذلك الشرطة - ليلاً ، وأيام الأحد ، والعطلات الرسمية ، فلا يتم الاتصال بين أطراف الجزيرة إلا من خلال السعاة .

ولذلك كانت مسألة الاتصالات من المسائل الملحة المؤرقة ، ورغم ما لقيت من عون من جانب وزراء المستعمرات المتعاقبين ، لم أستطع أن أحقق شيئًا فى السنوات الثلاث الأولى حتى تم اندماج شركة التلغرافات الشرقية فى شركة ماركونى اللاسلكية؛ عندئذ تمكنت عام ١٩٣٠ من إبرام عقد مع هذه الشركة لإنشاء محطة لاسلكى ، وخدمة هاتفية تربط المدن الرئيسية فى الجزيرة ببعضها البعض . وكان من المؤسف أن أغادر الجزيرة بعد ثلاث سنوات دون أن تصل أى من المعدات اللازمة لتنفيذ العقد ، رغم ما بذلت من مساع ومقابلات فى لندن .

لقد كانت خدمة الهاتف واللاسلكى أشد أهمية فى تلك الأيام ، مما هى عليه الآن فى عصر الطيران . وفى حدود علمى لم تصل إلى قبرص أى طائرة [مدنية] أو طائرة حربية منذ نهاية الحرب . وإذا وضعت مسطرة على الخريطة فيما بين برنديزى وأثينا وجعلتها تنحرف شرقًا قليلاً فسوف تمر بمنتصف قبرص ، ويمتد الخط على استقامته ليصل إلى دمشق فبغداد ، وبذلك يصبح لدينا خط طوله ٧٣٠ ميلاً يمر فوق ممتلكات بريطانية . وفى عام ١٩٢٧ اقترحت على شركة الخطوط الإمبراطورية استبدال قبرص بالقاهرة بالنسبة لخط الهند ، وتدريجيا أصبحت مصدر إزعاج جوى لوزارة المستعمرات ، وأصبحت قبرص مصدر إزعاج لوزارة الطيران وللخطوط الجوية الإمبراطورية ، وقد قمنا بإعداد مهبط اضطرارى (للطوارئ) خارج نيقوسيا ، ولكنه لم يستخدم إلا عام ١٩٣٠ عندما هبطت فيه طائرتان قادمتان من فلسطين . وقد أثار ذلك اهتماما بالمهبط ، وتلقينا وعوداً بالنظر فى مقترحاتنا بهذا الصدد .

وفى سبتمبر ١٩٣٠ ، أقامت الخطوط الجوية الإمبراطورية خطا تجريبيا بين قبرص وفلسطين ومصر بعد أن تلقت دعمًا من الخزانة البريطانية، وذلك خلال أشهر الصيف . وبدأت الشركة تجعل من قبرص مركزًا دائمًا فى خطوطها بالشرقين الأدنى والأوسط اعتبارًا من أبريل ١٩٣٢ ، وأصبحت هناك رحلة أسبوعيا إلى ليماسول ذهابًا وإيابًا . ولم يكن باستطاعتنا – فى بداية الأمر – أن نوفر مسطحًا مائيا كافيًا لهبوط وإقلاع الطائرات البحرية الكبيرة فى فصل الشتاء . وجاء حل هذه المشكلة باستخدام بحيرة أكروتيرى غرب ليماسول ، بعد إجراء بعض التجهيزات ، بتكلفة قدرها أربعة آلاف جنيه دفعت كتعويضات للفلاحين الذين انتزعت ملكياتهم . وشكل سهل ماسوريا

مطاراً واسعاً (توقفت وصلة قبرص فى خط الشرق بسبب مشكلات تتعلق بصعوبات الإقلاع والهبوط بشمال فلسطين) .

لعل الزائر لبلاد الشرق الأدنى والأوسط يدهشه كيف استطاعت الحضارات القديمة أن تزدهر فى تلك البلاد التى تعانى الجفاف . وتزداد دهشته عندما يأتى إلى قبرص ، ويعلم أنه حتى نهاية عهد أسرة لوسينان عام ١٤٨٩ ، شهدت الجزيرة ثلاثة قرون من الرخاء رغم عدم توافر المياه . لقد قال فلاح قبرصى ذات مرة : « أعطنى ماء أحوله لك إلى مال » . ولكن ما عانته البلاد من إهمال تحت حكم البنادقة ، وما تعرضت له الغابات من استنزاف طوال العصر العثمانى ، كل ذلك أدى إلى تغير الظروف الطبيعية ، حتى إن سهلاً خصبًا مثل سهل ماساوريا ، يصفه رحالة فى سبعينيات القرن التاسع عشر بقوله : « لقد تجولنا فى هذه المنطقة عدة أيام كاملة ، ولم نر إلا أعشابًا برية جافة مبعثرة على أرضه شاسعة قفرة هنا وهناك .. وقد تجولت فى الغابات راكبًا وراجلاً ، وعدت حزينًا لما أصابها من الدمار» ؛ فالغابات لا تجتذب الرطوبة ، ولكن من المؤكد أنها تحتفظ بها . وعندما ينهمر المطر تتدفق المياه التى احتجزتها الأشجار فى مجرى أصفر صغير فى الطريق إلى البحر الكرينى ، يسقط المطر غزيراً ، ولكن لا يستمر كثيراً ، ولا يعرف أحد متى يسقط ، وما يمكن أن يتم الاحتفاظ به ، ولا يمكن لأى باحث عن الماء أن يكسب عيشه إذا حدد أجره على أساس ما يجده من ماء . كانت أجور مهندسى الماء القادمين من أوروبا مرتفعة ، وما يستطيعون عمله يمكن أن يحققه أى من المشتغلين بهذا المجال من القبارصة .

كان هناك يأس شديد من إمكانية توفير ما تحتاجه الجزيرة من الماء ، وعندما علمت أنه تم العثور على مياه تكفى لرى سهل ماساوريا تبين لى أن الكمية أقل كثيراً ، وأن تكلفة رفعها كبيرة تفوق ما تم تقديره من قبل . وكان الحل الأمثل هو تعيين مهندس مياه جوفية وعدد من المنقبين ، وتزويدهم بما يلزم من المعدات ، وإطلاقهم للبحث عن الماء فى أى مكان ، وبعد خمس سنوات من العمل المتصل أصبحت هناك ٢٠٠ بئر جديدة ، يتم الحصول منها على ما يزيد قليلاً على سبعة ملايين جالون من الماء طوال ٢٤ ساعة يوميا للرى بشق الأنفس . وهناك مشروع آخر تم استكماله لفتح ما يزيد قليلاً على نصف المليون جالون من الماء فى خط أنابيب من

الوادى إلى منطقة لفكا التى تنتج برتقالاً تؤكد الهيئات الخبيرة بالموالح تفوقه على إنتاج يافا ، كان يتم تسويقه فى لندن .

وكانت الغابات يوما ما مفخرة قبرص ، ولكن مناجم النحاس التى حفرها الفينيقيون ، وبناء أساطيل الإسكندر والبندقية ألحقت بتلك الغابات الدمار . وأكمل العثمانيون ، والحرائق ، ورعى الماعز ، تخريبها ، حتى أصبحت جرداء فى غالبية أجزائها . ولكن عمليات المحافظة والحماية فى العقودالثلاثة الأخيرة . أوقفت عملية الدمار ، وعادت أشجار الأرز والبلوط تنبت من جديد على جبال الجزيرة ، لا تهددها سوى قطعان الماعز عدوها اللدود ، ولا مناص من إتاحة الفرصة لنمو الغابات مرة أخرى فى قبرص ؛ لأنها تلعب دوراً مهما فى التوازن الطبيعى بالجزيرة . فهى تحتفظ بمياه المطر ، وتغطى المساحات التى لا يمكن زراعتها ، وتساعد على تلطيف الجو ، وتساعد على تحسين الزراعة من خلال القنوات التى تحمل فائض الماء إلى السهول ، كما توفر الأخشاب إحدى المواد الأساسية للإنتاج الحضارى ، وتساعد على توفير العمل الموسمى ، ومساحات صغيرة هنا وهناك يمكن أن يزرعها صغار الفلاحين ، ويقدر العائد السنوى منها بثلاثة ملايين من الجنيهات .

ولكن ، رغم أن الغابات والماعز لا يتعايشان ، فإن الماعز فى قبرص يضاهى من حيث الأهمية الخنزير فى أيرلندا ، والجمل فى الجزيرة العربية ، ويعتمد عليها الفقراء فى معاشهم اعتماداً رئيسيا . كما لعبت الماعز دوراً مهما فى انتخابات المجلس التشريعى؛ فقد كان المرشحون من كبار ملاك قطعان الماعز ، فكأنهم كانوا يحصلون على مقاعدهم بأصوات الماعز .

لقد أحب الموظف المسئول عن الغابات الأشجار وكأنها بشر ، بل فاق حبه لها حبه للبشر . ويبدو ذلك فى التقارير التى كان يرفعها إلىَّ ويستخدم فيها عبارات تفيض أسى ولوعة ، كان علىَّ تهذيبها قبل رفعها إلى وزارة المستعمرات . وقد عانينا من هذه المشكلة ، وشغلنا كثيراً بها ، وقمنا بتعيين لجنة للغابات ضمت بعض القبارصة فى عضويتها . وقام الأستاذ تروب بجامعة أكسفورد بدراسة التقرير الذى أعدته اللجنة بعد ١٦ شهراً من العمل ، وعندما غادرت قبرص كان التقرير لا يزال أمام وزير

المستعمرات فى انتظار ما يقرره بشأنه . لقد أضفنا مئات الأميال إلى خطوط الهاتف الخاصة بالغابات ، وأرسلت بعض القبارصة من اليونانيين والأتراك لدراسة الغابات بإنجلترا ، وأقمنا معارض لمنتجات الغابات وأدخلنا الاحتفال بعيد الشجرة ، وقللنا من خطر رعى الماعز ، فحددنا لقطعانها أماكن معينة للرعى فى محاولة لتوطين الرعاة وجعلهم يحسون بمزايا الاستقرار .

ورغم ذلك ، كانت الإدارة الخاصة بالغابات لا تحظى بالقبول عند القبارصة . فالفلاح لا يستطيع العيش بعيداً عن الغابة ، كما أنها تثير حفيظة السياسى ؛ لأنها تضايق من يحتاج إلى أصواتهم . وفى رأيى أننا مهما نفعل ، فإن قبرص فى حاجة إلى أجيال وأجيال حتى تتجاوز مستوى الماعز .

إن حياة الفقراء تمثل مشكلة عويصة فى كل البلاد بالنسبة لرجل السياسة ، بقدر ما تقدم مادة غنية لمثيرى القلاقل والشغب . وحتى أضع ضوابط للتعليقات المتصلة بأوضاع الفلاحين التى لا تعتمد على معلومات صحيحة ، طلبت إعداد تقرير عن « الحياة الريفية فى قبرص » وهو تقرير حقق فائدة للناس جميعاً ، وقدم صورة حية لأولئك الذين خرجوا من ظلام العصر العثمانى ، ويماثلون الفلاح الإنجليزى فى عصر تيودور ، ورغم ما تثيره قراءة التقرير من الأسى ، فقد أصبح أساساً للكثير من التشريعات الاجتماعية (مثل قانون معاملة خدم المنازل) على مدى سنوات عديدة .

لم يجد أحد من بين مئات « المكتشفين » الذين يزورون قبرص كل عام ما يكتبونه فى الصحافة عند عودتهم إلى إنجلترا عن « إهمال » الحكومة ، خاصة فيما يتعلق بالفنادق ، رغم أنها لا تدخل فى اختصاص الحكومة فى قبرص أو غيرها ، وفى عام ١٩٢٧ كانت أحوال الفنادق أسوأ مما هى عليه الآن . وإذا كان قد حدث تحسن طفيف بطىء ، فذلك يرجع للأسباب التالية : لم تكن لدى حكومة قبرص أموال لبناء أو حتى ضمان بناء فندق ، وقد درج أثرياء قبرص على استثمار أموالهم فى الربا ولا شىء غيره ، وكانوا يضمرون الشك فى بعضهم البعض ، ولا يقبلون بالشراكة المالية ، خاصة فى مجال لا خبرة لهم به (كما أن السائح الذى ينتقد الفنادق ، لا يقبل أن يبادر بنفسه ، أو بالتعاون مع أصدقائه ، لاستثمار المال فى فنادق قبرص) ومعظم

الموظفين والمقيمين الإنجليز لم يهتموا بتبسيط الأمور للمستثمرين ؛ لأنهم يخشون أن يؤدى ذلك إلى زيادة تكاليف المعيشة .

لذلك فكرت فى الاتصال بشركات الفنادق فى مصر وفلسطين وإنجلترا وإسكتلنده ، كما اتصلت فيما بعد بممثلى توماس كوك فى الشرق الأدنى والأوسط لعدم وجود ممثل لهم فى قبرص ، وتضخم ملف الفنادق والسياحة بين يدى دون بارقة أمل ، فقد أحجم الجميع عن التورط فى مغامرة غير مضمونة العواقب ، فكانت الرسائل التى تلقيتها من الجميع سلبية تماما ، وقد قبل ممثلو كوك وبعض شركات الفنادق دعوتى لزيارة قبرص زيارة استطلاعية ، رغم صدور قانون يضمن ٥ ٪ من المشروعات التى تتم الموافقة عليها ، ووعدت بإقناع شركات السياحة بتنظيم رحلات إلى قبرص بمجرد بناء فندقين أو ثلاثة من فنادق الدرجة الأولى ، وأن البدء فى بناء الفنادق يتم بمجرد تعهد شركات السياحة بتنظيم رحلات تضم عشرة آلاف سائح سنويا لزيارة قبرص .

ولم أضع فى اعتبارى الحاجة إلى فنادق « فخمة » فى قبرص التى لا يمكن أن تجتذب سياح الريفيرا ، ولكنها تعنى الكثير عند عشاق الجمال والتقاليد والآثار ، والباحثين عن الهدوء . وكان هناك ما يتم عمله بالجهد الخاص فى الجزيرة ، فقد تم بناء فندق صغير على السفوح الغربية لجبل أوليمبوس ، كان نظيفًا ملائمًا ، كما أقيم نادٍ فى حديقة كيرنيا ، كما تم بناء فندق صغير فى كل من نيقوسيا وفاماجوستا ، وللأسف لم أستطع أن أكرر الزيارة لتلك الفنادق ، والاستمتاع بأطباقها التركية واليونانية الشهية التى اندمجت معا لتكون مطبخًا قبرصيًا متميزًا .

وجدت فى قبرص غرفة تجارية ، كان باستطاعتها أن تحقق النجاح لو اهتم الأعضاء باستخدامها (تمامًا مثل حال عصبة الأمم) ؛ إذ يبدو أنهم كانوا يركزون على تفادى سداد اشتراكات العضوية ، ويتحدون معًا - إذا حدث ذلك - فى الغيرة على نيقوسيا (وهو نوع من التعصب المكانى) فى مواجهة ليماسول ولارناكا . ومن هنا كان التصويت ضد توسيع فاماجوستا الذى كان يحقق النفع للجزيرة كلها ، ولكنه طبعا ليس فى صالح لارناكا أو ليماسول .

وكانت مدرسة الموسيقى ، والجمعية الموسيقية ، يشبهان غرفة التجارة فى أنهما أنشئتا لخلق حاجة وليس لتلبية حاجة ، وكان العنصر اليهودى ممثلا فى شخص كالمانوفيتش ، وهو موسيقى جيد ومحاسب فاشل ، لا يتذكر أبدًا أى التلاميذ سدد قسط المصروفات ، وأيهم لم يسدد ، وجاء هذا الاهتمام والارتقاء بالمستوى من خلال قيام كلية ترنتى للموسيقى بلندن بإجراء اختبارات سنوية فى نيقوسيا .

ومن ناحية أخـرى ، تم افتتـاح المكتبة العامة عام ١٩٢٧ تلبية للحاجة الملحة إليها ، وقد جمعنا بها نحو أربعة آلاف مجلد كتبت بسبع لغات أو ثمان ، وتم تدعيمها وتشريفها بخمسين مجلدًا منحتها صاحبة الجلالة الملكة مارى من مكتبتها الخاصة ، قامت باختيارها بنفسها ، وكانت الدورية الوحيدة التى أودعت بالمكتبة هى صحيفة التايمز ، وتم استبعاد الصحف المحلية بإجماع آراء أعضاء لجنة المكتبة من الموظفين الإنجليز واليونانيين والأتراك .

وضم مبنى المكتبة – أيضًا – « الجمعية الطبية » ، و « نادى الشطرنج » ، وكانتا على درجة من الأهمية ؛ لأنهما توفران فرصة التقاء البريطانيين والقبارصة على قدم المساواة فى إطار بعيد عن السياسة ، وقد علمت بعد ذلك أن الجمعية الطبية تباعدت عن الطب وانخرطت فى السياسة والتجارة ، ولكن نادى الشطرنج الذى ارتاده ثلاثة من كبار الموظفين الإنجليز بالإضافة إلىَّ ، ظل محافظًا على تقاليده ، يركز فيه البريطانيون والقبارصة على اللعب دون إثارة ما يدور بالمجلس التشريعى من مناقشات .

وخلال مدة حكمى الأولى لقبرص صدر قانون الملصقات والإعلانات على نفس نمط القانون الخاص بفلسطين . وكانت زوجتى قد أسست – إضافة إلى أعمالها الأخرى – « مدرسة القديس بارنابا للأطفال المكفوفين » ، وكانت غالبًا السيدة الوحيدة بين الإنجليزيات والقبرصيات التى اهتمت بمستعمرة مرضى الجذام ، فكانت تزورهم ، وتشجعنى على بناء عيادة خاصة بهم ومركز للتمريض .

وافق عام ١٩٢٨ الذكرى الخمسين للاحتلال البريطانى لقبرص ، وعقدت العزم – بعد استشارة وزارة المستعمرات – أن أجعل من العيد الذهبى مناسبة إعلامية ، تعد

المستعمرة فى أمس الحاجة إليها ، فقمت بسك عملة فضية بهذه المناسبة (كانت الأولى من نوعها فى تاريخ المستعمرات) ، كما أصدرت مجموعة من طوابع البريد تخليدا للمناسبة ، التى أتاحت لهواة جمع الطوابع فرصة المساهمة فى عمل خيرى . وعلى الصعيد الرياضى ، نظمنا دورة للجولف بالشرق الأدنى ، وأسبوعًا رياضيا فلسطينيًا - قبرصيًا ، وزار قبرص بعض موظفى فلسطين ، نزلوا ضيوفًا على موظفى حكومة قبرص . كما نظم سباق للخيل ، ومباريات فى الكريكيت والتنس ، وأقيم حفل راقص على شرف الضيوف فى نهاية أسبوع الاحتفالات ، وشارك فى الاحتفالات جنود الحامية البريطانية ، وبعض جنود الأسطول البريطانى .

وسرت شائعة مؤداها أن الاحتفالات كان لها مغزى سياسى ، وأن جميع جنود الأسطول البريطانى جاءوا للمشاركة فيها على حساب دافع الضرائب القبرصى ، وبدأ بعض المحرضين تنظيم حملة احتجاج صريحة ، ومظاهرات مضادة ؛ ولذلك سارعت بإعلان أن الاحتفال ليس له هدف أو مغزى سياسى ، وأن تكاليفه لم يتحملها دافع الضرائب القبرصى ، وأن المباريات التى أقيمت لم تكن مقصورة على الإنجليز ، بل كان هناك ترحيب بمشاركة القبارصة فيها . وعندما وجد المحرضون أن شكواهم لا تقوم على أساس ، حولوا هجومهم إلى البرنامج الخاص بالألعاب الرياضية ؛ فقام أعضاء السنودس المقدس للكنيسة الأرثوذكسية وأعضاء المجلس التشريعى المنتخبون ، والعمد المتطرفون ، بعقد سلسلة من الاجتماعات الطويلة للنظر فيما إذا كان يجوز للقبارصة المشاركة فى المباريات أم إن عليهم مقاطعتها . وتمادوا فى موقفهم إلى درجة استشارة فينيزيلوس والسنودس المقدس فى أثينا عما يجب اتباعه . فنصحوا بالمشاركة حتى لا يعرضوا « الآمال الوطنية » للخطر ، ولكن النصيحة وصلت متأخرة ، بعد أن كان المحرضون قد فرضوا على زملائهم مقاطعة « اليوبيل الذهبى للاستعباد » ، وأرسلوا منشورًا بهذا المعنى إلى جميع القرى بالجزيرة .

وفى الوقت نفسه ، نظمت حملة صحفية ، بدأت ببرقية مجهولة مرسلة إلى صحيفة « التايمز » من مكتب صحافة وهمى ، تعلن الامتناع عن المشاركة فى الاحتفال ، وفى المباريات التى « لن يجرى فيها حصان يونانى » ، وأن أصحاب الخيول القبارصة سوف يرفضون المشاركة فى السباق . وكان ذلك على نقيض ما

حدث بالفعل ، فقد شاركت فيه أحسن خيول الجزيرة ، وقد عوض الأتراك غياب اليونانيين عن المباريات بأن نظموا رحلة قطار خاص حمل الرياضيين المسلمين من فاماجوستا .

وبدأ رجال السياسة يحسون بعدم صلابة الأرض التى يقفون عليها لسببين : التحرك المباشر للحكومة ، والاتصالات المباشرة مع الفلاحين بالقرى ، خاصة أن سياسة التعمير قامت خير برهان أمام الفلاحين حول من يتولى رعاية مصالحهم ، ومن ثم تأثرت مكانة أعضاء المجلس التشريعى من المرابين مع إنشاء جمعيات الائتمان التعاونى ، وتراخت قبضتهم على الفلاحين ، ولم يبق أمام السياسيين من حجج يثيرونها ضد الحكومة لأغراض انتخابية سوى الشكوى من إحجام رأس المال البريطانى عن المشاركة فى تنمية قبرص ، وقد كتب أحد المراقبين بالإمبراطورية من أثينا يقول : « إن قادة القبارصة يرقبون بقلق ما يفعله السير رونالد ستورس لجذب رأس المال البريطانى إلى قبرص ، وخلق روابط اقتصادية بين قبرص ولندن ، وأن الرخاء ليس من مصلحة دعوتهم إلى الاتحاد مع اليونان » . وعبرت صحيفة يومية أثينية عن قلقها ، بأن تمنت ألا يغرى التقدم المادى القبارصة ويؤثر على ولائهم للوطن اليونان .

وخلال تلك الظروف ، ظلت الصلات الحميمة قائمة بين مقر الحاكم وأعضاء المعارضة « الاتحادية » ، فاستمروا يطلبون المقابلة على انفراد ، كما استمروا فى المشاركة فى نشاط « الصحة الاجتماعية » ولجان « المتحف » و« المكتبة العامة » وغيرها . وبذل كبير الأساقفة جهدا لدعم المشروع الذى تبنته زوجتى لإقامة مدرسة المكفوفين ، وقدم لها ما استطاع توفيره من التبرعات التى جمعت لضحايا الزلزال باليونان أو من أجل شراء طائرة لسلاح الطيران اليونانى .

وعلى كل ، فإن هذه المسرحية التى أخرجتها المعارضة إنما تعبر عن الموقف من الإهمال الافتراضى لقبرص من جانب حكومة صاحب الجلالة ، على يد الحكام والموظفين الإنجليز السابقين ، وقد قمت بإعداد تقرير عن أحوال الجزيرة منذ ١٨٧٨

حتى ١٩٢٨ اعتماداً على وثائق الحكومة ، زودته بالخرائط التوضيحية وبالمراجع ، وقد تم نشره قبل نهاية احتفالات العيد الذهبى .

كانت قبرص تقدم دائمًا على أنها الجوهرة الأثرية المتألقة بين مستعمرات التاج البريطانى ، وبلغ إهمال الحكام الذين تعاقبوا على حكمها ذروته ، حتى إننى وجدت نفسى فى حاجة لأن أبين الحقائق لمن يعنيهم الأمر .

وحتى عام ١٨٦٥ ، لم يكن هناك اهتمام بالآثار القديمة التى تعود إلى الفترة منذ ٣٠٠٠ ق.م حتى عصر الرومان التى كان يتم دفنها مع الموتى فى المقابر الصخرية والمقامة بالكهوف فى باطن الأرض بجزيرة قبرص ، وتاريخ هذه الآثار حتى الاحتلال البريطانى للجزيرة مما له – فى معظم البلاد الشرقية والأوروبية – سجل حافل بالعمل على استخراج قطع أثرية ثمينة من باطن الأرض بطرق غير علمية .

فالوعى الأثرى – شأن الوعى بغيره من الأشياء الأخرى – حديث النشأة ، حيث قام القنصل العام الأمريكى لويس بالما دى شسنولا بتنظيم عملية تمشيط مدمرة للآثار بمساعدة ألكسندر شسنولا – لاستخراج المجوهرات الذهبية والفضية والتحف العاجية والفخارية والتماثيل من قبرص ، وشحنها بكميات كبيرة لتباع فى السوق الأمريكية ، وهى تشكل اليوم قسمًا مهما من متحف المتروبوليتان فى نيويورك . ولم يبق شىء فى غير متناول يد القنصل الأمريكى ، فقد صرح ذات مرة قائلاً : « إننى شديد الحماس للتنقيب عن الآثار ، وكان عملى دائمًا يتم بموافقة السلطات وبمعاونة موظفى الدولة العثمانية ، كنت أتقدم بالطلب إلى إستانبول للحصول على الفرمان دون أن أتلقى جوابا ، ولذلك ظللت مستمراً فى التنقيب دون الحصول على موافقة إيجابية من السلطات ؛ لذلك لا تجد فى مجموعة لورانس – شسنولا قطعًا أثرية كبيرة الحجم كتلك التى استخرجها من سبقونى فى هذا المجال ، ولا يرجع ذلك لعدم حصولى على أى منها ، أو لأننى قصرت فى البحث عنها ، ولكن لأنه كان من الصعب نقلها إلى الخارج مثلما يمكن القيام بذلك بالنسبة للقطع الصغيرة » .

كان هذا الاستنزاف والتصدير لثروة قبرص الأثرية التى لا يمكن تعويضها (الذى توقف بعد عام ١٨٧٨) موضع سخط الرأى العام القبرصى ، وانعكس ذلك فى

التشريع القبرصى الذى حدد نصيب المنقبين عن الآثار بما لا يزيد على ثلث ما يتم العثور عليه ، وفرض حظرًا على تصدير ما يزيد على ذلك مع عدم جواز استثناء أحد من هذا الحظر . وكان التشريع ملبيًا لحاجة ملحة ومناسبًا ، ولكنه من ناحية أخرى شجع عمليات التنقيب والتهريب ، وأعاق التنقيب المشروع الذى تقوم به الهيئات العلمية المعنية بالآثار الذين يعتمدون على دعم مالى يأتى من متبرعين يتطلعون إلى أن يضيفوا لمتاحفهم قطعًا ثمينة من الآثار الحقيقية وليس مجرد الصور والخرائط .

وفى عام ١٩٢٦ ، كانت حكومة قبرص فى وضع مالى لا يسمح لها بالتنقيب عن الآثار ، فى الوقت الذى كان التشريع لا يسمح لها بالترخيص للآخرين بالتنقيب وفق شروط معينة ، ولذلك تم تعديل قانون الآثار القديم (عام ١٩٢٧) بحيث يتم السماح بتصدير الآثار بموافقة الحاكم بعدالرجوع إلى متحف قبرص والمجلس التشريعى . وكانت النتيجة المباشرة لتعديل القانون ، قدوم بعثات تنقيب تابعة لجمعيات أثرية أوروبية ، واكتشاف مواقع أثرية مهمة مثل قصر ڤاونى من العصر الهوميرى المتأخر ، ومسرح سولى الإغريقى - الرومانى ، والحصول على العديد من القطع الأثرية للمتحف القبرصى ، والسماح ببيع القطع المتوافرة بكثرة ، مما ضاعف من الموارد المالية التى استثمرت فى التنقيب عن الآثار .

والحق أن قبرص تعانى فقرًا شديدًا ، فالمنحة المقدمة للمتحف أصبحت من وجهة نظر الخبراء تعتمد على العائد من بيع القطع الأثرية المتكررة ، وفى الوقت الذى كانت هناك أصوات تشكو من ازدحام المتحف بالقطع الأثرية المكدسة ، كانت الأصوات التى تعترض على تصدير الآثار تطالب بأن يتولى المتحف جمعها بطريق الشراء ، والاحتفاظ بها ، ولكن مضى العمل الإيجابى فى طريقه ، والآن يقدم الفلاحون وغيرهم القطع الأثرية التى يعثرون عليها أو يملكونها ، إلى إدارة الآثار التى تشتريها منهم بثمن مناسب .

وهنا يجب أن أسجل ما تدين به إدارة الآثار القبرصية لروبير جونيس ، الذى عمل معى سكرتيرًا خاصا لست سنوات . فقد أعطى كل أوقات فراغه للمتحف ، وعثر فى قبو المبنى على صناديق منسية تحوى قطعا أثرية ، قام بتصنيفها ، وتنظيفها

وترميم ما احتاج منها إلى ترميم ، وأعد البطاقات التى تقدم وصفا لها ، ونظم وضعها على الأرفف . وقام من جانبه بتوفير الكثير من رفوف العرض ، وتعامل مع الأساتذة الأجانب الذين حاولوا منافسة أمينى المتحف : ماركيينر وديكاوس . واكتشف مقبرة كبيرة تعود إلى ما قبل التاريخ فى حديقة مبنى الحكومة ، وحدد تواريخ وصول الرحلات البحرية التى تحمل السياح الأثرياء ، وشكل فريقًا من السيدات اللاتى قمن ببيع النسخ المقلدة من الآثار ، مما يعود على المتحف بالفائدة .

خصصت قسمًا بيزنطيًا بالمتحف لأحقق توازنًا مع مجموعة صغيرة من آثار العصور الوسطى التى تعود إلى فترة سيطرة البندقية على قبرص . ولم يكن لدى قبرص صورة لأشهر ملكاتها كاترينا تورنارو ، وعندما سمعت أن إحدى صورها يعرضها ستوديو بللينى بصالة هرلفورد ، رجوت جوزيف توفين أن يشتريها ويهديها لمتحف قبرص ، فقام بإرسالها بعد تنظيفها ووضعها فى إطار مناسب ، وهو عمل جدير بالتقدير لدعم متحف إحدى المستعمرات الصغيرة للتاج البريطانى ، لن يتم الاحتفاظ بها إلى الأبد .

وضرب مجلس المتحف مثلاً يحتذى (مثلما فعلت جمعية أنصار القدس بفلسطين) لما يمكن أن يقوم به عدد محدود من ممثلى الطوائف ، عندما لا يضعون فى اعتبارهم أغراضًا سياسية أو دعائية ، كان كبير الأساقفة كيرولس يحضر الاجتماعات إلى جانب منير بك (أتاتورك قبرص) ، وثلاثة أو أربعة آخرين يختارهم رعاة المتحف تجدهم سعداء بالتعاون معًا ، وتم انتخاب جونيس عضوًا بمجلس المتحف ، وقبيل رحيلى من قبرص ، قمت بتعيينه عضوًا متجولاً ، ومازال يشغل ذلك المكان بعد استقراره بالجزيرة ، يأتى الحكام ويذهبون ، ويظل جونيس ملك قبرص غير المتوج .

ومن السهولة بمكان حماية الآثار التى لا تزال مطمورة بفضل إنشاء قوة الشرطة التى تستخدم السيارات ، ولكن حماية الآثار المعمارية المعرضة للتآكل والسقوط مثل الكاتدرائيات والقلاع الجبلية على درجة عالية من الصعوبة ، وصعوبة وتكلفة ترميم تلك المبانى الأثرية تفوق الخيال . فالجهود التى بذلت لجمع التبرعات لهذا الغرض لم تسفر عن جمع مبالغ كافية لذلك ، كما إن المجلس التشريعى الذى يحتل اليونانيون نصف

مقاعده لا يتحمس للإنفاق على الكاتدرائيات القوطية التى بناها الكاثوليك ، وإن كان لا يبخل على المتحف بالدعم لأن الآثار المعروضة به تدعم تطلعاتهم السياسية . ويحتاج ترميم المبانى الأثرية التى تعود إلى العصور الوسطى فى قبرص ما تتكلفه الآثار المماثلة فى مصر من أموال ، وما يزيد عما تتكلفه آثار فلسطين ، ولا تصل المبالغ التى تتحقق من رسوم دخول تلك الآثار إلى خمس ما تحققه فلسطين ، وما يقل كثيراً عن عشر ما تحققه فى مصر ، أما عدد زوارها من السياح فقليل جدا قياسا بفلسطين ومصر ، ولهذه الأسباب كانت تجارة الصور الأثرية والدليل السياحى تحقق خسائر فى قبرص ، ولم يكن هناك أمل فى تطوير تلك المطبوعات وتنويعها ، ولم أجد فى إنجلترا سوى استجابة محدودة للتبرع لترميم مبنى المدرسة الإنجليزية الوحيدة بالجزيرة .

ولم يكن اقتراحى الخاص بفرض رسم دخول بالموانئ على كل سائح يصل إلى قبرص فى حدود عشرة شلنات أحسن حظًا من اقتراح مماثل حاولت تمريره فى القدس ، وكان الغرض تمويل الإنفاق على وظائف أمناء يتم تعيينهم بالمواقع الأثرية بغض النظر عن درجة إقبال السياح عليها ، فقد اعترضت وزارة المستعمرات على الاقتراح بحجة أن مثل تلك الرسوم قد لا تشجع المسافرين على النزول إلى قبرص فى طريقهم إلى الهند والصين فيفضلون البقاء على متن البواخر فترة توقفها فى قبرص . وقد بذل جيفرى جهداً كبيراً للاستفادة بالموارد المتاحة له ، واستطاع أن يحقق نتائج تستحق الذكر على مدى ربع القرن . ولم يستطع المعمارى الأثرى الشاب الذى عين عام ١٩٣٤ خلفًا لجيفرى بمرتب أكبر من راتبه ليقدم آخر ما توصل إليه العلم ، لم يستطع أن يصمد فى قبرص أكثر من عام واحد .

وكان اللورد ميرسى هو أول شخص يدرك أن ما يتطلبه بلد فقير تبدو حاجته واضحة للعيان ، هو تقديم الدعم المالى ، وليس النقد الهدام والمقترحات الفارغة ، وقد زار اللورد ميرسى قبرص عام ١٩٣٤ ودرس أوضاعها ، وعندما عاد إلى إنجلترا كون لجنة شرفت بعضوية أسقف كانتربرى ، دعمها باجتماع عام عرض فيه الدعوة . ولا نعرف مدى ما استطاع أن يحققه اللورد من نتائج إيجابية بهذا الصدد . فالأموال ليست سهلة الجمع الآن ، قياسا بما استطعت عمله عام ١٩٣٠ عند قضائى إجازة لمدة أسبوع بالقاهرة ، فاستطعت أن أجمع ألفى جنيه للمدرسة الإنجليزية وكلية فيكتوريا

للبنات فى نيقوسيا ، من خلال الاتصال الهاتفى . على كل نجحت لجنة اللورد ميرسى فى إنقاذ بعض المبانى الأثرية من السقوط بما يزيد عما أنجزه أصحاب الانتقادات فى العديد من المدن مجتمعين .

وتعود ملكية المبانى التاريخية والقديمة فى قبرص إلى الأوقاف التركية ، وذلك فيما عدا بعض الاستثناءات المحدودة ، نتيجة الاستيلاء عليها من اللاتين عام ١٥٧٠ . وقد أبدى المدير التركى الحالى للأوقاف – منير بك – موقفًا ليبراليًا بعيدًا عن التعصب فى رعايته لمبانى الاوقاف ومحافظته عليها ، واستطعنا بمساعدته أن نتمكن من إزالة بعض الدكاكين التى بنيت حديثًا ، وحجبت قصر الحكم البندقى فى فاماجوستا بواجهته المتميزة لعمارة القرن السادس عشر ، وتحولت قاعة الاستقبال ببرج عطيل المطل على ميناء فاماجوستا إلى قاعة لكبار الزوار ، بعدما كانت مكانًا خربًا تلقى فيه إدارة الاشغال العمومية بمخلفاتها . وكان الزوار الثلاثة الكبار الأول الذين تم الاحتفال بهم فى تلك القاعة ، ملكة رومانيا ، وولى عهد السويد ، وحاكم عام الدوديكانيز . كما تم إصلاح كاتدرائية القديس نيقولا (التى حولت إلى مسجد) وتعد من روائع الفن القوطى فى أوائل القرن الرابع عشر ، وأعيد فتح الجهة الغربية منها بطريقة أسفرت عن جمال الفن القديم . وتم تغيير وسط نيقوسيا بتطهير المنطقة المحيطة بكاتدرائية ومسجد أيا صوفيا من العشوائيات وإعادة تخطيطها لإبراز تحفة معمارية من القرن الثالث عشر . وقد تم تنفيذ معظم هذه الأعمال بفضل تعاون السلطات التركية الإسلامية بالجزيرة مع الحكومة نتيجة جهود جيفرى .

لقد تم الحفاظ على الكاتدرائيتين – المسجدين بعناية ونظافة فائقة للمسجدين (وإن لم يشمل ذلك جميع الكنائس) ، ولكن كان هناك تشويه لجمالها المعمارى . فوجود المئذنتين المستديرتين بجوار أبراج الكاتدرائية الخالية من الأجراس فيه تجن معمارى، كما أن أصوات المؤذنين من فوق تلك المآذن فيه عدوان دينى على الأثرين ، أضف إلى ذلك ، طلاء الحوائط من الداخل بالملاط الأبيض ، وتحويل المحراب الخشبى من الرموز المسيحية ، وتغيير موقعه ليتخذ اتجاه مكة .

وفى قبرص ، يتألق الماضى والحاضر معا بصورة متواصلة لا انقطاع فيها ، فقد قام أرثر ريمبود [1] ببناء المقر الصيفى للحاكم على جبل أوليمبوس ، وكان شاعراً متميزاً ، ولكنه لم يكن معماريا بارعًا . وهناك ذكريات من الماضى استقبلتنى فى قبرص ، إحداها تتصل بصديق راحل عظيم هو كيتشنر الذى نادراً ما كان يتحدث عن عمله فى أوائل الثمانينيات من القرن التاسع عشر بإدارة المساحة القبرصية ، وترك هناك تقاليد باقية ، ويقال إنه شارك فى سباق الخيول ، وأهدى كأسًا فضية لجمعية السباق القبرصية . وعندما زرت قبرص لأول مرة عام ١٩١٣ صادقت أرمنيا يدعى أرتين ، يعد أهم تجار التحف ، وقد أطلعنى على ما لديه منها بطريقة غريبة ؛ إذ قادنا عبر غرف منزله حتى وصلنا إلى غرفة داخلية فيه ، ثم فتح قفل الباب بحرص شديد ، وأشار إلى لفافة صغيرة وسط الغرفة ، وأخذ يفك اللفافة طبقة بعد أخرى حتى أخرج فى النهاية صندوقًا أسود يحمل اسم « الملازم هـ. هـ. كيتشنر ، الهندسة الملكية » ، وكان الحصول على الصندوق لإعادته إلى صاحبه الأصلى أمرا جميلا ، ولكن أرتين الذى اعتبر الصندوق تعويذة يتبرك بها ، رفض أن يبيعنى إياه بأى ثمن ، وعندما جئت إلى قبرص حاكما عام ١٩٢٦ ، كان أرتين قد مات ، ولم يسمع أحد عن الصندوق .

وبعد ذلك بأربع سنوات كان يرقد بمستشفى نيقوسيا رجل إنجليزى من المقيمين فى قبرص يدعى بيس ، وكان يمر بمرحلة الاحتضار ، أخذ يتحدث عن كيتشنر ، وذكر أنه كان يتمتع بموهبة اكتشاف المياه الجوفية ، فكان يسير مسافات طويلة ثم يشير إلى موقع معين ، ويقول إننا سنجد الماء هنا ، وعندما قام العمال بحفر الأرض عثروا على الماء . وعندما سمعت عما يحمله هذا الرجل من ذكريات عن كيتشنر ، ذهبت فى اليوم التالى إلى المستشفى لأسمع منه المزيد ، فوجدته قد فارق الحياة . والذكرى الفعلية التى تركها كيتشنر فى قبرص هى الخريطة التى رسمها للجزيرة ، وهى الخريطة التى عدلها ، وأضاف إليها من جاءوا بعده بعض التفاصيل ، ولكن دون أن يدخلوا عليها تعديلاً جوهريًا . ووجدت أن من واجبى أن أضع على حائط البيت القديم

(١) ولد ريمبود عام ١٨٥٤ ، كان صديقًا للشاعر فرلان ، كتب قصائده القصيرة دون أن يبلغ العشرين ، ثم هجر الكتابة إلى التجارة فى الحبشة ومات ١٨٩١ .

فى سوق نيقوسيا لوحة رخامية كتب عليها « الكابتن هـ. هـ. كيتشنر مدير المساحة ومكتب تسجيل الأراضى ١٨٨٠ – ١٨٨٣ » .

قرر كامل باشا القبرصلى أن يختتم حياته فى مسقط رأسه ، بعد وصول « تركيا الفتاة » إلى الحكم ، فرحل بعائلته الكبيرة إلى قبرص ، وكانت تضم أفراداً من مختلف الأعمـار ، فعلى حين كان ابنه الأكبر فى الستين ، كان أصغر أبنائه فى السادسة من عمره ، وقد وجدت قبره بجوار مسجد عرب أحمد الصغير لا يحمل علامة مميزة ، ويكاد يكون مجهولاً رغم مرور اثنى عشر عاما فقط على وفاته ، فأقمت شاهداً على قبره يحمل بالتركية [٢] ما ترجمته :

صاحب السمو كامل باشا

نجل القبطان صالح أغا البروى

ولد بنيقوسيا عام ١٨٣٣ ودفن بها عام ١٩١٣

كاتب المالية ، محافظ لارناكا

مدير الأوقاف

تولى الصدارة العظمى للدولة العثمانية أربع مرات

تركى عظيم ، وإنسان عظيم

لقد نفى كامل باشا إلى موطنه على الأقل ، أما الحسين بن على ملك « العرب » الذى أعلن نفسه خليفة للمسلمين ، والد ملك العراق ، وأمير شرق الأردن ، فقد عاش

(٢) وصف شاهد عيان الجنازة . فذكر أن جثمانه حمل إلى مسجد أبى صوفيا يتبعه حفنة من المشيعين ، لم يسمح بالصلاة عليه هناك ، فعادوا به إلى مسجد صغير بشارع جانبى ، وهناك ووري التراب ، ولم يصل عليه سوى مجموعة من الناس تصادف وجودهم هناك .

ليشهد طرده من مملكة الحجاز ؛ حيث تم إنقاذه بسفينة حربية بريطانية حملته من على شاطئ العقبة ، ومنح حق الإقامة فى جزيرة لا يعرف فيها أحدا ولا يعرفه أحد ، وبالنسبة لكبار الموظفين الإنجليز كان الحسين يعد مسئولية فى أعناقهم ، ومشكلة بالنسبة لهم ، أما صغار الموظفين فلم يسمعوا عنه من قبل . وقد عثرت له على فيلا صغيرة أقام بها مع ولده الأصغر المخلص زيد الذى تولى رعايته بنفسه ، وكان منظراً مؤثراً حين رأيت ذلك الأمير الشاب الذى قاد القوات العربية ضد الترك زمن الحرب ، وقضى عاماً فى كلية باليول ، يقرأ لأبيه صحيح البخارى بصوت مرتفع ، ويقف على خدمته ليل نهار .

وقد أشيع أن الملك حسين حمل معه - فى صفائح - بضع مئات الآلاف من القطع الذهبية التى حصل عليها من بريطانيا لدعم الثورة فى الجزيرة العربية ، ولكنى أظن أن ما كان معه يقل كثيراً عما رددته الشائعات التى تبالغ عادة فى تقدير حجم الثروات التى عمل الفلسطينيون على بث الدعاية وتقديم التظلمات حولها بحكم براعتهم فى هذا المجال . وفى كل الأحوال ، كان الملك العجوز على درجة من الذكاء جعلته يسارع بتقديم طلب اقتراض عندما يزوره أبناؤه طلباً للمال ، حتى يتهرب من مطالبهم ، على نحو ما ذكر لى الملك فيصل فى أثناء مباراة كروكيه على جبل طورودس .

وفى قبرص ، تعرض الملك حسين إلى ابتزاز التجار الجشعين ، وكان يرجونى باستمرار (على طريقة مكة) أن أتدخل فى سير إجراءات المحكمة . وقد تبادلنا الزيارات من وقت لآخر مع الملك حسين ، ووجدته دائماً يسر للتحدث بالعربية رغم إتقانه اللغة التركية ، وكان ما بقى له من متع الحياة اثنتان أو ثلاث من بناته الصغيرات ، كانت زهرة أجملهن وأكثرهن وقاراً ، تصعد الدرج الرخامى من الحديقة وتدخل السلاملك دون خجل لتستقبل بعبارات : « أهلاً » ، « ما شاء الله » ، « قربى يابنت عمى » ، وكان الملك يناديها « قرة العين » ، ويعطيها طبقاً من التمر تأكله دون أن تسقط منها نواة واحدة على الأرض . جاء الملك ذات مرة إلى مقر الحكومة طالبا أن يرانى على الفور ، وعندما قابلته ارتمى بين أحضانى مجهشاً بالبكاء . كان سبب ذلك إقدام عريس خسيس - غير مرغوب فيه - على إطلاق الشائعات البذيئة

حول زهرة وشقيقاتها حتى يسىء إلى من يقدم على الزواج منهن ، مما جعلهن فى غاية الغم والحزن .

عندما كان الملك حسين حليفًا مستقلاً لبريطانيا العظمى منح أوسمة رفيعة ، ولكن قبل أن يتسلمها كان قد فقد دولته وعرشه ووطنه . لقد رأيت وسمعت عن تغير الحظ، ولكنى لم أشهد هذا القدر من سخرية القدر ، وفى حفل افتتاح مكتبة قبرص العامة ، سلمت رئاسة مراسم الافتتاح – الذى حضره السفراء والمارشالات وحكام أوروبا – لذلك الملك العجوز المخلوع ، الذى لا يزال محتفظًا بالوقار .

قمت بالإجازة الصيفية عام ١٩٢٨ ، وكان ذلك بداية الحقبة التى كان من المتوقع أن يلعب الدبلوماسيون والوزراء والأمراء فيها دور الرحالة التجاريين الوطنيين ، وكنت أتطلع إلى تحقيق ذلك بالنسبة لقبرص ، فالتقيت الموظفين ورجال الاعمال ، وحاضرت وتحدثت فى حفلات الغداء والعشاء ، وتحدثت فى الإذاعة ، وبعد جهد جهيد نجحت فى إدراج السجائر القبرصية فى قوائم مجلس العموم البريطانى وبعض النوادى الكبرى ، وعرفت منتجات قبرص كالليمون والمربى وعسل النحل وشرائط التطريز والمطرزات طريقها إلى محلات التجزئة فى لندن . وفى كل تلك الجهود كنت سعيد الحظ لمساندة صديقى الحميم صاحب الخبرة الواسعة ليوبولد أمرلى (وأود أن يذكر خلفاؤه أن ثمة مواقع كثيرة مشجعة للحاكم أكثر من مجرد وجود سجائر وفواكه ونبيذ المستعمرة على موائد وزارة المستعمرات) .

وما لبثت أن شعرت أن العمل خلال الإجازة أكثر إرهاقًا من العمل الرسمى ، وأحيانًا كنت أفكر فى الاتجاه مباشرة إلى الريف . فالحاكم فى مستعمرته لا يحتاج إلى تذكر مواعيد مقابلاته وأماكن وقوعها . ويقوم معاونه بأمر كل المكاتبات والاتصالات مع مسئولى الخزانة والقضاء والمحامى العام ، وتنتظره دائمًا السيارة عند الباب قبل الموعد المحدد بخمس دقائق على الأقل ، ولكن السكرتير والسيارة لا يتبعانه إلى لندن . كان على محمد أن يذهب إلى الجبل مرارًا ، ولكن بقطار الأنفاق أو الحافلة ، ويقوم بكتابة مراسلاته بنفسه ، ويجرى اتصالاته الهاتفية بنفسه ، ويدبر

أمر توصيل مراسلاته بنفسه . وهناك صعوبة أخرى فى الإجازة تتمثل فى ضرورة ضغط كل التزاماته الاجتماعية ، ولقاءاته بأصدقائه ، وزياراته ولقاءاته ، فى مدى زمنى محدود؛ مما يجعل المرء يحس أن دقات الساعة صيحات تستحث خطاه .

كان عمل ذلك كله فوق طاقتى ، وعدت إلى قبرص قبل أن أدرك أننى فى طريقى للانهيار . وبلغت حالتى ذروتها عندما كنت فى لقاء مع قاض تركى ، عندما بدأت أستعد لإملاء ملخص لما دار بالمقابلة (على نحو ما جرت عليه العادة) ، لأكتشف أننى لا أتذكر شيئًا ، بما فى ذلك اسم القاضى واسم كاتب الاختزال ، ونتج عن ذلك اضطرارى إلى البقاء فى الفراش ستة أو سبعة أسابيع تحت العلاج ، ولم أشف تمامًا إلا بعد قيامى برحلة إلى جنوب أفريقيا استغرقت ثلاثة أشهر ، وبذلك تغيبت عن العمل نحو الثمانية أشهر ، (وعند عودتى إلى قبرص وجدت بالملفات نص برقية مرسلة إلى السلطات العسكرية فى مصر للاستعلام عن الإجراءات السليمة لمراسم جنازة الحاكم) .

عقد المجلس التشريعى الذى شرحت – فيما سبق – كيفية تكوينه ، اجتماعًا فى حجرة بائسة صغيرة يتم الوصول إليها صعودًا على درج حجرى ضيق ، وجلس الرئيس (وهو عادة الحاكم) على طاولة مرتفعة على مقعد عال غير مريح ، وإلى يمينه جلس سكرتير المستعمرة ومدير الخزانة ، وإلى يساره جلس المحامى العام ، ويلى هؤلاء فى ترتيب الجلوس بقية أعضاء المجلس من الموظفين البريطانيين ، وبعد ثلاثة مقاعد يشغلها الأتراك إلى اليمين تأتى زاوية الحدوة ، حيث يجلس اثنا عشر عضوًا من اليونانيين ، وفى آخر القاعة ثلاث أرائك طويلة للراغبين فى الحضور من عامة الناس ورجال الصحافة .

كانت المناقشات تتم باللغات الثلاث : الإنجليزية والتركية واليونانية ، تمامًا كما كانت عليه حال المجلس الاستشارى الذى أقامه السير هربرت صامويل فى فلسطين ، واستخدم الإنجليزية والعربية والعبرية ، وذلك الوضع ساعد على أن تكون هناك خطب مملة لا لزوم لها ، وجاءت المضابط فى معظمها مخدرة أكثر منها منعشة ، وذلك من حيث مستوى الخبرة . وكان الضغط العصبى على المترجمين كبيرًا ، خاصة فى إيجاد

التعبير المناسب عن مصطلحات غير مألوفة ، وكنت أطلب من المترجمين أن يعكفوا على عملهم بدقة ، وسرني أن أجد بعض المفردات اليونانية القديمة باقية في أسلوب محاضر المجلس .

وكانت ظروف تكوين المجلس ونظام العمل به تنعكس على العبارات المستخدمة في المناقشات ، فاليونانيون يعلمون أن الأغلبية في جانب الإنجليز والأتراك ، وهم بحاجة دائمًا إلى اتخاذ مواقف تدعم مكانتهم السياسية إزاء طائفتهم ، مما جعل قيمة وأهمية المجلس تتدنى ، وبرهن على خفة النظام الذى يعتمد على مجلس يتسم بالقدرة المحدودة .

حقا كان الجو الذى يدور فيه النقاش حول أحد التشريعات يبدو سهلاً ، مسليًا أحيانًا (لأن القبارصة يتميزون بخفة الظل) ، ولم آخذ أبدًا ما يدور من مناقشات على أنها ذاتية ، ولكن القبارصة اليونانيين قلبوا الأمور داخل المجلس فى أثناء غيابى عام ١٩٢٨ ، وجعلوا نتيجة التصويت تأتى على غير المتوقع ، واضطررنا إلى أن نلجأ إلى إصدار القوانين بأوامر إدارية كما كان يحدث قبل وصولى إلى الجزيرة ، وأصبح واضحًا أننا - للأسف - لا نتوقع من بعض الساسة القبارصة اعترافا بالجميل ، فقد كان حكامه القدامى لا يقدمون له تنازلات ليس لأنهم على حق أو لأنهم عادلون ، ولكن لأنه لا يمكن تحاشيهم ، وكل تنازل قدمته حكومة بريطانيا العظمى فهم على أنه دليل ضعف أو استسلام .

ونتيجة لاعتراض الخزانة البريطانية لم يكن ممكنًا إلغاء « الجزية التركية » حتى امتنع الأعضاء المنتخبون عن دفعها ، وأخذت العدالة مجراها ، فألغيت « الجزية » ، وبذلك ظن الأعضاء أن سياسة الامتناع هى التى حققت ذلك ، فلا بأس إذن من تكرارها مرة أخرى .

وفى عام ١٩٢٩ ، أبلغت وزير المستعمرات أننى أرى ضرورة تغيير الدستور واقترحت الطريقة التى يتم بها تعديله ، وبنيت ذلك على توسيع حجم المجلس ليتخذ شكل « مجلس إدارة » ، يتكون من الموظفين والأعضاء المعينين ، على أن يكون ثلاثة أرباعه من الفلاحين المشتغلين بالزراعة ، ولا يسمح بترشيح المشتغلين بإقراض

الأموال ، على أن يتم الاحتفاظ بالأغلبية للموظفين والمعينين من الأعضاء . وقد قوبل اقتراحي عند الوزارة قبولاً حسنًا ، ولكن الدستور مسألة تحتاج إلى قرار مجلس الوزراء ، وكان على الانتظار إلى ما بعد الانتخابات البريطانية التي أزاحت حكومة المحافظين من السلطة ، فكان عليّ أن أبدأ العرض من جديد على الحكومة الجديدة ، وجاء رد باسفيلد – وزير المستعمرات الجديد – أنه مادامت الظروف لا تستدعي اتخاذ موقف محدد ، فلتبق الأمور على ما هي عليه . وهكذا لم نفعل شيئًا لتعديل الدستور ، وتم إلغاؤه تماما بعد عام واحد .

سبق أن ذكرت أن التوسع في التعليم في قبرص كان يرتبط بالاعتبارات السياسية . ولما كنت من أنصار عدم نجلزة التعليم أو إهمال الثقافة الوطنية ، فقد عارضت الاتجاه إلى إنقاص دروس اللغة اليونانية والثقافة الكلاسيكية ، ولكن سياسة الأعضاءاليونانيين بالمجلس التشريعي تجاه تعيين ونقل وفصل المدرسين والمدرسات كانت موضع الاعتراض الشديد . كان الأعضاء يستعرضون سلطتهم لأغراض سياسية أو شخصية . كان مدرس القرية أهم مثقف فيها ، يستطيع أن يعتمد عليه السياسي ، الذي كان عادة من سكان المدينة ، كما أن المدرس كان يعتمد على السياسي في التقدم في مهنته ، ولذلك لم يتردد في العمل لمصلحته . كان النظام سيئًا ، ولكن الحكومة تجاوزت عنه لأنه لم يكن باستطاعتها تحمل أجور المعلمين وحدها . وبعد عودتي من الإجازة المرضية عام ١٩٢٩ تلقيت العديد من شكاوى المدرسين التي دلت على أن النظام أسوأ مما كان متصورًا ، فحتى يقوم أعضاء مجلس التعليم بترقية صديق أو إيذاء عدو ، قد يجد ناظر مدرسة بافوس نفسه منقولاً إلى شبه جزيرة كارباس على بعد أكثر من مائة ميل . وهناك قصص مخزية عن محاولات الضغط على المدرسات اللاتي يرفضن الاستجابة للغواية .

هذه الشكاوى ثبت التحقق من صحتها ، وأنها لا تمثل سوى قليل من كثير . وأدى إلغاء الجزية التركية وتحسين الموارد المالية إلى تمكيني من التحكم في النظام ، فأصدرت قانونا يضع جميع المدارس الابتدائية بالجزيرة ، وما يتصل بتعيين المدرسين ونقلهم وترقيتهم وجزائهم وفصلهم في يد الحكومة وحدها ، مع زيادة رواتبهم زيادة ملموسة . وقد قوبل مشروع القانون باعتراض شديد من الأعضاء اليونانيين ، ولكن

ثلاثة منهم كانوا على يقين من فساد النظام وضرورة تدخل الحكومة ، صوتوا إلى جانب الحكومة ، وبذلك أمكن صدور القانون . ولم يستطع أى من أولئك الثلاثة أن يرشح نفسه فى انتخابات عام ١٩٣٠ ، وقد هاجمتنى الصحافة الأثينية ، واتهمتنى بأننى تحولت من متعاطف مع الهللينية إلى « دكتاتور استعمارى » ، ووصفتنى الصحافة المحلية بمن يعمل على « قتل » الثقافة اليونانية . أما المدرسون ، فقد عبروا عن رضاهم عن القانون الذى حقق لهم الاستقرار ، شفاهة وكتابة .

كان من السهل حتى الآن - بقدر من الصبر والحماس - أن يستمر العمل بهذه الصيغة ، طالما كان تصويت النواب الأتراك الثلاثة إلى جانب الحكومة مضمونا . غير أن القنصل التركى أصف بك - وكان قوميًا متطرفًا ومن أنصار مصطفى كمال - نجح فى إيجاد معارضة ضد الأغلبية التركية الموالية للحكومة البريطانية مما تطلب استدعاءه ، ولكن بعد أن أثر على الناخبين، حتى إن اليونانيين نجحوا فى ضمان انتخاب تركى من غير مؤيدى الحكومة . ورغم أنه كان تافها إلا أنه حجب صوته الترجيحى فى المجلس التشريعى عن الحكومة ؛ وبذلك تغير ميزان القوى داخل المجلس ، وسارع الأعضاء اليونانيون الأرثوذكس إلى الاستفادة من هذا الوضع بأكبر قدر ممكن . وأصبح على الحكومة أن تواجه دائمًا أغلبية معوقة ومتطرفة ومعادية ، تساندها المعارضة السياسية بدعايتها وأدواتها ، تصب الانتقادات على سياسة الحكومة ، وتقلل من شأن إنجازاتها ، وقامت الحكومة بمواجهة تلك الانتقادات بنشر الحقائق حول ما تم إنجازه فى مختلف المجالات ، ولكنها لم تكن فى وضع يسمح لها بالتأكد من اقتناع الجمهور بوجهة نظرها ، وعدم تأثره بالافتراءات التى ترددها المعارضة .

كان عاما ١٩٢٨ و ١٩٢٩ من أكثر الأعوام رخاء فى تاريخ قبرص ، ولكن عام ١٩٣٠ جلب معه تباطؤًا فى النمو أقل كثيرًا من حيث الدرجة منه فى البلاد الأخرى المتقدمة ، ولكن العالم دخل فى أزمة اقتصادية . وحتى تتم موازنة عام ١٩٣١ دون المساس بالاحتياطى ، اضطرت الحكومة - رغم الكساد - أن تطلب موارد إضافية . وشكلت لجنة من الموظفين البريطانيين وثلاثة يونانيين وتركى واحد للنظر فى سد العجز فى الميزانية ، فاقترحت اللجنة فرض ضريبة على رواتب الموظفين ، ورفع بعض الرسوم

الجمركية على بعض الواردات . وقد وافقت على هذه التوصيات ، وأصدرت قانونًا بتعديل التعريفة الجمركية عرض على المجلس التشريعى ، فقوبل بمعارضة من جانب اليونانيين بمن فيهم أحد أعضاء اللجنة التى وضعت التوصيات ، فاضطررت إلى إصدار القانون بأمر إدارى ، ولكن الضريبة على المرتبات سببت متاعب للموظفين الذين رتبوا أمورهم على ما كانوا يحصلون عليه من دخل ، ورغم أن الزيادة لم تكن دائمة ، بل كانت سنوية يعاد النظر فيها سنويا ، وقد ترفع عند تحسن الأحوال ، وعلى كل كانت الموارد الإضافية التى جلبها القانون موضع ضيق من الجميع ، ولذلك لم تحظ بالقبول الشعبى .

لا شك أن الأزمة الاقتصادية خبز المهيجين ، وسم الفلاحين ، فقد كانت الحكومة اليونانية تعترف بالطابع الليبرالى للإدارة البريطانية فى قبرص ، والتزمت باتخاذ مواقف مناسبة من قبرص والسياسيين القبارصة ، وكان القنصل اليونانى فى لارناكا المستر إجليسس لا يتجاوز حدود واجباته القنصلية ، ولكنه نقل وحل محله ألكسندر كيرو ، وهو شاب يتحدث اللهجة المحلية ووالده كاتب بمحكمة نيقوسيا ، وتمتلك عائلته صحيفة « هستيا » (أى الموقد) ، وكان سكرتيراً شخصيا لوزير الخارجية اليونانى ، وعندما استغنى عن خدماته ، وافق على تعيينه فى الوظيفة التى يفضلها حتى يتفادى هجوم « هستيا » عليه . وكان أول ما فعله عند وصوله إلى قبرص هو نقل القنصلية من لارناكا (حيث تتركز القنصليات الأخرى وحيث الخطوط الملاحية والجمارك) إلى نيقوسيا ، بحجة القرب من إدارات الحكومة وسهولة الاتصال بها . وما لبث أن أقام صلات مع كل مجموعة من المجموعات اليونانية : الكنيسة والمجلس التشريعى والتيار الوحدوى اليونانى ، وفى حفل ماسونى راقص أقيم فى نيقوسيا لاحظ الحضور الإنجليز أن النشيد الوطنى اليونانى عزف – رغم عدم الإشارة إلى ذلك بالبرنامج – وقام جميع الحضور وقوفًا تحية له ، وأنه عند وصول القنصل اليونانى إلى المكان هب الجميع وقوفًا لتحيته ، ووقف يرد لهم التحية من المقصورة الرئيسية بالمسرح .

وعندما سمعت بذلك وبغيره من إشارات التدخل من جانب القنصل اليونانى الجديد أرسلت تقريراً مطولاً لوزارة المستعمرات ، طالبًا إبلاغ الحكومة اليونانية أن القنصل كيرو « شخص غير مرغوب فيه » . وقد أيد اللورد باسفيلد رأيى بقوة ،

وتحمست له الخارجية البريطانية ، ولكنها طلبت تفاصيل أكثر وأدلة ثابتة قبل اتخاذ قَرار ، وكتبت مرة أخرى بالتفصيل أنه ليس من المصلحة أن يكون من يعين قنصلاً يونانيا فى قبرص على صلة قرابة بأحد من القبارصة أو بالمصالح المحلية القبرصية ، وذكرت الحكومة أنها تصرفت بشدة عندما كتبت لها بشأن نشاط القنصل التركى ، رغم أنه أقل خطراً ؛ لأنه يتعامل مع أقلية صغيرة فى قبرص ، وأن بقاء كيرو بقبرص سوف يقوى من ساعد التيار المعادى لبريطانيا فى قبرص . وعدت إلى توجيه الاتهام للمرة الثالثة لدرجة أن احتجاجاً ثار فى أثينا عندما صرح فينيزيلوس بأن هذا الرجل « الأخرق » كان الواجب منع تعيينه فى قبرص . وكان اتخاذ قرار من جانب حكومة اليونان بنقله من قبرص كفيلا بعدم إثارة الانتباه حول تصرفاته .

وقبل نهاية الربيع وصدور قانون تعديل التعريفة الجمركية والضرائب على المرتبات ، أوجدت المعارضة توتراً شبيها بذلك الذى كان عام ١٩٢٢ ، وأحجم أصدقاء بريطانيا عن قبول الدعوات الرسمية ، وامتنعوا عن إبداء آرائهم علنا حتى لا يتهموا بالخيانة ، وفى آخر حفل راقص أقيم بمقر الحكومة ، وجه اللوم إلى ابنة أحد أعضاء المجلس التشريعى لاشتراكها فى الرقص مع الإنجليز ، كما وجه انتقاد شديد لوالديها لحضورهما الحفل ، وفى يونيو عندما سافرت لقضاء الإجازة كان القنصل كيرو يستقبل أينما ذهب بفرقة موسيقية تعزف النشيد القومى اليونانى ، وبالهتاف للوحدة مع اليونان ، ولم يكن القبارصة اليونانيون أقل اندهاشاً من الموظفين الإنجليز للطريقة الجريئة التى كان كيرو يشق بها طريقه بين الناس ، وأرجع البعض ذلك إلى ميل الحاكم إلى الثقافة اليونانية .

زار المستر فينيزيلوس لندن فى ذلك الصيف لحضور احتفالات ذكرى الشاعر بيرون ، فحصلت على إذن وزارتى المستعمرات والخارجية للالتقاء به فى المفوضية اليونانية . وكنت أعرفه منذ كان بالإسكندرية وخلال مؤتمر الصلح ، وأعرف عنه الصراحة والود . وأصر فى اللقاء على حياده الشخصى وحياد حكومته تجاه قبرص ، وأنه يجب ألا يعتمد على معاونيه ، ووعد بأن كيرو سوف « يسحب » من قبرص قريبا ، فسألته عن مدى قرب ذلك ، فقال إنه سيتم فى نهاية أغسطس . واستمر الاجتماع ساعة ، وقال لى فى نهايته إنه يقدر تماماً الجهد الذى أبذله لخدمة قبرص .

ولا أشك فى صدق وعد فينيزيلوس ، ولكن كيرو عاد إلى قبرص بعد انتهاء إجازته معلقا قرار « السحب » .

لقد أمضيت خمس سنوات فى قبرص ، ونقلت تقريبًا كل ما وضعته فى جدول أعمالى إلى قائمة ما تم إنجازه . ورغم حبى للجزيرة ، أحسست أن وجودى بها قد طال بالقدر الكافى ، ورغبت فى أن أبدأ من جديد فى مكان آخر . وكان الشح المالى سببا فى تركى مشروع إقامة كلية للزراعة ، وعدم إقامة معرض قبرص والشرق الأدنى الذى كان سيساعد على تنشيط التجارة القبرصية . وكانت وزارة المستعمرات متحمسة لإجابة طلبى ، ولكن لم يكن هناك مكان شاغر ، وعدت إلى قبرص فى أغسطس تاركًا زوجتى فى لندن مع ابنتها (من زواج سابق) التى كانت تعانى مرضًا عضالاً ، وهكذا عدت وحدى ، لا أرى بارقة أمل فى المستقبل ، ويملأنى الحزن والأسى .

ولما كانت وزارة المستعمرات لا تقل قوة فى وزارة العمال عنها فى وزارة المحافظين ، فقد أقرت الأمر الخاص بزيادة الجمارك ، فأصدرته بمجرد وصولى إلى قبرص ، وألحقت به مذكرة تفسيرية ، شرحت فيها دوافعه والأسباب التى دعت إلى إصداره بأمر إدارى . وقد اعترف كبار التجار بأهمية إصدار تعريفة جمركية جديدة ، ولكن الجملة الخاصة بسوء تمثيل الأهالى فى سلطة التشريع ظلت موضع خلاف مع الرأى العام ، وذلك لا يعنى أن بعض أعضاء المجلس التشريعى ترددوا فى تحمل مسئولية إضافة ضرائب جديدة رغم الكسادالتجارى القائم ، وعندما تحملت الحكومة المسئولية نيابة عنهم شعروا بأنهم قد فقدوا مكانتهم .

ولا شك أن أهل الخبرة أقدر على فهم ضرورة مثل هذا الإجراء ، ولولا تحكم بعض الأفراد فى الأغلبية لما كانت هناك اضطرابات فى قبرص .

كان المونسنيور نيكوديموس مايلوناس – أسقف كنيسة كيتون القديمة – يقود المعارضة اليونانية فى المجلس التشريعى ، وكان يتمتع بالذكاء وقوة الشخصية ، يمت بصلة القربى لكبير الأساقفة كيروليس ، ويتطلع لخلافته عند إجراء الانتخابات لشغل المنصب ، وذلك اعتمادًا على ما له من شعبية عند الجمهور الميال إلى العنف والتشدد . وكان من حيث الطباع رجلاً معقولاً ، يعنى بدراسة مشروعات القوانين والتقديرات ،

ويقدم رأيه فيها ومقترحاته حولها فى صورة كانت - أحيانًا - تمثل عونًا إيجابيا للحاكم والحكومة . ولكنه كان يشبه راسبوتين من حيث قدرته على تسديد نظرات قوية إلى معارضيه تصيبهم بالاضطراب ، وتؤثر فيهم ، وعندما كان يفتح حافظة أوراقه الأنيقة ويقف متحدثًا ، كان الجميع يستمعون إليه بانتباه شديد واهتمام تام . وقد أعجبت به ، وفى إحدى زياراته لى تناول هو وزملاؤه قضية الدستور الحالى ، وعبروا عن اعتراضهم عليه ، فقلت له أن يقترح ما يراه الأفضل . ووعدنى أكثر من مرة أن يقدم مشروعا ، ولكنه لم يفعل ، ولعله وضع فى اعتباره أن أى توسيع للإدارة الذاتية تحت الحكم البريطانى سوف يؤدى إلى إضعاف الاتجاه الشعبى للاتحاد مع اليونان ، ويتزايد تباعده عنا الآن باقترابه من القنصل اليونانى ، وأدى تأثير القنصل أيضًا إلى التباعد بينه وبين زملائه بالمجلس التشريعى ، بعدما كان على اتفاق تام معهم فى سبتمبر ١٩٣١ .

وفى أول أكتوبر ، عاد القنصل كيرو من اليونان ، وكان الأسقف نيكوديموس مايلوناس قد جمع الأعضاء اليونانيين فى المجلس فى اجتماع سرى عند منتصف سبتمبر ، للنظر فى التصريح الذى تم الإدلاء به فى البرلمان فى يوليو حول استفادة بريطانيا بالجزية التركية التى تقتطع من موارد قبرص لدعم القرض التركى الذى ضمنته الحكومة البريطانية عام ١٨٥٥ ، ولتحديد موقف الأعضاء من الأمر الصادر بقانون تعديل التعريفة الجمركية وضرائب المرتبات . وكان من المعروف والمعلن فى الصحف أن الأعضاء سوف يطلبون من الناس التعبير عن احتجاجهم على ذلك بالامتناع عن سداد الضرائب ومقاطعة البضائع الإنجليزية ، وتتولى تنظيم ذلك « المنظمة الوطنية » ، وهى تعتمد على دعم الكنيسة الأرثوذكسية القبرصية .

وبعد أسبوعين ، اجتمع أعضاء المجلس التشريعى اليونانيون مع أعضاء المنظمة فى مقر كبير الأساقفة لمناقشة قرارات المقاطعة ، ودب الخلاف بينهم على الفور لأن أعضاء المجلس التشريعى لم يقبلوا فكرة الاستقالة من عضويتهم بعدما كلفتهم الكثير منذ عام واحد ، وانفض الاجتماع وسط صيحات الغضب . وتم عقد اجتماعين آخرين دون جدوى ، فقد تم استبعاد الاستقالة كما لم يتم التوصل إلى اتفاق على نص البيان الذى يعبر عن الاحتجاج على القانون ، الذى عدل ليتماشى مع الاتجاه العام باستبعاد

النص على المقاومة ، خاصة أن الناس كانوا قد سددوا الضرائب فعلاً . وأدى عجز قادة التيار الوطنى عن التوصل إلى قرارات ، وفشلهم فى إقرار فكرة المقاطعة ، إلى تعرضهم للسخرية . ولم يجد قادة « المنظمة الوطنية » مفرا من الاستقالة .

وفى اجتماع للأعضاء اليونانيين بالمجلس التشريعى فى ١٧ أكتوبر (وكان آخر اجتماع لهم) ، قرأ عليهم أسقف كيتون (مايلوناس) نص بيان من إعداده ، وحثهم على الموافقة عليه ، فوافق الأعضاء ولكنهم طلبوا إعادة النظر فى البيان بعد أسبوع واحد ، وفى اليوم التالى تبين لهم أن الأسقف نشر البيان فعلا بتاريخ اليوم السابق ، وأن البيان يتم توزيعه على نطاق واسع ، وبرفقته نص خطاب استقالة الأسقف من المجلس التشريعى ، وتضمين البيان جملاً مثل : « ماذا يحدث مادام الطغاة الأجانب يعتمدون على جبروتهم وقوتهم الوحشية ؟ .. ذلك الشىء البغيض المسمى الاحتلال البريطانى وإدارة قبرص .. » واضطر ثمانية من الأعضاء إلى العدول عن نواياهم السابقة ، وأعلنوا استنكارهم لما قام به الأسقف ، وعدوه لونًا من ألوان الخيانة .

وكان من الملاحظ أن الفقرات القوية فى البيان لم تكن من إنشاء الأسقف أو من أسلوبه ، واعتبر الأعضاء الذين لم يستقيلوا أن الأسقف وقع تحت تأثير خفى غامض . وفى السابعة من مساء ٢١ أكتوبر ، أبرقت إلى وزارة المستعمرات بما يفيد تورط كيرو فى ذلك ، وأن إبعاده الفورى سوف يؤدى إلى تحسين الأوضاع .

وكان الأسقف قد نزل إلى لارناكا فى ١٨ أكتوبر ، وألقى خطابًا ملتهبًا ضد الحكومة يخضعه لطائلة القانون الجنائى لو استمعت إلى النصيحة التى قدمت إلىَّ بهذا الصدد . وانتظر الأسقف ساعات طوالا حضور الشرطة لإلقاء القبض عليه لتنفجر المظاهرات احتجاجًا على محاكمته ، ويبدو شهيداً فى أعين الجماهير التى تتظاهر مرة أخرى عند الإفراج عنه . وعندما لم يتحقق ما كان ينشده ، اتجه إلى ليماسول فى ٢٠ أكتوبر ليشرح أسباب استقالته من المجلس ، ودقت أجراس الكنائس لدعوة الناس للاجتماع ، وتحرك موكب المستقبلين فى سيارة تتهادى حاملة علما يونانيا كبيراً ، وتمت مرافقته إلى الاستاد حيث احتشد نحو ثلاثة آلاف من الناس بينهم طلاب المدارس ، وألقى فيهم خطابًا عنيفًا . وكرر الأسلوب نفسه فى اليوم التالى

بكنيسة إحدى القرى مطالبًا « عصيان القوانين الخرقاء ورفض الانصياع لها ، ونبذ الولاء للنظام الاستبدادى الظالم المسمى (الحكم البريطانى) » .

وقد مضت الاجتماعات الثلاثة دون أن تترتب عليها أى شواهد للاضطرابات أو تعكير الصفو .

ولكن عضو المجلس عن ليماسول الذى وجه الدعوة للأسقف لم يقبل أن تنتهى المظاهرات التى نظمها إلى لا شىء ، فأبرق بعد الظهر يوم ٢١ أكتوبر إلى رئيس « المنظمة الوطنية » فى نيقوسيا ، واصفًا ما حدث وصفًا مبالغًا فيه . ولما كان من سمع ليس كمن رأى ، فقد كان لهذا الوصف غير الدقيق آثاره فى نيقوسيا ، فوجدها الشباب فرصة مناسبة للنيل من سمعة من اعترضوا على بيانه ، ومن ثم تحركوا للاستفادة من الأزمة ، وقطع عليهم من بقى من أعضاء المجلس الطريق فقدموا استقالاتهم . وبذلك اختفى الاعتدال ، وساد منطق العنف ، ولم تكن الحكومة تعرف شيئا عن برقية ليماسول ، وما تقرر فيها ، وحتى مساء ٢١ أكتوبر ، كانت المعلومات المتوافرة فى نيقوسيا تشير إلى أن المحرضين انقلبوا ضد بعضهم البعض ، وأن الأمور على ما يرام .

كنت قد استدعيت إلى لندن فى ١٤ أكتوبر لمناقشة هذه الأوضاع ، وعلمت فيما بعد أن منصبًا أكبر قد أصبح شاغرا ، وأن على أن أبحر صباح يوم ٢٢ أكتوبر. ولما كنت أشعر بالارتياح لمسار الأحداث (كما نمت إلى علمى) فقد قضيت مساء ٢١ أكتوبر فى إعداد هدايا عيد الميلاد لزملائى من العاملين معى . وتأهبت لارتداء ملابسى لحضور حفل عشاء ، عندما جاءنى كاتب الاختزال المالطى معلنا أن مظاهرة كبيرة فى طريقها إلى مقر الحاكم ، فتحدثت إلى سكرتير المستعمرة وقائد الشرطة هاتفيا ، وبعد عشر دقائق كانا عندى ، حيث قررنا تنفيذ ما تنص عليه اللوائح بدقة ، وتحمل قائد الشرطة مسئولياته ، وفى هذا الوقت وصل حشد من بضعة آلاف أمام بوابات دار الحكومة ، ولما كنا لا نعرف شيئا عما حدث فى ليماسول ، أو عن البرقية التى صدرت من هناك ، فقد كنا نعجب لأسباب هذا الانفجار .

كانت القوة المتاحة لا تتجاوز ثمانية من شرطة السوارى واثنى عشر شرطيا آخرين ، وحاول هؤلاء إبعاد الحشد عن المدخل بالضرب بالعصى ، ولكن فتح الباب عنوة واندفع الجمع إلى المدخل يصيحون ويهتفون للوحدة ويحملون الأعلام اليونانية. أحس المحرضون أن الزمام يفلت من بين أيديهم ، فأرسلوا إلىَّ معتذرين ، وانسحبوا ، ولكن الحشد استمر فى محاصرة مقر الحكومة وقذفه بالحجارة ، مما أدى إلى تحطيم زجاج النوافذ وإصابة رجال الشرطة وقطع أسلاك الكهرباء وخطوط الهاتف ، وطلب منى مفتش الشرطة التركى إذنًا بإطلاق النار ، ولكن قائد الشرطة رفض لأن أغلبية المتجمهرين كانوا من طلاب المدارس ، ولأنه يعتقد أنه من الممكن فض المظاهرة بجهود رجال الشرطة غير المسلحين ، وبعد قليل أشعل المتظاهرون النيران فى السيارات التى حملت تعزيزات الشرطة ، وبدأوا إلقاء عصى مشتعلة داخل المبنى من خلال النوافذ المحطمة . وعندما أدرك قائد الشرطة أن المقر عرضة للحريق أمر بإطلاق نيران البنادق ، وتم إطلاق دفعة من النيران فى الهواء ، ثم أنذر الحشد باليونانية ، ولكن استمر الهجوم من جانبهم ، فأخذت الشرطة تطلق النار عليهم ، مما أدى إلى تفرقهم وهروبهم ، ولكن بعد أن امتدت النيران لتشمل مبنى الحكومة بكل ما اشتمل عليه من محتويات .

كنت أحظى بدعم وزارة المستعمرات فى أثناء الاضطرابات وبعدها ، فلم يفرض على تعليمات مختلفة عما اقترحت اتخاذه من إجراءات ، بل وافقت عليها وعلى معظم مقترحاتى لمواجهة الموقف ، وبشأن السياسة العامة تجاه قبرص ؛ تم سحب القنصل اليونانى كيرو على الفور ، وحظر عليه العودة إلى قبرص أو غيرها من ممتلكات الإمبراطورية البريطانية ، وتم إلغاء المجلس التشريعى ، واستدعيت قوات الحامية البريطانية من ثكناتها فوق جبل طورودس على بعد ٥٠ ميلاً ، فوصل ما يقل عن مائة جندى على رأسهم ثلاثة من الضباط ، وطلبت تعزيزات عسكرية وجوية وطبقت مشروع الأمن الداخلى .

كان الوضع حرجًا لمدة ثلاثة أيام ، وازداد قادة الجماهير عنفًا ، وقلدوا ما حدث فى نيقوسيا فى أماكن أخرى ، فأشعلوا النار فى بيت قائد شرطة ليماسول وهم يعلمون أنه وأسرته داخل البيت . ومع وصول السفن الحربية وثلاث مدمرات ، تم تأمين

الموانئ ، وساعدت التعزيزات الجوية على متابعة قائد القوات العسكرية للموقف ، وطلب الاكتفاء بما تم حشده من قوات بحرية .

ولكن ما بقى أسقف كيتون وأعوانه طلقاء فسيزداد الوضع سوءاً ، فلا شك فى مسئوليتهم عما حدث ، ويمكن جمع الأدلة ضدهم بسهولة ، وإذا ألقينا القبض عليهم فسوف يهاجم أنصارهم السجن في نيقوسيا ، ويحدث إراقة للدماء ؛ لذلك أصدرت أمرا بترحيلهم إلى السفن الحربية حتى يتم تحديد وجهتهم . قام رجال الشرطة بالتسلل لمحاصرة بيت الأسقف وبيوت أتباعه ، وفى الصباح الباكر تم القبض عليهم فى فراش نومهم ورحلوا إلى السفينة الحربية « لندن » والسفينة « شروبشاير » خارج مينائى لارناكا وليماسول . وأعتقد أن سرعة القبض على الأسقف وبطانته بسرية تامة ، وترحيلهم إلى السفن الحربية ، أحبط حركة التمرد . فقد استقر فى أذهانهم أنه بعد ٥٢ عاماً من الحكم البريطانى المتسامح ، لن نجرؤ على اعتقالهم حتى لا نثير ثائرة الجماهير ضدنا ، ونضطر إلى ارتكاب مذابح تزيد من حرج موقفنا ، وقد ساعدتنى صدمة المفاجأة على تنفيذ الاعتقال فى وقت بالغ الدقة .

كان لابد من إعادة الأمور إلى نصابها ، وإقرار النظام ، بما استتبع ذلك من اتخاذ إجراءات بغيضة فى نظرى ، كإلقاء القبض على المشاركين ، ومحاكمتهم ، وسجنهم ، وفرض الرقابة على الصحف وفرض حظر التجوال ، وأثبت الموظفون القبارصة على اختلاف مراتبهم ولاءهم التام للحكومة ، وتفانيهم فى أداء واجبهم ، خاصة رجال الشرطة اليونانيين والأتراك والمحامى العام القبرصى . فقد فاق عدد الجرحى من رجال الشرطة عدد المصابين من المدنيين . وتمثلت الخسائر فى إحراق مقر الحكومة فى نيقوسيا ومقر قائد الشرطة فى ليماسول ، وامتدت النيران هناك إلى الغابة لتحرق نحو سبعين قرية ، وتقتل ستة من الأهالى ، وتجرح ثلاثين ، بينما بلغ جرحى الشرطة ٣٨ مصاباً . وعند نهاية أكتوبر كانت الحكومة تسيطر تماماً على الموقف ، وتم إنقاص عدد جنود الحامية ليصل إلى ما كان مفروضاً أن تكون عليه (١٧٥ جندياً وأربعة ضباط) ، وبذلك تم القضاء على الاضطرابات فى أقصر وقت ، بأقل قوة ممكنة ، وأقل تكلفة ، وأقل خسائر فى الأرواح .

ولكن ذلك لم يمنع من استنكار فظاعة ووحشية القوات البريطانية والشرطة القبرصية على صفحات الجرائد اليونانية فى أثينا والإسكندرية وسالونيك ، فأهل البلقان وبلاد شرق المتوسط أساتذة فى فن الشكوى ، وفى تهريب الصحف التى تصادرها الرقابة إلى داخل البلاد . وحملت عناوين مثل « الطاغية ستورس يغتال قبرص » ، وتحدثت تلك الصحف عما يحيطنى بعدما أصبحت يداى تقطر دمًا ، فلم أعد أجرؤ على الخروج من بيتى إلا فى ظلام الليل .

هذا الهجوم المؤسف أثار السخط عند أصدقائى وأهل الرأى فى قبرص وتجاهل أربعة مبادئ مهمة : أولها ، أن حدة الهجوم تقاس بمقياس هزيمتهم . وثانيها ، أنه من الطبيعى أن يقف الناس إلى جانب أبناء جلدتهم ، وهل كان كل مؤيدى حرب البوير يؤمنون بأن لها ما يبررها ؟ وثالثا ، عندما يكون الوضع مشكوكًا فيه فإن الهجوم الشديد يعد خير وسيلة للدفاع . وأخيرًا ، فإن الاتهامات والافتراءات التى وجهت ضد قوات الحامية والشرطة والحاكم كانت لبنا وماء مقارنة بالحدة فى الصراع بين الملكيين وأتباع فينزيلوس ، فقد كان للصحافة الأثينية مستوى متميز من الهجوم عن ذلك الذى عرفته الصحافة الأوروبية .

وقد بدأ بعض المقيمين الأجانب ينتقدون الشرطة ؛ لأنها لم تحذر الحكومة من قبل ، وينتقدون الحاكم ومساعديه لتعاملهم مع المتظاهرين باللين ، وكأنهم بذلك الانتقاد يحققون نوعًا من التوازن يطرح الوجه الآخر للقضية .

هناك الآن فى قبرص ٥٩٨ قرية يسكنها اليونان الأرثوذكس أو أرثوذكس مختلطون (يونان وأرمن) من أصل ٦٧٠ قرية (مجموع قرى الجزيرة) والباقى (٧٢ قرية) يسكنها الأتراك . ومن بين قرى الأرثوذكس ، لم تشترك ٣٨٩ قرية فى الاضطرابات ، كما لم يتم اكتشاف أى دليل على أن تلك الاضطرابات مدبرة ، تم الإعداد لها من قبل ، فكما شرحت من قبل ، انفضت مظاهرات ليماسول دون مشاكل ، وليس من واجب التلغرافات الشرقية أن تنقل للشرطة نص البرقية التى أشعلت النار فى البلاد . والحق أن المحرضين أنفسهم أصابتهم الدهشة عندما رأوا العنف المترتب على أفعالهم .

ووجه اللوم إلى قائد شرطة نيقوسيا لعدم إطلاقه النار على المتظاهرين فوراً ، وجاء ذلك اللوم من أناس لا يدركون أن إطلاق النار على طلاب المدارس الصغار يقدم خدمة جليلة للمهيجين السياسيين تفوق ما يترتب على تقديم عدد من « الشهداء » الشباب خدمة للقضية . والحقيقة الثابتة أنه لم يكن هناك « وقت مناسب » لإطلاق النار . وأعلم أنني ألام لأنني لم أمسك زمام الأمور بيدى بدلاً من تركها لقائد الشرطة ، ولكنى أفضل أن أفقد كل ما أملك ولا أقبل مواجهة « عار » انتصارى . وتكفينى البرقية التى تلقيتها من وزير المستعمرات - ونشرتها الصحف - مئونة الرجوع إلى الوثائق الأخرى ، وجاء فيها : « أعرب لك ولجميع العاملين معك عن تقديرى للطريقة التى واجهتم بها وضعا بالغ الصعوبة » .

وبعد ذلك بخمس سنوات ذكر ما جرى فى فلسطين اللائمين بالصعوبات المتصلة بمثل تلك الأوضاع ، على ضوء الحجم النسبى للقوات التى استخدمت فى فلسطين بصفة مؤقتة أو دائمة ، وحجم الدمار والخسائر فى الأرواح ، وعدد الشهور التى مرت قبل وضع حد للاضطرابات .

وليس من السهل أن أكتب عن شهورى الأخيرة بالجزيرة ، فبعد خمس سنوات من الجهود التى بذلتها لوضع قبرص على الخريطة ، لم يشعر أحد بمثل ما شعرت به من عدم الارتياح لوصولها إلى الحضيض ، وخلال قمع الشغب كان لايزال هناك مجال للتفكير فى الخسائر الشخصية ، وعندما ينتهى التوتر يصبح واضحًا أن كل شىء قد ضاع : خلفية الحياة ، والبيئة ، والماضى .

كانت قيمة الأشياء التى فقدتها - بمجرد اختفائها - قد رفعتها الشائعات إلى مرتبة « المجموعة » . لقد اشتريت بعض التحف لأمتع بها ناظرى ، وبعض ما كان لدىَّ من التحف كان بديعًا وجميلاً . وهذه « المجموعة » كونتها على مدى سنوات من الاهتمام والمعرفة بالعربية على حساب حرمان نفسى من بعض متع الحياة الضرورية ، وكانت متنوعة تضم : قطعة أو اثنتين من تماثيل يونانية من الرخام ، ورأسًا رومانيا جميلاً من الرخام أيضًا ، وأيقونات بيزنطية ، وبعض الأطباق الرودسية ، ونقوشًا بدائية ، وبعض مطرزات بخارى ، وبعض قطع السجاد متوسط القيمة ، وأوانى

وصواني نحاسية عليها نقوش عبرية وأرمنية من القدس ، وصقرين خشبيين طويلين من مصر ، وصوراً نادرة للقدس ، و ١٥٠٠ كتاب بعضها من الكتب النادرة ، وحوالي ياردة مكعبة من أسطوانات الموسيقى وخاصة باخ . أضف إلى ذلك ، ما بين ٦٠ و ٧٠ خطابا تلقيتها من لورانس ولم أقم بحصرها ، ورسائل أخرى كثيرة من أنا دى نواى ، وبعض الرسائل من كرومر ، وكيتشنر ، وأللنبى ، وملنر ، وكيرزون ، وأمرى ، تقوم شاهدا على أن عملى قد راقهم أحيانًا ، وبعض الرسائل من ريموند إسكويث ، وموريس بارنج ، وجورج مور ، وكانت خطابات أمى مرتبة فى ملفات من ١٩٠٤ حتى ١٩٢٣ ، والكمان ماجينى الكبير الخاص بزوجتى .

وقد شكرت الأصدقاء – فى ذلك الوقت – على البرقيات وخطابات المواساة التى تلقيتها منهم من مختلف البلاد ، وأكرر الشكر لهم هنا . ولا شك أن برقية تهنئة على قدرتى على الحكم فى الموقف من رجل مثل جورج لويد لها مغزاها ، وحمل إلىّ بريد وزارة المستعمرات علبة صغيرة بداخلها تحفة من الصينى الأثرى الأخضر ، ومعها بطاقة تحمل التاج بها كلمة إهداء من صاحبة الجلالة « فلتبدأ بها مجموعة أخرى » .

بعدالقضاء على أعمال الشغب ، بقيت أربعة أمور تحتاج إلى علاج . فقد حدث اعتداء جسيم على الممتلكات فى مختلف أنحاء الجزيرة ، وكان من الظلم تعويضها من الموارد العامة للخزانة التى يتم جمع بعضها من الأتراك والمقيمين الإنجليز . وقد أثبتت الحوادث أن عمد القرى قد خلطوا بين السياسة وما يمليه عليهم واجب المحافظة على النظام واحترام القانون ، والتسجيل وجباية الضرائب ، وأن استخدام العلم اليونانى قد أدى إلى إثارة الاضطرابات . وأن أجراس الكنائس قد أسىء استخدامها لجمع الناس للمشاركة فى حوادث الشغب . ولعلاج ذلك صدر قانون نص على تعيين العمد من جانب الحكومة بدلاً من انتخاب أهالى القرية لهم ، وحظر رفع أى علم دون الحصول على ترخيص من الحكومة ، وألا يتم قرع أجراس الكنائس دون الحصول على إذن من مدير الشرطة .

ونص قانون التعويضات على أن يتم تعويض أو إصلاح الممتلكات التى تعرضت للتلف أو الدمار وتقدر بمبلغ ٣٤,٣٤٥ جنيهًا على حساب القرى والمدن المسئولة عن ذلك .

وأقيمت محاكم خاصة لمحاكمة المتهمين بارتكاب حوادث الشغب والعنف .

واعتبرت تلك الإجراءات « عقابية » من جانب أولئك الذين عجزوا عن تقديم حلول أخف وطأة لمواجهة ما قامت به الحكومة . حقا كان قانون حظر قرع الأجراس دون ترخيص يمنع الكنائس من دعوة الناس لقداس طارئ لمناسبة خاصة ، ولكن الحظر لم يشمل قرع الأجراس للدعوة للصلاة أو ضبط الوقت أو تذكير الطلاب بموعد المدارس ، وإن كانت الأجراس ظلت صامتة لعدة شهور فى خمس أو ست مدن ونحو ٢٥ ٪ من القرى .

وكان الامتناع عن قرع الأجراس عودة تاريخية أراد بها من نظموها تذكير القبارصة بأيام الحكم التركى ، عندما سكتت أجراس الكنائس تعبيراً عن الخضوع للحكام المسلمين ، والحق أن السند التاريخى للظاهرة يعود إلى توجيه كبيرالأساقفة الرسل إلى قسس كل الكنائس بالمدن والقرى ، بأمرهم بعدم قرع الأجراس عندما تريد الكنيسة الاحتجاج على ما تتعرض له من « اضطهاد ». وكان أحد رعاة الكنائس بليماسول قد قدم طلباً بالترخيص له بقرع أجراس كنيسته ثم عاد وسحب الطلب ؛ لأن الأسقف منع قرع أجراس جميع الكنائس احتجاجًا على القانون ، وقال إنه كتب إلى الأسقف راجياً إعفاءه من الالتزام بهذا القرار ؛ لأن القانون لا ينظر إليه فى ليماسول على أنه معاد للكنيسة ، وأن الناس يرون أن القانون جاء لتلبية حاجة ضرورية .

ترى .. ماذا كانت نتيجة هذه الحماقة البارعة التى ارتكبها اليونانيون ؟ حرم دبلوماسى ذكى شاب من الخدمة فى خُمس بلاد المعمورة . ونفى اثنان من الأساقفة لمدة لا يستطيع التسامح أن يضع حدا لها ، ومنع أعضاء المجلس التشريعى وأتباعهم من المشاركة فى إدارة أمور بلادهم بسبب بضع ساعات من التهور [٢] . وأثقل كاهل سكان المدن والقرى بقانون التعويضات عن حماقاتهم التى جعلتهم يدمرون ممتلكات بلادهم . وعانى المشاركون فى الشغب مرارة السجن نتيجة انصياعهم وراء المحرضين

(٢) كان المجلس قد رفض مشروعًا لبناء مقر جديد للحكومة بتكلفة قدرها ٢٥ ألف جنيه ، والمشروع المقدم الآن يتكلف أكثر من ضعف هذا المبلغ .

الذين كانوا أحق الناس بمعاناة السجن ، وأفاق دعاة الوحدة اليونانية من أحلامهم وعادوا القهقرى إلى نقطة البداية .

تأخر سقوط المطر على غير العادة عام ١٩٣١ ، وما لبث أن انتشرت قصة تروى فى الجزيرة كلها ، فقد ذهب فلاح إلى ضريح القديس أندرو ليتضرع من أجل استعادة بصره الكليل ، وظهر أمامه رجل مسن وقور قال بنبرات حزينة : « لقد حرقوا أيقونتى فى دار الحكومة » ، واختفى فجأة ، وعندها استرد الفلاح قدرته على الإبصار .. لقد شفاه القديس أندرو .

يقول المثل المصرى : « كل حركة فيها بركة » ، والبركة بالنسبة لمستقبل حكومة قبرص واضحة للعيان ، فلو تمت الاستجابة إلى طلباتى الثلاثة : نقل الحامية إلى نيقوسيا (تقدمت به عام ١٩٢٧) ، وتعديل الدستور (اقترحته فى ١٩٢٩ و١٩٣٠) ، وإبعاد القنصل اليونانى ، لما وقعت أى اضطرابات ، وسوف يتمتع حكام قبرص مستقبلا - بسبب الاضطرابات - بالضوابط والضمانات التى طالبت بها على مدى خمس سنوات من التطور السلمى للجزيرة . وقد تم طرد القنصل اليونانى، وألغى المجلس التشريعى ، ونقلت الحامية إلى نيقوسيا ، وأصبحت الدعوة إلى «الوحدة اليونانية» خروجا على القانون ، ولم يعد العلم البريطانى يعانى مزاحمة الأعلام الأجنبية له ، وأصبحت أجراس الكنائس تدق لأداء واجبها الدينى .

* * *

قبلت فى ربيع عام ١٩٣٢ العرض الذى قدم لى للعمل حاكمًا لروديسيا الشمالية ، فغادرنا قبرص فى يونيو ، ورغم التوتر القائم ، طلب بعض اليونانيين توديعى ، فعلها البعض علنا ، والبعض الآخر فعلها تحت جنح الظلام حتى لا يوصم بالخيانة . وجاء كبير الأساقفة لوداعى قبل سفرى بيوم واحد ، وكان منصفًا عندما قال لى إننى أبديت اهتمامًا كبيرًا بالمستعمرة وحولت ذلك إلى أفعال . وفى مساء نفس اليوم جاء أحد المحرضين السابقين ليصافح « الحاكم الذى عانى الكثير وفعل الكثير من أجل قبرص أكثر مما فعله من سبقوه » . وأبرق إلينا عمدة نيقوسيا عند وصولنا لارناكا متمنيا لنا « حظًا سعيدًا » ، وأن يظل اهتمامك بقبرص والقبارصة - الذى نقدره

– مستمراً » . ولا شك فى ذلك ، فمن يتنكر للغالبية التى ظلت علاقتها ممتازة به ، وربطتها به علاقة صداقة حميمة على مدى خمس سنوات ونصف السنة قضاها فى خدمة ذلك البلد وأهله ، رغم كل ما حدث ، ولا يظل لديه الرغبة فى خدمتهم ؟ إننى حريص على التشيع للهللينية والقبرصية معًا ، وهو ما ذكرته لكبير الأساقفة ، فمحبتى لذلك الشعب خفيف الظل لا تقل عن محبتى لهذه الجزيرة الرومانسية .

ورغم أننى لم أختر المسار الذى اتخذته الأحداث التى كانت – دون شك – على غير ما أريد ، فإننى لم أكن لأستطيع تحقيق ما فعلت إلا لكونى حاكم قبرص ، ومن أجل مصلحة قبرص باعتبارها مستعمرة بريطانية . وأعتقد أن الأسباب التى دعتنى إلى احتواء الأزمة بطريقة أو بأخرى ، سوف تعد – يومًا ما – بغيضة ، ولكنى أعتقد – أيضًا – أن حماسى لقبرص لم يقل عمن سبقونى فى حكمها ، وأعلم أننى تركت لخلفائى وضعًا أكثر وضوحًا وانتظامًا من ذلك الذى ورثته عمن سبقونى فى الحكم . وقد تعد هذه النماذج لتطور قبرص ، وما واجهته من صعوبات فيما بين ١٩٢٦ – ١٩٣١ غير مقبولة عند من يهمهم تعقيدات حكومة مستعمرة التاج ؛ لأن مجالها – ومجال اضطراباتها – كان محدودًا ، غير أن الأمور وما اتصل بها من مشكلات لم تكن أقل حجمًا مما هى عليه فى المستعمرات الأكبر مسَاحة .

خاتمـــــــة

إن التغيرات فى الفكر والعادات التى شهدتها إنجلترا على مدى الأعوام الثلاثين التى عشتها خارجها (وهى تزيد كثيراً على نصف عمرى) تجعلنى بمعزل عنها أكثر من غيرى ممن كانوا على اتصال يومى بها ، يتابعون تحولاتها متابعة مستمرة . وقد ذكر المسيو بول كامبو – السفير الفرنسى فى لندن – أنه عاش فى إنجلترا ليشهد انتقال السلطة تماما من طبقة إلى أخرى دون إراقة نقطة واحدة من الدم ، وبالنسبة إلىَّ عندما أعود إلى الوطن ، وأنظر إلى الأمور نظرة السائح ، أجد أن أبرز ملامح حياتنا الحديثة هو عملية الاستيعاب الشاملة بسرعة كبيرة للحضارة المادية التى فرضها تفوق الولايات المتحدة بعد الحرب . ولا يوجد بلد فى العام زرته أو قرأت عنه يحظى بمستوى معيشة أكثر ارتفاعاً وأقل تكلفة (نسبيا) من بلادنا . ونتيجة لذلك التوزيع أرى أن عام ١٩٣٧ لا يشهد فرقًا كبيرًا فى الحصول على أساسيات الحياة بين العامل الإنجليزى العادى والأمير عضو الأسرة المالكة ، مقارنة بما كانت عليه الفروق عام ١٩٠٠ بين مدرس القريـــة وأعيان الريف . هذا التوسع النمطى يستند إلى الإنتاج الكبير والحرب والضرائب الاجتماعية والتوسع فى الضرائب المباشرة مع الإنقاص المستمر لقيمتها . لقد انتزعت المخترعات العصرية التفكير العام ، وتجاوز الازدواج السمعى والبصرى حدود الإبداع ، ونتج عن ذلك اتساع نطاق الرأى الذى يبشر بالأمان النسبى والتماثل الإيجابى .

ويسأل الشباب المتقدمون لمجالس التعيين المختلفة عما إذا كانت الوظيفة المعروضة توفر لهم معاشًا ، وعما إذا كانت توفر لهم متطلبات الزواج . وهى مواقف أكثر ملاءمة للحفاظ على جمهورية صغيرة منها للمحافظة على إمبراطورية عظمى . إن ثقافة الجمال أوجدت بيئة أكثر جمالاً ، ولكنها قضت على الجمال الفردى . وبلغ تأثير الإعلان حدًا كبيراً ، فمنــظر رجـل الدين وهو يعـبئ غليونه بنوع معـين من التبغ ، أو منظر السياسى الشهير يركب سيارة معينة أو يسكن منزلاً معينًا ، يجذب الأنظار .

وكما أن رياح الحرب ، وضرائب الحرب قد أنقصت من ارتفاع قمم الثروة لتملأ وديانها ، فإن امتداد المنافع وانتشارها يؤدى – على ما يبدو – إلى ظهور نخبة من

المبرزين وذوى الشخصيات المتميزة . فما هى الشخصية العامة التى تستطيع أن تجذب الأنظار إليها بنظرة كتلك التى كانت لكيتشنر ؟

إن ثمة مزاجًا ميالاً للتوازن مستمرا فى بريطانيا لا يتغير ولا يتبدل ، يتمثل فى النبذ التقليدى للتطرف ، مازال ماثلاً فى نظرة الشعب الانجليزى للعالم . ولا يوجد بلد آخر فى العالم لا تجد فيه الشيوعية ما تتغذى عليه ، ولا تجد فيه الشمولية الفاشية ما تستند إليه ، سوى إنجلترا . إن ما يشاع عن تدفق الذهب إلى إنجلترا ، مسألة لا تدعو للأسف من الناحية الأخلاقية ، فليست لها نتائج سياسية ، وليست نوعًا من الرشوة ، ولكنها - إن صحت - تسوية لديون ومعاملات أخرى مع دولة عظمى ، فلا تأثير لذلك على المثقفين ، ولا صلة له بالدعاية ، على نحو ما تشهده بلدان أوروبا ، فقد نجت بريطانيا من ذلك التوتر والنظرات الزائغة التى تعانى منها بلاد أوروبا .

وعندما أمعن النظر فى الماضى بذهن خال من الطموح الوظيفى ، أعترف أننى حتى سن الخمسين كنت محظوظًا لخدمتى لرجال عظماء وللمهام التى أسندوها إلىّ . لقد توفى معظمهم ، ومن بقى منهم على قيد الحياة لم يعد بالسلطة . وأرى أن نقص الاستمرارية فى الإدارة الحكومية زودنى بنظرة واسعة تجاوزت الأفق الشخصى والوظيفى ، كما تنوع أدائى العملى كمًا ونوعًا ، بما يتجاوز نطاق الموظف المدنى ، طالما تمتعت بثقة وتفهم وتقدير رئيسى . إن عملى تحت رئاسة كرومر وجورست وكيتشنر واللنبى ، وصلتى برجال من أمثال هارى كست ، ولورانس ، قدمت لى رؤية صافية أعانتنى على أن أرى بوضوح طريق النجاح الذى لايتحقق على حساب الاعتبارات الثقافية أو الروحية .

ترى ... هل لازمنى الحظ حتى سن الخمسين ؟ مازلت محظوظًا من بعض النواحى ، رغم أننى فقدت الصحة ، إلا أننى تمكنت من استعادة بعضها ، وإذا كان شعرى قد نحل ، فإن المجال اتسع لأعمال أخرى . وما جرى فى قبرص يعود إلى اهتمامى الزائد به . ومازلت أتخيل كل كتاب فى موضعه وأنا مغمض العينين ، وأرى انعكاس الضوء على التمثال اليونانى الرخامى ، إلى غير ذلك مما فقدته هناك ، مما يعنى أن الكثير مما يهمنى مازال يعيش معى .. وداخلى .

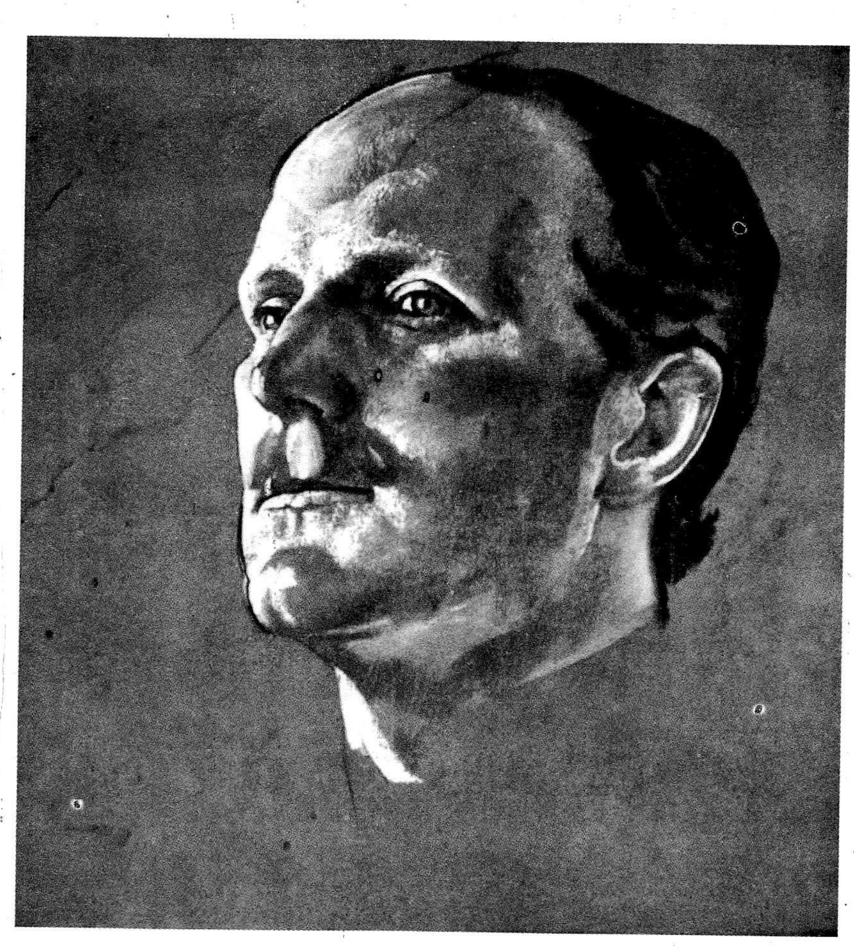
إن مرور الأشياء الثمينة الملموسة ، ومجيء السنوات الأخيرة من العمر يذكرني بالموجودات التي تعتمد عليها حياتي الباقية ، مثل الكتب والألوان المائية وإحياء الفن الفيكتوري . وإلى جانب ذلك أشياء صغيرة مثل لعب الورق والجولف والرماية وركوب الخيل ، والتدخين ، والتمتع بالشراب ، وارتياد المطاعم ذات الفرق الموسقية ، وركوب السيارات السريعة لمسافات طويلة ، والمؤمنين المتحمسين لأي قضية أو دين .

ومازال عندي حلم لم يتحقق بعد ، هو امتلاك بيت ريفي صغير بحديقة وملعب للتنس في الريف الإنجليزي الهادئ ، ويبدو هذا الحلم أمامي كسراب ، تخيلت صورته في ذهني لسـنوات . وتتوق نفسي إلى التعلق بالآمال التي لدى القدرة على التعلق بها، وخاصة التعلق بالقوة الخالدة التي تتحرك بها روح الفرد . قد ترتفع حقا مع الترجمة الذاتية لويلز مقتنعين بأن جوهر الحياة هو العلوم الطبيعية ، ولكني لم أر خلال الحرب رجلاً ينعش روحه بقراءة نظرية علمية أو حل مسألة رياضية ، بينما كان هناك الكثير إلى جانب لورانس الذين ينسون همومهم مع الأدب الكلاسيكي . ولكن هذه المتعة لا تتمثل فقط في التخفيف من توتر المعركة ، بل هناك متاعب أعمق أثرًا من الحروب مثل انعكاس الحظ الذي قد لا يكون المرء أكثر استحقاقًا له من السعادة الغامرة التي تهبط عليه دون توقع ، مثل تلك المفاجآت المأساوية التي رأيناها أخيرًا في حياة الأمم والإمبراطوريات ، أكثر من وقعها عند الأفراد . فالأوضاع والأحداث قاسية في غبنها حتى إن الذهن لا يكاد يذكر احتجاجًا ، فلا يستطيع المرء أن يشكو إذا واجهه نور الحقيقة .. تلك فترات غير محددة من الزمن يمر بها العالم المنخرط في عمله ، الذي يرقد باردًا وراء ابتسامة لجمجمة معلقة في فراغ هلامي . فالمنافق المريض يصر على رؤية الأشياء التي تشبهه . ويسعد البعض في لحظات الإيمان لتلك الرؤى التي يراها وسط الظلام على ضوء شعاع مصباح المذبح . وبالنسبة للآخرين يبدو ذلك الضوء متوهجًا متذبذبًا كضوء الشعلة في الريح والمطر .

غير أن الطمأنينة عند أولئك الذين لا يشعرون بالسعادة أقرب من حبل الوريد ، ولن يعيدونها من أعماق قلوبهم بالروح والحق ، أسهل منالاً وأكثر تألقًا مع مرور السنين . وبالنسبة لي فإن أولئك كانوا وسيظلون ممثلين في : هوميروس ودانتي وشكسبير والإنجيل الإنجليزي ومعهم صوت أورج ضخم متعدد النغمات ، وما يقابلهم

فى البعد الآخر ، امتداد الماضى واستشراف المستقبل . وأمام هذا التماهى بين اللـه والإنسـان ، أود أن أكـرر دعـاء رجل مسلم عاش فى البصرة قبل ألف عام : « اللهـم إذا عبـدتك خشية النار فـاحرقنى بها ، وإذا عبدتك طمعًا فى الجنة فاحرمنى منها ، أما إذا كنت أعبدك لوجهك الكريم ، فلا تحرمنى من جمالك الأبدى » .

ومع ذلك ياربـى ، أنطقـها وأنـا أتـذكر مـا حظيت به من متع ، ومـا عـانيت من أسى ، دون اعتراض ، مع عرفانى بما أسبغت من نعمة السعادة على بيتى .

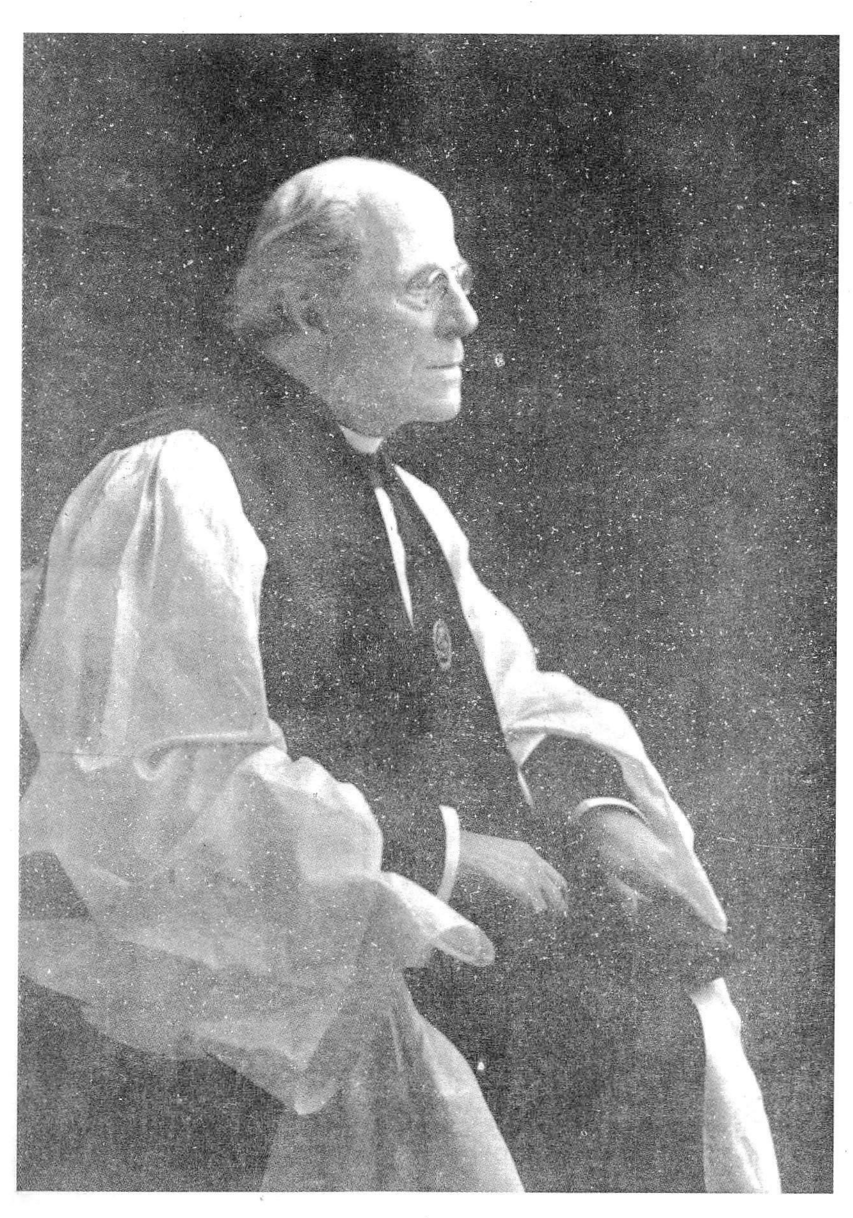


المؤلف

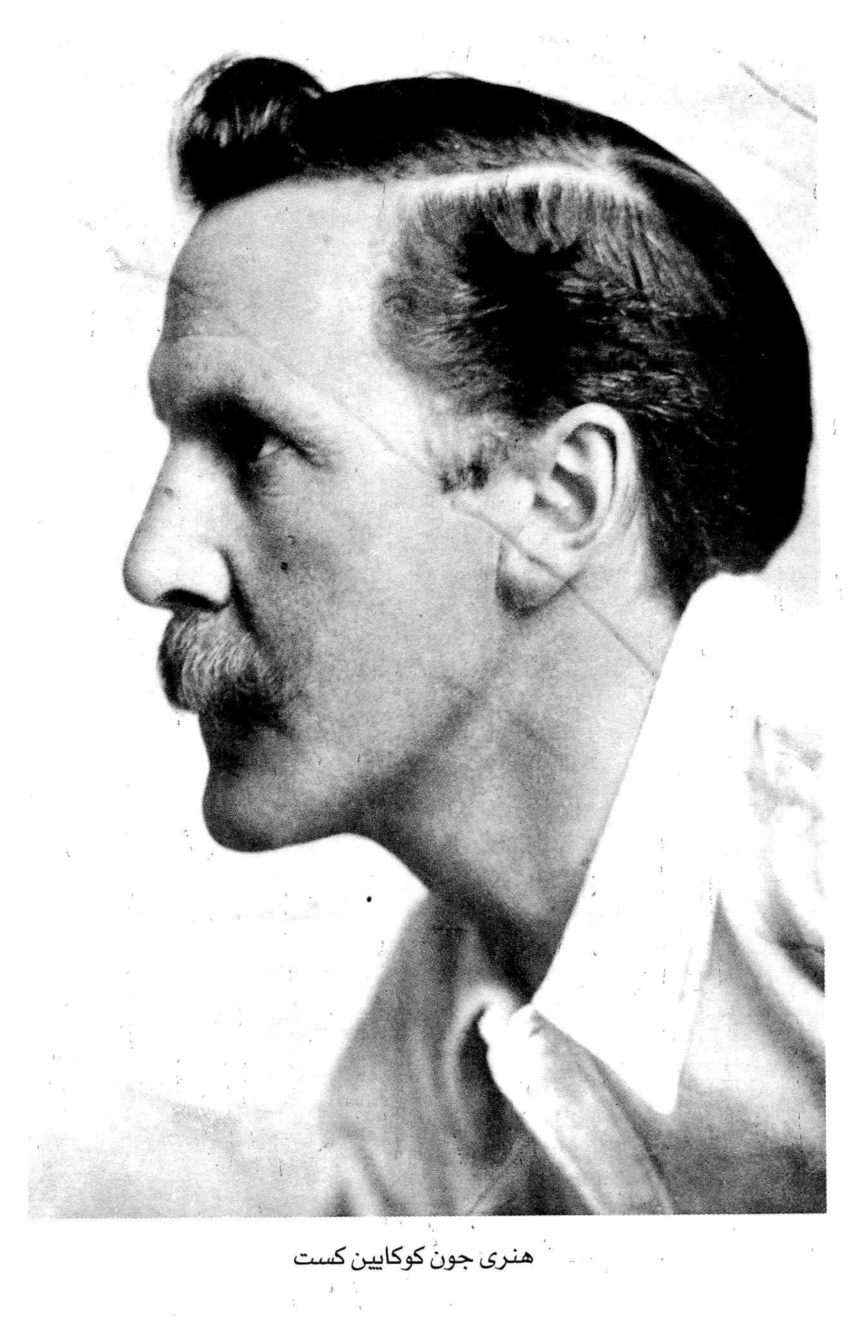
(من رسم للفنان إريك كينيجتون فى «أعمدة الحكمة السبعة»)



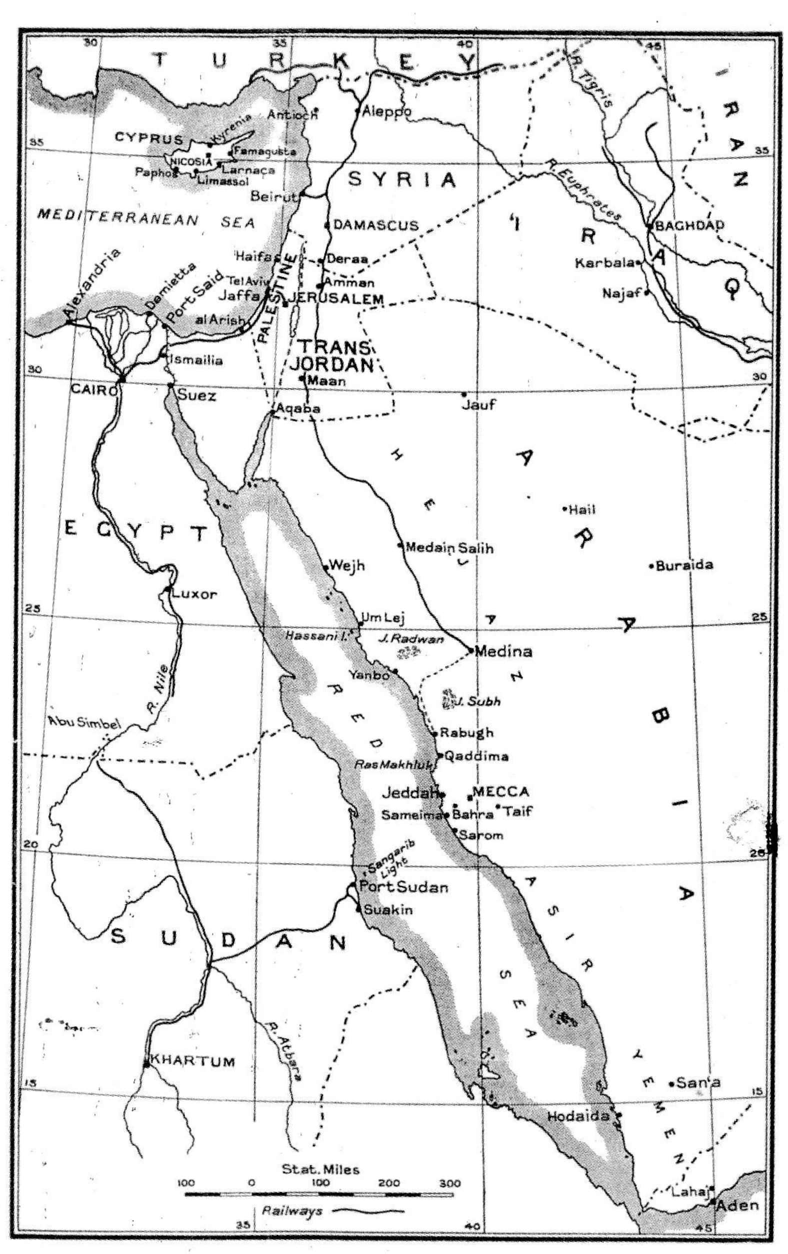
لورانس العرب
(تمثال برونزى من صنع الفنان إريك كينينجتون فى سرداب كاتدرائية سان بول)



جون ستورس ، عميد روشستر



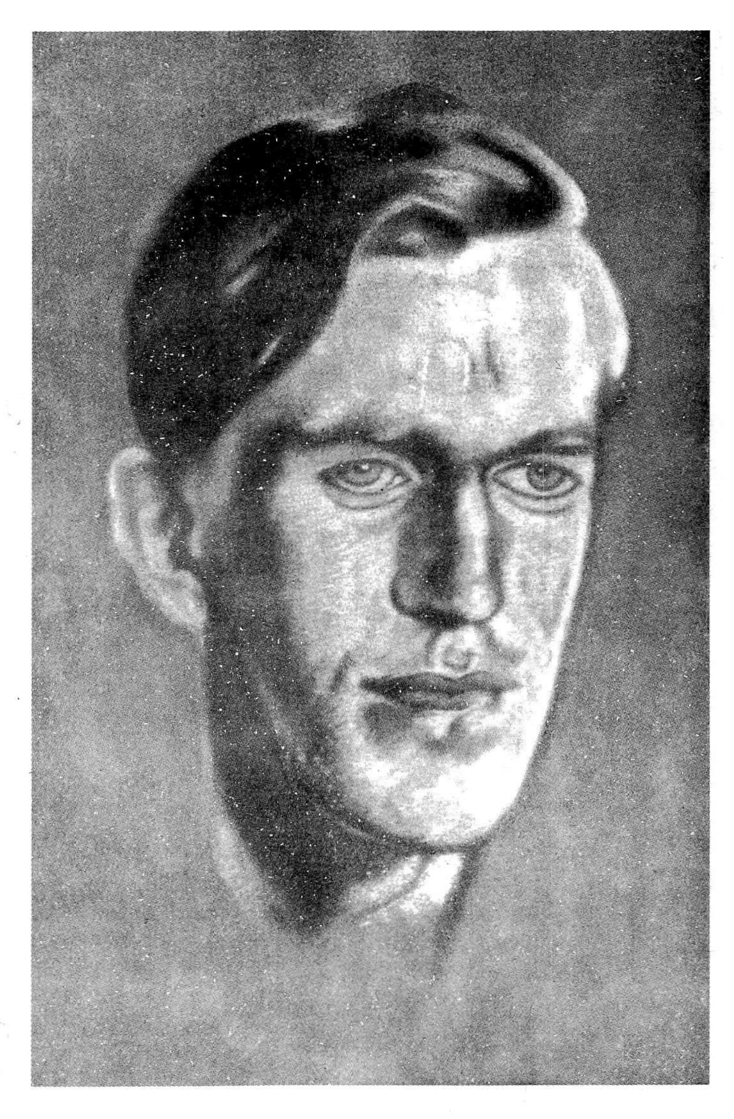
هنری جون کوکایین کست



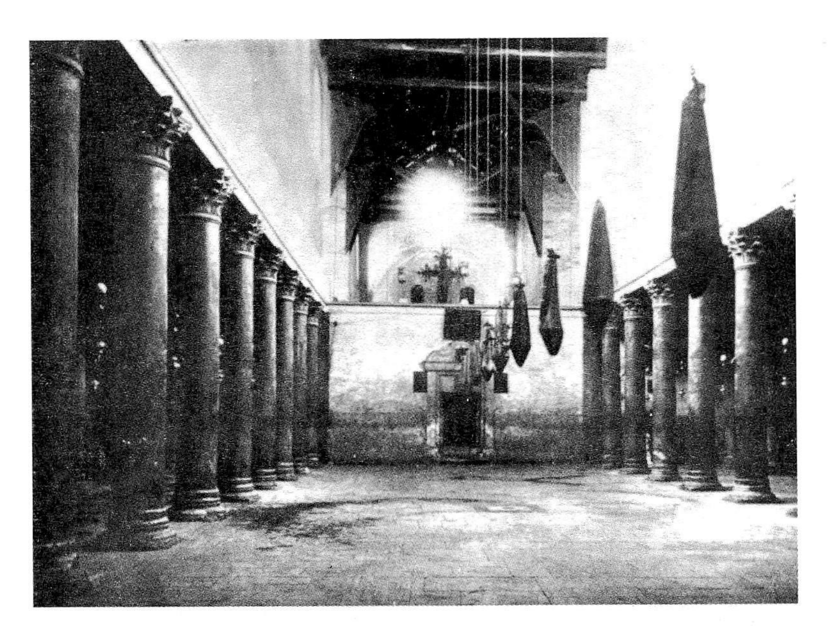
شرق المتوسط والبحر الأحمر (مع إشارة خاصة للفصل التاسع)



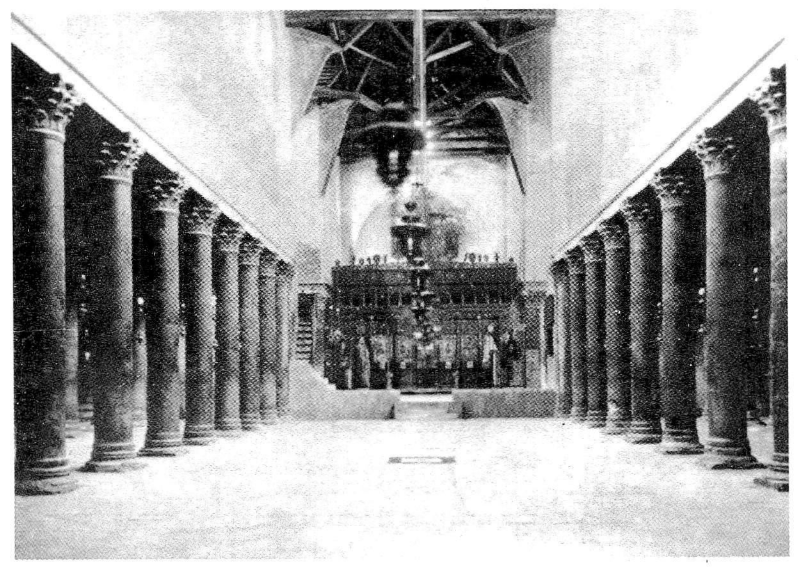
المؤلف مع الملك حسين فى جدة
١٢ ديسمبر ١٩١٦



تى . إى . لورانس
(من رسم غير منشور للفنان إريك كينينجتون بكلية «أوول سولز» أكسفورد)



حائط القرن ١٩ الذى كان يقف فى مدخل كنيسة المهد حتى ١٩١٨



منظر آخر من كنيسة المهد (١٩١٨)

№ 34

PUBLIC NOTICE

No person shall demolish, erect, alter, or repair the structure of any building in the City of Jerusalem or its environs within a radius of 2500 metres from the Damascus Gate (Bab-al-Amud) until he has obtained a written permit from the Military Governor.

Any person contravening the orders contained in this proclamation, or any term or terms contained in a license issued to him under this proclamation will be liable upon conviction to a fine not exceeding L. Eg. 200.

R. STORRS
Colonel
Military Governor.

Jerusalem, 8th April 1918

AVIS

Personne n'est autorisé à démolir, construire, changer ou modifier n'importe quel bâtiment dans sa structure à Jérusalem ou dans ses environs sur un rayon de 2500 mètres partant de la porte de Damas, (Bab-el-Amud) sans avoir obtenu un permis écrit du Gouverneur Militaire.

Toute personne contrevenant, soit aux ordres contenus dans cette proclamation, soit à la teneur du permis octroyé, s'exposera après condamnation, à une amende ne dépassant pas L. Eg. 200.

Le Gouverneur Militaire
R. STORRS
Colonel

Jérusalem, le 8 Avril 1918



إعلان

لا يجوز لاي شخص ان يهدم اي بناء كان في مدينة القدس او جوارها ضمن دائرة مساحتها ٢٥٠٠ متر ابتداء من باب العامود او ان يبني بناء جديدا او يغير هيئة البناء القديم او يصلحه قبل ان يحصل على رخصة خطية من سعادة الحاكم العسكري .

كل شخص يخالف هذه الاوامر او اي شرط من الشروط المحرره في الرخصه التي تعطى له طبقا لهذا الاعلان يعرض نفسه بعد محاكمته واثبات الجرم عليه الى جزاء لا يتجاوز المائتين جنيه .

الحاكم العسكري
الكولونيل
ستورس

القدس الشريف في ٨ نيسان سنة ١٩١٨

מודעה רשמית.

שום אדם לא יהרס, ישכלל, יחליף או יתקן תבנית כל בנין בירושלים או בסביבותיה בתוך קטר של 2500 מטר משער שכם (באב אל עמוד) עד שיקבל רשיון בכתב מהמושל הצבאי.

כל אדם אשר יעבר על הפקודות אשר במודעה הזאת או על אחד מסעיפי הרשיון אשר ינתן לו לפי האמור במודעה ז, עלול לקנס שלא יעלה על סכום של 200 לי"מ.

ירושלים 8 אפריל 1918.

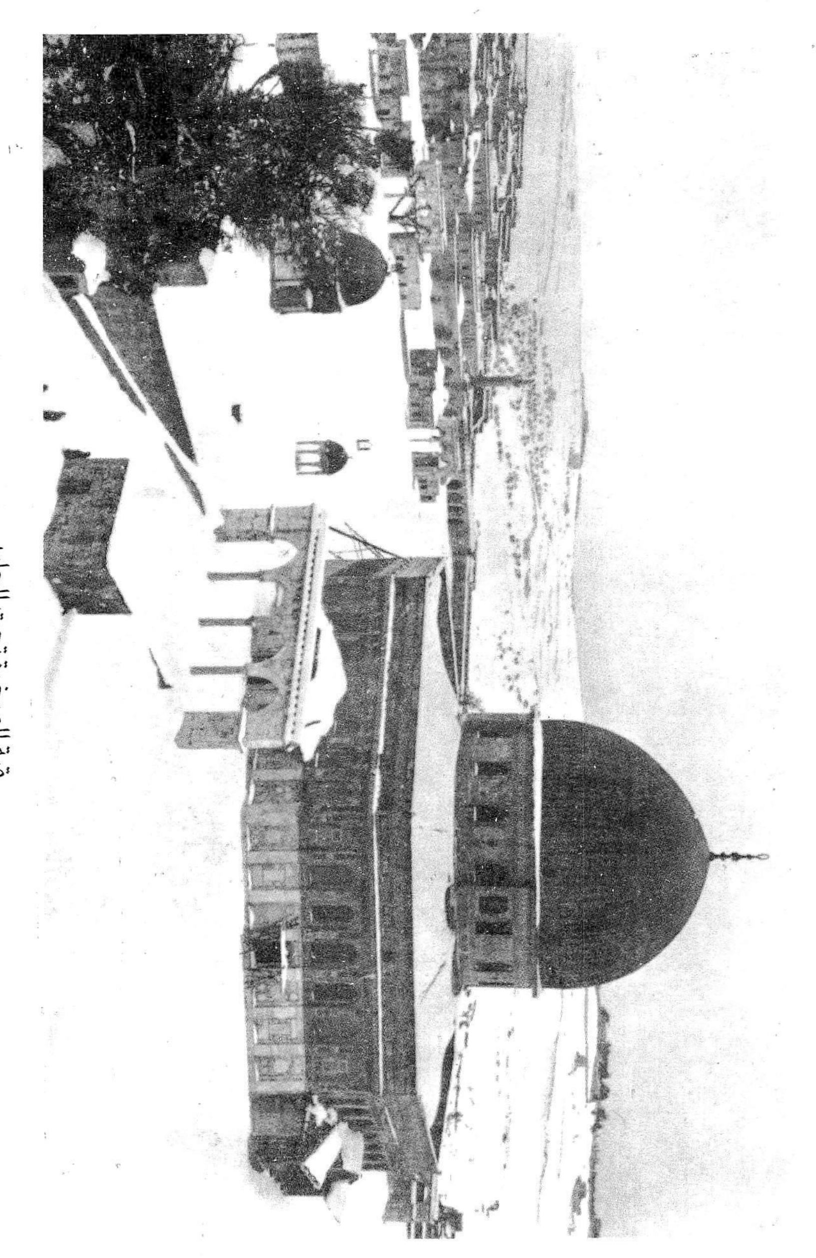
קולונל
ר. שטורס.
(המושל הצבאי)



الحروف من اليمين إلى اليسار هى : يود ، شين ، فاو ، والعين غير المنطوقة : يشوع .
(«يود» ، وهو أصغر حرف فى الألفباء الآرامية والعبرية ، تظهر فى الإنجليزية «جوت») ؟

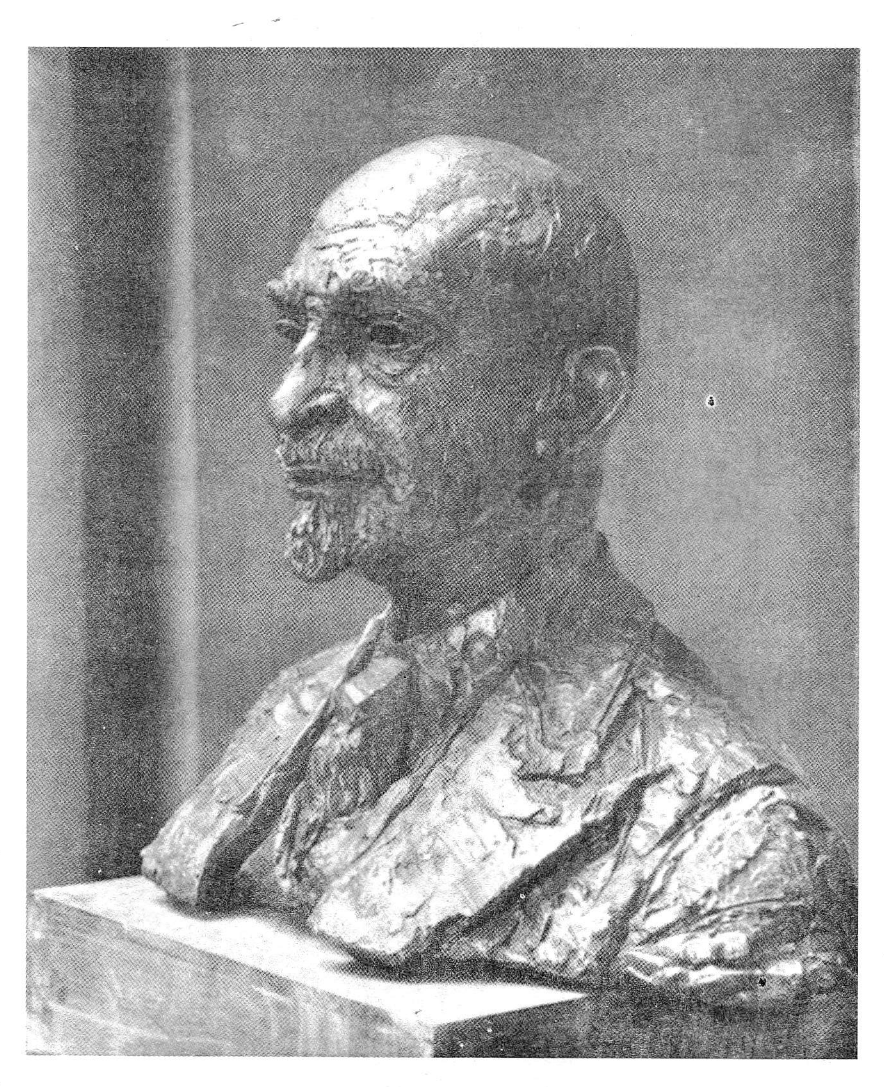


يافطة تحمل اسم شارع فى القدس



قبة الصخرة تحت الجليد

(من صورة التقطها البروفيسور أ. كريسويل)



د. حاييم وايزمان
(تمثال برونزى من صنع الفنان جاكوب إبستاين)

Bridlington

25.2.35

No: I won't; Forewords are septic things, and I hope never to do another. Bertram Thomas was like the importunate woman; but to strangers it is easy to say "No": he must understand that he has no claim on me: nor do I even know what he has written, or why, or who he is. No, most certainly No.

Yours

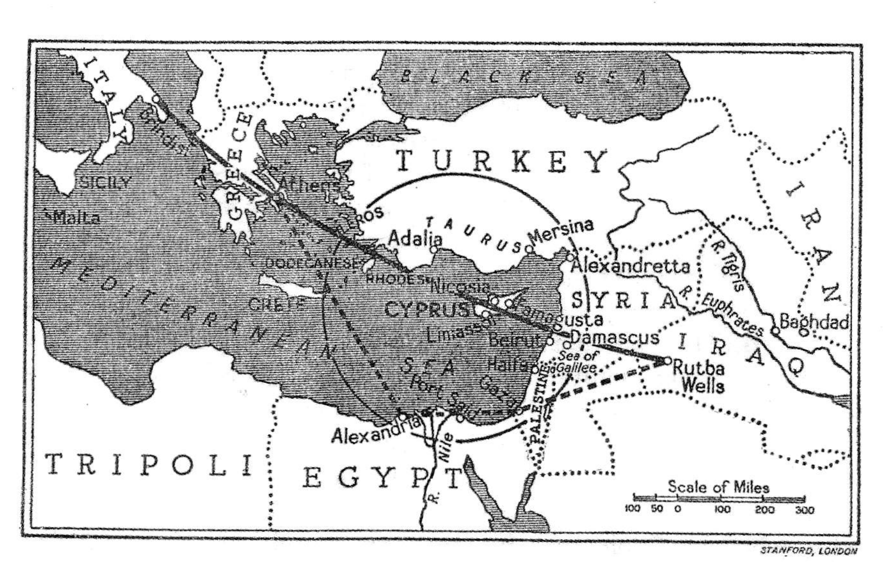
TES

I leave here tomorrow a.m. ... and the R.A.F. that same moment [illegible]

فاكس لرسالة من تي . إي . لورانس



المؤلف



مجال عمل قوات الحلفاء فى شرق المتوسط



أختامى العبرية والعربية
بوصفى الحاكم العسكرى





عملة قبرص
فى القرن ١٦



مؤسسة المدرسة الروائية

العثورعلى جسد
القديس بارنابوس



خريطة من القرون الوسطى



أسلحة الحاكم

أحد باكورة
الأضرحة الإسلامية



دير من القرن ١٤

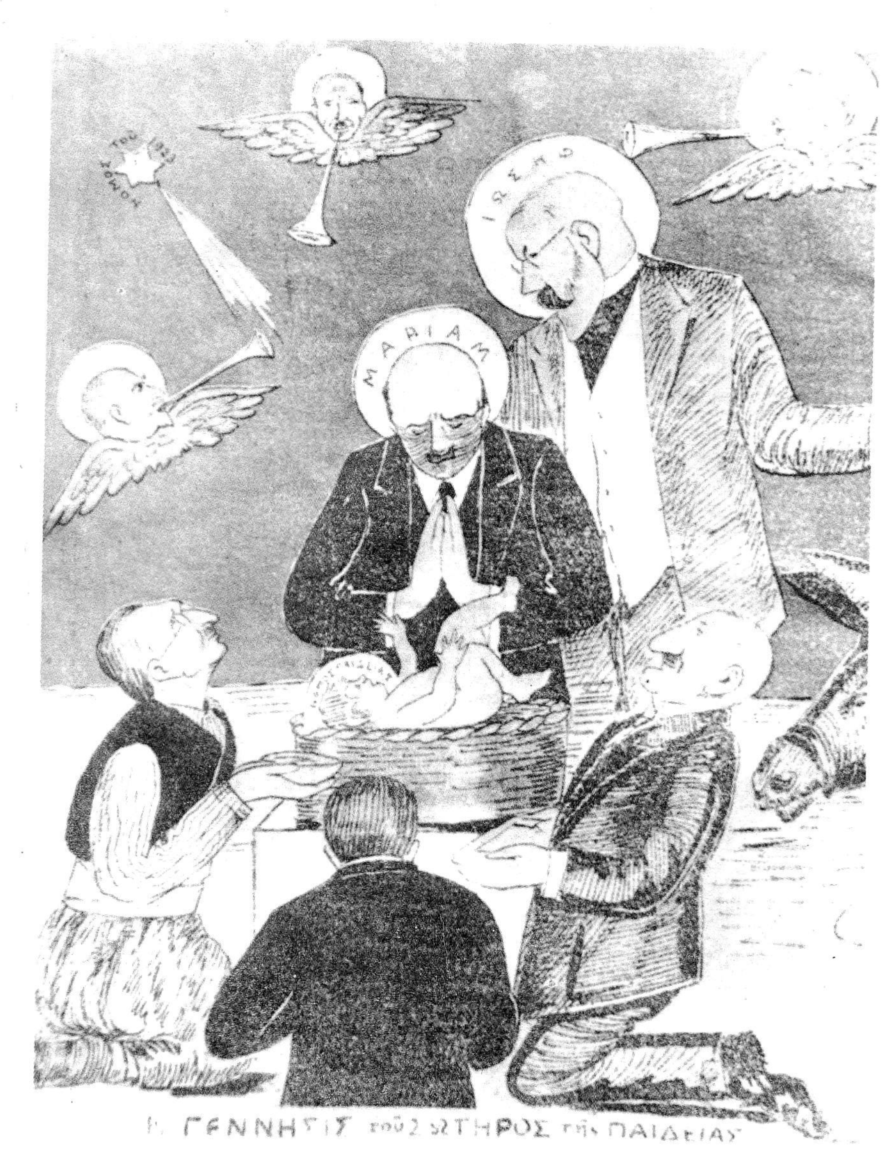


فن العمارة القوطية



تمثال برونزى خارج
مجلس اللوردات

يوبيل قبرص ، ١٨٧٨-١٩٢٨



ميلاد مُخلِص التعليم

المؤلف فى سطور

السير رونالد ستورس

عمل سكرتيراً شرقيًا بدار المعتمد البريطانى والمندوب السامى البريطانى بالقاهرة (١٩٠٨ - ١٩١٧) ، وحاكمًا عامًا للقدس (١٩١٧ - ١٩٢١) ، ثم حاكمًا عامًا لقبرص .

والكتاب يمثل مذكراته الشخصية عن فترة خدمته بمصر وفلسطين وقبرص .

المترجم فى سطور

رءوف عباس حامد

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة القاهرة .

له مؤلفات عديدة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر .

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومــى للترجمــة مشـروع تنميــة ثقافيــة بالدرجـــة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التـوازن بين المعـارف الإنسـانيـة فى المجـالات العلمـيـة والفنيـة والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١	اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣	التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥	الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	ت: بإشراف أحمد عتمان
١٧	مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨	رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنة
٢٩	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢	الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤	الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥	الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
٣٦	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم

٣٨	نقد الحداثة	ألن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩	الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠	قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢	عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥	التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢	لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤	برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧	مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
٧٢	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣	نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش

٧٦	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣	مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦	طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧	نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠	وسم السيف	ميجل دى ثرباتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوامريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد عبد اللطيف
٩٦	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٩٩	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣	قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤	أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣	راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان

١١٤	مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت بإشراف: رءوف عباس
١٢٠	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١	الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيئل ألكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤	الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥	التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحة الخولى
١٢٦	فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧	إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١	مصر القيمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣	الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦	فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق -
١٣٧	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩	پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان
١٤٥	موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦	الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبدالرءوف البمبى
١٤٧	خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم منوفى
١٤٩	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى

١٥٣	غرام الفراعنة	فيولين فاتويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧	خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩	الإيديولوچية	ديڤيد هوكس	ت: إبراهيم فتحى
١٦٠	آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت: حسين بيومى
١٦١	من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣	موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤	شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت: نبيل سعد
١٦٥	حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت: سهير المصادفة
١٦٦	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت: محمد محمود أبو غدير
١٦٧	فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت: شكرى محمد عياد
١٦٨	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت: شكرى محمد عياد
١٦٩	إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت: شكرى محمد عياد
١٧٠	الطريق	ميغيل دليبيس	ت: بسام ياسين رشيد
١٧١	وضع حد	فرانك بيجو	ت: هدى حسين
١٧٢	حجر الشمس	مختارات	ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤	صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت: أحمد محمود
١٧٥	التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
١٧٧	أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧٨	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩	حكايات أيسوب	أيسوب	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠	قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١	النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت: محمد يحيى
١٨٢	العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت: ياسين طه حافظ
١٨٣	چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت: فتحى العشرى
١٨٤	القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت: دسوقى سعيد
١٨٥	أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧	الأرضة	بُزرج علوى	ت:محمد علاء الدين منصور
١٨٨	موت الأدب	الفين كرنان	ت:بدر الديب
١٨٩	العمى والبصيرة	پول دى مان	ت:سعيد الغانمى
١٩٠	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجانى
١٩١	الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد

١٩٢	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	ت:محمود سلامة علاوى
١٩٣	عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
١٩٤	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥	شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
١٩٦	المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت:أشرف الصباغ
١٩٧	الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨	الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	ت:إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت: جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠	ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت: فخرى لبيب
٢٠١	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٢٠٢	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧	ليل أفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا
٢٠٨	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠	مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت: محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢	قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧	مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	ت: نادية البنهاوى
٢١٨	لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	ت: على إبراهيم منوفى
٢١٩	بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠	الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام
٢٢٢	فرانز كافكا	رونالد جراى	ت: نسيم مجلى
٢٢٣	العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت: السيد محمد نفادى
٢٢٤	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت: منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥	حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت: السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت: طاهر محمد على البربرى
٢٢٧	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركى	ت: السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت:مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	ت: أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت: مصطفى إبراهيم فهمى

٢٣١	الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت: جمال عبدالرحمن
٢٣٢	ما بعد المعلومات	توم ستينر	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣	فكرة الاضمحلال	أرثر هومان	ت: طلعت الشايب
٢٣٤	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت: فؤاد محمد عكود
٢٣٥	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	ت: إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦	الولاية	ميشيل تود	ت: أحمد الطيب
٢٣٧	مصر أرض الوادى	روبين فيرين	ت: عنايات حسين طلعت
٢٣٨	العولة والتحرير	الانكتاد	ت: ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رايوخ	ت: نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١	فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ت: ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت: صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	ت: على عبدالروف اليمبى
٢٤٤	الغليان	لاورا إسكيبيل	ت: نادية جمال الدين محمد
٢٤٥	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت: توفيق على منصور
٢٤٦	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	ت: على إبراهيم منوفى
٢٤٧	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر إرمبريست	ت: محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨	حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت: عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩	لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت: رفعت سلام
٢٥٠	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت: ماجدة محسن أباظة
٢٥١	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردن مارشال	ت: بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت: على بدران
٢٥٣	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	ت: حسن بيومى
٢٥٤	الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥	أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦	ديكارت	ديف روبنسون وكريس جرات	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت: محمود سيد أحمد
٢٥٨	الغجر	سير أنجوس فريزر	ت: عُبادة كُحيلة
٢٥٩	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	اقلام مختلفة	ت: فاروجان كازانجيان
٢٦٠	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردن مارشال	ت بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢	مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت: محمد أبو العطا
٢٦٣	الكشف عن حافة الزمن	جون جريين	ت: على يوسف على
٢٦٤	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	ت: لويس عوض
٢٦٥	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت: لويس عوض
٢٦٦	مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت: عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧	فن الرواية	ميلان كونديرا	ت: بدر الدين عرودكى
٢٦٨	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	ت: إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	ت: صبرى محمد حسن

٢٧٠	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	ت: صبرى محمد حسن
٢٧١	الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	ت: شوقى جلال
٢٧٢	الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	ت: إبراهيم سلامة
٢٧٣	الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	ت: عنان الشهاوى
٢٧٤	السيدة باربارا	رومولو جلاجوس	ت: محمود على مكى
٢٧٥	ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت: ماهر شفيق فريد
٢٧٦	فنون السينما	فرانك جوتيران	ت: عبد القادر التلمسانى
٢٧٧	الچينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت: أحمد فوزى
٢٧٨	البدايات	إسحق عظيموف	ت: ظريف عبدالله
٢٧٩	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	ت: طلعت الشايب
٢٨٠	من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وأخرون	ت: سمير عبدالحميد
٢٨١	الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت: جلال الحفناوى
٢٨٢	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت: سمير حنا صادق
٢٨٣	السهل يحترق	خوان رولفو	ت: على البمبى
٢٨٤	هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت: أحمد عتمان
٢٨٥	رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت: سمير عبد الحميد
٢٨٦	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢٨٧	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	ت: محمد يحيى وأخرون
٢٨٨	الفن الروائى	ديفيد لودج	ت: ماهر البطوطى
٢٨٩	ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت: أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٢	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٣	مقدمة للأدب العربى	روجر ألن	ت: نخبة من المترجمين
٢٩٤	فن الشعر	بوالو	ت: رجاء ياقوت صالح
٢٩٥	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت: بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦	مكبث	وليم شكسبير	ت: محمد مصطفى بدوى
٢٩٧	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى	ت: ماجدة محمد أنور
٢٩٨	مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت: مصطفى حجازى السيد
٢٩٩	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت: هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	ت: جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	ت: جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢	فتجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣	بوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤	ماركس	ريوس	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥	الجلد	كروزيو مالابارته	ت: صلاح عبد الصبور
٣٠٦	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	ت: نبيل سعد
٣٠٧	الشعور	ديفيد بابينو	ت: محمود محمد أحمد
٣٠٨	علم الوراثة	ستيف جونز	ت: ممدوح عبد المنعم أحمد

٣٠٩	الذهن والمخ	أنجوس چيلاتى	ت: جمال الجزيرى
٣١٠	يونج	ناجى هيد	ت: محيى الدين محمد حسن
٣١١	مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت: فاطمة إسماعيل
٣١٢	روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت:أسعد حليم
٣١٣	أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت: عبدالله الجعيدى
٣١٤	الفن كعدم	جينس ميثيك	ت: هويدا السباعى
٣١٥	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت: كاميليا صبحى
٣١٦	محاكمة سقراط	أ.ف. ستون	ت: نسيم مجلى
٣١٧	بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	ت: أشرف الصباغ
٣١٨	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت: أشرف الصباغ
٣١٩	صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت: حسام نايل
٣٢٠	لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٢١	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	ت: نخبة من المترجمين
٣٢٢	وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	دبليو يوجين كليناور	ت: خالد مفلح حمزة
٣٢٣	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت: هانم سليمان
٣٢٤	اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت: محمود سلامة علاوى
٣٢٥	عالم الآثار	فيليب بوسان	ت: كرستين يوسف
٣٢٦	المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت: حسن صقر
٣٢٧	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	ت: توفيق على منصور
٣٢٨	يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت: عبد العزيز بقوش
٣٢٩	رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت: محمد عيد إبراهيم
٣٣٠	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت: سامى صلاح
٣٣١	عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت: سامية دياب
٣٣٢	القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	ت: على إبراهيم منوفى
٣٣٣	الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت: بكر عباس
٣٣٤	لقطات من المستقبل	آرثر.س كلارك	ت: مصطفى فهمى
٣٣٥	عصر الشك	ناتالى ساروت	ت: فتحى العشرى
٣٣٦	متون الأهرام	نصوص قديمة	ت: حسن صابر
٣٣٧	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٣٣٨	نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)	نخبة	ت: جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	على أصغر حكمت	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٤٠	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت: فخرى لبيب
٣٤١	قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت: حسن حلمى
٣٤٢	سلامان وأبسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	ت: عبد العزيز بقوش
٣٤٣	العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت: سمير عبد ربه
٣٤٤	الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت: سمير عبد ربه
٣٤٥	الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦	سحر مصر	رشاد رشدى	ت: جمال الجزيرى
٣٤٧	الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت: بكر الحلو

٢٤٨ المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١) — محمد فؤاد كوبريلى — ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩ دليل القارئ إلى الثقافة الجادة — أرثر والدرون وآخرون — ت: أحمد عمر شاهين
٢٥٠ بانوراما الحياة السياحية — أقلام مختلفة — ت: عطية شحاتة
٢٥١ مبادئ المنطق — جوزايا رويس — ت: أحمد الانصارى
٢٥٢ قصائد من كفافيس — قسطنطين كفافيس — ت: نعيم عطية
٢٥٣ الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية) — باسيليو بابون مالدوناند — ت: على إبراهيم منوفى
٢٥٤ الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية) — باسيليو بابون مالدوناند — ت: على إبراهيم منوفى
٢٥٥ التيارات السياسية فى إيران — حجت مرتضى — ت: محمود سلامة علاوى
٢٥٦ الميراث المر — بول سالم — ت: بدر الرفاعى
٢٥٧ متون هيرميس — نصوص قديمة — ت: عمر الفاروق عمر
٢٥٨ أمثال الهوسا العامية — نخبة — ت: مصطفى حجازى السيد
٢٥٩ محاورات بارمنيدس — أفلاطون — ت: حبيب الشارونى
٢٦٠ أنثروبولوجيا اللغة — أندريه جاكوب ونويلا باركان — ت: ليلى الشربينى
٢٦١ التصحر: التهديد والمجابهة — آلان جرينجر — ت: عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢ تلميذ بابنبيرج — هاينرش شبورال — ت: سيد أحمد فتح الله
٢٦٣ حركات التحرير الأفريقية — ريتشارد جيبسون — ت: صبرى محمد حسن
٢٦٤ حداثة شكسبير — إسماعيل سراج الدين — ت: نجلاء أبو عجاج
٢٦٥ سأم باريس — شارل بودلير — ت: محمد أحمد حمد
٢٦٦ نساء يركضن مع الذئاب — كلاريسا بنكولا — ت: مصطفى محمود محمد
٢٦٧ القلم الجرىء — نخبة — ت: البرّاق عبدالهادى رضا
٢٦٨ المصطلح السردى — جيرالد برنس — ت: عابد خزندار
٢٦٩ المرأة فى أدب نجيب محفوظ — فوزية العشماوى — ت: فوزية العشماوى
٢٧٠ الفن والحياة فى مصر الفرعونية — كليرلا لويت — ت: فاطمة عبدالله محمود
٢٧١ المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢) — محمد فؤاد كوبريلى — ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢ عاش الشباب — وانغ مينغ — ت: وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣ كيف تعد رسالة دكتوراه — أمبرتو إيكو — ت: على إبراهيم منوفى
٢٧٤ اليوم السادس — أندريه شديد — ت: حمادة إبراهيم
٢٧٥ الخلود — ميلان كونديرا — ت: خالد أبو اليزيد
٢٧٦ الغضب وأحلام السنين — نخبة — ت: إدوار الخراط
٢٧٧ تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤) — على أصغر حكمت — ت: محمد علاء الدين منصور
٢٧٨ المسافر — محمد إقبال — ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢٧٩ ملك فى الحديقة — سنيل باث — ت: جمال عبدالرحمن
٢٨٠ حديث عن الخسارة — جونتر جراس — ت: شيرين عبدالسلام
٢٨١ أساسيات اللغة — ر. ل. تراسك — ت: رانيا إبراهيم يوسف
٢٨٢ تاريخ طبرستان — بهاء الدين محمد إسفنديار — ت: أحمد محمد نادى
٢٨٣ هدية الحجاز — محمد إقبال — ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨٤ القصص التى يحكيها الأطفال — سوزان إنجيل — ت: إيزابيل كمال
٢٨٥ مشترى العشق — محمد على بهزادراد — ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢٨٦ دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى — جانيت تود — ت: ريهام حسين إبراهيم

٢٨٧ أغنيات وسوناتات	جون دن	ت: بهاء چاهين
٢٨٨ مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت: محمد علاء الدين منصور
٢٨٩ من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٩٠ الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت: عثمان مصطفى عثمان
٢٩١ الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت: منى الدروبى
٢٩٢ مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	ت: عبداللطيف عبدالحليم
٢٩٣ فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت: زينب محمود الخضيرى
٢٩٤ القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت: هاشم أحمد محمد
٢٩٥ آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت: سليم حمدان
٢٩٦ السافاك	تقى نجارى راد	ت: محمود سلامة علاوى
٢٩٧ نيتشه	لورانس جين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٨ سارتر	فيليب تودى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٩ كامى	ديفيد ميروفتس	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠ مومو	مشيائيل إنده	ت: باهر الجوهرى
٤٠١ الرياضيات	زيادون ساردر	ت: ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣ رية المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت: عماد حسن بكر
٤٠٤ تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت: ظبية خميس
٤٠٥ إيزابيل	أندريه جيد	ت: حمادة إبراهيم
٤٠٦ المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت: جمال عبد الرحمن
٤٠٧ الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت: طلعت شاهين
٤٠٨ معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت: عنان الشهاوى
٤٠٩ انتصار السعادة	برتراند راسل	ت: إلهامى عمارة
٤١٠ خلاصة القرن	كارل بوبر	ت: الزواوى بغورة
٤١١ همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت: أحمد مستجير
٤١٢ تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	ت: نخبة
٤١٣ أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت: محمد البخارى
٤١٤ الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت: أمل الصبان
٤١٥ صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت: أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦ مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت: مصطفى بدوى
٤١٧ تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨ سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت: عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ العصر الذهبى للإسكندرية	جون مايو	ت: نسيم مجلى
٤٢٠ مكرو ميجاس	فولتير	ت: الطيب بن رجب
٤٢١ الولاء والقيادة	روى متحدة	ت: أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	نخبة	ت: عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣ إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت: وحيد النقاش
٤٢٤ لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامى	ت: محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	ت: محمودد سلامة علاوى

٤٢٦ الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت: ثريا شلبى
٤٢٨ الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت: محمد أمان صافى
٤٢٩ هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠ كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١ فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢ ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣ جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت: حمدى الجابرى
٤٣٤ الرومانسية	دونكان هيث وجودن بورهام	ت: عصام حجازى
٤٣٥ توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت: ناجى رشوان
٤٣٦ تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧ رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت: عايدة سيف الدولة
٤٣٩ موت المرابى	صدر الدين عينى	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت: محمد طارق الشرقاوى
٤٤١ رب الأشياء الصغيرة	أرونداتى روى	ت: فخرى لبيب
٤٤٢ حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت: ماهر جويجاتى
٤٤٣ اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت: محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤ أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت: صالح علمانى
٤٤٥ حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت: محمد محمد يونس
٤٤٦ التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت: أحمد محمود
٤٤٧ نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨ علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩ الحركة النسائية	نخبة	ت: جمال الجزيرى
٤٥٠ ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	ت: جمال الجزيرى
٤٥١ الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناترى وأوسكار زاريت	ت: محيى الدين مزيد
٤٥٣ القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت: حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤ خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت: سوزان خليل
٤٥٥ تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	ت: محمود سيد أحمد
٤٥٦ لا تنسنى	مريم جعفرى	ت: هويدا عزت محمد
٤٥٧ النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨ الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت: جمال عبد الرحمن
٤٥٩ نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
٤٦٠ الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١ لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢ طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	ت: عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣ الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت: كمال السيد
٤٦٤ ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت: حصة إبراهيم المنيف

٤٦٥	قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت: جمال الرفاعى
٤٦٦	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت: فاطمة محمود
٤٦٧	التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ت: ربيع وهبة
٤٦٨	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٤٦٩	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت: مجدى عبدالرازق
٤٧٠	الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت: محمد السيد النتة
٤٧١	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	نخبة	ت: عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٣	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٤	الأدب والنسوية	بام موريس	ت: سهام عبدالسلام
٤٧٥	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت: عادل هلال عنانى
٤٧٦	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	ت: سحر توفيق
٤٧٧	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت: أشرف كيلانى
٤٧٨	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	ت: عبد العزيز حمدى
٤٧٩	المقهـــى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت: عبد العزيز حمدى
٤٨٠	تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت: عبد العزيز حمدى
٤٨١	عباءة النبى	روى متحدة	ت: رضوان السيد
٤٨٢	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت: فاطمة محمود
٤٨٣	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت: أحمد الشامى
٤٨٤	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	ت: رشيد بنحدو
٤٨٥	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت: عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩	هُسرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسرل	ت: محمود رجب
٤٩٠	أسمار الببغاء	محمد قادرى	ت: عبد الوهاب علوب
٤٩١	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	ت: سمير عبد ربه
٤٩٢	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت: محمد رفعت عواد
٤٩٣	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت: محمد صالح الضالع
٤٩٤	كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت: شريف الصيفى
٤٩٥	اللوبى	إدوارد تيفان	ت: حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	ت: نخبة
٤٩٧	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	ت: مصطفى رياض
٤٩٨	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	ت: أحمد على بدوى
٤٩٩	تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت: فيصل بن خضراء
٥٠٠	فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	ت: طلعت الشايب
٥٠١	تاريخ النساء فى الغرب	أرثر جولد هامر	ت: سحر فراج
٥٠٢	أصوات بديلة	هدى الصدّة	ت: هالة كمال
٥٠٣	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم

٥٠٤ كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	ت: إسماعيل المصدق
٥٠٥ كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	ت: إسماعيل المصدق
٥٠٦ ربما كان قديسًا	آن تيلر	ت: عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧ سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	ت: شوقى فهيم
٥٠٨ المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩ الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	آدم صبرة	ت: قاسم عبده قاسم
٥١٠ الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	ت: عبدالرازق عيد
٥١١ كوكب مرقّع	آن تيلر	ت: عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢ كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	ت: جمال عبد الناصر
٥١٣ العلم الجسور	تيد أنتون	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤ مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	ت: مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥ من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	ت: فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦ إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	ت: صبرى محمد حسن
٥١٧ نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	ت: سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨ استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	ت: هاشم أحمد محمد
٥١٩ محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٥٢٠ الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	ت: أمل الصبان
٥٢١ قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	ت: عبدالوهاب بكر
٥٢٢ إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	ت: على إبراهيم منوفى
٥٢٣ الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	ت: على إبراهيم منوفى
٥٢٤ الملك لير	وليم شكسبير	ت: محمد مصطفى بدوى
٥٢٥ موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	ت: نادية رفعت
٥٢٦ علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	ت: محيى الدين مزيد
٥٢٧ كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	ت: جمال الجزيرى
٥٢٨ تروتسكى والماركسية	طارق على وفِلْ إيفانز	ت: جمال الجزيرى
٥٢٩ بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	ت: حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠ مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	ت: عمر الفاروق عمر
٥٣١ ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	ت: صفاء فتحى
٥٣٢ المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	ت: بشير السباعى
٥٣٣ تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	ت: محمد الشرقاوى
٥٣٤ الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	ت: حمادة إبراهيم
٥٣٥ مخزن الأسرار	نظامى الكنجوى	ت: عبدالعزيز بقوش
٥٣٦ الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون	ت: شوقى جلال
٥٣٧ للحب والحرية	نخبة	ت: عبدالغفار مكاوى
٥٣٨ النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	ت: محمد الحديدى
٥٣٩ خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	ت: محسن مصيلحى
٥٤٠ توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	ت: رءوف عباس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩٧٧٠ / ٢٠٠٣